واشنطن ايرفنغ

أخبار سقوط غرناطة

ترجمة الدكتور

هلاني يحيى نصري



أخبار سقوط غرناطة

الدكتور
هاني يحيى نصري

A Chronicle of the Conquest of Granada

By:
Fray Antonio Agapida

Edited By:
Washington Irving

Transletd By
Dr. Hani Yahya Nasri



LONDON - BEIRUT
Email: arabdiffusion@yahoo.com.
P.o. Box: 113/5752 - Beirut

ISBN: 1 841170 27 5

First Published in 2000

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

المحتويات

الباب الثاني:

الباب الثالث:

الباب الرابع:

الباب الخامس:

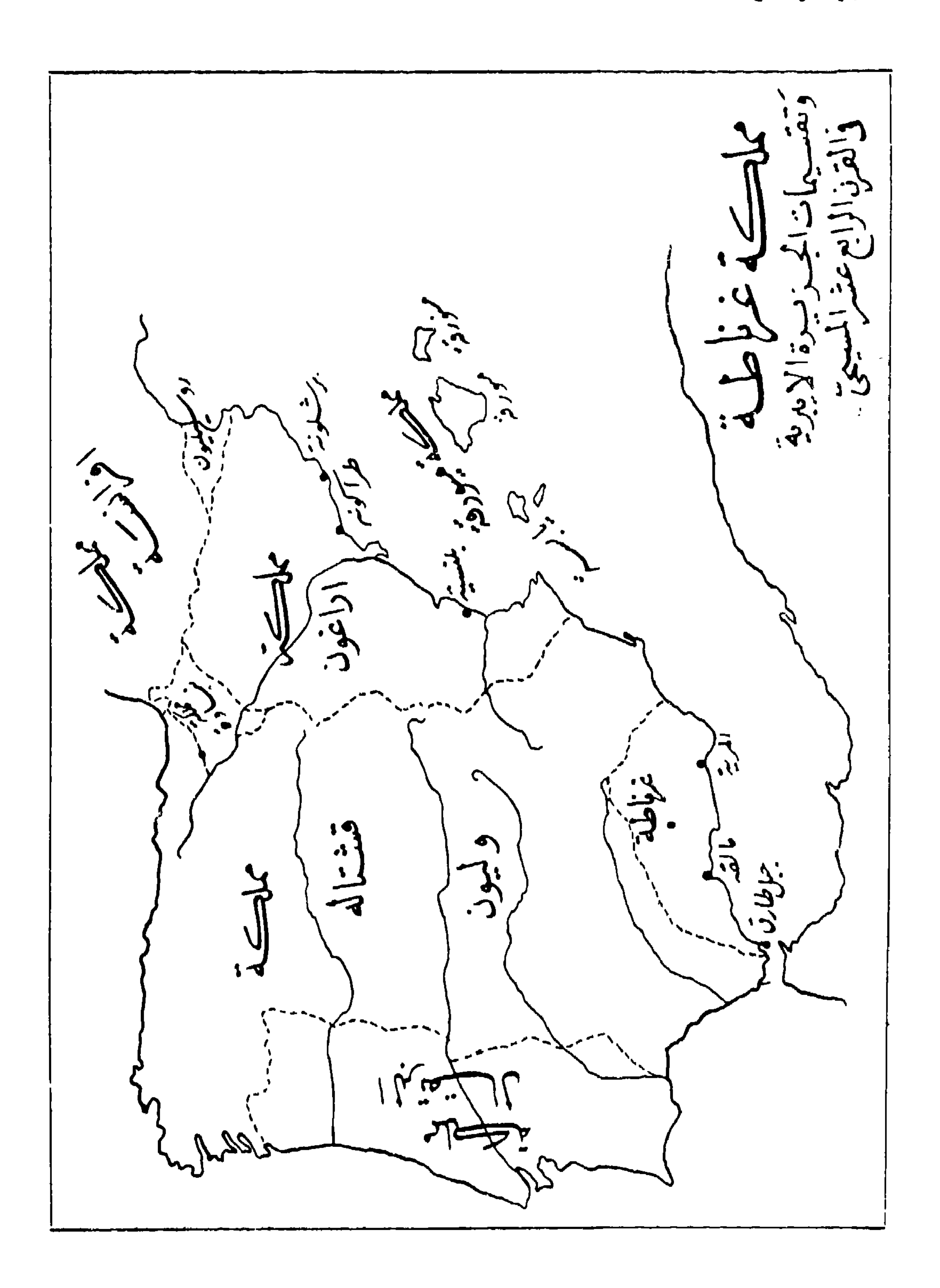
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

[البقرة: ١٥٢ ـ ١٥٧].

الإهداء

إلى «الحوش» و«البحرات» و«المرج»، أندلس أبي الضائع!!


مملكة غرناطة
وتقسيمات الجزيرة الإيبرية
غرناطة
قشتالة
وليون
الراغون
بلنسية
جبل طارق

رثاء الأندلس

النونية الشهيرة للعلامة خاتمة أدباء الأندلس صالح بن شريف الرندي المعروف بأبي البقاء الرندي:

لكل شيء إذا ما تمّ نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سرّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزّق الدهر حتماً كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
وأين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ماشاده شداد في ارم ... وأين ماساسه في الفرس ساسان
وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشدّاد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتلِهِ ... وأم كسرى فما آواه إيوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوماً ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر أنواع منوّعة ... وللزمان مسرّات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حلّ بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أُحُد وانهد ثهلان
أصابها العين في الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيّان
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كنَّ أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلاّ نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة ... إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغرّ المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله اخوان
ألا نفوس أبيات لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزّهم ... أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يارب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرّق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إذا كان في القلب إسلام وإيمان[1]

(١) شكيب أرسلان، **الحلل السندسية**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت عام ؟، ج٣، ص ٥٤٦ ـ ٥٤٨. وأنظر أيضاً: محمد الداية، **أبو البقاء الرندي**، مكتبة سعد الدين، بيروت عام ١٩٨٦ م، ص ١٤٣ ـ ١٤٨.

مقدمة المترجم الصائغ

الأنصار وفتح الأندلس:

منذ أن نزل «طارق بن زياد» مولى «موسى بن نصير» على جبل «Calpé» ـ الذي سمي باسمه بعد ذلك ـ عام «٩٢ هـ الموافق ٧١٢م» إلى الأول من كانون الثاني/يناير ١٤٩٢م حوالي سبعمئة وثمانون سنة، حكمت الجزيرة «الإيبيرية» التي كانت تسمى بالأندلس ـ نسبة إلى «الڤاندالس» الذين فتحوها قبل العرب، وأخذوها من الرومان ـ سلالات حجازية عربية، بدءاً من «موسى بن نصير» الحجازي من وادي «القرى» وابنه «عبد العزيز»، فعائلة «سعد بن عبادة» سيد الخزرج الصحابي الذي طمع بالخلافة بعد الرسول ﷺ ولم يبايع أبا بكر «رض»[1]، وقال قولته الشهيرة: «أمير منّا وأمير منكم»، والذي مات «بحوران»[2]، لتنكب عائلته في وقعة «الحرّة» ـ على يد «يزيد بن معاوية» ـ مع الأنصار الذين لم ينهضوا (قط من هذه الضربة القاتلة، فأمّحت قوتهم إلى الأبد، وبقيت مدينتهم فترة من الزمن مهجورة ـ و ـ .... مضت غالبية سكانها تنشد وطناً جديداً، ووضعاً أقلّ قسوة في أجواء مناسبة، فالتحقت بالجيش الأفريقي... ثم غادرت أفريقيا إلى اسبانيا، وهكذا فعل أغلب أبناء الأنصار القدامى في الجيش الذي عبر به «موسى» المضيق سنة «٧١٢ م»، واستقروا في اسبانيا، لاسيما في الولايات الشرقية والغربية، حيث أصبحت قبيلتهم أكبر القبائل عدداً هناك)[3].

ومن عائلة هذا الصحابي الكبير: (سعد بن عبادة الذي يرد اسمه مرتبطاً بأعظم الأسماء في تاريخ الشرق والغرب: محمد ﷺ وأبي بكر «رض» وشرلمارتل... خلف ذكرى مجيدة... ارتبطت على الدوام بالتعاسة، وقد بدأت هذه العائلة بسعد وختمت بأبي عبد الله «ببدول» اللذين تفصل بينهما حوالي ثمانية قرون من الزمان)[4]، أي من هذه العائلة الخزرجية ظهرت آخر دول الأنصار وأولها في الأندلس، فالدولة

---

(١) خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ط٣، ج٣، ص ١٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٥ أيضاً.

(٣) ر. دوزي، **تاريخ مسلمي اسبانيا**، وزارة الثقافة المصرية، دار المعارف، عام ١٩٦٣، ج١، ص ٧٣ - ٧٥.

(٤) المرجع السابق، ص ١٦٦.

الخزرجية ـ إذا صحّ التعبير ـ ظلّت حلم «بني عبادة» منذ أن اعتبر الرسول ﷺ في بيعة العقبة «سعداً» أحد النقباء الإثني عشر[1]، فما أن هزم «عبد الرحمن الغافقي» في «بواتييه» وقُتل هناك في معركة بلاط الشهداء، وتوقف الفتح بعد سنة «٧٣٢ م الموافق رمضان ١١٤ هـ» حتى قام الأنصار (فساقوا حكومة شبه الجزيرة إلى رجل من أبرز رجالاتهم هو: عبد الملك بن قطن الفهري، وكان قد حارب في صفوفهم منذ تسعة وأربعين سنة في وقعة «الحرّة»)[2]، فكان «عبد الملك الفهري» هذا أول مؤسسي دولة الأنصار، التي ظلّت عصبيتها في صراع على السلطة في الأندلس مع العصبيات العربية والبربرية فيها، إلى أن تمكن «الغالب النصري» من امتلاك «غرناطة» حوالي «١٢٣٨ م الموافق ٦٣٥ هـ» بعد أن ثار على آخر ملوك «بني هود» هناك[3]، ومن آخر سلالته كان «أبو عبد الله الشيكو أو الصغير» الملقب «ببدول» عند الغربيين، والذي سقطت معه «غرناطة» فالأندلس كلها، وهو موضوع كتابنا الذي نترجمه هذا.

وكأن قدر الحكم العربي في الأندلس هو أن يفتتح بالأنصار ليختتم بهم ـ إذا تجاوزنا المعنى العلمي لصلة النسب بالصبغيات ـ DNA ـ.

وهذا لا يعني أن «الأندلس» كانت حكماً صافياً لسلالات هذه العصبية العربية القوية، بل يعني أن العرب بمختلف عصبياتهم هم الذين جنوا (ثمار النصر الذي أصابه «طارق» وبربره... فأقصوا أتباع «طارق» إلى سهول «لامنشا ـ و ـ استرامادورا» الجدباء... حيث وقع عليهم بلا انقطاع عبء مكافحة النصارى)[4]، مما كان يدفع بالبربر إلى الانقضاض على العصبيات العربية المتنازعة بشكل يساوي انقضاضهم على ملوك النصارى المتنازعين أيضاً، فيشكلون دولهم التي حكمت الأندلس بعد الأمويين كدول المرابطين والموحّدين بعد ذلك، ذلك أن الصراع العنيف في تلك الفترة لم يكن صراعاً دينياً إلا في صوريته التي تدعيها تلك القبائل بين فخوذ عصبياتها العشائرية المتنازعة، التي راحت تخفي ـ شأن كل صراع عصبي ـ نزوع العشائر نحو السلطة والتسلّط بجِبَبِ الاجتهادات الدينية والمذهبية والفرقية.

وعلى هذه الأسس التي لازالت فعّالة في عالمنا العربي، تشكّلت دول الطوائف في الأندلس في صراع إجرامي مرير على السلطة. وقد افتتح الأمويون والأنصار هذا الصراع المرير بينهم، الذي كان امتداداً لموقعة «الحرّة» في المدينة التي جسّدها «يزيد بن معاوية» بقوله الشهير حين زف إليه نبأ تدمير جيشه للمدينة بعد كربلاء:

ليت أشياخي ببدر شهدت ... جزع الخزرج من وقع الأسل

ولعل النكبة التي حلّت «بموسى بن نصير ـ و ـ طارق بن زياد» في دمشق بدل المكافأة التي كان يفترض أن ينالاها على فتح الأندلس، هي بسبب فسحهما المجال لفلول الأنصار التي فرّت من مذبحة «الحرّة» إلى أفريقيا بالالتحاق بالجيش (الذي عبر به «موسى» المضيق سنة ٧١٢م وتركهم يستقوون في الولايات الشرقية والغربية، حيث أصبحت قبيلتهم أكثر القبائل هناك)[5]، إذ أن «موسى بن نصير» الذي

---

(١) الأعلام، مرجع سابق، ج٣، ص ١٣٥.
(٢) تاريخ مسلمي أسبانيا، مرجع سابق، ص ١٥٥.
(٣) الأعلام، مرجع سابق، ج٨، ص ٢٤.
(٤) تاريخ مسلمي أسبانيا، مرجع سابق، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٥) المرجع السابق، ص ٧٣ ـ ٧٥.

كان (أبوه نصير على حرس «معاوية»، ونشأ «موسى» في دمشق وولي غزو البحر «لمعاوية» فغزا «قبرص» وبنى فيها حصوناً)[1]، كان «زبيرياً» لم يوالِ بني «مروان» إلاّ بعد موقعة مرج راهط (ولما نفاه مروان بن الحكم، طلب حماية عبد العزيز ابن هذا الخليفة ونالها، ومنذ ذلك الحين أصبح من دعائم البيت الأموي المرواني)[2]، وسبب حماية «عبد العزيز» ابن الخليفة «لموسى» أن «موسى» كان كلبياً وأم ابن الخليفة كلبية، ولم تَكُنْ «بني كلب» تَكِنُّ أي عداء للأنصار بينما كان الخليفة يعتمد على القيسيين، والقيسيون يعدون كل العرب اليمانية عدوة لهم، ومن جملتها عرب الحجاز وكلب، ولذلك كانوا حين شكلوا قسماً هاماً من الجيش الشامي الذي ذهب لدعم جيش «موسى» في الأندلس بقيادة اليمني «عبد الرحمن الغافقي» يتحينون الفرص، فبعد استشهاده في معركة «بلاط الشهداء»، فكّر الأنصار التخلص منهم فعرض «عبد الملك الفهري» الذي كان يعرفهم في موقعة «الحرّة» (على أهل الشام ردّهم إلى سبتة)[3] فأخرجوه من القصر (وصاحوا به: أفلتَّ من سيوفنا يوم الحرّة ثم طالبتنا بتلك الترة، حتى أمتنا جوعاً، ثم أردت إخراجنا إلى القتل... وصلبوه معلقين إلى يساره كلباً وإلى يمينه خنزيراً)[4]، هكذا قتل آخر المدافعين عن المدينة في موقعة «الحرة»، وأول ملك للأنصار على الأندلس، واستعرت الحرب بين القيسية واليمنية، وكان البربر مرة مع هؤلاء ومرة مع أولائك، وكذلك فرض المنطق أن يدخل النصارى في هذه التحالفات، وكل بين هذه القوى الأربعة المتصارعة يسحب خيوط اللعبة نحو مصالحه، لذلك لم تتكرر معركة «بلاط الشهداء»، ولم يتحرك الفتح الإسلامي ليتجاوز اسبانيا، وقد كان بمقدوره ذلك.

والاسبان حين استطاعوا أن يتجاوزوا العداء التقليدي بين «الفاندالس» و«الرومان» و«القوط»، بدأوا بتشكيل أمة لها عمق استراتيجي بابوي أوروبي، فخرجوا من اللعبة العشائرية ليرقبوا بربريتها تفتك بخصومهم، وصاروا يشعرون بنفسهم كأمة أكثر مدنية من هذه القبائل المتصارعة على أرض أجدادهم بوحشية، لا تتفق مع ما يعلنونه من قيم إسلامية رفيعة!!

فمنذ أول أيام الفتح، وبعد أن فتك القيسية بالأنصاري «عبد الملك الفهري» سليل «سعد بن عبادة» ظهرت هذه البربرية العصبية العشائرية التي لا تتفق مع قيم الاسلام، ولا مع الدعوة الإسلامية التي من المفترض أن يحملها هؤلاء الناس إلى الغرب، إذ أمر الخليفة فوراً بتولية «ثعلبة بن سلامة العاملي» الذي كان الأنصار قد قتلوا أباه(*)، فباغت الأنصار والبربر حلفائهم وأعمل فيهم مذبحة كبيرة، و(أسر منهم ألفاً... فسبى نساءهم واسترقّ أطفالهم، وكان ذلك حدثاً لم يسمع بمثله من قبل، وفظاظة بالغة.... ثم عرض أسراه للبيع... فباعوهم للصعاليك وضنوا بهم على السادة... وعلى هذه الصورة ختم الدور العام الذي لعبه أبناء أنصار محمد ﷺ على مسرح التاريخ الإسلامي)[5] عدة قرون.

لكنهم ظلّوا وظلّ نسلهم محطّ رعاية من البربر وأتقياء العرب لنسبهم الشريف للأنصار، إلى أن قويت

---

(١) الأعلام، مرجع سابق، ج٨، ص ٢٨٥.
(٢) تاريخ مسلمي أسبانيا، مرجع سابق، ص ١٢٢.
(٣) المرجع السابق، ص ١٦.
(٤) المرجع السابق، ١٦١.
(*) كي يصحح خطأ «موسى بن نصير» ويخرجهم من الأندلس.
(٥) المرجع السابق، ص ١٦٣ - ١٦٥.

شوكتهم مع «الغالب النصري»[*] الذي أعاد دولة الأنصار لتحكم ما بقي من الأندلس، أي مملكة «غرناطة»، التي جعلها قبلة العرب والإسلام هناك، وبنى بمدينتها وعاصمتها «غرناطة» قصر الحمراء الشهير (وتعاقد مع بني مرين أصحاب المغرب الأقصى على قتال الأسبانيين)[1]، لكن بُعْدَهمُ عنه اقتضى أن لا يتمسك بهذه الشكليات مدة طويلة، وقد جاء «بالإحاطة» عنه بذكر نسبه:

محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري: من ولد سعد بن عُبادة، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابن سليمان ابن حارثة[بن خليفة] بن ثَعْلبة بن طريف بن الخَزْرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمر بن يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان بن همَيسع بن يُمن بن نَبْت بن اسماعيل ابن إبراهيم، صلى الله عليه وعلى محمد الكريم. أمير المسلمين بالأندلس ودايلها [وخدمة النُصْريين بها]، يكنى أبا عبد الله ويلقب بالغالب بالله.

وقد اشتهر عند كثير ممن غُني بالأخبار أن هذا البيت النَّصري من ذرّية سَعْد بن عُبادة سيد الخَزْرج، وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصنّف الناس في إتصال نَسَبهم بقيس بن سعد بن عبادة غير ما تصنيف. وأقوى ما ذُكر، قول الرّازي: «دخل الأندلس [من ذرّية] سعد بن عُبادة رجلان، نزل أحدهما أرض تاكرُنّا، [ونزل] الآخر قرية من قرى سقرسطونة تعرف بقرية الخَزْرج، ونشأ بأحواز أرْجُنة من كنْبانِيّة قرطبة، أطيب البلاد مَدَرَة، وأوفرها غلّة، وهو بلدُه، وبلدُ جَدِّه، في ظل نعمةٍ، وعلاج فلاحةٍ، وبين يدي نَجْدة وشهرة، بحيث اقتضى ذلك، أن يفيض شِرْيان الرياسة، وانطوت أفكاره على نيل الإمارة [ورآه مرتادو أكفاء الدول أهلاً، فقدَحوا رغبته، وأثاروا طمعه][2].

وبعد التعريف بنسبه الذي كان يعد جوهرياً، لا في طلب الملك فقط، بل أي منصب اجتماعي كان ـ وربما لازال ـ كي يعرف الناس على من يحسبون هذا الإنسان، وإلى أي عصبية أو فخذ عشيرة من قبيلة ينتمي ليصنفوه، لأن مجتمع القبائل لا يستطيع التعامل مع الأفراد إلا من خلال ولاءاتهم المسبقة، لذلك كان التعريف بالنسب أبدى الأمور عند المؤرخين العرب القدامى كلهم، حتى لأكاد أقول: إن جمهرات الأنساب هي التي حفظت لنا الكثير من التاريخ العربي، بقدر ما حفظت باطل الصراع العصبي فيه.

وفي سيرة هذا المؤسس الثاني والأخير لملك الأنصار والعرب في الأندلس قال لسان الدين بن الخطيب:

«تظاهر لأول أمره بطاعة الملوك بالعُدْوة وإفريقية، يَخْطُب لهم زماناً يسيراً، وتوصّل بسبب ذلك إلى أمداد منهم وإعانة. [ولقبل ما] افتتح أمره بالدعاء للمستنصر العباسي ببغداد، حاذياً حذو سميه ابن هُود، للَهِج العامة في وقته، بتقلّد تلك الدعوة، إلى أن نزع عن ذلك كله.

وكان يعقِد للناس مجلساً عاماً، يومين في كل أسبوع، فترتفع إليه الظلامات، ويُشافِه طالب الحاجات، وتنشده الشعراء، وتدخل إليه الوفود، ويُشافه أرباب النصائح في مجلس اختصّ به أهل الحَضْرة، وقضاة الجماعة، وأولي الرتب النَّبيهة في الخدمة، بقراءة أحاديث من الصَّحيحين، ويختم

(*) هو محمد بن يوسف بن محمد بن نصر بن الأحمر الخزرجي الأنصاري.

(١) **الأعلام**، مرجع سابق، ج٨، ص ٢٤.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، محمد عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٤، مجلد ٢، ص ٩٢.

بأغشار من القرآن. ثم ينتقل إلى مجلس خاص، ينظر فيه في أموره فيصرف كل قصد إلى من يليق به ذلك، ويؤاكل بالعشِيّات خاصته من القرابة؛ ومن يليهم من نُبهاء القُوَّاد»[1].

لكن الذي سكت عنه «ابن الخطيب» هو أن هذا «الغالب» لم يغلب الفرنجة، بل غلب خصوم الأنصار من باقي العرب والبربر في الأندلس، بأن أسقط «إشبيلية» للنصارى، كي يحفظوا له ملك غرناطة، قال إيرڤينغ:

(ـ بعد ١١٩٠ م ـ كانت حروب السهول في «تولوسا» قد دمرت الأمبراطورية العربية في أسبانيا، وفصلت مسلمي أسبانيا عن مسلمي أفريقيا، ونتيجة ذلك ظهر عند الأندلسيين، زعماء طوائف يطمحون إلى الاستقلال في الجزيرة. وانخرطت غرناطة بهذه الحروب، وكان صاحبنا قائداً من قواد بني نصر فيها. وهو في تعارض مع طموحات «ابن هود» ذي التجهيزات الحربية القوية في شعاب جبال «البقصارا» المنيعة. والذي أعلن نفسه ملكاً على «ملقا» و«غرناطة» بعد صراعات عدة خاضها مع ملوك الطوائف التي كانت تحكمها، فخضعت الحمرا له، وأعلن بعد ذلك أنه خليفة على كل الأندلس. وكان رجلاً ذا نفس طموحة وكريمة. فما يناله بيد ينفقه بأخرى. وبعد وفاة «ابن هود» هذا عام ١٢٣٨م أعلن ابن الأحمر نفسه وصياً على كل أملاكه. ودخل غرناطة رسمياً بنفس السنة، مع هتاف الجماهير. التي اعتبرته أعظم موحد لتلك الانقسامات الملكية، التي تهدد بجعل الامبراطورية تحت رحمة أمراء النصارى.

ومن يومها جعل ابن الأحمر غرناطة قاعدة ملكه. فكان أول من شكّل سلالة بني نصر فيها. واضعاً كل الاحتياطات التي تجعل من مدينته معقلاً، ضد كل الهجمات على مملكته الصغيرة، المحاطة بجيرانه النصارى الذين يمدون ويقوون حدودهم باتجاه عاصمته. وشكّل جيشاً نظامياً لحماية معقله، لأنه لم يكن مقتنعاً بالقانون التقليدي القائل: بأن كل مسلم جندي. وكافأ جنوده بثغر لكل واحد منهم على الحدود كأجر لهم، مما مكّنه من تقوية الدفاع عن أرض يملكها جنود. وقد أثبتت الأحداث صحة هذا المنهج. إذ أن النصارى كانوا ينتظرون فرص خلو الأرض بسبب حروب الطوائف، فيستعيدونها مباشرة وبسرعة. وهذا ما فعله «جين الفاتح» حين أخضع كل «ڤالنسيا»، و«فردناند المقدس» حين أخضع قبل «جين» معظم ملحقات «غرناطة»، فاصطدم مع «ابن الأحمر» بساحات حرب اضطرت الأخير إلى العودة للإعتصام بغرناطة. فحُصِر العرب بهذا الجيب، بسبب مقاومة «جين» بينما عمد «فردناند» إلى عدم مهاجمتهم حتى يجد في نفسه القوة الكافية لتدمير معقهلم هذا. مما بدا واضحاً «لابن الأحمر» أن سقوط مدينته صار وشيكاً، إذا هي حوصرت. وأدرك عدم فائدة حلفه مع «قشتالة» البعيدة. فاتخذ مبادرة سلام مفاجئة، حين ذهب إلى المعسكر المسيحي، وبرز بدون توقع أمام الملك «فردناند». وبعد أن عرّف عن نفسه بأنه ملك غرناطة، قال: لثقتي بحسن إيمانك جئت لأضع نفسي تحت حمايتك؟ خذ كل ما أملك واقبلني مولى لك؟ ثم انحنى وقبّل يد الملك بطريقة أنيقة.

وبهذه الثقة ربح «ابن الأحمر» «فردناند» الذي كافأ عدوه السابق، بأن رفعه عن الأرض. وقبّله كصديق رافضاً ملكه وتاركاً له هذا الاقطاع، مقابل جزية سنوية. يدفعها كغيره من النبلاء في امبراطوريته.

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٥.

شرط تزويد جيش «فردناند» بعدد من الجنود في حال أي حرب مع أعدائه؟ ثم أعطاه مقابل ذلك لقب فارس، وألبسه خلعة ودروع الفروسية بيده.

ولم يمض وقت طويل حتى دعا ابن الأحمر ليؤدي واجبه القتالي معه، ويدعمه ـ هذه المرة ـ في حصار «أشبيلية» الشهير. وهكذا ظهر هذا الملك العربي مع خيرة من فرسان غرناطة المشهورين باستعمال الحراب الطويلة، ليشهروا حرابهم وسيوفهم هذه المرة ضد إخوانهم عرب «أشبيلية» إخوانهم بالإيمان.

وشكّلت مشاركة ابن الأحمر في هذا الفتح، عبئاً كبيراً على نفسه، لكنه ظلّ على عهد الفروسية مع فردناند. وعاد إلى إقطاعه حزيناً عندما استسلمت «أشبيلية» المدينة العربية الشهيرة عام ١٢٤٨ م لملك قشتالة المسيحي. يردد عبارات كانت تصدر منه وقت حزنه وهي:

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل؟

لكنه دخل غرناطة دخول المنتصر من فتح فتحه، فخرج الغوغاء والعوام للترحاب به، خاصة وأنه كان محبوباً من الجميع. وحيثما سار كانوا يحيونه بعبارة: الغالب؟

لكن المسلمين في الحمراء كانوا يعرفون شعارهم الأساسي: شعار الأندلس ككل: «لا غالب لكم إلا الله». وهو ما رفعه كي يخفف من غلواء عوامه. فظلّ شعاراً أساسياً لكل خلفائه من بعده. وهو موضوع إلى الآن في قاعات الحمراء[(١)]. هذا هو الجد الأكبر الأقرب «لببدول الشيكو»، الذي سنرى في هذا الكتاب كيف طالب بإعادة تقليعة تقبيل اليد لورثة «إيزابيلا وفردناند» ملكا «أراغون وقشتالة» الذي أعلن لهما أنه كجده مولى من موالهما، كي يتحالف معهما ضد أبيه مولاي «أبا الحسن»[(*)] أولاً وضد عمه بعد موت أبيه، «مولاي الزغل» ثانياً، فأعطاه «فردناند وإيزابيلا» ملكا «أراغون» و«قشتالة» في أيامه شرف تقبيل يديهما، وأعلناه مولى وخولٍ لهما، كي يتمكن من الحفاظ على فخذ عصبيته من بين فخوذ الأنصار، الذين راحوا يتسابقون بدورهم على مثل هذا الشرف بعد عجزهم عن المقاومة.

عن أي أنصار نتحدث؟!

إن الحياة الاجتماعية تحتاج إلى أنساب بين الناس تحدد هوياتهم بها، وإلا اختلطت الأملاك، وضاعت الحقوق، فمن ليس له أبٌ يدعى إليه، على ولي نعمته أن يعطيه اسمه واسم أبيه كي يحفظ حقه، لذلك قال الله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلّموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [الأحزاب: ٥]

فالنسب أمر جوهري للحياة الاجتماعية كي نحدد لكل فرد فيها دوره من خلال هويته الفردية، ولكن إلى أي حد يجب أن نذهب بالنسب بعد الأب؟!

يبدو أن الجواب بكل بساطة إلى أب الأب، حتى يظل التمييز ممكناً بين هويات الأشخاص، وزيادة في

---

(١) واشنطن إيرفينغ، الحمراء، هاني يحيى نصري، مركز الإنماء الحضاري، حلب ١٩٩٦، ج١، ص ٧٩ ـ ٨١.

(*) الذي ثار على شروط الهدنة الذليلة المهينة مع الاسبان.

الحرص لابأس من ذكر الجد الثالث والرابع، أما ما هو أكثر من هذا فستختلط الأمور أكثر من اختلاطها فيما لو اقتصرنا على ذكر الإسم واسم الأب فقط، وها هو «لسان الدين بن الخطيب» حين حاول أن يؤكد مجد سلالة الأنصار ذهب إلى ما قبل «سعد بن عبادة» إلى «عمر بن يعرب بن يشجب بن قحطان بن هميسع بن يمن بن نَبْت بن اسماعيل بن ابراهيم»، فوضع لنا قائمة أسماء أسطورية لكي يصل «سعد» بابراهيم الخليل «ص»، لإضفاء شرف حسب النبوة لهؤلاء الناس، وكأن نصر أجدادهم للرسول ﷺ لم يكفهم مجداً، وأكثر من ذلك أفرد كتاباً سماه «اللمحة البدرية في الدولة النصرية» لأنه كان ذو (حظوة كبيرة عند السلطان أبي الحجاج)[1] الذي قتل غيلة وهو يصلي صلاة عيد الفطر بالحمراء، وكل الصدق الذي توخاه ابن الخطيب في تاريخه، لا يعادل غلو المبالغة بإضفاء النبوة على سلالة الأنصار هذه، التي سيجد القارىء نقداً لاستمراريتها عضوياً وبيولوجياً من ما كتبه ابن الخطيب نفسه، يقول في «الإحاطة»:

(والأهواء والنحل فيهم معدومة... وصورهم حسنة: معتدلة أنوفهم، بيض ألوانهم، مسودّة غالباً شعورهم، متوسطة قدودهم، فصيحة ألسنتهم... وتغلب عليها الإمالة... والعمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة، إلاّ ما شذّ من شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم، والجند الغربي منهم)[2] وقال: (وحريمهم حريم جميل، موصوف بإعتدال السحن.. واسترسال الشعور... إلاّ أن الطول يندر فيهن)[3].

ومن وصف آخر لإبن «بطوطة» نجد: (وبغرناطة جملة من فقراء العجم ـ الإيرانيين ـ استوطنوها لشبهها ببلادهم، منهم الحاج: السمرقندي والتبريزي ... والقوني ... والخراساني ... والهندياني وسواهم)[4].

أما دخول السلالة الآرية الأوروبية على العنصر العربي والبربري في الأندلس فقد تمّ على الشكل التالي:

(كان النخاسون يحملونهم من شمالي أوروبا يتجرون ببيعهم في أنحاء العالم، وكان الاتجار بهم رائجاً. والسبب في رواجه أن قبائل السلاف (الروسيين) نزلوا في أوائل أدوارهم شمالي البحر الأسود ونهر الطونة، ثم أخذوا ينزحون غرباً جنوبياً نحو أواسط أوروبا، وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذٍ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم. فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب التي في طريقهم، كالسكسون والهون وغيرهم، فتكاثر الأسرى من الجانبين. وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق، فتألفت لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى، عن طريق فرنسا فاسبانيا إلى أفريقيا ومنها إلى الشام ومصر، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة. فكان التجار من الإفرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من السلاف والجرمان، من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطىء البحر الأسود ـ

---

(١) لسان الدين الخطيب، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٨، ص ٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٤١.

(٤) محمد اللواتي «ابن بطوطة»، **رحلة ابن بطوطة**، دار بيروت للطباعة والنشر، عام ١٩٨٠، ص ٦٧٢.

ولايزال أهل جورجيا والجركس إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع ـ فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والإناث، إلى أن يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم إلى اسبانيا (الأندلس)، فكان المسلمون يتاعون الذكور للخدمة أو الحرب، والإناث للتسرّي. وغلب على أولئك الأرقاء انتسابهم إلى الجنس الصقلبي، وكانت كلمة «سلاف» تلفظ عندهم «سكلاف» فعرّبها العرب «صقلب»، ومنها «صقلبي وصقالبة»، وأصبح هذا اللفظ عندهم يستعمل للرقيق الأبيض على الإجمال.

على أن عبد الرحمن الداخل قلّما رغب في الصقالبة، وأول من استكثر منهم حفيده الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ) فإنه استكثر من اقتناء المماليك، وارتبط الخيول ببابه، وتشبّه بالجبابرة، وهو أول من جنّد الجند المرتزقين بالأندلس، فجعل المماليك من المرتزقة، فبلغت عدّتهم ٥٠٠٠ مملوك، وكانوا يسمّونهم الخرس لعجمة ألسنتهم، ثم تدرّج الأمويون في استخدام الصقالبة، حتى تكاثروا في أيام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) وجعلهم بطانته وجنده كما فعل المعتصم العباسي بالأتراك قبله. واستقل بنو أمية بمملكتهم هذه في أوروبا عن سائر ممالك الإسلام في آسيا وأفريقيا، ولم يكونوا يطمعون في التغلّب على الممالك الأخرى، فقطعوا علاقتهم معها، ومنعوا أهل دولتهم من الحج إلى الحرمين مخافة أن يقع أحد منهم في أيدي العباسيين، فلم يحج سائر أيامهم من أهل دولتهم، وما أبيح لهم الحج إلاّ بعد فراغ شأن الأموية ورجوع الأندلس إلى ملوك الطوائف غير العرب.

وبلغت الأندلس إبان مجدها في أيام عبد الرحمن الناصر المتوفي سنة ٣٥٠هـ، وكان عاقلاً كريماً توفرت الثروة في خلافته، وكانت أيامه مثل أيام هارون الرشيد في بغداد من حيث الرغد والرخاء. وكان ابنه الحكم المستنصر، وكان محباً للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد، وبلغت مملكة الأندلس في أيام هذين الخليفتين أوج مجدها سطوة وأبهة وثروة، وأخذ شأن الخلافة بعدهما في الاضمحلال، فاستبد أهل الدولة وجندها بالأحكام، وهم موالي الأمويين من البربر والصقالبة، كما استبدّ الفرس والأتراك في الدولة العباسية.

وكان العرب في مقدمة رجال الدولة وأهل العصبية، ولهم المقام الرفيع والكلمة النافذة، لأن الأمويين أهل عصبية للعرب كما تقدم، فلما استبد الصقالبة والبربر بالمناصب والأعمال، أخذت شوكة العرب في الضعف تدريجياً، حتى غلب ابن أبي عامر وزير الحكم بن الناصر على أمور الدولة، في أيام هشام بن الحكم في أواخر القرن الرابع للهجرة، ومكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضاً ببعض، ومنع الوزراء من الوصول إلى الخليفة، وهو عربي الأصل من اليمنية، فأصبح يخاف الجند على نفسه، فعمل على تفريق جموعهم، فبدأ بالصقالبة الخدم بالقصر فنكبهم بدسيسة وأخرجهم من القصر، ثم فتك بالجند الصقالبة وآخر رجال العرب، وأسقطهم عن مراتبهم، واستقدم إليه رجالاً من برابرة أفريقية وزناتة، وقدّمهم واستعان بهم. فانكسرت شوكة العرب في الأندلس من ذلك الحين.

ومازالت الدولة هناك آخذة في الانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر وغيرهم، بأسرع مما حدث في الدولة العباسية، لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بني أمية، ولأن العباسيين أرسخ قدماً في الخلافة

لقرابتهم من النبي ﷺ، فانقسمت مملكة الأندلس في أوائل القرن الخامس للهجرة إلى إمارات، تولاها أصحاب الأطراف والرؤساء، وفيهم العرب والبربر والموالي، فتغلّب كل إنسان على ما في يده، فصاروا دولاً صغيرة متفرقة، ولذلك سمّوا ملوك الطوائف)[1] والدولة النصرية ــ التي نحن بصددها في هذا الكتاب عن «أخبار سقوط غرناطة» ــ لا تختلف في بنيتها الاجتماعية بشيء عن باقي دول وملوك الطوائف، وهنا أساس الشك باستحالة النسب الأنصاري بين دعاتها.

فعن أي أنصار نتحدث، وأمهات معظم هؤلاء الملوك وعلية القوم المحيطة ببلاطهم، وأقربائهم من الصقالبة أو البربر أو الأسبان، وجلّ ما يمكننا أن نضيفه إلى هؤلاء هم العرب، ليشكلوا ربعاً من ثلاثة أرباع وراثة سكان الأندلس المسلمة، الناطقة حتماً بالعربية لغة القرآن، لا لغة الحكام وحدهم.

وقد شكّل هذا الاختلاط العرقي القوي بالعرق الآري الأوروبي، تغيّراً في الذوق الجمالي عند سكان الأندلس في الحقبة التي ندرسها هذه، إلى حد أن «لسان الدين الخطيب» كان إذا وصف حاكماً من آل نصر بالملاحة والجمال كان يعني: البياض والشقار، قال يصف «يوسف بن اسماعيل أبا الحجاج» الذي أنهى بناء الحمراء: (كان أبيض أزهر أيداً ــ قوياً ــ مليح القد جميل الصفات.... رجل الشعر)[2]، وذكر «إيرفينغ» أن النصارى كانت (تكتب اسمه «هاكسس»... استلم تاج «غرناطة» عام ١٣٣٣ م ... وكان نبيلاً قوي البنية، أشقر الملامح... ذو لحية طويلة يصبغها باللون الأسود)[3]، ولهذا دلالة أنه لا يريد أن يبدو شكله كشكل، ملوك الفرنجة لأنه يشبههم.

أما «مولاي أبو الحسن» الذي سنذكره في هذه الأخبار، كآخر ملوك هذه السلالة إباءً، رغم قسوته ووحشيته التي دفعته بأن يضحّي بأولاده الذكور من نسائه كافة، من أجل عيون أولاد محظيته الزرق، إبنة «سانشو أكزيمنس دي سولي» السبية الشقراء الفاتنة التي سمّاها بشعاع الفجر أو «الزوراء»، وعرفت بين الشعب باسم «فاطمة»، فهو يمثل أقصى درجات الخنوع الأندلسي للجمال الغربي، والهيام فيه مهما كانت التضحيات، على عكس إبائه ورجولته الحربية في ساحات القتال التي دعى النصارى لها، بدل الخضوع لمهانة شروط الهدنة الذليلة التي كان يقبل بها أسلافه، وتمناها أخلافه.

هذا الهيام بالبياض والشقار عند الأندلسيين، ليس تغيراً بالذوق الجمالي عندهم فقط، بل دليلاً ساطعاً على تغيّر بصفاتهم الوراثية التي حصلوا عليها من الاختلاط بالأوروبيين، إلى درجة أن الشكل والسمات الأفريقية صارت مع الاجتياح الصليبي إحدى العيوب التي أراد الاسبان أن يخلصوا منها جزيرتهم، والتي أحضرها الفتح العربي الذي يجب أن يخرج عنهم بها أيضاً، وكل هذا قبل أن تعرف البشرية معنى العرقية أو الداروينية بأحقاب طويلة.

(١) جرجي زيدان، **تاريخ التمدين الإسلامي**، دار مكتبة الحياة، بيروت عام؟ ج٣، ص ٤٩٥.

(٢) **الإحاطة**، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٣) **الحمراء**، مرجع سابق، ص ٨٥.

فالسبب إذاً هو طغيان الصفات العرقية الأوروبية على الصفات العرقية العربية والبربرية، مما جعل الصفات الوراثية الأندلسية أو البحيرة العرقية «الأندلسية» خصيبة بهذه الأعراق الثلاث: الأشقر والأبيض، والأسمر أو الأسود، فخرج هذا المزيج الذي فتن واصفي الجمال الأندلسي قديماً، والاسباني حديثاً.

وعلمياً:

وقبل أن تتأكد أي دراسات عن عمليات التصالبات الصبغية DNA في أشرطتها الوراثية، التي تحمل نصف الصفات التي تتكون في الجنين من الأم، والنصف من الأب، أكد الرسول ﷺ أن استعمال النسب لغير هدفه الاجتماعي لصلة الرحم، ومعرفة هوية الإنسان لتحديد حقوقه، دعوة جاهلية للتفاخر وبالتالي للعصبية وشرور تحزباتها، لذلك قال ﷺ: («كذب النسّابون» ـ أو ـ كان رسول الله ﷺ إذا انتهى في النسب إلى معد بن عدنان أمسك، ثم قال: كذّب النسّابون.... وقد روي عن عروة بن الزبير أنه قال: ما وجد أحداً يعرف ما بين عدنان واسماعيل، وقال ابن عباس: بين عدنان واسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون)[1]، وأن الرسول ﷺ (دخل المسجد فرأى جمعاً من الناس على رجل فقال ما هذا؟! قالوا: يا رسول الله رجل علاّمة، قال: وما العلاّمة؟! قالوا: أعلم الناس بأنساب العرب وبالشعر.... فقال النبي ﷺ: هذا علم لا ينفع، وجهالة لا تضر)[2]. لأن كل ما وجّه الإسلام الأنساب لمعرفته هو: (تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ثم انتهو)[3]، ولكن العرب لم ينتهوا.

و(لأن البحيرة الوراثية DNA تفتح بين كل الشعوب المتجاورة على بعضها... كل مئة عام، حتى أن أكثر الشعوب عصبية وانغلاقاً بين أمم الأرض: اليهود، لم تسلم أشكالهم من البحيرة الوراثية المغربية أو اليمنية أو الأوروبية، أو حتى الحبشية، في دولة اسرائيل اليوم، فتسرّب وراثي واحد كافٍ لإحداث اختلاط عرقي جديد)[4]، لأن هذا التسرّب يحمل في صفاته الوراثية المحمولة كل البحيرة العرقية التي جاء منها، فتبرز في المولود الجديد صفات، أو تُحْمَلُ وتنتظر الانتقال إلى أبنائه.

تلك هي قوانين الله تعالى في خلقه، التي أفصح عنها الوحي الإسلامي، قبل أن يفصح عنها علم الوراثة بكل تخبطاته العرقية اليوم، في المشروع الدولي الحديث لفك شيفرة إرثنا البيولوجي في: مشروع «الجينوم البشري» والاستنساخ[5].

والذي نحتاجه هنا هو أن نؤكد ما أكّده العلم الحديث وهو: أن ليس نسبنا هو الذي يصنعنا، بل

---

(١) محمود العظم، **جمهرة النسب لابن الكلبي**، دار اليقظة العربية، دمشق، عام؟، ج١، ص ٢٥.

(٢) **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، عام ؟، مجلد ٤، ص ٥٥.

(٣) المرجع السابق، مج ٤، ص ٥٥ أيضاً.

(٤) هاني يحيى نصري، **الفكر والوعي**، مجد، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٣٤.

(٥) دانيل كينفلس، **الشيفرة الوراثية للإنسان**، عالم المعرفة، الكويت يناير/كانون الثاني ١٩٩٧/٢.

(مجموعة متناهية من المعلومات ـ الوراثية ـ يمكن معرفتها)[1]، وهذه المعلومات على الشرائط التي تحدد الحمض النووي ـ DNA ـ في كل إنسان، لا تحدد فقط شكله وصفاته الوراثية فقط، بل كل أمراضه التي سيتعرض لها بحياته، ومدى هذه الحياة أيضاً، لدرجة أن كل الطب والصيدلة اليوم يحتاج إلى «إعادة تأهيل»[2]، لأن علم الوراثة اليوم هو الذي يحدد (محدد غاية في الأهمية للصحة والمرض في الدول المتقدمة)[3]، تماماً كما يحدد هذا العلم نسب الإنسان، لا إلى أشخاص أو عصبيات سابقة، بل إلى البحيرات الوراثية الحقيقية التي ساهمت في تكوينه.

وهذا يعني حسب بحثنا في «أخبار سقوط غرناطة» أن هذا السقوط ساهمت فيه البحيرة الوراثية الأوروبية في الدولة النصرية، أكثر مما ساهم فيه نَسَبُ الأنصار الذي تبدد مع شدة تفرعات أفخاذ هذه العصبية التي كانت فيه.

لذلك لا يمكننا أن نقول حين تمسحن «الزَغْل» وأولاد عم «ببدول» أن الأندلس نَصَّرَت الأنصار، ولا يمكننا قبلها أن نقول: إن كل هذا الطغيان الذي ظهر في سلالة «الغالب» مؤسس تلك الدولة، هو طغيان الأنصار؟!

لسببين: الأول: إننا مسلمون، ونعرف أن كل طائر لكل إنسان في عنقه وحده، ولا تحمل نفس وازرة نفس أخرى.

والثاني: علمي؛ وهو استحالة استمرار أي نسب أكثر من أربعة أجيال، فببدول، والزَغْل، ومحمد بن حسان، وأبناء عمومتهم، ليسوا أبناء سعد بن عبادة «رض»، بقدر ما أن سعد «رض» ليس ابن الرسول العظيم سيدنا ابراهيم «ع».

وإن كانوا أبناءاً لأحد، فهم أبناء وأبناء تلك الفروع والتفرعات العصبية المقيتة في أفخاذها التي لازالت تشق قلب هذه الأمة، رغم كل محاربة الإسلام لها، والشرخ الذي أحدثته بهم، ولا يمكن رأبه في الأندلس، ظلّ حدثاً بدون كبير عظة لمن لا يعرف تفاصيله.

وبين أيدي هؤلاء الجهلة، الذين لا يعرفون ولا يتعظون من تفاصيل مثل هذه الأحداث، لازلنا نعاني الأمرين في عالمنا العربي اليوم، من الذين لا يريدون أن يعرفوا إلا منطق «ببدول» في الحكم والمسؤولية، فلا يحتمون بالحق، بل يحتمون بعصبياتهم، فإذا خذلتهم هذه العصبيات بتفرعات أفخاذها الجديدة «هرولوا» نحو أعداء هذه الأمة، وباعوها لهم.

تلك هي أصول الخيانة المتجذرة عندنا، منذ فقدنا حلم العالمية من الجزيرة «الإيبيرية»، يكررها من لا يريد إلاّ أن نحدثه عن أمجاد العرب بالأندلس، وهي على كل عظمتها لا تزيد إلاّ في ثمن متاع صفقة الخائن حين البيع، فبعد أن باع قادة «بازا» حاميتهم «لفردناند» مقابل إقطاع «مارشينا» لهم ولأولادهم،

(1) المرجع السابق، ص ١١٤.

(2) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(3) المرجع السابق، ص ٣٢٢.

وتنصروا، راح أسياد الحصون يبيعون كل حصونهم، بكل ما فيها من علماء ومفكرين وقادة وصنّاع مهرة، مقابل أعطيات شبيهة، وكان («فردناند» يستقبلهم بشكل متميز، ويحملهم الهدايا والأموال حسب أهمية المكان الذي كان تحت قيادتهم وسلّموه)[1]، فأي حديث عن العظمة مهما عظمت ـ وهي لم تكن بالشيء النادر بل الكثير بالأندلس ـ يظل أسير شرور الحقارات مهما قلّت، فطالما أن الشر بكل أصناف الخيانة والغدر والأنانية والتبعية والعصبية فيه، يفعل فعله، فمن الخطأ والضلالة الحديث عن العظمة والخير، لأنه القادر على تدمير أعظم إنجازاتهما بسفالة واحدة من تلك السفالات، فيجب التصدي له، أي لشرور تلك الحضارة الرائعة في الأندلس، حتى وقبل أن نقدّر خيراتها، طالما لازلنا نرى أن المطب العربي لازال يتكرر في الجحر نفسه مراراً وتكراراً، لا مرتين فقط.

والفرق واضح بين أن نعرض للقارىء حقيقة الوضع الاجتماعي في «الأندلس» كما كان حقاً، وبين أن نضفي على هذا الحق زخارف أدبية، فننمّقه، ونجعله أكثر مبالغة مما كان، أو أن نسكت عن حقائق يجب ذكرها، لأنها فقط تشعرنا بالخزي والعار من مرتكبيها من أبناء بجدتنا الذين كانوا هناك، فنحن رغم كل احترامنا لمؤلف «الأعلام»، وللجهد الرائع الذي أتحفنا فيه بهذا المؤلف الموسوعي شبه المحال أن يخرج من قلم مؤلف واحد، لم نستطع أن نعرف عن «الغالب النصري» فيه سوى أنه «تعاقد مع بني مرين أصحاب المغرب الأقصى على قتال الاسبانيين» كما سبق وذكرنا، لأن «الأعلام» أراد أن يسكت عن أن حلف الغالب مع المغرب كان عديم الفائدة له، وكذلك حلفه مع «إشبيليا» التي كانت إسلامية في زمنه، فخضع إلى «فردناند المقدس»[*] كخول له، واضطر بسبب هذا الخضوع إلى مشاركته بتدمير الإسلام في «إشبيليا»، وهذا العار الذي كرّره الكثير من حكّام «الأندلس» كان السبب الرئيسي لخروج العرب منها، بقدر ما كان «مفيداً» لهؤلاء الحكام كي يبقوا على ملكهم الشخصي المؤقت.

وحزننا على عدم فهم معنى «المفيد» عند هؤلاء إلا بما كان يخدم مصالحهم الآنية، يجب أن لا يتحول إلى شماتة بحضارتنا الأندلسية، بل إلى مقارنة مع تاريخ تحكمه الطبائع البشرية نفسها الآن، فيبدو وكأنه يكرر نفسه، وعلى الذي يخرج من هذه الحقائق بالقنوط عليه أن يسأل نفسه عن قيمة المعرفة وأهميتها، أما الذي يخرج بالشماتة، فعليه أن يسأل نفسه لماذا ينطق بالعربية ويقرأ بها؟!

ولماذا يعيش في هذه البلاد العربية، وكيف يمكن لأمثاله أن يكونوا جزءاً من كلٍ لا يسرّهم إلا رؤية مصائبه، بغض النظر عن تبريراتهم بانتمائهم إلى أقوام بائدة في هذه المنطقة من العالم، كالفينيقيين مثلاً؟!

أما الانتماء الديني المغاير لغالبية سكان هذه المنطقة اليوم، فيجب أن لا يفهم بمعناه «القرن وسطي» الذميم، الذي استغلته محاكم «التفتيش» أسوأ استغلال لصالح من أسسوها من الحكام النصارى في ذاك الوقت، بدافع «المفيد» المشابه لما كان عند الحكام المسلمين آنذاك، بمعنى المفيد للحاكم لا للدين والعقيدة، أو للمدنية الإنسانية، أو حتى لسمعة المسيحية في المستقبل، فعرض الحقائق التي كانت في الأندلس بما فيه من تراجع المثل الأعلى عند المسلمين فيها، يُظهِرُهذا التراجع نفسه لتلك المثل عند المسيحيين أيضاً، فلا

---

(١) أنظر نهاية الفصل الأول من الباب الخامس.

(*) ملك قشتالة القديم لا «فردناند زوج إيزابيلا» الذي يتحدث عنه «إيرفينغ».

داعي للبهلوانية اللفظية في الدعوة إلى التمييز بين المسيحية والنصرانية والصليبية من جهة، وللإسلام والتوحيد والمحمدية من جهة أخرى.

فالذي يفخر بالواقعية والعملية في أي زمان وأي مكان، هو طالب النجاح الوقتي المتخلي عن المثل الأعلى في دينه، على أنه «لا يفيد» واقعياً بمعنى آنياً، لذلك يبدو التاريخ وكأنه يكرر نفسه، فعقلية جرائم التفتيش ظهرت في الحرب الأهلية اللبنانية مع عقلية المساومات المستورة مع العدو بين الطرفين، لتخلي المسيحيين بقدر تخلي المسلمين عن مثلهم العليا، بدعوى عدم «فائدتها»، فرأيتنا نحصد إدانة تاريخية جديدة لبربرية شرقية في القرن العشرين، شبيهة ببربرية مغربنا الأندلسي في «القرون الوسطى»، وهي غير قابلة لأي تبرير ديني ولا أخلاقي من أي دين كان، لذلك يمكن اعتبار هذا الكتاب إدانة للمسيحيين والمسلمين آنذاك، لا إدانة للمسيحية والإسلام بأي حال من الأحوال.

الرهبان الكاثوليك وتغير الزمن:

كانت محاكم التفتيش «Inquisition» المفيدة للرهبان الكاثوليك في القرون الوسطى في كل أوروبا، لا في الأندلس وحدها، غير مفيدة لهم بعد اكتشاف العالم الجديد، ولا بعد فصل الدين عن الدولة في أميركا وكل أوروبا، فقد أثمرت وقتها أباطرة من الطغاة يسكنون المكان نفسه الذي كان يسكنه أباطرة روما الملاحدة، لكن بزي لاهوتي مقدس، يقدسه من لا يستطيع أن يعرف عن باطنه أي شيء، فدوق «ڤيلا هيرموسا» أخو الملك «فردناند» بالسّفاح هو الذي أوصل إلى البابا: «أينوسنت الثامن» سبايا «ملقا» من أجمل فتياتها العرب المسلمات، اللواتي تمتع بهن قبل أن يسوقهن حاسرات شبه عاريات في احتفالات النصر في شوارع «روما».

وكان لهذا الدوق أخ ثان ـ بالسّفاح أيضاً ـ اسمه «دون كارلوس»، مما يعني أن «فردناند» كان الابن الوحيد الشرعي في أسرة من الزناة(*)، وتأكيداً على هذا كان للأخ الثاني «لفردناند» بالسفاح «دون كارلوس» هذا ابن بالسّفاح أيضاً اسمه دون فيليب «أوف أراغون» الذي قتله «الزَغْل» على جروف «بازا»، فجزع «فردناند» على موته، وسلّم جيشه إلى «لويس فرناندز بيترو كاريرو»، واعتكف في «كارافاكا» سنة كاملة.

وإذا تسائلنا أين كانت زوجته الملكة «إيزابيلا» أثناء ذلك؟! يأتينا الجواب من الساذج بورعه «آغابيدا» الذي نقل عنه «واشنطن إيرڤينغ» أحداث هذه «الأخبار»، مراعياً سذاجته بأن أضفى عليه عبارات: الورع والفاضل والمبجل وسواها من تهكم، لإبراز عقلية كاثوليك القرون الوسطى به، كنموذج لهم، لا يجمع منطق تتابع الأحداث التي يؤرخ لها هو بحد ذاته، يقول كما سنرى في هذه «الأخبار»: «لقد كان هذان ـ الملكان ـ الحاكمان القويان كما أكّد «آغابيدا»؛ يعتبران بعضهما بشكل مختلف كحلفاء لا كزوجين... لذلك أديا شعائر التعظيم الملكي..».

لذلك كان للملكة عشيق فعلي يصاحبها دوماً محتمياً بلقب كاردينال اسبانيا الأكبر؟! اسمه «غوانزاليس»، وكان الملك يعرف به جيداً، ويذكره بالتهكم لحظياته، وأمثال «آغابيدا» من عامة رهبان

(*) أنظر التعليق تحت صورة «إيزابيلا» في موسوعة "Encyclopedia International".

الكاثوليك كانوا لا يلتفتون إلى هذا، ويكتفون بذبح هذين الملكين للمسلمين، بالتعاون مع كل ملوك أوروبا ضد حضارة الإسلام التي أغلقت باب السّفاح بتعدد الزوجات، دون كذب أو طلب التواء من الطبيعة البشرية.

فمن المفيد لمثالية أي عقيدة أن تطلب التقشف «والتبتل» من معتنقيها نظرياً، لأنها تبدو بذلك أكثر مثالية وملائكية، لكنها ستضطر عملياً إلى الإقرار بأولاد السفاح فيها، فإذا كانوا من صلب أقوياء أعطوا ألقاب «الدوق» و«الدون»، وأقرّ الرهبان لهم بذلك، كما قد يضطر هؤلاء إلى سدّ فراغ الملكات «بكرادلتهم».

لذلك ومع تغير الزمن عاد الكاثوليك إلى إيجاد إمكان للطلاق في عقيدتهم، كي لا يظل أولاد السفاح أكثر من الأولاد الشرعيين في كل عائلة، كما في عائلتيّ «إيزابيلا وفردناند»، فصار ما كان مفيداً للإدعاءات المثالية في عقيدتهم، غير مفيد لإمكان استمرارها.

كذلك كان من المفيد للملكة «إيزابيلا» وعشيقها الكاردينال «أوف أسبانيا» أن يهنآ ــ بسادية ــ حين كانا في قصبة «ملقة» بعد احتلالها، بأصوات العذراوات العربيات وهن يُغْتَصبن في ساحة هذه القصبة، من رهبان الكاردينال وجنود الملكة، حتى يلبيهما هؤلاء الجنود حين يطلب منهم فتح مدينة عربية أخرى، وحتى لا تشعر الملكة بأنها المفرطة الوحيدة بنفسها في فراش العهر، ففرضت هذا المصير على الأطفال العرب، واستعذبت صراخ نسائهن.

وحين ظلّ القسم الغني الوعر الجبلي من مملكة «غرناطة» مستعصياً على هؤلاء الكاثوليك، وأدركوا أن الاغتصاب والنهب والقتل لا تكفي لإغراء جيشهم بسلوكه، دفع هذا الكاردينال الفاضل خليل الملكة بمخابراته المسعورة كما قال إيرڤينغ: «للبحث عن طرائد جديدة لإغناء الكنيسة» فاتجهوا نحو اليهود المتمسحنين الذين راحوا يشككون بمدى التزامهم بالنصرانية، لنهب أموالهم بعد إحراقهم أحياء، وهذا ما يمكنك أن تقرأه بالتفصيل في هذا الكتاب في بابه الرابع الفصل السابع، لترى كم كانت هذه المحاكم «مفيدة» للكاثوليك ورهبانهم آنذاك، مضرة للدين المسيحي.

وينقل لنا «شكيب أرسلان»[(١)] عن المؤرخ الاسباني: «دون فيلكس بنسواسبريان» أن محاكم التفتيش التي ظلّت تعمل على تنصير العرب في اسبانيا، بين عام سقوط غرناطة ١٤٩٢م وبين أمر «فيليب الثالث» باستئصال شأفتهم عام ١٦١٨م ــ مئة وستة وعشرون سنة ــ ثم اقتنعت ببطلان محاولاتها، مما دفعها إلى الطلب من الملك بوضع هؤلاء تحت رحمة قس كاثوليكي مجرم اسمه: «دون لويس فخاردو»، الذي أجلى آخر مئتين وستين ألفاً منهم، وهم يعلنون له نصرانيتهم، ويحلفون بالتمسك بها، يقول:

(نذكر هنا خلاصة ما قاله المؤرخ المذكور عن موريسك[(*)] مرسية قال: عاش المُوريسك في إمارة مرسية، من بعد سقوطها في أيدي النصارى إلى الجلاء الأخير، في ذلّ وهوان ليس عليهما مزيد، وكان المسيحيون يعاملونهم في أقسى معاملة، فأخذ المسلمون يراسلون مسلمي المغرب، ويأتمرون معهم على

---

(١) شكيب أرسلان، **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية**، دار مكتبة الحياة، بيروت، عام؟، ج٣، ص ٤٤٧.

(*) المور والموريسك تحريف لكلمة مغربي.

مملكة قشتالة، فصدر أمر فيليب الثالث بإجلاء هؤلاء القوم عن البلاد، واستئصال شأفتهم منها، وفي الخطب التي نُشرت من قلم السنيور فرنسيسكو كسكاليس مؤرخ مرسية وثائق مهمة تتعلق بجلاء العرب عن بلاد مرسية وغيرها من بلدان اسبانية التي كان قد بقي فيها منهم بقايا. فمن ذلك المنشور الذي صدر من الملك إلى الأمة الاسبانية مبيناً فيه «دسائس العرب على الدولة وعلاقاتهم بكفّار البلدان الأخرى» وفيه الأمر بإخراج العرب بأجمعهم، مع تعيين الأشخاص الذين عهد إليهم الملك بإتمام هذه المهمة في المرافىء الجنوبية والمقاطعات الداخلية. ومن ذلك الأمر الملكي الذي نشر في ذلك الحين وجاء فيه ما يأتي: في مدة ثلاثة أيام من نشر هذا الأمر يكون على جميع موريسك المملكة رجالاً ونساءً أن يغادروا البلاد، ويتوجهوا إلى قرطاجنة، ليكون منها خروجهم، ولهم أن يحملوا من متاعهم ما يستطيع كل فرد حمله بنفسه وسينقلون إلى بلاد البربر في سفن تخصص لهذا الغرض، ومن خالف منهم الأمر يعاقب بالقتل.

كل مسلم يوجد بعد ثلاثة أيام في غير المكان الذي عيّن له، فيكون لأي شخص حق في القبض عليه، وتقديمه إلى الحكومة، فإن امتنع وعارض، فله أن يقتله.

كل مسلم يخفي ثروته لعدم استطاعته أن يحملها معه، أو يحرقها أو يحرق مزرعته أو بيته يعاقب بالقتل.

وللأطفال الذين لا يبلغ عمرهم الرابعة البقاء في البلاد إذا وافق على ذلك آباؤهم، فإن كانوا يتامى فأولياء أمورهم.

الأطفال الذين لا يبلغ عمرهم ست سنوات والذين آباؤهم من أصل مسيحي يجب أن يبقوا في البلاد، وتبقى معهم أمهاتهم ولو كنَّ موريسكيات. انتهى. قال كساكاليس إنه بمجرد أن اطلع العرب الموريسكيون على هذا الأمر، استولى عليهم أشد الحزن والألم لمفارقة الوطن الذي كانوا ألفوه، ولفقد المال والمتاع اللذين كان لابدّ لهم من تركهما، وكان الرئيس الأول الذي أسند الملك إليه مهمة إجلاء العرب من إمارة مرسية هو «دون لويس فخاردو» وصدر له الأمر بذلك بتاريخ ١٣ يناير/كانون الثاني سنة ١٦١٠، فخرَّج من مرفأ قرطاجنة من تاريخ ١٨ يناير/كانون الثاني سنة ١٦١٠ إلى ٢٢ مارس/آذار من تلك السنة ٦٥٥٢ نفساً من العرب، ومن تاريخ ٢٦ أبريل/نيسان ١٦١٠ إلى أغسطس/آب سنة ١٦١١ خرّج من نفس المرفأ ١٥١٨٩ نفساً. ثم في عاشر نوفمبر/تشرين الثاني ١٦١١ صدر أمر جديد أشد من سابقه بإخراج العرب أجمعين، لأنه بالاستعلامات السرية قد ثبت أنهم ماداموا موجودين في البلاد فلا يمكن الأمان لا على الدين ولا على العرش ولا على الوطن ولا على راحة السكان. وفي سنة ١٦١٨ أصدر الملك أمراً جديداً إلى الكونت «دوسالاسار» بالذهاب إلى مرسية وإخراج كل من بقي فيها من الموريسك، وأن يسفرهم من ثغر قرطاجنة، فنفَّذ الأمر بتمامه. وكان هؤلاء يرفعون الصليب فوق منازلهم وأكواخهم إيهاماً بأنهم مسيحيون، وأملاً أن يغضّوا النظر عنهم، لكن الحكومة كانت عندها جداول بأسمائهم، فلم تنفعهم هذه الحيل كلها، وكانت صفة إجلائهم مؤلمة جداً، فمنهم من كان يدفعه اليأس إلى تخريب منزله أو إضرام النار فيه وفي كل ما يملك. ومنهم من كان يصل به القنوط إلى أبعد من ذلك فكانوا يقتلون أولادهم ثم ينتحرون. وكان الكونت دو سالاسار يعاقب الذين تصدر منهم أفعال كهذه، ويسهل للذين يطيعون الأوامر نقل أمتعتهم، ويأمر المسيحيين بأن لا يهينوهم. وكانوا يحشرونهم في أماكن

معينة، منتظرين أن يأتي دور كل فئة منهم في ركوب البحر، فمات منهم كثير في أثناء ذلك، منهم من مات جوعاً، ومنهم من ماتوا بالأمراض، ومنهم من ماتوا جزعاً... يقدر بمئتين وستين ألف نسمة.

هكذا كانت نهاية العرب في «مرسية»[1]، وقد قال الشاعر الفقيه «ابن العسال»:

لولا ذنوب المسلمين وأنهم	ركبوا الكبائرَ مالهُنّ خفاءُ
ما كان يُنصَر للنصارى فارسٌ	أبداً عليهم فالذنوبُ الداءُ
فشرارهم لا يختفون بشَرِّهم	وصلاحُ منتحلي الصلاحِ رياءُ[2]

هذه الإدانة التي لم تحدد شرار المسلمين من فقهائهم، إن لم تكن مطالبة بالمزيد من الصلاح والخوف من الله في أعمالهم كنوع من العتب، فهي حتماً دليل على الفساد والتذبذب والخضوع والجبن عند حكام العرب في الأندلس في تلك الفترة، وتظلّ هذه المفاسد أقلّ وطأة لأنها مفاسد في نطاق فردي، أما المفاسد التي تدعمها مؤسسات كنيسة كاثوليكية مختلفة بمحاكم التفتيش، فهي الفساد لا المفاسد.

فلا بدّ من خلاف مع رأي الفقيه «ابن العسال» هنا، بأن الله تعالى لا يستبدل المفاسد بالفساد، لكن إذا أدّى هذا إلى ذاك فالأمر اجتماعي بحت، والمسؤول عنه هو الإنسان، فكيف أدّت المفاسد الفردية عند المسلمين إلى الفساد عند الاسبان؟!

نحن هنا إزاء أصعب سؤال حضاري، وفي أي محاولة لتحسس الإجابة عليه لابدّ من رصد ثوابت المجتمع العربي المغربي الأندلسي التي سمحت بالمفاسد فيه، إزاء ثوابت المجتمعات الأسبانية التي أدّت إلى ظهور الفساد بالتفتيش عند الاسبان!!

فالأباطرة المسيحيون والقادة الدينيون الأوروبيون الذين أعيتهم الحروب الصليبية في الشرق، عادوا ليجدوا أن الإسلام الذي رجع إلى ممالكهم التي فقدوها على سواحل بلاد الشام بأسرع مما كانوا يتوقعون، يلاحقهم إلى أوروبا بالتزايد السريع لطائفة «القصار Cathari» شعبياً و«بالرشدية» إلى جامعاتهم أكاديمياً.

تقول موسوعة «International»: (إن برنارد غوي يعبر عن الصورة التقليدية لحكام التفتيش، ففي ستة عشر سنة أدان تسعمئة وثلاثين شخصاً... في فترة تكاثر «القصار Cathari»... لذلك اعتبر البابا «أينوسنت الثالث» أن هذه الزندقة يجب أن تعامل معاملة الخيانة للدولة... لأنها خيانة لله..)[3].

وهؤلاء «القصار» هم الذين راحت محاكم التفتيش تتعقبهم، بعد القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلى القرن السادس عشر وبعضاً من القرن السابع عشر، تحت تهم السحر والتعامل مع الشيطان؟!

قال رسل: (إن معظم «القصار Cathari» كانوا... في جنوب فرنسا... وشمال إيطاليا... وهم شأنهم شأن اللاأدريين كانوا مزدوجي التفكير لكنهم... كانوا يعتبرون أن التوراة ويهوه «Jehovah» من صنع

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤٦ - ٤٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٤١.

(٣) Encyclopedia International, op. cit. Vol 9, PP 304-305.

الشيطان الرجيم... وكانوا يؤمنون بالتناسخ(*)، فلا يأكلون لحم الحيوان ولا يكذبون ـ صدق اللسان ومحبة الإخوان ـ لذلك كان الشخص إذا أراد أن يدافع عن نفسه ـ أمام التفتيش ـ ضد تهمة الهرطقة كان يقول: إنه يأكل الحيوان، ويكذب، وبذلك يقسم على أنه كاثوليكي جيد)[١].

وقد شهدت هذه النحلة القادمة من الشرق نتيجة تلاقح الفكر المسيحي مع الإسلامي رواجاً في بلاط الملوك الصليبيين أنفسهم، ففي (جزيرة صقليا كان هذا التمازج على أوضح صوره، فالإغريقية والعربية كانت لغات حية... والملك «فردريك»... كان يتقن الفلسفة العربية، وله صداقات قوية مع المسلمين... ويقال إنه مؤلف كتاب «Detribus Impostoribus» أي: الرسل الثلاثة: موسى وعيسى ومحمد، الذي نسب بعد ذلك إلى «سبينوزا» دلالة على أنه عدو الكنيسة)[٢].

وقد كان بلاط «فردريك الثاني» هذا شرقياً بكل معنى الكلمة، من أثاث وحريم وخصي، (ومن هذا البلاط بدأ الشعر الإيطالي)[٣]، فهرطقة «القصار» أدّت إلى نقل الروح الأدبية إلى الغرب لتحركه نحو مختلف المعارف، متزامنة مع «الرشدية» في الأكاديميات الغربية في ذلك الوقت، فحاربتهما الكنيسة معاً، وذلك بسيف التفتيش «للقصار» وبقلم «الأكوينية» للرشدية، وبالحروب الصليبية ضد العرب والمسلمين أنفسهم، شرقاً بالحملات الشرقية، وغرباً في الأندلس، لذلك كان يعفى من الحملات الصليبية على المشرق كل سكان أسبانيا المسيحية.

فمشروع «توماس الأكويني» و«ألبرت الكبير» على المستوى الأكاديمي منذ سنة ١٢٥٩م هو أنه (طالما أن العرب قد تعلموا حججهم العقلية والفلسفية من الإغريق ـ وبها ينشرون الإسلام ـ فمن الضروري اكتشاف الفلسفة الإغريقية خلف «ابن سينا» و«ابن رشد»، وأكثر من ذلك... يجب النظر في الأمور الخلافية بين أفلاطون وأرسطو... وعملياً ـ لا بد من إيقاف نفوذ الرشدية والأرسطوطالية في جامعة «باريس» التي تنشرهما في الغرب)[٤].

وكتاب «الثوماثيولوجيا» المرجع إليه في نهاية هذه الصفحة مع «Pegis» الذي حققه عام ١٩٤٤م، والذي يعتبر بمثابة «الفقه الأكبر» للفكر الكاثوليكي، يدور حول هذه الأمور، ولا يخرج عن كونه حواراً مع الرشدية والسنيوية من خلال الفهم المسيحي أو «التومائي» ـ بشكل أدق ـ للأرسطوطالية.

تلك كانت أسلحة الكنيسة الكاثوليكية ـ البابوية ـ في حربها مع الإسلام، وقد كُسِرَ سلاحها الأول في حربها العسكرية الصليبية في المشرق على يد المماليك ثم الأتراك، ومضى ونجح هذا السلاح في حربها مع المغاربة العرب الأندلسيين في المدة ذاتها، ونحن نتتبع معاني هذا النجاح بكتابنا الذي نترجم له

(*) شأنهم شأن من بقي منهم، وأنتجهم تلاقح الإسلام مع المسيحية على جبال وشواطىء سورية الطبيعية، في الدول التي شكّلها الصليبيون هناك.

(١) Bertrand Russell, **History of Western Philosophy,** Routledge London, 1996, P. 439.

(٢) **Ibid,** P 346.

(٣) **Ibid,**P 438.

(٤) Anton C. Pegis, **Basic Writings of ST. Thomas Aquinas,** Random House, N.Y. 1944, P.XLIII.

هذا: «أخبار سقوط غرناطة» عسى أن يرى القارىء معنا كيف أدى هذا النجاح إلى انتشار سلاح الكنيسة الثاني: «محاكم التفتيش»، مع هذه الحرب وبنتيجتها في كل أوروبا، حتى على يد البروتستانت أيضاً، وما سببه ذلك من هجرات أوروبية إلى أميركا التي اكتشفت بنفس فترة زوال «غرناطة»، وتحديداً بعد سقوطها بعامين، وما لطخت به الكنيسة يدها فيه، نتيجة سلاح التفتيش من دماء أوروبية بريئة، دفع بتلك الشعوب بعد القرن السابع عشر إلى فصل الدين عن الدولة، وإقصاء الرهبان نحو أديرتهم.

آنذاك لم يبق لهم من هذه الأسلحة الثلاث سوى سلاح الثيولوجيا، الذي ظلّ يستعمل «عرّادات» الأكويني ضد الفلسفة الإسلامية، إلى أن قامت فلسفة النهضة بتدميره بمدفعيتها الثقيلة، فتوجهت كل العلوم لنقد مسلمات الكنيسة التي كانت الثيولوجيا تظن أنها بديهيات لا نقاش فيها، ككون الأرض محور الكون والشمس تدور حولها، وعمر الإنسان فيها منذ آدم «٤٠٠٣ سنوات»... الخ من الضلالات التي سبق «للقصار» إدانة التوراة بسببها، دون سند علمي.

وانقطع الحوار مع الفلسفة العربية الإسلامية ـ المشرقية ـ لأنها همشت بالتصوف العربي من جهة، وليس لها من يحملها لا شرقاً ولا غرباً من جهة أخرى، سوى العصائب والفرق لا المؤسسات المنظمة.

وبعبارة أدق كانت الفلسفة جزءاً من أسلحة مؤسسة اسمها: «الكنيسة الإمبراطورية»، التي تخضع لها كل دول الغرب، ولها قضاتها وقضاؤها الذي يحاكم بالتفتيش من لايخضع منهم، في الوقت الذي كان على عاتقها محاربة الشرق بالحروب الصليبية، وإسقاط الأندلس.

وهذا يعيدنا إلى سؤالنا الأساسي في البحث عن الثوابت الحضارية التي ميّزت وتميز الشرق عن الغرب، والتي سمحت بالمفاسد الشرقية والفساد الغربي في القرون الوسطى؟!

لنجد أن فساد الغرب كان فساداً مؤسساتياً استعمل المسيحية، بينما فساد الشرق من مفاسد العصبية العشائرية التي كانت ولا زالت أساس بناه الاجتماعية، والتي استعملت ولازالت تستعمل الإسلام أيضاً لأغراضها المتنوعة بتنوع أهواء العصائب.

وهذا ما سيظهر جلياً للقارىء حين سيقرأ هذه «الأخبار» عن سقوط غرناطة، بين أب يقتل أولاده، وابن يعقّ أباه وعمه من أجل الملك ولو أدّى ذلك إلى بيع نفسه لأعدائه، وبالتالي بيع أمّته لهم.

ولكي لا نذهب بعيداً يكفي مقارنة هذا الأمر بقتل ونفي ثلاثة حكام عرب لآبائهم في هذا القرن العشرين لهدف السلطة المشابه، ويكفي القارىء اللبيب تذكّر أحداث هذه المنطقة منذ خمسين سنة ليعددهم لنفسه.

فمفاسد العصبية العشائرية ضد فساد المؤسسات الكنسية، تختصر قصة الصراع بين الواجهتين التي احتمتا بهما: الإسلام والمسيحية.

نمطان من الحياة الاجتماعية كانا يختبئان وراء كل هذه الظواهر في كل مقيمها المقعد:

الأول: نمط اجتماعي عصبي يأتي من كل النظم العشائرية القبلية في العالم، وقد تساوى فيه العرب والبربر في الأندلس لطبيعتهم العشائرية المتشابهة.

والثاني: نمط اجتماعي طبقي يفرز المؤسسات بدل العصائب، انضوى كرد فعل على الدعاوى الدينية التي لا يرى من آثارها عند الفاتحين وعليه إلا صراعاً عصبياً، أقول: انضوى هذا النمط الطبقي تحت جناح المؤسسات الكنسية، ولم يخرج من تحت نفوذها القاتل إلا حين شكّل مؤسساته البورجوازية، ثم العمالية، ثم الإمبريالية التي تجسّد سيطرة هذا النمط المؤسساتي صناعياً وتقنياً على كل العالم اليوم، حتى لكأن الحضارة أصبحت رديفاً اليوم لمعنى المؤسسة، ولازال العالم الثالث غير قادر على فهمها إلاّ على أساس «دولة المؤسسات»، التي إذا سيطرت عليها عصبية من عصبياته ساقتها إلى الوراء، على نفس خطى هذا الصراع الأندلسي الذي نعرضه، بينما لم يبرز تفوق العقل الغربي على العالم «بدولة المؤسسات» التي لم تثمر تجربتها الفاتيكانية إلا محاكم التفتيش، التي اضطهدت الشعوب الأوروبية بقدر ما اضطهدت الإسلام، بل برز تفوق الغرب بالخلاص من دول المؤسسات دون نبذ فكره المؤسساتي، وذلك بتشكيل: «ديمقراطية المؤسسات» التي لا علاقة للدولة فيها، بل هي التي تشكل الدول، وهذه الديمقراطية المؤسساتية لا الفردية استطاعت أن تعبر عن كل الطبقات في المجتمعات الغربية الطبقية، لذلك رفضت دكتاتورية البورجوازية بقدر ما رفضت اليوم دكتاتورية البلوريتاريا أو الشيوعية. ففشلت الثورة الفرنسية كما فشلت ثورة أكتوبر، وها هي الديمقراطية المؤسساتية تبتلع العالم «بجنرال موتورز» و«ثري أم» و«شركات النفط المختلفة» وبورصات العالم...الخ لتوزع الدكتاتوريات فيه كما تحتاج مصالحها، وتشعل الحروب العشائرية كما تقتضي أرباحها.

نستنتج من هذا أن: شرّ فساد المؤسساتية هو ضد خصومها أولاً، بينما شرّ مفاسد العصبية ضد عشائرها وأبنائها أولاً، فإذا استشرى فساد مؤسساتي في أمة ذات عقلية مؤسساتية، استبدلت مؤسساتها.

وهذا ما حصل باستبدال الكنيسة بالمؤسسات الاقتصادية والتقنية التي سمحت وتسمح للغرب بهذا الازدهار المدمر الخارق.

أما إذا استشرت المفاسد بالعصبية استبدلت بعصبية أخرى، وهذا هو أساس الركود الاجتماعي العربي والشرق أوسطي كله، والذي يبدو فيه التاريخ وكأنه يعيد نفسه، ولا يتحرك إلى الأمام في أي اتجاه، سواء كان مدمراً أم غير مدمر، فَجُلُّ ما يفعله المجتمع العشائري هو لفظ غير أبنائه، ومنعهم من المساهمة فيه، إلى أن يتزايد هؤلاء الأبناء فيشكلون عصائبهم التي تتصارع، فإذا كانت في مجال الاقتصاد أفقرت بعضها، وإذا كانت في مجال السياسة قتل الابن أباه، والعم ابن أخيه، وهذا ما فعله «الزَّغْل» حرفياً مع أولاد «الطاهرة» إخوة «ببدول» وما فعله «أبو الحسن» قبله مع أولاده في هذه «الأخبار».

أما المجتمعات الغربية التي انضوت تحت جناح المؤسسة الكنسية الكاثوليكية في هذه الحروب، فقد بدت بربرية في انضوائها، مقيتة في تعصبها، من خلال هذه «الأخبار عن سقوط غرناطة» التي ساقها لنا «إيرڤينغ»، فهؤلاء المرتزقة الألمان الذين جاؤوا من ألمانيا لكي يعطوا «فردناند» مدافعهم الثقيلة ويرجحوا كفّة الحرب له، تاركين بلادهم التي كانت بذاك الوقت بالذات معرضة للعثمانيين، لا يفهم سلوكهم هذا إلا بالمؤسسة الكنسية التي كانت تحركهم كما تشاء، وحسب مصالحها لا مصالحهم هم، كذلك «ولي العهد» البريطاني الذي جاء ليساهم في لعبة الحرب على أسوار «الأقصى»، ويعود وقد فقد أسنانه الأمامية كلها، لا يفسر سلوكه إلا بنفس هذا الأمر.

إذ طالما كانت اللعبة المؤسساتية الكنسية ضد العصبية العربية والبربرية المغربية، كي يساهم فيها كل الغرب، لكنها حين ارتدّت عليهم بمحاكم التفتيش بدأوا برفضها، فبريطانيا لم تسمح لهذه المحاكم في أراضيها أبداً(*)، وحين شعرت بأن الكاثوليكية تعد نفسها مؤسسة الله لا مؤسسة المجتمعات المسيحية الأوروبية، انفصلت عنها مع «هنري»، وتبعها الألمان مع «لوثر» وكذلك شمال أوروبا كلها، ثم تمّ الاستغناء عن خدماتها نهائياً حين راحت الدول الأوروبية والأميركية بفصل الدين عن الدولة، فسقط الراهب القاضي الذي يتحكم بكل صغيرة وكبيرة للناس كما صار الراهب المحارب مدعاة عار لا مدعاة فخار.

فعلى رجل الدين الموعظة بالتي هي أحسن، لا بالتي هي أسوأ، وعلى المؤسسة الكنسية أن تضم كل مؤسساتها التي كانت تشكل كتائباً عسكرية في أسبانيا، «كالفرير» و«الفرنسيسكان» و«القلبين» وسواهم لتحولها إلى كتائب خدمات إنسانية، وهكذا صار هؤلاء في العصر الحاضر يخدمون الناس أفضل الخدمات التربوية والصحية والأخلاقية بعد أن وضعوا عنهم وزر سيوف مؤسسيهم.

لذلك يمكننا أن نقول كلمة حق بحق هؤلاء الآن هي إنهم حين خسروا سلطاتهم السياسية والحربية، ربحوا مودة كل الشعوب والحكومات، فهم اليوم لا يمكنهم أن يكونوا أعداء للإسلام أو لأي دين أو رأي يخالفهم، ومؤسساتهم التعليمية والصحية والاجتماعية تقدم للكل الخدمات.

لقد تغير الزمن برهبان الكاثوليك فلم يعودوا يخفون وجوههم ببرانسهم التي أخذوها من الزي المغربي الأندلسي، خزياً وعاراً من تفتيشهم، بل صاروا أساتذة وأطباء وصليباً أحمراً طالما انضوينا تحت لوائه بهلالنا الأحمر، وفي جامعاتهم التي مارسنا فيها صلواتنا الخمسة بتشجيع من هؤلاء الرجال، المحبذين لكل فعل أخلاقي بعد أن صححوا خطأً مؤسساتهم بفهم معنى الأخلاق، لأن الزمن وتنوير المجتمع المؤسساتي كاد أن يدمرهم لو عاندوه في فهم مسيرة التاريخ، لكن عصائبنا لازالت تعاند، وقد زرعت بينها العصبية الصهيونية لتعاند مسيرة التاريخ والجغرافيا أيضاً، وبها أس بلوى هذه المنطقة من العالم، وسنرى في هذه الأخبار كيف كانت مؤسسات التفتيش تدمر العصائب اليهودية لتسوق أموالهم كي تدمر العرب، فأي فرق بين تلك المؤسسات ومؤسسات الطاقة والحروب اليوم، في العقلية البربرية الواحدة، التي تقع على العرب وقوعها على الصهيونية المغرورة بحمايتهم لها الآن.

ما فسّرناه وما لم نستطع تفسيره في هذه الأخبار:

لقد استطعنا أن نفسّر سبب فتح الأندلس بالصراع العصبي الجاهلي القاتل الذي ظلّ فعّالاً في الإسلام بعد الفتنة وموقعة «صفين»، ليعود ويأخذ طابعه الاجتماعي على شكل العداء التقليدي بين «القيسية واليمانية»، بعصبيات كل منهما، لذلك استطعنا أن نفهم سبب الذلّ الذي لحق «بإبن نصير وابن زياد» بدمشق بعد أن عادا بمئات الملوك وأبنائهم أسرى لها، بفتح لا نظير في التاريخ له، لأنهما صنعاه بقبسة المجد الأنصاري الذي أراد الأمويون لهاأن تخبو بعد موقعة «الحرة».

(*) وإن هي مارستها في فرنسا بحق «جان دارك» مثلاً.

واستطعنا أن نفهم كيف عاد الأمويون لزرع بذرة هذا الشقاق العصبي، بصَلْبِ «عبد الملك بن قطن الفهري» بعد سقوط «الغافقي» في بلاط الشهداء، فانتقلت عدوى هذا الصراع إلى البربر الذين جاؤوا من بيئة عشائرية كالعرب، فلم يعد العرب خصوماً لأنفسهم في الأندلس فقط، بل صاروا خصوماً لشركائهم في الفتح، وكل عشيرة بصورة أدق خصماً للأخرى.

وهذا يقودنا إلى أن الأسبان صاروا مهيئين للبحث عن هويتهم في خضم هذا الصراع، خارج إطار الدعوة الإسلامية التي لم تعد تعني لهم أكثر ما عنته للبربر من ذلٍ واضطهاد(*)، فوجدوها بمؤسسة وحيدة يمكن أن تنهض بدولتهم هي الكنيسة؟!

وفهمنا أكثر من كل هذا: أن العقلية المؤسساتية متى استحكمت ببيئة اجتماعية قادتها نحو دروب القوة، وهذه العقلية لم يكن لها حيز في فكر العرب.

والقوة الغاشمة لمؤسسات الكنيسة حين عزلها الغرب عن السلطة السياسية بعد القرون الوسطى، توجهت للخدمات الاجتماعية فصارت حضارية بها، بعد أن كانت بربرية بمحاكم تفتيشها السياسية، رغم أن أمثال «إيرڤينغ» الحضاريين ظلوا على كرهها.

وهذا لا يعني أن الغرب استغنى عن المؤسسات الاجتماعية، باستغنائه عن مؤسسة الكنيسة الدولة، بل ظل على فهم الحياة الاجتماعية من خلال المؤسسات إلى اليوم، وهو درس لا يمكن للعصبيات تعلّمه.

وبعد أن استطعنا أن نفهم باطل الصراع العصبي وراثياً وعلمياً، رأينا كيف أن وهم أنسابه، كواقعة وظاهرة اجتماعية تتحرك بمعزل عن باطلها وصحتها، ظلّت فعالة في المجتمع الأندلسي منذ ٧١٢م إلى ١٢٣٨م أي منذ الفتح الأنصاري إلى الغالب النصري أي أكثر من خمسمئة سنة، تجتر باطل هذا الوهم إلى أن بقي أصحابه وحدهم فيه، فتخلوا عن إخوانهم في الأندلس كلها من المسلمين، إلى حد أن الغالب لم يأخذ لقبه هذا إلا من إسقاط «اشبيلية» مع الأسبان.

وبهذا عادت العصبية ـ وقد أثبتنا أن الأنصار براء منها ـ لكن تحت وهم اسمهم تجتر نفسها بدويلة «غرناطة»، المذلولة بالجزية الفاحشة للصليبيين.

وبذلك يتضح الصراع في الأندلس أمام القارىء بين منطقين ـ عبر آلاف الأحداث التي لا نستطيع أن نلمّها بين دفّتي سفر ـ خلال حوالي ثمانمئة عام بين: منطق المؤسسة ومنطق العصبية.

وقد حاولنا رسم صورة سريعة لمنطق الدولة المؤسسة على التعصب الديني، وكيفية تطويره عبر الزمن في الغرب، وبين منطق العصبية المقاوم للتطور عندنا إلى الآن.

وهذه ـ الاستاتيكية ـ السكونية الاجتماعية التي يعبّر عنها منطق العصبية، إزاء حركية المنطق المؤسساتي، نرى أنها تحتاج إلى مزيد من البحث؟! فإذا كانت العصبية القبلية كما لاحظ كل من «ابن

(*) إن الدعوة الإسلامية على عظمتها تتجسد بالدعاة كقدوة، إذا أساؤوا أساؤوا لكل هذه العظمة، ولذلك لم ينتشر الإسلام كظاهرة اجتماعية كاسحة في أسبانيا، كما حصل له بباقي العالم حيث حلّ، بسبب الصراع العصبي المقيت بين العرب هناك في اسبانيا.

خلدون وابن الأزرق»(*) ـ وكلاهما أندلسي الأصل ـ تتكثف في العشيرة لتقطر بأفخاذها، فهي بالنتيجة لا تعبر عن نفسها إلاّ بأنانية شخص واحد، هو رب العشيرة أو شيخها!!

فهل هذا يفسّر لنا تلك المقاومة الضارية «للزَّغْل» التي ألهبت خيال «إيرڤينغ» حول البطولة العربية في الأندلس، وكذلك ابن عمه وصهره «النيار» مع قائدهما الشجاع «ابن حسان»، ثم استسلامهم فجأة «لفردناند وإيزابيلا»، وأكثر من ذلك ذهابهم إلى تقبيل يديهما، ثم إعلان تنصّرهم جميعاً؟! ودفعة واحدة انبهاراً بالعرض الذي قامت به «إيزابيلا» أمام «بازا» أو إضعافاً «للزَّغْل» من ابن عمه وصهره «النيار» أم ماذا؟!

وهل هذه العصبية بانحلالها إلى الأنانية هي التي حوّلت «النيار» إلى مقاتل شرس في صفوف النصارى، يحتال لهم لإسقاط قلعة «روما» مرة، ويعيق وصول المدد لغرناطة من المغرب العربي مرة أخرى، باستعادة مرفأ «عدرا» من ابن عمه «ببدول» ومنعه من إسقاط «سالوبرينا»، حتى يظل محصوراً «بغرناطة» دون أي مدد إسلامي لمدينتهم من الخارج؟!

وهل الوجهة الأنانية التي تتحرك العصبية العربية نحوها هي سبب كل هذا؟!

من السهل أن نعزو الأمر إلى الخيانة، وهي كلمة تتردد عقب كل هزائمنا الحربية، ولكن هل يخون الإنسان نفسه؟! ومن هذه الأخبار هل خان «الزَّغْل» نفسه، أم خانته العصبية التي هي أساس خيانة كل العرب لأنفسهم، حين سرقه ملك «فاس» في المغرب العربي وكحله بالنار وأعماه، ليعيش طويل العمر بين العمى والذل في «فلز العمرية» بالمغرب العربي، شيخاً خرفاً يطارده أطفال المدينة، ويضعون على ظهره عبارات: «ملك الأندلس»؟!

هذا ما لم نستطع تفسيره في هذ «الأخبار» ولا أعاننا «إيرڤينغ» المحب للعرب على أي تفسير، بل كان كل ما فعله هو إبراز البطولات الفردية من القواعد الشعبية الإسلامية، إزاء هذه الخيانات من قادتها، فإزاء خيانة «النيار وابن حسان» أبرز لنا «إيرڤينغ» بطولة «علي بن فهر» السيد الذي غادر إلى الصحراء العربية المغربية رافضاً ما قبل به قادته، وإزاء خضوع «الزَّغْل وابن عمه ببدول» وتسابقهما على ود النصارى، أبرز «إيرڤينغ» بطولة السيد الفارس «معاذ بن أبي غسان» مؤكداً أنه لو كان بالسلطة منذ بداية الحرب لما سقطت غرناطة.

وقبل ذلك إزاء جبن وتخاذل «ببدول» بأول معركة يخوضها مدفوعاً من قبل أُمّه «الطاهرة» التي تريد له الملك بأي ثمن، أبرز لنا «إيرڤينغ» بطولات «علي العطار»، ومن بعده أحفاده الناريون الذي دوّخوا القوات الصليبية في عقر دارها في سهوب «قشتالة» نفسها، التي ظلّت تحمل اسم حديقة «علي العطار» حتى القرن التاسع عشر.

وسيرى القارىء أن تكتيك «إيرڤينغ» في إنصاف التاريخ الإسلامي، مع المحافظة على الأمانة بسرد

(*) أنظر الشرح الوافي لنظرية العصبية «الخلدونية» عند «ابن الأزرق» في كتابه الهام: بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي النشار، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٧.

أحداثه إلى أبعد الحدود، هو مقابلة الخساسات بالبطولات العربية، وتركنا نحتار في أسبابها، لأنه كان محتاراً مثلنا بغوامض تلك الأسباب من الظواهر الاجتماعية التي حكمتها، والتي دفعتنا إلى اللجوء إلى «ابن خلدون وابن الأزرق» لفض تميمة سحرها المرصود بالعصبية.

ورغم كل ما نميل إلى تقريره من أن العصبية تنحل حين تفرعات أفخاذها ـ كما في الدولة النصرية ـ إلى الأنانية الفردية، يبقى السؤال عن الكيفية التي تخون بهاالأنانية ذات صاحبها: لعلم النفس أن يجيب عليه، وقد تكون أسرع إجابة لخيانة «الزَّغْل» و«النيار» في نهاية هذه الأخبار بعد كل بطولاتهما في أولها، لعلم النفس بأن يعزوها إلى تقدمهما بالعمر، وبالتالي نحو خطرفة الشيخوخة، وهذا ما لمح له «إيرفينغ»، لكنه لم يستطع أن يجد «ببدول» أثناء هذه الأخبار إلاّ شاباً يافعاً، وكأني بالأمر يتجاوز علم النفس نحو الظواهر الاجتماعية ثانية به؟!

لذلك اعتاد كتابنا العرب القدامى على عبارة تقية حسنة المخرج من مثل هذه الورطات التفسيرية، نحب أن نستعملها من القلب ثانية، هي: «والله أعلم».

مصطلح الأندلس:

يتحدث هذا الكتاب عن «أخبار سقوط غرناطة» تماماً كما سبق وتحدث «لسان الدين الخطيب» عن «الإحاطة في أخبار غرناطة»، وكل من «لسان الدين الخطيب» و«إيرفينغ» بدأ في وضع كتابه من قصر «الحمراء» بالذات، فقد (كان ـ ابن الخطيب ـ خلال هذه الأعوام التي سطع فيها نجمه يعيش... بقصره في الحمراء، وأحياناً بقصره... «بعين الدمع» بجوار غرناطة)[1] حوالي عام ١٣٥٩م[2]، أما «إيرفينغ» فقد أنهى جمع كتاب «أخبار سقوط غرناطة» من مخطوطات «آغابيدا» و«الأوسكاريال» الأخرى التي ذكرها في مقدمته عام ١٨٢٦م، بعد أن سكن أيضاً في قصر الحمراء، كما ذكر في كتابه المعنون باسم «الحمراء»[3] والذي ترجمناه له، وكما توسع «الخطيب» ووسع كتابه «اللمحة البدرية في الدولة النصرية» بكتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»، وسّع «إيرفينغ» كتابه «حياة ورحلة كريستوف كولومبس» عام ١٨٢٨م بكتابه «أخبار سقوط غرناطة» عام ١٨٢٩م، ثم وضع انطباعاته الفكرية والفلسفية والأدبية عن الكتابين بكتاب: «الحمراء» ١٨٣٢م، ثم توّج كل هذه الكتب بكتابه عن سيرة الرسول ﷺ عام ١٨٤٩م.

وهذا يعني أن كل باحث جدي في تاريخ الأندلس الاجتماعي، لا يستطيع أن يقتصر على التاريخ الحربي والسياسي فيها، فمنهما وحدهما لا يمكن معرفة أي شيء واقعي عن الأندلس.

والفارق الزمني بين «ابن الخطيب» و«إيرفينغ» حوالي ٤٧٠ سنة بين «الإحاطة في الأخبار وأخبار السقوط»، يحمل لنا في تطاول زمنه ضرباً من الدهشة التي ألجمت الأفواه، أو كممتها عن حضارة

---

(١) الإحاطة، مرجع سابق، ج١، ص ٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤.

(٣) الحمراء، مرجع سابق، ص ٦١ ـ ٦٥.

الأندلس العربية الإسلامية الضخمة التي أزيلت بهذا الشكل البربري من القارة الأوروبية، فلا نجد أي كاتب سار على نهجهما في كتابة تلك الأخبار.

والذي جعل الأمر في الأندلس يختلف عن أي حرب أخرى، منذ أن بدأ الإنسان بالبحث عن البرونز، ثم الحديد، ليخرجهما من جوف الأرض كي يقتل أخيه الإنسان، تحت اسم الحرب والمجد والنصر، هو أن كل الحروب السابقة من فتوحات مصرية قديمة إلى أشورية وبابلية، إلى فارسية وإغريقية، فرومانية وعربية، انتهاء إلى المغول والتتار(*)، لم تستعمل ما أستعمله الصليبيون في أوروبا ضد العرب والإسلام، من تهجير جماعي لازلنا نلمس آثاره بما يسمى: بحروب «التطهير العرقي»، التي استعملها الألمان أخيراً بالحرب العالمية الثانية، واليهود في فلسطين، والصرب في البوسنة والبلقان، والشيوعيون في جورجيا والأوزبكس.

وإذ يخجل المؤرخون من التصدي لهذه الظاهرة إذا صدرت من أبناء بجدتهم، يتيه من تقع على رؤوسهم في تفسير أسبابها التي لا يمكن أن يقال الكثير عنها، سوى بعبارات التعصّب والتطرف والإجرام وسواها من النعوت التي تصلح لوصف وضاعة الإنسان، وقلّة الأخلاق، دون تحديد لنعت هذه الظاهرة الاجتماعية الخطرة التي بدأها الصليبيون الأوروبيون، وعجز سلاطنة الأتراك «بايزيد» والمماليك «قايتباي» عن مجاراتهم فيها رغم قدرتهم عليها، وسنرى أن «قايتباي» هدّد الصليبيين بأن يفعل بنصارى الشرق ما يفعلونه بمسلمي الغرب عندهم، لكنه لم يقدر، بل لم يطاوعه ضميره أن ينفذ تهديده، فلا هو ولا عقيدته ولا دينه ولا قيم المنطقة تسمح بذلك، أما «بايزيد» الذي لم يع هذه الظاهرة الاجتماعية الغربية الخطيرة أصلاً، فوجد بردود «قايتباي» على نفس وتيرة الصليبية فرصة للتشهير به، ومحالفة النصارى «بدمشق» إن هم شقوا عصا الطاعة ضده.

والواقع أن هذه الظاهرة لم تبرز في الشرق بأكثر من التلويح بها، وفهمها بعد أن برزت في الغرب، وتحديداً على أهل الأندلس العرب المسلمين، فكل مقت العصبيات العشائرية والتي فتكت «بلسان الدين الخطيب» وأمثاله من نابهي «الأندلس» بذريعة الخروج عن الدين حيث (وجّهت له التهم القديمة، التي وجّهت إليه في غرناطة، وصاغها القاضي أبو الحسن في قرار اتهامه... وعذر ابن الخطيب وعذّب أمام الملأ... وقتلوه خنقاً في سجنه... ثم أخرجت جثته... وأضرمت حولها النار)[1]، أقول: كل مقت هذا الذي ينتج عن تعصّب العصائب وشرورها، لم يضارع مقت «إيرفينغ» وكل مؤرخ اجتماعي حر لوحشية التعذيب والتهجير المنظم الذي كانت تمارسه «محاكم التفتيش»، إذ حتى الإرهاب والوحشية الفردية الإنسانية التي لا نبرىء منها أندلسياً أو غير أندلسي، صارت تعمل عند الغرب ضمن مؤسسات.

ولئن رفضت المؤسسات الدنيوية هذه المؤسسات الاعتقادية التعصبية الدينية عندهم بعد ذلك، فأعلنوا فصل الدين ومؤسساته عن الدولة، كرهاً بهذا الإجرام المنظّم حين ارتد عليهم فقط، فقد ظلّت عليه الكثير من عقائدهم ودولهم تجاه الآخرين.

فالتهجير والتنزيح والتصفيات العرقية و«الإثنية» بدأت من الأندلس، إلى النازية والشيوعية، وانتهاء بمن

(*) كانوا برابرة سفاحين، لكنهم لم يطردوا الناس ليأخذوا بلادهم ويسكنوا فيها بشكل منظم، بل نهبوا وسلبوا ودمروا فقط.

(١) الإحاطة، مرجع سابق، ج١، ص ٤٢ ـ ٤٣.

صنع القنبلة «النترونية» التي تقتل بالأشعة دون تدمير الممتلكات... كلها جزء أساسي من العقلية الأوروبية التي وضعت مبررات الإصطفاء العرقي الداروني، أو الطبقي البلوريتاري الشيوعي في خدمتها تنظيرياً، لتبرر هذه العقلية بعد ذلك بالعلم.

فضمن هذا النطاق الواسع من العقائد المتباينة ـ من دينية إلى عرقية نازية فشيوعية فيهودية غربية «صهيونية» ـ في الغرب نجد قاسماً مشتركاً واحداً يوحّدها هو: التهجير؟! في إرهابه وعنفه المنظم.

وقد بدأ هذا التهجير على يد المؤسسات الدينية الكاثوليكية بالأندلس في محاكم «التفتيش»، ومرّ بمؤسسات الشركات الاستعمارية وخاصة بروتستانت أميركا ضد الهنود الحمر، وعاد ليستعرّ في هذا القرن بالعرقيات النازية التي هجرت الغجر، وعرب ليبيا على يد الفاشية، مع اليهود في ألمانيا النازية، ثم الشيوعية التي استعملت الإصلاح الزراعي وسيلة تهجير لخصومها من الأعراق غير الروسية، بدليل أن الشيوعية بعد أن زالت في «البلقان» في تسعينات هذا القرن كان من المفروض زوال التهجير معها، لكنه استمر في «البوسنا وصربيا» إلى الآن، وهما صارتا أندلساً معاصرة يثقل ضمير كل أمم الأرض اليوم.

وقد كان قدر بلادنا المعاصر مع مطلع هذا القرن هو أن يتلقى العرب نتاج عقلية التهجير الأوروبية هذه من الأمم، فامتلأت «الحجاز» بالبخارية والطاشقندية المهجرين من روسيا السوفياتية، ومن الداغستانية والشركس بكل أصنافهم أيضاً، كما بقي بعضهم في سورية الطبيعية والعراق، إضافة إلى الهجرات الأرمنية التي هجّرها الأتراك المعجبون بالفكر القومي الأخرق عند الألمان، ناهيك عن اليهود الذين هجّرهم هؤلاء الألمان، وما يسببونه من عقلية صهيونية تهجيرية مشابهة من مآسٍ في فلسطين، ولا ننسى «الأرناؤوط» أي مسلمي «البوسنة والهرسك وألبانيا» الذين نزحوا إلى بلادنا في جاليات كبيرة ولا زالوا يهجّرون من الصرب.

كل هذا المنطق التهجيري بدأ من الأندلس، وظلّ فعّالاً وكامناً داخل كل العقائد الأوروبية بلا استثناء، من أقصى اليمين النازي إلى أشكل اليسار الشيوعي، وكل الأمم الشرقية التي تبنت تلك العقائد كالأتراك حين تبنّوا الفكر القومي، أو الدول العربية التي تبنّت الاشتراكية وقعوا بمطب التهجير، فطرد الأتراك الأرمن ولا زالوا ينكّلون بالأكراد، وأعلنت الدول الاشتراكية مصادرة الأملاك فهجّرت جزءاً من سكانها على أساس أنهم بورجوازيون عملاء ـ والله أعلم لمن ـ وطردتهم من أراضيهم بدعوى أن مساحتها كبيرة وأكثر من اللزوم، مما حوّل المصادر الزراعية إلى بستنات صغيرة، يلومون اليوم ظواهر التصحّر لا أنفسهم على جفافها، كما هجّروا رؤوس أموالهم الوطنية التي كانت تحاول أن تستثمر في وطنها، فصار رأس المال الوطني دوماً هارباً إلى الغرب.

لذلك يمكننا القول أن لا توجد مدينة عربية اليوم لا يعاني أو يتذكر عدد كبير من سكانها فواجع تهجير أهلهم، مما يعني أننا لا زلنا نعيش ظاهرة اسمها: الأندلس.

فالأندلس مصطلح، وليس إسم أمة دمّرها طغيان التهجير الأوروبي في الماضي وانتهى فقط، إلى درجة أننا وبعد الحرب العربية اليهودية، وحرب لبنان البربرية الأخيرة، صارت كلمة مهجّر نعت طبيعي، كما في دمشق حيث ثلث جبلها في قاسيون اسمه المهاجرين، لأنه كان مكان نزوح الألبان والبوسنيين وحولها

المخيم وفي غوطتها النازحين، فإذا عرّفك عربي معاصر على نفسه بأنه المهجّر أو المهاجر أو النازح فلان، فاعلم بعد قراءة هذا الكتاب أنه أندلسي، سواءً التقيت به ببلده أو رأيته في المغترب، أو كان من أصول عربية مغربية أو مشرقية أو روسية أو أوروبية، شرط أن يكون مسلماً أو أرمنياً(*)، فعلى هاتين الملّتين وقع بؤس التهجير الجماعي المعاصر، إضافة إلى اليهود الذين حوّلوه لهم بعد أن كان عليهم بوحشية على عرب فلسطين، لا على أعدائهم الألمان؟!

فمادامت الأندلس مصطلحاً!!! سنظل نكتب عنها عسى أن نأخذ منها العظات، ولشعور «إيرڤينغ» بصفتها الإصطلاحية هذه تتبعها لأنها المضاد لكل العقلية اللاتينية الاسبانية في أميركا، التي تتنكر لجذورها العربية العرقية، بعرقية مغالية ضد العرب في أي مكان في العالم الجديد، وهذا ما شهده «إيرڤينغ» وأراد له تفسيراً، فجاءنا بكل هذه الأعمال الضخمة التي بين أيدينا من قلمه الفذ، وهو يتعقّب ظاهرة الأندلس تعقبنا لمصطلحها.

فإذا عنى مصطلح الأندلس لنا أن: التهجير هو مصير العصبيات المتنازعة الحتمي فهو بالنسبة لإيرڤينغ يعني إدانة أرباب الدين الذين يدّعون أنهم يتكلمون باسم الله، فلا تخرج أفعالهم إلا بما لم يخطر على بال الشيطان فعله، وبين هذين المعنيين يمكن للقارىء فهم ما نعنيه بمصطلح الأندلس!! قبل أن يبدأ بقراءة هذا العمل الفريد الذي نترجمه لهذا الأديب المفكر الاجتماعي «واشنطن إيرڤينغ».

وعلى ضوء هذا يمكن للقارىء أن يعرف سبب إسقاطاتنا المعاصرة على الأحداث الاجتماعية والسياسية القديمة، «ففردناند» حين جانس بين مملكة غرناطة ومعناها اللاتيني «Granada» أي ثمرة الرمان، أراد أن يحدّد سياسته بضرب هذه المملكة أباً بابن بعم والعكس، لأخذها حصناً حصناً أثناء ذلك، فاتبع سياسة الخطوة خطوة التي شهدنا «كيسنجر» يتبعها مع العرب بعد تشرين.

فبنفس منطق العصبية الذي ينحل إلى الأنانية الفردية، يمكن ضرب أي عصبية عشائرية بالتحقيق المؤقت لأقصى مطامح هذا على حساب ذاك، لذلك فبعد استسلام «بازا» ظهرت ظاهرة «المهرولين» التي لا يمكن أن تظهر في مجتمع ذو قيادات مؤسساتية، بل تتكرر دائماً وأبداً في المجتمعات التي تكون قيادتها عشائرية عصبية، وما تطابق هذا المصطلح بشكل يسمح بإسقاطه على الأندلس كما يسمح بإسقاطه على العرب اليوم، إلا لاستمرار الظواهر الاجتماعية التي كانت تحكم ذاك المجتمع إلى اليوم، وتحديداً العصبية!؟

كما يمكن للقارىء أن يلمس من مصطلح الأندلس الذي نسوقه فنستنتجه ونسقطه من هذه الأخبار، آلية ـ مكانيزم ـ الردّ العصبي على الإرهاب المؤسساتي بالفداء الشخصي، كما في مثال: «إبراهيم الجربي ـ نسبة إلى جربا بتونس ـ» الذي لم يجد حلاً لإنقاذ «ملقا» من طغيان جيوش صليبيي كل أوروبا ومحاكم تفتيشهم عليها، إلا بفدائها بنفسه في قتل «فردناند وإيزابيلا» معاً، وهو لو نجح لتابع الأمير «جوان» ما فعله والداه بمرافقة «إيزابيلا» الصغيرة أخته، وحتى لو ظهر «جربي» آخر وقتلهما ستنتخب الكنيسة راعيين آخرين، بمعنى أن الفداء الفردي الذي تفرزه العشائر لا يستطيع أن يبدّل الطغيان

(*) لم يطل التهجير من النصارى سواهم.

المؤسساتي، لضعفه ـ رغم رجولته وعظيم فدائه ـ وعدم قدرته على التغيير في مجتمع مؤسساتي يسمى وينعت: بالإرهاب.

بينما الإرهاب الحقيقي هو الإرهاب الذي مارسته المؤسسات الصليبية الأوروبية مجتمعة على الأندلس، مما يدفعنا إلى القول: أن مصطلح الإرهاب على الأندلس يشبه إرهاب الدول اليوم.

هذه بعض الظواهر الاجتماعية التي تعزز رأينا بأن «الأندلس» مصطلح، وليس مجرّد اسم أمّة تقاسمتها أمم أوروبا على قصعتها، ولأنه مصطلح لازال فعل التقاسم هذا مستمراً على قصعة المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية الطاغية في هذا العصر، ومازال غثاء العصبية فينا ومن داخلنا يفتك بنا، لذلك تنعت بطولاتنا الفردية: بالإرهاب لإمكان تحويل المؤسسات المناوئة لها، لفعلها من فداء إلى هرولة، وهذا ما حصل مع «الزَّغْل والنيار وابن حسان وبيدول وابن كماشة وفنغاس» وسواهم، فالقارىء سيذهل ببطولات «الزغل والنيار وابن حسان» ثم يفاجأ بأنهم أصبحوا «كبيدول وفنغاس وابن كماشة»، الذين ظهرت هرولتهم مع أول هزائمهم، وسيحار القارىء في سبب ذلك، إلى أن نوضحه له بمصطلح الأندلس، كظاهرة اجتماعية يمكن من خلالها تحويل الفداء إلى هرولة، وبالتالي نعته بالإرهاب.

وهذا لا يعني أن «مولاي أبا الحسن» و«علي العطار» و«حامد الذعري» الذي اقترن اسم هذا الأخير «برندا» وبالذعر، الذي كانت تحدثه قواته «العمرية» فيها في صفوف النصارى، أقول: هذا لا يعني الفشل النهائي في رد ذعر وإرهاب العصبية على ذعر وإرهاب المؤسسات، بل كل ما يعنيه استمرار ظواهرهم بعد سقوط دولهم، وهذا ما عانى منه المجتمع الاسباني حتى القرن التاسع عشر، ورصده «إيرفينغ» في كتاب «الحمراء» الذي سبق لنا الإشارة إليه.

مما يعني استحالة إمكان صمودهم كدولة في وجه مؤسسات دول، والفشل الذي يعقب بطولات هؤلاء الخارقة وصمودهم، هو الذي دفع «بمعاذ بن أبي غسان» أن يطلب الاستشهاد وحده، بعمل انتحاري يشبه فداء الفدائيين اليوم، على أساس أنه إذا كانت كل هذه البطولات لا تعطي أي ثمرة، فلا بدّ من السير مع إرادة الله التي هي وحدها معيق هذه الثمرات، ونعطيه حياتنا كشهداء.

مصطلح الأندلس إذاً مليء بالظواهر الاجتماعية التي تحطّم الآمال الفردية، لذلك كنا حين نتعقّبها مع «إيرفينغ» نحاول أن نعطيها بعدها وحقها في هوامش الكتاب، فقد تابعنا مثلاً اسم «أبي عبد الله النصري» «بدولاً» حين خياناته وسخافاته، و«أبا عبد الله» حين يمسه قبس مجد الفاتحين من آبائه نادراً.

هذا التقلّب الشخصي العنيف بين طلب المجد والفرار منه، عند معظم الشخصيات الأندلسية التي كان بيدها ولازال ظاهرة: «مصطلح الأندلس»، ووراءه ظواهر اجتماعية حاول هذا الكتاب إماطة اللثام عنها، فإذا صدمت قارئه، عليه أن يسأل نفسه تفسيراً، للملك فشل بكل معركة خاضها، وظلّ مصراً على مصاحبة أبناء عصبيته حتى في المغرب العربي حين نفي إليه، «كأبي عبد الله ـ بدول» ليخوض معهم قائداً لقواتهم بلا مناسبة، تقاتل المسلمين كما كان يقاتل النصارى بالأندلس، على القارىء أن يسأل نفسه، هل سأل «بدول» نفسه لماذا كان يقاتل الصليبيين؟! وهو يقتل المسلمين مع قريبه في «فز ـ أو ـ فاس»؟!

إن «بدولاً» لم يقاتل الصليبيين ولا المسيحيين، ولا «الزَّغْل» عمه قاتلهم ولا ابن عمه «النيار» ولا أباه

«أبا الحسن» المتزوج أفضل زوجاته منهم، بل قاتلتهم عصبية كل هؤلاء التي انحلّت في أنانيتهم الشخصية، التي دفعت «بالزّغل» نحو ذلّ العمى، وسخرية أطفال شوارع المغرب العربي، وبإبن أخيه الذي نافحه «ببدول» إلى الموت الرخيص في سبيل عصبية قريبه «أحمد النصري» في نهر «باكوبا» على يد ثائر مغربي عربي مسلم مجهول؟!

ومن هذا ينتج أن شعارات الحرب لا تعني مضامينها ككل الشعارات!! ومن جهة أخرى ظل «إيرڤينغ» بثاقب نظره يظهر لنا عبر كل هذه الأخبار سذاجة «آغا بيدا»، الذي ظن أن «فردناند» بدوره كان يقاتل من أجل مجد المسيح والنصرانية؟!

فمن أجل ماذا كان «فردناند وإيزابيلا» يقاتلان؟!

إن الجواب سيظهر جلياً للقارىء النابه لهذه الأخبار، بأنهما كانا لا يطلبان إلا دولة المؤسسة ومؤسسة الدولة الوحيدة، فضللا الأسبان، كما ضلّل «البابا» وراءهم أوروبا، بأن هذه الواحدية هي الوحدة الغربية.

وهما حين طردا «ببدولاً»، وحصلا على هذه الواحدية، لم يحققا إلا المزيد من الانقسام في بلدهم بمحاكم التفتيش التي أطلقاها، وفي كل أوروبا بما سمي بقرون جنون مطاردة النِحَل والسحرة؟!

مصطلح الأندلس إذاً يعني: أن دولة المؤسسة أسوأ من دول العصبيات، ولهذا سعى الغرب إلى تحقيق مجتمع المؤسسات لا المؤسسة الواحدة وعليه بنى نهضته، ونحن لازلنا عاجزين عن بناء مجتمع الأمة؟!

لذلك لازال لمصطلح الأندلس مكان بيننا، ومكان تفسيري هام لظواهر حياتنا الاجتماعية، التي بإسقاطنا ماضيها على حاضرها لانفعل أكثر من إضاءة هذه الظواهر، حتى لو لم يعجب هذه الإسقاطات منطق الرقابة المعتم على كل قول إلا أخنعه.

الخيبة العسكرية:

مادامت بنى اجتماعية عشائرية تتحرك بالعصبية القبلية فهي لا تستطيع أن تشكل جيوشاً نظامية، وإن شكّلت فمن جماع عصابات عصائبها تصير هذه الجيوش، وهذا يقودنا حتماً إلى حروب العصابات وكيفية تشكيل جيوشها، وهي ليست بالأمر الهين أو الرديء، فقد دمّر العرب إمبراطوريات فارس وروما بهذه الجيوش، وكذلك فعل المغول بكل العالم في الفترة التي سبقت سقوط الأندلس وبعدها فحروب العصابات من أشد الحروب وأفتكها، وحتى في هذا القرن هزمت فرنسا ثم أميركا بها في «فيتنام».

ولا أظن أن أمّة من الأمم تتقن هذه الحروب وتتفوق بها أكثر من الأمم العصبية العشائرية، فضربات العصابات موجعة مذهلة لكل الجيوش النظامية، لكنها تظل مشروطة بعدد العصائب التي تشترك فيها، فحين اشتركت معظم العصبيات العربية ضد الجيوش الفارسية قبل الإسلام كانت «ذيقار»، وحين اشتركت كلها بعده كانت «القادسية ونهاوند»، و«اليرموك» مع الروم.

أما الأندلس فما كانت لتفتح لولا الأنصار والبربر، وحين تخاذل «القيسية» عن يَمَنِيَّة «الغافقي» ضاع إمكان استمرار فتح أوروبا في «بواتييه» بفرنسا، أو «بلاط الشهداء»، ورأينا كيف أن أول شيء عادوا ليفعلوه بعدها هو قتل «عبد الملك الفهري»، فإذا كان هدف عصائب الأنصار واليمنية كلهم أمامهم،

فهدف من ادعوا نجدتهم من القيسية وراءهم في ذيول معركة «الحرة»، مما فضّ عصابات البربر عنهم جميعاً نحو عصائبها العشائرية الخاصة.

نخلص من هذا إلى أن حروب العصابات لا تصير فتحاً إلا بشرط وحدة عصبياتها، بل لا تقدر على مواجهة جيوش الدول المنظمة بدون هذه الوحدة بحرب مكشوفة، لكنها بدون هذه الوحدة قادرة على تدويخ هذه الجيوش لا الفتك بها نهائياً.

وعملية التدويخ هذه هي التي يفهمها الاستراتيجيون العسكريون من عبارة: حرب العصابات!!! وفهمهم هذا يظل ناقصاً دون معرفة العصبية التي تعمل على تشكيل وانحلال هذه العصابات؟!

اقرأ مثلاً على هذا: من الباب الأول الفصل الثاني عشر والثالث عشر، حول إغارة الفرسان الاسبان على جبال «ملقا»، تجد أن الذي دمّر كل جيشهم الجرار فيها هو قدرة «الزّغل» على إثارة فلاحين «البقصارا» ضدهم، وهذه الفكرة التي لم يوظفها لا الزغل ولا سواه ثانية في هذه الحرب، كانت سبباً رئيسياً من أسباب الخيبة العسكرية فيها.

وهذا لم يكن سهواً أو خطأً من «الزّغل» بل استراتيجية، ورثها هو وأخيه«مولاي أبو الحسن» عن أبيهما عن جدهما عن «الغالب النصري» بتقليد النصارى في تشكيل الجيوش النظامية، ألم يقل «إيرڤينغ» أن: «حرب السهول في «تولوستا ١١٩٠م» قد دمّرت الامبراطورية العربية في اسبانيا... وأن «ابن الأحمر ـ أي ـ الغالب» لم يكن مقتنعاً بالقانون التقليدي القائل: بأن كل مسلم جندي»، كما سبق وذكرنا في سيرة هذا المؤسس الثاني لملك الأنصار.

لماذا؟!

لأن عصبية الأنصار حتى لو التأمت كل فخوذها، غير كافية للتصدي لجيوش دول النصارى القوية، فلجأوا إلى الجيش المأجور والمماليك الصقالبة، تماماً كما لجأ العالم الإسلامي كله إلى المماليك منذ «صلاح الدين» ومن بعده من أبنائه الأيوبيين، لتشكيل الجيوش في بيئة جيوشها هي عصائبها، لأن «الأكراد» لم يعودوا بقادرين وحدهم على صد الموجات العسكرية الصليبية، ولا يستطيعون أن يغامروا بالاعتماد على نخوة العصائب العربية الأخرى لتنجدهم بعصاباتها، دون أن تطالبهم بمشاركتها في الملك؟!

كذلك الحال في الأندلس، فمنطق تأسيس الدول، لا يسمح أن تشارك العصبية القاهرة إلى السلطة فيها العصائب الأخرى بهذه السلطة، لذلك أقصى بني الأحمر تلك العصائب وشكّلوا بدلاً عنها جيشاً هزيلاً، راحوا يتقاسمونه في أثناء صراع أفخاذهم على السلطة، وعلى هذا الجيش المقسم صار عبء منافحة جيوش كل أوروبا المتحدة مع مملكتي «ليون وقشتالة»، ومع ذلك صمدت الأندلس عشر سنوات إعجازية تقاتل؟!

لماذا؟!

لأن بها عصائب تعمل بمعزل عن جيشها النظامي كعمرية «الذعري» وفلاحي سهوب «فلز» و«ملقا»

و«غرناطة» «والبقصارا»، إضافة إلى فرسان المدن غير النظاميين، أمثال «الجنادلة» الذين قادهم «الفهري بن الإصطبار» بعد سقوط غرناطة بسبعة سنوات.

وهم منذ سقوط مملكة غرناطة ١٤٩٢م إلى عام ترحيل كل أحفادهم عام ١٦١٨م نهائياً، ظلّوا يعاملون من الدولة معاملة العصابات الخارجة عن القانون.

والملفت للانتباه أن «الباندیتو» الذين قابلهم «إيرڤينغ» كما ذكر في كتاب «الحمراء» في القرن التاسع عشر، كانوا من سكان الأندلس خلافاً لكل مناطق اسبانيا الأخرى؟!

وهذا يعني أن عصابات العصبية أقوى من جيوش الدول، لكن خيبتها بأنها لا تعي أن قوتها باتحادها، وهي إن وعت ذلك لا تستطيعه لأنها ستضطر إلى الخضوع إلى واحدة من عشائرها لتتوحد تحت رايتها؟!

أما الديموقراطية العصائبية بين العصائب في تقاسم السلطة، فأمر لم نسمع بحصوله في التاريخ العربي أو القبلي للأمم العشائرية، وهذا لا يعني أنه ليس بالحل الناجع؟! رغم فشل الديموقراطية الطائفية وانحلال جيوشها السريع كما في الحرب العشائرية اللبنانية الأخيرة، فعادت إلى بناها العصبية الاجتماعية الأساسية، التي تحميها الادعاءات الدينية تحت عبارات الطائفية المقبولة أو المرفوضة سواء بسواء.

لذلك أكّد «ابن خلدون» بأن ترسيخ الملك يحتاج إلى دعوة دينية، بمعنى أن مطالبة العصائب بالتوحد إزاء أي خطر يداهمها، أو لكي تمتد ديموغرافياً على حساب أمم أخرى يحتاج اجتماعها تحت قيادة واحدة كي تحقق النصر، فماذا ستدعي العصبية القائدة سوى أنها تعمل للصالح العام، أو لهدف مثل أعلى، سوى الادعاء الديني أو العقائدي؟! ولهذا ترى أن الأحزاب التي تسعى إلى جمع عشائر معينة لدعمها حديثاً، تطرح مبادىء عالمية، وعقائد فلسفية، أكبر بكثير من قدرتها على تحقيقها، أي أن هذه العقائد أرادت أن تلعب دور الدين في الماضي، فعاد الدين بشموليته ضد الطائفية أو معها يزاحمها هذه العقائد بأحزاب عصبية عشائرية مشابهة.

وإذ يهمنا حالياً تفسير «أخبار سقوط غرناطة»، رغم أنها لا تخرج عن أخبار حراك الصراع العصبي بكل زمان ومكان، نجد أن الظاهرة التي لم يولها المؤرخون الكثير من الاهتمام الدقيق هي: ظاهرة الفرق بين الفتح والتهجير في مثل هذه الحروب؟!

وهنا وجدنا أن ظاهرة التهجير عند الصليبيين كانت رداً على ظاهرة الفتح عند البربر والعرب لبلادهم، لكنها ردّ متأخر جداً صار كما تعجّب «إيرڤينغ» منه بقوله: «كأنه يشبه الطلب بإخراج النورمانديين من انكلترا، فأين ستجدهم بعد ثمانمئة سنة فيها»؟!

وبالنسبة إلى «الأندلس» وجدهم الصليبيون في ركود عصائبهم الاجتماعي وصراعها مع بعضها، فأصاب «فردناند» بأنه سيلتقط غرناطة حبة حبة كالرمانة، وهذا ما فعله في كل تكتيكه الحربي الذي لم يَعِه خصومه، الذين ظلّوا على صراع فخوذ عصبيتهم مع بعضها يتقاتلون، إضافة إلى عبء منافحة الكل لهم.

الفتح حصل باتحاد العصبيات البربرية تحت عصبية الأنصار القوية في الأندلس بظل الإسلام الذي كان يحمله هؤلاء التابعون، «فنوميديا» كما كان الرومان يسمون بلاد المغرب العربي تعني بلاد العشائر

البدوية، وحين جاءتها عشائر عربية ظلّت تتحرك في حراك اجتماعي واحد معها، فلم يعد مهماً ما هي ديانة البربر القديمة طالما أن الدعوة الإسلامية لها، وهي أن تتحد معها للخلاص من طغيان الدولة المؤسسة «روما» (فالقيروان التي أسسها القائد «عقبة بن نافع الفهري» سنة ٦٧٥م... ثم «سبتة» التي سلّمها له الكونت «جوليان» واليها من قبل «القوط» في اسبانيا)[١]، كانت أولى إشارات التاريخ نحو تحرك الجميع لفتح اسبانيا، لكن معيقات هذا الفتح كانت قبول البربر بسيادة العصبيات العربية عليهم، وإذ لم يقبلوا سيادة العصبية الأموية فقتلوا (عقبة بن نافع في سنة ٦٨٣ في بلدة تهوذة في جنوب قسنطينة)[٢]، وظلّوا خارجين عن الإسلام، إلى أن عاد الأمويون لإرسال «موسى بن نصير» الذي استعان بالقبائل البربرية الموالية، وبالأنصار الذين بوّأهم قيادة تلك العصائب، ثم زحف بهم نحو الأندلس بعد أن شعر بوحدة هذه العصبيات التي صارت قادرة على الفتح.

وهي حين فتحت كانت كما سبق ورأينا تعامل المفتوحة أراضيهم، بشكل أفضل بكثير مما كانت تعامل بعضها بعضاً؟!

وهذا ما ظنّه بعض المؤرخين بأن: «التاريخ لم يشهد فاتحاً مثل العرب»، وهو أمر في واقعه الاجتماعي البعيد عن الافتخارات الجوفاء، يرجع إلى أن بنية ظاهرة العصبية الناتجة عن العشائرية تقبل الولاء، وتستخدمه إلى أبعد الحدود.

بينما بنية منطق التهجير الذي ابتدعته محاكم التفتيش، لا مكان للولاء فيها، لذلك سيفاجأ القارىء لهذه الأخبار بطلب ملكي «قشتالة» من «ببدول» وكل من خضع لهم من الحكام العرب، لا بأن يكون مولى وموالي لهم فقط، بل أن يكونوا: «Vassals»(*) أي خولاً مملوكاً ويتركوا فوراً دينهم؟!

هذا هو الفرق بين منطق الفتح ومنطق التهجير، كالفرق بين التسامح العشائري بعد الخضوع، والفتك المؤسساتي بالخاضعين، فإذا أضفت للفاتح قوانين التشريع الإسلامي السمحة، بدا اختلافه الواضح عن بربرية المُهَجِّر الذي يستقي تشريعه من محاكم التفتيش، لذلك بعد أن أعطى «فردناند» العهد لأهل «غواديكس» لفق لهم تهمة الخيانة، وأخرجهم بطريقة ماكرة من بلدهم ليشتتهم بين أفريقيا وشتاء اسبانيا القاسي، وسيذهل القارىء من عدم رد «الزّغل» على ما حصل بعاصمته هذه، التي حمته من «غرناطة ببدول» و«أشبيليا فردناند»، للعجز النهائي الذي كان فيه، بل الذي وضع نفسه فيه وهو ينافح من أجل أنانيته الشخصية التي أوصلته إليها عصبيته.

وحين راح «فردناند» يكرر هذا العمل بكل صفاقة، وهو يوقع المعاهدات مع المدن العربية واحدة تلو الأخرى، ظلت عصبياتهم الساذجة تعتبره فاتحاً، ولم ينتبهوا إلى أنه مُهَجِّر.

لكن بعد فوات الأوان وحين فاقت عصبيات «البقصارا» على سياسة هذا الداهية، بعد أن استلم «غرناطة» من خوله «ببدول»، تصدّت له عصبية واحدة من عصبياتها بشكل جدّي، وقتلت قائد جيشه

---

(١) ألفرد بل، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي ١٩٦٩، ص ٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٤ أيضاً.

(*) أنظر بأي معجم عربي معنى كلمة: **«فسل»** التي حرّفت باللاتينية بكلمة: **«Vassals»**.

الذي كان يزعم أنه لا يقهر، أعني الكونت «دي غويلار»، فأخرج «فردناند» كل الجيوش الاسبانية والأوروبية تحت إمرته لإخضاع رئيس هذه العشيرة «الفهري بن الإصطبار» في «موناردا»، وطبعاً كان له النصر الذي ما كان يمكن أن يحلم به، لو أن أمثال «الفهري» هذا وقفوا بوجهه قوة واحدة منذ بداية الحرب.

فإذا علمنا أن أكبر جيش ساقه «فردناند» لم يزد عن ثلاثين ألف فارس وسبعين ألف راجل، وأن «البقصارا» العربية وحدها كانت قادرة على إخراج خمسين ألفاً، أدركنا مدى خيبة العصبية العسكرية العربية التي استغلها «فردناند» إلى أبعد الحدود.

إضافة إلى تهويله بتكنولوجيا أجران المدفعية الثقيلة الألمانية، والطبيعة الأوروبية المثابرة التي كانت لصالحه، إزاء الطبيعة العربية النزقة قليلة الصبر، فقد كان لكي يسقط قلعة مثل قلعة «قمبيل والبحرا» في معقلها الجبلي المنيع أن يثابر بدأب عدة أشهر، ويسخر عشرات الآلاف من الأسرى والجنود، ليفتحوا طريقاً لهذه القلعة عبر شعاب الجبال الصخرية الوعرة، من أجل أن يوصل مدفعيته لها، فيدمرها على رأس فرسانها ويوقع الرعب بقلب القلاع الأخرى، بتصميمه الخرافي هذا على تحقيق إرادته، مهما كانت العوائق.

أما في الجانب العربي فلم يكن يوجد مثل هذا التصميم، بل توجد طبيعة نارية سهلة الإشعال والإطفاء، وإدراك «فردناند» لها جعله دوماً من أرق الناس بحضرة هؤلاء القادة العرب، وأكثرهم عنجهية على ملوكهم، فهو لم يطلب ولا من واحد منهم أن يصير خولاً له كسيده، بل على العكس كان يملأهم بالأعطيات فيخرجون من عنده وكأنه هو المهزوم وهم لازالوا فاتحين؟!

تلك هي معالم الخيبة العسكرية في الأندلس اجتماعياً ونفسياً، والتي يخطىء كل قائد حربي في الاستهانة بها، كما استهان بها الأندلسيون.

بين يديّ هذا الكتاب

هذا كتاب يتقاسمه عقلين: الأول يمكنك أن تجده عند كل من كتبوا عن أخبار تلك الفترة من الرهبان، أمثال الأب «أنطونيو آغابيدا» بما كدسوه في الأديرة من حماس وتفاسير غيبية باطلين، وفيما سجلوه من أحداث شهدوها، على شكل مخطوطات كما قال «إيرڤينغ»: «لم يكونوا يحلمون بطباعتها» لأنهم لم يكونوا يعرفون معنى الطباعة في زمانهم ـ وإن كان اليهود استعملوا«الكاغد» على محفورات التوراة الخشبية آنذاك، ونقلوها معهم إلى «الأستانة» بعد أن فروا من الأندلس بعد سقوط مملكة «غرناطة» ـ وعلى الأقل لم يكونوا يعرفون معنى النشر، فجاءت كتاباتهم وكأنها هذيانات طائفية منظمة لوقائع حصلت فعلاً، فلا بدّ من عقل منهجي ينظمها.

وهنا جاء دور العقل الثاني «بإيرڤينغ» الذي تفوّق على كل الكتّاب العرب والاسبان بإعطائه للعالم تاريخ هؤلاء بشكل منهجي عقلاني غير متعصب ومنظم، وإذ يحتل هذا الكاتب الفذ عند الأميركيين المنزلة نفسها التي يحتلها «شكسبير» عند الإنكليز، صارت مخطوطات أمثال «آغابيدا» بيده طيعة مشرقة، إلى درجة أن الكثير من النقّاد في عصره نسبوا إليه تهمة اختراع هذا «الأب» الذي اعتبروه وهمياً، أراد «إيرڤينغ» من خلاله إظهار منطق الكاثوليك القديم في فهم الأمور أثناء محاكم التفتيش ليس إلا، خاصة وأن «إيرڤينغ» ظلّ حتى عصره قليل الود لهذه المؤسسة ـ الكاثوليك ـ ورهبانها، فهو لايعطي كثير احترام لمؤسسة فرض عليها الأمر الواقع التغيير عبر تغير الزمن، فهو ربما يشاطرني رأيي فيما كتبته في هذه المقدمة بأن الكاثوليك قد تغيروا، لكنه ظلّ لايحترم التغير الذي يفرضه الأمر الواقع.

وهو باختياره «لآغابيدا» أراد أن يظهر عقلية هؤلاء الغابرة، ليغمز من قناة معاصريه منهم، تنبيهاً لخطر سيطرة المؤسسة الواحدة على الدولة.

ذاك كان هدف «إيرڤينغ» من قراءته لمخطوطات «آغابيدا» وسواه من الرهبان، كي يصيغ كتابه هذا ويحرره دون أن يدّعي تأليفه، رغم أني أراه هو المؤلف، طالما يستحيل على أي شخص أن يؤلف في التاريخ سوى معاصريه، إلا أننا بالأمانة لنص «إيرڤينغ» الإنكليزي الذي نشرته «الفاملي لايبرري» بإذنه أول مرة، وترجم إلى البلجيكية ـ دوتش ـ والألمانية والفرنسية والاسبانية والسويدية بعد ١٨٣١م، ولم

يترجم إلى العربية وقتها، لمجرد الجهل، أو لأي سبب آخر، أقول: بالأمانة لنص «إيرڤينغ» لم أضع اسمه مؤلفاً، بل جامعاً ومحرراً، كما فعل هو لكنني لا أستطيع أن أنسب الكتاب كما فعل هو «لآغابيدا»، لأن أسبابي غير أسبابه، لذلك تركت ذكر مؤلفه بالصفحة الإنكليزية فقط بعد صفحة الغلاف، والمهم أن يعرف القارىء أن «إيرڤينغ» لم يحقق مخطوط «آغابيدا» بل أعاد صياغته، جامعاً له معلومات تاريخية من مصادر أخرى، ومحرراً هذه المعلومات بشكل علمي وأدبي رائع، ظهرت فيه الأبعاد الاجتماعية والفكرية الواقعية للأندلس، كما لا يمكنها أن تظهر بأي مؤلف آخر، وبذلك صار التحرير والجمع أهم بكثير من مشاهدة الحدث والتأليف فيه.

هذه العقلانية الفلسفية التي تدرس الحدث الاجتماعي بأبعاده الحقيقية الواقعية هي التي تنقص قلم كتّابنا المعاصرين، خوفاً من سطوع الحقائق منها، لأنهم لم يدرّبوا على التعامل مع الحقيقة بالفلسفة، مما قد يدفع إلى هذا الظن السخيف بأن ذكر حقيقة مؤسسة الكنيسة في العصور الوسطى، بالمنطق الذي كان يحكمها مع أمثال «آغابيدا» ومحاكم التفتيش من زملائه الرهبان، هو أمر طائفي ضد كاثوليك اليوم الذين نحترم فيهم قدرتهم على التغير من محاربين إلى رجال دين سمحين، يقدمون للمجتمعات الإنسانية أفضل الخدمات الصحية والأخلاقية والتعليمية، كما سبق وذكرنا. ونحن إذ لا نحمل على معاصريهم حملة «إيرڤينغ» ولا نشاطره الرأي فيها، نكتفي بنقلها وترجمتها، من منطلق خوفنا من عودة تلك الروح العدائية القديمة للبعض ـ كما حصل بالحرب السيئة الذكر بلبنان أخيراً ـ حيث أساء البعض للكنيسة بدعوى الحماس لها، كي يدفعها إلى تفتيشه ـ القتل على الهوية والتعذيب ـ وتهجيرية معاصرة.

والحق أن «السونودوس» الفاتيكاني تنبّه إلى هذا الأمر، وأوقفه بشكلٍ حاسم، جعل من آخر زيارة للبابا إلى لبنان عملاً حضارياً وتربوياً وتعليمياً، منع به غبطته إعادة زج الكاثوليكية بالحروب العشائرية العصبية في المنطقة.

وإذ أرى أن إبراز هذه الحقائق بكل ما فيها من سلب وإيجاب، عمل حضاري سبقنا الفكر الأميركي في تقبّله منذ «إيرڤينغ» في القرن التاسع عشر، فلا أقل من أن نترجمه ونبرز روحه في لغتنا بنهاية هذا القرن العشرين، دون أن تظن فينا الظنون، ونحن أول من يتمنى من القلب أن تظلّ علاقة الأديان مع بعضها علاقة حوار بالتي هي أحسن، وهذا ما استطعنا إثباته بسلوكنا فعلاً، من منطلق الحقيقة لا إخفائها والتستر عليها، أليس الله هو الحق؟!

وتنويهاً بالطريقة المنهجية التي كتب بها «إيرڤينغ» بعض هذا الكتاب وهو في مدينة «كاديز ـ القاضي» التي أنجبت المركيز «أوف كاديز» في اسبانيا، أثناء كتابته لرحلة «كريستوف كولومبس»، من منطلق الصلة بين تتابع الأحداث، «فكريستوف كولومبس» كان مع القوات «الجنوية» التي دخلت مدينة «غرناطة» عام ١٤٩٢م، أقول: تنويهاً بمنهج «إيرڤينغ» يمكننا أن نقول: أن «إيرڤينغ» لم يكتب أياً من أعماله الكبرى دون أن يكون هو في المكان الذي يكتب عنه، وهذا ينطبق على كتابه حول تاريخ «نيويورك» فهو ابن تلك المدينة، وكتابه «الحمراء» حيث سكن هذا القصر العربي كما سبق ونوّهنا، تماماً كما سبق وفعل «ابن الخطيب»، وكتابه هذا الذي كتب وهو يسكن بين مدينة «القاضي ـ والحمراء» له دلالته «الباراسيكولوجية» التي لا يشعر بها إلاّ كل فنان دقيق الإحساس مرهف الشعور.

على أن لا ننسى أن كلّ عظمة «إيرڤينغ» هي في طلبه المتطرّف للحقيقة، وفي مجال الحدث التاريخي الاجتماعي قدرته على المزاوجة بين المفاصل الهامة التي تبرز هذا الحدث، وأدب صياغتها بالبيان المشرق.

لذلك لم يهتم «إيرڤينغ» في كل كتبه التي ترجمناها له وهي: «الحمراء ـ و ـ سيرة الرسول ﷺ ـ و ـ رحلة كريستوف كولومبس وهذا الكتاب عن أخبار سقوط غرناطة»، أقول لم يهتم بوضع الهوامش التي تظهر إرجاعاته المنهجية، التي استقى منها معلوماته بشكل مفصل كما نفعل، لأن أياً من كتبه هذه لا تقتصر على المنهجية وحدها، بل بالأدب تستخدمها فقط لإبراز الحقيقة الاجتماعية، مشخصة أمام القارىء بالتفاصيل الأدبية للحدث الذي يستعرضه.

فكتابته مزيج من الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والأدب، وبمثل هذه المراقي الصعبة التي قلّما يستطيع قلم أن يوفيها حقّها واحدة واحدة، كما استطاع قلم «إيرڤينغ»، سطع بها أي سطوع في الأدب والفكر العالمي.

لذلك ننبّه أن هوامش هذا الكتاب كلها من وضعنا، لا كتكميل لنقص بل لزيادة بالحرص والأداء.

ولا أدري لماذا لم يقسم «إيرڤينغ» كتابه إلى أبواب وفصول، فالنص الإنكليزي الذي أترجم عنه Modern Language Association of America Vol XIII Irving 1783-1859 Congress Lib هو مجموعة فصول متلاحقة تخلو من الأبواب، فذهبت إلى إعادة تقسيمها إلى أبواب، يتصل كل منها بمفترق طرق في أخبار السقوط، فصادف أن جاءت خمسة أبواب، في كل منهاعشرون فصلاً، عدا عن ثلاثة ملاحق «أ ـ ب ـ جـ»، وهذه المصادفة تدلّ برأيي على تناغم فكري حادّ بين المؤلف وموضوعه الذي يكتب فيه.

تلك هي ملامح عظمة المؤلف «إيرڤينغ» التي دفعه تواضعه إلى جعل نفسه مجرّد جامع ومحرر لهذه الأخبار، كي يظهر هذه الأخبار بكل عظيم وجلل حدثها الواقعي، بعيداً عن أي عظمة تفتعلها الكلمات الأدبية الفخمة، حين تقلب الحق إلى باطل حسب أهواء السفسطات الأدبية الشائعة.

وبناءً على هذا يمكنني القول بأن الباحثين عن العظمة الأندلسية، من القراء أو الأدباء العرب المعاصرين، يستطيعون أن يجدوا ضالتهم في هذا الكتاب، لكنها محفوفة بواقعية جوانب الخساسة الموجودة في الطبيعة الإنسانية كما هي حقاً في الواقع، وهذا ينطبق بالقدر نفسه على الباحثين عن مدى قوة وجبروت الصليبية في ذاك الوقت أيضاً، وإذ ستخفف هذه الواقعية من غلواء كلا الاتجاهين، ستشدهما إلى السير معاً على درب الكثير من الوقائع التي يجهلونها عن «الأندلس»، وكمثال على هذا: كل ما وصفه «إيرڤينغ» بما يتعلق بالعمارة والأزياء واللباس الحربي وأدوات الحصار، وطرق الاتصال في ذلك العصر وإيضاحاته الهامّة لأساليب القتال العربية القائمة على «الغزو»، إزاء أساليب القتال الصليبية القائمة على «الحرب والتهجير»، وكيفية استخدام «البارود» مع بدايات استخدامه في ذاك الزمن، وهراء الفروسية و«شوفاليريتها»؟!

فمن حيث العمارة: وصف «إيرڤينغ» مساكن القرويين العرب والاسبان في قراهم ومزارعهم حول الأبراج، التي بناها «السيّاد» في إقطاعاتهم هذه لحماية هؤلاء من أي هجوم مباغت، وقد ظلّت كلمة

«كالسيد» ـ آللسيد ـ و«البرج» تعبر عن مصطلحات اجتماعية هامّة، في كل الحضارة الأوروبية، فأن تكون سيداً على إقطاع ما يعني أنك ساكن برجه، المبني في وسط هذا الاقطاع لكي يحميه ويدافع عنه، ويأوي إليه عصبيته فيه، وكلما كانت الاضطرابات تزيد، لا في الأندلس وحدها بل في أي مكان في أوروبا، كان الناس يهجرون القرى النائية عن الأبراج، ويسكنون بجوارها، وتلك التجمعات السكانية حول الأبراج، استعملت الكلمة العربية العشائرية الأصل: «الجوار»، التي جاءت من الحلف والإجارة، وصار تحريفها «جوا».

«فالبورج ـ جوا» أي ما سمّي بعد ذلك «بالبورجوازية» واقعة اجتماعية فرضها الانتقال من الصراع العصبي العشائري نحو الصراع الطبقي المؤسساتي، وخرجت من البلاد التي أطلقت حروب الفرسان والفروسية، أي الأندلس.

وهكذا بملاحظتنا لما وصفه «إيرڤينغ» من طرق العمارة القروية في الأندلس، استطعنا أن نفك لغز مصطلح اجتماعي هام، لازال المبهورون منا بالحضارة الغربية يسقطونه على أمّتهم إسقاطاً بغير موضعه. والدرق والدروع التي كانت تشكّل جزءاً من أثاث البيت الريفي الأندلسي المسيحي والإسلامي، حين تعلق دوماً على جدران مخصصة لها في كل بيت، كانت دلالة على «الغزو» الذي أدخلته الفروسية العربية إلى أوروبا من الأندلس، كحرب دائمة لا راحة فيها.

و«إيرڤينغ» حين وصف لنا «العمرية» كعينة من هؤلاء الفرسان أشار إلى أن الغرب عجز عن أساليب قتالهم في الغزو هذا، وما يفعلونه فيه من هجمات نارية سواء في السهول التي تشرف عليها «رندا» أو السهول التي تشرف عليها «الأقصى» بقيادة «علي العطار»، فقرر الغرب الرد على نارية الغزو العربي النابعة من الطبيعة النارية العربية، بطبيعة المثابرة الأوروبية النابعة من الصبر والمثابرة والاستحواذ، ولهذا استعان نصارى الأندلس بخبرات المدفعية الثقيلة الألمانية، لدكّ الحصون التي كانت تخرج منها هذه الغزوات، و«بالأقصى» بالذات استعان «فردناند» بالجيش الإنكليزي بعد أن هزمه «علي العطار» مع مدفعيته الثقيلة(*) على أبوابها.

وهذا يعني أننا حين نتحدث عن «الأندلس» نتحدث عن بنيتين اجتماعيتين مختلفين، فرضنا اختلافاً لا بين العصبية والطبقية فقط، بل بين طرق كل منهما في العيش والحرب أيضاً، فحين هُزمت العصبية هُزِمَ معها إمكان الغزو من خلال الدول، وصار الغزو من صفات العصابات التي تخرج عن القانون فقط.

فبعد أن كان الفتح يعني عشائر تغزو بإمرة واحدة منها، صار بهذه الحروب التهجيرية عصبيات مشتتة

(*) هناك خطأ شائع بأن: «ألفريد برنهارد نوبل» المولود في «استوكهولم» ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٣٣، هو الذي اخترع البارود؟!

والواقع أنه اهتم فقط بتطوير الديناميت، فأخذ النتروغليسرين الذي اكتشفه الإيطالي «A. Sebrero» عام ١٨٤٦، وقام باختباره على قنبلة صنعها من المعدن المسبوك بحشي نصفها بالنترو والنصف الآخر بالبارود الأسود، كذلك اخترع القنابل البالستية «Balistise» التي ينفجر بارودها بلا دخان، أما استخدام البارود بالبنادق الطويلة والثقيلة وبالغدارات وبالمدافع، فكان معروفاً منذ القرن الثالث عشر الميلادي على نطاق حربي واسع، أنظر: Encyclopedia International, op.cit., Vol 8, P 235.

تقاتلها الصليبية كلاً على حدة، ثم صارت عصابات خارجة عن القانون بعد أن فقدت هيكلية الدولة بسقوط مملكة غرناطة.

أما من حيث طرق الاتصال: فقد كانت سريعة ومتطورة إلى أبعد الحدود، بدون تقنية، بين أطراف كل مملكة، وبين الممالك بعضها مع بعض، فمن سبق له أن زار مدينة قديمة كدمشق مثلاً يرى على جبل «قاسيون» فيها قبة اسمها قبة «السيّار» وهي مفتوحة بأقواس على الجهات الأربعة، وأخبرني والدي وأصدقائه ـ رحمهم الله تعالى ـ أنهم رأوها تعمل بالإشارات الضوئية قبل الحرب العالمية الأولى، مع سلسلة من قبب السيارات على طول جبال سوريا الطبيعية، تتلقى وتعطي وتنقل الإشارات إلى «اسطنبول» من الحجاز والعكس، وهكذا كان هناك تقرير يومي يصل إلى السلطان عن أحوال امبراطوريته، بسرعة الضوء قبل اختراع الكهرباء.

وهذه هي السيارات التي تحدّث عنها «إيرفينغ»، ووصفها وصفاً شيّقاً حين كانت تطلق أضوائها إنذاراً بغزو أو انسحاب جيش، فيعلم حتى «البابا» في روما بأهم هذه الوقائع، وكذلك السلطان الأعظم في مصر بذلك الوقت، عدا عن معرفة أصحاب الشأن بالواقعة التي تحصل في مملكتهم فيتخذون إجراءاتهم المضادة، فعلى القارىء أن لا يظن أن العالم الإسلامي كان ينتظر الرحالة، أو الحمام الزاجل، أو البريد، ليعرف بأن الأندلس كانت تسقط، وهذا ما يدفعنا إلى إدانة أشدّ للسلاطنة المسلمين الذين ساوموا عليها «كبايزيد» مثلاً.

ومن حيث الفروسية وهراء شوفاليريتها «Chevalier»: من خلال ممارسة بربرية التهجير من جهة، وزيادة تقنية التدمير باستخدام البارود من جهة أخرى، يجب أن نتتبع أساليب القتال في أساس استخدام الخيول على نطاق واسع، مما أحدث تغيراً في تقنية القتال، حين صار هذا الاستخدام أساسياً في كل الحروب، فالجيوش الرومانية والإغريقية قبلها كانت في معظمها من المشاة، وقد ورث «الفرنجة» عنهما ذلك إلى بداية القرن السابع حيث تحولوا إلى الاستخدام الأوسع للحصان[1]، وهكذا صار الخيالة سلاحاً أساسياً هزم به «شارلمارتل»[*] العرب في «فرنسا»، ولما كان معظم جيشه من فلاّحي بلاده والبلاد الأوروبية الأحرار لا العبيد، كان الحصان جزءاً أساسياً من مزارعهم للجر، أما أن يكرّسوه ويختاروا منه السلالات الملائمة لتحمل ثقل الدروع، وسرعة الحركة، وباقي المواصفات التي يطلبها الخيال من حصانه، فأمر مكلف لا يقدر عليه سوى الأغنياء، والذين يكرّس بعضهم كل وقته لأمور الحرب، وهؤلاء هم الذين شكّلوا الأرستقراطية المحاربة التي تصدّت للفرض الديني على كل مسلم بأن يعد «من رباط الخيل» في أسرته «ما استطاع من قوة»، فإزاء كون معظم العرب خيالة، تشكّلت نخبة من الفرسان عند الفرنجة، وكانت سلالات خيولها أضخم من الحصان العربي وأبطأ، فعوضت عن هذا النقص بزيادة الدروع لحماية الفارس من ضربات الهجوم ـ الكر ـ والارتداد ـ الفر ـ المتعاقبة، التي يتّبعها العرب دوماً في حروبهم السريعة لإرهاق الخصوم واستنزافهم بكل معنى الكلمة.

(١) Encyclopedia International, op.cit., Vol 10, P 221.

(*) مارتل تعني باللغة الألمانية المطرقة.

وإزاء هذه الدرق التي ذكر «إيرڤينغ» البلجيكي منها والمعروف بمقاومته للسيوف الدمشقية، في الباب الخامس الفصل الثالث عشر حين تكلّم عن الصراع بين الفارس العربي «طريف» والفارس المسيحي «غارسيلاسو» حول إيقونة «أفا ماريا Ave Maria»، يمكننا أن نلمح تنافساً تقنياً في صناعة السلاح بين نمطي قتال: عربي خفيف سريع، وغربي مدرّع بطيء، فالسريع بحاجة أن يكون ماضياً، والبطيء بحاجة أن يكون مقاوماً وعنيفاً ثقيلاً، وهذا يعني زيادة في كلف الخيالة بشكل يجعلها مقتصرة على ذوي الدخل العالي، مما حيد الكثير من العرب عن مزاولتها، لذلك كانت قوات «معاذ» من المشاة تفتقر إلى تقنية السلاح الذي تستطيع أن تواجه به فرسان النصارى، ولهذا السبب يئس من إخراجهم لملاقاتهم، للخسائر الفادحة التي لحقت بهم في دفاعهم الأخير عن «غرناطة».

وهذا يعني أن الفروسية صارت أكثر من مجرّد خيالة، بل تقنية تنافس تقنية، ولكلٍ حرفييها أي مؤسساتها.

وإذ وضعت الكنيسة يدها على هذه المؤسسات الحرفية في الغرب ووجهتها، ظلّ حرفيو السلاح في الشرق خاضعين للعرض والطلب والسوق وحده، فأخذ الغرب المبادرة في توجيه هذه الصناعة ومستخدميها أيضاً، ووضعت الكنيسة أنظمة وقواعد لهذا الاستخدام كي يصير أمثلاً، وهذه القواعد هي التي سميت «بالشفاليري» أو الفروسية.

وفي القرن الثالث عشر حيث لم يعد يحمي الجندي الراجل من الفارس المدرّع شيء، ظهرت «القربينة Arquebus» أو البندقية الثقيلة الطويلة، وشاع استخدام البارود، إلى أن تطورت البنادق فألغت دور التصفيح للفرسان، الذي لم يعد يحميهم من الرصاص، وعادوا للبحث عن الخيول السريعة في القرن الخامس عشر.

ولكي لا يدفع الرهبان كلف السلاح المتزايد أو يسمحوا باقتنائه لمن لا يسلّمه إلى العدو، فيفك سرّ صنعته، بل يحافظ عليه أكثر من روحه، وضعوا شروطاً شديدة لكيفية استعماله بين النصارى حيث تحكمها قيم الشهامة، التي إذا حققها الشاب الأرستقراطي لا يثقل الكنيسة بثمن سلاحه الغالي، فيمكن السماح للملك بأن يلمسه بسيفه وهو راكع أمامه من جهة رقبته التي يضعها في خدمة الصليبية، وبهذه اللمسة يطوّبه فارساً، تماماً كما يطوّب الرهبان راهباً منهم.

فالفروسية رهبنة السلاح، لذلك ضبطتها المؤسسة الكنسية برموز تشبه رموز ضبط رهبانها، ورتب اشتقت من جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من «الفتوة»[1] المسلمين في الكثير من سلوكها، ولذلك كان الفرسان في أوقات السلم أنصاراً لكل مستضعف من ملّتهم في كل أوروبا، وعملهم الأساسي البحث عن المعادي للكاثوليكية وإخضاعه ومسحنته بالسلاح، وهكذا طاردت الكاثوليكية «الجرمان والسلتيين والإسوجيين» وشمال أوروبا كلها، كما طاردت العرب في الأندلس بهؤلاء الفرسان، فإذا تمكن فارس من «لا مؤمن Infidel» فماذا سيفعل بأسرته ونسائه؟!

(١) فؤاد حسين، **الفتوة**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩، جماعة الأمر بالمعروف.

إنه لا يستطيع أن يضيفهن إلى أسرته كما يفعل الفرسان العرب، ولا أن يجعلهن عبئاً عليه في رقيقه لكونهم غير منتجين ومن منطلق أنه يخدم قضية واحدة وكنيسة واحدة ولا يحق له إلا بزوجة واحدة، لا يقربهن فيهجرهن؟!

والتهجير أو البيع في أسواق النخاسة كان خيار فرسان أوروبا، إزاء النساء غير الكاثوليكيات، أما نساؤهم فمعظم الفرسان من الشباب، كانت تتنافس الصبايا على أحدهم لكي تعطيه «شالها» ويقع في غرامها، لتصير فتاة أحلامه الوحيدة وهو فارس أحلامها بحصانه الأبيض النادر.

وكم أوصل التنافس بالشالات المربوطة على رؤوس الرماح الطويلة، وعلى الأذرع هؤلاء الفرسان إلى القبور التي يباركهم في توابيتها من يختبرونهم من الرهبان بمثل هذا القسوة واللاإنسانية.

والذي يهمّنا هو أن نؤكد أن حاجة الكنيسة لانتقاء زهرة المقاتلين الذين يمكنها أن تشاطر الملك ولاءه لها، هو الذي دفع إلى تشكيل أنظمة الفرسان المختلفة، التي يهمنا أن نستعرض منها ولاء الخضوع والتهجير، فولاء الخضوع مرتبط بهدف الدول الصليبية في فرض الإيمان المسيحي على كل الناس، فلا يمكنها أن تقبل من لا يؤمن بدينها بصورة فردية، وهؤلاء تتكفّل بهم محاكم التفتيش، أما الجماعات كسكان مدينة خضعت لهم فلا بدّ من التعامل معهم كجماعة، قبل سحبهم كأفراد إلى محاكم التفتيش، لذلك وضع نظام ولاء الخضوع «Vassal»(*) على الفرسان اللامؤمنين من الأمم الأخرى «Infidels»، بدءاً بملك هذه المدينة إلى أصغر فارس فيها، فإذا هو لم يقسم هذا الولاء، لا يوجد أمام غالبية المنتصرين عليه من الفرسان النصارى سوى قتله مع أتباعه، أو تهجيره.

وولاء الخضوع «Vassal» كجزء من نظام الفروسية الصليبي يعني قبول الفارس الخصم بأن يصير «خولاً» لسيده الفارس الجديد، ينفّذ كل أوامره بدون أي اعتراض، بعد أن يركع أمامه تماماً كالركوع أمام القربان في الكنيسة، ويقبّل يده ويعلنه رباً له، لا مجرد مولى، ولا يصير هو مجرد عبد له، بل «خول» يفعل به ما يشاء، مقابل أن يعطيه امتيازاً على من كان سيدهم، فيبقيه في مكانه، أو ينقله إلى إقطاع جديد، حسب ما يفرضه الواقع الاجتماعي وتفرضه الظروف، وفي هذه الأخبار، أقسم «ببدول» ولاء الخضوع هذا وصار خولاً «لفردناند» ثلاث مرات قبل طرده من الأندلس؟!

وعلى هذا «الخول» بعد أن صار خولاً «Vassal» أن يطلب من فرسانه أن يحلفوا له ولاء الخضوع بدورهم، لذلك يمكن أن يصير رجل واحد خولاً لعدة سياد من خلال خضوعه لسيد جديد واحد، وعلى هذا النحو تشكّل هرم البنية الاجتماعية الاقطاعية، حيث في قاعدتها أشدّ الفرسان[1] بأساً.

ولتمييز من له رب «Lord» أو عدة أرباب من هؤلاء، صار لابدّ من وضع شارات تميز هؤلاء الفرسان في السلم، كما تميزهم زخارف دروعهم ودرقهم في الحروب، وهذه الشارات شكّلت فيما بعد الرتب العسكرية والأوسمة، لتمييز نظام فروسية عن آخر، ودرجة فارس عن سواه، إذ في رأس هرم الفروسية لا يوجد إلاّ قلّة من الفرسان الذين يخشاهم الملك بذاته، ويود في أحيان كثيرة التخلص منهم، كما حصل

(*) وهي بالعربية: «فِسْل» التي تعني الخول الرذل، ولعدم شيوعها استعملنا عبارة: خول.

(١) **Ibid**, Vol 7, P 98.

في الميتة الغامضة التي ماتها المركيز «أوف كاديز»، وعزيت إلى إرهاقه في حروب «غرناطة» في هذه «الأخبار»، أو بالطريقة التي تآمر فيها «فردناند» مع الكونت «دي يورينا» للتخلي عن «دي غويلار»، اعتماداً على هراء حماسه الفروسي وهو يحمي زندقة فرسانه على نساء «الاصطبارية» العرب.

فأساطير فرسان «المائدة المستديرة» التي روّجتها الدوغما الكنسية بين الشباب الارستقراطي الأوروبي، كشريحة يمكن الوصول إليها تحت الملك مباشرة من «نشامى»[*] الرجال، كذبة كبرى، لم يعط الملوك شرف ملء مقاعدها إلا للقوادين والمجرمين أتباعهم، فإذا وصل إلى هذا المنصب مستحقه ممن يصدق كذبة الفروسية ـ حتى لو لم يمارسها إلا مع النصارى، وكان مجرماً مع من تسميه له الكنيسة باللامؤمن «Infidel» ـ سيصلّت الملك عليه مفتشيه من مخابرات الكرادلة، ليكرّم بناقوس في تابوت حجري بدير أو كنيسة من الكنائس بأسرع وقت ممكن.

ولكي يضبط هذا النظام الهرمي ضبطاً محكماً صار لكل نظام كنسي أوسمته التشريفية الخاصة، بقلادات ذهبية ومرصّعة كأوسمة يتطلّع كل أغرار الطبقة الأرستقراطية إلى حيازتها، ويتبارون بالولاء للكنيسة والملك كي ينالوا شرفها.

واليوم حين تحولت الكنيسة عن السلطات المدنية، ظلّت لأنظمتها إعطاء أوسمة مدنية، لازال الملك يوزعها إضافة لأوسمة الجيش كأوسمة لكل فارس صار يحمل لقب سيد «Sir» بدل «السيد» القديم، مثل Gaster of England و Elephant of Denmark... وحتى الولايات المتحدة التي لم تعرف أياً من كل هذا، تقدم حكومتها الأوسمة المدنية والعسكرية[1]، وسارت بهذا كل دول العالم التي لازالت تمنح ما يسمى بالوسام من رتبة فارس، أو وسام الشرف من الدرجة الأولى، أو الثانية، وهكذا مع الحقوق التكريمية التي ترتبط بهذه الأوسمة، والتي تعطيها هيئة الأمم المتحدة[*] أيضاً، وهكذا تمّ فصل الفروسية عن انحطاطاتها التبشيرية التي كانت تدّعي الفضائل، نحو الفضيلة الحقة في خدمة البشرية، كما صار التوجه لكل الكنائس اليوم نحو هذا الاتجاه، ولم يعد هناك أي داعٍ لهراء البطولات الرومانسية للفروسية في القرون الوسطى إلا فيما تتسلى به مؤسسات السينما للترويح فقط.

فبعد أن وضع «إيرفينغ» يدنا ـ في هذه «الأخبار» ـ على أهداف الفروسية الأساسية في القرون الوسطى، وأهمها وعلى رأسها التهجير والخضوع للمسيحية، وكيف أن معها بدأ سباق التسلّح بين الأمم، واللذان لازالت تعاني منهما الإنسانية إلى اليوم، ويقع على العرب عبء أشدهما: التهجير، حتى تبقى أمّتنا تمثل «مصطلح الأندلس» إلى اليوم، بعد أن وضع «إيرفينغ» يدنا على كل هذا، وضع ملاحق كتابه كي نعرف مصير من صدّقوا كذبة الفروسية وهراءها، من مشاهير فرسان النصارى الذين ظنّوا أنهم قد حرروا الغرب من الحضارة الإسلامية، فأشعرنا بشكل أدبي رائع كيف أن خيانة الحق لا تسمح بالافتخار!!

(*) النشمي، يعني عند البدو صاحب النخوة، ومجموعها «نشامى»!!

(١) **Ibid,** Vol 13, P 472.

(*) حتى والد المترجم الصائغ لهذه الأخبار رحمه الله، كان يحمل وسام الخديوي اسماعيل من مصر، ووسام هيئة الأمم المتحدة للإنجازات في اليونيسكو، ووسام الطب اللبناني.

وحين عرضه لكل هذا وضعنا «إيرفينغ» بأجواء الواقع الاجتماعي، سواء في بلاط الملك والملكة، أو في أكواخ المهجرين المشردين، بوصف دقيق حي لا يقل دقة عن وصفه لكل أدوات القتال في ذاك الوقت، وتطوراتها السريعة نسبياً، والتي استدعتها حرب «مملكة غرناطة» من تغير القوس والنشاب إلى «القربينة «Arquebus» أي البندقية الطويلة البدائية الثقيلة، ومن تغير المنجنيق إلى المدافع الخفيفة والثقيلة، ومن الدبابات الخشبية والجلدية إلى أجران نسف القلاع ـ مدفعية الألمان ـ، رغم تداخل استعمالات كل هذه الأسلحة معاً في تلك الحرب، كتداخل استعمال الأزياء، وخاصة في وصف «إيرفينغ» لخيمة المركيز «أوف كاديز» وحتى لباسه الذي سجي فيه بالحرير الدمشقي «الدامسكو والبروكار»، ووصفه للباس الفرسان حيث تزدحم الصور بعين القارىء بألوان متداخلة بين الشرق والغرب، ظهرت فيها «إيزابيلا» على شاطىء «شنيل» لأول مرة بنقاب أندلسي، و«فردناند» حين استقبلها تارة أخرى وهو يتمنطق بسيف عربي.

وبهذا أشعر «إيرفينغ» بأسلوبه الأدبي الراقي دون تصريح، أنه إزاء حضارة متميزة عن الشرق والغرب بمزيج منهما معاً، وإني لأظن أن هذه اللفتة الدقيقة ومثيلاتها وراء الرأي الذي نسمعه من المؤرخين الاجتماعيين والمفكرين الأسبان المعاصرين، بأن حروب الأندلس كانت حروباً أهلية اسبانية بحتة، لا يحق لأحد أن يفخر بجرّها إلى حضارته أو يعتار منها، فاسبانيا هي نتاج مزيج حضارة قائمة بذاتها، يمكنها أن تعطي الإنسانية اليوم أكثر بكثير مما يظن مؤرخو التاريخ والوقائع الحربية فيه فقط.

إذ يستطيع علماء الاجتماع والمفكرين أمثال «إيرفينغ»، فيما لو توجهوا نحوها توجهه الرائع الشاق البهي والفلسفي، أن يعطوا العالم معلومات تدهشه.

أما نحن الذين نترجم عن «الأندلس» وقد نأتْ عن متناولنا هذه المئين الخمسة من السنين، وإن كنا لا نستطيع أن نكتب عنها من «حمراء غرناطة» أو مدينة «القاضي» فيها كما فعل «إيرفينغ»، فلا أقل من أن نترجم عنها من «دمشق» كما فعل «المقري» حين شبهها بها، وأخرج لنا إسماً دمشقياً لغرناطة بقوله: «وقال الشقندي: غرناطة: دمشق بلاد الأندلس»[1] وقال: «وتسمى كورة إلبيرة التي منها غرناطة دمشق لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح، وقيل: إنما سميت بذلك لشبهها بدمشق»[2]. فقد ثبت أن القدر الذي كتب على «غرناطة» التهجير، كتب على «دمشق» أن تكون حاضنة كل مهجر أو نازح، «فغرناطة دمشق» في قلب دمشق مصطلح أندلسي حي لازلنا نعيشه بكل عاصمة عربية وهنا تكمن أهمية مثل هذه الترجمة.

وكما دفع المولى «أحمد الشاهيني» أستاذ المدرسة «الجقمقية» بجانب الجامع الأموي في نهاية القرن الخامس عشر «أحمد المقري» كي يكتب: «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب»، وأبقاه بما يشبه ما نسميه اليوم بالأستاذ الزائر في هذه المدرسة ليحرر كتابه[3] ويحاضر فيه، ربما بسبب ما ظل يفد على هذه

---

(١) أحمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥، ج١، ص ١٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٣) المرجع السابق، ص: ب.

المدينة والعالم الإسلامي من مهجرين من الأندلس منذ القرن الثالث عشر، ظل الأتراك يساهمون بتحريك المسيحيين في الشام ضد المماليك، فساهمت الشام كلها بإهمال الأندلس وإسقاطها بطريقة غير مباشرة، إلى أن تمكن الأتراك العثمانيون من احتلال الشام، وطرد المماليك منها ومن مصر، ووقتها صارت السلطنة الإسلامية في الحوض المتوسط لهم بلا منازع منذ نهاية القرن الرابع عشر ميلادي.

آنذاك توجهوا لعون المغرب العربي، بعد أن صارت الأندلس كلها بخبر كان، «فتطوان» التي دمّرها الأسبان سنة ١٣٩٩م[١]، لم يهتم بها سلاطنة الأتراك، ولا سلاطنة مصر، كما نبّه إلى ذلك «إيرڤينغ» في هذه الأخبار، لكن بعد سقوط الأندلس أسس البرتغاليون «مزغان» على شاطىء المغرب العربي عام ١٥٠٦م، واستولوا على «صافي» في سنة ١٥٠٧م، وأزمور سنة ١٥١٦م، والبلاد التي خلف هذه الموانيء[٢].

فلم تأت سنة ١٥١٤ م إلا وكان الاسبان قد بسطوا سيطرتهم على «مهران وبجاية وحتى تلمسان»[٣]، مما يعني أنه قد جاء دور المغرب العربي ليلحق بالأندلس، ويدخل في مصطلحها؟!

عندها تحرك العثمانيون، بعد أن صاروا سلاطنة الإسلام بلا منازع في كل غرب آسيا والشمال الأفريقي، وتحالفوا مع والي الجزائر «خير الدين بربروسة» وأسقطوا «تلمسان وتونس» عاصمتي الدولتين القديمتين «١٥٥٥ ـ ١٥٧٤» وطردوا الاسبان والبرتغال نهائياً من الشمال الأفريقي وكل المغرب العربي[٤].

وعلى هذا المنوال نقل العثمانيون الحروب الصليبية إلى أوروبا باحتلالهم «للبلقان» فيها أيضاً، فصارت الصليبية بمحاكم التفتيش تشكل عبأ على أوروبا وحدها، مما دفع الأوروبيون إلى العمل على الخلاص منها بفصل الدين عن الدولة، خاصة بعد الثورة الفرنسية، وحين لم يُمَكّن الأميركيين أي كهنوتية في حكوماتهم، منذ حصولهم على الإستقلال، كدرس أخذته الجاليات الأوروبية من محاكم التفتيش التي فرّت منها إلى العالم الجديد في أميركا، وورث «إيرڤينغ» هذا التقليد الأميركي بضرورة إقصاء رجال الدين المسيحي عن الحياة المدنية والسياسية الأميركية، لذلك نلمس هذه النفحة في مناهضتهم، وإبراز بربريتهم على العرب في هذا الكتاب.

وبإيضاح كل هذه الأمور نفصلها فصلاً قاطعاً عن التديّن، لأنها أمور دنيوية بحتة، وقعت بها الكنيسة، لأنها حاولت أن تكون المؤسسة الوحيدة في أمم طبقية تحتاج إلى مؤسسات، لا مؤسسة واحدة تفرض على الكل نمط تفكير البعض القليل في قمة هرمها.

فمجتمع المؤسسات لا يمكنه أن يقبل بدكتاتورية المؤسسة الواحدة، كما مجتمع العصبيات لا يقبل بدكتاتورية عصبية واحدة، ولا علاقة للعقيدة أو الدين بهذا الأمر الدينيوي الاجتماعي البحت.

(١) الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي، مرجع سابق، ص ٤١٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٢٠.
(٤) المرجع السابق، ص ٤٢٩.

وكل ما في الأمر أن أمثال «إيرڤينغ» في الغرب يريدون المسيحية لا الصليبية، تماماً كما نريد الإسلام لا الطائفية والفرقية، وكلا هاتين الإرادتين لا يمكنهما التنكّر لدين بعضهما البعض، لذلك أحب «إيرڤينغ» الإسلام، ومن نافلة القول أن نقول: بأننا نحب ونقدّس سيدنا «المسيح» عيسى بن مريم عليه وعلى رسولنا «محمد» أبرك الصلوات والتسليم. وموقفنا هذا يختلف عن موقف القصار «Cathari»، وموقف الملك «فردريك الثاني» في القرون الوسطى، وحتى عن موقف «اسبينوزا» في وحدة الوجود، بأنه ليس موقفاً توفيقياً يمكنه أن يهتم بما يشبه التلفيقية في «المانوية «Manichaens» بين «الزرادشتية» والمسيحية، فيما نسب إلى «فردريك الثاني» مرة، وإلى «اسبينوزا» مرة أخرى، فيما عبّر عنه بكتاب الرسل الثلاثة: موسى وعيسى ومحمد «ص»، بالكتاب اللاتيني «De Tribus Impostoribus»، والذي اتهمته الكنيسة بالتلفيقية، أقول: يختلف موقفنا هذا عن أولائك بأنه موقف مضاد لكل غيبيات التوفيق التي تؤدي إلى التلفيق، والتي كان يمكن للإنسانية أن تقع فيها لحل إشكالات التقديس للرسل، والتي أدّت إلى كل تطرفات إراقة الدماء بين أتباعهم، بدرجة تتعارض مع كل أهداف رسالاتهم السمحة بالأساس، فعبّرت عن نية حسنة لكن بأسلوب غيبي، كالذي وقع به المتطرفون من أتباع هؤلاء الرسل، وهذه الغيبية كانت بسبب ضعف العقل العملي والعلوم في القرون الوسطى، فالقصار الذين نفروا من إراقة الدماء اللامجدية بين أتباع هذه الأديان، وصلوا بمشايخهم إلى تحريم كل ذبح للحيوان، أو على الأقل لأنثى الحيوان، وصاروا نباتيين لا يأكلون اللحم، لإمكان تناسخ الإنسان في الحيوانات بزعمهم، لكنهم أحلّوا أكل السمك على ظنّ أن السمك لا يتولّد بالجنس، بل يتوالد من طحالب الماء[1].

وقالوا بالرسالة الواحدة لهؤلاء الرسل العظام، من هذا المنطلق الغيبي الذي غاب عن معارفهم فيه دقّة المعرفة العلمية، وعليه بنوا عقائدهم التوفيقية بين الإسلام والمسيحية، بهدف إيقاف الحروب الصليبية اللامجدية، فخرجوا عن تعاليم كلا الدينين بالنباتية والتناسخ وسواهما، مما استعاروه من أوامر ونواه كل دين، فإذا قبلت المسيحية أن يتقمّص المسيحَ اللّهُ، ورفضت الجنة الحسية الإسلامية، فلماذا لا يتناسخُ الإنسانُ الحيوانَ عقاباً له، ويتقمّصُ الحكماءَ ثواباً؟! وإذا أقرّ الدينان الصيام بوقت محدد، فلماذا نريق دم الحيوان دائماً، لنعتاد على إراقة الدماء ضد بعضنا بعضاً، فالوجود الحياتي كلّ واحد ـــ وحدة الوجود ـ كما عند «اسبينوزا»، فلنصبح نباتيين؟!

هذه التفسيرات الغائبة عن المعرفة بسبب ضعف العلوم في ذاك العصر، أدّت إلى عقائد خرجت عن الدينين الكبيرين، من النية الحسنة بضرورة التوفيق بينهما. كذلك أدّت الغيبية عند المسلمين في القرون الوسطى إلى بحوث مكثّفة بالطوالع الفلكية، بناءً على جماع يقينيات العلوم «البابلية» الساذجة في الفلك، والحسابات الرياضية الدقيقة عند الإغريق في التنبؤ بالظواهر الفلكية، إلى سخف التنجيم الذي شاع في بلاطات الأثرياء والخلفاء، من الظن بأن الأجرام السماوية عقول مدبّرة لعالمنا، عالم فلك ما تحت القمر، وأن عالم الفساد والتغير لا يحصل إلا بفلك ما تحت القمر، أما عالم الثبات فمن «فيوضات» العقل الكلي في مافوق هذا الفلك من حيوات مدبرة لعالمنا هي النجوم، وهكذا لعبت نظريات الفيض بتوفيقية

(١) History of Western Philosophy, op.cit., P 439.

مشابهة لما قام به القصار، لكن داخل الدين الإسلامي، بسبب ذاك الاستسلام المريع لرجال التصوف من الفقهاء، والذي لسنا بصدد بحث أسبابه هنا، والذي يهمنا منه نتائجه الخطيرة التي أبرزها «إيرڤينغ» بتلك الأحكام المسبقة التي كان يضعها المنجّمون لألف سبب شخصي على رجالات الدولة الإسلام بدعوى أن «الأروسكوب» وحسابات الطوالع واصطرلاباتها هي التي تقرر التعس من السعيد منهم، والذي ستزول الدولة على يديه، والذي على يديه تزدهر.

فإذا استغلت مؤسسة كالتفتيش هذه الاعتقادات الساذجة عند المسلمين آنذاك، والتي لا علاقة للإسلام بها، بل للعقلية الغيبية الشائعة شيوع التصوف، أمكن أن ينعت «بدول» بالزغبي أي سيء الطالع، ويصدق الناس هذا النعت فيضعف التفافهم حول خليفتهم، كما في الفصل التاسع من الباب الأول، أو العكس حين قاتل «الذعري» بهذا السلاح مع «درويشه» في حصار «ملقة»، تحت علم أبيض أدّعى هذا «الدرويش» فيه قوة نبوية سحرية، ورثها من أجداده في هذا العلم، وكان قتالاً ملحمياً أدّى بالمدينة إلى الإستباحة البربرية التي عرفت عن الصليبيين؟!

إن العقلية الغيبية سواء أدّت إلى تلفيقية التوفيق بين الأديان، أو إلى الصمود الملحمي، أو إلى الاختراق المخابراتي حسب تعبير اليوم، أو إلى التنجيم، أو إلى التقمّص والتناسخ، أو إلى وحدة الوجود، أو إلى التفرّق بالأديان، لا يمكنها أن تؤدي إلى الاحترام المتبادل بين الأديان، دون مساس بجوهر أي منها كما ندعو إليه، وكما دعا إليه الإسلام كما بدأ، بالصلاة والسلام على كل الأنبياء دون تفريق أو تفريط بأحد من أنبيائه تعالى.

احترام متبادل بين رسالات سماوية كمناهج دينية مختلفة باختلاف طرق الوصول إلى الله تعالى والتسليم له، في عظيم جلاله الأكبر من كل تصور بشري، فالله أكبر: عبارة يمكن للمسيحية المعزولة عن شؤون الدولة اليوم أن تفهمها وتقبل بها، كما يمكن أن تقبل بها اليهودية يوم تنعزل عن صهيونيتها؟!

وإذ أبرز لنا «إيرڤينغ» هذه الحقائق في «أخبار سقوط غرناطة» الذي بين يدينا الآن، من خلال استعراضاته لسياق الحدث التاريخي، وننبّه إليها في هذه المقدمة بالصيغ العقلية المجردة التي تحكمت بذاك الحدث التاريخي، يجب أن نؤكد أن هذه الحقائق لم تكن غائبة عن أذهان مفكرينا العرب والأندلسيين القدامى، الذين شهدوا أو أرّخوا لبداية تراجع الحضارة العربية منذ سقوط الأندلس، بل ومنذ أن لم يستغن العرب عن تلك البذور السيئة في حضارتهم، رغم تبنّيهم للإسلام مع عدم تغيير بناهم الاجتماعية بناء على سننه المطهّرة، وخير إيضاح لهذا الأمر ما نقله المقري عن جدّه قال:

(يا لله وللمسلمين، ذهبت «قرطبة» وأهلها، ولم يبرح من الناس جهلها... ألا ترى خصال الجاهلية كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم، والخط والتشاؤم وما أشبه ذلك... وكذا التنابذ بالألقاب، مما نُهيَ عنه، وحُذِّرَ منه، كيف لم تزل من أهلها... حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأساً، بل يجعلون العادات القديمة أُساً، وكذلك محبة الشعر والنسب... ثابتة الموقع في القلوب، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين لا نحفظه إلا قولاً، ولا نحمله إلا كَلاّ)[1].

(١) نفح الطيب، مرجع سابق، ج٢، ص ٩٥.

فليس فيما نقدّمه لك أيها القارىء في هذا الكتاب أي جديد، لأنك لازلت تعيش وإيانا «مصطلح الأندلس»، ولم نفعل في هذا الكتاب أكثر من إبرازه لك، حتى لا يظلّ مغفلاً في حاستك الداخلية، ومستغلاً من عدوّك خارجها، يتحكم بك من خلاله دون أن تدري به.

الدكتور

هاني يحيى نصْري

يعتمد هذا البحث على الكثير مما كتبه الراهب الأب «أنطونيو آغابيدا»، مما توفرت لنا قراءته من الشذرات الباقية من أعماله، ولكل من يسأل عن هذا الرجل الذي رجعنا إليه في مناسبات مختلفة، والذي لا يمكن رؤية اسمه في أي سمتٍ للمؤلفين الاسبان؟! لا نجد إجابة سهلة، فهو: واحد من عديد من المؤلفين الاسبان ــ في عصره ــ ممن ملأت أضرحتهم الأديرة و«الكاتدرائيات»، دون أن يحلموا بإيصال نتاجهم إلى أي شكل من أشكال الطباعة ــ التي لم تكن في زمانهم ــ. مع ما كان عليه من علم واسع ودقيق بتفاصيل الحروب التي كانت بلاده تخوضها مع العرب المغاربة. كذلك هو واحد من الذين أرّخوا بشكل يتداخل فيه التاريخ مع أساطيرهم وتطيراتهم، فحماسه للإيمان الكاثوليكي يجعل منه نموذجاً للمؤرخ العقائدي ــ الدوغمائي ــ، الذي لا يستطيع أن يسجّل الحدث إلاّ بمنظار ديني، متحمساً لضرورة تعاضد السيف مع الصليب بشكل ثنائي متداخل. ومن المؤسف له أن تَفَرُّق شذرات مخطوطاته بين مكتبات الأديرة المختلفة، وما لحق بها من أحداث متغيرة كثيرة أصابت اسبانيا ككل، لذلك لا يمكن العثور اليوم على مخطوط كامل منها، وإن أمكن فشذرات فقط، وحتى هذه الشذرات تعاني من يد الإغفال والإهمال، رغم ما فيها من حقائق مثيرة لا يمكن أن نجدها مع أي مؤرخ آخر. لذلك سيكون هذا العمل جديراً بالأب «أنطونيو» حين نملأ الأماكن الناقصة من هذه الشذرات بمراجع أخرى، ونزيد من توسعها وإيضاحها بالرجوع إلى مؤلفين مختلفين، سواء من الاسبان أو من العرب، ممن عالج هذا الموضوع. أما القراء الذين يريدون أن يعرفوا مدى ما ندين بعملنا هذا إلى الأب «أنطونيو»، فعليهم أن يعودوا إلى شذرات مخطوطاته في مكتبة «الأوسكاريال».

وبالإضافة إلى هذا علينا قبل أن نلج التاريخ، أن نأخذ باعتبارنا آراء أهم المسجلين لأحداثه من قدامى المعاصرين لوقائعه، أمثال:

«مارينوس سسيولوس» مؤرخ الملك شارل الخامس الذي اعتبر تلك الحروب كناية عن ثأر مسيحي من المغاربة، لاستعادة مملكة «غرناطة» من أجل إعادة الاعتبار والشرف للدين المسيحي.

وكذلك ما يعتبره المؤرخ الاسباني الشهير «استيفان دي غاريبي» من أن الحرب مع العرب قد جاءت

في كل نتائجها كنوع من التأييد الإلهي ضد المغاربة، لإذلال هؤلاء الملاحدة البرابرة الذين لطخوا اسبانيا، ولعدة قرون بعقيدتهم المحمدية الشيطانية، فكان من واجب الله إعادة اسبانيا إلى الإيمان المسيحي.

أما «بادر ماريانا» اليسوعي الموقر والمعتبر الأكثر ثقة بين هؤلاء المؤرخين الاسبان، فقد اعتبر أن سيطرة المغاربة العرب على اسبانيا نوع من العقاب أنزله الله على الأمة الاسبانية لخطاياها، وما النصر على مملكة «غرناطة» بعد ذلك إلا مكافأة من السماء حين كَفَّرَ المسيحيون عن أنفسهم بتأسيس محاكم «التفتيش»؟ لأنه وكما قال هذا الأب الجليل؟!: بمجرّد أن افتتحت هذه المحاكم أعمالها في اسبانيا بزغ نور التأييد الإلهي الرائع بالفتح، وبفضل الله هذا زادت قوة هذه الأمة، مما مكّنها من أن تصبح جديرة بإسقاط سيطرة المغاربة عليها.

ونحن بعد الإشارة إلى هؤلاء المؤلفين المبجلين، من الذين يعتبرون هذه الحرب كعمل من أعمال التقوى المسيطرة على الفكر الصليبي، نظن أننا قد قلنا ما فيه الكفاية لجذب القارىء المسيحي إلى الساحة، ليتبعنا ويقف بجانبنا في هذا النزاع، ولا يلومنا في سرد ووصف حقائقه.

الباب الأول

الفصل الأول

حول مملكة غرناطة والجزية التي كانت تدفعها لملك قشتالة:

إن تاريخ هذه الحروب الدموية البائسة التي شهدها الأب «أنطونيو آغابيدا»، والتي ملأت العالم بالشائعات والدهشة، وقررت مصير امبراطوريات قوية، يمكنها أن تكون جديرة بأن تعالج بقلم فيلسوف، وأن يدرسها حكيم - لا مجرد رجل دين -.

فماذا يجب أن يكون عليه تاريخ هذه الحرب المقدسة، أو هذا الجهاد، بمقياس أكثر المؤمنين بالكاثوليكية الذين يعتبرون أن هذه الحرب قد أعادت إشراق شعاع الإيمان على أكثر أماكن المعمورة جمالاً، ومن أحد هؤلاء سأتلقى في عزلتي التي أكتب فيها أخبار سقوط غرناطة، حيث اشتبك ملوك الإيمان المسيحي مع عمائم الإسلام يداً بيد في صراع مرير على كل «إنش» من تراب الأندلس، إلى أن سقط الهلال أرضاً متمرغاً بالتراب لينتصب مكانه الصليب المبارك عمود الخلاص المسيحي؟!

وقد حدث هذا بعد حوالي ثمانمئة سنة منذ أن وطىء الغزاة العرب أرض اسبانيا وضمّوها لهم، بعد أن هزموا «دون رودريك» آخر ملوك «القوط» فيها، ومنذ تلك النتيجة المحزنة، صار الأمراء المسيحيون يعملون على إستعادة الأندلس، قطعة قطعة ومملكة بعد أخرى، إلى أن تمّ لهم حصار آخر - معاقل الأندلس - التي بقيت وحيدة لكنها قوية تحت حكم العرب المغاربة، أعني غرناطة.

وتقع هذه المملكة الشهيرة في جنوبي اسبانيا(*)، حيث يحدّها البحر الأبيض المتوسط، وتحميها براً سلاسل جبالها الوعرة، التي تشرف قممها على وديان خصبة، لتعوض خصوبتها عن قحل تلك الجبال، وتقع مدينة غرناطة في وسط هذه المملكة معتصمة بحماية جبال السيرا نيڤادا - السير النافذ أو جبل الشارات(**) - الثلجية القمم، وتتمركز في السهول التي تفصل هذه

(*) أنظر خريطة عُدوة المغرب «مملكة غرناطة».

(**) وفي بعض المراجع بلشير.

السلاسل الجبلية والتي يقطعها - وينبع من تلك الجبال - نهر «شنيل» عبر فرعه «دارو»، وعلى رأس الهضبة المرتفعة التي تتوّج المدينة يقع قصر وحصن «الحمراء» الكبير، القابل لأن يحوي ضمن أسواره وأبراجه حوالي أربعين ألف رجل، والأسطورة المغربية تدّعي أن الرجل الذي بنى هذا الحصن كان ساحراً وعالماً بالسيمياء، حيث حوّل فيه الكثير من المعادن إلى ذهب وفضّة وبها أتمّ بناءه، ومن المؤكد على كل حال أن عظمة هذا البناء تجعل الإنسان إلى حد هذا اليوم يتيه عجباً في قاعاته وقبابه وزيناته، التي لم يفارقها جمالها الأخّاذ رغم مرور كل هذا الزمن.

وعلى الهضبة المواجهة للحمراء، والمنحدرة إلى السهل بأبنيتها المتراصّة الغاصة بالسكان، يشرف حصن القصبة والأزقة الضيقة التي تلتوي في شوارع غرناطة، وتتخللها ساحات أفسح فيها «فستقيات» الماء، حسب الأسلوب العربي المغربي في البناء، كذلك يوجد لكلّ بيت أرض دار واسعة فيها حدائق، ويخترقها جدول رقراق، وتزرع في أرض الدور هذه الحوامض والرمان والرياحين؛ وتبدو المدينة لعين الناظر إليها بسبب هذا مطبقة بشكل متناسق فوق بعضها بعضاً على هيئة أخاديد تسر الناظرين، وكلها محاطة بسور عالٍ به ثلاثة رباطات دائرية، واثنتا عشرة بوابة، ويدعم هذا السور بألف وثلاثين برجاً، ولعل ارتفاع المدينة ومجاورتها للسيرا نيڤادا المكللة بالثلوج هو السبب بجعل هوائها الصيفي عذباً، فبينما تعاني المدن الأخرى من الحر اللاهب في الأيام «الكلبية» الصيفية، يلعب الهواء العذب على رخام قاعات بيوت غرناطة.

وعظمة هذه المدينة في سهلها، سهل «الڤيغا» الذي يمتد إلى ما يزيد عن سبعة وثلاثين رباطاً(*)، وتحيطه الجبال الجميلة جاعلة منه ما يشبه حديقة غنّاء، تنعشها الينابيع العديدة، ويتراقص فيها نهر «شنيل» الفضّي، الذي قسّمه العرب بمجهود هندسي أخّاذ ليسقي كل السهلِ بقنوات وجداول بشبكة تغطي كل السهل، مما أضفى على هذه المنطقة الخير والازدهار، وجَمَّلَ الأندلس التي عاملها العرب كعشيقة مفضّلة.

أما الجبال فكانت مليئة بالزهور والأعناب، وإزاءها السهوب المغطاة بالحبوب، التي تظهر من بينها - بشكل متناسق - أشجار البرتقال والليمون والتين والرمان، مع كمية كبيرة من أشجار التوت التي كانت تنتج أجود أنواع القز والحرير، ومتسلقات الكروم تغطي بيوت الفلاحين والأشجار المحيطة بها بعناقيدها المتراصة الذهبية، يزيدها بهاء البلابل المتنقلة والمغردة عليها، وبعبارة أخرى إن جمال الأرض ونقاء الهواء وصفاء السماء، يجعل من هذه المنطقة مكان جذب لكل طلاب رغد العيش، إلى درجة أن العرب المغاربة ظنوا فيها ما يشبه صورة الجنة التي بشّر بها رسولهم، تلك هي مملكة غرناطة.

(*) الرباط بهذا المعنى مقياس مساحي قديم يعني أقصى ما يمكن أن يراه سيد كل برج من رأس برجه المرتفع بارتفاع يساوي منارة المسجد، فالبرج بالأساس هو منارة مسجد ضخمة.

أما النصارى فقد تركوا هذه المنطقة الأخيرة من اسبانيا لهؤلاء «اللامؤمنين»؟! شرط أن يدفعوا لهم عليها جزية سنوية جائرة، يحصّلها ملك «قشتالة وليون» تقدّر بألفي دولار ذهبي وستة عشر ألف أسير مسيحي كل سنة، وما يعادله عدداً من المغاربة كرقيق، تسلّم جميعها سنوياً إلى مدينة «قرطبة».

وفي هذه الفترة التي نؤرّخ لها كان «فردناند وإيزابيلا» يحكمان اتحاد ممالك «قشتالة وليون وأراغون» بينما كان يجلس على عرش غرناطة: «مولاي ابن الحسن»(*) الذي أعقب والده «اسماعيل» على العرش عام ١٤٦٥م حين كان «هنري الخامس» أخو «إيزابيلا» ملكاً على ليون وقشتالة، و«أبو الحسن» هو من سلالة «ابن الأحمر» أول ملوك غرناطة وأكثرهم نفوذاً، وكان يزداد سلطة بالأندلس مع تزايد سقوط ممالكها العربية التي كان يغلبها النصارى، لأن الكثير من المعاقل والقلاع في تلك الممالك المأخوذة القريبة من مملكة غرناطة قد رفضت الخضوع للمسيحيين، ووضعت نفسها تحت حماية هذا السلطان، وهكذا ازدادت ثروته ومناطق نفوذه، كما زاد عدد أتباعه بشكل كبير لم يسبقه إليه ملك غرناطي، إذ تضمن أربع عشرة مدينة وسبعة وتسعين حصناً وقرية، إضافة إلى العديد من الضياع والقرى غير المحصّنة التي تحميها الأبراج والقصور، وهذا كان وراء قوة معنويات هذا السلطان التي زادت بزيادة مملكته ـ على حساب نقص الأندلس ككل ـ.

إن الجزية المهينة التي كان يدفعها والده «اسماعيل» سنوياً، والتي كان يسوقها «أبو الحسن» بنفسه في عديد من المرات إلى قصر «قرطبة»، وهو يستمع إلى الهمز واللمز المهين حين تأديتها لهؤلاء الأعداء، كانت تؤثر في كرامته، وكرامة أمته، مما يجعل الدماء تغلي في عروقه العربية في كل مرة كان يتذكر فيها هذه المشاهد المهينة.

لذلك كان أول شيء فعله حين استلام العرش، إيقاف دفع هذه الجزية، كما أن مجرد ذكرها أمامه كان كافياً لإثارة غضبه، لذلك وصفه الأب «أنطونيو آغاييدا» بعديم الإيمان الشرس، الحاقد على قداسة الإيمان المسيحي المنتصر في المعارك مع العرب أيام حكم أبيه، ولهذا تملّكته الروح الشيطانية العدائية لهذا الإيمان المقدّس حين تسلّم السلطة، فامتنع عن دفع هذه الجزية التي هي من حق قداسة هذا الإيمان.

(*) أخطأ ايرڤينغ بلفظة اسمه وهو مولاي «أبو الحسن» علي بن سعد، وابنه أبو عبد الله «محمد النصري» آخر ملوك الأندلس الذي يسميه الاسبان «بيدول» أو أبو عبد الله الصغير، تمييزاً عن عمه الذي ولي ولاية العهد بين فترتي تنحيته: محمد بن سعد «الزّغل». أنظر زامبارو، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة**، مطبعة جامعة فؤاد الأول، مصر، عام ١٩٥١، ص ٩٤.

الفصل الثاني

كيف طالب ملوك المسيحية باستحقاق الجزية، وكيف ردّ العرب على ذلك:

في عام ١٤٧٨م وصل إلى أبواب «غرناطة» فارس اسباني مشهور كسفير للملوك النصارى، ليطالب بالجزية، وهو «دون جوان دي ڤيرا» الموالي للتاج المسيحي بكل إخلاص وإيمان، وكان مركوبه مزركشاً، وهو مسلّح بالحديد والزرد من رأسه إلى أخمص قدميه، يتبعه مرافقة قليلة لكنها معينة بدقة لوظيفتها.

وراقب العرب هذه المجموعة الصغيرة المتعجرفة من الفرسان بحسد ظاهر، وهي تستعرض نفسها بأبهة لا يحوزها إلا الفرسان الاسبان، فمنظر «دون جوان» البراق وهو يمر في «الڤيرا» كانت تسبقه شهرته، لذلك كان الظن بأنه قد جاء لتحدّي الفرسان العرب أقرانه في مباراة الفروسية الشهيرة التي كانت تحصل أحياناً كثيرة على مرأى من كلا الفريقين، وهي عادة كان يتبعها فرسان كلا الطرفين، ولكنه كان بصدد المطالبة بالجزية ليس إلا، لولي العهد الملكي سيده، الذي رأى أن هذه المهمة تستدعي أن ينتدب لها سفير محارب به يستعرض تفوق سلاحه.

واستقبل المُلا «أبو الحسن» هذا الفارس في ديوانه الفخم، محاطاً بمقدمي فرسانه في قاعة «الحمراء» للسفراء، وبعد أن قدّم «دي ڤيرا» رسالته، تبسّم الملك الوقور المخيف بما يشبه التكشير المرير وقال: بلّغ سيدك أن ملك «غرناطة» الذي كان يعطي الجزية للتاج القشتالي قد مات، وعملتنا اليوم هي حد الأسنة ورؤوس الرماح.

وقوبل هذا الردّ الأبيّ بحركة تجهّم واحتقار من «دون جوان» لأنه كان جندياً قد نشأ على كره المسلمين واعتبارهم هراطقة، خاصة وأنه لمح الحرب في هذا الرد، وانسحب بإباء من هذه القاعة وبتثاقل، وعندما بلغ قاعة السباع توقف برهة للشرود متأملاً نوافيرها، ليجد نفسه بحوار

مع أحد حاشية القصر حول بعض أسرار الدين المسيحي، وما لبث أن احتد الحوار بينه وبين عدد من هذه الحاشية غير المؤمنة، وكما ذكر الأب «آغابيدا» أيقظ هذا الحوار الساخن الغيرة الدينية لهذا السفير المؤمن والفارس الشهم، ورغم أنه ظلّ يحاول الحفاظ على اتزانه، اتكأ على قبضة سيفه وهو ينظر بكل احتقار لصراخ هؤلاء الهراطقة المتحلّقين حوله، وردّ على أقوالهم باعتراضات لم يكونوا قد هيأوا أنفسهم لها، ولكن عندما حاول أحد أبناء «بني سراج» التجرؤ بذكر مريم العذراء عليها السلام، لم يعد الفارس الكاثوليكي يحتمل أذنيه، فرفع صوته فجأة متهماً هذا المهرطق بالكذب، وهو يشهر سلاحه بذات الوقت ليضربه بغمد سيفه على رأسه.

وبهذه اللحظة لمعت قاعة السباع ببرق سُحُبِ الأسنة، حيث ستصبغ بركتها بالدم لولا تدخل مولاي «أبي الحسن» الذي منع استعمال أي سلاح، مؤكداً حصانة السفراء وهم في أرضه، مما جعل «ابن سراج» يعلن احتفاظه بحقه بالثأر في وقت لاحق، بينما صلى السفير إلى السيدة العذراء ودعاها أن تضمن له فرصة يؤكد فيها خطل مفهوم هذا المارق بإزاحة ما تحت عمامته من رأس مهرطق.

وبغض النظر عن هذه الحادثة، عومل «دون جوان» بتميز من مولاي «أبي الحسن»، دون أن تزحزحه هذه المعاملة عن موقفه، وقبل ذهابه أرسل له السلطان سيفاً دمشقياً ذو نصل قلَّ نظيره بالعالم فقبضته الذهبية كانت مطعّمة بالأحجار النفيسة، وحين سحبه ابتسم وهو ينظر إلى نصله النادر قائلاً: لقد جاد علي صاحب الجلالة بسيف سوف أعرف كيف أستخدمه بحضرته، وبمثل هذا الجواب الظاهر الامتنان كان يخفي مرارة العداء في مضمر كلماته.

وبناءً على هذا كان الدون جوان وصحبه يفيدون من إقامتهم بغرناطة لرصد أوضاع العرب بعين الخبير الحربي المدرّب، فلاحظوا التهيّؤ للقتال وتقوية الأسوار في القلاع، والمدافع الثقيلة فيها، وقد دهشوا من كثرة المواد اللوجستية والتموينية، وقوة المشاة وتضافرها مع كتائب الفرسان، وكانوا حين يلاحظون هذا لا يبدون أي تذمّر، لأنهم سيلاقون عدواً نداً لهم، وبهذا يجب أن يبتهج الفرسان، وبينما كانوا يمرّون عائدين عبر شوارع «غرناطة» كانوا ينظرون بشغف إلى قصورها ومساجدها الباهرة العمارة، وفي «قيصريتها» أو سوقها المليء بالحرير والذهب والفضة، والمجوهرات، وسواها من البضائع النفيسة الفخمة من كل مكان من الأرض، وهم يتمنون الوقت الذي ستصير فيه كل هذه النفائس غنائماً لجنود الإيمان، الذين سيلغون بدم هؤلاء الجاحدين للدين.

وهكذا غادر «دون جوان» مع عصابته الصغيرة ببطء عبر البلاد نحو الحدود المسيحية، ليشهدوا مدى قوة كل حصن ومدينة وكيف بنيت الأبراج ليلجأ لها فلاحو «الڤيغا»، وكيف

تقف موقف دفاع على كل ممر في الجبال، وعلى كل مرتفع برج مراقبة، وبينما كان هؤلاء الفرسان يمرون بتلك المعاقل، كانت تلمع في داخلها وعلى أسوارها الحراب والأسلحة، وتحت العمائم تضيء عيون سوداء حادة، ترمقهم بنظرات من الكره والاحتقار.

وهكذا أصبح من الواضح أن الحرب مع هذه المملكة ستكون حرباً عنيفة، حرب مواقع، حيث سيكلّف كل موطىء قدم دماء غزيرة لاحتلاله، أما المحافظة عليه فستكون أصعب بكثير، وهكذا اشتعلت روح القتال عند هؤلاء المحاربين بتلك الأفكار، وأصبحوا بشغف لبدء العدوان، وهذا ليس من أجل أي مغنم أو ثأر كما برّر ذلك الأب «أنطونيو آغابيدا»، أو أي تعطّش للدماء بل من أجل الكرامة الاسبانية التي يحملها كل فارس اسباني وتذكره بأن هذه البلاد الجميلة هي إرث أجداده الذي يدنّسه هؤلاء اللامؤمنين فمن الصعب تأمل هذه البلاد الشهية دون إعادتها إلى حظيرة الإيمان الصحيح والملكية المسيحية.

وهكذا عندما عاد «دون جوان» إلى بلاط الملك القشتالي، ليقدم تقريره عن مهمته، ويضمنه كل ما سمع ورأى في رحلته لبلاد العرب، نال هذا التقرير من «فردناند» كل تقدير وأكرمه خاصة لدفاعه عن مريم العذراء، وهذا ما كان يراهن عليه هذا الملك الكاثوليكي، لأنه سيعطيه دعماً من كل فرسان الإيمان لتوسيع مملكته على حساب غبطتهم.

الفصل الثالث

كيف قرر العرب أن يضربوا الضربة الأولى في هذه الحرب:

كان لابدّ من الرد على التحدي الناري للملك العربي من قبل حكام «قشتالة» بنيران المدافع، لولا أنهم كانوا في ذاك الوقت يخوضون حرباً ضد «البرتغال»، وصراعاً مع نبلائهم في بلاطهم بحد ذاته، فالهدنة التي مرّ عليها زمن طويل بين هذه الشعوب أصبحت تعاني من الإنتقاض، و«فردناند» كان رغم حيطته يعتبر أن رفض دفع الجزية سبباً وجيهاً لاعلان الحرب، لكن ضمن الشروط الممكنة لذلك.

فبعد ثلاث سنوات من الحرب مع «البرتغال»، وهدوء معظم النبلاء الاسبان وتفاهمهم، كان لابدّ لملوك «قشتالة» أن يركّزوا اهتمامهم على وحدة التاج الاسباني، لتحقيق طموحاتهم الأساسية بطرد العرب من اسبانيا في معقلهم الأخير «غرناطة»، ولما كان طبع «فردناند» وحماسه الديني خاضعاً للتأثر دوماً بالأحداث السياسية الآنية، وكان ينظر بعين نقدية إلى الأرض العربية الغنية التي تحميها قلاع وأبراج كثيرة لا تعد، قرّر أن يهاجم هذه الأرض ويبتلعها قطعة بعد أخرى بحذر وصبر، مسقطاً مدينة بعد أخرى، وحصناً بعد آخر، وهكذا كان تكتيكه قبل أن يهجم على عاصمة العرب، وقد كنى عن ذلك بقوله: «سوف ألتقط حبوب الرمانة حبة بعد أخرى»(*).

أما مولاي «أبو الحسن» فقد كان على علم بنوايا الملك الكاثوليكي، لكنه كان واثقاً بقدرته على مقاومته، فقد كان لديه ثروة كبيرة جمعها خلال سني الاستقرار، فحصّن خطوط دفاع مملكته وجلب الكثير من القوات الإضافية المحاربة من شمال أفريقيا، إضافة إلى العديد من

(*) إن عبارة **غرناطة** تحريف لكلمة Granada اللاتينية والتي تعني الرمانة، وهذا هو أساس الجناس الذي استعمله «فردناند».

المعاهدات التي أبرمها مع أمراء «البربر» هناك لتزويده بالمدد حين الحاجة، إضافة إلى تفوق محاربيه المشاة وخيالته الماهرة، سواء كانوا تحت دروعهم ودرقهم الثقيلة، أو يركبون خفافاً على طريقة «A la Geneta» وهي: أن يحمل الفارس الرمح والدرقة فقط، وهؤلاء الفرسان العرب كانوا أكثر صبراً على التعب والجوع والعطش والعري من الفرنجة، وهم الأسرع لتلبية نداء القتال من ملكهم دفاعاً عن دساكرهم وأملاكهم.

وبهذا الاستعداد للحرب قرر مولاي «أبو الحسن» أن تكون له اليد العليا على سياسة «فردناند» بأن يسدد له الضربة الأولى في هذا الصراع، خاصة وأن في ميثاق الهدنة كان يوجد بندٌ ينص على أن كل هجوم لا تصاحبه أعلام ولا أبواق وطبول قتال، ولا يدوم أكثر من ثلاثة أيام، لا يعتبر نقضاً للهدنة، وهذا البند هو الذي سمح بسقوط الكثير من قلاع العرب بغتة، بينما لم يستفد العرب كثيراً من هذا البند، لذلك كانت المدن المسيحية الحدودية معظمها شبه مهملة لأمنها.

فأجال مولاي «أبو الحسن» نظره في هدف هجومه الأول حين بلغته المعلومات على أن حصن الزهراء[*] ـ قرب قرطبة ـ ضعيف الحماية والتموين، و«السيد Al Cayde» فيه كان مهملاً، وقد كان هذا الحصن الهام المبني على رأس جبلي ناتىء فوقه قصر كبير يقال أنه أعلى من جناح الطيور وسحب الغمام، كما أن طرقات وبيوت هذا الحصن كانت محفورة بالصخر، وله بوابة واحدة مفتوحة للغرب ويحميها برج يمكن أن يصب منه الزيت المغلي على الغزاة، أما الطريق الوحيد المقطوع من الصخر فكان وعراً لدرجة تشبه درجاً محطماً، هكذا كان حصن الزهراء القابل لأن يرد أي هجوم ممكن عليه[1]، وهو مشهور في كل اسبانيا لدرجة أن المرأة العذراء التي لا مجال لإغوائها كانت تسمى زهرانية، لكن لكل قوة مهما عظمت نقطة ضعفها، فلتكن هذه ملاحظة لأمثال هذا الحصن في البناء والنساء معاً.

(*) تسمى أيضاً بقلعة الصخرة.

(١) جاء في **نفح الطيب**، مرجع سابق، ج٢، ص ١٠٠ ـ ١٠٣، أن: «الزهراء فهي مدينة الملك التي اخترعها أمير المؤمنين «عبد الرحمن الناصر»... كان يعمل في جامعها من حذاق الفَعَلة كل يوم ألف نسمة... أما مدينة «الزهراء» فاستمر العمل فيها... أربعين سنة... واشتملت... على أربعة آلاف سارية... منها ما جلب من مدينة «روما»، ومنها من أهداه صاحب القسطنطينية... وعدد النساء بقصر «الزهراء»... ستة آلاف وثلاثمئة أو أربعمئة عشر امرأة... وستة آلاف صقلبي.

وكان القاضي «منذر بن سعيد» يُقرّع أمير المؤمنين «عبد الرحن الناصر» على هذا الإسراف في بناء الزهزاء، ويغلظ له الوعظ ويبكيه... ودار الزمن ليفتح «المهدي» قرطبة وتهدم قصورها فلا يبقى إلا حصن «الزهراء» وقد بدأ كل هذا على يد عشرة رجال فحامين وزبالين، قبل أن تسقط بيد الإفرنج، وها هو «أبو الحسن» يستعيدها الآن.

الفصل الرابع

حملة مولاي «أبي الحسن» على قلعة «الزهراء»:

في عام ١٤٨١م، وبعد ليلة أو اثنين من الميلاد، قام «مولاي أبو الحسن» بهجومه الشهير على الزهراء، عندما كان سكانها نياماً، كما أن مراقبة الحصن كانت غائبة عن مراكزها، لأنه كان من الاحتمال البعيد تعرّض هذا الحصن للهجوم من الأعداء، كذلك كانت ليلة عاصفة تمنع من المراقبة وتسمح للأرواح الشريرة بذات الوقت بالتجوال، كما لاحظ الأب «أنطونيو آغابيدا»، وهذا ما يلائم أهداف أبي الحسن الشيطانية، وهكذا زمجر على أسوار الزهراء ما هو أسوأ من هدير العاصفة، صرخة مرعبة أن: «المغاربة هنا.. المغاربة هنا»، ترددت في صدى الطرقات مختلطة بطرق السلاح وصرخات النصر، «فأبو حسن» الذي تسلّل من «غرناطة» دون أن يشعر به أحد إلى هذا المكان متجنباً مراكز المراقبة والأبراج الحصينة، ليصل على جنح الظلام والعاصفة إلى الزهراء، وينصب عليها سلالم الاقتحام سراً، ويدخلها ويدخل قلعتها من كل فج، دون أن تشك الحامية فيها بأي شيء، قبل أن يعمل السيف بهم، وهكذا كانت صرخات الحرب يرد عليها بصرخات حرب من كل جهة، فالعدو كان في كل مكان ينشر الفوضى، لكنه يعمل بذات الوقت بشكل منظم عبر إشارات محددة، فالجنود النائمون قتلوا قبل أن يهبّوا إلى مراكزهم، ومن فرّ منهم لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل وأين يضرب، فمع كل ضوء متحرك كان سيف قاتل يحصد أرواح كل من يحاول المقاومة بحدّه المرهف.

وهكذا حسم الأمر بوقت قصير، فمن لم يذبح لجأ إلى مخابىء بيته، أو استسلم كأسير، وعلى هذا الأساس توقف عصف الأسنة. لكن الريح ظلّت تنوء مختلطة بصرخات الجنود العرب الباحثين عن الفارين، بينما يرتجف السكان خوفاً على مصيرهم، ومع النفير الذي ضرب في الطرقات كانت الدعوة إلى تجمع السكان من غير سلاح في الساحة العامة، حيث أحاط بهم الجنود العرب حتى طلوع الفجر، وهكذا كشفت خيوط الفجر عن خليط من الناس بكل

أعمارهم وطبقاتهم بدون تمييز، كانوا منذ وقت قريب بمأمن ورفاه، وهم الآن تحت رحمة الغزاة والريح الشتوية القاسية، و«الملا أبو الحسن» الذي أدار سمعه عن كل توسلاتهم وصلواتهم أمر بهم أن يساقوا أسرى إلى غرناطة، تاركاً حامية قوية في الحامية والمدينة والقصر، متهيأة للدفاع، ليعود منتشياً بالنصر إلى عاصمته، ويدخلها على رأس قواته المثقلة بالغنائم، منكساً خلفه الراية المثلثة لحامية زهرة التي غنمها بهذا النصر.

وبينما كانت هذه الاستعدادات للاحتفال على شرف هذا النصر على الزهراء المسيحية، وصل الأسرى بطابور من الرجال والأطفال والنساء يساقون كما تساق الماشية وهم منهكون جائعون. مما حرّك في عمق نفوس الناس بغرناطة حزازة على هذا المشهد القاسي، وخاصة عند من خبر الحروب منهم من كبار السن، ليشعرهم بأن المتاعب قادمة، وكانت الوالدات من النساء حين فرز النساء وهن يحملن أولادهن على صدورهن، يشكلن منظراً يثير الشفقة ويدفع إلى الدعاء على هذا الملك، لذلك خفتت الاحتفالات ووزّع الطعام والشراب على الأسرى.

ورغم تزاحم النبلاء والفقهاء للذهاب إلى «الحمراء» لتهنئة الملك، بغض النظر عن الشعور الشعبي الإسلامي النبيل من الناس الذي كان ينتشر بالطبقات الاجتماعية الدنيا، وتحت عبق البخور الملكي في القصر، خرج صوت من تجمع الناس وقع وقْعَ الصاعقة على آذان «أبي الحسن»... ياهو يا غرناطة وقت زوالك قد آن، ... ستقع خرائب الزهراء على رأسك، فالأرواح تخبرني أن نهاية أباطرتنا قد آنت؟!! فتدافع الناس مبتعدين عن مصدر الصوت حيث وقف وحيداً في الساحة، وكان من الدراويش، والناس المباركين الذين أوهنت السنون جسدهم، دون أن تطال أرواحهم، وكانت تظهر هذه الروح الوثابة من عينيه، وهو كما وصفه أحد المؤرخين العرب بأحد الرجال المقدسين «الأقطاب»، الذين يقضون حياتهم بعزلة التأمل والصوم والصلاة، إلى أن وصلوا إلى قداسة تسمح لهم باستشفاف المستقبل، أما الأب «أنطونيو آغابيدا» فقد اعتبره من أبناء «بَليعال الشرير» الكفرة الذين بهم مس من الشيطان، الذين يسمح لهم أحياناً بالتنبؤ بالحقيقة لأتباعهم، مع محظور أن نبوءاتهم لن تفيد هؤلاء الأتباع بشيء.

وتردد صوت هذا المجذوب في كل قاعات «الحمراء»، فسبب الصمت المطبق على الحضور الملكي، دلالة على تأثر الجميع عدا مولاي أبي الحسن وحده، الذي رمق هذا الرجل بنظرة حادة من علياء عرشه، ثم غضّ النظر عنه، لأنه أهبل لا يستأهل أكثر من ذلك، فاندفع هذا المجذوب من المقام الملكي نحو شوارع غرناطة وهو بحال من الذعر، ليسمع كل الناس وعيده قائلاً: «لقد انتقض السلام فحرب الإبادة قادمة، ياهو ياهو يا أهل غرناطة التي ستوشك على السقوط ليقع كبارها رهن حد السيف، وأطفالها ونسائها بيد الأسر والهوان، تماماً كما حصل في الزهراء».

وهذا ما أرعب السكان، لأنهم كانوا ينظرون إلى أمثال هذا المجذوب نظرتهم إلى المتنبئين، فأغلقوا على أنفسهم الأبواب تماماً كما كانوا يفعلون في أيام الحداد، وإذا هم خرجوا من بيوتهم كانوا يخرجون في جماعات للطرقات أو الساحات، ليحذروا بعضهم بعضاً مما سينزل بهم، لاعنين قسوة وتسرع مولاي «أبي الحسن».

أما الملك العربي فلم يحاول قطع همسهم، إلا أنه كان يعرف أن ما فعله سوف يجلب عليه ثأراً مسيحياً، فدفع بكل احتياطه لمفاجأة «الڤيرا وقشتالة» بدون كثير من النجاح، في الوقت الذي أرسل فيه فقهاءه سفراء إلى المغرب العربي، يدعوهم إلى مساعدة الإسلام بمساعدة مملكة «غرناطة» في وجه الكفر العاتي.

الفصل الخامس

غزوة المركيز «أوف كاديز» ضد «الحمى»(*):

شعر الملك «فردناند» بإهانة عندما سمع خبر سقوط «الزهراء»، خاصة وأنه كان يتوقع تلقي الضربة الأولى في أحداث هذه الحرب، ولم يستعد لها، فأعاد تقييم كل سياسته، فالملك الداهية لا يغفر لخصمه العنيد أي تقدم عليه، لذلك أصدر أوامره إلى كل ممثليه وأسياد مقاطعاته على الحدود، بأخذ أقصى الاحتياطات، والتمركز في مواقعهم، وأن يتهيأوا لنقل السيف والبارود إلى الأرض العربية، في الوقت الذي أرسل فيه رهبان «الفرير» بمختلف تنظيماتهم لتحريض كل الفرسان في العالم المسيحي ليأخذوا دورهم في هذه الحملة الصليبية على جيرانه المسلمين الهراطقة.

ومن ضمن من لبّى دعوة هذا الملك، والتف حول عرش «فردناند وإيزابيلا» من هؤلاء الفرسان المشهورين بالمهارة وعلوهم بالقدرة والقدر القتالي كان: «رون رودريغو» حاكم «ليون» ومركيز ـ القاضي ـ «أوف كاديز»، الذي صار بطل هذه الحرب المميز، وقائد معظم حملاتها المباغتة، ولذلك يجب علينا أن نخصه ببعض التعريف: فقد ولد عام ١٤٤٣م من سلالة «ألفونس» الشهيرة، وكرّس نفسه لساحات الحرب منذ نعومة أظافره، وكان مربوع القامة قوي البنية، متحملاً للجهد والتعب، ذو لحية وشعر جعد أحمر، وملامحه قاسية، وعلى وجهه آثار إصابة سابقة بالجدري، وكان داهية حليماً كريماً مع أتباعه، صريحاً ونبيلاً مع أنداده، ومحباً ومكرساً نفسه لأصدقائه، قاسياً وفظيعاً على أعدائه، وبهذه الصفات كان يعكس صورة الفارس الكاملة في عصره، التي تقابل عند معاصريه المعنى الحقيقي لعبارة السيد ـ اللسيد ـ الخالدة.

وقد كان مركز هذا المركيز في أكثر أراضي الأندلس خصباً، وتحت إمرته مدن كثيرة وقلاع

(*) وتلفظ أيضاً بالحامة، واسمها الأساسي: «حماة».

وقصور، بشكل يمكنه أن يجند منها وحدها جيشاً كاملاً، وهو بمجرد أن تلقّى إشارة من الملك كان متشوقاً لأن يبرز ويظهر من خلال هجوم يخترق به مملكة «غرناطة» في الصميم، ليعطي بهذا الاختراق إشارة بدء الحرب، وبذلك يمحي المهانة التي تلقتها جماعته باحتلال «الزهراء»، ولما كانت مقاطعاته على الحدود مباشرة مع العرب فهي الأكثر تعرضاً للغزو، ولذلك كان يجزل العطاء للجواسيس والكشافة والأدلاء العرب المتمسحنين، فيرسلهم لكل الجهات العربية للمراقبة وكتابة التقارير التي تزوّده بالمعلومات الهامة لتأمين حدوده من كل مفاجأة، وفي أحد الأيام جاءه أحد هؤلاء الشرفاء إلى مدينة «مرشينا»، وأخبره أن مدينة «الحمى» محمية حماية ضعيفة، بل ومهملة الحراسة، ويمكن أخذها بالمفاجأة؟! وهي من أغنى المناطق في مقاطعة «غرناطة» وأوسعها ، واقعة على مرتفع صخري يحيطه النهر إحاطة شبه كاملة، ويحميها حصن لا يمكن المرور إليها إلا من خلاله عبر منحدر لا تمر منه إلا العربات، وقوة هذه المدينة في كونها في منتصف مملكة غرناطة(*) ولهذا السبب كانت محمية بشكل مهمل مما يغري بالعصف بها وأخذها.

ولكي يتأكد «المركيز» من وضع هذ االحصن أرسل أحد جنوده المحنكين بالحرب ممن يثق فيه ـ لكي لا يعتمد على وشاية جاسوس فقط ـ وكان هذا الجندي الثقة يحمل اسم «أورتيغا دي برادو» قائد فرقة السلالم التي تهاجم القلاع، والشهير بفنه هذا في تسلق جدران القلاع المستعصية، فوصل «أورتيغا» إلى «الحِمى» في ليلة بلا قمر، ليتسلق وحده جدار حصنها بخفة وعدم ضوضاء، وهو يضع أذنه على الحائط من فترة لأخرى أثناء تسلقه ليسمع خطوات الحراسة على أعلى سور الحائط في مدى اقترابهم أو ابتعادهم عنه، ومقدار عددهم، وبعد ذلك تابع تسلّقه من حصن المدينة إلى حصن قصرها، وكان الصمت مطبقاً، بينما كان يتجنب بطاريات الحراسة التي كانت وكأنها تقف بينه وبين السماء، ولم يجد أيّاً منها يقوم بواجب حراسته بشكل جيد، فحدد النقاط التي يمكن وضع سلالمه عليها أثناء الهجوم المرتقب، وسجّل ساعات تبديل الحرس، مسجلاً كل الملاحظات التي يمكنها أن تحقق هدفه، وعاد دون أن يكتشف.

وبوصوله إلى «مارشينا» أكّد للمركيز إمكان تسلق «الحمى» وأخذها على حين غرّة، ولثقة المركيز بكل من «دون بيدرو» و«دون دييغو دي مرلو» قائد حامية: «قشتالة وسانكو دي ڤيلا» وسيد «كرمونا»، طلب منهم مساعدته، فأرسلوا قواتاً له من أجل هذا الغرض، وفي يوم محدد تجمع هؤلاء القادة في «مرشينا» بقواتهم وتعزيزاتهم، دون أن يعرف سوى القادة بجهة الغزوة،

(*) أنظر خريطة عدوة المغرب.

ولكن تحركهم هذا أثار في الأندلس توقع غزو العرب، إلا أن الأمر يجب أن لا يتعدى هذا لأهمية السرية في نجاح المهمة، وهكذا تحركت الحملة بثلاثة آلاف خيّال، وأربعة آلاف من المشاة، عبر طريق غير مطروق بالسفر عبر جبال «الظريفة» الوعرة وطرقاتها الصعبة، ولما وصلوا إلى نهر «يغواس» تركوا كل متاعهم وتموينهم، ليلحق بهم به بعد ذلك، وكانوا يسيرون في الليل، وينامون ويهدأون في النهار، دون أي ضجيج في مخيمهم، أو أي نيران يشعلونها حتى لا يكشف دخانها مواقعهم. وفي اليوم الثالث تابعوا مسيرهم بحلول الليل مسرعين بقدر ما تسمح طبيعة الأرض الجبلية الصعبة، فهبطوا مع منتصف الليل في واد سحيق صغير على مرمى حجر من «الحمى»!! حيث توقفوا متعبين من هذا المسير الليلي القاسي في نهاية شهر شباط/ فبراير.

وهنا أوضح «المركيز أوف كاديز» هدف الحملة لجنوده، التي ستشكل مجداً للإيمان المقدس بالثأر مما حدث في «الزهراء»، كما أوضح لهم أن «الحمى» مدينة غنية بما يمكن نهبه، مما حمّس الجنود للإسراع بالهجوم وطالبوه بقيادته، وهكذا وصلوا إلى «الحمى» قبل ساعتين من شروق الشمس، ونصب الجيش كمائنه بينما تسلق الحصن ثلاثمئة منهم لأخذ مواقعهم التي حددت لهم فيه، وكان معظم هؤلاء الرجال من الأسياد والنبلاء المختارين، الذين يفضلون الموت على الذلّ، وهم يتبعون فرقة السلالم بقيادة «أورتيغا دي برادو» على رأس ثلاثين رجلاً من حملة السلالم، وهكذا تسلقوا المنحدرات التي توصل إلى الحصن بصمت، ليصلوا على جنح الظلام إلى أسفل أبراجه دون أن يلاحظوا، ولأن الظلام كان مطبقاً لم يصدر عن كل هذا الأمر ولا همسة صوت، أو لمعة ضوء واحدة.

وبعد أن ثبتوا سلالمهم تسلقوها دون إحداث أي صوت، يتبعون «أورتيغا» كأول من تسلق، يتبعه «مارتن غاليندو» الشاب ذو الروح الوثابة الذي يسعى إلى التميز، وبتحركهم بخطى ثابتة نحو بوابات الحصن ومعاقله، أخذوا حراسها بالمفاجأة، وهكذا ظهر فجأة «أورتيغا» الذي قبض على أول حارس، ليهدده بسكين لامع كي يدلّه على غرفة نوم الحرس، فأطاع هذا العاصي ودلّه ليذبحه فوراً كي لا يصدر أي صوت، وبذلك تمّ ذبح كل الحراس وهم نيام، أو بدون مقاومة تذكر، إذ ليس لدى المهاجمين أي مجال لأخذ الأسرى، فأخذ المهاجمون مراكزهم المحددة مع بعض صيحات التحذير التي أطلقت صفير الإنذار بالقلعة، فصحت الحامية من نومها لتجد العدو قد سيطر على الأسوار والأبراج، وبذلك لقي بعض العرب مصرعهم فوراً، بينما قاتل آخرون من غرفة إلى غرفة بشكل بائس بين لمع الأسنة في كل مكان من الحصن الذي اختلط بصرخات المعركة وأنين الجرحى، وبنفس الوقت خرجت القوات المحاصرة للحصن من خارجه من كمائنها مطلقة صرخات الحرب وهي تتسلق السلالم أو تدخل من الأبواب التي فتحها لها

المهاجمون الأوائل، مما زاد من الفوضى في صفوف القوات المدافعة، وعلى مدخل الباب الرئيسي سفكت دماء كثيرة بين مقتحميه والمدافعين عنه، فسقط اثنان من «السياد» الأشاوس، «نيكولاس دي روجا» و«سانشو دي أڤيلا» بشكل مشرف، في الوقت الذي نجح فيه «أورتيغا» بفتح الحصن الذي دخله المركيز «أوف كاديز» و«دون دييغو» مع أتباعهم وهكذا سقطت القلعة بيد النصارى.

وبينما كان الفرسان يطهّرون الحصن من غرفة إلى غرفة، دخل المركيز «أوف كاديز» إلى غرفة فخمة ليستريح، فوجد حين أضاء ضوءاً فضياً من أنوارها امرأة عربية ذات جمال أخّاذ، هي زوجة سيد القلعة التي كان زوجها غائباً لحضور حفل زواج في «فلز ملقا»، وحين حاولت الفرار بمجرد أن رأت هؤلاء المحاربين النصارى تعثرت بالسرير، فسقطت لتقع بين يدي المركيز، الذي رفعها من الأرض مهدئاً من روعها، في الوقت الذي اندفع نحوها بعض الجنود لخطفها، فوبّخ المركيز هذه اللارجولة في سلوكهم، مذكّراً أنهم إنما يحاربون الرجال لا النساء العزل، وبعد أن هدّأ من روع هذه السيدة، ووعدها بالحماية، عيّن مجموعة من ثقة جنوده لحماية هذه الشقة.

وهكذا سقط القصر في الحصن، وبقيت المدينة على سلاحها، وحين سطع النهار، واستعاد الناس رباطة جأشهم، رأوا عدوهم واستطاعوا تقدير قواته، ورغم أن سكان المدينة في معظمهم من التجار والباعة، إلا أنهم شأنهم شأن كل العرب مدربون على استعمال السلاح، وشجعان ذو روح قتالية عالية، فلجأوا إلى أبراجهم وحصونهم على أمل النجدة السريعة من غرناطة التي لا تبعد أكثر من خمسة وعشرين ميلاً عنهم، ومن حصونهم صاروا يمطرون النصارى بالحجارة والأسهم، كلما حاول قسم من الجيش المسيحي التحرك نحوهم، وهكذا غصّت مداخل الأحياء التي تؤدي إلى القلعة بالرماة العرب الذين يحملون النشاب و«الأراقب» أي البنادق النارية القديمة الطويلة والثقيلة، ليطلقوا منها النار بصورة دائمة على أبواب الحصن، بشكل لا يسمح لأحد بالخروج من هذه الأبواب دون أن يقتل فوراً، وهكذا سقط فارسان حاولا قيادة قواتهما قتيلان على الفور.

فوجد المهاجمون أنفسهم بموقف شديد الخطورة، فالتعزيزات ستصل سريعاً من غرناطة، فعليهم أن يسيطروا على المدينة قبل نهاية اليوم، وإلا سوف يحاصرون ويدمرون في القلعة، وبعضهم لاحظ أنهم حتى لو أسقطوا المدينة. ربما لا يستطيعون المحافظة عليها، فاقترحوا النهب والسلب ثم إحراق القلعة والتراجع إلى «قشتالة».

لكن رأي المركيز «أوف كاديز» كان مخالفاً، فالله قد وضع القلعة بأيدي الاسبان،

فسيعززهم بالحفاظ عليها، لذلك قال لأتباعه: لقد حصلنا على هذا المكان بشق الأنفس وبالدماء، فلن يشرفنا تركه من مجرد خوف من خطر تصوري محتمل، وهكذا وافقه فرسانه، لكنهم لم يكونوا متحدي الرأي، فالجهد قد نال منهم وأنهكهم المسير الليلي والقتال العنيف، وعِلمهم بقدوم العرب المحتم من «غرناطة».

وهم حين وجدوا احتياطياً كبيراً من التموين في القلعة، ارتفعت روحهم المعنوية، أما باقي الجيش المسيحي تحت المدينة فقد بدأ يتقدم لمهاجمتها بخطى ثابتة، يتسلقون حصونها بالسلالم وبأيديهم السيوف يقاتلون بها العرب الذين يحاولون صدّهم عن هذه الأسوار.

ولأن باب القلعة التي بأيدي الكونت «أوف كاديز» مسدود برماة ومدفعية العدو، أمر بفتح ثغرة في سور القلعة ليمر منها هو وجيشه لاحتلال المدينة وقصرها، وحين تمّ فتح الثغرة، خرج منها المركيز بقواته وسيفه بيده، فأصبحت المدينة عرضة لهجوم الصليبيين من كل جهة، من أسوارها ومن فوقها بالقلعة ومن داخلها ومن أبواب قلعتها بحد ذاتها، فقاتل العرب بشجاعة في شوارع مدينتهم، ومن شبابيك بيوتهم وأسطحة منازلهم، ورغم أنهم لم يكونوا جنود جيش نظامي إلا أن روحهم المعنوية العالية كانت تدفعهم إلى هذا القتال، ويتفوقون على عدوهم بالعدد، إذ اشترك الأطفال والصغار والكبار، والضعاف والأقوياء، على قدر سواء بهذا الصراع اليائس من أجل حريتهم وثروتهم وحياتهم في وطنهم، على أمل أن تعطيهم كل ثانية أملاً بوصول المدد من «غرناطة»، فلم يهتموا بجراحهم ولا بقتلاهم، إذ يظل واحدهم يقاتل إلى أن يقتل وهو يحمي منزله بمتراس جسده، بينما كان المسيحيون يقاتلون من أجل المجد والثأر، ومن أجل الإيمان المقدس والغنائم التي يمكن نهبها من هؤلاء الهراطقة، ونجاحهم يعني حصولهم على هذه المدينة الثرية، بينما فشلهم سوف يعرّضهم لكل طغيان «غرناطة».

وعلى هذا الأساس استمر الصراع من الصباح حتى الليل، حيث بدأت قوات العرب بالتضعضع، بدليل تراجعهم إلى المسجد الجامع قرب السور يطلقون منه نيران مدافعهم وأسهمهم المشتعلة لدرجة أن الصليبيين لم يجرؤوا أن يتقدموا نحوه، وهم مغطون بالزرد والحديد من رأسهم إلى أخمص أقدامهم لحماية أنفسهم من هذا الهطول القاتل النازل فوقهم من كل صوب، لكنهم راحوا يتقدمون ببطء، ليشعلوا النار في باب المسجد الجامع، وعندما بدأت هذه النيران تمسك بالمسجد وتلفح وجوه العرب فيه، ظهر اليأس على بعضهم فاندفع نحو العدو ليموت ميتة انتحارية، بينما استسلم الآخرون.

وهكذا استبيحت المدينة، وكانت الغنائم فيها كثيرة، وخاصة ما فيها من كميات كبيرة من المجوهرات والذهب والفضة والحرير، وكل صنف ثمين، إضافة إلى المطايا من كل نوع،

والتموين من كل صنف، لأن «بالحمى» تجمع الضرائب وأجارات كل ما يجاور هذه المملكة الغنية مملكة «غرناطة»، فالحمى أغنى مدن الأندلس العربية، وهي بسبب قوة تحصيناتها وموقعها الاستراتيجي كانت تسمى مفتاح «غرناطة».

لذلك حمل كل جندي اسباني أكثر مما يقدر على حمله من الغنائم والمنهوبات، على ظن استحالة احتفاظهم بهذا المكان، وراحوا يدمرون ما لا يقدرون على حمله وهكذا خلطوا الزيت بالعسل في المستودعات ومزقوا فرش البيوت ودمّروا الكتب، وحين وجدوا الكثير من أسرى الزهراء في أقبية السجن أخرجوهم للنور والحرية، أما أحد الجواسيس الاسبان الذين كانوا يعملون كأدلاء للعرب في الأراضي الاسبانية، فقد شنق على أعلى نقطة حراسة بالقلعة كعبرة لكل من يعتبر من الجيش.

الفصل السادس

كيف تأثر أهل «غرناطة» بسماع أخبار الاستيلاء على «الحمى» وكيف تحرك ملك العرب لاستعادتها:

رفع فارس عربي معرفة حصانه ولم يضعها عبر سهوب «الڤيغا» إلا على باب «الحمراء» ليحمل إلى مولاي «أبي الحسن» أنباء الهجوم على «الحمى» قائلاً: لقد باغتنا الصليبيون دون أن نعرف من أين وكيف ظهروا في بلادنا، وتسللوا إلى القصر ليلاً، فقاتلناهم قتالاً عنيفاً على الأسوار والأبراج، ولما انطلقت بحصاني من باب «الحمى» كان القصر قد وقع بحوزة المشركين.

هكذا شعر «مولاي أبو الحسن» كما وأن الأمر محاولة عقاب له على ما صنعه «بالزهراء»، لكنه عزى نفسه بأن الأمر مجرد غزوة من عصابة من المجرمين، وأن قوة صغيرة كافية لإخراجهم من المدينة وطردهم من القصر ومن كل البلاد، لذلك أمر فوراً ألفاً من فرسانه للذهاب على عجلٍ لمساعدة «الحمى»، لكنهم وصلوا إلى أسوارها في الصباح التالي لسقوطها، ليجدوا العلم الصليبي يرفرف على أبراجها، وتخرج لهم مجموعة فرسان من السور لمواجهتهم.

فأدار الفرسان مهورهم عائدين إلى «غرناطة» ليدخلوا أبوابها بشكل فوضوي أثار الذعر، وأصدر صيحات متباينة بين قائل: الحمى قد سقطت سقطت، وآخر بأن مفتاح غرناطة في يد الأعداء.

مما ذكر الناس بنبوءة الدرويش التي راح يتردد صداها بكل أذن بسبب بداية تحققها هذا، فكل المدينة كانت في حداد طول الليل حتى طلوع الشمس.

وكبار السن الذين كانوا قد لجأوا إلى «غرناطة» من أماكن عربية استحوذ عليها الاسبان في الماضي، أصابهم اليأس من هذه الحرب التي تطاردهم حتى معقلهم الأخير هذا، مدمرة هذه الأرض الجميلة، تاركة سنينهم الأخيرة في هذه الحياة بحال من المقيم المقعد. والأكثر جزعاً

كانت النساء اللواتي عرفن المستقبل الأسود الذي ينتظر أولادهن، وللهفة قلوبهن تحركت مجموعة كبيرة منهن إلى قاعات الحمراء لمقابلة الملك في حال عويل، لاعنات اليوم الذي أشعل فيه الحرب على النصارى من أرضهن، وقالت بعضهن: ليكن الرسول ﷺ شاهدنا أمام الله بأننا وأولادنا بريئون من هذا التصرف، وعلى رؤوس الأشهاد إلى يوم الدين، فليمح الله خطيئة «الزهراء».

ورغم كل هذه الحشود ظلّ مولاي «أبو الحسن» ساكناً بقلب جامد، كما ادعى الأب «أنطونيو آغابيدا»، لاعتقاده بأن عنفه الأعمى كفرعون مصر كان كافياً لتخليص البلاد من محتليها؟! لكن الواقع هو أنه كان محارباً شجاعاً واثقاً بقدرته على ضرب العدو على رأسه، فهو على يقين بأن الذين أسقطوا «الحمى» في مركز خلافته وقريباً منه، مجرد حفنة من المرتزقة، غير قادرين على تحمّل حصاره لها بما لديهم من مؤن محدودة، فهو قادر على تطويقهم بحركة سريعة وبجيش قوي، يقطع عنهم كل مدد من بلادهم ويجعلهم رهائن في الحصن الذي سلبوه.

ولما كان مولاي «أبو الحسن» رجل أفعال لا أقوال، انطلق فوراً إلى الحصن بذاته على رأس ثلاثة آلاف فارس وخمسة آلاف راجل، دون أن ينتظر مرافقة المدفعية وباقي أدوات الحصار البطيئة الحركة، فكثرة قواته كانت كافية برأيه لتدمير العدو.

أما المركيز «أوف كاديز» الذي سيطر الآن على «الحمى»، فقد كان له أصدقاء مختارون من أهم الفرسان الصليبيين، مثل «دون ألونزو دي قرطبة» سينيور وسيد «غويلار» وشقيق «غوانزاڤو القرطبي» الذي حاز بعد ذلك لقب «كابتن اسبانيا الأكبر»، وألونزو هذا على وشك أن يأخذ الآن شهرته ومجد بني جنسه، حيث كان أخوه لايزال مقاتلاً شاباً صغيراً. أما هو فقد كان واحداً من أشد الفرسان الاسبان وأكثرهم مبادرة إلى المهام ذات الطبيعة الخطرة، ولأنه لم يشارك مع المركيز «أوف كاديز» في غزوته هذه لبلاد العرب الأندلسية، لم يستطع أن يصبر أكثر من هذا فجمع مشاته وخيالته وقناصته ودخل بهم إلى ساحة المعركة، فلما وصل إلى نهر «يوغواس» وجد متاع الجيش الذي سبقه على ضفته، فحمله لهم إلى «الحمى»، فعلم المركيز بقدوم صاحبه الذي كان بطيئاً بسبب ثقل أحماله، وبينما كان على بعد عدة أميال من «الحمى»، وصلته كشافته بأخبار تقدم ملك العرب نحوها بقوة كبيرة، كذلك قلق المركيز لإمكان وقوع صديقه «دي غويلار» بيد العدو، فنسى الخطر الذي سيحدق به مرسلاً أحد أتباعه على وجه السرعة لينذره بعدم القدوم.

لكن «دي غويلار» عندما علم بقدوم ملك العرب تحصن في الجبل منتظراً قدومه، لكن

سخف وجنون مثل هذا العمل بقوة صغيرة إزاء جيش كبير دفعه إلى العدول عن هذا الأمر، مفكراً بأن يلقي بنفسه في «الحمى» ليشارك أصدقائه مصيرهم، وحتى هذا صار من الصعب تحقيقه لأن الوقت قد فات، إذ سيقطع العرب سيره، فلا يسبب فعله هذا «للمركيز» في القلعة إلا مزيداً من الضغط عليه إذا وقع بأسر العرب تحت أسوار هذه المدينة كذلك لا وقت لديه لاستشارة قادته، الذين لن يتأكدوا إلا من أهمية التراجع إلى أرض المسيحية، وهذا ما يبدو أنه الحل الأخير خاصة وأن كشافته أخبروه بأن مولاي «أبا الحسن» قد عرف بوجوده وهو يتجه باتجاهه وبسرعة، وهكذا خضع «دي غويلار» لمنطق العقل فسحب قواته عائداً إلى «أنتكويرا» بعد أن ترك متاعه أرضاً، فطارده مولاي «أبو الحسن» لمسافة بين الجبال، ثم عاد بقواته إلى «الحمى».

وما إن وصل إليها حتى وجد حقولها ملأى بجثث الفلاحين والمدافعين عن المدينة دون أن يدفنوا، بمذبحة وحشية لا نظير لها من قبل النصارى، والكلاب وهوام البرية تنهش من لحومهم، ولغضب العرب من هذا المنظر أبعدوا الوحوش عنهم، ثم صبوا غضبهم بالهجوم بشكل جنوني على سور المدينة، قاذفين بها بالسلالم من كل جهة دون أن ينتظروا وصول أدوات الحصار والتسلق، على ظن أن الهجوم من عدة مواقع بذات الوقت وبسبب تفوقهم العددي سوف يشتت العدو.

لكن «المركيز» الذي وزّع قواته على مختلف جهات السور تحت إمرة قادته المختارين، استطاعوا رمي مهاجميهم بكل أنواع الحجارة والأسهم والنار، وبقدر سرعة تسلّقهم كانوا يدمرون أو يسقطون من مواقعهم، وحطمّت سلالمهم لينال كل من كان عليها ضربة على رأسه.

في الوقت الذي كان مولاي «أبو الحسن» يرسل الفرقة بعد الأخرى لتسلق السور عبثاً، فكانوا كالأمواج التي تتحطم على الشاطىء الصخري، وهكذا صارت الجثث تتكوم في أسفل السور وبها أشجع فرسان «غرناطة»، كما كان النصارى يخرجون أحياناً من البوابة ليهاجموا ما بقي من تجمعاتهم على قيد الحياة.

وفي إحدى هذه الهجمات التي كان يقودها «الدون جوان دي ڤيرا» السفير السابق ـ الذي ذكرناه في بداية الكتاب ـ لمولاي «أبي الحسن» والذي طالب بالجزية، التفت وهو ينسحب إلى صوت يناديه بلهجة اسبانية ركيكة: إرجع إرجع لتقاتل من حاولت إهانته في المكان الذي لم يكن يقدر فيه عليك ردّاً، ولما التفت وجد «ابن سراج» الذي ضربه بقبضة سيفه في «الحمراء»، لتعرّضه لمريم العذراء، فطار حماساً لرؤيته، وحمل رمحه الطويل وانطلق بمهره للصراع معه،

خاصة وأنه ممن يفضّلون دوماً حسم النقاش بالسلاح، وكان مؤيداً كما ذكر الأب «أنطونيو آغابيداً» بفضيلة قضيته، لذلك جعل هذا الأب الفاضل الرواية تذهب إلى أن الصراع بين الفارسين لم يكن ليبدأ حتى دخلت حربة «الدون جوان» في فم هذا العربي وطرحته أرضاً دون أن ينبس ببنت شفة بعد ذلك، وتابع هذا الأب الفاضل بأن هذا هو الجزاء العادل لإساءته للعذراء، وقد تحقق هذا الأمر بشكل إعجازي من خلال الحماية الإلهية لكل المدافعين.

وفي الواقع كان هذا الصمود سبباً دفع بمولاي «أبي الحسن» إلى معرفة خطئه بالإسراع بالهجوم قبل وصول أدوات الحصار، فالمدافعين لم ينلهم شيء من هذا الجيش المزمجر على السور، لذلك أمر مولاي «أبو الحسن» بالإنسحاب من السور، وتركه بعد أن كرر العرب هجماتهم عليه، وكانوا يردّون في كل مرة أمام استحكامات العدو القاتلة، ليخرج النصارى بعد كل تراجع ليجهزوا على من بقي قرب السور مقاتلاً أو جريحاً، خلال صراع طوال اليوم مميت، ومع المساء كان حوالي ألفين من العرب بين قتيل وجريح.

وبهذا فقد مولاي «أبو الحسن» كل أمل بأخذ الحصن بالهجوم، لذلك عمل على تحويل مياه النهر عنه وعن أسواره، ليقطع عن المتحصنين فيه ماء الشرب، وبذلك تصبح «الحمى» جافة.

وأثناء هذا التحويل حصل صراع حول النهر في محاولة من النصارى لمنعهم، فعرض القادة الاسبان أنفسهم لأشد الأخطار مع رجالهم الذين كانوا يُرَدُّون إلى الأسوار، كلما حاولوا عرقلة عمل تحويل الماء، حتى أن «المركيز» كان يقاتل بنفسه العرب يداً بيد ليتحول ماء النهر أحمراً من الدم المراق فيه، ويتغطى بالجثث الطافية، وأخيراً تغلّب العرب ونجحوا بتحويل القسم الأكبر من الماء، وبقي على الصليبيين أن يكافحوا ليظل لهم سواقٍ قليلة تزوّدهم بالماء، وهم يحاولون خوض النهر، ليتلقاهم النبالة العرب والرماة بنيرانهم الغزيرة كلما حاولوا أن يملؤوا جرة من جرارهم، فكان عليهم أن ينقسموا إلى قسمين: أحدهما يقاتل، والثاني يحاول أن يملأ الماء، وكان هذا الصراع مستمراً طوال النهار والليل، إلى حدٍ يمكن القول فيه أن كل نقطة ماء كان ثمنها نقطة دم.

أما في المدينة فكانت المعاناة تشتد، لأنه لا أحد سوى الفرسان وخيولهم كان ينال الماء الثمين الغالي تحصيله، وحتى هؤلاء الفرسان كانوا ينالون كميات تسد رمقهم فقط، أما الجرحى الذين لم يكونوا يقدرون على تحصيل الماء، فقد كادوا أن يهلكوا، بينما الأُسرى التعساء في سجنهم بالجامع الكبير كانوا قد تركوا لموت مرعب بطيء، إلى حد أن بعضهم مات وهو يتصور أنه يسبح بالبحر دون أن يقدر على تذوق مائه، أما الجنود فقد انهك معظمهم العطش لدرجة لم يعودوا قادرين على وتر أقواسهم أو دحرجة الصخور على خصومهم من أعلى السور،

بينما تمركز خمسة آلاف عربي على الصخور المشرفة على المدينة ليرموها بالأسهم النارية والقذائف من بنادقهم الطويلة الغليظة، إلى درجة اضطرت «المركيز» أن يدير المعركة من بين سراديب القصر.

أما الفرسان فكانوا كلما حاولوا خرق هذا الوضع يتعرضون للوقوع بأسر العدو، ولذلك أرسلوا الرسل إلى «قشتالة وقرطبة» لحثّ فرسان الأندلس على مساعدتهم، كذلك أرسلوا بطلب المساعدة للملك «فردناند وملكته» اللذان كانا يعقدان الاجتماعات في «مدينا آل كمبو».

وبأثناء هذا الشقاء تمّ كشف صهريج ماء في المدينة سمح بتخفيف معاناتها مؤقتاً.

الفصل السابع

كيف أسرع دوق «مدينا صيدونيا» وفرسان الأندلس إلى نجدة «الحمى»:

ضاق الحصار على الفرسان الصليبيين في أسوار «الحمى»، مما أشاع الذعر بين أصدقائهم والقلق في كل الأندلس، وكل هذا لا يعادل قلق زوجة «رودريغو دي ليون» وهي تبحث عن نبيل قوي يستطيع أن يستنفر البلاد لمساعدة زوجها، وبدا أن «دوق مدينا صيدونيا - مدينة صيدا الأندلسية» مؤهلاً لهذه المهمة، لأنه كان يملك أغنى مقاطعات اسبانيا، وأكثر مناطق الأندلس خصباً بما فيها من مدن ومرافىء وعدداً كبيراً من القرى، حيث يحكم إقطاعاً يعادل مملكة صغيرة، لذلك كان بإمكانه أن ينزل إلى ساحة المعركة متى شاء عدداً كبيراً من رقيقه ومواليه، ولكن هذا الدوق كان في ذلك الوقت عدواً للمركيز «أوف كاديز»، بسبب صراع إقطاعي قديم بين أسرتيهما، كان ينفجر أحياناً بالحروب وإراقة الدماء بينهما، خاصة وأن هذا الصراع وأمثاله لم يكن قد قمع بعد من التاج الملكي الاسباني وسيطر عليه، فكان الاقطاعيون ينالون امتيازاتهم بحد السيف وبساحات القتال.

وهكذا بدا «الدوق» كآخر شخص على وجه الأرض يهب لمساعدة «المركيز»، ولكن زوجة «المركيز» كانت تثق بأريحيته الفروسية، فقد جربت روعة روحه هذه حين أنقذها لما أسرها العرب، وحاصروها بقلعة زوجها في «أركوس»، فلجأت إلى هذا «الدوق» في هذه اللحظات العصيبة، طالبة منه أن يرسل المدد لزوجها، كدلالة على ما هو معروف من تفاهم عرفي بين أصحاب الدم النبيل الواحد، وهكذا حين وصل هذا الطلب إلى «الدوق» من زوجة عدوه، تناسى كل مشاعر العداء تجاه خصمه، وقرر الذهاب بنفسه لإنقاذه، بعد أن أرسل لزوجة «المركيز» رسالة مؤكداً لها: أنه أجابها إلى طلبها كسيدة نبيلة ذات شرف، واستجابة لنداء الشرف بضرورة إنقاذ فارس متميز كزوجها، يمكن أن تعدّ خسارته من أفدح الخسائر، لا في

اسبانيا فقط، بل في كل العالم المسيحي، وسوف يمحي كل آلام الماضي بينهما، وسيسرع إلى نجدته بكل القوة التي يملك.

وكتب «الدوق» بذات الوقت لكل «سيد» على مدينة من مدنه وقلاعه، يأمرهم بالالتحاق به في «قشتالة» مع كل قواتهم الممكن أخذها من مواقعهم، كذلك دعا كل فرسان الأندلس إلى التضامن من أجل قضية إنقاذ هؤلاء الفرسان الصليبيين المحاصرين في «الحمى»، كما عرض دفع مبالغ سخية لكل متطوع يزوّدهم بالخيل والسلاح والمعدات، وهكذا أصبح كل من لديه دين وشرف ووطنية أو تعطش للربح مدعو للانضواء تحت علمه، لذلك تحرك بجيش جرار فيه خمسة آلاف حصان وخمسون ألف راجل، وهكذا رافقه بهذه المهمة الكريمة كثير من الفرسان المتميزين، وعلى رأسهم بدون شك: «ألونزو دي غويلار»، صديق المركيز «أوف كاديز» الشخصي ومعه أخوه الصغير «غوانزاڤو فردناند دي قرطبة» الذي عرف بعد ذلك بكابتن اسبانيا الكبير، و«دون رودريغو غيرون» سيد منطقة «كالاتراڤا»، مع «مارتن ألونزو دي متوميور»، ومركيز «دي ڤيلينا»، الذي يعد أفضل من استعمل الحربة الطويلة في اسبانيا، وهكذا كان الجيش من نخبة زهرة فرسان اسبانيا يتحرك بكل مهابة من أبواب قشتالة، وعلى رأسه يرفرف علم تلك المدينة القديم.

وبينما كان «فردناند وايزابيلا» في مدينة «مدينا دل كامبو» وصلهم خبر حيازة «الحمى»، ولأن الملك كان في الصلاة حين وصله الخبر أمر أن يغنى نشيد النصر على الإسلام «تي ديوم Te Deum» بسبب هذا النصر الساحق للإيمان، لكنه عندما عاد ليقيم الموقف مع «فونس دي ليون» وصحبه ومدى الخطر الذي يحدق بهذا الموقع الذي وقع في أيديهم، قرر أن يسرع بنفسه إلى ساحة المعركة، فأسرع قبل أن تسرج خيله، لينطلق بجيشه بسرعة مذهلة من أندلسه، تاركاً وراءه طلباً إلى الملكة إيزابيلا بأن تتبعه، ومعه «دون بلتران دي لاكويڤا» دوق «البكويرقا» و«دون أنيغو لوبيز دي مندوزا» كونت «تنديلا» و«دون بيدرو مانريكويز» كونت «أوف تريڤينو»، مع فرسان آخرين متميزين، وسافر مسرعاً بين محطات تغيير الخيل لرغبته بالوصول في الوقت المناسب كي يقود فرسان أندلسه ضد العرب.

وعندما وصل إلى مقربة من قرطبة نصحه دوق «البوكوركوي» بعدم دخول أراضي العدو بهذا التسرّع، مؤكداً له أن هناك قواتاً كافية لتأمين المدد إلى «الحمى»، فعليه أن لا يغامر بشخصه لما يمكن أن تفعله رعيته وخاصته من هؤلاء المقدمين الأشاوس على جيشه، وأضاف الدوق قائلاً: يا سيدي إن الجيوش التي ستدخل ساحة القتال مجرد رجال من الأندلس، بينما أسلافك ماكانوا ليدخلوا أراضي العرب بدون أن تحيطهم قواتهم الحديدية من القشتاليين

القدامى، فأجابه الملك: أيها الدوق، ما كنت لأخرج من المدينة بشخصي، وأنا الآن على مشارف رحلتي لأغير هدفي بمهانة، سأقود القوات المحلية المتوفرة الآن، دون انتظار القشتاليين، وبعون الرب سأتم هدف تحركي.

وعندما اقترب الملك «فردناند» من «قرطبة» خرج أهلها لاستقباله، وهم يعرفون أن دوق «مدينا صيدونيا» يخترق بقواته أرض العدو، وقد جاء الملك بنفسه متشوقاً لمساعدته، وليقود بنفسه العصف «بالحمى» وفكّ أسرها، وهو دون أن يدخل «قرطبة» غيّر خيول جيشه من خيول السكان الذين جاؤوا لتحيته، وتابع اللحاق بالجيش، مرسلاً كشافته لإبلاغ الدوق «أوف مدينا صيدونيا» انتظار حضوره لكي يأخذ قيادة القوات.

لكن لا الدوق ولا أصحابه أرادوا إضاعة الوقت بالانتظار، ولكي لا يخيبوا الملك أرسلوا لإبلاغه أنه نظراً لتوغلهم بأرض العدو فمن الخطر التوقف أو العودة، والمحاصرون من جهة أخرى يلحّون على ضرورة نجدتهم للحد من معاناتهم، ومن تفوق العدو عليهم.

وتلقى الملك هذه الرسائل وهو في «بورتون دل مايستر»، ولأنه كان بحاجة إلى أن يشارك بالنصر بأي ثمن، توغل مع مجموعة قليلة من فرسانه في مملكة «غرناطة»، ولم ينثن عن الاستمرار بهذه الحماقة إلا بعد أن تبيّن له أنه من المحال اختراق كل هذه الدساكر والقرى الكثيفة السكان والقلاع والأبراج المعادية، فعاد إلى رشده بانتظار وصول مدد قواته وجيشه إليه، حيث رابض في «الأنتكويرا» آخر قلعة حدودية له.

الفصل الثامن

تابع ما تلاحق من أحداث في «الحمى»:

بينما كانت الأندلس كلها مسلحة، وتندفع فرسان النصارى فيها نحو الممرات الجبلية الحدودية مع العرب، كانت حامية «الحمى» في أسوأ أحوالها، مهدّدة بكل أصناف المعاناة قبل أن تصل إليها النجدات الموعودة، فالعطش غير المحتمل نتيجة نقص الماء، والمراقبة الشديدة من كل مكان لتحركات العدو الكثيرة، وكثرة المساجين من سكان «الحمى» فيها، والجراح التي يعاني منها تقريباً كل جندي نالت من أجسادهم ومعنوياتهم، التي حاول رفعها المركيز برعايته لجنوده ومشاطرة معاناتهم، وبكونه الأول في مواجهة كل خطر، فدل بذلك على أن القائد الجيد يشكل ركناً أساسياً لكل جيش.

أما «مولاي أبو الحسن» الذي سمع بالقوات العسكرية الضخمة التي تتقدم بقيادة «الدوق»، وبأن «فردناند» بنفسه يقود قوات تعزيز أخرى، قرر أن الوقت لا يعمل لصالحه، فإما عليه أن يأخذ «الحمى» بهجوم قوي كاسح، أو يتركها للصليبيين.

وعلى هذا الأمر أطلع مجموعة من أشجع فرسان «غرناطة»، الذين تطوعوا لهجوم يائس، يمكن له لو نجح استعادة «الحمى»، ومع الفجر قبل تعارف الوجوه بأحد الأيام، ومع تبدّل الحرس، وصل هؤلاء الفرسان إلى السور من مكان يظن أنه شاهق ومنيع من انحدار الصخور العالية التي على قمتها بني السور، الأبعد من أن يطاله أي سلم أو أداة تسلق، وكان مع الفرسان العرب خبراء تسلق مهرة، ركبوا تلك الصخور، ليمدوا عليها حبالهم وسلالمهم دون ملاحظة من أحد، ولكي يبعد الأنظار عنهم قام مولاي «أبو الحسن» بهجوم زائف على جانب آخر من الحصن بقطاع آخر.

ولما وصلت هذه القوة الصغيرة إلى أعلى السور فتكت بحراسته فوراً، ودخل سبعون فارساً

الحصن وساروا في طرقاته قبل أن يدق الإنذار بقدومهم، فاندفع الحرس لإيقاف القوات التي كانت ماتزال تتدفق ورائهم، بصراع بالسلاح الأبيض، يداً بيد ورجلاً لرجل، وفي مواقع الدفاع، سقط فيه الكثير من الطرفين، وكان كل جريح عربي أو قتيل يُرمى إلى خارج السور، وأبعدت السلالم ودفعت بمن عليها على الصخور لتتدحرج إلى الوديان، واتضح الموقف لصالح النصارى بقيادة عم المركيز و«بيدرو بنيدو» الشجاع ابن أخ المركيز.

وبعد تأمين السور اندفع هؤلاء المدافعون بقواتهم نحو السبعين مقاتلاً عربياً داخل السور والمدينة، بينما كان الملك العربي يضرب المدينة من بعيد، وجنوده في الداخل يتحركون بدون مقاومة من أحد تقريباً، وهم يتجهون نحو البوابات الرئيسية لفتحها للجيش الغازي، وهم الفرسان الغرناطيون الأشداء المشهورون ببطشهم وشجاعتهم، خضبت خطواتهم بالدم، ولما وصلوا إلى باب الحصن وقع حراسه ضحية لسيوفهم المعقوفة، ولو أتيح لهم مزيد من الزمن لتمكنوا من فتح بوابة المدينة.

وأثناء هذا الصراع وصلت قوات «دون ألونزو» و«بيدرو» لتحاصرهم من الخلف، فتحلّقوا حول علمهم يقاتلون بيأس وتصميم ويطيحون بكل من يقترب منهم، لكن القوات المسيحية عززت نفسها، وزاد عددها لتضغط على حلقتهم إلى درجة كاد أن يسقط من جرائها علمهم، وظلّ الصراع على هذه الحال إلى أن سقط العلم بسقوط آخر عربي يدافع عنه، هذا العلم الذي يمثل رمز النبوة والذي أحضره المهاجمون معهم، قد عاد النصارى لإلقائه من على السور مع الرؤوس المعتّمة لكل المهاجمين، وعلى هذا العمل نال بعد ذلك «بيدرودي بنيدو» لقب الشرف والفروسية من الملك «فردناند» عام ١٤٨٢م.

أما «مولاي أبو الحسن» فقد كان يتمزق غيظاً وهو يرى سقوط رؤوس فرسانه المختارين بهذا الشكل المهين، فأدرك استحالة بذل أي مزيد من الجهد لإسقاط القلعة، خاصة وأن بيارق الصليبيين القادمين لنجدتها صار بالإمكان رؤيتها وهي تتقدم من بعيد.

فأطاح الملك العربي بخيامه مسرعاً، وتراجع عن حصار «الحمى»، وعاد بسرعة إلى «غرناطة»، ومع تلاشي آخر أصوات نداءاته العسكرية ونفيره في التلال البعيدة، برز علم الدوق «أوف صيدونيا» بالجهة المقابلة للسلاسل الجبلية.

أما الصليبيون في «الحمى» فقد راحوا يطلقون صرخات الفرح والشكر لله، عندما بدأ الجيش العربي يتراجع من جهة، والجيش الصليبي يتقدم من جهة أخرى، ناسين جراحهم النازفة وعطشهم الشديد، وقد برزت عظام أجسادهم وكأنها تستعيد الحياة، لكن المنظر النبيل من كل هذا كان بلقاء الخصمين القديمين: «الدوق» و«المركيز» على هدف واحد، مما أثار العبرات في

عيني المركيز وهو يختلط بقوات «الدوق» القادمة لنجدته، ثم تعانقا تعبيراً عن الحب والامتنان، ليصبحا بعد ذلك من أخلص الأصدقاء.

وبينما كان القادة يمثلون هذا المشهد الكريم، بدأ الصراع الخسيس بين جنودهم حول الغنائم، فالجيش الذي أتى لإنقاذ «الحِمى» طالب فوراً بحقه في غنائمها، وبهذا بدأ الخلاف واحتكم الطرفان إلى سلاحهم، فتدخّل «الدوق» بنفوذه الشخصي لحل هذا الخلاف، معلناً أن الغنائم من حق الذين أسقطوا المدينة، أما نحن فقد نزلنا إلى ساحة المعركة من أجل الشرف والدين فقط، ولأجل إنقاذ أبناء بجدتنا من النصارى، ويكفينا شرفاً ومكافأة على ذلك نجاح مهمتنا، أما إذا رغبتم أيها الجنود بمزيد من الغنائم فهناك الكثير من بلاد العرب التي يمكنكم نهبها، وهكذا اقتنع الجيش بصراحة وفروسية «دوقه»، وردّوا على اقتراحاته هذه بالهتاف متجاوزين الحوادث الفردية التي حصلت بينهم.

أما «المركيز» فقد عبّر عن امتنانه من زوجته المخلصة بأن ملأ خيمتها التي أتت بها مع الجيش حتى قبتها بكم هائل من الغنائم والمنهوبات النفيسة، ثم نصبت الطاولات أمام الخيمة فوراً، حيث جلس «المركيز» و«الدوق» والفرسان المصاحبون لهم يأكلون ويشربون تعويضاً عن معاناتهم وآلامهم السابقة.

وبنهاية كل هذا تُرِكَت قوات جديدة في «الحمى»، وعاد الجيش الذي أسقطها محمّلاً إلى دياره بالغنائم، كما عاد «المركيز» و«الدوق» مع أحلافهم من الفرسان إلى «الأنتكويرا»، حيث استقبلهم الملك بكثير من التمييز، فكرّم «المركيز» بوسام خاص، وتركه يصحب عدوه السابق كأحسن ما يكون عليه الأصحاب الخلص إلى مدينته «مرشينا»، حيث نال جزاء عمله باستقبال الفاتحين في المدينة، فأقيمت على شرفه الأفراح والأعياد لأيام بلياليها في القصر، الذي ظلّ مفتوحاً لكل الناس، دلالة على استمرار هذه الاحتفالات، ثم غادر «الدوق» إلى إقطاعاته في «سان لوقاص» بمرافقة «المركيز» له بمسافة طويلة من الطريق تكريماً له، ثم تعانقا حين الفراق عناق الأخوة، وهذا المشهد كان يجسد نبالة الفروسية الاسبانية.

والواقع أنّ كليهما قد جسّد هذه النبالة بالفعل، «فالمركيز» فعل ذلك حين أسقط على حين غرة واحدة من أهم معاقل مملكة غرناطة الجميلة، و«الدوق» الذي دعم مخاطرة صاحبه الجريئة هذه بكل شهامة، وبذلك جسّدا معنى الفروسية معاً.

الفصل التاسع

الأحداث في «غرناطة» وظهور الملك أبي عبد الله الصغير:

عاد ملك العرب «مولاي أبو الحسن» خائب الرجاء من أسوار «الحمى»، ليتلقاه الناس بالهمز واللمز في «غرناطة»، فنبوءة الدرويش كانت لاتزال على كل لسان، إذ بدا أنها تتحقق بسرعة، فها هو العدو يعزز تحصيناته في «الحمى» في قلب المملكة الإسلامية، وهذه الهمسات التي كانت تتناقلها ألسن العوام لقيت صداها بشكل أكثر خطورة بين النبلاء، فَمُلْكُ «مولاي أبي الحسن» القاسي والوحشي بطبعه على الناس، كان موسوماً بالطغيان وإراقة الدماء، التي جسّدها بما أوقع من أبناء «بني سراج» الأنبل بين العرب مثلاً كضحايا سياساته الثأرية، لذلك تشكلت معارضة قوية له للإطاحة به من على العرش، وقد آزر هذه المؤامرة بعض أبناء الأسرة الحاكمة.

و«أبو الحسن» رغم كل قسوته كان بطبعه خانعاً للنساء، فصحيح أنه كان في حريمه العديد من النساء يزور كل منهن حسب دورها، إلا أنه كانت لديه محظيتان من بين هؤلاء، إحداهما عربية اسمها: «أيقصا» وتلقب بالطاهرة العفيفة، لنظافة قلبها وشخصيتها ككل(*)، وهي التي ولدت لأبي الحسن وريثه على العرش «أبا عبد الله» الذي يعرفه المؤرخون «ببدول» أو «الصغير»(**)، وحين ولادته تنبأ الفلكيون ـ حسب العادة المتبعة آنذاك بإخراج الطوالع ـ بسوء طالعه، فأطلقوا صرخة «الله أكبر» فعلى يد هذا الطفل مصير هذه الأمة، فقد كتب في الطالع أن هذا الطفل سيجلس على عرش «غرناطة»، لكن سقوط المملكة ككل سيكون أثناء حكمه، وربما بسبب هذه النبوءة كان والده يتشائم منه، فتعرّض إلى الكثير من الاضطهادات المتتابعة،

(*) وصلابتها وطموحها اللامحدود، واسمها عند العرب عائشة الحرة.

(**) وهو الملقب بالشيكو وهي تحريف لكلمة تصغير الشقي.

وكدلالة على ملاحقة هذا الطالع له منذ طفولته نعت أيضاً «بالزغيب» أي قليل الشعر اللامحظوظ ـ الأجرد، ولكنه عرف أيضاً بالشيكو أو الصغير بحقارة التصغير لا الصغر ـ وفي تضمن كلا المعنيين تمييزاً له عن عمه الأكبر بنفس الاسم.

أما المحظية الأخرى لأبي الحسن فكانت «فاطمة» التي أضاف لها العرب لقب «الزوراء» التي تعني شعاع الفجر بسبب جمالها الخلاّب، وهي مسيحية بالولادة، وابنة القائد «سانشو أكزيمنس دي سولي» التي سبيت وهي صغيرة.

ولأن العمر تقدم بالملك في تلك الأيام زاد تولّعه بهذه الحسناء الاسبانية فجعلها سلطانة، تاركاً تدبير أموره الخاصة من شأنها وحدها، ولقلق «الزوراء»(*) على مصير ولديها منه، ولكونها طموحة بقدر جمالها، أرادت أن تؤمن لهما مستقبلاً باهراً، فاتجهت رغبتها بالسلطة صوب العمل على رؤية أحدهما على عرش غرناطة(**).

ولأجل هذا الهدف سخّرت كل مواهبها، وكل ما لديها من سلطة على قلب زوجها القاسي، لكي تقلبه على باقي أولاده، وتجعله يغار منهم، وكان انسياق «مولاي أبي الحسن» ومطواعيته بين يديها إلى حد لا يصدق، حين وضع عدداً من أولاده تحت السيف ليموتوا صبراً، وهو يحتفل ببناء بركة السباع في قاعات «الحمراء» فصارت هذه البركة في تاريخ عرب الأندلس رمزاً لطغيان سفك الدماء.

وبهذا القدر من الحقد اتجهت «الزوراء» نحو ضرّتها السلطانة «الطاهرة» أو «أيقصا» التي تعدّت في ذلك الوقت شرخ الصبا، ولم تعد مغرية لزوجها، الذي كان من السهل عليه التخلي عنها، لذلك حجزها بالإقامة الجبرية في برج التجار هي وابنها داخل قصر «الحمراء»، ومع تقدم «ببدول» بالعمر، زاد شعور «الزوراء» بكونه العقبة الرئيسية في وجه اعتلاء أحد ولديها العرش، لأنه كان المرشّح الطبيعي للتاج بعد أبيه، لذلك لابدّ من إثارة الغيرة والحقد والشك والغدر في صدر والده المفترس، بتذكيره دوماً بالنبوءة التي أظهرها حساب طالع ابنه، فرأى «مولاي أبو الحسن» أن سيف الجلاّد سيثبت خطل «الهوروسكوب» وسيسكت طموح «ببدول» ووقاحة أمه.

وعندما علمت السلطانة «الطاهرة» ـ من الخدم ـ بنيّة زوجها الطاغية الخرف المنحرف هذه، ولأنها كانت ذات مواهب وشجاعة فائقة، رتّبت مع هؤلاء الخدم خطة لتهريب ابنها من سجنه العاجي بهذا البرج، فوقف خادم مخلص تحت أسوار الحمراء في عتمة الليل على شاطىء نهر

(*) هي «ثريا»، في بعض المصادر التاريخية.

(**) وخاصة ولدها سيدي يحيى.

«الدار ـ دارو» مع عدد من الجياد العربية السريعة، وعلى جنح الظلام ربطت السلطانة الستائر والأقمشة والشالات التي لديها ببعض، وبمساعدة عدد من خادماتها، دلّت بها الأمير الصغير من برج التجار، عبر المنحدرات الصخرية، حتى وصل إلى شاطىء النهر، ليقفز على سرج حصان عربي من الأحصنة المعدّة له باتجاه مدينة «القاضي»، وحين عاد «مولاي أبو الحسن» خائباً من حصار «الحمى»، كان اتجاه النبلاء نحو إقصائه ووضع ابنه «ببدول» مكانه قد اختمر، فتشاوروا مع هذا الأخير أثناء سنوح هذه الفرصة، وبهذا الشكل يمكن وصف حال الأسرة الحاكمة في غرناطة آنذاك.

هذا وقد كان «لمولاي أبي الحسن» قصر ملكي اسمه «الأقصار» في جوار «غرناطة»، يذهب إليه ليسترجع نفسه في زمن الأزمات، وبينما كان عائداً منه في أحد الأيام فوجىء بأبواب المدينة تغلق في وجهه، ويعلن ابنه أبو عبد الله مولاً وملكاً، وعلى هذا علّق «مولاي أبو الحسن» بعبارة: الله أكبر لا يمكن ردّ ما كتبه القدر، لقد قيل لي أن ولدي سيجلس على العرش، والله وحده يعلم ماذا سيحصل، ولأن هذا الملك كان الأدرى بالطبع الناري لرعيته، لم يحاول أي شيء ضد إرادة شعبه المتوقّد هذه، لذلك قال: ستطفىء هذه الشعلة نفسها بوقت قريب، وحين يهدأ الناس سيستمعون إلى صوت العقل، مديراً رسن جواده عن المدينة، متجهاً نحو مدينة «بازا»، حيث استقبل بكل مظاهر الولاء هناك. وهو لم يكن ممن يتنازلون عن ملكهم بسهولة، خاصة وأن معظم باقي المملكة لازال على ولائه له، فالمؤامرة بالعاصمة لا تعدو أن تكون عابرة وهامشية، فإذا ما ظهر فيها فجأة على رأس قوة متواضعة سيعود إلى كسب الشعب ثانية في صفه، وهذا هو بالضبط ما تنطوي عليه شخصيته كمزيج من الخنوع والجرأة معاً، وبهذه الشخصية ذات السلوك غير المتوقع، وصل في ليلة غير مقمرة إلى أسوار «غرناطة»، مع خمسمئة من أخلص رجاله ليتسلّق أسوار «الحمراء» ويقفز بنفسه إلى داخلها بكل حقده وغضبه ليدخل قاعاتها الساكنة، فيستيقظ السكان والخدم على الأسنة مشهرة عليهم من كل صوب، ولغضبه لم يميز بين كبير وصغير، أو رجل أو امرأة، فتطايرت الصيحات من كل القاعات، وجرت بركها بالدماء، وتراجع السيد «ابن كماشة»(*) إلى أحد الأبراج مع بعض ما بقي من الحامية والسكان بوجه هذا المنتقم، لكن عنف مولاي أبا الحسن ظلّ وراءه فكل ما كان يهمّه هو الفتك بأعدائه لتأمين المدينة ومن ثم الثأر من كل متمرّد فيها، لذلك نزل ويديه مخضبتين بالدم إلى شوارع المدينة بعد ذلك، للفتك بالناس العزل بعد إيقاظهم من نومهم، وبعد إطلاق الإنذار استيقظت كل المدينة، فتراكض الناس إلى أسلحتهم، ولمعت الأسنة بكل شارع، وبذلك

(*) وزير ابنه، وأحد كبار محرضيه على أبيه.

عرفت هذه المجموعة التي كانت تنزل الثأر بالناس على جنح الظلام، وهنا ظهر خطأ تقدير «مولاي أبي الحسن»، لأن أغلبية الناس كانت تؤيد ابنه بعد أن عافت طغيانه، ولذلك ظهرت المقاومة عنيفة ولكنها متقطعة في القصر والطرقات والساحات، فقتل كثير من أتباع «أبي الحسن» بينما تمّ طرد الباقين منهم خارج أسوار المدينة، مما اضطر هذا الملك الكهل إلى التراجع إلى المدينة الموالية له: «ملقا»(*).

تلك كانت بداية الصراعات الداخلية والانقسامات التي كانت آخر ما عجّل بسقوط «غرناطة»، فقد انقسم العرب فيها إلى قسمين متنازعين بين الأب وابنه، وراحت اللقاءات الحربية الدموية تأخذ مجالها بينهما، دون أن يعني هذا، أن كلاً منهما على حدة لم يكن يقاتل النصارى وحده حين تحين الفرصة، لأن العدو ظلّ مشتركاً.

(*) وتلفظ: **«ملقة»** بالتاء المربوطة أيضاً كإسم للمدينة، أما بالألف الطويلة فكإسم لمقاطعتها (فلز ملقا)، وهي من بعض المراجع مالقة.

الفصل العاشر

الحملة الملكية ضد الأقصى:

عقد الملك «فردناند» مجلس حرب في «قرطبة» لتحديد ما يجب عمله في «الحمى»، فأجمع أكثر الموجودين على ضرورة تدميرها، لأنها مادامت في مركز المملكة العربية فستكون عرضة لهجوم بعد آخر، فلا يمكن المحافظة عليها إلا بحامية قوية، وهذا سيكون باهظ التكاليف، وأثناء ذلك وصلت الملكة «إيزابيلا» إلى الاجتماع لتستمع إلى هذه الآراء بصبر نافذ ثم قالت: «كيف؟! أتريدون أن ندمّر أول ثمار نصرنا؟! فنترك موطىء قدمنا في أرض العرب؟! يجب أن لا تستحوذ علينا مثل هذه الأفكار، لأنها سترفع من معنويات العدو، فيظن في مجلسكم هذا ضعفاً، أو جبناً، فإذا كنتم تتحدثون عن التكاليف، فهل من شك بأن هذه الحرب لن تكون مكلفة منذ أن قررتم خوضها، أو أنها لن تسبب عناء أو إراقة دماء؟! وهل نتراجع عن دفع كلفتها في اللحظة التي نحرز فيها انتصاراتنا، السؤال هو هل نصون أم نفرط بثمار هذه الانتصارات؟! دعوني أيها السادة لا أسمع مزيداً من الهراء عن تدمير «الحمى»، فلنقوّ حصونها المقدسة لتكون لنا كمعقل مقدّس وهبتنا إياه السماء في هذه الأرض الشريرة المعادية، ولتكن كل محاوراتنا من الآن فصاعداً حول كيفية فتح واحتلال المدن المجاورة لهذا المعقل». وهكذا رفعت كلمات الملكة وحرّضت روح الفروسية لدى الحاضرين في هذا المجلس الملكي ـ الحربي ـ فبدأت الاستعدادات للدفاع عن «الحمى» مهما كلّف الأمر، وتحت كل الظروف، وعيّن «فردناند» سيداً عليها هو: «لويس فرناندز بيترو كاريرو» الذي كان سنيوراً على «بالما»، وعدداً من القادة الذين تحت إمرة كل منهم أربعمئة حربة وألف من المشاة، كما قرّر «فردناند» محاصرة «الأقصى» أيضاً، المدينة القوية جداً من مدن العرب في الأندلس والتي لا تبعد كثيراً عن «الحمى»، ولأجل هذا الهدف طلب من كل مدن الأندلس النصرانية و«الأسترامادورا» ومن «سانتيغو» و«كاڤاليرا» و«الكانترا» و«سان جون» ومملكة «طليطلة» وما خلف مدن «سالامنكا»

«تورو» و«فالادوليد» أن تزوده بالقوات والتجهيزات والمواشي والمواد اللوجستية، لتصل كل هذه القوات والإمدادات إلى أسوار «الأقصى»، فقدمت كل مدينة ما هو مفروض عليها، وتمّ تجهيز معدّات تدمير الحصون من بارود ومدافع وذخائر وأدوات قتال أخرى.

أما العرب فلم يكونوا بأقل فاعلية في تجهيزاتهم، فقد أرسلوا الرسل إلى أفريقيا طالبين المدد من أمراء «البربر» في المغرب العربي في هذه الحرب المقدسة، ولكي تُقْطَع هذه الامدادات تحركت مملكة «قشتالة» بأسطول حربي إلى جبل طارق بقيادة: «مارتن دييز دي مينا» و«كارلوس دي ڤاليرا» لمسح الشواطىء الأفريقية، وتدمير كل سفينة تخرج منها، وأثناء حصول هذه الترتيبات غزا الملك «فردناند» سهل «الڤيغا» في مملكة غرناطة وراح يعيث فيه فساداً، مدمراً القرى والبساتين محرقاً محصولها وسارقاً قطعانها.

وفي حوالي نهاية حزيران/يونيو شدّ رحيل جيشه من «قرطبة» إلى أسوار «الأقصى»، بكل ثقة بالنصر دفعته إلى حدّ ترك جزء كبير من هذا الجيش في «إيسيجا» متقدماً بخمسة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل، وقد كان المركيز «دي كاديز» المحارب العاقل ضد مثل هذا التحرك، وضد كل هذه الطريقة بالاستعدادات بشكل كلّي، لأنها أُخِذَتْ دون دراسات سابقة واحتياطات لازمة، لكن الملك «فردناند» كان متأثراً بآراء «دون دييغو دي مرلو» التوّاق إلى تحقيق ضربة ذكية حاسمة أخرى، خاصة وأن الفرسان الاسبان كانوا قد بدأوا يشعرون بقوتهم، فراحوا يستعلون ويرفعون من شأن أنفسهم، ويستهينون بعدوهم ويحتقرونه، فالكثير منهم كان يظن أن العرب ستهرب من مدنها، حين يرون قدوم هذه القوات المسيحية متجهة نحوهم، لذلك تحركوا بدون احتياط وعلناً ودخلوا الحدود، مزوّدين بأشياء غير ذات فائدة لفتح الحصون ومحاصرتها، وبنفس هذه الروح المهملة اتخذو مواقعهم أمام «الأقصى»، رغم أن الأرض كانت متعرجة ولا تسمح بسبب كثرة تلالها من تشكيل مخيم واحد لهم، أما النهر «أكزنيل» الذي يدور حول المدينة ويمر فيها فقد كان مضغوطاً بين ضفاف عالية مشكّلاً عمقاً كبيراً وسريعاً للماء لا يمكن اجتيازه إلاّ بصعوبة كبيرة، والجسر بيد العرب. وهكذا نصب «فردناند» خيمته في حقل زيتون على شاطىء هذا النهر، ووُزِّع المقاتلون بمخيمات مختلفة منفصلة على التلال، منفصلين عن بعضهم بوديان عميقة صخرية، بطريقة لا تمكّنهم من معونة بعضهم بعضاً، إضافة إلى عدم وجود أي مكان يسمح للفرسان فيه أن يتدخلوا سريعاً في القتال، كما أن تركيز المدفعية بهذا الوضع كان عديم الفائدة قطعاً، وعلى هذا اعترض أخ الملك ـ بالسفّاح ـ غير الشرعي «ألونزو أوف أراغون دوق ڤيلاهيرموسا» الذي كان حاضراً لهذا الحصار، خاصة وأنه كان من الجنرالات المشهورين بمهارتهم في فتح وتدمير الحصون القوية، واقترح تغييراً شاملاً بوضع المعسكر، وبضرورة رمي عدد من الجسور على النهر، وأُخِذَ باقتراحاته التي راح الجيش

ينفّذها ببطء وإهمال، ولذلك لم تعطِ أي مردود يذكر، ومن المشاهد الأخرى التي يمكن رؤيتها دلالة على مدى الإهمال في هذه الحملة، أنه لم يكن للجيش أي تموين من الخبز المعد، وبسبب العجلة لم يتمكنوا من بناء الأفران رغم توفر الدقيق، لذلك كان الخبز يخبز على الفحم الذي زوّد به الجيش لمدة يومين بهذه الطريقة السيئة.

ولم يشعر الملك «فردناند» بسوء أمن موقعه إلا مؤخراً، فحاول أن يعالج الأمر علاجاً مؤقتاً، إذ يوجد مرتفع قرب المدينة يسمى مرتفع «البهاقين العرب» أمام الجسر، فأمر مجموعة من خيرة مقاتليه بأخذ هذا الموقع والمحافظة عليه أمام العدو مباشرة لحماية المعسكر، والفرسان الذين تمّ اختيارهم لهذا العمل القتالي المتميز كانوا: المركيز «أوف كاديز»، والمركيز «أوف ڤيلينا»، و«دون رودريغو تلزغيرون» سيد «كالاتراڤا» وأخيه «كونت أوف يورينا» مع «دون ألونزودي غويلار»، فقاد هؤلاء القادة المتميزون قواتهم بسرعة وقوة نحو هذا المرتفع الذي اشتعل بلمع الأسنة، وعُمِّدَ بدم الكثير من المحاربين الاسبان.

أما الأقصى فكانت في ذلك الوقت تحت حكم السيد العربي الهرم والد زوجة «أبي عبد الله النصري»، البطل «أبو علي العطار» الذي كان الاسبان يسمونه «الآتار»، عدو النصارى الذي شاب شعره وهو يحاربهم منذ نشأته على هذه الحدود، والتي كان اسمه فقط كافياً لإشاعة الذعر بين الصليبيين فيها، وهو الآن في التسعين من عمره لكنه شاب الروح والحركة، ناري العاطفة، لازال يتمتّع بكل قواه، فهو خبير في استراتيجيات القتال، ولازال يعدّ أفضل حامل رمح طويلة في كل المغرب العربي، وتحت إمرته ثلاثة آلاف فارس متمرّس بالحروب الحدودية التي اشتهر فيها، وهو يتوقع تعزيزات من ملك غرناطة بكل وقت.

ومن حصنه الشاهق راقب «علي العطار» كل تحركات العدو، وهو يحصي أخطاء قادتهم، ولما رأى زهرة فرسان اسبانيا يومضون بدروعهم باتجاه مرتفع «البهاقين» قال وقد لمعت عيناه: بعون الله سأعطي هؤلاء ـ اللاعبين ـ من كل هؤلاء الفرسان ما يجعلهم يفيقون من غرورهم.

وهكذا اختار مجموعة من أشد محاربيه لوضع كمين ليلي لهذه الدروع اللماعة في «البهاقين»، وفي اليوم الرابع للحصار خرج بقواته عابراً الجسر، مهاجماً المرتفعات، فاندفع كل الفرسان للقائه تاركين خيامهم بدون حراسة، ففرّ «العطار» من أمامهم، ولما لحقوه توقف للقائهم كاراً عليهم، وقد ابتعدوا عن مخيماتهم مسافة لا بأس بها، ليجدوا أن هذه المخيمات عرضة لهجوم عربي من القوات التي كانت في مكامنها، وهي تطلق على مختلف الهضبات عبارات: الله أكبر!!

فتوقف الفرسان النصارى عن المطاردة، وعادوا لمنع تدمير مخيماتهم، فعاد «العطار» بدوره

ليكر عليهم ويلاحقهم، فصاروا عرضة للهجوم من الأمام ومن الخلف بذات الوقت، وهكذا دام الصراع حوالي ساعة من الزمن تخضب فيها «البهاقين» بالدم، حيث سقط الكثير من الفرسان الشجعان، والعطار يحصدهم من كل جهة، قبل أن تجبره تعزيزات إضافية من الصليبيين على التراجع لأسوار المدينة، وكانت خسائر هذه المبارزة كبيرة للنصارى بموت «رودريغو تلز غيرون» سيد «كالتراڤا» بسهم مرق من تحت إبطه متجنباً كل دروعه الثقيلة، أسقطه فوراً عن حصانه، حيث حمله «بيدرو غاسكا» إلى خيمته ليلفظ أنفاسه فيها، فأعلن الملك والملكة الحزن عليه بكل المملكة، لأنه كان في شرخ الصبا، مجرد ابن أربع وعشرين سنة، وفارساً من أفضل الفرسان، فبكاه قواده في تلك الليلة الحزينة في «البهاقين»، بينما انحنى عليه الكونت «أوف يورينا» كمن يثكل أخاً له.

بهذه الطريقة الصعبة أدرك الملك «فردناند» مدى أهمية نصائح المركيز «أوف كاديز»، وأن قواته غير مؤهلة لأي هجوم مفاجىء، فإذا استمر بحصاره على هذا الوضع السيىء سيكلفه هذا حياة أفضل فرسانه، إذا لم يكلفه هزيمة كاملة بحال وصول تعزيزات للعدو، ولذلك طلب اجتماع مجلس حرب مساء ذاك السبت حيث قرروا سحب الجيش في صباح اليوم التالي إلى «ريو فريو» وهي قريبة من المدينة، وهناك سينتظرون وصول التعزيزات الإضافية من «قرطبة».

وهكذا حين بدأ الفرسان بفك خيامهم صباح اليوم التالي من على «البهاقين» انتهزها «العطار» فرصة للهجوم عليهم، ولأن الكثير من الجنود الذين لم يعلموا بعد بأوامر الإنسحاب، وقد رأوا الخيام يطاح بها والعرب تهاجمهم، ظنّوا أن التعزيزات قد وصلت إلى العدو ليلاً وأن جيشهم يتراجع، لذلك ودون أن يستطلعوا النبأ، أو ينتظروا الأوامر، راحوا يتراجعون تراجعاً كيفياً، ثم يفرّون من ساحة المعركة، وهم يشيعون الذعر والفوضى في المخيمات، ولم يتوقفوا حتى وصلوا إلى «صخرة» العشاق التي تبعد حوالي واحد وعشرين ميلاً من «الأقصى».

فأدرك الملك وقواده هلاكهم في هذه اللحظة، لذلك التفّ كل قائد مع حرس موقعه حول الملك، لرد الهجوم الذي يستهدفه شخصياً، بينما يطاح بالخيام وتنسحب المدفعية، ولأن الملك مع هذه الحفنة من الفرسان، قد تراجع إلى أرض مرتفعة كان عرضة لنيران العدو، فطلبوا نجدة القوات السريعة التي حاولت بكل يأس صدّ الهجوم عنهم، فكان لابدّ من أن يدافع الملك عن نفسه بالهجوم برماح فرسانه الطويلة على العرب.

لقد كان الملك على وشك أن يحاصر، خاصة وأن عدد العرب حوله صار في ازدياد، وخلال مرتين كاد أن يطاح به لولا أن أنقذه «الدون جوان دي ريبيرا سنيور مونتي مايور».

أما المركيز «أوف كاديز» الذي كان يراقب هذا الوضع من بعيد ويرى ما يحصل بملكه،

فقد جمع حوالي السبعين فارساً وانطلق بهم إلى قلب هذه المعمعة، لحجز الملك عن العدو بهم، دافعاً بحربته الطويلة نحو أجرأ المهاجمين العرب التي كسرت بدروعه، فظل لا يحمل من السلاح سوى سيفه، ومعه حصانه الجريح من تلك المبارزة، وحوله جثث معظم الفرسان الذين دفع بهم في هذا الموقف الخطر، لكنه نجح برد هجوم العرب، وإنقاذ الملك بهذه المجازفة الفورية التي قام بها، فانسحب بالملك إلى مكان أقل خطراً.

وهكذا ظلّ المركيز يعرض نفسه طوال اليوم لموجات الهجوم المتعاقبة من العرب، مشبعاً شجاعته بحب التعرّض للأخطار، ولولا جرأته هذه لدمّر القسم الأكبر من الجيش والمعسكر.

فهذا يوم مشرّف لهؤلاء القادة، الذين أثبتوا في حالة فوضى مثل هذا التراجع قدرة القادة على إنقاذ جماعاتهم إذا تحلّوا بالشجاعة، أما ثمن هذا فكان سقوط دوق «مديناشلي» الذي عاد عسكره لإنقاذه، كما تلقى الكونت «أوف تنديلا» جراحاً كثيرة بسبب قرب خيمته من المدينة، وكذلك تعرّض الفرسان المتميزون الآخرون إلى مواقف شديدة وأوضاع صعبة، وانقضى هذا النهار كله بمبارزات دموية عنيفة، أبرز فيها الفرسان من كلا الجانبين شجاعة نادرة، وأخيراً وبعد أن أطيح بكل خيام المخيم، وسحبت المدفعية وأدوات الحصار، وخفّ تدفّق الدماء من على البهاقين وجوار «الأقصى»، وبعد أن تركت بعض الخيام وقطع المدفعية في أماكنها لعجز الخيل والبغال عن نقلها بسرعة، انسحب الجيش.

لكن «علي العطار» ظلّ يتعقّب فلولهم حتى وصلوا إلى «ريو فريو»، ومنها عاد «فردناند» إلى قرطبة مهاناً خائب الرجاء، وقد تعلّم درساً بأن يكون أكثر حذراً في غزواته القادمة، وأقل اعتماداً على الحظ فيها، ولتغطية ذلّه أرسل الرسائل لكل أصقاع مملكته يبرّر فيها هزيمته، بتحميل الظروف وسوء الطالع وقلّة العدد في قواته سبب الهزيمة، وأنهم قد جاءوا من مدن مختلفة، وليسوا جيشاً نظامياً، ومع ذلك ولرفع معنويات هذه القوات المتداعية بالحرب الحقيقية، قادهم بحملات عربدة على سهول «الڤيغا» في غرناطة ضد فلاحي هذه السهول.

الفصل الحادي عشر

كيف قام مولاي أبو الحسن بهجوم صاعق على «مدينا صيدونيا» وكيف تلقوه:

جمع «مولاي أبو الحسن» جيشاً لنجدة «الأقصى» ولكنه وصل متأخراً، في الوقت الذي كانت آخر قوات «فردناند» تنسحب من الحدود، وعلى هذا علّق بقوله: يأتون ويعودون كسحابة صيف ترعد دون مطر، ثم عاد ليحاول ضرب «الحمى» ثانية حيث كانت حاميتها بحالة وهنٍ في قواها المعنوية بسبب هزيمة «فردناند»، وكادت هذه الحامية أن تفر من مواقعها لولا شجاعة سيّدها «لويس فردناند» الذي ظلّ يعمل على رفع معنويات جنده، الذين أبقوا ملك العرب الطاعن في السن في الخليج، إلى أن وصل «فردناند» من غزوته «للڤيغا»، فأجبره على الانسحاب كرهاً إلى «ملقا».

لقد أدرك «مولاي أبو الحسن» استحالة مقاومة هذه الجيوش المسيحية الجرارة، بقواته الأقل عدة وعدداً منها، لكن أن يظل ساكناً خانعاً دون أن يتدخل وهو يرى هذه القوات تعيث فساداً في أرضه، أمر سينقص من قدره بعين مواطنيه. لذلك قال: إذا كنا لا نستطيع أن نواجه فهذا لا يعني أننا غير قادرين على الضرب، وإذا كنا لا نستطيع أن نحمي سهولنا من الغزو، فهذا لا يعني أننا لا نستطيع غزو سهول العدو؟؟ خاصة وأنه قد عرف أن كل فرسان الأندلس المسيحية قد انطلقوا لهذه الغزوات مع ملكهم، تاركين بلادهم بدون أي دفاعات تذكر، وخاصة منطقة دوق «أوف مدينا صيدونيا» حيث فيها المراعي الواسعة وبها القطعان التي يمكن أخذها بهجوم سريع، وهي فرصة للانتقام من «دوق» هذه المقاطعة الذي أجبر «أبا الحسن» على فك الحصار عن «الحمى»، لذلك قال هذا الملك العجوز الصلب: سأعطي هذا الفارس درساً، سيشفيه من مرض تجميع القوات والسير بها إلى أرضي!!! لذلك توجّه مسرعاً إلى «مدينا صيدونيا».

فانطلق من «ملقا» بألف وخمسمئة فارس وستة آلاف راجل، في الطريق الساحلي عبر «إيستيبونيا» ليدخل منها إلى الأراضي المسيحية بين جبل طارق و«قشتلار»، والشخص الوحيد الذي كان قادراً على مهاجمته وإزعاجه بهذا الطريق كان «بيدرو دي فارغاس»، الجندي القاسي المتعجرف سيد جبل طارق الذي يستخدم هذا الجبل كقلعة له، وكان «مولاي أبو الحسن» يعرف حذر هذا الرجل وجرأته، ولكنه كان متأكداً من صغر حاميته التي بإمرته وعدم قدرتها على أن تهاجمه، وإن هاجمت فلاحظ لها بأي نجاح، ورغم ذلك تابع سيره بصمت وهدوء وحذر، مرسلاً الكشافة دوماً لرصد كل مكان سوف يمر به جيشه، خاصة عبر الممرات الضيقة حيث يمكن للعدو وضع الكمائن بها، وظل يراقب بعين حذرة صخور وممرات جبل طارق على يساره والتي تغطيها الغيوم وتلفّها من بعد، ولم يهدأ له بال حتى قطع السلاسل الجبلية لمقاطعة «قشتلار»، ونزل نحو السهول ليخيم على ضفة نهر «سلمين»، ومن مخيمه أرسل كوكبة من أربعمئة فارس مسلّح بالرماح الطويلة ليتمركزوا في الجزيرة، ويراقبوا الخليج بدقة في الجبهة المقابلة لحصون جبل طارق، فإذا تحرك السيد ـ اللسيد ـ منها هاجموه، على أساس أنهم أكثر من قواته المفترضة بأربع مرات، كما عليهم أن يخبروا القوات الرئيسية في «سلمين» بحال أي تحرك للعدو.

وبالوقت ذاته تمّ إرسال كوكبة مماثلة من الفرسان إلى السهول الواسعة المسماة: «كامبينا دي طريفا» المليئة بالمواشي والقطعان، وكوكبة من مئتي فارس لتهاجم أراضي «مدينا صيدونيا»، بينما بقي «مولاي أبو الحسن» مع الجيش الأساسي في معسكره على شاطىء «سلمين»، وهكذا عادت هذه القوات التي غزت السهول بأعداد كبيرة من المواشي والقطعان تكفي لأن تملأ ما بين «الڤيغا وغرناطة»، أما القوات التي تمركزت أمام جبل طارق فقد أرسلت الأخبار بأنها لم تلمح ولا خوذة نصرانية منها، وهكذا شعر الملك العجوز بنجاح ودقة قيادة هذه المهمة.

والواقع أن «بدرو دي فارغاس» كان قد أُخطر بقدوم الملك العربي، ولأن حاميته لم تكن كافية للدفاع عن هذا المكان، وخشية من أنه في حال نزل إلى ساحة المعركة سيترك معاقله بدون حراسة، ولحسن الحظ وصله في ذلك الوقت فرقة إلى جبل طارق بقيادة «كارلوس دي ڤاليرا» الذي يجوب الشواطىء، فترك هذا السيد معاقله بحراستهم، وانطلق على جنح الظلام بسبعين فارس نحو مدينة «قشتلار» الحصينة على سفح عالٍ، لأنه لابدّ من أن يمر بها الملك العربي بطريق عودته، وأطلق شارات الدخان والنار على الجبال دلالة على أن العرب يغزون، وأرسل الرسل لطلب الإمدادات بالرجال والسلاح من كل جهة على أن تأتي مسرعة إلى «قشتلار».

وهكذا شاهد «مولاي أبو الحسن» من كثرة وشدة الإشارات على الجبال، أن البلاد كلها قد هبّت ضده، فأطاح بخيامه وانطلق بأسرع ما يمكنه نحو الحدود، لكنه كان مثقلاً بالغنائم معطلاً ببطء الماشية التي يسوقها أمامه، ولما أخبره كشافته بوجود قوات في السهل استهان بهم على ظن أنهم من جماعة سيد جبل طارق فقط الذي لا يملك أكثر من مئة حصان في حاميته، فدفع نحوهم مائتين وخمسين من خيرة فرسانه ومعهم سيد «مربيا وقصاري» وخلفهم قطعان الماشية الكثيرة، وخلف الجميع الملك مع جيشه الصغير هذا، وهكذا وصل الجميع في منتصف يوم صيفي إلى مدينة «قشتلار»، وكان «دي فارغاس» يراقب النقع الذي يثيره تحركهم، وهم ينزلون من على أكثر منحدرات هذه البلاد وعورة، حيث تبتعد المقدمة عن المؤخرة في هذه القافلة أكثر من ميلين عن بعضهما، وفي تباعدهما عن بعضهما كان هناك غابة طويلة عريضة، فوجد «دي فارغاس» أنه من الصعب عليهمامساعدة بعضهما البعض في حال أي هجوم على أحدهما بشكل مفاجىء في هذا الموقع، مما سيوقع الاضطراب في صفوفهم، لذلك اختار خمسين من خيرة فرسانه حيث التفوا بسرعة حتى وصلوا إلى مضيق بين مرتفعين جبليين، على العرب المرور بينهما، وكان هدفه ترك المقدمة تمر لكي ينقضّ على المؤخرة.

وبينما الأمر كذلك ظهر ستة كشافة من العرب يتفحصون الممر وهم بكامل سلاحهم ودروعهم، فنصحه بعض أتباعه بضروررة ذبحهم، فرفض قائلاً: «لقد جئت لأمر أجلّ من هذا، وآمل بعون «سانتيغو» والرب أن أنجز مهمة ضخمة، فأنا أعرف هؤلاء العرب جيداً ولا أشك أبداً بإيقاع الفوضى بين صفوفهم.

ولكن الكشافة الستة اقتربوا لدرجة يمكن لهم بها كشف الكمين المسيحي، آنذاك أمر «دي فارغاس» عشرة فرسان للتصدي لهم، فسقط أربعة من العرب أرضاً على الفور، وفرّ اثنان على جيادهم نحو جيشهم والنصارى تطاردهم، فظهر حوالي ثمانين فارساً عربياً لمساعدتهم، ففرّ المطاردون عائدين إلى كمائنهم، فانتظر «دي فارغاس» حتى وصل هؤلاء بعقبهم وأصدر الأمر لأبواق الهجوم بأن تضرب، فظهر رجاله بحماس وعنف متراصي الصفوف، فسقط أربعون من العرب قبل أن تصل أيديهم إلى سلاحهم، وانهزم الباقون!؟ إلى الأمام: وصاح «دي فارغاس»، لننظف المقدمة قبل أن تلتحق بالمؤخرة، فلاحق المهزومين على التلة، وهاجم مقدمة الجيش بكل عنف لدرجة دفعت ببعضهم إلى التراجع قبل الصدام، لكن العرب عادوا ليرصوا الصفوف ويطلقوا خيّالتهم برماحهم الطويلة صوبهم، وهنا حصلت مذبحة كبيرة، وظلّ العرب يقاتلون بشدة إلى أن قتل سيدا «مربيا» و«القصير»، آنذاك تركوا ساحة المعركة ليلتحقوا بمؤخرة الجيش، وبتحركهم هذا أفزعوا قطيع المواشي مما أوقع الاضطراب بكل مكان، وأثار الغبار لدرجة لم يعد

معها المهاجمون قادرين على تمييز بعضهم بعضاً، ولخوفهم من أن يتصادموا مع بعضهم، أو من قدوم الملك بقواته، ولأن «دي فارغاس» قد أصيب إصابة شديدة، فرّوا نحو «قشتلار» بما نالوه من غنائم تقدر بثماني وعشرين حصاناً، وما وصلت إليه أيديهم من غنائم القتلى.

وعندما وصلت القوات العربية المتراجعة من المقدمة نحو مؤخرة الجيش، ظن «مولاي أبو الحسن» أن سكان «أكزريس» تحمل عليه السلاح، فنصحه عدد من أتباعه بأن يترك قطيع الغنائم، ويتراجع من طريق آخر؟! لا؟! أجاب هذا المحارب العجوز: ليس من شيم المحارب ترك غنائمه دون قتال، رافعاً صهوة جواده، ومخترقاً قطيع الغنائم الذي راح يتباعد عنه بقطعانه شمالاً ويميناً، وحين وصل إلى ساحة المعركة وجدها تغصّ بقتلى العرب الذين يزيدون عن المئة، وبينهم السيدين السابق ذكرهما، فدفعه هذا المشهد إلى غضبة عبّر عنها بدفع كل قواته إلى أبواب «قشتلار»، مشعلاً النار ببعض البيوت خارجها، وبالحصن «بيدرو فارغاس» الذي منعته جراحه من الخروج لملاقاته، لكن المبارزات حصلت تحت نظره، من فوق السور إلى أن عاد الملك إلى مسرح الصراع الأخير، وهناك كان ينتظره منظر فرسانه الصرعى وهم يدفنون في ساحة المعركة، بينما تحمل البغال جثث «السياد» لتعود وتدفن في مسقط رأسها بملقة، فأمر بجمع قطعان الغنائم على شكل خط تسير خلف بعضها بعضاً، لتمر أمام أسوار «قشتلار» لإذلال خصومه.

وعلى الرغم من كل شدّته وبطشه كان «مولاي أبو الحسن» فارساً يتمتع بأخلاق الفرسان، لذلك أعجب بالسلوك العسكري «لبيدرو فارغاس» الذي أرسل له رسولين يطالبان بريعه من هذا القطيع الذي سيمر من بلاده، مطالباً إضافة إلى أشياء أخرى برأس عن كل مجموعة من المواشي المارة، فأجاب الملك بأن لا سمح الله بذلك، لكنه أعطاه مع ذلك ترضية اثني عشر رأساً من البقر، وأرسل معهم «فقيه» الجيش ليسلمهم له، معتذراً عن عدم إرسال هذه الأبقار قبل حصول المعركة، ولكنها من حقه الآن لأنه فارس يستأهلها.

وبنفس الطريقة في تخاطب الفرسان ردّ «السيد» على ملك العرب، فأمر بأثواب من الحرير مع عباءة قرمزية «للفقيه» المرسل، وودعه بكل احترام قائلاً: «أخبر صاحب الجلالة بعد تقبيل يده عني أنني آسف لأن قواتي لم تسمح لي بأن أعطيه ترحيباً أكثر مما فعلت في هذه البلاد، فلو وصل الفرسان الثلاثمائة من «أكزريس» لأمتعت جلالته بأكثر مما فعلت، وكلي ثقة بأنهم سيصلون الليلة، آنذاك سيكون أمام ناظر جلالته منظر مثير في الصباح».

وعندما تسلّم «مولاي أبو الحسن» هذا الردّ، هزّ رأسه قائلاً: «الحامي هو الله، لأن حفنة من القوات الخبيرة بهذه الممرات الجبلية المقفرة، يمكنها أن تدمّر جيشاً مثقلاً بالغنائم كجيشنا.

ولأنه كان قد علم بالجراح التي أصابت سيد جبل طارق هذا الذي لن يسمح له بأن يدلّ هذه القوات القادمة، أمر بالانسحاب بكل سرعة ممكنة، جعلته يخسر بعض قطعانه التي غنمها في شعاب الجبال الوعرة، فعاد حوالي خمسة آلاف رأس إلى الوادي ليستعيدها الصليبيون. ولأن الباقي كثير جداً، عاد «مولاي أبو الحسن» منتصراً إلى «ملقة»، ومحملاً بما نهبه من أملاك دوق «أوف صيدونيا».

أما الملك «فردناند» الذي كان يعيث الفساد في غاراته على «الڤيغا» في مملكة غرناطة، فلم ترجح هذه الغارات ميزانه الحربي لأن مثلها حصل ضده في بلاده، وبهذا رأى أن ما يفعله في هذه اللعبة الحربية يحصل له فيها أيضاً، والوحيد الذي كسب الشهرة من مثل هذه المبارزة هو سيد جبل طارق «بيدرو دي فارغاس»، لا جلالته كما كان يريد.

الفصل الثاني عشر

إغارة الفرسان الاسبان على جبال «ملقا»:

مسّت الغارة التي قام بها «مولاي أبو الحسن» كبرياء فرسان الأندلس المسيحيين، فقرروا الردّ. فاجتمع لهذا الهدف عدد من أهم فرسانهم في «الأنتكويرا» في شهر آذار/مارس ١٤٨٣م، وعلى رأسهم المركيز «أوف كاديز»، ومعه «دون بيدرو هنريكويز»، و«دون جوان دي سڤيل»، و«دون ألونزو دي غاردنياز» حامل العلم الملكي ـ اللواء ـ القائد في «قشتالة»، و«دون ألونزو دي غاردينا» ماستر النظام الديني العسكري في «سانتيغو»، و«دون ألونزو دي غويلار» مع عدد من أهم الفرسان البارزين الآخرين الذين عجّلوا ليكون لهم نصيب في هذه الحملة، وهكذا ملئت مدينة «الأنتكويرا»(*) الحربية القديمة بحوالي ألفين وسبعمئة حصان، عدا مرافقيهم من المشاة، وهم زهرة فرسان الأندلس النصرانية، فعقدوا مجلس حرب ليقرروا أين سينزلون ضربتهم بين الملكين العربيين المتحاربين في مملكة غرناطة، مما يجعل المملكة الإسلامية مفتوحة لانتقائهم، وعلى هذا الأساس قدّمت مجموعة من الخطط المختلفة من الفرسان، فالمركيز «أوف كاديز» كان يريد الحصول على «الزهراء» الحصن الهام، بينما أراد الماستر «أوف سانتيغو» بناء على تقارير المرتدين عن الإسلام من العرب الذين يعملون بخدمته كجواسيس، أن تكون الحملة أوسع وتبدأ بالإغارة على «ملقة»(**) من جبالها، وتحديداً من منطقة «الزرقاوية» حيث البلاد غنية بالمحاصيل والمراعي والقطعان، كما أن مدينة «ملقة» ضعيفة التحصين والحماية، ليس لديها من الفرسان ما يمكنها من صدّ هجوم قوي، فربما يصلون إلى أبوابها وحتى يدمّرونها؟! وربما بمغامرة من هذا النوع يمكن أخذ هذه البقاع الغنية بهجوم مباغت، وهكذا حرك هذا الاقتراح روح

(*) وهي عند العرب النقيرة.

(**) نستعمل عبارة: مدينة «ملقة» ومنطقة «ملقا» هنا.

المغامرة عند هؤلاء الفرسان الحاضرين، فتصوروا من شدة حماسهم أن «ملقا» قد صارت بأيديهم منذ الآن، مما رغبهم بالمبادرة. إلا أن المركيز «أوف كاديز» أراد أن يفرض بعض التروي لأن لديه هو الآخر أدلاءه المرتدين من أشهر «الإنتلجنسيا» التي تلعب بالخيانة في ذلك الوقت، وعلى رأسهم صاحب ثقته في مخابراته «لويس عمار» الذي يعرف كل تضاريس البلاد وعبادها، فزوّده بالتقارير اللازمة عن جبال «الزرقاوية» ومدى بدائية وشدة بأس سكانها، إضافة إلى وعورتها، وممراتها الهائلة التي يمكنها أن تصد جيشاً بحاله إذا أراد المرور بها، وحتى لو تمّ قهر هؤلاء الناس فلا يمكن أخذ أي مغانم منهم لفقرهم، فبيوتهم تكاد تكون حفراً بالجبال، وقطعانهم سريعة العدو نحو المرتفعات ولكن المركيز لم يستطع أن يغير رأي الجماعة، فالفرسان المعتادون على حروب الجبال اعتبروا أنفسهم أنبل وأعلى من كل عامي يواجههم فيها، وكانوا يهدفون تتويج غزوتهم هذه بهجوم مباغت على «ملقا». ولذلك اتجهوا بكل ثقة، بعد أن تخففوا من أحمالهم وتركوها في «الأنتكويرا» واختاروا من جيادهم الأقوى لهذا التسلّق الجبلي الشديد، وانطلقوا بروح قتالية عالية، وقد قاد طليعتهم «دون ألونزو دي غويلار» مع المشرف على الأندلس من قبل الملك، وتبعهم الكونت «أوف سيفيو وينتز» مع فرسان «قشتالة»، وبعدهم كتيبة «رودريغو بونس دي ليون» مركيز القاضي بصحبة عدد من إخوته وأبنائهم، والكثير من الفرسان الذين يسعون إلى التنافس والبروز تحت علمه، وهم يتحركون في شوارع «الأنتكويرا» كعائلة لفتت انتباه الكل لها بما تتمتع به من روح جهادية، أما المؤخرة فكانت بقيادة «دون ألونزو كارديناس ماستر أوف سانتيغو»، مع فرسان نظامه الديني وخيالة «إيسيجا»، مع بعض رهبان الأخوة المسلحين من الذين وضعهم الملك تحت قيادته، كما رافق هذا الجيش كمية كبيرة من البغال التي تحمل التموين له لعدة أيام، إلى أن يصلوا إلى القرى العربية فينهبونها مستعيضين عن التموين بالنهب، وهكذا تحرك هذا الجيش الصغير بثقة قلّ نظيرها في كل جيوش العالم، لما فيه من شباب ويافعين يعتبرون الحرب مسرة وتجزية وقت، لذلك لم يوفروا أي ثمن لتجهيزاتهم، فالفارس الاسباني الفخور لا يقبل إلاّ أن يكون تام التجهيز في حربه، فدروعهم كانت مزينة بأثمن الزينات، قد حفرت عليها الشارات الثمينة، وخيولهم الأندلسية الشهيرة تحتهم وهي تتحفز للركض مع أعلامهم المرفوعة فوقها، إضافة إلى الرماح الطويلة، والصولجانات والخوذ المريشة، كل هذا كان يعطي السكان شعوراً بأن الثروة ستأتيهم حتماً من غنائم «ملقا» التي سيغنمها هذا الجيش.

لذلك كان خلف هذا الجيش مجموعة كبيرة من التجار التي تأمل أن تكسب من النصر المحتم لهذا الجيش، وهم ليسوا من الذين يلحقون الجيوش لنهب غنائم قتلاها، لكنهم تجار «قشتالة» و«قرطبة» وغيرها من المدن، يركبون بغالهم المحمّلة بالسروج الكبيرة الجلدية الفارغة

المدلاة على طرفي البغل، من التي سيملأونها بالمنهوبات والأواني والقطع الذهبية، فهم بعد أن سمعوا بالغنائم التي أضاعها الجنود الذين احتلوا الحمى، أخذوا أموالهم لشراء المجوهرات والأحجار الكريمة وأواني الذهب والفضة، والحرير الثمين والعباءات الغالية من الجنود. إلا أن الفرسان كانوا ينظرون إلى هؤلاء التجار بكل احتقار، ورغم ذلك سمحوا لهم بمرافقتهم لمصلحة الجيش الذي يمكنه أن يعاق تحركه إذا ثقلت منهوباته.

ورغم أن هذه البعثة بالأساس كان يجب أن تكون سرّية، لكن ضوضاءها هذه وصلت إلى مسامع «ملقة»، تلك المدينة التي كانت حاميتها ضعيفة، لكنها مجهزة بقوة، وبها القائد الذي يعد هو بحد ذاته قوة من قوى الحروب مولاي «عبد الله» المعروف «بالزغل» أي الرابط الجأش(*)، وهو الأخ الأصغر لمولاي «أبي الحسن»، وقائد للقوات القليلة التي بقيت على ولائها للملك العربي الهرم، وهو كأخيه ذو روح وثّابة وعنيفة، لكنه يفضله بالدقة والحذر، واسمه بحد ذاته كان صرخة حرب بين أتباعه، الذين يثقون بشكل باهر بقدراته.

ولأن «الزّغْل» علم بهدف الحملة، تشاور مع «البقصير» حاكم المدينة قائلاً: «إذا وصل هذا الجيش من المجرمين إلى المدينة، سيصعب علينا ردّهم عن أسوارها، لذلك سأذهب نحو الجبال بقوات صغيرة لإثارة الفلاحين عليهم، وإغلاق الممرات الجبلية، وأعطي هؤلاء القتلة ما يسليهم عن هدفهم بالطريق».

وكان يوم الأربعاء يوم تحرّك الجيش الحديدي الاسباني من أبواب «الأنتكويرا»(**)، ليمشي طوال النهار والليل غير معلن عن وجهته، كما كان المفروض عبر البلاد، لأن هدفه بعيد عن مكان انطلاقه ويقع على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، فلم يصلوا إلى الجبال التي تفصلهم عن هذا الهدف إلا في اليوم بعد التالي، ليعبروها من بطن وديانها الصخرية العميقة، وهم يخوضون بالجداول التي تندفع في هذه الوديان، ملتوية بين الصخور المتباعدة التي رمت بها السيول الشتوية السنوية فراكمتها في بطون الوديان، لدرجة أن طريقهم كان في بعض الأحيان فوق صخور مكدسة فوق بعضها البعض، وفي أحيان أخرى كان عليهم أن يخترقوا تيارات سيل جارف من هذه الجداول التي تدفع معها الشظايا الصخرية، وحولها تتشكل الأماكن المثالية للمفاجآت والكمائن، التي ظلّت منذ الحروب بين العرب والاسبان وبعد ذلك تحمل طابع العنف، كمكان مفضل لقطّاع الطرق على المسافرين التعسين في هذه البقاع من الأرض.

وبحلول الظلام، وصل الفرسان إلى شاهق من الجبل، يشرف يمينه على بعد مسافة يمكن أن

(*) «الزّغْل»: عند العامة هو الحجر الذي يعصر الزبيب والزيتون في المعاصر، وهو كبير وقوي، ويعني الساحق.
(**) كان العرب يلفظونها «النقيرة».

تلحظ منها سهل «ملقا»، وورائها زرقة البحر المتوسط، فنظروا إليها كمن ينظر إلى أرض موعودة، وكلما خيّم الظلام راحت تختفي سلاسل الجبال والوديان بمغالق تلك الصخور المرتفعة التي يسمّيها العرب «الزرقاوية»، وهنا ستتبدد آمال هؤلاء الفرسان بقدرهم الذي عليهم أن يواجهوه مع سكان هذه المرتفعات، الذين سمعوا باقترابهم، فعزلوا أسرهم وأطفالهم ومواشيهم بأبراج الصخور التي شيّدتها طبيعة أرضهم الجبلية، بمجرد أن علموا بقدوم الجيش، وتحركوا نحو الجيش الذي لزيادة خيبته أشعل بيوتهم وقراهم، وهو يتقدم على أمل أن يرى قرى آهلة أفضل في طريقه لنهبها، ولأجل هذا المطلب «بالنهب» توزعت قوات «دون ألونزو دي غويلار»، فلم تقدر إلا على وضع يدها على القليل من القطعان المفرّقة مع رعاتها الذين تأخروا باللحاق بشواهق قومهم التي تعصمهم، وبينما كانت هذه القوات المتفرقة تحمل مشاعلها وسيوفها وتجوب منحنيات الجبال في تقدمها وتلمع خوذها ودروعها، كان «سيد سانتيغو» الذي معه حرس المؤخرة يصدر الأوامر المشددة بضرورة بقاء الفرسان مع بعضهم البعض استعداداً لأي هجوم، في حال ظهور العدو، لكن مسلحي الأخوة المقدسة من الرهبان أرادوا أن يشاركوا في الغنائم، فدعاهم بحزم إلى العودة إلى مواقعهم.

إلى أن وصلوا إلى مدرجات صخرية تشرف على وديان عميقة، مفروشة بالصخور كالأسنة، حيث يصعب فرض نظام على مسيرة هذه القوات، وحيث تتعطل قدرة الخيل على الحركة، ويصعب حتى مجرد مراسها، لأن عليها القفز بين صخرة وأخرى صعوداً ونزولاً وهي تحذر الانحدار إلى الأسفل، حيث من الصعب أن تجد موطىء قدم حتى لماعز الجبال، ومما يزيد الوضع تعقيداً إحراق الجنود للقرى التي على ضوئها سار الجيش بمرأى من العرب الذين لجأوا إلى أبراجهم الطبيعية العالية، فما لبثوا أن أطلقوا صيحات الحرب عندما رأوا لمع دروع هؤلاء الفرسان، وهم يلقون عليهم الصخور من مرتفعاتهم وأبراجهم، فهم المسيطرون على المنحدر الذي يشرف على الوادي، وصخورهم وحجارتهم تتدحرج على العدو.

ومما أحزن «ماستر سانتيغو» أن رأى رجاله يسقطون حوله كضحايا عاجزة عن أي مقاومة، بدون أي قدرة على المقاومة أو الثأر، وزاد الوضع اضطراباً ورهبة صرخات العرب التي تردد صداها الوديان وكل منحنى صخري وشاهق، مما أشعر الجيش بأنه محاط بعدد لا نهائي من القوات المهاجمة العدوة، ولجهل المهاجمين بطبيعة الأرض، ولتخليص أنفسهم من الورطة التي هم فيها تكدسوا فوق بعضهم في الوديان الصغيرة والمضائق، مما عرّضهم للتعرّض لمزيد من الخطر، وإزاء هذه الأخطار أرسل «ماستر أوف سانتيغو» طالباً المدد، فأسرع المركيز «أوف قاضي»(*) بالاستجابة لنداء رفيق السلاح بفرسانه، فهز وصوله تزاحم العدو عليهم، وبذلك

(*) تسميه بعض المراجع العربية «ماركيز قادس» وهذا تحريف لإسم مدينته حتى لا ينعت بالقاضي.

تمكن «دون ألونزو» من سحب جيشه من هذه الورطة، وبذات الوقت كان «دون ألونزو» يريد أن يصل إلى فسحة من المكان على نهر الوادي ليخرج من هذا الوضع المهين الذي وضعه فيه حفنة من الفلاحين العرب، فتمركز على وهدة من الجبل. إن الروح الوثّابة «للدون» وصحبه قد شعرت بمهانة التراجع أمام حفنة مهينة من الفلاحين، تتمركز على مرتفع من الأرض، فكيف يهزم سكان الجبل جيشه، ممن كان يظن أن بإمكانه سوقهم أمامهم كالقطعان إلى «الأنتكويرا»، ولأنه سمع أن صديقه المركيز وصديقه الآخر «الماستر» يشتبكان مع العدو، تناس الخطر الذي هو فيه، وجمع صفوف جيشه وعاد لمساعدتهم أو بالأصح للأخذ عنهم، وباجتماعهم معاً قرر القادة أن عليهم أن يتشاوروا بسرعة في الأمر تحت الصخور المدحرجة عليهم من كل صوب، مع السهام التي تمرق فوق رؤوسهم، وأدركوا أن الوقت قد حان، وعلى مرأى من جثث رفقاهم الملقاة أشلاء على الصخور، أن لا فائدة من هذه الغنائم القليلة من القطعان التي سلبوها، والتي لم تسبب لهم سوى الإحراج، فعليهم أن ينسحبوا إلى مكان أكثر أمناً في هذه الجبال الوعرة.

فأمروا الأدلاء أن يقودوهم إلى مكان آمن، ففكروا بأن آمن طريق هو منحدر ضيق وشديد ذهبوا باتجاهه، وهو صعب على المشاة السير فيه فما بالك بالخيالة الدارعين؟! وكانت تشرف عليه مُطِلات لم يروا منها سوى السهام والحجارة المقذوفة عليهم، متصاحبة بصرخات متوحشة تصم الآذان، وتوقع الرعب في القلوب، وفي بعض الأماكن كانوا لا يستطيعون المرور إلا واحداً إثر واحد، حيث تخترق بعضهم نبال العرب فترعب أصحابهم أصوات حشرجاتهم المتألمة، أما القمم المجاورة فقد اشتعلت عليها نيران الإنذار بالغزو بآلاف الشعل، وكأنها لم تشعل بأيدٍ بشرية، فإما بسبب الخوف والاضطراب أو بسبب الجهل بطبوغرافية البلد، توجه الأدلاء بالمقاتلين إلى أماكن قادتهم إلى مصير قاتل، فحين شق الصباح عتمة الليل فوقهم، وهم في هذه الممرات الضيقة المليئة بالشعاب الصخرية، وفوقهم المنحدرات التي شعّت بضوء الصباح، ظهرت فيها العمائم ترقبهم وتصب عليهم جام غضبها المروع، فصار منظر هؤلاء الفرسان التعسين مختلفاً جداً عن منظرهم عندما كانوا يتبخترون في شوارع «الانتكويرا» فالغبار قد غطاهم مختلطاً بدمائهم النازفة من جراحهم، وهم يرتعشون من الاجهاد والخوف، فبدوا لعين الناظر وكأنهم ضحايا لا محاربين، فكثير من أعلامهم قد ضاع، ولم يعد يسمع لهم أي بوق عسكري يرفع معنوياتهم المنهارة أو يجمعهم، وهم يلتفتون بنظراتهم الحيرى نحو قادتهم، وقلوب فرسانهم تكاد تتفطر ألماً وحسرة، منتظرين معجزة لإنقاذ أتباعهم من هذا المصير التعس.

وهكذا ظلّوا يحاولون طوال اليوم إيجاد طريق يخرجهم من هذه الشعاب الجبلية، وهم يتحركون بين إشارات الدخان التي تتراقص فوق القمم الجبلية بدلاً عن النار المسائية التي كانت تحدد مواقعهم للبطش بهم، وهكذا كان سكان الجبال ينحدرون عليهم من كل صوب،

ويغلقون عليهم كل طريق مررو ممكن، وهم يسبقونهم دوماً على المنافذ ويقفون على شواهقها ليحرسوا منعطفاتها، كما تحرس الأبراج المواقع الحربية.

ولما أقفل الليل عليهم ضياء السماء ثانية، ظلّوا محبوسين في بطن جبل، فيه جداول تحيطهم من كل جهة، وعاد إطلاق نيران الإنذار يحدد مواقعهم بلهب يكاد يصل إلى السماء، وفجأة رددت الوديان صدى صرخة جديدة مخيفة: الزَّغْل... الزَّغْل!! أصَمَّتْ كل أذن في الوادي، وحين سأل «ماستر أوف سانتيغو» عن معناها، جاءه الجواب بقدوم القائد العربي، كما أخبره أحد جنوده المسيحيين القدامى، مضيفاً بأنه ربما جاء بقواته شخصياً من «ملقا».

فالتفت هذا السيد إلى فرسانه قائلاً: لنمت إذاً ونحن نفتح هذا الطريق بقلوبنا، بعد أن عجزت سيوفنا عن فتحه، لنتسلق هذه الجبال فنموت بجدارة، بدل أن نذبح هنا ذبح النعاج.

ثم لوى رأس جواده نحو المرتفع وراح يتسلّق حوافه الصخرية القاسية، وتبعه الخيالة والمشاة، من الذين يتشوقون إلى الصدام مع العدو طالما موتهم صار حتمياً، وبمجرد أن فعلوا ذلك نزل عليهم سيل هائل من الحجارة والصخور، وكانت بعض هذه الصخور تزمجر باتجاه وسطهم، فسقط المشاة من الجراح والإعياء والخوف، وبعضهم تعلّق بذيول الخيل ومعارفها كي تساعدهم على الصعود، بينما هذه الخيول تخطىء مواضع أقدامها على الحجارة الملساء، أو تصاب بجرح من حجر مفاجىء، لتقع على المنحدر بمن عليها من فرسان ومن تعلّق بها من مشاة، بشكل متدحرج فوضوي إلى أن يتقطع الجميع قطعاً متناثرة في الوادي، وبهذا الشكل المأساوي ضاع حامل اللواء بلوائه مع كل أقربائه وأصدقائه الخلص، أما الذين نجحوا بالوصول إلى حافة الجبل فقد كان عليهم أن يواجهوا صعوبات جديدة بالصخور والعقبات التي وضعها أمامهم خصومهم القساة، ولأن هذه القوات لم يكن لها لا عَلَمٌ ولا بوق يجمعها تشتتت بكل اتجاه، وهي تحاول أن تجد لها ملجأ من العدو، وعندما رأى «ماستر أوف سانتيغو» المؤمن تمزق أشلاء قواته بهذا الشكل، لم يستطع أن يمتلك أحزانه فتوجه إلى الله قائلاً: «يا الله إن غضبك اليوم لشديد على عبدك!! لأنك حوّلت جبن هؤلاء اللامؤمنين بك إلى شجاعة، فجعلت فلاحيهم ينتصرون على قواتك المحاربة من أجلك؟!»

وبجهدٍ محال حاول تشكيل رأس حربة لمهاجمة العدو من قواته، لكن من حوله كان يصر عليه أن يحافظ على سلامته الشخصية، فأن يبقى يعني أن ينتهي دون أن يحقق حلم ضربته للعرب، أما أن ينسحب فسيكرّس نفسه لثأر ثانٍ منهم، ولهذه النصيحة خضع «الماستر» مخاطباً ربّه ثانية: «أيّها الرب العزيز!! سأهرب من غضبك لا من هؤلاء المشركين، فهم مجرّد أداة بيديك لتعاقبنا بهم على خطايانا»، وبقوله هذا دفع بالدليل إلى التقدم لاحقاً إياه في عمق الجبل قبل أن يقدر العرب على اعتراضه، وباللحظة التي فرّ فيها «الماستر» تجمعت قواته المبعثرة لتلحق

به بتتبع أثره، لكنهم ضلّوا في شعاب الجبال، ومنهم من مات تائهاً، ومنهم من ظلّ يتسلق ليلتقطه العرب بالقتل أو بالأسر.

أما المركيز «أوف كاديز» فقد رافق دليله «لويس عمار» في اتجاه مختلف من الجبل، يلحقه أصدقاؤه أمثال «دي غويلار» وكونت «سيفيونتي» مع مجموعاتهم التي عاد الظلام ليفرّقها عن بعضها، لذلك فوجىء «المركيز» حين التفت إلى الخلف بضياعهم عنه، وليس لديه بوق عسكري لجمعهم، ولكن الذي عزاه في حالته هذه، أن أخاه وعدداً من أقاربه كان لايزال معه، فدعاهم بالإسم وكان جوابهم يعطي راحة لقلبه الكسير.

وهكذا قادهم مخبرهم - الدليل - إلى وادٍ آخر لا يتعرضون فيه إلى مثل هذه الأخطار، وعندما وصل إلى بطن ذاك الوادي توقف «المركيز» لجمع أتباعه المشتتين، وليعطي فرصة لقادته كي يلحقوا به، وبدلاً عن ذلك فوجىء بهجوم مفاجىء لقوات «الزَّغْل» يدعمها رجال قبائل الجبال تخرج عليهم من المنعطف، ولكون جماعته بحالة إجهاد وخوف، فقد فقدوا صوابهم، وركضوا بكل اتجاه لتتخطفهم يد القتل أو الأسر، لكن «المركيز» قاوم مع خاصته، فسقط حصانه صريعاً من تحته، وتخطف العرب إخوته وأبناءهم واحداً واحداً من حوله، إما برماح قوات صغيرة أو بالحجارة المتساقطة عليهم من علٍ. ورغم أن «المركيز» من خبراء الحروب، وقد خاض معارك دموية كثيرة، لكنه والحق يقال لم يعاين الموت بهذا القرب منه قبل اليوم، خاصة حين رأى أخاه «دون بلتراند» يطير من جانبه ومن سرج حصانه بضربة حجر، وحصانه يهرب بدون راكبه بسرعة مذهلة، فصرخ بألم وذهول، فكانت هذه الصرخة كناية عن بوق التجمع للقتال، لذلك التف حوله بعض أتباعه الخلص ليحاولوا إنقاذ حياته، ودفعه للانسحاب، وقد كان بإمكانه أن يبقى ويشاطر زملاءه في السلاح مصيرهم أمثال «دي غويلار» الذي صارت قوات «الزَّغلْ» تفصله عنهم، كما أنَّ الموت راح يصفر مع كل هبة ريح، فقد قرر الفرار حين أحضر له حصان آخر فانطلق مع دليله «عمار» نحو أكثر الممرات انحداراً، ولمسافة حوالي اثني عشرة ميلاً، والعدو لايزال يطارده ويفتك بضباطه، إلى أن وصل «المركيز» أخيراً إلى أقصى منحدرات الجبال، ومع حفنة من رجاله عاد إلى «الأنتكويرا» فاراً مطارداً.

أما الكونت «أوف سيفيونتي» مع ما بقي معه، فقد حاولوا اللحاق «بالمركيز»، فضاعوا بشعاب أحد الممرات، حيث وجدوا أنفسهم محاصرين تماماً من قوات «الزَّغْل»، ولذلك لم يعد باستطاعتهم أي مقاومة، فاستسلم مع أخيه «دون بدرو دي سفيلا» وبعض قواته الناجية.

ومع الفجر كان لايزال «دي غويلار» مع حفنة من رجاله في الجبل، يحاولون تعقّب أثر المركيز «أوف كاديز» فوجدوا أنفسهم يصطدمون بأكثف قوة للعدو، فغيروا إتجاههم - بعد

اللتي ـ نحو ذات الوادي الذي هرب منه «المركيز»، ونتيجة إرهاقهم وقلقهم وخوفهم اختبأوا بظل أحد الصخور التي أخفتهم عن رصد العدو لهم، بينما أروتهم نبعة مجاورة، وأنعشت خيولهم التعبة، ولما وضح النهار ظهر منظر المذبحة مروعاً، حيث ضمّ الثرى جثث إخوة وأبناء أخ أكبر «المراكيز» الاسبان محطمي العظام أو نازفي الجراح، وحولهم فرسان صرعى، أو لازالوا يعانون سكرات الموت، وبعضهم قد عراه الغانمون من العرب ورجال الجبل، ورغم أن «دي غويلار» كان فارساً متسامحاً، إلا أن تسامحه شأنه شأن «الماستر أوف سانتيغو» لم يمنعهما من استمطار اللعنات المقدسة على هؤلاء المشركين الذين فتكوا بزهرة فرسان الصليبية، فحمل في صدره من ذاك اليوم حقد الثأر على هذه المنطقة من البلاد.

وجمع العرب مع قوة «دي غويلار» المأسورة قوات استسلمت من الكهوف المجاورة، فتشكلت عصابة صغيرة منهم استغلت انشغال العرب بالغنائم لتنسحب نحو «الأنتكويرا».

وهذه الملحمة حصلت بين مساء الخميس إلى الجمعة من ٢١ آذار/مارس في عيد القديس «بندكت»، ولازالت تسجل في التقويم الاسباني تحت اسم هزيمة جبل «ملقا»، ولازال المكان الذي حصلت به معلماً يشار إليه اليوم بعبارة «La Cuesta de La Matanza» الموضوعة فيه على صارية أي: «هضبة المذبحة» أو الملحمة، ورغم أن قادة هذه الحملة الرئيسيين عادوا إلى «الأنتكويرا»، إلاّ أن كثيراً من الفرسان التجأ إلى «الحمى» ومدن أخرى، ولكن بعضهم ظلّ ضالاً في الجبال ثمانية أيام بلياليها، يعتاشون فيها على جذور النباتات، ويختبئون نهاراً، ويمشون ليلاً، وهم لم يبدوا أي مقاومة إذا هوجموا، كما استسلم عدد منهم للفلاحين العرب، وحتى نساء «ملقا» خرجن يلتقطن الأسرى من شعاب الجبال، وأرسل بعضهم إلى أقبية المدن الحدودية، وآخرون جيء بهم إلى غرناطة، ولكن معظمهم سيق إلى «ملقة» المدينة التي أرادوا تدميرها، وكان عددهم مائتين وخمسين سيداً وفارساً وقائداً ينتظرون فكّهم بفداء، بسبب دمائهم النبيلة، حيث احتجزوا في «القصبة» قلعة «ملقة»، بينما حُشِر خمسمئة وسبعون جندياً في سجن عادي بالقلعة ليباعوا بيع الرقيق.

أما الغنائم فكانت كثيرة من دروع وأسلحة أُخذت من القتلى، أو مما تخفف منه الفرسان أثناء هروبهم، كما تمّ أخذ الكثير من الخيول المطهمة، مع عدد كبير من الأعلام التي استعرضت استعراض النصر في المدن الأندلسية الإسلامية.

أما التجار الذين جاؤوا مع الحملة على أمل شراء المنهوبات من العرب المسلمين، فقد صاروا هم بحد أنفسهم سلعة للبيع، فسيقوا كالقطيع إلى سوق الرقيق في «ملقة»، ورغم كل خبرتهم بالمساومة كي يشتروا أنفسهم من مسترقيهم، لم يستطيعوا أن يشتروا أنفسهم إلا بأبهظ الأثمان التي سحبت كل ما يملكون في ديارهم، حتى آخر قرش فيها!!

الفصل الثالث عشر

أثر كارثة جبال «ملقا»:

ولم تكد ثورة الحماس وغرور النصر يخفان عند أهل «الأنتكويرا»، بعد استعراض المغادرة لفرسانهم، إلاّ ووصلت بقاياهم الممزقة وهم يلجأون إلى أسوارها، ففي كل ساعة وفي كل يوم كان طريد يصل، لدرجة أن التمييز بين من خرج على شكل محارب ومن يعود على شكل مشرّد كالشحاذ، لم يعد ممكناً.

فالمركيز «أوف كاديز» وصل وحيداً مغطى بالغبار المختلط بجراحه، ودروعه ممزقة، وثيابه مهلهلة، فأعطى انطباع المشرّد لا «المركيز»، مما أحزن كل من رآه، لأنه كان محبوباً جداً من الناس، وهم يتساءلون عن علم الأخوة الذي كان يلتف حوله عندما انطلق إلى ساحة القتال، وعندما عرفوا بسقوط هؤلاء الإخوان واحداً إثر واحد حوله، أخذوا يتهامسون وهو يمر بينهم، وهم يحدقونه بنظرات الشفقة، ولم يحاول أي منهم تعزيته لأن الخطب أجلّ من كلمات العزاء، أما هو فلم ينطق ببنت شفة، وذهب ليغلق عليه داره، ويبث أحزانه وسوء طالعه لنفسه، ولعل وصول «دي غويلار» بعد ذلك أعطاه بعض العزاء في ظلال الموت الذي فغر فاهه على أسرته بكل غلظته ووطأته، فها هو أخوه في السلاح ينجو على الأقل بدون أن يصاب بأي أذى.

أما النصارى فقد كانوا ينظرون إلى حدودهم مع العرب المسلمين بعين الترقّب والقلق، يسرحون بأبصارهم إلى السهوب والجبال علّه يطل منها أي ناج من المعركة، يكون قريباً أو صديقاً لأحد هؤلاء الناظرين؟ ثم أخذ كل أمل بالتلاشي في أن يسعف المفقودين أي حظ بالظهور؟! ومع تلاشي هذه الآمال عمت الأحزان والمآتم كل بلاد الصليبيين، لاعنة عنجهية القصر ومطامعه بالتوسع، وامتد الحزن بكل أصقاعهم ليخيم على المجتمع المخملي تخييمه على

كل الطبقات، فبكت الأمهات أولادها الذين فقدوا زهرة شبابهم، وكثير من صباح الوجوه الشقراوات احتقنت وجوههن بالحزن، كما كانت تحتقن بالإعجاب بهؤلاء الشباب، وهكذا أجمع كل مؤرخي ذاك الوقت بأن الأندلس المسيحية كانت تلبس ثوب الحداد بكل ثقله، ولم توجد فيها أي عين لم تذرف الدمع.

كما خيّم الذعر والخوف على سكان الحدود، الذين شعروا بأن رماحهم صارت قصيرة أمام المسلمين، وراحت كل مدينة من مدن الحدود تتوقع تعرضها للهجوم، لدرجة أن الأمهات كانت تعتنق أبناءها لمجرد سماع نباح كلاب الحراسة، خوفاً من أن يعقبها صرخة من صرخات الحرب.

ومن جهة أخرى كانت سعادة العرب لا توصف، وهم يرون الكتائب الصليبية تساق إلى الأسر عبر مدنهم بعصي سكان الجبال الأشداء، فقرروا أن هذا من نصر الله للمؤمنين، ولم يكن هناك أي حد لبهجتهم عندما رأوا بين الأسرى عدداً كبيراً من الفرسان بذلةٍ ومهانة، يتسحبون أمام أعلامهم المجرورة أرضاً، والتي ترمز إلى أكثر العائلات الاسبانية شرفاً، تلك الأعلام التي اعتادوا أن يرفعوها بكل إباء في المعارك مع العرب، تُشحَبُ وتجر اليوم في الطرقات، وبينها الكونت «أوف سيفونتس» حامل العلم الملكي لواء اسبانيا مع أخيه الشهير «دون بيدرو دي سڤيلا» يتسحبان في شوارع غرناطة بكل ذل ومهانة، وهكذا ظنّ العرب أن أيام الإسلام المشرقة قد عادت، وأنهم سوف يجددون انتصاراتهم على الملاحدة.

أما المؤرخون النصارى فقد وقعوا بالحيرة في ذلك الوقت بتفسير سبب وقوع فرسانهم، الذين يقاتلون في سبيل الإيمان المقدس بهذا القدر التعس بشكل إعجازي بيد حفنة من الملاحدة المحمديين، فقد كانوا متأكدين بأن كل هذه الهزيمة كانت بسبب قوة لا تزيد عن خمسين فارساً وخمسمئة راجل مسلم، من رجال الجبال الذين لا علم لهم بأي فن عسكري، ولا يتبعون أي نظام، لذلك فسّرها أحدهم كدرس مقصود من السماء للثقة المفرطة والمتعجرفة بقوتهم التي دفعتهم إلى قلب بلاد الأعداء، وقد جاءت هذه الهزيمة لتعلمهم بأن السباق لا يربحه الأسرع، ولا النصر في المعارك للأقوى، بل الله وحده هو الذي يعطي النصر لمن يشاء.

وعلى هذا الأساس قرر الأب «أنطونيو آغابيدا» المبجل أن الأمر كان عقاباً من السماء لعنجهية الفرسان الاسبان، لأنهم لم يدخلوا بلاد الملاحدة بروح مسيحية بحتة، لا تغار إلا على مجد الإيمان، بل دخلوها بجشع التجار، لإغناء أنفسهم بغنائم الكفار، فهم بدل أن يجهزوا أنفسهم بالقداديس والاعترافات، والشهادات أمام القسسة، ودفع الهبات إلى الكنائس والأديرة، فكروا فقط بالمساومة على غنائمهم المفروضة، لذلك لم يأخذوا معهم الرهبان

المقدسين ليعضدوهم بصلواتهم، وأخذوا معهم التجار الذين لا يفكرون إلا بالأمور الدنيوية، فأحالوا الحملة الصليبية المقدسة إلى قافلة تجارة خسيسة. هذا هو رأي هذا الأب المقدس، الذي شاركه فيه الكاتب المعتبر «كورايت أوف لوس باليسوس»، فقرر أن هذا الأمر كان رحمة لترويض قلوب النصارى، وبذلك عزيا أنفسهم من جهة، وحاولا استخلاص العبر منها من جهة أخرى، بضرورة هجر كل ما يتعلق بشهوات الدنيا، وبهذه العبرة اعتبر «آغابيدا» جديراً بالتأريخ لجماعة «القديس يوسف».

الفصل الرابع عشر

كيف اخترق الملك أبو عبد الله الصغير الحدود:

كان لكل من هزيمة الفرسان الصليبيين في جبال «ملقا»، ونجاح حملة مولاي «أبي الحسن» على مدينة «مدينا صيدونيا» أثره في إنعاش معنويات القصر الملكي، فصار الناس يهتفون لمولاي أبي الحسن في الشوارع، وينتقصون من خنوع ابنه «أبي عبد الله الصغير»، رغم أنه كان في عز شبابه، مشهوراً بقوته وعافيته وشطارته بلعبة الجريد، وألعاب القوى مثل ليّ الذراع ـ كباش ـ لكنه لم يضرب بعد ولا بسيف بحرب، فخرجت الشائعات لتؤكد ميله إلى الحرير والنعيم في قاعات الحمراء التي يفضّلها عن مشقة وأخطار ساحات القتال والمعارك، وصعوبات المخيمات في الجبال.

وكانت شعبية أي من هذين الملكين رهناً بمدى انتصارهما على النصارى، ولتعديل رجحان كفة والده بهذا الشأن، قرر «ببدول» ضرورة أن يقوم ببعض الهجمات مدفوعاً بالمحاربين العرب حوله، أمثال حميه «أبي علي العطار» سيد الأقصى، الذي لازال يشتعل حماساً ضد الصليبية، رغم انطفاء سنين عمره، وقد استطاع مؤخراً أن يذكّي جذوة حماسه بنصره الساحق على «فردناند» عندما هاجم «الأقصى».

فقد أخبر «العطار» صهره أن الصدام الأخير مع العدو أفقد هذا العدو زهرة فرسانه، وحطّم معنويات الأندلس المسيحية، مما يجعل كل الحدود نحو «قرطبة» و«إيسيجا» مفتوحة للغزو، مشيراً بالخصوص إلى مدينة «لوشنكا»(*) كهدف يمكن مهاجمته، لأنها ضعيفة التحصين وتقع في بلاد زراعية مليئة بالزرع والمواشي والخمور والزيت خاصة وأن هذا المحارب القديم قد قام بكثير من الغزوات في تلك الديار، فهو يتكلم عن خبرة بها، فمن المألوف «بالأقصى» تسمية

(*) ويسميها المغاربة لشانة.

«لوشنكا» بحديقة «علي العطار» لأنه كان معتاداً على تزويد نفسه من كل عطاءات مزارعها.

وهكذا استمع «أبو عبد الله» إلى إقناعات «العطار» المحارب القدير القديم، فشكل قوة من سبعمئة فارس وتسعة آلاف راجل، معظمهم من أتباعه الخلص، وكثير منهم من أتباع والده، لأن الفريقين رغم حربهما مع بعضهما كانا على استعداد دائم للاتحاد معاً ضد العدو المشترك، لذلك اجتمع حول علمه معظم نبلاء العرب المشهورين في الأندلس، وهو يستعرضهم بدروعهم المزركشة ولباسهم الحربي الرائع، كما لو أنهم ذاهبون إلى عرض عسكري أو إلى عرضة، بدل الاتجاه إلى حرب حديدية شديدة.

أما السلطانة «أيقصا الطاهرة» والدة «ببدول» فهي التي ألبسته بيديها دروع ودرق الحرب، وأعطته بركاتها وهي تعلّق سيفه على جانبه، وزوجته المفضّلة «مريم» تذرف الدموع وهي تتصور ما يمكن أن يصيبه من أذى، فالتفتت الطاهرة إليها قائلة: «لمَ تبكين يا ابنة «علي العطار»؟! هذه ليست من شمائل ابنة ذلك المحارب، ولا زوجات الملوك!! كوني على ثقة أن زوجك بخطر هنا، بين أبراج هذا القصر المشيّدة أكثر منه في خيمة القيادة بساح الشرف، فبلآليء تلك الساحات يشتري زوجك الأمان لتاجه!!».

ورغم ذلك ظلّت «مريم» متعلقة برقبته تزفّه القبل والدموع بعينيها، وعندما غادر «الحمراء»، طارت مسرعة إلى «المشرفة» في القصر لمراقبة سيره في «الڤيغا» مع جيشه الذي تلمع خوذه ودروعه وأسلحته في طريقهم نحو الأقصى، وكل أغنيات الجيش التي كان يحملها الهواء كانت النساء تردّ عليها بالزغاريد، وجماعها شكّل غصة في صدر تلك الزوجة.

بينما كان سكان مملكة غرناطة يحيّون مليكهم الشاب بالهتاف وطلقات الرصاص بالهواء، متأملين بالنصر الذي سيجلبه لهم كأبيه، وبينما هم كذلك ضرب رمحه الطويل مدخل بوابة «الڤيرا» فانكسر بقوس الباب، مما سحب الدماء من وجوه نبلائه، الذين لتشاؤمهم بالأمر نصحوه بالعودة، فهزىء «أبو عبد الله» بمخاوفهم، التي لا تعبر إلا عن بقايا تطير وثني، أو لأنه برأي الأب «آغابيدا» هو الوثني، لذلك لم يفهم هذه الإشارة، لامتلائه بالعنجهية والغرور، فسحب سيفه وأشار بالتقدم للأمام في غطرسة، كما وصفها «آغابيدا» بالمقيتة، كما لو أنه سيجعل كل من في الجنة والنار يخشاه، أما الإشارة الأخرى التي أرادت الأقدار ثنيه فيها عما هو مقدم عليه، فكانت بوادٍ ضيق على مرمى سهم من مدينة «بيرو»، حيث اخترق كل الجيش ثعلب باتجاه الملك، فأطلقت عليه ألف طلقة، لكنه فرّ دون أن يصاب بأي أذى نحو الجبال، فاعتبر الرجال الصالحون في جيشه أن هذه إشارات غامضة لكارثة ستحدق بالجيش، لكن كل هذا لم يؤثر على الملك أو يمنعه من الاستمرار بالتقدم.

وفي الأقصى تدعم الجيش بقوات من عند علي العطار، بنخبة من فرسان حاميته، وكثير من الرجال الشجعان في المدن الحدودية فقد هلّل أهل الأقصى وكبّروا وزغردت نساؤهم حين برز «علي العطار» مدججاً بالدروع تحت درق الحديد فوق مهره العربي المغربي، الذي كان يغزو على ظهره فيما وراء الحدود، خاصة وأن هذا المقاتل القديم قد خبر الحروب قرابة قرن كامل، فأطلق الشباب بنادقهم في الهواء لهذا البطل الناري الذي ترقّى بالرتب العسكرية من رتبة إلى أخرى، إضافة إلى ما فيه من خلال ترجع إلى نارية وشهامة عرب الصحراء، وهكذا ودّع الناس هذا الجيش وهو يستعرضه أمامهم ماراً على الجسر نحو ممرات الجبال، والكل ينظر إلى «علي العطار» الذي تعلّقت به كل آمال النصر.

وبهذه القوات دخل الجيش العربي بلاد النصارى، وهو يدفع أمامه الناس والقطعان ويأخذ الأسرى والغنائم من كل صوب، بكل سرعة وقوة وعنف ضاغطاً طوال النهار وقسماً من كل ليل، لكي يصل إلى «لوسيانا» قبل أن يتم إنذارها به، ورغم أن «أبا عبد الله» لم يكن خبيراً بفن القتال، لكن آراءه كان يأخذها من عمه «علي العطار» الذي كان مطّلعاً على كل أسرار البلاد والعباد، وكان حين يطل على كل مقاطعة منها، يرقبها بثاقب نظره وكثرة معلوماته حولها، بعينيّ الثعلب لينقض عليها انقضاض الذئب، ولذلك كان يتحرك بجيشه بسرعة مذهلة، كانت تسبق استخبارات العدو عن قدومه، لذلك استراح لفكرة أن «لوسيانا» ستكون بمتناول يديه بسهولة ويسر، قبل أن يفاجأ بإشارات الإنذار تصدر من الجبال، وهنا أخبر مليكه بقوله: للأسف لقد تمّ اكتشافنا، وستقوم كل البلاد ضدناإلى سلاحها، فلم يبق لدينا إلا الصدام من أجل «لوسينا» فهي لازالت ضعيفة الحراسة، وقد نتمكن من أخذها بهجوم مفاجىء قبل أن تتمكن من تلقّي العون، وعلى هذا وافقه الملك، فتحركوا بسرعة نحو أبواب المدينة.

الفصل الخامس عشر

كيف انطلق الكونت «دي كابرا» من قصره طلباً للقاء الملك «أبي عبد الله»:

كان الكونت «دييغو دي قرطبة» كونت «كابرا» في قصره في «ڤاينا» الذي يقع بمدينة تحمل نفس الإسم على تلة تشرف على الحدود مع مملكة قرطبة، وعلى مقربة من «لوسيانا» ولا يفصلهما عن بعضهما إلا جبال «هور كويرا»، وكانت قلعة ـ أو قصر ـ «ڤاينا» قلعة قوية مملؤة عتاداً، وتحت تصرف هذا «الكونت» وفيها جماعة من المماليك والخدم، كقوة مقاتلة يجب أن تكون تحت تصرّف كل نبيل حدودي في ذلك الوقت، وكانت هذه القوة مجهزة بالدرق والدروع واللباس الكامل للفرسان برماحهم الطويلة، لكي تقاتل في حال أي غزوة مفاجئة للعرب، كما كان الكونت «أوف كابرا» بحدّ ذاته مقاتلاً متمرّساً، سريع الفهم دقيقاً بتحركاته، وسريعاً ومخيفاً في ساحة القتال، فهو واحد من أشجع الفرسان في عصره، إضافة إلى ما تفرضه طبيعة الحياة على الحدود من ضرورة السرعة والتوقد التي كان يتمتع بهما.

وفي ليلة ٢٠ نيسان/أبريل ١٤٨٣م، وبينما كان الكونت بصدد الاستعداد للنوم، أخبره مراقب الأبراج في قلعته: أن هناك إشارة إنذار نارية بغزو يحصل في «هور كويرا» خرجت من السيار ـ برج الإشارات ـ الذي يشرف على الطريق بين «كابرا» و«لوسيانا»؟!

فصعد «الكونت» إلى مواقعه القتالية في قلعته وأطلق خمسة إشارات ضوئية من أبراجها، بأن هناك جيش عربي يهاجم الحدرد، ثم أطلق فوراً جرس الإنذار في مدينته، وأرسل من ينبّه المدن المجاورة، كما أمر كل قواته بالإستعداد للقتال، وأرسل ضاربي الأبواق في شوارع مدينته لتعلم كل قادر على حمل السلاح بضرورة التوجّه إلى القلعة مع خيوط الفجر بكامل سلاحه، للذهاب إلى ساحة القتال.

وهكذا ظلّ طوال ما تبقى من الليل يجهّز التجهيزات للمعركة، فخرجت الضوضاء من

القصر ومن كل المدينة، لأن كل بيت في تلك القرى الحدودية كان بيت محارب، فالرماح والدرق والدروع كانت دوماً معلقة على الجدران كجزء من أثاثه، جاهزة للاستعمال الفوري حين الطلب، لذلك لم يكن صوت يعلو على صوت صليل السلاح في تلك الليلة، وحوافر المهور وتلميع السلاح على ضوء الإشارات والإنذارات التي تخرج من المدينة، ومن النيران الموقدة على رؤوس الجبال.

ومع خيوط الفجر الأولى تحرّك «الكونت» على رأس مئتين وخمسين فارساً من خيرة عائلات «ڤاينا»، وكل واحد منهم يعدّ من أفضل خبراء استعمال السلاح وحروب الحدود، ومعهم بالإضافة إلى هذا ألف ومئتين مجند راجل من شجعان هذه المدينة، وقد أمرهم «الكونت» بالإسراع بأقصى سرعة ممكنة، وهو يتّجه بطريق «كابرا» الذي يبعد عدة أميال عن مكان انطلاقه، وعلى كل واحد منهم أن لا يفطر قبل الوصول إلى ذاك الطريق، وقد أرسل «الكونت» من يسبقهم ليعد لهم الإفطار على أبواب «كابرا»(*)، وهم حين وصلوا إلى هناك وبدأوا بإفطارهم الصباحي وصل معهم دون «ألونزو دي كورتوبا» سنيور يوهيروز.

وبعد استراحة سرية تحرّك الجميع، ليفاجأ «الكونت» بأنه في غمرة السرعة بالاستعداد قد نسي أن يحضر علم «ڤاينا»(**) ليميز قواته فيه، هذا العلم الذي ظلّت عائلته تحمله في القتال ثمانين سنة، ولأن الظهيرة قد حلّت، ومن الصعب أن يرسل بطلب العلم، أخذ علم «كابرا» الذي يتميز برسمة «عنزة» عليه والذي لم يظهر في المعارك منذ خمسين سنة على الأقل، وما أن تحركت هذه القوات، حتى وصلت رسالة مستعجلة من ابن أخ الكونت «هاراندز دي كورتوبا» سيد «لوس دونزيليس» يطلب منه السرعة في إعانته، لأن مدينته تتعرض للإغارة من ملك العرب «أبي عبد الله الشيكو» بجيشه القوي، وقد وصلوا إلى حدّ أنهم أشعلوا النار في أبواب المدينة.

فتوجّه «الكونت» بجيشه الصغير فوراً إلى «لوسيانا» التي لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال عن «كابرا»، متأملاً بلقاء ملك العرب شخصياً، وحين وصل إلى «لوسيانا» كان العرب قد تراجعوا عن الهجوم عليها، وراحوا ينهبون جوارها، فدخل الكونت المدينة مع بعض فرسانه، ليستقبله ابن أخيه بكل سرور، لأنه لا يملك أكثر من ثمانين فارساً وثلاثمئة راجل، وهو شاب صغير لم يخبر القتال، لكنه حذّر وكفء، وهو حين علم في الليلة السابقة بأن العرب قد دخلوا الحدود

(*) قبرة.

(**) بانية.

جمع النساء والأطفال في القرى المجاورة، وسلّح رجالهم، وأرسل الإنذارات بكل اتجاه، كما أشعل أضواء الإنذار ونيرانه على ـ سيارات ـ الجبال وقممها.

وأبو عبد الله الذي ظهر في الفجر على أبواب مدينته، أنذره بأنه سيضع هذه المدينة تحت السيف إذا لم تسلم حاميتها فوراً، مرسلاً هذه الرسالة مع «حامد» من «غرناطة» الذي سبق «لدون دييغو» معرفته شخصياً، فدخل معه في حوار طويل لكي يكسب الوقت إلى حين وصول النجدات، لكن «علي العطار» المحارب العربي الناري لم ينتظر وهاجم كالعاصفة باب المدينة، إلا أنه ردّ عنه، وهم يتوقعون هجوماً آخر خلال الليل.

وعندما علم «الكونت» بالحالة القتالية هذه، التفت إلى ابن أخيه برفقه المعهود وجرأته معاً، واقترح بضرورة الخروج لملاقاة العدو فوراً، فاعترض ابن أخيه على هذه السرعة بملاقاة قوة كبيرة كهذه دون مدد، وبهذا العدد المحدود لديهم؟! لكنه أجابه بأنه قد جاء من «ڤاينا» لملاقاة ملك العرب، وهو لا يريد أن يعود خائباً.

فطلب منه ابن أخيه أن ينتظر على الأقل ساعتين إلى أن تصل التعزيزات من «رامبلا» و«سانتيلا» و«مونتيلا» وأماكن أخرى في الجوار!!

فأجابه «الكونت» بأن مثل هذا الانتظار قد يعطي فرصة للعرب كي يرحلوا فتبوء كل جهود هذه التجمعات بالفشل، ولذلك قال لابن أخيه: «يمكنك أنت أن تنتظر، أما أنا فذاهب إلى المعركة!!»

ولم ينتظر «الكونت» جواب ابن أخيه، وانطلق بكل تصميم نحو رجاله، تاركاً هذا السيد الشاب لتأنيه، معتمداً على شجاعته بعدم تخليه عن عمه، وهكذا كان إذ جمع قواته القليلة ولحق بعمه الذي كان يتحرك في تلك اللحظة بكل قواته، وهكذا سارا معاً نحو العدو.

لكن الجيش العربي الذي كان يطبق على الجوار وينهبها، لم يكن بادياً للعيان، فالشعاب والوديان العميقة كانت تفصل بينهما، لذلك أرسل «الكونت» ستة كشافة على ظهور الخيل لتحري مواقع العدو، على أن يعودوا على جناح السرعة إذا لاقوا العدو، ولا يصطدموا معه مهما حاول، وبعد عدد من التلال وجد الكشافة الجيش العربي، في خمس كتائب حراسة بينها يجلس المشاة للراحة على الحشيش، فعادوا فوراً بالخبر.

فأمر «الكونت» جيشه بالتحرك نحو العدو، ولما وصل هو وابن أخيه وجد الكتائب الخمسة قد اندمجت في اثنتين، في كل منها حوالي تسعمئة فارس بحربة طويلة، وقد تأهبت هذه القوات لتعود إلى الحدود، والمشاة يعتقلون الكثير من الأسرى وبغالهم محمّلة بالغنائم، وعلى مسافة من هذا الجيش كان «أبو عبد الله الشيكو»، ولا تبدو ملامحه بل يبدو من خلال حصانه

الأبيض الرائع والمزركش بأنفس برذعة وسرج، محاطاً بعدد كبير من الجنود بأحدث وأقوى سلاح حراسة، بينما «علي العطار» بطبعه الناري يجوب الوادي بصبر نافذ، حاثاً القوات المحمّلة بالغنائم على الحركة.

إزاء هذا المشهد لمعت عينا «الكونت» بالسرور حين رأى هذه الجائزة ـ الملك ـ ضمن مدى قواته رغم قلّتها، وقال لابن أخيه: «بحق «سانتيغو» لو انتظرنا قدوم التعزيزات لما تمكنّا من لحاق ملك العرب وجيشه» ثم اتجه نحو الوادي.

وهكذا راح «الكونت» يحمّس رجاله لهذا اللقاء مؤكداً لهم أن كثرة العدو لا تهم، لأن الله إذا أراد النصر لفئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذنه تعالى، وهو متأكد أنهم بيومهم هذا لن ينالوا النصر فقط، بل الشهرة أيضاً، فأصدر أوامره إلى فرسانه بأن لا يعمدوا إلى ضرب فرسان العدو برماحهم الطويلة وتركها فيهم، بل أن يبقوها في أيديهم لضرب أكبر عدد ممكن من فرسان العدو، وأن لا يصيحوا صيحات القتال لأن خصمهم أكثر منهم فالصياح ليس بصالحهم، وطلب من عمه «لوب دي مندوزا» و«دييغو كابريرا» سيد «منيسا» أن يدخلوا مشاة مع كتيبة المشاة لمساعدته في المعركة، كما عيّن سيد «ڤاينا» و«دايغو دي كلافيغو» فارس حرسه، على أن يبقى في المؤخرة كي لا يسمح لأي جندي بالتراجع أو للتوقف لنهب الموتى.

تلك كانت أوامر هذا الفارس الجريء لجيشه الصغير المزود بكل الإمكانات القتالية والإدارة والقيادة الحسنة، مع أنه بحاجة إلى قوات أكثر للهجوم على جيش أكبر منه بهذا الشكل، لكن «الكونت» بعد أن أعطى أوامره، وتأكد من كل الإجراءات التي اتخذها، رمى بحربته جانباً، ليشهر سيفه ويأمر صاحب اللواء باللحاق به صوب العدو.

الفصل السادس عشر

معركة «لوسيانا»:

رصد الملك العربي قدوم القوات الاسبانية من بعيد، رغم وجود بعض الضباب الذي يفصل بينه وبينهم، مما حجب عنه إمكانية تقدير عددهم، كما أن عمه ـ والد زوجته ـ الشيخ «علي العطار» الذي كان خبيراً بكل أعلام الجيوش الصليبية وشاراتهم الحدودية، لاحظ العلم القديم الذي لم يسبق استعماله، فاختلط عليه الأمر، لذلك قال بعد تردد:

«يا صاحب «السمو» لقد رأيت هذا العلم ولكنني لا أعرفه، يبدو أن عليه رسمة كلب، وهذه من شارات «بيزا» و«عبيدة»، فإذا كان الأمر كذلك، فكل الأندلس قد هبّت ضدك الآن، لأنه من المحال أن يجرؤ قائد حامية واحدة على مهاجمتك، ولذلك أنصحك بالانسحاب».

ولأن «الكونت» عندما هاجم قوات العرب صار إلى منخفض من الأرض، أمر قواته بسرعة أن تعود مع حامل العلم إلى المرتفع، لكي تظل محتفظة بالتفوّق في الموقع القتالي، فظن العرب هذا انسحاباً، واندفعوا بلا تروٍ نحو النصارى، فعاد هؤلاء كارين عليهم من المواقع العالية وهم يصرخون باسم «سانتيغو» ويكيلون الضربة الأولى للجيش، مما أسقط الكثير من الفرسان العرب أرضاً.

فكان لهذا الارتداد أثره على قوات العرب التي بدأت تنسحب بشكل فوضوي، وتضغط عليها قوات العدو بقوة، فصاح بهم «أبو عبد الله» أن أرجعوا ولا تتراجعوا قبل أن تعرفوا من هو عدوكم على الأقل، فتوقف الفرسان المتراجعون وعادوا ليحموا مؤخرة جنودهم المتراجعة، وهم يشعرون أنهم يقاتلون تحت نظر مليكهم فتشجعوا.

وفي هذه اللحظة وصل سيد «بوريس» مع خمسين فارساً ومئة راجل، وهم يدقّون الأبواق على أنغام حربية إيطالية من خلف أشجار «الزان» التي حجبت قواتهم، فسمعهم «علي العطار»

والتقط النغم قائلاً: «هذه أبواق إيطالية، يبدو أن كل الدنيا هي ضدك يا صاحب الجلالة اليوم».

وقد ردّت قوات «الكونت» على أبواق «السيد» بأنغام حربية أخرى، مما جعل العرب يظنون أنهم قد وقعوا بين جيشين كبيرين، خاصة عندما خرج «ألونزو» من وراء الأشجار ليهاجمهم، فلم ينتظر العرب ليتبينوا عدد المهاجمين الذين كان الضباب يغطي بعضهم، وتراجعوا فوراً بقتال انسحابي، ولم يمنع تراجعهم من أن يصير هروباً سوى وجود ملكهم بينهم.

وهكذا ظلّ الجيش كله يتراجع مسافة حوالي تسعة أميال، والمبارزات تتم بين الفرسان، وقد عُبِدّت هذه المسافة بجثثهم، حتى وصل الجيش أخيراً إلى ساقية «منغونزاليز» التي غطّت جوانبها الجثث، وهي تتدفق بقوة الآن بسبب الأمطار الأخيرة التي نزلت فصارت عميقة والماء يجري فيها بقوة.

وعلى شاطئها صمد الملك مع قوة من فرسانه، بينما عبر متاعه إلى الشاطىء الآخر، ولم يبق حوله في هذا الموقف الصعب إلا المختارون من صفوة حرسه وخاصته، إذ اندفع المشاة بالهروب فور قطعهم الجدول، أما معظم خيالته فقد أطلقوا صهوات خيلهم فارين نحو الحدود، وهم بحالة من الذعر الشديد، وتحلقت القوة الصغيرة الباقية مع مليكهم حوله لحماية تراجعه، يقاتلون الصليبيين يداً بيد دون أن يهنوا أو يطلبوا أي هوادة، فتغطت الأرض بالقتلى ومن في النزع الأخير من الجانبين، قبل أن يتراجع الملك إلى الشاطىء الآخر من النهر، ويبتعد عن مسرح العمليات، وبينما كان ينظر إلى هذا العصابة الموالية له وهي تتلاشى، أو يعبر بعضها النهر، وفي أعقابهم العدو يمزقهم ليغرقوا في الماء، نزل من حصانه المزركش الأبيض الذي صار هدف هجوم العدو، واختلط بالقوات التي عبرت النهر.

لكن جندياً صليبياً من «لوسيانا» اسمه «مارتن هورتيدو» استطاع أن يميزه فهاجمه بالحربة، فدافع الملك عن نفسه بالسيف والترس، فجاء جندي آخر وثالث، جعلوا المقاومة مستحيلة عليه، فتراجع وطلب منهم التوقف والرجوع عنه مقابل مبلغ كبير من المال، لكن أحدهم اندفع لإمساكه، فتلقاه الملك بالسيف فقتله، وفي هذه اللحظة وصل «دون دييغو فردناند دي كورتوبة» ففسح الرجال لحصانه كي يجتازهم قائلين سيدي: نحن نأسر عربياً يبدو أنه ذو منصب عالٍ، وهو يعرض علينا فديته، فردّ «أبو عبد الله» قائلاً: «لمَ تأسروني بعد أيها العبيد، وأنا أستسلم لهذا الفارس!!؟!»

فقبِلَه «دون دييغو» بشهامة الفرسان، ووضعه بعهدة أحد قواده، والملك يُعرِّف بنفسه على أنه «ابن الأيسر» نبيل من نبلاء القصر الملكي؟! وهكذا سيق إلى قلعة «لوسيانا» بحراسة خمسة جنود، وعاد «دون دييغو» بسرعة ليلحق «كونت دي كابرا» الذي يطارد فلول العدو، فلحقه

على جدول اسمه «ريانكلا» ليستمرا معاً بالضغط على القوات المنسحبة بما تبقى لهما من النهار، لأن هذا الجيش لو أفاق من جزعه ولمَّ صفوفه في ساحة المعركة ثانية كان يمكنه الارتداد المفاجىء على القوات التي تلاحقه، وهو يفوقهاعدداً ويمكنه أن يبددها، ولكي يتجنب «الكونت» هذا الأمر كان يبقي دائماً على قواته متكتلة، وأمامها قوة من مئة فارس برماحها الطوال، لذلك ظلّ العرب يتراجعون فوضوياً أمام رأس الحربة هذه، ففي كل مرة كان بعضهم يرجع لمهاجمتها يعود ليتراجع أمام هذه الكتلة المتراصة من الفرسان.

وهكذا وصل تراجع الجيش العربي إلى السهل الذي يسقيه نهر «شنيل»، الذي يفتح الطريق إلى جبال «ألغارنغو» إلى مدينة «الأقصى»، فكل البلاد قد أفاقت على نيران الإنذارات الجبلية ـ والسيارات ـ فانطلق كل شخص إلى سلاحه المعلق على حائط بيته، في كل قرية ودسكرة لنهب الجيش المتراجع والإيقاع به، لكن «علي العطار» الذي حاول أن يبقي على تراص قوات الجيش الرئيسية مع بعضها بعضاً، كان كالذئب الجريح في الأرض التي اعتاد على تركها بلقعاً بعد سلبها.

أما «الأنتكويرا» المدينة التي لازال فيها الكثير من الفرسان الذين ذاقوا هزيمة «ملقا»، فقد وصلتهم إشارات الغزو، وهم لايزالون يتحدثون عن هزيمتهم وما لحق بهم من عار نتيجتها، وهم يضرعون إلى الله أن يمكّنهم من الثأر، لذلك وبمجرد سماعهم بوجود العرب تسلحوا وركبوا خيولهم لأجل لقائهم، بقيادة «دون ألونزو دي غويلار» وهم لا يزيدون عن أربعين فارساً، لكنهم كلهم من خيرة الفرسان، فلاقوا عدوهم على شاطىء «شنيل» في وادي «قرطبة»، وكان النهر فائضاً بسبب الأمطار الأخيرة، وعميقاً ومنحدراً بقوة، وعلى ضفته تجمّع الجيش العربي بشكل مشتت، على أمل عبوره من أماكنه الضحلة بحماية فرسان «علي العطار».

وبمجرد أن لمحت جماعة «دي غويلار» هؤلاء تطاير الشرر من عيونهم، فتصايحوا بذكرى جبال «ملقا» وهم يندفعون نحو المعركة، بهجوم شبه انتحاري، قاومه خصومهم بكل شدة، وهكذا اختلط المتقاتلون سيفاً بسيف، ويداً بيد، بقتال دموي، مرة على ضفة النهر، وأحياناً في الماء، فسقط الكثير على ضفاف النهر وآخرون قذفوا بأنفسهم في الماء ليموتوا غرقاً بسبب ثقل دروعهم، بينما ظلّ الفرسان المتعالقون ببعضهم يتقاتلون في الماء بعد أن سقطوا عن خيولهم، لتتدحرج الخوذ والعمائم في تيارات النهر، ورغم أنه كان بين العرب فرسان متميزون وكانوا أكثر عدداً من النصارى، إلاّ أنهم كانوا قد نالت منهم الهزيمة، بينما حماس الصليبيين لازال في أوجه.

و«علي العطار» الذي استجمع كل قواه رغم شدة خصومه عليه ورغم سنه، وغضبه من

هذه الهزائم المتتالية لجيشه، وفقده لمليكه، وتلك التراجعات التي وجد نفسه مجبراً عليها في بلاد اعتاد أن يخضعها دوماً، شعر بالمهانة بمقاتلة حفنة من الفرسان له، مما حرّك فيه الروح الجهادية للعرب القدامى إلى درجة الغضبة «المضرية».

أما «دي غويلار» الذي وصفه «آغابيدا» بأنه كان بكل ضربة سيف يضرب بها الأعداء، يؤكد نفسه كفارس صالح، وتقي يرضي الرب ويقدم له الخدمات، ولما رآه «علي العطار» يفعل هذا، نهز مهره باتجاهه على شاطىء النهر لينقضّ عليه بحربته الطويلة، فبرم الفارس نفسه لتصيب الحربة دروع ظهره، فلم تصب منه مقتلاً كباقي ضربات «علي العطار» التي لم تكن تخيب، وبمجرد إصابته تمزق قسم من درعه دون أن يجرح، فسُحبت السيوف وراح «دي غويلار» يتلقى ضربات سيف «العطار» بدرقته، وهكذا تقاتلا على حدود النهر، وهما يتدافعان نحوه، وكل منهما يتجنب الوقوع فيه، ولكن كبر سن «العطار» مكّن «دي غويلار» من أن يجرحه مراراً، ولما ظهر نزف جراحه عرض عليه الاستسلام، فأجابه وهو على وشك انهيار قواه: أبداً أيها الكلب الصليبي؟! وحاول أن ينهض فضربه بالسيف على رأسه ضربة خرقت عمته إلى دماغه فسقط لفوره شهيداً، ليتدحرج جسده إلى النهر، ويسحبه التيار دون أن يمكن العثور عليه، وهكذا سقط «علي العطار» مروع أندلس النصارى، عدو الصليبية الأول طوال حياته، في نفس المكان الذي كان يسمى حديقته وبنفس الطريقة التي كان يُسقط بها الأبطال.

وكان لسقوط «العطار» أثره في إضرام نار المعركة، فاختلط الفرسان بالمشاة في صراع مميت على شاطىء «شنيل» وداخل تياراته، لتبتلع أمواج النهر الكثير منهم، وظلّت جماعة «دي غويلار» تدافعهم حتى اجتازوا الحدود، وهم يشعرون بأن كل ضربة يكيلونها للعرب كانت تخفف من الذل الذي لحقهم بجبال «ملقا».

لقد خسر المسلمون في هذه الكارثة حوالي خمسة آلاف بين قتيل وأسير، بعد أن أجهز النصارى على الجرحى، وكثير من هؤلاء من خيرة الأسر العريقة في «غرناطة»، وسميت هذه الوقيعة بمعركة «لوسيانا»(*)، كما سميت بمعركة الملك العربي، بسبب كونها المعركة الوحيدة التي خاضها «أبو عبد الله» - ببدول - مع النصارى، وكانت سبب أسره مع اثنين وعشرين علماً من أعلامه، التي نقلت إلى «ڤاينا» وعلّقت في «كنيستها»، حيث قال بعض المؤرخين أنها لازالت هناك إلى اليوم(**)، وهي في كل سنة، وفي عيد «سان جورج»(***) يتم إخراجها

(*) معركة لشانة.

(**) القرن التاسع عشر.

(***) الخضر الذي تعرفه الأساطير الصوفية العربية أيضاً وتدعيه.

ليحملها السكان بالتتابع، وهم يقدمون شكرهم للنصر الذي قدمه هذا القديس لأجدادهم.

لقد كان نصر الكونت «دي كابرا» مؤزراً عندما عاد من مطاردته لفلول جيش العرب، ليجد ملكهم أسيراً بين يديه، وعندما أحضروه له وهو يكاد يطفح همّاً وأسى، وقف بين باقة فرسانه في قصره الملكي، وقال: «لكل شيء نهاية، وإن نفس الظروف التي تعطينا النصر اليوم كانت وراء هزائمنا بالأمس». وبذلك ذهب يخفف عن هذا الملك التعس، طالما أن لا شيء ثابت في هذا الوجود، وحتى الألم والحزن لا يستمران.

وهكذا عزاه بهذه الكلمات الرقيقة، وهو يقدم له الإحترام اللائق بالملوك، ليقوده سجيناً إلى معقله القوي في حصنه في «ڤاينا».

الفصل السابع عشر

حزن العرب على ما حصل لهم في معركة «لوسيانا»:

في «الأقصى» كان مراقبوا الأبراج يحدقون يومياً في الوادي الذي يمرّ فيه «شنيل» الذي يعبر وديان جبال «ألغيرنغو» على أمل أن يعود جيش الملك محملاً بالغنائم، على رأس قواته التي كانت قد خرجت معه كاللجّة اللمّاعة، ويحمل علم مثالهم الحربي «علي العطار» يحمله مع فرسان «الأقصى» الذاهبين للقتال بكل بأس وقوة.

لكنه وفي مساء السابع عشر من نيسان/أبريل، رصدوا فارساً وحيداً يطرد حصانه على شاطىء نهر «شنيل»، ومن لمع سلاحه حين اقترب ظهر أنه فارس عربي محارب، ولما اقترب أكثر بانت فخامة زينة سلاحه وزركشة سرج حصانه، فظهر أنه قائد من قادة الجيش.

ووصل هذا الضابط إلى «الأقصى» متعباً منهكاً، وحصانه العربي مغطى بالزبد والغبار والدماء، وعليه علائم الإعياء وهو ينزف من جروح متعددة، وما أن أوصل هذا الحصان الأصيل صاحبه إلى أبواب المدينة، حتى سقط مسلّماً الروح من تحته، فنزل الجنود لفتح الباب وتحلّقوا حول الفارس الذي كان ينظر إلى حصانه المحتضر بأسى، فعرفوه فوراً إنه: سيدي «غالب» ابن أخ قاضي قضاة «البائسين»(*) في «غرناطة»، وبمجرد أن رأى سكان الأقصى هذا النبيل على هذه الحال، ووحده دون حراسة أو مرافقة، أدركوا أن في الأمر خبراً يجب أن تبلغ فيه الحلوق التراقي.

قال أحدهم: «كم تبعد أيها الفارس عن جيش الملك؟!» فقال له وهو يشير إلى أرض النصارى: «هناك هم يرقدون كما لو وقعت عليهم السماء؟! لقد ضاع الجميع، ومات الجميع؟!» وهكذا بدأت تتعالى صيحات الندب وعويل النساء، لأن زهرة شباب الأقصى

(*) وتلفظ أيضاً «البيازين»، أنظر خريطة غرناطة، إسم الفارس بالكامل سيدي غالب الغرناطي.

كانت مع الجيش، لكن رجلاً كهلاً كان قد خبِر في شبابه كل حروب الحدود، وقف متكأً على رمحه ليقول: «هناك «علي العطار» إذا كان لازال حياً لا يمكن أن يضيع جيشه»، فأجابه سيدي «غالب»: «لقد رأيت رأسه يطيح مع جسده في النهر».

وعندما سمع المحارب القديم هذا، وهو من محاربي ذاك البطل، قال: «ذروا التراب على رؤوسكن إذاً، فلا بعده مقام».

ودون أن يعطي سيدي «غالب» أي فرصة راحة لنفسه، ركب حصاناً آخراً، وأسرع نحو «غرناطة» لإنذارها بما حصل، وفي طريقه كان كمن يزرع الحزن أينما حلّ، لأن خيرة شباب السهوب كانت مع الملك في حربه هذه.

وهو حين دخل «غرناطة» ليعلن فيها ضياع الملك وجيشه، ساد الذعر المدينة، وراح كل واحد يفكر بنصيبه الذي أصابه من هذه الفاجعة، وعن المسؤول عنها، فهذا يسأل عن أبيه، وذاك عن أخيه، وتلك عن حبيبها أو ابنها، ولا ينالون جواباً إلا إما قتيلاً أو جريحاً أجهز عليه، فقد أجاب سيدي «غالب» أحدهم بأنه رأى أباه وقد دخلت فيه حربة وهو يدافع عن الملك، وأجاب آخر، بأن أخاه وقع جريحاً تحت حوافر حصان ولم يقدر على عونه لأن خيل العدو كانت فوقه، ولأخرى قال: إن ابنها حارب بجانبه على شاطىء «شنيل»، وحين أحاط العدو بهم، دفعوه ليغرق بالنهر وهو يتشهّد حين غرقه.

هكذا أشاعت أخبار سيدي غالب الحزن في «غرناطة»، ومنها ذهب إلى «الحمراء» ليدخلها من باب «العدل». وهناك كانت «الطاهرة» والدة «أبي عبد الله» وزوجته الملكة «مريم» ترقبان يومياً من برج التجار إمكان قدوم جيش الملك عائداً منتصراً، فمن يقدر على وصف حزنهما حين قابلتا سيدي «غالب»؟! أما «الطاهرة» فلم تنبس بنت شفة، لكنها جلست فوراً على مدخل القاعة، لتغلبها دمعة تنفجر من عينيها، رافعة رأسها إلى السماء لتقول: تلك إرادة الله، وبهذه الكلمات القلائل ضبطت حزنها. لكن الملكة «مريم» سقطت أرضاً، وأطلقت كل صيحات الألم من مشاعرها، تندب والدها وزوجها، مما جعل «الطاهرة» وهي تحاول كبح جماح مشاعرها تنبهها قائلة لها: «هوّني عليك يا بنية، وتذكري أن أولاد الأمراء والملوك يجب أن يتحلّوا بالصبر والنخوة، ولا يتصرفوا تصرّف الرعاع والعامة في الفواجع». لكن مولاتي «مريم» لم تكن قادرة إلا على كبح كلمات العويل، لا على كبح شهقاتها المتقطعة تقطع أنفاسها وكبدها، وهكذا انتهت بأن أغلقت على نفسها باب مقصورتها، وهي جالسة «بروشانها» تحدّق بسهول «الفيغا» طول النهار، وكل شيء في مقصورتها يذكرها بالأحبة ويثير أشجانها، أما نهر «شنيل» الذي يجري متألقاً بين الحقول والبساتين بكل جماله وترقرقه، فهو النهر نفسه

الذي ابتلع جثة والدها «علي العطار»، وهناك بجانبه الطريق إلى «الأقصى» التي سلكها «أبو عبد الله» بجيشه الملكي المهيب، محاطاً بفرسان «غرناطة»، لهذا كله كان يذوّب قلبها حزناً، ويتقطّع فؤادها بشهقات البكاء، وهي كمن يقول: «أخيراً يا أبتاه ها هو النهر يمرّ أمامي خاشعاً لما يحتويه من رفاتك الطاهرة، ولكن من سيجمعها من بلاد الشرك، لتدفن في مرقد المؤمنين؟!

وأنت يا «أبا عبد الله» يا حبة نور عيني، وفرحة قلبي، وروح الروح، أسفي على اليوم والساعة التي رأيتك تخرج فيها من هذه الحصون، فالطريق الذي سلكته هل سيسر يوماً بقدومك عليه مرة أخرى، والجبال التي قطعتها ها هي كالسحاب ترقد من بعيد وكل ما وراءها لا شيء سوى الظلام.

وحين كانت تحاول الملكة الأم أن تعزيها، كانتا بعد برهة تغرقان معاً برثاء الأحبة، فتتساءلان؟! كيف خبا مجد غرناطة الجميلة، إذ لم يعد يسمع فيها دق أي عود، ولا ضرب أي زمر في الطريق، ولا هي مزدحمة كعادتها باولائك الشباب النبلاء الذين كانوا يتبارون بكل أدوات الموسيقى وأدوات القتال، فهذه الزهور المتفتحة تسفيها الرياح جثثاً في بلاد الغرباء، لذلك لم يعد يسمع صوت الناي في الليالي المقمرة في الطرقات، ولا طرقات الصنجات من وراء الهضاب التي كانت تشيع روح الحركة والمغامرة في الشباب، وهم يرقصون رقصة «الزمبرا» تحت عرائش العنب، وحتى في الحمراء صارت الأشجار ذات الندى الفوّاح بالكاد تنفث رائحة أزهارها العبقة، التي كانت تتغلغل في الغرف الحريرية وقاعات القصر، مع صوت النوافير المنعش وخرخرة الماء، وأخيراً لقد خبا بهاء الملك في تلك القاعات، لقد انطفأ نور الحمراء إلى الأبد.

وكما يذكر المؤرخون العرب: عمّ الحزن كل غرناطة، حيث لم يعد يسمع فيها إلا العويل من قصورها إلى أكواخها، فالكل يرثي هذا الملك الشاب الذي بُتر في زهرة تألّقه، وكأن تنبؤ الفلكيين قد بدأ يصبح حقيقة، فسقوط المملكة سيتبع سقوط مليكها، لذلك أجمع الكل على أن إبقائه حياً، بل نجاته هي الأمل الوحيد في استعادة مجد الأندلس الضائع، والإبقاء على المملكة.

الفصل الثامن عشر

كيف استفاد مولاي «أبو الحسن» من سوء حظ ابنه:

لقد كفَّر ظن موت أبا عبد الله عن الكثير من أخطائه، فظن الناس أنه قد قتل في ساحة الشرف زاد من حزنهم عليه، وإعجابهم به بذات الوقت، وراحوا يعملون على تخليد ذكراه، لكن الأمر تغيّر بمجرّد أن عرفوا أنه قد استسلم للنصارى الذين أسروه، فسقط من عينهم كقائد مخلص، واعتبروه غير جدير بالموت في ساحة الشرف، هذا الموت الذي يفضّله الأبطال والقادة الحقيقيون على ذلّ الاستسلام للعدو.

وكعادة «الفقهاء» في مثل هذه الأمور كانوا يشيعون أحكامهم هذه بين الناس، لكن بطريقة تفهمها العامة التي تؤمن بالتطير والفلك والأبراج، لذلك قالوا لهم بأن ينتبهوا إلى التنبؤ الذي قيل يوم مولد أبي عبد الله وأنه قد تمّ، فالبلاد قد عانت من الذل بسبب هزيمته وأسره، لكن الشر قد زال، لأن القدر قد تحقق، فالفلك الذي كُسِرَ بيد «ببدول» سيستعيد مجده السابق وقوته وتألّقه بيد مولاي «أبي الحسن».

مثل هذه العبارات كانت تعدّ حكمة تقنع العامة في ذاك الوقت، لذلك عاد السرور إلى الناس بأن اللعنة قد زالت عن رقابهم، فأعلنوا أن أحداً غير مولاي «أبي الحسن» بقادر على حماية هذه المملكة في هذه الأيام العصيبة، ولذلك كلما طالت مدة أسر «ببدول» زادت شعبية والده، فراحت المدن واحدة بعد الأخرى تعيد ولائها إليه، وهكذا تبعاً لقانون أن القوة تخلق قوة، والحظ يخلق حظاً، تمكن «مولاي أبو الحسن» من العودة إلى «غرناطة» ليحكم من قصر «الحمراء» فيها، وبينما هو يتحرك نحو «الحمراء» جمعت السلطانة «الطاهرة» أموالها وخدمها والمخلصين حولها وأسرتها، وذهبت مع عدد قليل من النبلاء إلى حصن «البائسين» في المدينة، حيث لازال سكان هذا القسم من «غرناطة» يحبون «أبا عبد الله»، فحصنت نفسها بهم، لتعلن

استمرار ملك ابنها بقيادة صنعتها هناك، مستغلة عدم رسوخ شعبية «مولاي أبي الحسن» بعد، وبأنه لن يجرؤ على تذكير الناس ثانية بعتوه وبطشه لو دمر هذا القسم من المدينة، فقسوته السابقة لم تكن مبررة في كثير من مواقفه ـ كقتله لأولاده من أجل فاطمة الاسبانية السببية ـ ونبلاء البلاد لازالوا يذكرون هذه القسوة، ويحترمون «أيقصا» الطاهرة على تحمّلها كل عناء الحياة معه، ولايزالون يتعاطفون مع ابنها الأسير، فلن يسمحوا له أن يفجع الناس بأمه، وهكذا ولهذا صار يوجد بلاطي ملك في «غرناطة»، يتحصن الملك القديم بأحدهما أي الحمراء، من شعبه ومن الصليبيين على سواء، بينما الطاهرة لازالت ترفع علم ابنها على قلعة «القصبة» في البيازين(*)، متحصنة أيضاً بهذه القلعة من زوجها ومن الأعداء على حد سواء.

(*) تلفظ البائسين أيضاً، لأنها المنطقة الفقيرة المهملة من غرناطة.

الفصل التاسع عشر

«أبو عبد الله» في الأسر:

أما سيىء الطالع «أبو عبد الله» فقد ظلّ في سجنه تحت حراسة مشددة في قلعة «ڤاينا»، ومن البرج الذي سجن فيه كان بإمكانه أن يرى المدينة تحته مليئة بالرجال المسلحين، والذين يتبادلون حراسته ليل نهار، بينما الجبال المحيطة بالمدينة مليئة بأبراج المراقبة التي تشرف على الطريق الوحيد الذي يقود إلى «غرناطة»، لدرجة أن مجرّد رؤية أي عمامة على هذا الطريق كافٍ لأن تثير كل الحدود، وتطلق أجراس الإنذار بكل البلاد، فلا أمل للدخول إلى مثل هذا الحصن، كما لا أمل بالفرار منه، وكان قلقه يزيد كلما فكّر بسوء العواقب التي من الممكن أنها قد نتجت عن أسره، والشرور التي يمكن أن يكون قد أوقعها على أسرته بسبب هذا الأسر.

ورغم شدة الكونت «دي كابرا» بتشديد الحراسة عليه، ظلّ يعامله بتميز، فأعطاه أفضل شقة في القصر، وفكّر بكل الطرق لتجزية وقته، وإدخال السرور عليه وهو في الأسر، وبعد مرور عدة أيام وصلت رسل «قشتالة»، «ففردناند» قد طار فرحاً عندما علم بأسر ملك العرب، وراح يفكر بالطرق التي يمكنه أن يبتزهم بها من خلال مقايضته، استغلالاً لهذه الفرصة، ولكن «إيزابيلا» بروحها العملية كانت تتطلّع إلى أمر آخر، فجعلت رسائلهما إليه مليئة بالود والتعاطف، لتحافظ على السلوك النبيل بين النبلاء الذي كان عادة متبعة بذلك الوقت بين مختلف طبقتهم، ولو شكلياً.

وهكذا استطاعا أن يفرحاه، فردّ على رسلهما بقوله: «أن أبلغوا أصحاب الجلالة الملك والملكة، أنني لا أستطيع أن أكون تعيساً وأنا عند ملكين بهذة القدرة والإمارة العالية، خاصة لما يتمتعان به من خير وغبطة يسبغها الله على الملوك الذين يحبهم». كما قال لهم أن يخبروهما أيضاً: «لقد فكّرت منذ زمن طويل بالخضوع لهما شخصياً، وأن أقدم لهم مملكة «غرناطة»

لتكون بين يديهما، تماماً كما قدّم أسلافي للملك «جون الثاني» والد الملكة «إيزابيلا» بلادهم، لكن حزني وهمي في هذا الأسر هو أنه يبدو أنني أفعل هذا غصباً عني، لما يمكن أنني فاعله بإرادتي».

وفي ذات الوقت قرّر «مولاي أبو الحسن» وضع يده على ابنه، متلهفاً للحظة كهذه يحدّ من سلطانه فيها، ولهذا أرسل إلى الكاثوليك سفارة لدفع فدية عنه إلى حد أنه يرغب بشرائه، عارضاً بالإضافة إلى عروض كثيرة، إطلاق الكونت «أوف سيفيونتي» مع تسعة من الأسرى المهمين، مع الدخول بحلف فيدرالي مع الملكين، دون أن يصر هذا الأب الرؤوم عما إذا كان سيسلمانه ولده حياً أو ميتاً، فالمهم أن يصله ويقع تحت يديه.

ولم تكن إنسانية «إيزابيلا» سبب رفضها لهذا الطلب اللاإنساني، بل إيقاع الشق بمملكة غرناطة هو الذي يستدعي حماية هذا الملك الشاب من عدوّه الداخلي، فردّت على هذا الملك العجوز ردّاً يفوح بالإزدراء والتحقير، مع رسول نقل كل روح كلمات هذا الردّ. مؤكداً أن ملوك قشتالة لن يرضوا بأي سلام مع «مولاي أبي الحسن» إلا إذا استسلم لهم، وسلّم سلاحه بكل ذلّ ومهانة، كما أرسلت إلى أمّ «أبي عبد الله» السلطانة «أيقصا» رسلاً بدورها تقترح عليها أن يكون «ببدول» ملكاً ويحتفظ بتاجه شرط أن يكون «خولاً» لملوك «قشتالة» يدفع لهم الجزية السنوية، ويطلق سبعين أسيراً كل سنة لمدة خمس سنوات، كما عليه أن يدفع مبلغاً كبيراً الآن كفدية له، ويطلق أربعمئة صليبي من سجونه فوراً من الذين يختارهم الملك، وعليه من الآن فصاعداً أن يكون على استعداد دائم لإرسال العسكر للملكين حسب الحاجة، وأن يحضر إلى القصر ومجالس النبلاء والمتميزين في القصر حين يعلن انعقاد هذه المجالس، كما عليه للتأكد من حسن تطبيقه لهذه الشروط أن يسلم ابنه الوحيد مع اثني عشر ولداً من أولاد نبلائه كرهائن.

أما الملك «فردناند» فلم يعلم بهذا الاقتراح، وأراد أن يناقش الملكة فيه فور تبلغه إياه، خوفاً من أي إجراء لا يمكنه أن يحقق أقصى ربح ممكن من هذه الظروف التي يتسم الحظ فيها للنصارى الآن، ودون أن يردّ على الرسل الذين لديه بين الملوك، أرسل إلى «فاينا» حيث يحتجز «ببدول» بحوزة الكونت «دي كابرا» يأمر هذا الفارس الشجاع بإحضار أسيره الملكي إلى «قرطبة».

وهكذا كان، لكن حين وصل الكونت «دي كابرا» إلى قرطبة مع أسيره الملكي، عدل «فردناند» عن مقابلته.

فهو لايزال محتاراً ماذا يفعل به، وأي طريق يسلكه بهذا الأمر، فهل يعيده إلى السجن ولا

يطلقه إلا بفدية كبيرة، أم يعامله بدبلوماسية ويستفيد منه إلى أبعد حدّ ممكن بتوقيع المعاهدات معه؟! وكل من هذين القرارين يحتاج إلى استقبال مختلف، فما لم تحل هذه العقدة، ويتخذ القرار، فلا معنى للمقابلة، لذلك عهد به إلى: «مارتين دي ألاركون» سيد قلعة «بورسونا» القديمة مع أوامر بتشديد الحراسة عليه، لكن معاملته بذات الوقت بكل احترام يليق بالأمراء، وقد نفّذت هذه الأوامر حرفياً، فعدا عن تمتع هذا الملك بحريته، كان يجاب إلى طلباته كما لو كان في قصره بغرناطة.

وأثناء ذلك نفس «فردناند» عن ضغط هذه اللحظات عليه، بالهجوم على مملكة غرناطة، قبل وضع أي معاهدة مع «ببدول»، الذي لم يكتف بأسره، بل طارد ظلّه إلى قلب مملكته، وهو على رأس مجموعة منتقاة من نبلائه، ليظهر قدرته على العرب، فذهب إلى تدمير عدد من القرى والقلاع، موسعاً غزواته حتى أبواب «غرناطة» نفسها، ولم يجرؤ «مولاي أبو الحسن» على مواجهته، رغم أن مدينته كانت مليئة بالجنود، لكنه لم يكن يثق بفاعليتهم، كما أنه كان يخشى أن يغادر أبواب «غرناطة» ليعود ويجدها مغلقة في وجهه، وقد سيطر عليها جماعة «البيازين».

ويصف «أنطونيو آغابيدا» كيف أن هذا الملك الشيخ كان يقف على أبراج «الحمراء» مرغياً مزبداً كالنمر الأسير في قفصه، وهو يرى لمع حراب الكتائب المسيحية وهي تلغ في «الڤيغا»، والصليب يظهر من خلف دخان القرى المدمرة، وتابع بأن هذا الملك الكاثوليكي كان يود أن يتابع غزوه لولا نفاذ ذخائره، لذلك اكتفى بما دمّره من أرض العدو، وبإهانة «مولاي أبي الحسن» في عقر داره، وعاد إلى قرطبة، مكللاً بالغار، وجيشه مثقلاً بالغنائم، وقد قرر ماذا عليه أن يصنع بأسيره الملكي؟!

الفصل العشرون

كيف عامل ملوك قشتالة «ببدول»؟!:

قرر الملك «فردناند» أن يعقد مؤتمراً في قرطبة، يحضره عدد من أشهر الفرسان في كل مملكته، لكي يقرروا مصير «أبي عبد الله» التعس.

وبعد انعقاد هذا المؤتمر كان أول من تكلم فية هو «دون ألونزو» الفارس المخلص لتاجه ولإيمانه بشكل متطرف، وقد زاد حماسه وتطرّفه منذ أن نال هزيمته المفجعة في جبال «ملقا»، لذلك كان ضد كل مساومة مع هؤلاء اللامؤمنين العرب، وضد كل حلف معهم، فهدف هذه الحرب كما أكّد هي: ليست إخضاع عرب المغرب الأندلسي، بل طردهم النهائي من البلاد، حتى لا يبقى أي لوثة محمدية في ثوب اسبانيا المتألق بالنصرانية، لذلك يجب أن لا يطلق هذا الملك برأيه.

أما «رودريغو» مركيز «الكاديز» فقد تكلم على العكس من ذلك بضرروة إطلاق «أبي عبد الله» بكل ود، كسياسة حكيمة حتى لو تمّ هذا بدون أي شروط - «فأبو عبد الله» سيصير «ببدولاً» على كل حال - لأن هذا الإطلاق سيضمن استمرار الحرب الأهلية في «غرناطة»، التي يمكن دوماً التدخل فيها لأحد الجانبين المتعاديين، وتدميرهما معاً، وهذا أفضل وأكثر أثراً للمصلحة الاسبانية، لأنه لا يكلف الكثير، مقارنة بتدمير «غرناطة» بالسلاح.

وعزّز رأي المركيز «أوف كاديز» هذا موافقة كاردينال اسبانيا «دون بيدرو غونزاليس دي مندوزا»(*) عليه، إضافة إلى هذا أضاف هذا الكاردينال الصالح: سيكون من الحكمة تزويد هذا العربي بالمال والرجال وكل ما يحتاجه لإضرام نار الحرب الأهلية في «غرناطة»، وبذلك نؤدي

(*) مستشار الملكة وخليلها.

أجل خدمة للرب، طالما أنه قد قال لنا: «أن المملكة المنقسمة على نفسها لا يمكنها البقاء» كما في الإنجيل.

وكان «فردناند» متأنياً في اتخاذ قرار من خلال هذه الآراء، فكل الاهتمامات الدينية إذا هي لم تصب في مصلحته لا قيمة لها، رغم أنه كان يدّعي كما يظن «آغابيدا» وأمثاله من آباء الكنيسة، أنه مجرد أداة بيد «الرب» من أدوات هذه الحرب المقدسة الصليبية، لذلك حين ينظر إلى مصلحته ينظر أيضاً إلى مصلحة الإيمان، ولم يعفه من تردّده إلا قرار الملكة «إيزابيلا» بقولها لهؤلاء الأمراء في هذا المؤتمر: إن رفع الإيمان الصحيح هو هدفنا، أما تدمير اللامؤمنين العرب فغرض آخر، وطالما أن هذا الملك العربي قد وضع نفسه خولاً لنا كما أجداده لأجدادنا، لماذا لا نحصل على نفس هذا الامتياز، لذلك علينا أن نحرر هذا الأسير الملكي بشرط أن يصبح عبداً لتاجنا، وبهذه الطريقة يمكننا إنقاذ الكثير من الصليبيين من الذين يرسفون بأغلال العرب.

وهذا ما تبناه الملك «فردناند»، لكنه أضاف عليه مزيداً من الشروط القاسية مثل زيادة الجزية، وضرورة الخدمة العسكرية للعرب عنده، وتأمين طرق آمنة لتحرك القوات المسيحية في المناطق التي تقع تحت نفوذ «بيدول»، فما كان من هذا الأخير إلا أن خضع فوراً لكل هذه الشروط، وأقسم على كتابه المقدّس بأن ينفذها حرفياً، لذلك وضعت هدنة معه لمدة سنتين، خلالها يزوّده الملوك المسيحيون بكل ما يعيد تاجه إليه، ويساعدونه باستعادة كل الأماكن والمكانة التي فقدها خلال أسره.

وعندما تمّ التأكد من خضوع «بيدول الشيكو» لكل هذه الشروط وهو في قصر قلعة «برسونا»، بدأت التجهيزات لاستقباله في قرطبة بشكل لائق، فأحضر له مهر أصيل رائع، مزخرف بسرج غني بزخارفه ومطارفه، كما جهز هو والخمسون خيالاً عربياً من الذين جاؤوا لطلب فكاكه بكل عدة الاستعراض، بشكل يبدو فيه ملائماً لأبهة ملك من ملوك «غرناطة»، وضيف مميز من ضيوف ملوك النصارى، كما أعطي مالاً كافياً لينفقه خلال إقامته بالقصر القشتالي وأثناء عودته إلى مملكته، وتمّ إخطار كل النبلاء والقادة بضرورة الخروج لاستقباله حين يصل إلى القصر القشتالي.

أما المسؤولون عن التشريفات فقد وقعوا بحيرة، لأن هذا الملك قد جاء ليقدم الجزية كخول من خولات المملكة، فهل عليه أن يركع ليقبّل يد الملك والملكة، وتمّ حسم هذا الأمر من قبل الفرسان القدامى، كما تقضي التقاليد التي يجب أن تحافظ على كرامة العرش كما أكد «أنطونيو آغابيدا»، لذلك تمّ إخطار الملك من قبل هيئة التشريفات، أنه حين يمثل هذا الملك المغربي بين يديه، يمكنه أن يعطيه يده الملكية لكي يقبّلها دلالة على طاعته وخضوعه.

لكن ردّ الملك «فردناند» بقوله: «حتماً سأفعل هذا لو كان قادماً من بلاده ومملكته، ولكنه كأسير عندي فلن أفعل هذا!! فأعجب الجميع برده الفروسي هذا، رغم أن بعضهم اعتبره بينه وبين نفسه كرماً لا يليق بهذا اللامؤمن، ومن رأي هؤلاء كان اليسوعي «آغابيدا» الموقر والمتعاضد مع كل رأي ضد الإسلام.

وهكذا دخل الملك العربي إلى «قرطبة» بصحبة خاصته من الفرسان المخلصين له من هذه الكوكبة الصغيرة منهم، بمرافقته تشبه الإحاطة بكل نبلاء وفرسان القصر القشتالي وجنودهم، وهم يتجهون به بكل احترام إلى القصر الملكي، ولما اقترب من «فردناند» ركع على ركبته وهو يحاول تقبيل يده، كخادم من رعيته منَّ عليه بالحرية، لكن «فردناند» بعد أن تركه لبرهة يتصرف تصرف الموالي، عاد ليتسارع برفعه من الأرض، ليبدأ المترجم يترجم عبارات الخضوع التي كانت تخرج من فم «ببدول» والوعود التي راح يزفها للملك القشتالي بصوت مرتفع.

كفى؟!! أجاب الملك «فردناند» مقاطعاً الترجمان وهو في زحمة عباراته وحماسه... لا حاجة لهذه المجاملات، فأنا أثق بأنه سوف يتصرف كرجل جيد وكحاكم جيد، وبهذه العبارات تقبّل «فردناند» «ببدول الشيكو» تحت حمايته.

الباب الثاني

الفصل الأول

عودة «ببدول» من الأسر:

في شهر آب/أغسطس وصل نبيل من «بني سراج» بالهدايا النفيسة إلى قصر «قرطبة»، إضافة إلى ابن «أبي عبد الله» وعدد من أبناء النبلاء من «غرناطة» كرهائن للتاج القشتالي، تنفيذاً لشروط الجزية، فحمل الملك العربي ابنه الوحيد وهو على ظهر جواده ليغادر مكان أسره، وبكى والطفل بين يديه قائلاً: «لعن الله اليوم الذي ولدت فيه، فأنا تحت نجم متجول بالنحس، أنا الزغبي اللامحظوظ، فاللعنة قد حلّت عليّ من أبي، وها أناذا أنقلها لإبني»؟!

أما الذين تلقّوا هذا الأمير الصغير من النصارى بكل حنان، فقد خففوا من وقع ألم هذا المشهد عليه، فهو كان بعهدة السيد «مارتين دي ألاركون» الذي كان يعامل والده بكل لطف خلال احتجازه بقصر «بورسونا»، وقد أعطى أوامره بأن الطفل يجب أن يعامل معاملة خاصة بعد رحيل والده، وبكل احترام يليق بالأمراء أخذوه إلى الحصن نفسه الذي كان فيه والده.

ثم توجّه ركب والده إلى الحدود ليدخل مملكته، فشدّ بطفله على صدره ثم لم يعد ينبس ببنت شفة، بعد أن تركه بيد متعهده، لأن الكثير من العيون المسيحية كانت ترقبه بشماتة، وساق جواده دون أن يلتفت، ولكن من حوله كانوا يلاحظون اضطرابه، وهو يسير بجانب الملك «فردناند» الذي كان يرافقه نحو الحدود، وهما يخترقان الحشود التي جاءت لكي تشهد هذا الموقف المؤثر، وعندما ابتعدا قليلاً عن المدينة، عادا للافتراق بعد أن قدّم الملك العربي الولاء والتعظيم لمولاه الجديد القشتالي، والكثير من الشكر على معاملته الطيبة خلال أسره والتي أسرّت قلبه لهذا الملك أيضاً، واتجه «فردناند» بعد هذا إلى «غوادالوب» و«ببدول» إلى «غرناطة»، مرافقاً بحرس الشرف، ونخبة فرسان الأندلس وطليعتهم، كما كانت الأوامر لكل قادة الحدود بتأمين المرافقة له بكل احترام في رحلته، وهكذا كانت ترافقه مرافقة ملكية عبر كل البلاد التي كان قد دخلها غازياً، لتعيده سالماً إلى ملكه.

وعلى الحدود استقبله نبلاء وفرسان بلاطه الذين أرسلتهم أمه سراً لإحضاره إلى العاصمة، فرفع منظرهم من معنوياته بعض الشيء، خاصة حين وطئت أقدام حصانه منطقة نفوذه، وهو يحاط بفرسان الإسلام، وعلمه يرفرف فوق رأسه، فنسي سوء طالعه السابق، وراح يجد الأسباب التي تخفف من تعثّره وفشله، لكن هذه الفرقة التي جاءت لاستقباله كانت صغيرة عدداً، مما جعله يفتقد كتلة فرسانه الضخمة التي كانت تحيط به بكل محبة وغيرة. لقد عاد فعلاً إلى مملكته، لكنها لم تعد كما كانت حين تركها، ولا هي على نفس الإخلاص له، فقصة أنه قد جعل نفسه خولاً للنصارى قد أوصلها والده إلى أبعد مداها، ليحط منه بنظر شعبه، فهو خائن لبلاده، ومرتد عن دينه، وحليف لأعدائه، يخذل كل مسلمي اسبانيا لا الأندلس وحدها، حصن الإسلام في هذه البلاد، لهذا انفض الناس عنه، وكذلك معظم النبلاء والأشراف، ليلتفوا ثانية حول والده في «الحمراء»، أما والدته فكانت تحاول بالكاد أن تدبر أمر بقائها في الجهة المقابلة «للحمراء» بأبراج قلعة «القصبة».

وقد أُخطِر «ببدول» بموجز عن هذه التغيرات من الفرقة التي رافقته من الفرسان، إلى حدّ أنهم حذروه من خطر دخوله العاصمة علناً، ليصل إلى البلاط الصغير الذي لازال يدين ببعض الولاء له في قلب العاصمة، أما الأسد العجوز «مولاي أبو الحسن» فهو محصّن «بالحمراء» وكل أسوار المدينة محمية بقواته، لذلك هزّ «ببدول» رأسه أسفاً على هذا الوضع الذي بدأ بنظره منذ أن كسر رمحه على باب «ألفيرا»، حين كان ينطلق بذاك الجيش العرم الذي دمّره هو بسوء قيادته، وقد أصبح هذا الأمر ونتائجه واضحة لعيانه بشكل حسّي، لذلك قال: «على أي واحد منا أن لا يسخر من الفأل» وعلى الفأل والتفاؤل وضع مخازيه.

لذلك لم يدخل المدينة إلا ليلاً متسلقاً أسوارها كعدو يهدف إلى تدميرها، لا كملك يعود إلى ملكه، إلى أن وصل إلى بوابة «البائسين» الذين لازالوا يريدونه، ودخلها ليمر بسرعة في أزقتها قبل إيقاظ الناس، ليصل إلى مأمنه إلى حصن «القصبة»، وهناك راحت أمه وزوجته تستقبلانه بالقبل لكن بعبرات مخنوقة، باختناق حزن زوجته على والدها «علي العطار»، وأمه على مجد الأندلس الذي أضاعه ابنها الأسير بأيدي النصارى.

لقد تغير كل شيء كان حول «أبي عبد الله» ليعود من أسره «ببدولاً» تحاول أمه القوية رفع معنوياته المنهارة، لذلك قالت: «هذا ليس وقت دموع وعناق، فعلى الملك أن يفكر كيف يحافظ على مجده وتاجه، ولا يهن كالعوام، لقد أحسنت يا ولدي بمغامرة دخولك «غرناطة»، لكن عليك أن تعتمد على نفسك كي تبقى فيها ملكاً أو أسيراً؟!»

أما «مولاي أبو الحسن» فكان في تلك الليلة ينام بأكثر أبراج «الحمراء» تحصيناً، ليتقلب على

جمر الغضا فيه، خاصة بعد أن سمع في هزيع الليل الأول صوتاً خافتاً من «البائسين» على الجهة المقابلة «للحمراء»، والذي لا يفصلهما سوى وادي «داره»، وهذا الصوت ظهر أنه صوت قدوم «ببدول» الذي تسلّل من أسوار المدينة ليتحصن «بقصبتها» كما أخبره حرسه.

ولذلك دعى الملك قادته وحرسه ليقفوا معه على هذا الأمر في هذه اللحظة الحرجة، وهم يخططون طوال الليل لدخول «البائسين» بالسيف عند الصباح.

أثناء ذلك كانت السلطانة «الطاهرة» تتخذ الإجراءات لتقوية مواقع جماعتها، فالبائسين معقل الطبقة المسحوقة الدنيا في المجتمع الغرناطي، وقد وجدوا لأول مرة بحياتهم المال يوزع عليهم مع إعلان عودة «ببدول» في شوارعهم وأزقتهم، أما بعض نبلائهم فذهبوا فوراً إلى «القصبة» ليعدهم «ببدول» بالمراكز العليا حين يعود إلى العرش، وهو يحلف بشرفه موزعاً عليهم الوعود يمنة وشمالاً، وهكذا أثّرت هذه الإجراءات كعادتها دوماً على العوام، فلم يخرج الصباح إلا وكانت كل رعاع البائسين ومعظم سكانها يحملون السلاح.

وكان هذا يوماً رهيباً على «غرناطة» التي احتشدت من كل جانب بالمسلحين، وكل يدق أبواق وطبول الحرب من جهته، فتوقفت كل الأعمال في المدينة، وأغلقت المحال التجارية، وأقفلت أبواب الأزقة، وراحت جماعات الذعر تتجول في الشوارع بأسلحتها المشهرة، وبعضها يهتف «لببدول» وبعضها «لمولاي أبي الحسن»، وحين كانت هذه الجماعات تصطدم ببعضها كانت تشيع الذعر في كل مكان، وتزهق الأرواح بدون رحمة، إلى درجة صارت فيها كل الساحات مسارح قتال، ولأن غالبية الفقراء كانوا بصف «ببدول» بدا وكأن كل المدينة معه، لكنهم كانوا كثرة من غير نظام، أو روح واحدة، أو سلاح فعّال، أما قوات الملك فكانت معززة بالفرسان الأشاوس، الذين ما برحوا حتى طردوا العوام من الساحات، ليهربوا نحو الشوارع الضيقة ويتحصنوا فيها خلف أبوابها أو متاريسها، كما جعلوا من بيوتهم معاقلاً ليقاتلوا بيأس من شبابيك بيوتهم وأسطحة المنازل، فسقط الكثير من النبلاء المحاربين من أبطال غرناطة على يد عوامها، وعصابتهم التي راحت تحرّض على هذه الحرب الأهلية.

ولما كان من الصعب على هذا الوضع أن يستمر طويلاً في قلب المدينة، لأن الناس حين هدأوا لم يلبثوا أن عادوا إلى أعمالهم، وقد تكاثر الجيش والفرسان في الشوارع، فلم تحصد المدينة إلا كل مآسي الحرب دون أي هدف أو انتصار أو مجد لأحد، وهكذا فعلت تدخلات الفقهاء وأهل الحل والعقد في تهدئة الخواطر، وإقناع «ببدول» بأن اعتماده على الرعاع لن يوصله إلى إستعادة عاصمته، حيث سيظل معتمداً على الفوضى وسفك الدماء دوماً للمحافظة

على تاجه، لذلك انتقل إلى «المرية» المدينة الموالية كلياً له وشكّل حكومته هناك، ضد إرادة أمه الصلبة الأبية السلطانة «أيقصا»، التي تعتبر «غرناطة» المكان الوحيد للمُلك والسيطرة، فنظرت بإزدراء قائلة: «إن كل من لا يخضع هذه العاصمة ليس جديراً بأن يسمي نفسه ملكاً؟!»

الفصل الثاني

غارة السياد العرب ومعركة «الأويرا»:

ورغم أن «مولاي أبا الحسن» قد استعاد السيطرة على المدينة، وعلى ولاء فقهائها الذين أدانوا «ببدول» بسوء التدبير والخيانة، بقي لهذا الأخير الكثير من المؤيدين من عامة الناس، فكانوا يتصايحون باسمه عند أي تصرّف من الملك الكبير لا يرضيهم، ولأن هذا الأخير كان خبيراً بتوجيه الرأي العام، قرر أن أي غزوة ناجحة في قلب مملكة الشرك، ستؤمّن له شعبية قوية وتعيد احترام الناس إليه أكثر من أي من أعمال الفقهاء لصالحه.

ولأن الملك «فردناند» كان خارج الأندلس في إحدى حروبه الاسبانية البعيدة مع الكثير من جيشه، كان الوقت ملائماً للإغارة، ولكن من يكون قائداً لمثل هذه الغارات أفضل من «علي العطار» الذي كان اسمه مقترناً فيها، وقد توفي الآن، لذلك فكّر «مولاي أبو الحسن» بفارس آخر ذي شهرة قريبة من شهرة «العطار»، وإن لم تكن بمستواه، هو سيد «ملقا» والبقصير القديم فيها، والناس تحت أمره مستعدون لمثل هذا النوع من الحروب، خاصة وأن النصر الذي حقّقه أهل «ملقا» على فرسان الصليبية في جبالهم القريبة قد ملأهم بروح معنوية عالية، فظنوا أن هزيمة خصومهم بسبب بأسهم الشخصي وقوتهم، وليست بسبب الطبيعة الوعرة في الجبال. وقد رفع من هذه الروح المعنوية أن الكثير منهم كان يلبس دروع ودرق الاسبان الذين أوقعهم سوء طالعهم بتلك المذبحة الجبلية، وكذلك كان الكثير يتبخترون على ظهور جيادهم المطهمة، كدلالة على إمكان إحراز النصر سهلاً على الخصوم، لذلك حدثت هؤلاء الناس أنفسهم بأنهم قد صاروا فرساناً للأندلس، وصاروا يتطلعون إلى اللحظة التي يخضعون بها كل هذه البلاد، فكانت هذه الروح المعنوية تشكل تأييداً لمخططات «مولاي أبي الحسن» بالإغارة على النصارى، فأرسل أوامره إلى «البقصير» بأن يجمع جماعته وخيرة فرسان حدوده، لنقل النار والسيف إلى قلب الأندلس النصرانية، ولهذا أصدر «البقصير» أوامره فوراً لكل سياد مقاطعاته وسياد المدن

الحدودية لجمع كل قواتهم في مدينة «روندا»(*) القريبة من الحدود مع النصارى.

لقد كانت «روندا» كعش الصقر بالنسبة للعرب على طول حدودهم مع الصليبيين، فهي في منتصف السيرا التي تسمى باسمها، وهي سلاسل جبال غير مرتفعة كثيراً لكنها وعرة وتقطعها الوديان، والمدينة تقع على ما يشبه الصخرة الشاهقة المعزولة، محاطة بوادٍ عميق سحيق يخترقه نهر «ريو فردي» الجميل، وسكان هذه المنطقة الجبليون من العرب من أصلب محاربي الجبال المسلمين شدة، وحتى أطفالهم مهرة إلى أبعد الحدود باستخدام النشاب، وهوايتهم غزو السهوب الغنية للأندلس المسيحية، لذلك تجد مدينتهم مليئة دوماً بالبضائع الغربية المنهوبة، كما أن أقبية قلاعهم وأبراجهم مليئة بالأسرى النصارى، الذين لا أمل لهم بأي هروب من هذه القلاع والمعاقل الحصينة، تلك هي «روندا» في أيام العرب، ويبدو أنها لازالت تحافظ على شيء من شخصيتها هذه إلى اليوم(**)، فسكانها مشهورون بخطورتهم كمعقل من معاقل قطّاع الطريق ومطارديهم بذات الوقت، و«حامد الذعري»(***) كان قائد هذا الحصن وسكانه المخيفين، وهو من جماعة الذعري الأشد من كل سلالات المحاربين، وله إضافة إلى سكان بلده فرقة من المغاربة العرب من شمال أفريقيا تعمل تحت إمرته، من قبائل «العمري» الذين لم تطلهم نعومة الحياة الاسبانية ولازالوا على حرارة البادية الإفريقية، وكل مهنتهم في هذه الحياة هي الحرب، وكان يضعهم دوماً تحت السلاح في أماكنهم المحددة، أما مراعي ووديان «روندا» فمشهورة بالمهور المتُغلة فيه بشكل لا نظير له بالقوة والسرعة، كما أنه لا يوجد فارس أكثر فروسية من «العمري» بكل الكون، سريع بسيره، مخيف في هجومه، حيث ينقض على سهوب الأندلس فجأة وكأنه عاصفة جبلية، ويختفي فجأة حتى قبل التفكير بمطاردته.

فلا شيء يثير حماس هؤلاء الحدوديين أكثر من دعوتهم إلى الإغارة، لذلك لاقت دعوة «البقصير» ترحيباً مباشراً من سيّاد هذه المعاقل الحدودية، وبسرعة تشكّلت قوة من ألف وخمسمئة فارس وأربعة آلاف راجل من لب وقلب رجال البلاد المجاورة، لتجتمع في أسوار «روندا» التي رحّبت بهذا التجمع على أمل قدوم المغانم منه إلى أبواب هذه المدينة، لتتوّج مجد بوابتها به، ولذلك كانت المدينة تضجّ نهاراً بأصوات طبول وزمور الحرب، وأصوات قرقعة السلاح التي تبدو وكأن السيوف قد فقدت صبر الانتظار لتعمل في رقاب من تغزوهم، وآذان

(*) وتلفظ مدينة «**رندا وروندة**» أيضاً وإليها ينسب «صالح الرندي» أو «أبو البقاء الرندي» الذي أثبتنا له قصيدته الشهيرة في رثاء الأندلس في مقدمة الكتاب.

(**) القرن التاسع عشر.

(***) يرجع إلى بني زغبة من عمرية غمارة الأفارقة.

الأسرى النصارى في أقبية المدينة تلتقط هذه الاستعدادات من خلال صدى جدران هذه الأقبية الصخرية، مؤكدة لهم بأن الغزو على وشك الوقوع على أبناء بجدتهم.

وهكذا تحركت هذه القوات متوقعة غزوة سريعة وغنائم كثيرة، مشجعين بعضهم بعضاً بسهولة وتراخي ونعومة العدو، فالكثير من محاربي «ملقا» وبعض قرى الجبال قد أذلّوا أعظم الفرسان الدارعة المسيحية، فأخذوهم أسرى، أو وضعوهم تحت السيف في تلك المذبحة الشهيرة التي راحوا يتناقلون أخبارها، وهم يركبون مهورهم الاسبانية التي أسروها بتلك الواقعة.

ولأن «البقصير» كان حذراً باستعداداته وبسرية مهمته هذه، لم يكن عند أي من القرى المسيحية الأندلسية أي شك بأن هذه العاصفة تتشكل على جبالها، كما أن «السيرا دي روندا» في مداها الصخري الواسع وشعابها كانت تخفي تحرّك هذه القوات عن أي ملاحظة.

وهكذا تحرّك الجيش بكل سرعة تسمح بها الطبيعة الجبلية لأفراده بكل قسوتها، وعلى رأسهم «حامد الذعري» سيد «روندا» بلا منازع، الذي يعرف كل ممر ومنعطف في هذه الجبال الوعرة، فلا طبول ولا زمور ولا حتى قرقعة سلاح كان يسمح بأن تسمع، وكتلة الجيش تسير بهدوء مخترقة ضباب الجبال المنحدر نحو السهل، على أمل أن تندفع منه إندفاع الرعد من الغيوم!!

لكن احتياطات القادة لا تعني أن ليس للصخور عيون وللأشجار آذان، وأن ليس للطيور في الجو ـ الزاجل ـ لسان، تخون أكثر التحركات سرية، فقد صادف مرور الجيش دورية من ستة خيالة كشافة من النصارى على حدود «السيرا دي روندا»، ومهمتهم التي ينالون عليها أجرهم هي الإخبار عن تحركات العدو، أو حتى الإنقضاض المفاجىء عليه إذا كان عدده قليلاً، لأن هذه الجبال المقفرة كانت تقدم إلى السهوب عصابات من قطّاع الطرق في كل أنحاء اسبانيا، وهذه العصابات تسير مع الجيوش أحياناً للسلب، أو وحدها لنفس هذا الغرض، أو لأغراض التهريب فيما بعد، حسب الجو الملائم، ووظيفة مثل هؤلاء الفرسان اعتراضهم.

وهؤلاء الكشافة الستة كانوا برأي الأب «أنطونيو آغابيدا» أداة من أدوات الرب، يهدفون في تجوالهم بين الجبال أسر أي عربي، أو حتى نهب أي قطيع مواشٍ للعرب، والكل قابل للبيع في الأسواق المؤمنة الصالحة المسيحية.

وكانوا ينزلون من أحد المنعطفات وهم يراقبون إمكان وجود طريدة لهم، ينقضّون عليها أو على أي شيء يتحرك صوب الوادي، عندما فوجئوا بجيش عربي يظهر من بين الوديان، فراحوا يراقبونه بصمت وهو يتحرك تحتهم، محددين أعلام البلاد المختلفة والقادة التي فيه.

وظلوا يتبعونه من منعطف جبلي نحو آخر إلى أن عرفوا الطريق الذي يريد أن يدخل منه إلى بلادهم، وعندما حدّدوا وجهته، انطلق كل واحد منهم باتجاه من طريق جبلي سري إلى «السياد» المختلفين لإخطارهم في معاقلهم، وأخذ جوائزهم على هذا الإخطار من جهة، ومن جهة أخرى يمكن لهؤلاء «السياد» إشاعة الإنذار بكل الإتجاهات.

فذهب أحدهم على جناح السرعة إلى «لويس فرناندز بيترو كاريرو» السيد نفسه الذي هاجم «مولاي أبا الحسن» حتى أسوار «غرناطة» والذي هو الآن قائد حامية «أيسيجا» بغياب «الماستر أوف سانتيغو»، وذهب آخرون إلى مدينة «يوتريرا» وجوارها لينذروهم.

لقد كان «بيترو كاريرو» فارساً مقداماً نشطاً، لذلك أرسل الرسل فوراً إلى السياد القريبين منه بحصونهم أمثال: «هرمان كاريلو» مقدم جسم الآباء العذاريين المقاتلين، وإلى فرسان نظام «القنطرة»، وذهب وحده قبل وصولهم إلى ساحة المعركة، ولم ينهك جنده بالمسير لمعرفته بشدة خصومه الجبليين هؤلاء، بعد أن تأكد من كامل عتاد جيشه وفرسانه إلى حد تفقد حدوات خيولهم، وعندما تأكد من نشاط الكل وقوة قلوبهم، توجّه بهم نحو العرب، وهم لم يكونوا إلا عدداً قليلاً من الرجال من أفراد أسرته ومقدميه وخدمه، لكنهم كانوا مجهزين تجهيزاً جيداً بالسلاح والمطايا، ومعتادين على مفاجآت الغزوات الحدودية، وجاهزين لساحات القتال فيها.

وبينما كان شمال الأندلس النصراني على هذا الاستنفار، توجه كشاف آخر من الكشافة الستة إلى الجنوب صوب مدينة «إكسيرس»، ليخبر المركيز «أوف كاديز»، الذي قفز قلبه فرحاً حين عرف أن علم «ملقا» بين الأعلام الغازية والتي اجتازت الحدود، فالآن وقت الثأر لأخيه الذي أطاح به هؤلاء من على حصانه وهو بجانبه في مذبحة الجبل ـ جبل ملقا ـ ولذلك هيأ نفسه ليوم الثأر هذا الذي هو الآن. فأسرع إلى احتياطه وإلى كل مقاتل في «إكسيرس» مسرعاً بثلاثمئة حصان ومئتي راجل من الذين يتلهفون لأخذ الثأر.

أثناء ذلك ظن «البقصير» أنه لم يُكْتشف، وأن الغرض من مسيرته قد تحقق، فنظر إلى السهوب الأندلسية الغنية التي صارت بقبضة يده والتي سوف يغزوها، فسرّ هذا المنظر حاكم «روندا» المخيف هذا ولمعت عيناه بالغبطة، وحتى مهور غزاته بدأت تتململ نحو التحرك ملتقطة بآذانها حركة الرياح وضاربة بأرجلها تباعاً لحث فرسانها على إطلاق أعنتها.

وعندما وصل إلى السهل قسّم البقصير قواته إلى ثلاثة فرق إحداها المشاة والخيالة الضعاف الذين تركهم لحراسة الممرات، لأن خبراته القتالية تجعله حذراً في تأمين تراجعه، أي فرّه مثل كرّه. وجعل قسماً آخر من الجيش للكمائن على الضفاف المعشبة لنهر «الأوبرا»، أما القسم الثالث فهو من الفرسان الخفاف فأطلقهم لنهب «الكابينا» أو السهوب الواسعة «لأوتيرا»،

ومعظم هذه القوات كانت من مقاطعة «روندا» وفرسانها المرعبين، يركبون نغول المهور الجبلية بقيادة الفارس القديم «حامد الذعري» الذي كان في طليعتهم.

ولأن هذا القائد كان يشك بإمكان أن تكون البلاد قد صحّت لتطبق عليه من الخلف، وزّع فرسانه بكل إتجاه على أن لا يصلوا إلى «اليوتريرا» وينهبوا كل قطعان المواشي ويسوقونها أمامهم قبل المدينة بتسعة أميال، ويعودوا بسرعة إلى الجبال. وبينما كانوا في تفرقهم هذا فاجأهم خيالة ومشاة «يوتريرا»، فعاد العرب إلى تشكيلاتهم ليتلاحموا في جماعات صغيرة للدفاع عن أنفسهم، لكنهم كانوا بدون قادة، و«حامد» كان بعيداً عنهم لأنه كان كالصقر يطير في دائرة كبيرة قبل أن ينقض على طريدته لذلك كانت هذه التشكيلات الصغيرة تهرب نحو كمائن الجيش على ضفة نهر «اليوتريرا».

وعندما وصل الصليبيون بأعقابهم، إنقضّ عليهم المسلمون من كمائنهم بصرخات الله أكبر المفزعة، في الوقت الذي عاد به الفارون للكر على مطارديهم، فصار المهاجمون أقل عدداً، وتحطمت رماح فرسانهم الطويلة ليبدأ الصراع بالسيوف، وهم معرّضون للغلبة، وأثناء ذلك جمع «حامد» جماعات «العمري» التي كانت مفرّقة معه، واتجه بهم إلى مسرح العمليات، فوصلت شراذم خيالته إلى مشرف من الأرض ليس بعيداً عن المعركة(*)، عندما سمعت أبواق النفير من جهة أخرى حيث يتقدم «لويس فرناندز بيترو كاريرو» وأتباعه نحو ساحة المعركة، ليهاجم جناح الجيش الإسلامي وكمائنه.

ودهش العرب لتقاطر الجيوش عليهم من كل صوب، في بلاد كانوا يتوقعون أنها غير محروسة، فحاربوا لفترة قصيرة بشكل يائس، وردوا هجوم فرسان «القنطرة» مع «الأخوة الفرنسيسكان» المسلحين من رجال الدين، لكن حين سقط «البقصير» بحربة «بيترو كاريرو» من على حصانه وأسر فرّت قواته من ساحة المعركة، متجهة اتجاهين في طريقين مختلفين نحو الجبال، على ظن التمويه على العدو، وإرباكه بتقسيم قواتهم، لأن النصارى كانواأقل من أن ينقسموا في أعقابهم، لذلك أبقاهم «بيترو كاريرو» كتلة واحدة لاحق فيها إحدى القوات المهزومة وحدها، ليوقع بهذا الفريق خسائر فادحة، على نبع قرب شجرة «تين» قريبة من «الأوبرا»(**)، حيث ذبح ستمئة فارس عربي، وأسر الكثير مع غنائم كثيرة أيضاً جمعت من ساحة المعركة، ليعود بها النصارى منتصرين إلى منازلهم.

أما الجسم الأكبر من الجيش العربي فقد تراجع إلى الطرق التي تذهب جنوباً على ضفاف «الغواداليت»، وعندما وصلوا إلى شواطىء هذا النهر، كان صوت مطارديهم قد خفّت، فنزلوا

(*) في الفصل القادم ذكر ما حصل «لحامد» ولجماعة «العمري» التي معه.

(**) وتلفظ «لوبرة» أيضاً.

لينعشوا أنفسهم بمائه، وقد بقي من قواتهم حوالي الألف فارس وعدد من المشاة المبعثرة، وقبل أن يتجمعوا ويلتقطوا أنفاسهم، ظهر العدو من الجهة المقابلة للنهر، بقوات يقودها المركيز «أوف كاديز» على رأس أسرته ورجاله من «أكسيرس»، وقد ثارت هذه القوات حين رأت بعض العرب يلبسون دروع الفرسان الذين ذبحوا في جبال «ملقا»، حتى أن أحد المهاجمين وجد دروعه التي فقدها آنذاك حين تخفف منها ليتسلق الجبال، على جسد محارب عربي، فكان اندفاع المهاجمين بشراسة النمور بدل هدوء الفرسان، وكل واحد منهم يشعر أنه يثأر لنفسه أو لقريبه الذي سقط في الجبال، أو يمحي عاره الشخصي، حتى أن المركيز نفسه قد رأى المهر الذي سقط أخوه من على ظهره بجانبه وتحت ناظره، وهو تحت أحد الفرسان العرب، فأطلق صرخة الغضب حين رأى ذلك مخترقاً حشود العدو نحو هذا الفارس، ليهاجمه بدون أي هوادة، وبعد معركة قصيرة دحرجه أرضاً.

وهكذا تداعت معنويات العرب، إزاء هذا الهجوم الجنوني، ففروا مذعورين نحو شعاب «السيرا دي روندا»، حيث قواتهم الاحتياطية التي وضعوها لتؤمن انسحابهم الاحتمالي، لكن هذه القوات حين رأتهم يهربون، والسيوف في رقابهم من كل جهة، وأعلام النصارى تحفّ بهم من كل جانب، ظنّوا أن كل الأندلس قد قامت ضدهم، ففروا دون انتظار وصول المهاجمين والمتراجعين، إذ لم يعودوا يميزون بينهم، وهكذا ظلّت المطاردة في الشعاب والوديان قائمة دون توقف، لأن المحاربين النصارى كانوا بشوق للثأر، ولذلك كانوا يضغطون عليهم دون أي رحمة.

وبانتهاء هذه المطاردة عاد المركيز وقواته للتوقف على شواطىء نهر «غوادا ليت»، حيث اقتسموا الغنائم، ووجدوا الكثير من الدروع والخوذ الثمينة، والزرد الفاخرة، وكذلك الكثير مما غنمه العرب في جبال «ملقا» منهم، وقد طالب أصحابها بها، بينمّا عرف قسم آخر على أنه كان ملكاً للفرسان الذين ذبحوا هناك أو أُخذوا أسرى من العرب، كذلك كان هناك خيول مزركشة عديدة كانت للفرسان الذين غادروا «الأنتكويرا» بكل إباء على ظهرها في تلك الغزوة التعسة «الملقا»، ولهذا كان بعض الفرسان النصارى ينزل ليبكي، ويندب صاحبه أو قريبه، وهو يحتضن هذه الدروع والدرق.

وبينما كان المركيز يستريح تحت ظلّ شجرة أحضر جنوده له حصان أخيه «بلتران»، فوقف ليضع يده على هذا المهر، وينظر بحسرة إلى سرجه، وقد ارتعدت فرائصه وغاب لون وجهه وهو يقول: «Ay de mi! mi hermamo» أي: «الثأر علي يا أخي»، ثم لاذ بالصمت لأن حزن المحارب لا يمكن أن تعبّر عنه الكلمات، ثم التفت إلى حقل المعركة وقد غصّ بالقتلى من الطرفين، فشعر بأن مرارة ثأره لم تذهب أدراج الرياح، وأن أخاه قد نال ثأره.

الفصل الثالث

تراجع «حامد الذُعري» سيد «روندا»:

كان «حامد الذُعري» مع حفنة من فرسانه «الغمر ـ العمرية» يغير على «كامبينا أوف يوتريرا»، وهو يجمع القطعان منها حين سمع بانفجار الحرب على مسافة بعيدة منه، ورأى الكرّ والفرّ من بعيد، ولاحظ الفرسان الصليبيين يقفزون بجرأة مجنونة على كمائنه على شاطىء نهر «الأوبرا»، فرفع «حامد» يده إشارة إلى قواته كي تتبعه قائلاً: «هؤلاء الكلاب النصارى!! هم لنا» ونهز حصانه لمهاجمة العدو من الخلف.

وكان الفرسان الذين معه لايزيدون عن الثلاثين، عندما وصلوا إلى المرتفع الذي لاحظوا منه تقدم قوات «بيترو كاريرو» وهي تهاجم على أصوات نفيرها جناح الجيش في كمائنه، وحين دخل في صلب هذه القوات لاحظ أن هذه الجيوش تزداد وتضغط عليه من كل صوب، فلا مجال إلا للإنسحاب، لكن الجيش الصليبي كان يحول بينه وبين ممرات الجبال، وهو يتعزز بكل القوات التي وصلت من القرى المجاورة الحدودية، فكل الطرقات التي دخل منها يقطعها الآن العدو، لذلك لوى معرفة حصانه ليقيم الموقف من كل جهة، ثم غاص على سرجه وقد انقطع عن كل ما حوله لكي يتخذ قراره السريع، وبلفتة سريعة لمح أحد الكشافة المخبرين من خونة الحدود ضمن قواته، فاستدعاه «حامد» قائلاً: «مادمت تعرف الممرات السرية لهذه البلاد، ألا تعرف ممراً دائرياً لا يستعمل للسفر؟! فأجاب الدليل نعم!! أعرف طريقاً من هذا النوع لكنه يدخل ويخترق بلاد النصارى وهو مليء بالمخاطر، فأجاب «حامد»: «حسناً، فكلما زاد خطر الطريق قلّ الشك فيه، إركب بجانبي وهذا سيفي وتلك الصرّة من الذهب لك فلننطلق في هذا الطريق الذي ذكرته إلى مداخل «السيرا»، فإذا خنتنا نلت السيف وإلا فصرة الذهب».

وبينما كان الدليل يرتعد مطيعاً، انطلق الجميع من الطريق الرئيسي الذي يقود إلى الجبال إلى الجنوب نحو «ليبريكسا»، وهم يعبرون أكثر الطرقات الموحشة في اسبانيا وأشدّها وعورة، في

مغامرة مشهودة، ويستمعون بين فترة وأخرى إلى أبواق النفير في القرى والدساكر، ممزوجة مع أجراس الكنائس التي تطلق التحذيرات للقرويين، وتطلب تجمعهم للإسراع كي يشاركوا بالحرب على الحدود، فكانت هذه المجموعة تختفي في الدغل والأعشاب وداخل قنوات مجاري الماء الجافة، إلى أن يزول الخطر، لتتابع سيرها، و«حامد الذعري» يركب صامتاً ويده على سيفه وهو يراقب دليله، وهو على استعداد للإطاحة به إذا ظهرت منه أي خيانة، بينما جماعته تتبعه بغيظ من هذا الوضع الذي وصلوا إليه في بلد جاؤوه غزاةً.

وهم لم يستعملوا الطرقات المطروقة إلا ليلاً متجنبين المرور بالقرى والدساكر، وكل كلاب الحراسة التي يمكنها أن تكشف مكانهم، وبهذه الطريقة اجتازوا منتصف الليل ناحية «الأركوس» عبر «الغوادااليت» ليتابعوا تراجعهم نحو الجبال، ثم لحقهم الفجر وهم يجتازون تلك البراري المقفرة، التي اصطيد فيها رفاقهم بذات الوقت من قبل العدو، ففي كل فينة وأخرى كانوا يمرون بمكان حصلت فيه معركة صغيرة، أو مذبحة للمطاردين تتوزع الصخور أشلائهم، وتصطبغ الأرض بدمائهم، وقد طار صواب سيد «روندا» عندما كان يرى أشجع محاربيه وهم مضرجين بدمائهم في ممرات الجبال التي وصلها أخيراً وهم سيحشرون في بطون السباع والهوام ونسور الجو، وبين برهة وأخرى يخرج له من مخبئه فارس عربي فقد حصانه، وهو يزحف إعياء مضرجاً بدمائه، وقد ألقى بدروعه ليختفي بين الصخور حتى لا يتعرض لمزيد من مطاردة فرسان النصارى.

وكما خرج الجيش العربي من أبواب «روندا» مصاحباً بالزغاريد، عاد ليتلقى العويل حين رأى الناس هذا السيد محطماً بدون علم أو أبواق وطبول حرب، وجماعته مجهدة جائعة عريانة، خاصة وأن أنباء مصيبتهم قد سبقتهم مع شراذم الفارين من الجيش. وحين وصل «حامد» لم يجرؤ أحد أن يقترب من وجهه العابس فدخل المدينة والحزن يجثم فوق جبينه الأسمر.

وكشماته بهذه الحالة قال «آغابيدا» أنه كما لو أن السماء قد ثأرت لهزيمة فرسان الصليبية في جبال «ملقا»، فالكارثة متشابهة، بكل تفاصيلها، حيث الفرسان المتعجرفون من العرب نزلوا كما نزل النصارى سابقاً إلى ساحة المعركة بكل خيلاء، ولم يرجع إلا بضع عشرات منهم، وهكذا ضعفت قوة هذه الحامية الحدودية «رندة» بخسارة صفوة فرسانها الحدوديين بين قتيل وأسير، حيث اضطر الأسرى بعد ذلك أن يشتروا حريتهم بمبلغ مرتفع.

هذه هي معركة «الأوبرا» ونتائجها التي أعقبت يوم حصولها في ١٧ أيلول/سبتمبر ١٤٨٣م، وحين وصلت أخبارها إلى «فرديناند وإيزابيلا» في حصن «ڤيتوريا» في «قشتالة» مع

الأعلام التي أُخذت من العدو، أعلنوا الاحتفال وأضاؤوا الساحات، وأرسل الملك «فردناند» إلى المركيز «أوف كاديز» العباءة الملكية التي كان يلبسها في ذلك اليوم، وأعطاه ولسلالته ولكل من يرث لقبه أحقية أن يلبس هذا الرداء الملكي في يوم سيدتنا العذراء في أيلول/سبتمبر تخليداً لهذه الذكرى.

أما الملكة «إيزابيلا» فقد كرّمت على قدر سواء «الدون لويس فرناندز بيترو كاريرو» بأن أرسلت إضافة إلى إمتيازات أخرى له، روبها الملكي الذي كانت تلبسه بذاك اليوم أيضاً، لتلبسه زوجته خلال حياتها، تخليداً لذكرى هذه المعركة.

الفصل الرابع

الاستقبال المنقطع النظير في القصر للكونت «دي كابرا»(*) وسيد «دي لوس دونزاليس»:

وفي منتصف ذكره لأخبار الحرب يتوقف الأب المبجّل «أنطونيو آغابيدا»، ليصف بدقة واهتمام الاستقبال المميز الذي تلقّاه الكونت «دي كابرا» وابن أخيه سيد «دي لوس دونزاليس»، في قصر «قشتالة» جزاءً على أسرهما لملك العرب «ببدول».

وهو يؤكد متشفياً أن هذه الاحتفالات جرت في القصر الملكي العربي القديم لقرطبة، وقد رتّبها وأشرف عليها «بيشوب توليدو» مع الكردينال الأكبر لاسبانيا، وإليك وصفها الدقيق:

في يوم الأربعاء الرابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر حدّد الأب الدقيق «أنطونيو آغابيدا» ظهور الكونت «دي كابرا» حسب اتفاق مسبق على أبواب «قرطبة»، حيث كان باستقباله «الكاردينال الأكبر» و«دوق ڤيلا هيرموسا» الأخ غير الشرعي ـ بالسفاح ـ للملك، مع عدد من وجهاء المملكة، حيث اصطحبه الجميع إلى القصر الملكي، بالموسيقى والطبل والزمر يخترقون هتافات الجماهير المحتشدة.

وعندما مثل «الكونت» أمام أصحاب الجلالة اللذين كانا يجلسان على عرشهما في صدر القاعة، المشرف على القاعة كلها، وقفا ليتقدم الملك خمس خطوات من الكونت، وعندها جثا الكونت على ركبته ليقبل يد الملك، لكن الملك لم يكن يريده مجرد واحد من رعيته، لذلك رفعه بلطف، وتقدمت الملكة خطوتين لتستقبل الكونت بكل لطفها الذي يبعث على السرور، وبعد أن قبّل يدها، عاد الملكان إلى عرشهما، لتحضر المطارف والحشايا حيث سيجلس الكونت بحضرتهما.

(*) صاحب «قَبْرة» بالعربية.

وكل هذه الجمل قد كتبت بأحرف مزخرفة في المخطوط القيم للأب «أنطونيو آغابيدا»، الذي اعتبر أن الجلوس بحضرة ملوك الكاثوليك امتيازاً يستأهل الحرب وإراقة الدماء من أجله.

خاصة وأن الكونت كان جالساً على أعتاب صاحب الجلالة، وبعده كان يجلس «دوق ناجيرا» ثم البيشوب «أوف ڤالنسيا»، ثم الكونت «أوف غويلار»، فالكونت «لونا» ثم «دون غويتير دي كاردينياس» سنيور وقائد «ليون».

وبجانب الملكة كان الكاردينال الأكبر لاسبانيا يجلس، ودوق «ڤيلا هيرموسا»، وكونت «أوف مونت ري» وبيشوب «جين» و«كوينسا» كل حسب تتابع اسمه، لتصدح الموسيقى بجنبات القاعة، فتدخل عشرون سيدة من وصيفات الملكة، ومقابلهم عشرون فارساً شاباً بكامل أناقتهم ويبدأون الرقص، وهكذا شعّ على القاعة روح البهجة كما لاحظ «آغابيدا»، وعندما انتهى الرقص قام الملكان للعشاء، وصرفوا الحضور بكل بشاشة، وتفضّل الكونت إلى قصر الكاردينال الأكبر.

وفي يوم الخميس التالي تمّ استقبال سيد «دي لوس دونزاليس» بنفس الطريقة بالتكريم، ولكن الاحتفال كان أقل قليلاً مما حصل لعمه الذي يعتبر حجر الأساس في الإنجاز الذي تمّ، لذلك لم يخرج الكاردينال الأكبر ولا أخ الملك بالسفاح لمقابلته على أبواب المدينة، واكتفيا باستقباله في القصر، ومجاملته إلى أن حضر صاحبا الجلالة، وعندما دخل السيد عليهما وقفا له دون أن يتقدما نحوه، وبعد أن رحّبا به أمراه أن يجلس بجانب الكونت «دي كابرا»، ودخلت «إيزابيلا» الصغيرة وجلست بجوار الملكة، وعندما جلس الجميع صدحت الموسيقى في القاعة مرة ثانية، ودخلت الوصيفات العشرون كما حصل في المناسبة السابقة، لكن «إيزابيلا» الصغيرة شاركت بالرقص مع راقصة برتغالية شابة، ثم ودّع الملكان «السيد» بعد نهاية الرقص بكل بشاشة وانتهى الاحتفال.

وهنا بعد هذا الوصف دخل «آغابيدا» بتفاصيل التعليقات على فوارق التكريم في القصر «القشتالي» والجوائز التي يقدمها، لدرجة أن كل إشارة أو ابتسامة من الملكين كان لها معنى وقيمة تكريمية، تدخل نوعاً من السرور على قلوب رعاياهما، لدرجة أن الأمر برأي هذا لأب الجليل يستأهل الدراسة بالتفصيل، ليحذو حذوهما كل الملوك، الذين يريدون أن يوزعوا إشارات التبجيل.

وفي يوم الأحد التالي تمت عزيمة الكونت والسيد على العشاء مع الملكين، وحضر في القصر أرفع النبلاء، يحملون أوسمتهم الرفيعة، التي كانت تخلع على النبلاء في ذاك الوقت.

وطبعاً كان هناك رقص قبل العشاء، يتلاءم مع المناسبة والبلاط، والملك يراقص الملكة بكل وقار، أما الكونت «دي كابرا» فقد أعطي شرف مراقصة «إيزابيلا» الصغيرة، بينما رقص السيد «دي لوس دونزاليس» مع ابنة المركيز «دي أستورغا».

وبعد انتهاء الرقص ذهبت الحاشية الملكية إلى العشاء على طاولة الطعام التي وضعت في مكان قصي من الصالون، وهنا وعلى مرأى من الجميع دعي الكونت والسيد على طاولة الملك للأكل معه ومع الملكة وابنتهما، وكان يخدم عليهم المركيز «أوف ڤيلينا»، وكان حامل قدح شراب الملك ابن أخ المركيز «فردريك دي توليدو»، وكان «الدون ألفارو» شرف سقاية ابنة الملكة، بينما كان يخدم على الكونت والسيد فرسان متميزون، وفي الساعة الواحدة ودّع الملكان ضيفهما بكل ود.

هذا هو الشرف الرفيع الذي حازه هذان الفارسان، كما أكّد «آغابيدا» من الملك والملكة بهذا الاحتفال البهيّ من أجلهما، ولكن امتنانهما لم ينته هنا، فبعد عدة أيام خلعا عليهما ألقاباً مدى الحياة، وألقاباً يتوارثها أبناؤهما، مع امتياز لقب «الدون» لهما ولنسلهما الذي يحمل اسمهما، كما قدّما لهما طاقم درع فارس عربي لكل واحد منهما، مع قلادة ذهبية، واثنين وعشرين علماً، ظلّ أحفادهما يلبسون هذه الدروع ويحملون هذه الأعلام حتى هذا اليوم(*)، في ذكرى انتصار «كابرا وكورتوڤا» في معركة «لوسيانا» وأسر «ببدول».

(*) القرن التاسع عشر.

الفصل الخامس

كيف فاجأ المركيز «أوف كاديز» حصن «الزهراء» وما نتج عن تحلته هذه؟:

كان «رودريغو فونس دي ليون، مركيز الكاديز» من أجرأ القادة العسكريين في عصره، وكان معه دائماً مجموعة من المرتزقة العرب الذين تحولوا عن دينهم للعمل كجواسيس وأدلاّء، وكان هؤلاء المدجنون يقدمون له خدمات ومعلومات عظيمة، فهم يتكلمون العربية، وشكلهم عربي، ويتغلغلون داخل بلاد الإسلام، يدرسون الحصون والقلاع فيها، وأحوال أسوارها وأبوابها وأبراجها وحامياتها، ومدى الانضباط أو الإهمال فيها وعند قادتها، ويكتبون تقاريرهم إلى المركيز فوراً، فمن خلالهم كان يعرف حالة كل حصن على الحدود، ومتى يمكن الاستفادة من الهجوم عليه، وبالإضافة إلى كثرة إقطاعاته والمدن التي يعد مسؤولاً عنها، وما فيها من قوات يمكن أن تدعمه، كان له جيشه الخاص معه، والذي يمكنه تحريكه بكل لحظة للمعركة فوراً، وفي قلعته مجموعة من المشاة التي هي على استعداد لأن تتبعه حتى الموت ولكل خطر، تأكل وتشرب على حسابه وفي قصره المليء بالسلاح من كل أنواعه، كما أن اصطبلاته مليئة بالمهور المطهمة المستعدة حتى لتسلّق الجبال.

وقد علم المركيز كيف أن هزيمة العرب الأخيرة قد أضعفت دفاعاتهم الحدودية كلها، لأن كثيراً من قلاعهم وحصونهم قد فقدت إضافة لسيادها نخبة فرسانها وجيشها. ولهذا أطلق كلاب صيد حربه، لكي يعرف نقاط الضعف التي يمكنه أن يخترقها، فعادوا له بمعلومات تفيد أن حصن الزهراء ـ الذي به بدأت الحرب ـ صارت حاميته ضعيفة وقليلة التموين والناس.

هذا الحصن الذي عصف به «مولاي أبو الحسن» من سنتين كإشارة لبدء الحرب، وظلّ يعتبر مركز الرأس من كل الأندلس، لكنه فرغ من سكانه النصارى الذين أخذوا أسرى، ولم يعهد به إلى سكان مسلمين جدد ـ دلالة على عدم تجدد الهجرات إلى الأندلس الاسلامية، كحال

الأندلس المسيحية بهجرة الصليبيين من العالم المسيحي لها ـ لذلك لم يكن في هذا الثغر أي عائلات، وظل كثكنة حربية فقط، تشرف وتحافظ على أهم ممرات الجبال الأندلسية كمعقل لهذه الجبال الفارغة من السكان، فقرر المركيز إستعادة هذا المعقل وضمّه لأملاكه، بانتزاعه من ملك العرب، وبذلك ينتزع مركز قوة وسكان مهم.

فراسل «بيترو كاريرو» الذي ظهر كفارس غازٍ ومنتصر في معركته الأخيرة مع العرب، وكابتن ـ مقدم ـ الأخوة اليسوعيين «جون المراز»، يخبرهما بعزمه، ويدعوهما بأن يشاركا بقواتهما المرابطة على شاطىء «غواداليت» في فتح هذا المعقل الهام.

وفي أحد الأيام المباركة بين عيد «سان سيمون، ويهودا» كما يؤكد الأب «أنطونيو آغابيدا» في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٤٨٣م، تجمّعت هذه القوات الصليبية فجأة في مكان محدد لها، مشكّلة قوة من ستمئة فارس وألف وخمسمئة راجل، واتجهت إلى مدخل الوادي الذي يقود إلى «الزهراء»، المدينة العربية القديمة الخالية من السكان، والواقعة بأصعب مسالك «السيرا روندا»، والمبنية على رأس شاهق، ويشرف عليها هذا الحصن، وتحتها الوديان التي تمر بها الجداول العميقة، ويلتف حولها نهر عميق من مجموعة هذه الجداول، والتي كانت تعتبر مدينة غير قابلة للاختراق، لكن حصونها قابلة له بعون القديسين كما أكّد «آغابيدا» ولا تخلو من مركز ضعيف فيها يمكن مهاجمتها منها.

وفي عتمة الليل تقدّم المركيز بجيشه الصغير هذا، بصمت بين شعاب الجبال، متتبعاً الجداول التي تقود إلى أسوار المدينة، وكان الجيش ملتزماً الصمت والهدوء لدرجة أن العرب على الأسوار لم يسمعوا ولا بأي حركة له، ومع المركيز متسلّق الأسوار الشهير «أورتيغا دي برادو»، الذي رأينا ما سبق وفعله بحامية «الحمى»، ومعه عشرة رجال بكل أجهزة تسلّقهم وسلالمه يختفون في حفر الصخور قريباً من السور. وقريباً منهم سبعون رجلاً مستعدون للتسلّق فور تثبيته لسلالمه، أما الباقون فكانوا يختفون في منعطف آخر قريب من باب الحصن، وبداخل الحصن الأدلاء الخونة الذين يعرفون كل خريطة الحصن والذين سيعطون الإشارة التي يمكن للكل رؤيتها في مكامنهم، لكنهم غير ملاحظين من الحامية.

وهكذا مرّت بقية الليل بهدوء مطبق، وحراس الحصن يتجولون على أسواره بكل أمان، وعندما شق الفجر ظلام قمم «السيرادي روندا»، لم يظهر لمراقبة البرج أي كائن متحرك حول الحصن، وهم لا ينتبهون لسوء الطالع المتربّص بهم وراء كل صخرة ومنعطف، ولاستحالة أن يتعرضوا لأي هجوم بضوء الشمس، تركوا مراكزهم ونزلوا إلى المدينة.

هنا أمر المركيز قوة صغيرة من قواته بالمرور أمام المدينة من بعيد عبر شعاب الجبل، على مرأى

من بوابة المدينة، ولم يتباطأ العرب، فظهر سبعون فارساً ومئة راجل من باب المدينة لملاحقتهم، على ظن إمكان أخذ هذه المجموعة المعزولة بسهولة، ففر الخيالة النصارى إلى الوادي، ليلاحقهم العرب بالنزول من مرتفعاتهم، وظلوا يطاردونهم حتى سمعوا صرخات الهجوم من خلفهم، فالتفتوا ليجدوامدينتهم تغزا، وقوات التسلّق تطلع على أبراجها والسيوف بأيديهم، فتدافعوا عائدين إلى بوابة المدينة، ومعهم بذات الوقت «المركيز ولويس» بقواتهما، التي خرجت من كمائنها، ليبدأ صراع مرير على الباب انتهى بنجاح العرب بالعودة إلى الحصن.

فالتفت المركيز لمساعدة قوات «أورتيغا» المتسلقة، ووصل باللحظة المناسبة لأن خمسين مقاتلاً عربياً كانوا يتصدّون لهم بالرماح والبنادق الطويلة الثقيلة، لدرجة كادوا فيها أن يلقوهم عن السور، فنزل المركيز عن حصانه وقفز نحو السلم والسيف بيده، ليهاجم العدو هجوماً عاصفاً مع عدد من أتباعه، الذين اضطروا العرب إلى التراجع، فسقط السور والبوابة بيد المهاجمين، وتراجع العرب إلى طرقات المدينة بقتال تراجعي، ثم احتموا أخيراً بقلعتها الداخلية، ليتحصّنوا فيها وبأبراجها القوية إلى أن تصلهم النجدة، لكن «المركيز» كان لا ينوي الاستمرار بالحصار، ولا يستطيع أخذ الأسرى، ففاوضهم على السماح لهم بترك سلاحهم، والخروج بكل ما يقدرون على حمله، شرط أن يذهبوا فوراً إلى شمال أفريقيا، وهكذا كان.

وظلّ المركيز في «الزهراء» إلى أن تمّ إملائها بالناس والمعدات وبحامية تستطيع حمايتها ثم غادرها.

وهكذا عادت الزهراء للسيادة الصليبية، رغم أنف «مولاي أبي الحسن» وقلقه، فدفع ثمن إهمالها بعد فتحها، ليخسر ثمار نصره فيها، ولسرور ملكي قشتالة بما فعل «المركيز» أعطياه لقب «دوق الكاديز ومركيز الزهراء» فسرّ أتباعه بهذه الألقاب المزدوجة التي صارت تظهر على ختم أوامره ورسائله بعبارة: الدوق المركيز «أوف كاديز»، ولكي لا نخلط نحن على القارىء كثرة الألقاب سنظل نسميه بلقبه القديم المركيز حين ذكره بعد الآن، ولو خرقنا الإرادة الملكية السامية بالاقتصار على لقب واحد.

الفصل السادس

حول حصن «الحمى»
وكيف كان الكونت «دي تنديلا» يحكمه بكل حكمة:

كانت شماتة الأب المحترم «آغابيدا» الذي نؤرخ عنه لا توصف بسقوط «الزهراء»، لذلك حشد كل عقله الغيبي لتفسير سبب هذا السقوط، الذي أساسه هو الاضطراب، وضعف المعنويات التي أطلقها المتنبيء الكاذب درويش غرناطة الذي ذكرناه بأول هذا الكتاب، فظن «آغابيدا» أن التنبؤ الشيطاني لشيطان غرناطة هذا قد تحقق إلى حد ما، وأن خراب «الزهراء» لن يسقط إلاّ على رؤوس هؤلاء اللامؤمنين العرب.

كذلك ولذلك قارن مؤرخنا بين تدبير سيد «الزهراء» التي أخذت منه بضوء النهار، وتدبير سيد «الحمى» المسيحي التقي الذي صارت إليه هذه المدينة كرد على إسقاط العرب «للزهراء».

فحين تأكدت أهمية «الحمى» للملك، عهد بها إلى «دون دييغو لوبيز دي مندوزا» كونت «تنديلا» الفارس ذي الدم النبيل، أخ كاردينال اسبانيا الأكبر، لا مجرد حماية هذا الحصن، بل للانطلاق منه لتدمير جواره من البلاد، وجعل حياة أصحابها مستحيلة فيها، لأهمية موقع هذا الحصن في قلب مملكة «غرناطة»، حيث لا يبعد عنها أكثر من ثلاثين ميلاً، وهو قريب جداً من «الأقصى»، كعش في قلب الجبال يحكم الطريق الرئيسية إلى «ملقا»، ويشرف على كل «الڤيغا»، فهو أفضل مركز في قلب العدو، كما أنه محاط بالمتربصين به لإسقاطه، وأمامه كل هذه الخيرات التي يمكن نهبها، مما جعل هذا الفارس مستعداً دوماً لكل طارىء، وهو محارب ذو خبرة، ومقاتل عنيف قاسٍ، وقائد عركته التجارب الحربية.

وهو حين استلم حامية هذا الحصن لم يكن عنده سوى ألف رجل بين فارس دارع وراجل، ولأنهم قد تركوا في هذه البعثة العسكرية الجبلية، بدأوا يفقدون روحهم العسكرية، خاصة لأنه

يتم تغييرهم بتغير الفصول، فهم لا يحاربون إلا إذا كانت هناك غنائم، ولا يذهبون إلى أبعد من ذلك، بينما الصقور المحيطة «بالحمى» قد ضاقت سبل معيشتها، وهي تتطلّع إلى الفائدة من كل أخطائهم للانقضاض عليهم، وهم كانوا يلعبون القمار ويسكرون ويرقصون قرب أسوار «الحمى»، بدل الاحتفاظ بمواقعهم القتالية في الحامية، حتى لو لم يسمع أي شيء من الصباح حتى الصباح. وبدلاً عن هذا لا تسمع إلاّ أنغام الغيتارات والصنجات وأصوات زهر اللعب، وما يقطع هذا من مشاحنات تؤدي إلى إراقة الدماء.

وهذا ما حمل الكونت أوف «تنديلا» على إصلاحه بكل حزم، من منطلق أن تدني الأخلاق يؤدي دوماً إلى إهمال الواجب، وأقل إهمال قد يكون مدمراً لكل حصنه، وقاتلاً في ظرف ملائم للعدو، لذلك يجب أن يكون كل واحد من هذه الحفنة من الرجال بطلاً.

فأراد أن يوقظ هذا الطموح في عقول جنوده، ويدخل فيها قيم ومبادىء الفروسية، فالحرب حتى لو كانت عادلة كما هو ملاحظ تصبح شريرة وخبيثة بسلوك من يسيرونها، لأن الهدف المحق فيها لا يغني عن سلوك رجالها الشائن، والأساليب المتبعة أي الوسيلة للوصول إلى هذا الهدف يجب أن تكون نبيلة، فعدم الطاعة والفوضى قد تؤدي إلى نتائج كارثية لأفضل الخطط المحكمة من قبل القادة العظام، ولأننا لا نستطيع أن نصف سلوك هذا القائد بأكثر مما فعل «آغابيدا» هذا الأب الذي وضع بقائده عكس كل الصفات التي يكرهها بالعرب، ويحقد عليهم بسببها، قال:

«لقد كان هذا «الكونت» مرآة تعكس صورة الفارس المسيحي، المتيقظ الحذر الفاضل المكرّس والمليء حقاً بكل الروح التي تحمل قضية المسيحية، فهو يبذل كل جهده دوماً من أجل مجد الإيمان وازدهار الجلالة الكاثوليكية، ولذلك يكره اللامؤمنين كراهة مقدسة نقية؟! فكان هذا الفارس غير مسررو بكل تجاوزات جيشه الجشعة والوثنية فوضعهم دوماً تحت التدريب، لجعلهم مهرة باستخدام سلاحهم، وجعل خيولهم جاهزة للقفز إلى ساحة المعركة بأول إشارة، لذلك منع استخدام كل الأدوات الموسيقية في حصنه، مما يشنف الآذان ويضعف صلابة الرجال ويرخيها، فلا موسيقى سوى طبول الحرب وأبواق النفير، وهذه الأدوات تجعل الأذن تعتاد على أفكار وأصوات الحرب، أما الموسيقيون من الجند وكل من يعزف على آلة عزف، فقد جمع آلته ليطرد معها من أبواب «الحمى»، وبدلاً عن هؤلاء تمّ إدخال الأخوة الرهبان المقدسين بجماعات، لترفع روح ومعنويات الجند بغناء الصلوات التي تدفعهم إلى الحرب الجيدة الفاضلة، فلا قمار إلا بالمقامرة بأرواحهم لكسب الحرب، وهذه هي اللعبة اليقينية بها، لأنه بدونها سيموت الإنسان على كل حال. لذلك ابتسمت السماء لجهد هذا الفارس الصالح، فصار

جنوده رجالاً بكل معنى الكلمة، وشكّلوا رعباً وإرهاباً للمسلمين، ولذلك كان هذا الكونت الصالح لا يذهب لتدمير المسلمين دون أن يجعل جنوده يقومون بأداء واجب الاعتراف، فراداً وجماعات، فارضاً نفس هذا الأمر حتى على أقرب المقربين منه، لذلك كان علمه دوماً مباركاً من «الفرير» الذين كان يبقيهم «بالحمى» معه، ولهذا كان النجاح حليفه وحليف جيشه، في كل غزواته التي ينهب فيها بلاد الكفرة».

ويتابع الأب «آغابيدا» بقوله: «ولأن معقل «الحمى» يشرف على القسم الأكبر من «الثيغا» التي يسقيها نهر «قازين» و«شنيل»، فقد انطلق هذا «السيد» لغزو ما بينهما، ناهباً كل القطعان من الماشية التي يجدها فيهما، إلى درجة دفعت العرب إلى القول نتيجة كثافة هجماته؛ بأن الخنافس لا يمكنها أن تعبر «الثيغا» دون أن يراها الكونت «تنديلا»؟!، لذلك ذهب المزارعون إلى وضع قطعانهم في الأبراج لحمايتها هناك منه، وبها راحوا يكدّسون نتاجهم الزراعي ويتخذونها مأوى لهم ولنسائهم وأطفالهم منه. وحتى في هذه الأبراج لم يكونوا آمنين، لأن الكونت كان أحياناً كثيرة يعصف بهذه الأبراج، ويحرقها بمن فيها، ليأسر من يخرجون منها أحياء، فينهبهم وينهب متاعهم الذي يحملون ويبيعهم عبيداً، تاركاً أرضهم بلقعاً على مرأى من «غرناطة»».

وكانت عودة هذا الفارس وجنوده من مثل هذه الغزوات تسر الأب الفاضل «آغابيدا» وأمثاله من الآباء في هذا الحصن، لذلك وصف إحدى هذه الغارات المدمرة بقوله: «لو رأيت الحمير والبغال المحمّلة بالغنائم، وبأذيالها قد ربط الأسرى العرب أطفالاً ونساءً، يساقون سوق البهيمة، ويبدون كقطعان الغنم، نحو أبواب «الحمى»، محاطين بالجنود الكاثوليك، الذين يغنمون من هذه الأرض السمينة كل ما فيها بمن فيها من الكفرة». وهكذا كانت مباركة هؤلاء الآباء الأتقياء تشجع وتتوج هذا السلوك اللإنساني الشائن، وتسميه نجاحاً، خاصة وأن قسماً كبيراً من الغنائم كان يوهب إلى الكنيسة، لذلك كان هؤلاء الطيبون من «الفرير» على استعداد دوماً للوقوف على مدخل المدينة للتظاهر «للكونت» وتحيته حين عودته، لينالوا بعد ذلك حصتهم من هذه المنهوبات، وإضافة إلى هذه المنهوبات كانت أعطيات السيد والجند التي جعلت كنيسة «الحمى» تغنى بالنفائس المقدمة لها ولرهبانها.

ولهذا نجد عند «آغابيدا» تلك التفاصيل الدقيقة حين يؤرخ لهذا الفاضل الكونت «دي تنديلا»، ومثل هذه التفاصيل تغص بها وبفضائلها كتب المؤرخين النصارى الآخرين والرهبان، لذلك أجمعوا على اعتباره من أفضل جنرالات اسبانيا لكثرة ما عاث من فساد في هذه البلاد، وهكذا لم يعد المسلمون يجرؤون على الخروج من «الأقصى» إلى «غرناطة» دون خطر وقوعهم بالأسر، فثار الناس على «مولاي أبي الحسن» الذي يسمح أن تستباح بلاده بهذا الشكل وتهان،

لدرجة دفعت هذا الطاغية المسن إلى إغلاق أبواب قصره على نفسه، وبعدها صار يرسل قوات عسكرية لحماية مواسم الحصاد على الأقل، والمعاقل ـ الأبراج ـ حين يكون الرجال في حقولهم، وكانت هذه القوات أحياناً تتجول حول «الحمى» بقطعاتها القوية التشكيل، مراقبة بوابات الحامية حتى لا يستطيع من فيها التحرك نحو الغزو دون أن يُرصدوا ويكشفوا.

وبينما كان الفرسان العرب يضيقون هكذا على «الحمى»، وفي ليلة عاصفة سمع هدير سقوط قسم من سور الحصن، فاهتزّ له كل جدار فيه، وقفز الكونت وأتباعه إلى سلاحهم، على ظن أنه هجوم عربي غير متوقع لقوات كبيرة تقتحمه، وحين عرف «الكونت» السبب لهذه المفاجأة المرعبة، أمر أتباعه رسم صورة الحجارة على قماش تغطى فيها فتحة الجدار هذه، وتكثف الحراسة حول هذه النقطة، بشكل يظهر فيه من البعيد وكأن شيئاً لم يحصل، وخلف هذه الشاشة أمر بإعادة البناء، ليلاً ونهاراً، ومنع الكونت أيضاً أي شخص من مغادرة الحصن حتى لا تتسرب أنباء هذه الفتحة إلى العرب، لكن قوات من كتائب العدو قد رُصِدَتْ وهي تجوب في الجوار، إلا أنها لم تقترب بما فيه الكفاية لاكتشاف تمويه الستارة، فظلّ العمل عدة أيام بشكل مكثّف لرتق هذا الحائط، وأخيراً عاد أقوى مما كان.

وواقعة أخرى دفعت بذهن الأب «آغابيدا» إلى أن يشرد في تصوراته، فقد حصل أن الكونت لم يعد معه مبالغ كافية من الذهب والفضة ليدفع أجور قواته، فتضايق الجيش وبدأت الإشاعات والهمس، فما كان من هذا القائد إلا أن سجّل مستحقات أتباعه كل على ورقة، حسب أجر كل واحد منهم على حدة، ووقّعها جميعاً باسمه ومهرها، فكانت هذه السندات بديلاً عن أجر الجنود، والذي يرفض أخذها كان الكونت يدعو عليه بالإدانة واللعنة، لأنه في المستقبل سيبدّلها لهم بالذهب والفضّة، كما هدّد بأشد العقوبات لمن يرفض أخذ هذه السندات، ولثقة الناس بكلمته، أخذوا هذه السندات بدون تردد، وهكذا فعل هذا الفارس بأن حوّل الورق الذي لا قيمة له إلى ذهب وفضّة بسيمياء سحره الشخصي، جاعلاً من حاميته التي بدأ الفقر يصيبها من حصار المسلمين، غنية بأحمال من المال على الورق، كما أكّد «آغابيدا» مدهوشاً!!

ويمكننا أن نضيف أن الكونت وفى بوعده عندما حصل على المال من المدد الخارجي، وهذا الأمر العظيم المعجز الذي أذهل الأب «آغابيدا» بجعل الورق مالاً ليس إلا ما يسمى اليوم بشيك أو سند خزينة.

الفصل السابع

هجوم الفرسان النصارى على أرض العرب:

رغم كل الثأر الذي ثأره الفرسان الصليبيون الذين هزمهم رجال جبال «ملقا» من العرب، لم يرتو غلّهم ولم ينسواالذعر الذي سببته هذه الهزيمة لهم، لذلك قرروا أن يجهزوا غزوة أخرى، يحملون بها النار والسيف إلى بلاد المسلمين في عمقها، وليدمروا كل هذه الأماكن التي نالت النصر السابق منهم وفجعتهم، ولا يتركونها إلا قاعاً صفصفاً إرواءاً لغل ثأرهم، فتلاقت أمانيهم هذه مع سياسة الملك الذي كان يرغب بتدمير بلاد العرب، والقضاء على مواردها، فقدّم كل مساعدة ممكنة لهذا الهجوم المطلوب.

ففي ربيع ١٤٨٤م عادت مدينة «الأنتكويرا» القديمة تشحن بالسلاح، وعاد إلى أبوابها عدد من الفرسان الذين خرجوا منهافي ذاك اليوم المشؤوم، بكل حديدهم وسلاحهم اللمّاع وجنودهم، وهم يستعيدون ذكرى زملائهم الذين سيثأرون لهم.

فتشكّلت بوقت قصير قوة مختارة من ستة آلاف فارس واثني عشرة ألف راجل، لتنطلق من «الأنتكويرا»، بخليط من زهرة شباب الاسبان من الجنود والفرق الدينية المسيحية والرهبان من جماعة الأخوة المسيحية. واتخذت كل الإجراءات لتزويد هذا الجيش بكل ما يحتاجه في طريقه، فرافقه الأطباء والجرّاحون للعناية بالجرحى والمرضى، بدون أي أجر لأن الملكة قد دفعت كل مرتباتهم، مدخلة أول مشفى ميداني إلى ساحة الحروب.

وهكذا تمّ تجهيز هذا الجيش بشكل كامل، وانطلق فرسانه من «الأنتكويرا» بشكل رائع ومخيف، ولكن بعجرفة وثقة أقل من سابقيهم، بأوامر محددة منعت كل تظاهر.

وقاد أول القوات المتقدمة دون «دي غويلار»، ولحقه ورافقه دون «دييغو دي كورتوبا» و«لويس فرناندز بيترو كاريرو» كونت «بالما» مع المقاتلين من أسرهم، وتبع الجميع «جون دي

مرلو» و«جود دي ألمارا» و«كارلوس دي يزمان» من الأخوة الرهبان المقاتلين المزوّدين بالبنادق الطويلة الثقيلة ـ القديمة ـ .

أما الكتائب الثانية بقيادة المركيز «أوف كاديز» و«ماستر أوف سانتيغو» فكانوا على رأس فرسان سانتيغو وأسر «بونس دي ليون»، ومعهم السنيور قائد «كالاتراڤا» وفرسان نظامه، وفرسان آخرون مع بنادقهم الطويلة ومعهم احتياطهم، ويقود الجناح الأيمن لهذه الكتائب «غوانزاڤو القرطبي» الذي عرف بعد ذلك بلقب ـ المقدّم ـ كابتن الأول في اسبانيا، أما الجناح الأيسر فعليه دييغو «دي آڤيلا» ومعه فرسان متميزون، وإخوة «الفرير» الرهبان المقاتلون المقدّسون ورجالهم المسلّحون.

وقاد دوق «أوف مدينا دي صيدونيا» وكونت «كابرا» الجناح الثالث للجيش مع قوات من أسرتهما، وقادة آخرون معروفون. أما مؤخرة الجيش فكانت بحراسة قائد فرسان القنطرة يتبعه فرسان الأندلس المُتنصِرة من «أكزيرس» و«إيسيجا» و«كرمونا».

هذا هو الجيش الذي خرج من أبواب «الأنتكويرا»، بواحدة من أخطر وأشد الغزوات التي دمّرت مملكة «غرناطة».

ودخل هذا الجيش بلاد المسلمين من منطقة «ألورا» مدمّراً كل الحقول والزيتون والأعناب وحتى الزهور التي تحيط بهذه المدينة، ثم تقدّم إلى الوادي الغني لمنطقة «كوين» ثم «غزرا بونديلا» و«المكسية» و«قرطمة»، لتصير كل هذه المناطق الخصبة صحراء محروقة، ثم تابع هذا الجيش تحرّكه المدمّر والبطيء، مثل تدفق مصهورات البراكين، إلى منطقة «ببينا» و«الهندية» ومنهما إلى سهول «ملقا»، مدمّراً كل حقول الزيتون والحمضيات وبساتين الحبوب، وكل شيء أخضر أمامه، فحاول سكان هذه المناطق شراء محصولاتهم بما عندهم من عبيد نصارى، فلم ينالوا جواباً إلا بقسم الجيش إلى قسمين، واحد لتدمير المدن، والآخر لتدمير الزرع، وإذا حاول بعض السكان مهاجمة هذا الجيش كانوا يردون إلى أبواب أبراجهم وحصونهم بعد أن يذبحوا ذبح النعاج، وكانت تحرق مساكنهم فيهم في بعض الأحيان، وفي الليل كان المنظر مريعاً حيث تختلط أعمدة الدخان مع ألسنة النيران من الضياع المحروقة بناسها، والنساء على أسوار هذه الأماكن المحروقة ترفع أيديها بالدعاء على مستبيحيها.

وعندما وصل هذا الجيش المدمّر إلى الشاطىء، كانت سفن أسطوله قد سبقته إليه بالمؤن والذخائر، التي أرسلت من «قشتالة» و«أكزيرس»، مما مكّنه من الاستمرار في متابعة مهمته التدميرية، فتقدم إلى ضواحي «ملقا» حيث لقي مقاومة شجاعة من عرب المدينة، وظلّت المبارزات الضارية بين الفريقين طوال اليوم، وبينما كان الجسم الأساسي لهذا الجيش يصطدم

بقوات العرب هذه، كانت بقيته تدمّر وتغزو «الڤيغا» وتدمّر كل الطواحين فيها، فهدف هذه الحملة إذاً كان التدمير، لا احتلال أي مكان محدد، وبعد أن شفوا غلّهم من «الڤيغا» توجهوا إلى «ملقا» ليدخلوا باتجاهها مرة ثانية عن طريق جبالها، فمروا «بكوين» و«اللظانية» و«غويترو» و«الحوراني»، فدمّروها كلها، وهكذا كانوا يعربدون بدائرة واسعة في هذه البلاد الغنية، وبأمجاد هذه الجبال، وبسمعة مواطنيها من العرب، وظلّوا على هذه الحال مدة أربعين يوماً، مثل النار المتأججة، لا يتركون خلفهم إلا الدمار والنار، ثأراً من مذبحة «الأقصرقيا»، وعادوا بهذا الضرب من النصر إلى «الأنتكويرا».

أما في حزيران/يونيو فجاء دور الملك «فردناند» ليقود جيشاً شبيهاً بهذا، لكنه أكبر منه، لما لحقه من صيادي المناهب، وقد زوّده بقوات تدمير أفتك، من مدفعية ثقيلة لهدّ الحصون، مع مهندسين من فرنسا وألمانيا مختصين بهذا الشأن لإدارة هذه المدفعية، وقد أكّد «المركيز أوف كاديز» للملك أن حصون العرب لن تتحمل ضرب هذه المدافع، لأنها تعتمد على الشواهق التي بنيت عليها، لا على سمك جدرانها، وبمجرد أن ترعد هذه المدافع على تلك الحصون، ستحوّلها إلى خراب على رؤوس المدافعين عنها.

وقد أكّد صحة هذا الرأي ما حصل بمدينة «ألورا»، المحصنة على موقع يحيط به النهر، حيث سقطت فيه أبراجها وحيطانها من قصف المدافع، ووقع العرب بكل فوضى حين واجهوا الهجوم بعد القصف، مما أظهر فعّالية هذه الأدوات الهندسية المخيفة في الهجوم، ولعل زئير المدافع وتداعي الحصن هو الذي روّع النساء، فطلبوا من سيد الحصن تسليمه، فاستسلم يوم ٢٠ حزيران/يونيو، على شرط مغادرة سكانه بكل ما يملكون معهم، وسكان «ملقا» الذين لم يعتادوا بعد هذا السلاح القتالي ـ المدافع الثقيلة ـ أغاظهم استسلام «ألورا» السهل، فلم يسمحوا لهم بدخول مدينتهم لاجئين.

كذلك كان مصيراً مشابهاً ينتظر مدينة «شطنيل» المبنية على صخرة شاهقة من غير الممكن الوصول إليها أو اختراقها، وقد سبق لملوك النصارى أن حاصروها مراراً دون طائل، وحتى الآن قاومت لعدة أيام والمدافع الثقيلة تصب عليها نارها دون جدوى، وقد سقط كثير من فرسان المركيز «أوف كاديز» حين كانوا يهاجمون هذا المعقل المحال أخذه.

لذلك خفض المركيز حين وجّه المدافع بنفسه، هذه المدافع لتدكّ أسفل بوابة قلعتها وأسفل أبراجها، فانهارت البوابة وفتحت الثغرات في السور بفترة وجيزة، وسقط من يد العرب فاستسلموا، حيث وجد عندهم أربعة وعشرون أسيراً نصرانياً من الذين هزموا في جبال «ملقا»، وهم مكبلون في زنزانة القلعة، وهؤلاء الرجال اعتبروا المركيز «أوف كاديز» مخلّصهم.

ولا داعي لذكر كيفية أخذ مواقع أخرى من قبل جيش «فردناند»، فكثير منها كان يستسلم دون مقاومة، فالعرب كانوا شجعان في الدفاع عن قلاعهم، والأصبر على شدة وبأساء حصارها، لكن هذا السلاح الجهنمي ـ المدافع الثقيلة ـ الذي يدكّ معاقلهم بكل سهولة، قد غلبهم وشتّتهم، وجعل كل مقاومتهم لا قيمة لها، وحتى الملك «فردناند» كان مذهولاً بفاعلية مدفعيته الثقيلة، لدرجة طلب مضاعفة عددها، فصار لهذه الآلات الفعّالة الرهيبة أثر فعال منذ ذلك الوقت في تلك الحرب.

هكذا كانت آخر عمليات هذه السنة كارثية بالنسبة لعرب الأندلس، وأعقبها هجوم «فردناند» على «الڤيغا» إلى درجة أن تدميره وصل حد حرق قريتين قرب «غرناطة» نفسها، وتدمير الطاحونة التي تقع على أبواب العاصمة.

هكذا غلب «مولاي أبو الحسن» في آخر عمره على أمره من نتاج هذا التدمير، الذي توّج عصف النصارى كل هذه السنين بأرضه، وقد وصل الأمر الآن إلى أبواب مدينته، فكسرت روحه الوثّابة بهذا الطالع السيىء، فعرض شراء السلام، وقبل أن يعرض نفسه تابعاً يدفع الجزية، لكن «فردناند» لم يعد يصغي لأي عرض، فاحتلال «غرناطة» صار هدفه من هذه الحرب بعد كل هذه الانتصارات، لذلك تشجّع بالادعاء بأنه لن يرتاح حتى يحقق هذا الهدف، فقوى وحصن المواقع والحصون التي احتلها في قلب المملكة الإسلامية، طالباً من قادتها أن لا يتعاونوا إلا مع «ببدول» الملك المدعي على أبيه في هذه الحرب، وعاد إلى «قرطبة» بنصر مؤزر، مغلقاً حلقة من الغزو غير المنظم، الذي ملأ مملكة «غرناطة» بالإرهاب والحزن والألم.

الفصل الثامن

محاولة «الزّغل» مفاجأة «ببدول» في «المرية»:

خلال هذه السنة الكارثية على العرب، شكّل الملك «ببدول» الذي صار يعرف بالتعس، بلاطه الملكي الضعيف في مدينة «المرية» البحرية، مدّعياً أنه ملك، وهو يقف بظلّ هذه التسمية تحت حماية ملوك قشتالة ودعمها المالي، وهو لايزال يراهن على تغير الأحوال، على أمل أن تعود هذه الأمة الممزقة تحت علمه وتجلسه على عرش الحمراء.

وأمه «ايقصا لاهورا ـ الطاهرة ـ » هي التي تحرّضه وتدفعه نحو هذا المطلب المحال في حالته البائسة تلك، فقد كانت تقول له من ضمن أقوالها الشهيرة: «إن ضعاف العقول هم الذين ينتظرون تبسم الحظ لهم، بينما شجعان العقول يجبرون الحظ أن يلتفت لهم، إذهب إلى ساحة القتال وستجد أن الخطر يهرب منك، أما إذا بقيت حبيس جبنك فسيعود الخطر ليحاصرك في بيتك، فبالمبادرة وحدها تستعيد ملكك في «غرناطة»، أما إذا ظللت سلبياً فستظل بحضن هذا التاج البائس في المرية»(*).

لكن «ببدول» كان جباناً خائباً، ليس فيه من روح أمه المتوقدة هذه ما يمكّنه من اتباع آرائها، فلم يلبث أن واجه الشرور التي توقعتها له أمه.

فمولاي «أبو الحسن» كان يتقدم به العمر وبتقدمه يتراجع حزمه، خاصة وأنه لم يعد يبصر، وصار شبه أعمى، وأسير الأمراض في فراشه، وأخو «عبد الله» المشبّه «بالزَّغْل»، أي رحى الطاحون لبأسه وبطولته، والذي سبق له أن انتصر على الاسبان في معركة أو مذبحة جبال «ملقا»، كان قائد جيوش عرب الأندلس، وصار بعد تراجع صحة أخيه ملكاً غير متوّج عليها،

(*) وبعبارة أخرى: وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا، واطلب الموت توهب لك الحياة، واطرد الخطر قبل أن يطاردك، ولا تقعد عن المعالي وتظن أنك الطاعم الكاسي.

وكان بجانب أخيه في صراعه مع ابنه، وكان حماسه لأخيه يدفع إلى الشك بأن المسألة قد تجاوزت الأخوة نحو المصلحة الشخصية.

ومن جهة أخرى كان للنتائج الكارثية التي ألحقها النصارى بعرب الأندلس هذه السنة، أثرها في جرح كبرياء الناس في «المرية»، فشعروا بالإهانة من سلبية «ببدول» وتعامله معهم في مثل هذه الأوقات، التي بدا فيها وكأنه يخدم أهداف العدو، وعمه «عبد الله» عمل بدوره على إذكاء هذا الشعور من خلال مخبريه، سواء في «المرية» أو في «غرناطة»، أو أي مدينة عربية أخرى، مما دفع بالفقهاء إلى اعتباره مرتداً، وحليفاً للنصارى ضد دينه وبلده، وهكذا انفضّت عنه مشاعر الجماهير، وبدأوا يفكرون بالخلاص منه والتآمر عليه، وفي شباط/فبراير ١٤٨٥م، ظهر «الزَّغْل» فجأة أمام أبواب «المرية» على رأس خيالته، وكان الفقهاء جاهزين لاستقباله، ففتحت الأبواب فوراً له، فدخل رافعاً علمه نحو القلعة، وحين أمر سيدها بمقاومته قتله جنوده، وراحوا يهلّلون «للزغل»، فاندفع «الزغل» يبحث عن «ببدول» في جوانب القلعة وقصرها عبثاً، لكنه وجد «الطاهرة» في إحدى أبهاء القصر مع أحد إخوة ببدول، وبعض فرسان «بني سراج» المتحلّقين حولهما للدفاع عنهما؟! فسأل «الزغل» السلطانة قائلاً: «أين الخائن ببدول»، فأجابت: «أنا لا أعرف خائناً سواك في هذا القصر، وولدي قد انسحب إلى مأمنه، لكي يعود ويثأر من الخارجين عليه»، وهكذا غضب «الزغل» لفرار ضحيته، فضحّى بإبنها الآخر الذي كان معها أمامها(*)، وانقضّ أتباعه تمزيقاً بأبناء سراج وبكل من كان حاضراً، وسيقت السلطانة أسيرة سجينة موضوعة بالأغلال لمساعدتها وضلوعها في كل تمردات ولدها، التي أدّت إلى حرب أهلية ليست في وقتها.

أما «ببدول» التعس فقد هرّبه أحد جنوده المخلصين، في الوقت الملائم نحو اصطبلات الخيول حيث ركب أسرعها، يتبعه حفنة من أتباعه فاراً من زحمة وفوضى أبواب المرية المفتوحة، وحين طارده بعد ذلك أتباع «الزّغْل» خارج الحصن حين شكّوا فيه، بخيولهم التي أضناها المسير سبقهم، لتسدّ بوجهه كل معاقل وقصور المملكة وترفض استقباله، فلم يعد العرب في الأندلس ينظرون إليه إلا نظرتهم إلى المرتد الخائن، لذلك ظلّ طريداً يتجه نحو حُماته الصليبيين، فلا مأوى له من الآن فصاعداً إلا بينهم أو تحت ظلّ حمايتهم، لذلك ظلّ طريداً إلى أن وجّه حصانه نحو «قرطبة»، وهو يتخفّى كالفار في بلاده، فلم يشعر بالأمان إلا حين غادر الحدود، وصارت الجبال التي تحد بلاده خلفه، وعندها أدرك متأخراً وضعه الوضيع هذا، ككفار من تاجه،

(*) هو ابن أخيه أيضاً؟؟

ومطرود من أمته، دمية ملك بلا مملكة، فراح ينعي نفسه قائلاً بكل حسرة: «منحوس يوم ولدت، فأنا التعس الزغبي»!؟

وهكذا دخل أبواب «قرطبة» بدون أي كرامة، ومعه أربعون راكباً من أتباعه، في وقت لم يكن الملكان فيها، فعامله فرسان المدينة بكل شفقة تفترضها روح الفروسية بمن حطّ بهم الزمن وسوء الطالع، فأحاطوه، بكل رعاية، وراح سكان المدينة وفرسانها يسهرون على راحته ويوفرون له التسالي، بتوجيهات من القادة العسكريين في المدينة.

أما في «المرية» فقد عَيّن «الزّغْل» سيداً جديداً عليها ليحكمها باسم أخيه، وقوّى من معاقله التي توصل إلى «ملقا»، حيث يتوقع هجوم النصارى منها، وهكذا بطرده لببدول، ولأن الملك المسن رهن العمى والسرير، صار «الزغل» على رأس الجيش: الملك الفعلي لمملكة «غرناطة»، وقد سرّ الناس به كمثل أعلى يحتذى، واسم جديد يدعون له، لذلك كان «الزغل» يتلقى التحيات والدعوات ـ من الناس والفقهاء ـ كأمل جديد لهذه الأمة.

الفصل التاسع

كيف تحرّك الملك «فردناند» لكي يتابع حملاته ضد العرب، وكيف حاصر «كوين» و«قرطمة»:

كان للأثر الفعّال الذي سبّبته بطاريات تدمير الحصون بمدافعها الثقيلة، في العام الماضي، سبباً مشجعاً للملك «فردناند» بأن يستمر في سلسلة غزواته لعام ١٤٨٥م، التي قرر فيها الهجوم على أكثر دفاعات العدو متانة، فشكّل جيشاً من تسعة آلاف فارس، وعشرين ألف راجل، وخرج به من قرطبة في بداية الربيع، في الخامس من نيسان/أبريل على أساس الهجوم سراً على مدينة «ملقة»، المرفأ الإسلامي القديم الذي تعتمد عليه «غرناطة» في مساعداتها الخارجية وإمداداتها، كما كان من الملائم أيضاً أن يتمّ احتلال بعض القلاع والمدن قبل الوصول إلى هذا الهدف، في وديان «سانت ماريا» و«قرطمة» التي هي على الطريق إلى مقاطعة «ملقا».

فكان أول هجوم للقوات الغازية هذه على مدينة «بني المقوقس»، التي خضعت للنصارى في السنة السابقة، وقد عادت لتتمرّد هذا العام؛ فغضب الملك «فردناند» من تمرّد سكانها مهدداً: «بأني سأجعل من عقابهم إرهاباً لسواهم الذين سيوالون بالسيف إذا رفضوا الولاء بالدين» لذلك عصف بهم، وشنق وقتل حوالي مئة وثمانية من سكان المدينة على أبواب مدينتهم، وساق الباقين عبيداً.

وبنفس اليوم كان يحاصر مدينة «كوين» ومدينة «قرطمة»، فالأولى تمّ حصارها بقسم من الجيش بقيادة المركيز «أوف كاديز»، والثانية بقسم آخر منه بقيادة دون «ألونزو دي غويلار» مع «لويس فرناندز بيترو كاريرو»، أما الملك وباقي جيشه فتمركز بين هذين المكانين، لتقديم المساعدة لأي جناح منهما يحتاجها، وفتحت بطاريات المدفعية نيرانها على المدينتين بنفس الوقت، وصار يسمع هدير مدافعها من كلا الموقعين، وحاول العرب التصدي مراراً بالخروج لملاقاة العدو، ولكنهم كانوا يردّون بسبب كثرة العدو، وحجم الخسائر الضخمة التي ألحقته

بطاريات المدفعية في أسوار مدينتهم، لذلك أطلق العرب سيارات الإنذار النارية الجبلية، فتجمّع كل سكان الجبال العرب من كل السيرا، وتدفقوا بأعداد كبيرة إلى مدينة «موندا» التي تبعد ثلاثة أميال عن «كوين».

وكلما حاول هؤلاء دخول مناطق حصار هاتين المدينتين، كان الصليبيين يردونهم، وهم ينظرون من بعيد ويرقبون تدمير هذا المكان بمواطنيهم فيه، وأثناء هذا الوضع ركب إلى «الموندا» فارس عربي على رأس خيالة من الساحل الأفريقي الأشداء، هو: «حامد الذعري» سيد «روندا» الهمام، رغم أنه وجماعته من «العمرية» لم يكونوا بعد قد ضمدوا جراحهم من هزيمتهم على شاطىء «الأوبرا»، لكنه كان يتطلع مع جنوده الأشاوس هؤلاء للحظة الثأر ممن قتل فرسانهم، وأجبرهم على التراجع إلى الجبال. وهكذا توجّه على رأس محاربيه إلى «الموندا»، وبها وقف ليقول: «من منكم به ذرّة شفقة على أطفال ونساء «كوين» المعرضين للقتل والسبي، فليتبعني ليموت مجاهداً مسلماً لنجدة إخوانه في الإسلام». ثم ركب حصانه رافعاً علماً أبيضا، وراح يحركه فوق رأسه ليتبعه الفرسان العمرية محتذين حذوه، ومعهم كثير من الفرسان الذين أثارتهم أقواله من الذين راحوا ينضمون تحت لوائه، ومن جهة أخرى وبتدبير مسبق خرج فرسان «كوين» ليهاجموا محاصريهم، بعد أن رأوا أعلامه البيضاء تبرق(*)، وبعد معركة دخل الجميع إلى أبواب حصنهم، مما عزّز دفاع الحصن «بالعمرية» و«بحامد» مع المحاربين المحترفين الذين كانوا كلما اشتد عليهم الهجوم كان دفاعهم يشتد ويقوى.

أخيراً أحدثت القذائف فتحة في سور المدينة، فأمر «فردناند» ـ الذي نفذ صبره من مقاومة المدينة ـ قوات دوق «أوف نقصرى» وكونت «بنأفنتي» بالدخول من هذه الفتحة، لكنهما عجزا مما دفعه إلى تعزيزهما «بلويس دي سيدرا» بجزء من قواته.

لكن هذا الأخير طلب من الملك أن يشارك معهم بنفسه، مما شجع «فردناند»، الذي يعرف طبع الغيرة الإقطاعية لنبلائه، على الدفع بكل هذه القوات معاً، مع كل رجاله في المعسكر الذين جهزوا كل أجهزة تسلقهم للأسوار، وكانوا ينتظرون مثل هذه اللحظة، وكان رأس حربة الهجوم «بيرو رويز دي ألاركون» متجهاً بكل قوته نحو الثغرة، فتراجع العرب عنها بسبب كثافة الهجوم، وهم يقاتلون نحو ساحة المدينة العامة، فظن «بيرو» أن المكان قد أخذ، عندما فاجأه «حامد» و«العمرية» بالإطباق على قواته من الشوارع الجانبية، وهم يكبّرون تكبيرات تملأ قلوب النصارى بالذعر، فانهزموا حين التفاتتهم هذه «للعمرية» وراح السكان يهاجمونهم من كل جهة، بكل ما يمكن الإطلاق منه من سهام وبنادق طويلة، من أسطح المنازل وشبابيك

(*) لم تكن الأعلام البيضاء تعني الاستسلام في ذلك الوقت.

البيوت، فعادوا أدراجهم خارجين من الفتحة التي دخلوها من السور، بينما ظلّ «بيرو» يحاول التمسّك بمكانه بأحد الأزقة، والفرسان الذين بقوا معه يحضونه على الفرار، فنهرهم قائلاً: «لا؟! لقد جئت لأقاتل لا لأهرب؟!» فتخلى عنه فرسانه طلباً للنجاة بأنفسهم، وكان آخر ما رأوه منه هو نزف جراحه وهو مخضب بالدم في قتاله البائس من أجل سمعته الفروسية.

لكن مقاومة السكان رغم دعم «العمرية» لها لم تستطع التصدّي لبطاريات المدفعية المسيحية التي تصبّ حممها على المدينة، فأزالت قسماً كبيراً من سور المدينة، مشعلة النار بكثير من الأحياء في أماكن مختلفة، وهكذا سقطت المدينة أخيراً، وسمح لسكانها بمغادرتها مع متاعهم، و«العمرية» بسلاحهم، فخرج «حامد الذعري» مع خيالته الأفارقة محيطاً بالسكان بكامل سلاحه عبر معسكر الأعداء وبكل فخرٍ، والفرسان الاسبان ينظرون بكل إعجاب لهذا المقاتل الجريء، وفرسانه المخلصين.

وتبع سقوط «كوين» سقوط «قرطمة» التي أمكن إعادة إصلاح حصونها بعد ذلك، أما «كوين» التي جرى بها قتال ملحمي صار من الصعب الحفاظ عليها، لذلك هدم النصارى حصونها كلها، وكان لسقوط هاتين المدينتين أثر مرعب أرهب بقية قراهم وضواحيهم المجاورة، لدرجة دفعت بالكثير من العرب فيها إلى ترك أملاكهم وبيوتهم والنجاة بأنفسهم، مع مايقدرون على حمله من متاع، وتعقّب الملك هذه القرى بهدم حصونها وإزالة أبراجها الدفاعية.

وهكذا ترك الملك «فردناند» معسكره ومدفعيته الثقيلة قرب «قرطمة» واتجه بقواته الخفيفة نحو «ملقا»، فعرف اتجاهه بهذه الحملة وانكشفت كل خططها، لذلك تحصّن المحارب القدير «الزغل» في «ملقة» وقوّى حصونها ودفاعاتها، التي كانت منيعة جداً، ووضعها بوضع دفاعي، وأرسل أوامره إلى «سياد» القرى الجبلية لكي يهبّوا إلى نجدته بأسرع وقت ممكن.

وبمجرّد أن ظهر «فردناند» لاقاه «الزغل» متجهاً نحوه بألف فارس من خيرة محاربي «غرناطة»، وبدأت المبارزات الحامية في حقول الزيتون بين الجيشين قرب المدينة، ليسقط من الجانبين خيرة أبطالهما، مما أعطى الصليبيين مذاقاً حاداً لما يمكن أن يطعموه إذا حاولوا محاصرة هذه المدينة.

لذلك عقد المركيز «أوف كاديز» بنهاية هذه المعركة لقاءً مع الملك، مظهراً له صعوبات حصار «ملقة» بوجود مثل هذه القوات فيها، خاصة وأنه قد عرفت نية الملك بالحصار، ولم يعد مفاجأة، وكل البلاد تسير لملاقاتهم، وقدمت مخابرات المركيز له من كل القواطع، وخاصة من «جوزيف الظريف» العربي المتنصر ذي الأصول المسيحية، تقاريرها عن خطورة الوضع، إضافة

إلى شرح لوضع «روندا» وأهمية موقعها وحالة حاميتها التي يمكن مهاجمتها، لأن مقاتليها هبّوا لنصرة «ملقا» وبإمكان الملك أن يستفيد من هذه الفرصة، ويؤمّن هذا الموقع الهام، الذي يعد من أقوى مواقع العرب على الحدود معه، خاصة وأن هذا الموقع لازال بيد «حامد الذعري» مرعب كل الأندلس. كذلك كان لهذا المركيز دافع آخر لدفع الملك نحو هذا الحصن الذي في أقبيته يرسف بالأسر عدد كبير من رفاقه بالسلاح الذين وقعوا بالأسر بعد موقعة «الأقصرقيا» الجبلية، فمن واجبه إنقاذهم وإعادتهم إلى الحياة والحرية، لأنه كان واحداً من الذين تسببوا في مصيبتهم هذه بتلك الحملة التعسة.

وهكذا سمع الملك «فردناند» لنصائح مركيزه، مدركاً أهمية «روندا»، التي تعتبر أحد أهم مفاتيح «غرناطة»، والتي يجب تأديب سكانها بسبب المساعدة التي قدّموها إلى حامية «كوين»، فتخلّى الملك عن محاصرة «ملقة» في الوقت الحاضر، وبدأ يجهز نفسه وأتباعه سراً بسرعة للتحرك نحو مدينة «روندا».

الفصل العاشر

حصار «روندا»:

عاد «حامد الذعري» إلى معقله المنيع في «روندا» دون أن يلوي على أي شيء بعد استسلام «كوين»،ورغم أنه قد روى سيفه بدم هؤلاء النصارى الذين صاروا يتفوقون على المسلمين، ظلّ ثأره منهم غير مكتمل. لقد كان مجد «حامد» في قوة معقل حصنه وشعبه، وما تحت قيادته من جنود أشاوس يمكن أن يجتمعوا فور إشارة من «سيارات» ناره الجبلية، من كل السيرا، و«العمرية» عنده الأقدر على إخضاع كل الأندلس وترويعها وأخذ الجزية من نصاراها عن يد وهم صاغرين، وقلعته المبنية على هذا الشاهق الصخري تحتوي على سجن في أقبيتها مليء بالأسرى النصارى، الذين أحضرهم صقور الحرب «العمرية» من الجبال.

لذلك اعتبرت «روندا» منيعة لا يمكن اختراقها، فهي في قلب جبالها الوعرة، صخرة شاهقة معزولة، تحيط بها قلعتها القوية كالهلال، وجدران سورها الثلاثية الحيطان يحيطها من كل جانب نهر على شكل خندق سريع الجريان يلتف حول ثلاثة أرباع أبراج المدينة من نهر «ريو ڤردي أو النهر الأخضر»، وللمدينة ضاحيتان مسوّرتان بجدران وأبراج، وهما غير مطالتين تقريباً، بسبب طبيعة الصخور المبنية بها، ويحيط بهذا المعقل المدينة وادٍ عميق غني تحميه الجبال وتلتف حوله، ويخترقه أنهار وجداول عدة، وينتج أشهى الثمار والحنطة، وبه «تُنْغل» الخيول الأندلسية النادرة لأنها الأفضل في كل المملكة للغزو.

وما كاد «حامد الذعري» يصل إلى «روندا» حتى وصلته أخبار تقدم الجيش الصليبي نحو «ملقة» ومحاصرتها، مع أوامر من «الزغل» له كي يرسل النجدات، وأثناء ذلك راح يتأمل في غزوة من وراء ظهر هذه الجيوش المسيحية يردّ فيها الاعتبار الذي أفقدته إياه هزيمة «الأوبرا»، فعاصفة المعركة تتجه نحو «ملقا» ولا خطر مباشر يهدد مدينته، فترك حامية صغيرة فيها، وانطلق على رأس قواته من «العمرية»، ليظهر فجأة في سهوب الأندلس، ويكتسح بدون أي

مقاومة تذكر تلك البلاد التي هي بعهدة الدوق «أوف مدينا صيدونيا»، وأجراس الكنائس مع نيران السيارات الجبلية لم تثمر أي مقاومة ضده، فكانت قواته كالعاصفة الإعصارية من التدمير الذي سببته.

وعاد «حامد» إلى «السيرا دي روندا» محملاً بالغنائم ويسوق قطعان المواشي أمامه من كل أصنافها، مما غنمه من «مدينا صيدونيا»، والبغال محمّلة بمحاصيل فلاحيها، وحتى كل جندي عاد بمجوهرات ثمينة لعشيقته.

وما إن عاد «حامد» باتجاه معقله، حتى أفاق من نشوة نصره على أصوات قرع طبول الحرب ضده في شعاب الوديان، فركب بنفسه ليرى ما هذا الأمر الذي تتناقله صدى الشعاب، وما إن أطلّ على الوديان التي منها مصدر الصوت، حتى رأى ضواحي «روندا» وقد ملئت بقوات الحصار مع أعلامها وخيامها، وعلى رأسها العلم الملكي الذي يؤكد حضور «فردناند» بنفسه، بينما صوت المدافع وسحب الدخان تدل على أن التدمير قد بدأ.

لقد نجح الجيش الملكي بالوصول إلى «روندا» بغياب سيدها ومعظم حاميته، لكن سكان المنطقة دافعوا عن نفسهم برجولة، وهم يثقون بأن «حامد» والعمرية سيلحقون بهم بسرعة حين يعودون.

لكن قوتهم الطبيعية لم تكن بحجم قوات بطاريات المدفعية، فخلال أربعة أيام فقط سقطت ثلاثة أبراج ودمّر قسم كبير من سور ضاحية «روندا» وتمّ اكتساح هذه الضاحية، فوضعت المدفعية وأدوات دكّ الحصون في مواجهة المدينة الآن، وراحت قاذفات المنجنيق والمدافع ترمي النار والحجارة على المدينة وعلى طرقاتها، وهكذا عاد الأمل إلى الأسرى النصارى في أقبية القلعة بخلاصهم.

أما «حامد» الذي رأى ما يحصل لمدينته فقد جمع أصحابه وهاجم القوات المحاصرة على أمل أن يفك الحصار عن مدينته، فوصلوا بهدوء إلى مرتفع يشرف على القوات المسيحية ومعسكرها، وعلى جنح الظلام حين نام قسم من الجيش، نزلوا نحوهم ليضربوا في مكان الضعف من المعسكر، على أمل فتح ثغرة نحو المدينة، لكن المعسكر كان مزدحماً، وأقوى من أن يخترق، فتمّ ردّهم إلى مكامنهم في صخور الجبال، حيث دافعوا عن أنفسهم منها ضد ملاحقيهم بالحجارة والصخور.

فأشعل «حامد» سيارات الإنذار، فوصلته تعزيزات من الجوار ومن «ملقا»، فقام بهجوم آخر فور وصولهم ضد النصارى قطع كل الإمدادات عن المعسكر، لكنه فشل بفتح ثغرة توصله إلى المدينة، وخسر الكثير من رجاله الشجعان، وأجبر على التراجع نحو الجبال.

مما زاد القلق في «روندا» ساعة بعد أخرى، خاصة بعد أن وصلت قوات المركيز «أوف كاديز» إلى حدود النهر، بعد أن أسقط ضاحية المدينة، فصار تحت قواعد بناء المدينة الصخرية التي يصل ماء النهر منها بممر سري وهو يدور حول سورهاإلى داخل المدينة فتشرب وتتوزع ماؤه، وحين كشف «المركيز» هذا الممر السري استطاع أن يحرم المدينة من مائها.

وبينما كان المركيز يضغط هكذا بحصاره على المدينة، وكله أمل بأن فك أسر أصحابه من زنزاناتها صار بقبضة يده، كان «حامد» يتضور غيظاً وغضباً وهو يرى من الشعاب المقابلة ما يحصل بمدينته وكيف تدمّر، وكل قذيفة كان يطلقها العدو كانت وكأنها تنزل في قلبه، لقد كان يراقب أبراج مدينته وهي تسقط واحدة تلو الأخرى في النهار، أما في الليل فالمدينة تتوهج بألسنة اللهب والنار منها وكأنها بركان ثائر. وقد وصف هذا الأمر مؤرخ معاصر للحدث فقال: «لم تكن تهمهم صخور المنجنيق التي تنهال عليهم، لكن قذائف المدافع الحديدية الضخمة كانت تدمّر كل ما بنوه بكل حياتهم. كذلك كان الصليبيون يرمون المدينة بكرات من الزيت الشاعل والبارود التي لا يمكن إطفاء لهبها والحريق الذي تسببه، وهذه هي التي أحرقت البيوت».

ومما روّع السكان وأفزعهم أنهم لم يعودوا يعرفون إلى أين يفرون أو إلى أين يتجهون، فبيوتهم إما تحترق، أو تمزقها القنابل، والطرقات مليئة بكرات الزيت التي تنهال عليها من كل صوب، مدمّرة كل شيء تصيبه، جاعلة من المدينة كرة من اللهب ليلاً، فوصل عويل النساء والأطفال إلى أسماع جنودهم على الجبل المقابل.

وهكذا لم يعد أمام سكان المدينة إلا الاستسلام، لكن «فردناند» كان يعرف أن باستطاعتهم أن يقاوموا أكثر، مما قد يهدد معسكره من القوات العربية التي تهاجمه يومياً، لذلك قدّم شروطاً غادرة سهلة لسكان المدينة، بأن سمح لهم الخروج بمتاعهم إلى أفريقيا، أو أي مكان آخر في العالم، أما من يختار أن يظل تحت التاج الاسباني فيستطيع أن يمارس دينه بحرية.

وبمجرد أن استسلمت المدينة توجه الجيش للهجوم على العرب الذين يحاولون فكّ الحصار عنها في الجوار، فقرر «حامد» أن لا يخوض معركة غير مثمرة، فتراجع مع قواته حزيناً، لكنه آمل بالله أن يعطيه الفرصة ثانية للثأر في المستقبل.

وكان أول شيء فعله المركيز «أوف كاديز» فور دخوله المدينة، هو فكّ أسر فرسانه من أقبيتها ومن أقبية حصنها، فظهروا شبه عراة، وهم مكبلين بالحديد في أوساطهم وبأرجلهم، بعد أن كانوا يلبسونه دروعاً مزخرفة، وهم يخطرون فيه بكل تألق القوة والعافية، حين انطلقوا بغزوة الجبال، بينما هم اليوم ـ وقد أكل الحديد من جلودهم، ونال السجن من صحتهم ـ أسرى

الحزن والمرض، لكن لقاءهم مع المركيز كان تطبيباً لخاطرهم الذي ملأته هذه التجربة بذكريات مريرة، وبينهم عدد لا بأس به من الشباب من أسر عريقة قد أسلموا أنفسهم بديلاً عن أسر آبائهم.

وزوّد الأسرى بالبغال وأرسلوا إلى الملكة في «قرطبة»، فزوّدتهم بالعتاد والمال ليصلوا إلى بيوتهم، وعلّقت أغلالهم كدليل عرفان وتقوى على جدران كنيسة «سانت جون دي لوس ريس» في «طليطلة»، حيث يمكن للمسافرين المسيحيين رؤيتها إلى هذا اليوم.

وكان بين الأسرى العرب امرأة غير مؤمنة مثلهم على درجة عالية من الجمال، قررت وحدها أن تصير مسيحية، وتظل في اسبانيا، بعد أن أوقد شعلة الإيمان في قلبهاأحد الأسرى النصارى الشباب في «روندا»، فطلب يدها تتويجاً لعمل التقوى الذي قام به هذا، فقبلت الملكة ذلك شرط تطهير هذه الجارية بالماء المقدّس للتعميد من رجسها السابق.

وبهذه الطريقة قال الأب الفاضل «آغابيدا»: «تمّ تطهير هذا المعقل للكفر بالرب، ومسحنته بهدير المدافع، كقدوة تمّ استخدامها في «كازانبولينا» و«ألابريلا» وباقي البلاد في تلك المقاطعة، فلا أقل من سبعين معقلاً ومدينة تمّ تخليصها من التعويذة السرية المحمدية، وأعيدت تحت ظلال الرأفة للصليب»(*).

(*) وتمام القصة مع قصيدة «أبي البقاء الرندي» في مطلع هذا الكتاب.

الفصل الحادي عشر

كيف قدّم سكان «غرناطة» التاج «للزّغل»، وكيف دخل العاصمة:

لقد كان شعب «غرناطة» ينتمي إلى ذاك العرق العربي المتقلّب، الذي لا يستقر على علامة ملك واحدة، وكان آخر تجسيد لتقلبهم هذا أنهم ظلّوا ولفترة طويلة تحت حكم ملكين بذات البلد: «مولاي أبي الحسن» وابنه «بيدول الشيكو»، مرة يناصرون هذا وأخرى ذاك، حسب ما يتعرضون له من ضغوط خارجية، لكن تتابع هذه الضغوط صار رهناً بشرور الفرص والصدف، وبسقوط «روندا» ظهر رأي عند الساسة مدّعي الذكاء، بضرورة تشكيل حكومة فعّالة تحكم الملكين كما عند خصومهم، فتجمّع الناس على هذا الرأي في الساحات العامة، وهم ينسبون أسباب انهيار بلادهم إلى حكّامهم، كالعادة في مثل هذه الحالات، مؤكدين أن أخطاءهم هي التي سببت هذا الانهيار، فالناس لا يمكنها أن تتصور أن أساس بؤسها منها هي، وأثناء إحدى هذه التجمّعات وقف فقيه اسمه «عليم مصري» وهو يلاحظ فورة هذه الجماهير فقال: «إنكم تختارون تبادل السلطة بين ملكين، وهما: «مولاي أبي الحسن» الطاعن بالسن والقسوة لكنه غير قادر على الركوب والسير لملاقاة الخصوم، حتى حين يصلون إلى أبواب مدينته، و«بيدول الشيكو» الخائن الفار من ملكه، واللاجىء عند العدو، وهو أسير سوء طالعه لدرجة أنه تعس بكل معنى الكلمة، وفي أوقات صعبة كهذه لا يصلح للأمر إلا من هو أهل له، لرتق ما فتقه السيف، فهل لديكم مثل هذا الرجل؟! ولكي لا تنظروا بعيداً ساق الله لكم مثل هذا الرجل القادر على استعادة مجد «غرناطة»، إنه قائد جيش هذه البلاد البطل «عبد الله» الملقّب «بالزغل» لطحنه للأعداء في ساحات المعركة، ناصر الدين وموقع الذعر على الملحدين».

هكذا تلقت الحشود أقوال الفقيه بحماس وأعجبتهم فكرة تتويجه على «غرناطة» لأن «الزغل» من أسرة ملكية، وبيده السلطة الفعلية الآن، ولا ينتج عن بيعته أي صدام أو عنف، لذلك أرسلت الرسل إلى «ملقا» لدعوة «الزغل» كي يستلم تاجه في «غرناطة».

وحين عرضوا عليه الأمر دهش فهو لا يريد إلا إعفاء «مولاي أبي الحسن» من أعبائه، ولا يتطلّع إلاّ إلى حماية شعبه، لذلك قبل هذا المنصب، فترك «رضوان فانيغاس» أحد قادته الأشاوس على «ملقا»، وتوجّه نحو «غرناطة» برفقة ثلاثمئة فارس من فرسانه.

ولم ينتظر مولاي «أبو الحسن» قدوم أخيه فاتجه بدوره إلى مدينة «المنيصر» التي يوالي سيدها له، والتي تقع على شاطىء البحر المتوسط كملجأ أمين لوحدته وعزلته، فهي بوادٍ خصب يسقيه نهر «فريو»، وفيها كل أنواع الثمار والأطايب، كما أنها مدينة آمنة حصينة، لذلك اختارها لعزلته، مرسلاً لها قبله كل كنوزه الشخصية، ليلحق بهم وتلحقه سلطانته «زريانه أو الزوراء» شعاع الفجر المسماة «بفاطمة» مع ولديها إلى هناك.

أثناء ذلك كان «الزغل» يتجه نحو العاصمة بفرسانه الثلاثمئة، لكن طريق «ملقا» إلى «غرناطة» كان يقطعه الوادي، الذي يشرف عليه حصن «الحمى» الذي كان في ذلك الوقت كما سبق وأشرنا تحت قيادة: «الكونت دي تنديلا» ولا يمكن أن يمر مسافر في الطريق أمامه دون أن يراه، وعنده القوات المستعدة دوماً للهجوم، لكن «الكونت» كان قد سلّم موقعه هذا مؤخراً إلى «دون غويتر دي باديلا» من فرسان النظام الديني «لكالاترافا»، ومعه ثلاثمئة فارس من نظامه الديني، لكنه كان رجلاً سهل الانقياد، مما أعاد الحصن إلى الفوضى التي كان يرسف فيها قبل أن يستلمه «الكونت»، وصار فرسان هذا الحصن رغم جرأتهم في القتال وشدتهم فيه، مهملين لكل الاحتياطات نظراً لثقتهم الزائدة في أنفسهم، وقبل قدوم «الزَّغْل» بقليل خرج مئة فارس من هؤلاء مع سبعين راجلاً، وعدد من صيادي الغنائم للتحرّش بسكان «الڤيغا»، مستغلين ظروف انكسارات المسلمين الحالية، فغزوا السهل وعادوا ليتجهوا إلى «الحمى» محمّلين بالغنائم.

وحين مرّ «الزَّغْل» بمضيق الوادي الذي تشرف عليه «الحمى»، أرسل كشافة لتسبقه وتؤمن له الطريق من احتمالات كمائن العدو، فرصد أحد هؤلاء الكشافة أولئك بعد مروره بانفراج من انفراجات الطريق، كمجموعة من الفرسان الصليبيين على شاطىء جدول صغير، وقد ترجلوا وفكوا سروج خيلهم التي ترعى في الأعشاب المجاورة لشاطىء الجدول، وقد تفرّق معظمهم بين ظلال الأشجار يتقاسمون منهوباتهم، ولا يوجد أي حراسة لتجمعهم هذا، معتبرين أنفسهم بمأمن من كل خطر.

وكان هؤلاء الفرسان المهملون جزءاً من فرسان نظام «كالاترافا» الديني، الذين عادوا من نهبهم للتو كما أشرنا، بعيداً عن قوات «كاڤالغادا» وكانوا تسعين فارساً، وبمجرد أن علم «الزغل» بهم سخر من إهمالهم قائلاً: «سيكون من المجد تطويب دخولنا إلى «غرناطة» بهؤلاء؟!».

لذلك دخل الوادي بكل هدوء ليطرد فيه بكل سرعة بعد ذلك وهاجم هؤلاء على حين غرة، بقوة وشدة لم تسمح لهم بالوصول إلى خيولهم أو ركوبها، فدافعوا عن أنفسهم بشكل عشوائي، لكنه شديد، وهم يتمترسون بالصخور وبالجدول، لكن دفاعهم لم يكن مجدياً، فذبح تسعة وسبعون منهم، وأخذ الأحد عشر الباقون أسرى، ولاحق المسلمون قافلة منهوباتهم التي فرّ عنها من يقودها بمجرد رؤيتهم واستعادوها.

وهكذا جمع «الزّغل» أسراهم وغنائمهم، وتابع سيره بكل نجاح نحو «غرناطة»، وتوقف أمام باب «الفيرا» لإجراء مراسم تسلمه الملك، تسبقه شهرة هذا النصر الأخير الذي انتشت به وانتعشت جماهير الناس.

فدخل «غرناطة» دخول المنتصرين، يدفع بالأحد عشر أسيراً من «الكالاتراڤا» أمامه، وخلفه يجرّ التسعين حصاناً من أحصنتهم وعليها دروع وأسلحة فرسانها الذين جندلهم، وعلى جوانب سروج فرسانه، رؤوس الفرسان النصارى المقطوعة، وهو يستعرض فرسان «غرناطة» الذين خرجوا للقائه، كاللجة اللامعة بسلاحهم البرّاق المزركش والمطعّم بأجمل الحفائر، ووراء هذا الجيش كانت تسير قطعان المنهوبات المسترجعة والغنائم التي كان يحملها النصارى على البغال.

هؤلاء الأسرى الأحد عشر وتلك الرؤوس المعلّقة على سروج خيل الفرسان العرب، هي التي كانت تشيع الرعب في «الڤيغا» كجزء من حامية «الحمى» الخطيرة، فهلّل الناس لهذا النصر الصغير عليها، وكأنه الفتح الذي يقوم به مليكهم الجديد، ولم يعد يذكر اسم «أبي الحسن» ولا «ببدول» ابنه إلا باستياء، والكل صار يشيد بالملك «الرحى» أي «الزغل».

الفصل الثاني عشر

كيف حاول الكونت «دي كابرا» اعتقال ملك آخر، وكيف جَزِعَ أثناء محاولته:

كان لتغير الملك في «غرناطة» أثره الكبير في تغير مجرى الحرب، فقد ردّ هذا الملك الجديد بعض الضربات التي أعادت للعرب ثقتهم بالتاج، ودفعت من جهة أخرى النصارى إلى ضرورة تجديد قواهم.

وفي هذا الوقت كان كونت «كابرا» في قصره بقلعة «ڤاينا»، يرقب الحدود بعين المحارب الخبير، وقد شارف آب/أغسطس على نهايته، مما يعني أن حروب «الصائفة» ذهبت دون أن يشارك بغزو عدوه، لذلك أرسل كشافته وجواسيسه ليأتوه بنبأ ضعف حامية «موكلين»، المدينة القلعة التي تقع على شاهق جبلي محاط جزء منه بغابات كثيفة، والجزء الآخر بالنهر، وهي تحمي واحداً من أوعر الممرات التي لا يمكن للصليبيين أن يمروا منها لغزوهم، فهي بطبيعة الحال درع لغرناطة كما يعتبرها العرب.

وبدوره أرسل الكونت «دي كابرا» إلى مليكه تفاصيل الحماية الضعيفة لهذا الحصن، مؤكداً أن حملة سريعة سرية يمكنها أن تسقطه، فطلب الملك «فردناند»، مجلسه، فحذره بعضهم من تسرّع «الكونت» وعدم تعقله للخطر، «فموكلين» كما هو ملاحظ قريبة من «غرناطة»، ويمكن تعزيزها بسرعة، لكن الملك لم يستمع لهذا الرأي على اعتبار أن ما يقوله «الكونت» معصوم عن الخطأ، منذ أن تمكن هذا «الكونت» من أسر «ببدول».

لذلك خرج الملك من «قرطبة» وتمركز في «القالا» بهدف أن يكون قريباً من «موكلين»، وكذلك وصلت الملكة إلى «ڤاينا» مع أولادها: الأمير «جون» والأميرة «إيزابيلا الصغيرة»، ومستشارها في كل الأمور العامة والخاصة، والروحية والمادية، كاردينال اسبانيا الأكبر.

ولعل لا شيء كان يمكنه أن يعادل سررو الكونت «دي كابرا» أكثر من رؤيته لهذا الحشد الملكي، وهو يدخل بوابة مدينته من طرقها الجبلية، فاستقبل ضيوفه الملكيين باحتفال مهيب، وقدّم لهم أفضل شقق قلعته الحربية الممكنة، تلك التي كان يشغلها «بيدول» قبلهم.

أثناء ذلك كان الملك «فردناند» يعد العدة لهجومه المفاجيء، واضعاً خطته على أساس أن يتقدم الكونت دي كابرا مع «مارتن ألونزو دون منتموري» ليصلوا إلى «موكلين» بساعة محددة، ويحاصروها مانعين الدخول والخروج منها، ويلحق بالكونت «دي كابرا» كل من «ماستر أوف كالاترافا» وقائد قوات الحبر الأعظم لاسبانيا الكونت «بونديا» مع أربعة آلاف فارس وستة آلاف راجل، وبذلك تطوّق المدينة، ثم بعد ذلك يتبعهم الملك بكل قواته ليعسكر أمام هذه الحشود.

وهنا يندفع المؤرخ الفاضل؟! «آغابيدا» بكل حماس ليؤكد كيف أن هذا الملك الفاضل كان يشهد بنفسه ساحات القتال، كمجاهد صليبي مقدّس، يسعى إلى مجد الكنيسة التي يؤازرها دوماً قديسون ورجال فضيلة أمثاله؟! لأن مجد الكنيسة لا يتحقق كما يفعل بعض الملوك ببناء الأبراج والحصون وتعيين السياد عليها، وما يتبع ذلك من أمور دنيوية، لكن ببناء الأديرة والكنائس والكاتدرائيات وتزويد شمامستها وقساوستها بالمال، وهؤلاء الرجال كانوا دوماً يحيطون بصاحب الجلالة هذا، سواء في قصره أو في غزواته، في مكتبه أو في ساحات الحرب كحشد من المرشدين الروحيين، ممن يلهمه كيفية ممارسة هذه الحرب الفاضلة المحقة، وأكثر من ذلك كان رجال الكنيسة يبدّلون طاقياتهم بالخوذ والرماح الحربية ليقاتلوا بأدوات مادية حرباً من أجل الإيمان، كما أكّد هذا الأب الفاضل.

وعوداً على بدء من تعليقات هذا الأب الفاضل حول المسيحية الحقة، نقول: عندما علم الكونت «دي كابرا» بخطة الملك، ذهب فوراً على جنح الظلام لتنفيذها حرفياً، بعد أن جمع قواته على نهر «ڤاينا» بيوم عاصف وتحرّك بهم طوال الليل بدون أي توقف عبر شعاب الجبال، ولم يستريحوا إلاّ في هاجرة اليوم التالي بظلال منعطف وادٍ عميق، ليصلوا إلى «موكلين» بالوقت المحدد لهم كي ينضموا للقوات الأخرى.

وما كادت هذه القوة أن تستريح من عناء الطريق، حتى وصلتهم الأخبار بأن «الزغل» قد خرج فجأة من «غرناطة» بقوات كبيرة ليخيم أمام «موكلين»، دلالة على أنه على علم مسبق بالهجوم، لكن هذا ما لم يشغل بال كونت «كابرا» الذي سبق له أن أسر ملكاً عربياً، فبدت له فرصة إمكان أسر ملك ثانٍ، إن أي نصر ومجد سيكون من نصيبه لو وضع في قصره في «ڤاينا» ملكاً عربياً آخراً ليقدمه هدية إلى صاحبة الجلالة المقيمة الآن فيه، وكانت هذه الفكرة النارية

حافزه على التحرّك حتى بدون أي استعداد أو تنسيق مع مليكه، فقد أعماه نجاحه السابق، فوثق بالظروف وظن أن مغامرة شجاعة أخرى ستحمل له الجوائز الملكية، والألقاب لأحفاده دون منازع، فصار خوفه الوحيد هو وصول «ماستر أوف كالاترافا» مع «البيشوب» معه أو قبله لمشاركته هذا المجد، فأمر كل من معه بسرج خيولهم وهو يشع بهذه الروح الحامية، لكي يلحق «بموكلين» دون أن يعطي قواته حاجتها الضرورية من الراحة.

وعندما وصل «الكونت» إلى ضواحي «موكلين» كان المساء قد بدأ يخيم، والقمر بدراً في سماء صافية لا غيم فيها، وهو يتحرك بقواته في واحد من وديان اسبانيا العميقة الذي تتدفق فيه الجداول في موسم الأمطار، وكأنه يسير بين جدارين عاليين، ويرتد ضوء القمر على درق ودروع فرسانه التي تشعّ وتتألّق في عمق هذا الوادي، والجيش يمشي صامتاً بين ومضاتها، وفجأة يردّد الصدى صرخات العرب الحربية وتكبيراتهم في كل أرجاء الوادي، فصرخات «الزَّغْل» تأتي من كل منعطف ومعها هطول من السهام والنيران التي أسقطت عدداً من المحاربين الصليبيين، وحين رفع «الكونت» بصره لرؤية ما يحدث على ضوء القمر، وجد أن وراء كل صخرة عربي يرمي، وهذا الهطول بالرمايات كانت تتلقاه دروع أصحابه اللمّاعة على ضوء القمر بشكل قاتل، لأنها صارت كأهداف للعدو، وهكذا رأى «الكونت» أخاه «غونزالو» يسقط ميتاً بجانبه قبل أن يقع هو من عن حصانه الذي أصابته أربعة حراب عربية، يعقبها طلقة من «غدراة» أصابته بيده، فتذكر مذبحة «ملقا» وخشي مصيراً مشابهاً، فمسك بزمام حصان أخيه الجافل وقفز على ظهره، طالباً من رجاله الإسراع باللحاق به والفرار، فلا وقت لأي توقف في هذا الوادي القاتل.

وانقضّ العرب على هذا الجيش الفار من علٍ خلال مطاردة استمرت حوالي ثلاثة أميال، سقط خلال هذا القتال الضاري فيها فرسان ذوو شأن من كلا الجانبين، لكن كانت خسائر الفارين الذين اضطروا للعودة والقتال في شعاب هذه الجبال خلال كل خطوة يخطوها الجيش فادحة، وخاصة من محاربي «ڤاينا» وضواحيها، وقد فتك بهم التعب وأدمتهم الجراح، فحاول البعض الاحتماء بالصخور ليعتبروا من المفقودين.

ولم تتوقف هذه المذبحة إلا بقدوم قوات «الماسترا أوف كالاترافا» و«البيشوب»، فأمر «الزَّغْل» قواته عبر بوق النفير بالانسحاب مستمتعاً بما حصل عليه من نصر، وعاد منتصراً إلى «موكلين».

أما الملكة «إيزابيلا» فكانت قلقة في مقصورتها في قصر «ڤاينا» على نتائج هذه الحملة، وهي تنتظر الأخبار من هذا الطريق الذي ترقبه بين الجبال والذي يقود إلى «موكلين»، وتنظر إلى

الأبراج والسيارات علّها توصل إليها شارة النصر، وكان أولادها معها بالإضافة إلى الكاردينال الأكبر يشاركون في قلقها، وأخيراً وصلت مجموعة من الخيالة لتدخل المدينة، وقد علمت الملكة من عويل النساء وضجيج الناس قبل أن يصلها الخبر منهم طبيعة الأخبار التي يحملون، ولحق بهؤلاء جريح فار يسرع كي يموت بين أهله وأصدقائه، ثم أعقبه آخر فآخر فضجت المدينة بالعويل، لفقدانها زهرة شبابها الشجعان، ورغم رباطة جأش «إيزابيلا» إلا أن المشهد الذي تراه، وفقدانها لمثل هؤلاء الرعايا الموالين لها الذين كانوا قبل برهة يلتفون حولها بكل ولاء ومحبة، دفع الدموع في عينيها، فخرجت عن عادتها بضبط نفسها وراحت تبكي بكاءً مريراً.

وخيّمت على عقلها في مثل هذا الوضع المشوّش، الأفكار السوداء، فقد توقّعت الثقة التي يمكن أن يعطيها هذا النصر للعرب، وقلقت أيضاً عى وضع حامية حصن «الحمى» الهام، تلك الحامية التي لم تصلها التعزيزات منذ تدمير طليعتها على يد «الزَّغْل» قبل دخوله «غرناطة»، فكل هذه الأمور صارت تنبىء الملكة بالخطر والمصائب، حاسبة حساب تراجع محتمل لكل الجيش «القشتالي».

وكان الكاردينال يعمل على مواساتها روحياً وجسدياً؟! مؤكداً أن كل أمّة مهزومة لابدّ لها من بعض الانتصارات العابرة، وأن العرب شعب محارب متحصّن بجبال منيعة ولذلك لم يتمكن أجدادها من هزيمتهم، وأن جيشها قد انتزع منهم خلال ثلاث سنوات أكثر مما كان سابقوها ليأخذوه باثني عشرة سنة، وختم مواساته بأن قدّم لها عرضاً بأن يشارك هو مع قواته الخاصة من الاحتياط بالحرب، وهم ثلاثة آلاف فارس، أو أن يسرع بهم لنجدة «الحمى»، أو يتوجه بهم إلى حيث تشاء جلالتها، وهكذا خففت كلمات الكردينال من جزع الملكة النفسي، خاصة وأنه الناصح لها دوماً، فتغلّبت على حالتها وعادت إلى رباطة جأشها العادية.

لكن بعض مستشاري «إيزابيلا» من الذين يطلبون الرفعة بالحطّ من شأن الآخرين، كانوا يجهرون بلوم «الكونت» على تسرّعه، إلاّ أن الملكة دافعت عنه بكرم قائلة: «لقد كانت حملة متسرّعة ولكنها لم تكن أكثر تسرّعاً من حملة «لوسيانا» التي تتوجت بالنجاح، والتي ننظر جميعاً إليها على أنها من أعلى أعمال البطولة، فلو نجح «الكونت» بأسر العم كما سبق له أسر ابن أخيه الذي هو عندنا هناك، لأنعمتم على «الكونت» بأحسن النعوت».

وهكذا وضعت الملكة حداً لكل اغتياب «للكونت» في حضورها، دون أن يظل من يحسدون «الكونت» على نصره السابق على تضخيم أخطائه فيما بينهم في هذا الوضع الراهن، ويخبرنا الأب «آغابيدا» أنهم صاروا يسخرون من هذا الكونت بإضافة لقب صياد الملوك إليه.

أما «فردناند» فقد وصل إلى موضع حدودي يقال له: «نبع الملك»، على مسافة تسعة أميال

من «موكلين» حين بلغه نبأ هذه الكارثة، فلام «الكونت» كثيراً لكنه منع نفسه من الجور عليه، لأنه يعرف أهمية هذا الفارس الموالي المخلص، وجمع مجلس حرب ليقرر ماذا عليه أن يفعل بعد ذلك، فنصحه بعض فرسانه بالعدول عن محاولة إخضاع «موكلين»، لأن المكان صار معززاً جداً وقد ارتفعت معنويات العدو من نصره الأخيرة، كما ذكره بعض محاربيه القدامى بقلة «القشتاليين» الذين يمكنه الاعتماد عليهم في جيشه، والذين بدونهم ما كان سابقوه من الملوك يدخلون المعاقل الإسلامية، ومن جهة أخرى أصرّ آخرون على أنه ليس من كرامة الملك في شيء أن ينسحب، على أساس هزيمة جناح واحد من أجنحة جيشه، فوقع الملك بحيرة من تضارب هذه الاستشارات من مستشاريه، عندها وصلته رسالة من الملكة وضعت حداً لهذا الأمر، وسنشرحها في الفصل القادم، ونرى الهدف منها.

الفصل الثالث عشر

الحملة ضد قلعة «قمبيل» و«البحرا»:

قال «آغابيدا»: «إن السعيد من عنده امرأة صالحة وقس ينصحانه، لأنهما يقويان روح التشاور»، فبينما كان «فردناند» ومقدميه يقدمون الآراء المتعارضة بينهم عما سيفعلونه بعد وصولهم إلى «نبع الملك»، كان هناك مجلس استشاري للحرب أكثر عمقاً وهدوءاً يعقد في مقصورة الملكة في «ڤاينا»، بين الملكة «إيزابيلا» والمحترم «غونزاليس» كاردينال اسبانيا مع دون «غراسيا أو سوريو» راعي أبرشية «جين»، الذي بدّل طاقية الدين ببيضة المحارب، وبمجرد أن فعل ذلك منيّ بهزيمة في أول أعماله العسكرية في «موكلين»، فعاد مدحوراً على حصانه إلى «ڤاينا»، وعنده الكثير من المشاريع لمزيد من توظيف الجيش لقضية الإيمان، وما يمكن أن يعود عليه ذلك من منافع!! فغلّف خططه هذه بهيبة ثيابه الرهبانية، مدركاً أن سلوك الملك يتأثر دوماً بآراء الملكة، والملكة تعطي دوماً إذناً إلى من يتمنطقون بزنانير الرهبنة، معتبرة إياهم قديسين، ولكي يوجّه إذن الملكة على موجته الخاصة أكّد لها أن:

أبرشية «جين» تتعرّض من زمن طويل لتحرشات القلاع الإسلامية، وهم أساس كل الإرهاب في هذه البلاد، وهذه القلاع المركّزة على كل حدود «غرناطة» تبعد عن حدود «جين» بمسافة أفقية قدرها تسعة أميال، في وديان عميقة وضيّقة، تحيط بها الجبال العالية، ويخترق هذا الوادي نهر «ريو فريو» أو نهر الذهب في قناة عميقة بين حواف نهرية عالية، عليها صخور ضخمة بشكل شبه قائم، وهكذا ينغلق فم الوادي، وعلى رأس هذه الصخور لتقف قلعتي «قمبيل» و«البحرا»، مدعمتين بالأبراج المرتفعة ومواقع القتال المحصنة السميكة، ويصل بين القلعتين جسر يقف على الصخور، من صخرة إلى أخرى فوق النهر، والطريق الذي يمر في الوادي يجتاز هذا الجسر، وهو تحت سلطة هاتين القلعتين كلياً!! وكأنهما عملاقان من عمالقة الأساطير يحرسان الممر الذي يسيطر على الوادي.

ولمعرفة ملك «غرناطة» بأهمية هاتين القلعتين، أبقاهما دوماً بحامية قوية، قادرة على التصدي لأي حصار، وتحت تصرف هذه الحامية جيش من المهور السريعة التي يقودها فرسان أشداء، يغزون ويتحرشون دوماً بالمسيحيين في السهل وداخل الحدود، كذلك جعل محاربي «بني سراج» ورثة العرق القتالي العربي مع عائلات متميزة من غرناطة هذا الموقع معقلهم، الذي منه يقومون بتلك الغزوات التي تعتبر ضرباً من التسلية لفرسان العرب، ولذلك تعاني «أبرشية» «جين» الغنية التي في متناول هؤلاء مباشرة كثيراً من هؤلاء المجرمين، فهم يختارون من قطعانها الأسمن، ومن جهدها الأفضل، ومن حقولها الأينع، ويسوقون هذه الغنائم إلى هاتين القلعتين حتى من قلب أبواب مدينة «جين»، لدرجة أن سكان هذه المدينة لم يعودوا يجرؤون على مغادرة أسوارها خوفاً من الوقوع بالأسر في أقبية هاتين القلعتين!!

وهكذا راح هذا البيشوب الفاضل يذكر للملكة مصير أبرشيته بحزن يمس القلوب، من هذه التعديات اليومية التي تتعرض لها رعيته، التي صارت الأفقر من كل رعايا «الأبرشيات»، دافعاً الملكة إلى التعاطف معه، بأن الحفاظ على هذه الكنيسة يجب أن لا يكون تحت رحمة هؤلاء اللامؤمنين.

فكان من نتيجة هذا المجلس الاستشاري بناءً على توصية هذا «الراعي»، ضرورة أن تذهب القوة العسكرية إلى جوار هذه المنطقة، طالما أنها لن تحاول إسقاط «موكلين»، وتوجه ضربتها ضد هذين المعقلين المنعزلين، لإنقاذ البلاد من تسلّطهما، ودعم رأي «الرأي» رأي الكردينال معلناً أنه يتطلّع منذ مدة إلى توجيه سياسة الدولة إلى الاعتناء بمثل هذه الأمور، وتحمّست الملكة لرأيهما، مرسلة رسالة بهذا الخصوص إلى الملك، فجاءت رسالتها في وقتها المناسب لتخليصه من تنازع الآراء بين مستشاريه، فاتخذ الاستعدادت الفورية لتوجهه نحو هاتين القلعتين.

فأرسل المركيز «أوف كاديز» مع ألفي فارس لكي يراقب حامية القلعتين ويمنع عنهما المدد والدخول والخروج، حتى يصل الملك مع بقية الجيش والمدفعية الثقيلة، ولتكون قوات الملكة أيضاً قريبة في حال الحاجة لها، نقلت مركز قيادتها إلى مدينة «جين» حيث استقبلها «بيشوب» المدينة بكل حرارة، وهو يتمنطق بالسيف في خصره لكي يقاتل في سبيل الإيمان.

وهكذا وصل المركيز «أوف كاديز» إلى هذا السهل، وأغلق على العرب منافذ قلعتهم، التي كانت تحت إمرة «محمد بن يوسف» من «بني سراج» وهو واحد من أشجع فرسان «غرناطة»، وفي حاميته كثير من فرسان «العمرية» الأفارقة الأشداء، كذلك كان على ثقة بمناعة حصنه وقوته وهو ينظر من عليائه على تجمّع الفرسان الصليبيين تحته، فتبسّم حين رآهم يمرّون من الوادي الضيق وهو يرسل مجموعة صغيرة لمبارزتهم والتحرّش بهم، فجرت مبارزات حامية بين

هذه المجموعات، وانسحب على أثرها العرب إلى قلعتهم لإرسال من يطلع «غرناطة» على الوضع عندهم، وما يمكن أن يعقب وصول المركيز إلى مكانهم.

وأخيراً تدفق الجيش الملكي كله من شعاب الوديان بأعلامه وشاراته وطبول حربه، التي تدق في كل مكان، مع أبواق النفير التي تجمع العسكر من شعاب الوديان، وخفف الجيش سرعته أمام القلعة، لكن الملك لم يجد بسبب ضيق الفسحة أمامها مكاناً يخيّم فيه، لذلك قسّم قواته إلى ثلاثة أقسام، تمركزت على مرتفعات مختلفة، ونصّب خيمته على تلة مجاورة، وعندما تمّ تشكيل المخيمات لم يفعل الجيش أكثر من التحديق بهاتين القلعتين، لأن المدفعية الثقيلة كانت بالمؤخرة ولا يمكن عمل أي شيء بدونها.

وحين علم السيد «محمد» بطبيعة الطريق الذي ستحضر منه المدفعية، وهو طريق وعر يصعب جرّ أثقال المدافع الفولاذية فيه، لدرجة يعد من المحال فيها سير العربات التي تسير على دواليب، كما أن ليس في قوة أي إنسان أو حيوان جرّ هذه الأثقال دون عربات، حين علم بذلك شعر بالاطمئنان لأن هذه المدافع لا يمكنها الوصول إلى المعسكر، وبدون عونها ماذا يستطيع هذا الجيش عمله إزاء شواهق هذه القلعة الصخرية، فسخر من تمركزهم هذا وهو يراقبهم يطبخون وينحرون بما ملأ كل الجوار بهم وبدوابهم، وقال: «دعوهم يتسكعون هنا لبرهة، فسوف يجلون بجلاء فراشات الخريف من الجبال».

وبينما كان هذا السيد متحصناً في حصنه المنيع، والجيش الصليبي يقف تحته دون أي فاعلية، وفي بداية فصل الخريف حيث بدأت الفراشات تهجر الجبال وبيوم هادىء وصله صوت تساقط الصخور وتقطيع الشجر من الجبال القريبة، وكأن الجيش يقلع الصخور ويرمي بها إلى الوادي، فخرج مع فرسانه إلى مواقع القتال في أبراجه محاطاً بفرسانه، ولم يجد شيئاً فقال: «مساكين هؤلاء النصارى فهم يشنّون الحرب على صخور وأشجار الجبال بعد أن وجدوا حصننا غير قابل للاختراق».

ولكن صوت هذه الدحرجات ظلّ طوال الليل، يسمعه حراس الأبراج بتقطع هنا وهناك عبر تردد صداه، ومع عودة النهار ظهر سرّ هذه الأصوات، فما أن برزت الشمس حتى سمعت صرخة من المنحنى المواجه، أعقبها تهليل من معسكر الأعداء وطبول وزمور.

وحين نظر العرب إلى الممر وجدوا فيه بطارية من المدفعية الثقيلة تمر في منحنياته الضيقة، وأمامها مجموعة ضخمة من الناس تعبّد لها الطريق، وخلفهم مجموعة كبيرة من الثيران تجرّ هذه المدافع الثقيلة مع قذائفها الأثقل.

فقد تبين للملكة حين اجتمعت مع «البيشوب» استحالة نقل المدفعية الثقيلة من الطرق

العادية إلى هذا الحصن، كما عاد ليذكرنا «آغابيدا» المؤرخ الفاضل متداركاً، بأنها لأجل حلّ هذا الإشكال عقدت مع كاردينال اسبانيا و«البيشوب» اجتماعاً آخر في «جين»، حيث اقترح هذا «البيشوب» الغيور طريقاً آخر لتمرّ منه المدفعية، لكنه بحاجة إلى التعبيد عبر الجبال بأماكن محددة منها، ويصعب تحقيق ذلك بأدوات تعبيد عادية، لكن الملوك بما يملكون من قوة بشرية ومال قادرون على تعبيده.

وقد تحمست الملكة لهذا المشروع بشق هذا الطريق، فرصدت له ستة آلاف رجل مع كل أدوات الرصف والفؤوس والهراوات المعدنية لتقطيع الصخور، وباقي أدوات التعبيد، ليعملوا ليل نهار ليفتحوا الطريق حتى مدخل الجبل حيث القلعتان، فلا وقت يجب إضاعته لأن الشائعات تقول بأن «الزّغْل» قد تحرك لرفع الحصار عنهما بجيش قوي، فكان «بيشوب» «جين» يعمل كرائد لفتح هذا الطريق بجهده وجهد رهبانه، وزوّده الكاردينال بكل ما يحتاجه من وسائل، لأن هذا العمل يجب أن لا يتوقف بسبب نقص الموارد.

وعلى ذلك علّق الأب «أنطونيو آغابيدا» بقوله: «عندما تفتح كنوز الملك ليتصرف بها الرهبان لا يضيع «سنت» بغير موضعه، ولا يصرف إلا من أجل مجد اسبانيا»، فبإرشاد هؤلاء الرجال الروحيين حصل ما يشبه المعجزة، فقد تمت تسوية جبل تقريباً لتملأ الوديان بحجارته وأخشابه، وقلبت الصخور أو حطّمت، وبصورة موجزة ذلّلت كل عقبات الطبيعة، وأزيلت في أقل من اثني عشر يوماً، وانتهى هذا العمل الجبار، ووصلت أدوات الحصار والمدافع الثقيلة إلى المخيم كبداية للنصر المسيحي الرائع على الإسلام داخل حصنهم أو خارجه وهم في فوضاهم واندهاشهم.

وبمجرد وصول المدفعية الثقيلة تمّ تركيزها على المرتفعات المجاورة للحصن وبسرعة، وفتح المهندس الأول في اسبانيا المشرف عليها «فرانسيسكو راميرز دي مادريد» نيرانه على القلعتين بشكل مدمّر.

وعندما رأى سيد «القلعة» «محمد بن يوسف» الأبراج تنهار من تحته، وخيرة فرسانه تتطاير مع جدرانها، دون أن يقدروا أن يمسوا خصومهم، أعرب عن حنقه بقوله: «لا فائدة من قوة كل الفروسية إزاء هذه المكاين الجبانة التي تغتالنا من بعيد».

وظلّت هذه المكاين ترعد يوماً كاملاً فوق حصن «البحرا»، ودمّرت القذائف الحجارة التي تحمل ما بين عامودين من أبراجه مع كل الجنود المدافعة في هذه الأبراج، وكل من كان من العرب يحاول أن يخرج من الأنقاض كان يصاب برصاص القناصة ببنادقهم الطويلة المثبتة على الأرض بحوامل، أو بالمدفعية الصغيرة الخفيفة، وتحت غطاء هذا القصف تقدم الجيش الصليبي

من المعسكر نحو القلعة ليطلق السهام والرصاص على موجات متعاقبة على الفتحة التي أحدثتها المدفعية الثقيلة.

ولكي يحسم «راميرز» الأمر سدّد مدفعيته على الحوامل الحجرية التي تحمل وتصل بين القلعتين على شكل أهرام، وكان تسديده يحتاج إلى دقة في الرمي وجهد كبير بتحريك المدافع، الذي أثمر بنجاح كبير، إذ عرف سيد القلعة أن إصابة هذه الأساسات سوف تهد كلاًّ الحصنين معاً، فطلب التسليم، وكتبت شروطه على أساس رحيل هذا «السيد» وحاميته بأمان إلى «غرناطة»، ويسلّم الحصن إلى الملك «فردناند» في عيد الاحتفال «بسانت ماتيو» في شهر أيلول/سبتمبر. وأعيد بناء هذا الحصن فور تسلّمه ليصبح جزءاً من أملاك مدينة «جين».

وفوراً ظهرت نتائج هذا النصر، إذ خيّم الأمن والسلام فوراً على أبرشية «جين»، ومزارعها وقطعانها التي راحت ترعى، وكثر نتاج حقول العنب من الخمور، وراح البيشوب يتمتع بكل هذا وغدت موائده عامرة، وخزائنه مليئة بالمجوهرات، وقد عبّر «آغابيدا» عن هذا النصر المؤزر الذي تمّ تحقيقه بالجهد والعمل الجماعي والتدبير: «على أنه مثال مضيء عما يمكن أن يفعله «البيشوب» من أجل ارتقاء الإيمان وخير قضيته».

الفصل الرابع عشر

حملة الفرسان «كالاترافا» ضد «زالية»[*]:

عندما كانت هذه الأحداث تجري على الحدود الشمالية لمملكة «غرناطة»، كان حصن «الحمى» الهام شبه مهمل، مما أقلق سيده الدون «غويتري أوف كالاترافا»، فبقايا القوة التي ذبحها «الزَّغْل» بعد أن فاجأها وهو في طريقه إلى «غرناطة» لتسلّم تاجه، قد عادت في ذعر وفوضى إلى الحصن، وهم يشعرون بالذلّ لترك زملائهم والفرار من وجه قوات تفوقهم قوة، وكان من جماعتهم فرسان من «كالاترافا» ممن بقوا في الوادي ولا يعرفون أي شيء عما حصل، كما لم يعرف أي شيء عنهم، لكن بعد عدة أيام كشف سرّ عدم ظهورهم بأن رؤوسهم المقطوعة دخلت إلى «غرناطة» من قبل «الزَّغْل» الرهيب، لذلك تداعى الفرسان الباقون في حامية «الحمى» للثأر لإخوتهم ورفاق سلاحهم، وليمحوا عار الهزيمة، لكنهم غلبوا على أمرهم باضطرارهم إلى الدفاع عن حاميتهم من أي هجوم متوقع، خاصة وأن هذه الحامية قد ضعفت بخسارتها لخيرة فرسانها، وفي «الڤيغا» دوريات قوية بدأت تظهر للعدو، قد أرسلها محب القتال والحرب «الزَّغْل». وعلى مسافة أقل من تسعة أميال هناك مدن قوية على طريق «الأقصى»، وحامية «الحمى» صارت ترقب كل هذا، إضافة إلى الكمائن التي كانت تصطاد فرسان النصارى القادمين إليها، أو الخارجين منها، لذلك كثرت المبارزات الدموية التي صار على الفرسان النصارى أن يخوضوها كلما عادوا من تحركاتهم أو غزواتهم، وهكذا زاد إطباق الخطر عليهم، وكان الدون «دي باديلا» يكبح جماح فرسانه ورغبتهم بالغزو، مدركاً مدى المصيبة التي ستحصل لو سقطت «الحمى».

لذلك قلّت المؤن عندهم، فهم لم يعودوا قادرين على نهب البلاد في جوارهم، وصاروا يعتمدون على المساعدات التي تصلهم من ملوك «قشتالة» فقط، إضافة إلى أن هزيمة الكونت

(*) وهي في بعض المراجع «زالعة».

«دي كابرا» الأخيرة سببت إنقطاع التموين والدعم عنهم، إلى درجة اضطروا فيها إلى أكل بعض خيولهم للبقاء أحياء.

وبينما كان حاكم هذه القلعة «الدون» يتأمل في وضعه الصعب هذا، أحضر له رجل عربي سلّم نفسه على أبواب «الحمى» وطلب هذا الرجل أن يسمعه سيدها على انفراد، ومثل هذه الزيارات لم تكن نادرة للتجار العرب أو للجواسيس الباحثين عن الفرص والجوائز لإخبارياتهم، لكن هذا الرجل لم يكن معروفاً من «الدون»، ومعه صندوق مربوط على كتفيه بشكل يجعله بمظهر تاجر يريد أن يبتاع المنهوبات الثمينة التي يحصل عليها الفرسان من غزواتهم، ويقايض عنها بالعطور والأفاويه وغيرها من البضائع الثمينة من ذهب وفضة ومجوهرات.

لكن هذا العربي أصرّ على اجتماع مغلق مع «السيد الدون» مدّعياً أن لديه جوهرة ثمينة يمكنه أن يقدمها له، فأجابه بأنه لا يريد أي جواهر، فتضرّع العربي بقوله: «أستحلفك بمن مات على الصليب، نبي إيمانك العظيم، بأن لا ترفض طلبي، فأنت وحدك من يستطيع دفع ثمن جوهرتي، ولا أستطيع بيعها إلا سراً؟!».

هنا شعر «الدون» بأن هناك أمراً وراء لهجة التعريض المجازية الصوفية التي يحب العرب استعمالها في أقوالهم وأحاديثهم، فأشار لمحدثه بأن يلحق به إلى خلوة بينهما، وعندما صارا وحدهما تفقد العربي بنظراته المكان، قبل أن يقول بصوت هامس في أذن الفارس: «ماذا تعطيني لو سلمت لك حصن «زالية»؟».

فنظر «الدون» إليه بازدراء؟! إذ من يكون هذا الصعلوك حتى يعرض مثل هذا العرض قائلاً: «بأي سلطة تقدم أنت هذا العرض»؟ فأجابه العربي: «لدي أخ في القلعة يمكنه أن يفتح لك أبوابها في اللحظة المناسبة لتدخلها قواتك»؟!

فرمقه «الدون» بنظرة ارتياب قائلاً: «بأي شيء أصدق أنك ستخون أبناء بجدتك ودينك من أجلي»؟!

أجابه العربي: «أنا بريء من كل نسب معهم ودين؟! فأمي نصرانية أسروها، وبلادها بلدي ودينها ديني»؟!

ورغم أن هذا الادعاء لم يكن ليكفي «الدون» كي يثق بصاحبه إلا أنه دفعه إلى الاستمرار بالحوار معه قائلاً: «وعلى فرض أنك صادق ألست تشعر بأي واجب أو جميل لسيد تلك القلعة كي لا تخونه»؟!

فتوقدت عينا العربي وقال وهو يصرّ على أسنانه بغضب: «إن سيد هذه القلعة كلب كأسياد القلاع الآخرين من العرب، فقد حرم أخي من غنائمه، وسرق تجارتي، وحين همست بما فعل

معي عاملني معاملة أسوأ مما يمكن أن يعامل بها اليهود، حين أمر بقذفي من سور قلعته، فلتحل عليّ لعنة الله إذا لم أثأر منه».

كفى؟!

قال «الدون»: «فأنا أثق برغبتك في الثأر أكثر من رغبتك في المسيحية!!»

وذهب ليستشير فرسانه بهذا الأمر، والذين تحمّس منهم فرسان «كالاتراڤا» لهذا الهجوم المباغت الذي سوف يثأرون به لذبح رفاقهم، وحين ذكره «دون غويتري» بحال الحامية بعد أن ضعفت بسبب خسارة فرسانها الأخيرة، أكّدوا له بأن لا إنجاز يخلو من المخاطرة، ولا عمل يسجله التاريخ دون روح مغامرة وثّابة جريئة تبذل الحياة لتبقى على الإسم فيها.

فخضع «الدون» لرغبة فرسانه، لأنه لو فعل غير هذا لنال صفة الموادع، فأرسل جواسيسه إلى «زالية» حيث أكّدوا له هدوء الحال فيها، فجهّز كل ما يلزمه من أجل الهجوم.

وفي ساعة الصفر شارك بنفسه في الهجوم وراء دليله العربي، الذي ربط يديه خلف ظهره وهم يقتربون من «زالية» لكي يضرب عنقه بنفسه لو كان خائناً، وتركه يقودهم نحو الحصن.

وكاد الليل أن ينتصف حين وصلوا إلى أسوار الحصن، فمروا بها بهدوء حتى أوصلهم دليلهم إلى تحت القلعة، فقام بالإشارة التي أجيب عليها بنور خافت من الأعلى، وأعقبه تدلّي سلم حبلي، صعد عليه الفرسان، وكان «الدون» على رأسهم، وتبعه «بدرودي ألفاندو» الشجاع، وتبعتهم عدة فرسان ليصطدموا بعدد من الحراس، وبعد أن ألقوا بهم في الخندق، صعد المزيد من رفاقهم، فحصلوا على موقع في البرج وجزء من السور، حين فاقت الحامية، ولكن قبل أن تبدأ المعركة كان الفرسان يحتلون مواقعهم، فدارت معركة دموية لمدة ساعة من الزمن ذبح فيها بعض النصارى والكثير من العرب، وسقطت بنتيجتها القلعة لتستسلم المدينة بعدها بدون مقاومة.

هذه هي قصة سيطرة فرسان «كالاتراڤا» على مدينة «زالية» القوية، بدون أي خسائر تذكر بحساب تلك الحروب، كرد على هزيمة رفاقهم أمام «الزَّغْل»، وهم حين وجدوا المؤن متوفرة في مخازن قلعتها نقلوها فوراً إلى حاميتهم الجائعة.

ووصلت هذه الأخبار إلى ملكي «قشتالة» قبل استسلام «كامبيل ـ قمبيل ـ والبحرا»، فسُرّا كثيراً لهذا النصر الإضافي لجيشهما، وأرسلا فوراً تعزيزات قوية و«لوجستية» إلى «الحمى والزالية»، قبل أن يصرفا الجيش في فرصة الشتاء التي لا تحارب فيها الجيوش القديمة، وذهب «فردناند وإيزابيلا» إلى قلعة «القلعة دي هناريز» حيث ولدت الملكة في السادس عشر من أيلول/ سبتمبر ١٤٨٥م الأميرة «كاتالينا»، التي تزوجها بعد ذلك «هنري الثامن» ملك إنكلترا الشهير، وبهذا الحدث انتهت حملة هذا العام الهامّة في تاريخ الأندلس.

الفصل الخامس عشر

موت مولاي «أبي الحسن»:

بعد أن هزم مولاي عبد الله «الزّغْل» الكونت «دي كابرا»، عاد إلى «غرناطة» ليستقبل استقبالاً جديراً بنصره، ولذلك أقام الاحتفالات وتقرّب من الشعب بتوزيع الهدايا والألقاب والأوسمة أثناء هذه الاحتفالات، وهذا ما يحبه العرب، ولكن موجة هذا الحماس له ما لبثت أن اهتزت لفقده حصون «قمبيل ـ كامبيل ـ والبحرا» مع حصن «زالية»، إلى درجة أن بعض الناس راح يفكر بإعادة مولاي «أبي الحسن» إلى السلطة.

هذا الملك الطاعن في السن الذي هو الآن في حصنه الموالي له بمدينة «المنيصر» على حدود البحر المتوسط، مع ما يحيط به من عدد قليل من المخلصين وزوجته الجميلة «الزوراء» وولديها، إضافة إلى كل كنوزه التي حملها معه والتي أبقاها هناك معه، وقلبه الملكي الوثّاب يتحرّق لأنه لم يعد ينفع ولا يضر أحداً.

وبينما كان بهذا اللاحول واللاقوة، أبدى أخوه «الزّغْل» اهتماماً مفاجئاً بصحته، فأمر بنقله إلى «سالوبرينا» بكل رقة واحترام، وهي حصن آخر على شاطىء البحر المتوسط مشهور بنقاء هوائه، وعيّن سيداً مخلصاً «للزّغْل» على هذا الحصن ليهتم برعاية هذا الملك تحت إشرافه، وليسهر على صحته الغالية؟!

و«سالوبرينا» مدينة على شاطىء البحر مبنية على هضبة مرتفعة وتحيط بها «فيغا» خصبة وتغلق عليها الجبال من ثلاثة إتجاهات لتفتح فمها على البحر الأبيض المتوسط، والمدينة محمية بأسوار قوية، وفيها قلعة متينة، ولأنها منيعة هكذا كانت تستخدم من كثير من ملوك العرب في الأندلس كخزينة لمقتنياتهم الملكية وكنوزهم، وبها أيضاً كانوا يودعون أخوتهم أو أبنائهم الخطرين على ملكهم، وهنا يعيش الأمراء بكل فخامة ودعة بين الحدائق المخصصة لهم، وحماماتهم المعطّرة وتحت تصرفهم أجمل أصناف الحريم، ولا يحرمون من شيء سوى حريتهم

في مغادرة هذا المكان، الذي لولا هذا الحرمان لتحول المكان حقاً إلى جنة أرضية.

هذا هو المكان الذي حدّد فيه «الزَّغْل» إقامة أخيه، ولكن بغض النظر عن كل هذا البهاء، نجد أن الملك الشيخ لم يكد ينقل إلى هذا المكان إلا وتوفي فيه بعد عدة أيام، ولم يكن هناك ما يثير التعجّب في موته، فالحياة كانت ترفل مدة طويلة في جبته، رغم أن الأخطار التي تعرّض لها منذ زمنٍ طويل كان يجب أن تجعله من عداد الأموات لا من عداد الأحياء، لكن الناس تحب أن تنظر إلى مثل هذا الحدث بعين من الغموض، وتضفي الشك على استنتاجاتها، التي عززها تصرف أخيه «الزَّغْل» حين أمر بإعادة أموال أخيه على ظهور البغال إلى «غرناطة»، حيث استولى عليها بدل ورثة الملك الكبير من أبنائه، أما السلطانة «الزوراء» فزجّ بها في برج التجار في قلعة «الحمراء» مع ولديها.

وهو البرج نفسه الذي كانت فيه «الطاهرة» مع ابنها «بيدول» بسبب هذه «الزوراء»، وبذلك توفر للزوراء الوقت الكافي للتأمل بكل طموحاتها ومطامعها من أولادها، التي لطّخت بسببها ضميرها بالكثير من البقع السوداء، وعلى رأسها تحريض زوجها القاسي على أن يبل يديه بدم أبنائه الآخرين.

كذلك أُحضرت جثة مولاي «أبي الحسن» إلى «غرناطة»، على ظهر بغل كمن ينقل جثة فلاح بسيط، لا ملك كان له بأس عظيم، ولم يجرِ له أي تشييع مهيب، فأدخل بصورة غير معلنة إلى المدينة لتجنّب أي شعور شعبي، وذكر مؤرخ عربي قديم أن جثة هذا الملك العربي دفنت بين جثتي أسيرين مسيحيين متوفين في المقبرة العمومية، وهكذا كانت النهاية لحياة مولاي «أبي الحسن» المضطربة، الذي بعد أن أمضى كل حياته في الصراع على السلطة والملك، حصل على قبول هادىء في زاوية لحدٍ منعزل.

والناس بعد أن عرفوا بموته راحوا كعادتهم يستعيدون قصص مجده وذكرياته ويتحسرون عليها، فرغم اعترافهم بقسوته وقلة ضميره، اعترفوا أيضاً بشجاعته، ورغم أنه هو الذي جرَّ هذه الحرب على رؤوسهم، فهو قد عانى منها على حد سواء، وحطّمته شخصياً، وبعبارة موجزة كفّر موته عن كل أخطائه، من منطلق أن الملك الميت يصير إما بطلاً أو قديساً.

وهكذا تحوّل من كان يكره مولاي «أبا الحسن» إلى كراهة «الزَّغْل»، فظروف موت «أبي الحسن»، والتهافت على كنوزه من أخيه، وإهمال جنازته وجثته بشكل فاضح، وسجن زوجته وولديه، ملأ عقول الناس بالشك والريبة، إلى درجة أن بعضهم استبدل لقب السلطان «الزغل» بلقب قاتل أخيه «قابيل»؟!

إن الجمهور بحاجة دوماً إلى موضوع يحبه ويكرهه، وهذه هي علامة البحث عن بديل الحاكم عندهم، لذلك اتجه البعض للبحث عن أحوال «ببدول الشيكو»، الملك التعس الذي لازال في «قرطبة» يتطفّل على مظاهر المحبة الباردة، وادعاء الصداقة من «فردناند»، التي لم يعد هذا الملك يريد حتى إبداءها له بعد أن فقد ملكه على كل الغَيّ واللؤم فيها.

لكن انبعاث الاهتمام من بعض العرب فيه، بوصول بعض البعثات السرية له، أعاد إلى «فردناند» تعاطفه المفقود تجاهه، وحين استجاب هذا التعس؛ تلقى نصيحة على شكل أمر بإعادة علمه إلى قلب «غرناطة» مرة ثانية، وصاحَبَ هذه النصيحة الأخوية تقديم الأموال والتسهيلات له من أجل هذه الغاية، ثم القذف به باتجاه الحدود، لكن «ببدول» لم يجرؤ على التقدم والإيغال فيها، واكتفى بالتمركز في «فلز البلانكو» المدينة القوية على حدود العرب ليشكل ظلّ بلاط ملكي، واضعاً إحدى رجليه في بلده والأخرى عند حُماته، ليسحب الاثنين عند أول طارىء نحو أسياده.

وهذا الوجود في بلاده على وهنه، أعطى الأمل لأتباعه في «غرناطة»، من سكان البائسين الأفقر والأبأس والأشرس والأجهل من كل أهل «غرناطة» إلى الوقوف في صفه، أما الذين لا يرتشون منه من سكان «غرناطة» من المثقفين والأغنياء والنبلاء فقد تحلّقوا حول السلطة العربية الحقيقية لهم والثابتة بشخص «الزَّغْل».

هكذا هي الحال في فلك ما تحت القمر، فكل الطيور تقع على أشكالها، البائس الجاهل مع البائس الجاهل، والقوي مع القوي، والغني مع الغني والعاقل مع العاقل، كي يظل الانسجام في هذا الكون.

الفصل السادس عشر

حول الجيش الصليبي الذي اجتمع في مدينة «قرطبة»:

بأسلوب ضخم ومهيب افتتح ملكا الكاثوليك حربهم في السنة التي أعقبت انتصاراتهم هذه، وكأنهما يفتتحان مسرح دراما للدولة بشكل بطولي، فتجمّعت الحلقات الموسيقية لتدق أنغاماً حماسية عسكرية، على مسرح تألق بلمع الدروع والدرق والحراب، حيث اجتمعت هذه الجيوش في «قرطبة» التي حدّدها البلاط كمكان انطلاق لهم، ففي صباح باكر من عام ١٤٨٦م استفاق سهل «غوادا ليكويڤر» على ضرب الطبول وأبواق النفير، وقرع حوافر الخيول المتوثبة، التي يتنافس النبلاء الاسبان بتمييز أنفسهم على ظهورها المضمرة، المتحفزة للإنطلاق وهم يكبحون جماح بطرها، في منظر فروسي مزركش وجميل، مع ما يصاحب كل إقطاعي منهم من معدات يحملها أتباعه له، فعلى ظهر كل حصان فارس مشهور على صهوة جواده القوي، يدخلون أبواب «قرطبة» على أبواق النفير وهم يحملون أعلامهم وأدواتهم الحربية الفاخرة، التي يتنافسون في اقتنائها بتباهٍ، وكل منهم محاط بأتباعه الذين لا يبدون أقل بهاءً منه بكثير، ويتبعهم أقنانهم وجنودهم على الخيل، أو مشاةً مسلحين بأسلحة برّاقة خلاّبة.

تلك كانت حال دون «إنيغو لوبيز دي مندوزا» دوق «إنفانتادو»، الذي يجسّد صورة كاملة لزخرفة النبلاء في ذلك الوقت، محضراً معه خمسمئة مسلّح من جماعته على ظهور خيولهم، وحوله فرسانه الذين يعتنون به بشكل خاص بلباسهم البهي، على خمسين حصاناً مغطاة بالقماش المطرّز بالذهب فوق سروجها، وفوق بقيتها «البروكار»، حتى بغاله التي تنقل حاجاته المنزلية على جلال أو غطاء ظهر دوابها المزركش كان غطاءً من الحرير، بينما سرج الخيل الذي يبرز بعضه من تحت هذا «الجلال» ـ الغلالة ـ الحريري هو من الجلد المطعّم بالفضة.

كذلك كانت الخيم التي يبيت بها هؤلاء النبلاء على درجة مشابهة من الفخامة والروعة،

فهي مخططة بألوان مختلفة فرحة، ومعلق عليها الأعلام الحريرية ومزيّنة بالزينات، وكأن الجميع ذاهب إلى عيد من أعياد الدولة، أو استقبال ملكي، بدل التصادم مع العدو في حرب جبلية وعرة، وبعض هؤلاء الفرسان كان يخلب لب سكان قرطبة حتى حين يسير في شوارعها ليلاً بلباسه الرائع الذي تتراقص على دروعه وأثوابه المزركشة مصابيح الشوارع، فتعكس الدروع الملمعة والحرير فوقها بألوانه الزاهية ومطعمات لباسه وسرجه الفضية والذهبية، بريق الإعجاب على الناظر إليها.

ولأن هذه الحروب لم تكن اسبانية فقط، بل صليبية أيضاً لذلك لم تكن شوارع قرطبة وأزقتها مملوءة بالفرسان الاسبان وحدهم، بل بكل الفرسان الأوروبيين الذين أسرعوا للمشاركة فيها من كل الجهات، لكي يعدوا من المساهمين بهذه الحرب المقدّسة، فكان العديد من الفرسان الفرنسيين المشهورين يتمخترون أيضاً بين هؤلاء، منهم مثلاً: «غاستون دو ليون» و«سنسكال دو تولوز» ومعهما جيش من فرسانهم المسلحين بشكل جيد، والمتميزين بألوانهم الزاهية وريش رأسهم الخاص، لدرجة أن هؤلاء الفرسان قد سرقوا محط الأنظار بالأناقة من باقي المشاركين، وخاصة في احتفالات القصر، فهم مرحون تحت لباسهم الأنيق اللمّاع ودروعهم، وأكثر عاطفية من العشاق الاسبان، وظلّ القصر الملكي الاسباني يستخف بهم لهذا حتى أثبتوا أنفسهم بقوة في ساحة المعركة.

أما أهم من ظهر في البلاط الاسباني من المتطوعين في هذه المناسبة فقد كان فارساً إنكليزياً من أقرباء البلاط الملكي الإنكليزي، هو: اللورد سكاليس، وريث «أوف ريفرز»، وقريب ملكة بريطانيا زوجة «هنري السابع»، فقد شارك في «صائفة» حرب السنة الماضية كفارس متميز في معركة «بوثورث» حيث انتصر «هنري» على «ريتشارد الثالث» في بريطانيا بمعركة حسمت مسألة السلام في تلك البلاد، ولكن هذا اللورد المحب للقتال أتى إلى البلاط القشتالي، كي لا تصدأ أسلحته التي أراد أن يجرّبها بالعرب. محضراً معه مئة رامي قوس كلهم يحمل الأقواس الطويلة والسهام المريشة، مع مئتين من المحاربين الذين يستعملون الفأس في الحرب، من أشد الرجال وأكثرهم قوة في الغرب.

وقد وصف الأب «آغابيدا» هذا الفارس الغريب وأتباعه بدقته المعهودة قائلاً: «إن هذا الفارس كما يمكنني أن ألاحظ هو من جزر «بريطانيا» وقد أحضر مماليكه معه من الذين صقلتهم وقوتهم الحرب الأهلية فيها، والتي اجتاحت كل مناطقها، وهم جنس شجاع من الرجال لكن شقارهم الذي لم تنضجه الشمس يجعلهم أنعم من الجنود القشتاليين إنهم ضخام مخيفون، لكنهم غير معتادين على نوع طعام هذه البلاد، فهم لا يستطيعون أن يأكلوا ويشربوا

كما يفعلون في بلادهم، وضجيجهم الكثير في المخيم يدفع إلى مصادمات مفاجئة، فكرامتهم رغم أنها جيدة لكنها لا تضارع الإباء الاسباني، فهم يتصادمون كثيراً دون أن يشهروا السلاح فيما بينهم إلا نادراً في مخاصماتهم، فرغم علوّ أصواتهم يمكن اعتبار أن إباءهم صامت، فهم من هذه الجزر البعيدة البربرية المتوحشة، ورغم ذلك يعتبرون أنفسهم أكثر الناس كمالاً في العالم، ويعظّمون زعيمهم اللورد «سكاليس» أكثر من قديسيهم، وبسبب هذا يجب وصفهم بأنهم رجال جيدون في ساحة الحرب، وقنّاصة جيدون بالسهام، ومحاربون رائعون بالفؤوس، وبسبب إعجابهم بأنفسهم وقوة تصميمهم يضغطون على العدو بتقدّمهم، ويحتلون بذلك مواقع الخطر، لكي يتفوقوا على فرساننا الاسبان، لكنهم لايندفعون نحو المعركة اندفاع قوات العرب والاسبان، ويذهبون إليها بتصميم وضغط بطيء، يشابه بطء أن تجدهم حين ينهزمون، فهم متميزون لكنهم لا يحظون بمحبة جنودنا، رغم اعتبارهم رفاقاً أوفياء في ساحة المعركة، ومع ذلك لا يحظون بصحبتهم كثيراً في المخيمات».

أما قائدهم فقد وصفه بقوله: «واللورد سكاليس قائد هؤلاء فارس ذو إنجازات سابقة، كريم ونبيل المحتد والتصرف، صريح بأقواله، لدرجة تدفع على السرور بأن ترى أمثاله من الفرسان وهم يشاركوننا من أرجاء كل البلاد المسيحية في هذا البلاط تلك الحرب، ولذلك كرّمه الملك والملكة كثيراً، ولقي ترحيباً خاصاً من سيدات القصر، اللواتي يسرّهن وجود الفرسان الأجانب، ولذلك كان لا يظهر إلا بلباس وثير، محاطاً بخدمه وبنبلاء بلاطه الذين يعتنون به دوماً، من الذين تطوعوا تحت لوائه كي يتعلموا منه فنون الحرب، ولذلك تتعلق أعين الناس في كل الاحتفالات بأناقة هذا الوريث البريطاني وجماعته، الذين يلبسون دوماً أثواب بلادهم، التي هي شيء رائع في الواقع، رقيقة وغريبة الزي».

ولم ينس هذا المؤرخ أيضاً أن يصف: «ماستر أوف سانتيغو كالتراڤا والقنطرة» وفرسانه المتميزين من الرجال المدججين بالسلاح من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم، والمزينين بالأوسمة التي تحدد النظام الديني الذي يتبعونه، لذلك أكّد أن هؤلاء المرافقين للفرسان النصارى ـ ولكونهم بالخدمة دوماً ـ صاروا أكثر جاهزية ونظاماً من أتباع النبلاء من الاحتياط غير النظامي، فهم بهدوء وجاهزية وثبات يتحركون كالأبراج حين الهجوم، ولا يتداخلون مع بعضهم مثل باقي الكتائب حين الاستعراض أو في الحرب، فكل شيء معهم محسوب ومقاس بشكل جيد، فلا أحد يبدو محارباً حقيقياً في المخيم أو أكثر إنجازاً في الحرب من هؤلاء».

أما النبلاء الذين قدموا من البلاد فلم يحوزوا على رضى القصر، لأن التنافس بينهم صار مكلفاً ومدمراً لدخل الفارس الحقيقي، وأن هذه الأزياء والأدوات المرفهة جداً لأصحابها قد

تؤدي إلى نعومة في الحرب، وقد عبّر القصر عن عدم رضاه هذا لبعض النبلاء الرئيسيين، على أمل الحصول على مزيد من الانضباط والعسكرية في ساحة المعركة الفعلية، حيث لا أهمية للاستعراضات.

فعبر «فردناند» عن هذا للدوق «أوف إنفانتادو» بقوله: «يبدو أن هذه قوات خاصة أيها اللورد، لكن الذهب رغم بريقه طري وينحني: فالحديد هو معدن الحرب».

فأجابه الدوق قائلاً: «إذا كان رجالي يا سيدي صاحب الجلالة يستعرضون بالذهب فهم يحاربون بالحديد» فتبسّم الملك وهو يهزّ رأسه بينما كتمها الدوق في قلبه.

بقي أن نصف هذه التجهيزات الفروسية القوية، التي نالت إعجاب البلاط بالصميم، فقد تلقّى «فردناند» درسه من «علي العطار» على أسوار «الأقصى» بسبب نقص التجهيزات، مما جعله أكثر حذراً في مهاجمة القلاع الحصينة، فالأقصى لازالت في ذاكرة الملك وهي أكثر المدن إشكالية على حدوده، في تحرّشاتها المستمرة بأندلسه، كما أنها تقف عائقاً بين المسيحيين و«الحمى» وغيرها من القلاع التي انتزعها الصليبيون من العرب في مملكة «غرناطة». لكل هذه الأسباب قرر «فردناند» أن يحاول ثانية مع هذه المدينة المحاربة، ولأجل هذا الغرض حشد كل فرسانه هؤلاء وعتادهم.

ففي شهر أيار/مايو تحرّك الملك على رأس جيشه من «قرطبة»، الذي كان يتألف هذه المرة من اثني عشر ألف فارس، وأربعين ألف راجل، مسلحين بالأقواس والفؤوس والحراب والبنادق الطويلة، منهم ستة آلاف مقدّم خبير بهذه الأسلحة، ويوجّهون قافلة ضخمة من المدافع الثقيلة وأدوات الحصار التي تشرف عليها مباشرة قوات ألمانية خبيرة في تدمير الحصون بهذه الأسلحة.

لذلك قال الأب «أنطونيو آغابيدا» إنه كان مشهداً رائعاً للقضاء على هؤلاء الكفرة على يد من خرج من «قرطبة» من أكثر فرسان البلاد ورعاً وتصميماً وإباءً، وهؤلاء الفرسان يبدون من بعيد كما لو أنهم يسبحون على بحر من أعلام الصليب باتجاه الهلال، كالموج المتلاطم بغداراتهم وسيوفهم وفؤوسهم اللمّاعة، ومما زاد منظرهم بهاءً ما عكسته أسلحتهم ودروعهم من تألق على مياه نهر «غوادا ليكويڤر»، بينما أبواقهم وطبولهم تهز الجبال البعيدة للعدو، وفوق كل هذا استنتج هذا الأب بحماسه المعهود بأنه: «من المجد والنصر حمل علم الإيمان ليلعب في كل مكان، مما يعكس بأن هذا الجيش ليس جيشاً أرضياً، يهدف إلى تحقيق نفع مادي من طموح أو ثأر بل جيشاً مسيحياً حقيقياً يهدف إلى انتزاع بذرة الشر المحمدي من الأرض بحملة صليبية، لكي تعمّ سيطرة الكنيسة وحدها على كل العالم».

الفصل السابع عشر

كيف انفجرت فتنة جديدة في «غرناطة»، وكيف عمل الناس على تهدئتها:

فبينما كانت الوحدة والانسجام والهدف الواحد تتحقق في عمليات الجيش المسيحي الذي يزداد قوة، كرّست مملكة «غرناطة» الانقسامات المتوالية بين أصحاب الحل والعقد فيها، فالشعبية العابرة «للزَّغْل» راحت تتراجع منذ موت أخيه، وداخل غرناطة نفسها بدأت المعارك بين «البائسين» و«الحمرا» في صراع قاتل، مما صبغ طرقات المدينة بدماء أطفالها يومياً، وفي أوج هذا الصراع غير المحسوم، وصل الجيش الرائع الذي سبق لنا وصفه من «قرطبة»، مما دفع إلى توقف هذه التوترات، بسبب الشعور بخطر محدق بالجميع، فعاد الناس إلى الالتفاف حول حكومتهم، وحول أهل الحل والعقد عندهم، الذين عرفوا أن رفع «الزَّغْل» إلى التاج لم يعط ثماره المرجوة منه، فما العمل إذاً؟! هل يستعيدون «بيدول الشيكو» ويملكوه على رقابهم؟! وبينما انقسمت الآراء بشكل متباين، وقف بينهم رجل اسمه «حامد بن الزراق» المعروف «بالقديس أو القطب» الرجل الذي سبق له أن حطّم معنويات الناس متنبئاً بانهيار «غرناطة» بعد حملة «الزهراء»، وقد نزل من معتكفه المشرف على الدور «دارو» والمسمى بالجبل المقدس بسبب وجوده فيه، فكان ظهوره مخيفاً للناس الذين كانوا يعتقدون بنبوءاته، وقال: «إحذروا أيها المسلمون من الذين يريدون أن يحكموا ولا يستطيعون أن يحموا؟! وأنتم تذبحون بعضكم بعضاً ذبح النعاج من أجل «الشيكو أو الزَّغْل»، فأما أن يترك ملوككم خلافاتهم ويتحدوا لإنقاذ «غرناطة» أو أن يذهبوا».

ولأن أقوال «حامد» كان لها أثر عند العوام والناس، اجتمع النبلاء مع المشايخ للبحث عن الكيفية التي بها يمكن التوفيق بين الملكين المتنازعين، خاصة وأن أحدهما يتمتع بصداقة

الصليبيين فلماذا لا تقسم المملكة بينهما، فيعطى «الزّغْل»: «غرناطة وملقة وفلز ملقا، والمرية، والمنيصر وجوارهم»، بينما يعطى «ببدول»: «الأقصى وعدد من البلاد المهددة» كي يصل إلى حل مع النصارى غير حربي فيها، فيجنب البلاد الدماء.

وقد قبل «الزّغْل» بهذا الرأي الذي أمن له نصف البلاد التي لاحق شرعي له فيها، فالناس تسرّعت بإعطائه العرش ومن المتوقع التسرّع بإنزاله عنه، وربما بالقوة أو الخديعة يستعيد هذا النصف الذي يتخلى عنه الآن «لببدول»، حين زوال خطر الغزو المحدق به الآن، فأرسل إلى ابن أخيه يعرض عليه بسرور نصف ملكه، الذي سيقع على أي حال بأيدي النصارى، ويدعوه إلى حلف معه لينقذ البلاد.

لكن «ببدول» كان خائفاً من الرجل الذي كان يطلب قتله، بعد أن قتل إخوته(*)، فقبل النصف المعروض عليه من البلد دون أن يتنازل عن حقه بنصفها الآخر، قابلاً بهذا التقسيم لمصلحة الناس كي لا يدمّرهم الصليبيون، فجمع القلّة الباقية حوله وتوجّه بها إلى «الأقصى»، وبينما كان على وشك المغادرة، وقف «حامد» فجأة أمامه وقال: «كن صادقاً مع دينك وبلدك ولا تخضع أكثر من هذا لأولائك الكلاب النصارى، ولا تثق بمن يدّعي الطيبة من ملكي «قشتالة»، فهما يسحبان البساط من تحتك، واختر واحداً من أمرين: إمّا أن تكون ملكاً أو عبداً، ولا يمكنك أن تكون كليهما».

ورغم أثر هذه الكلمات في نفس «ببدول» إلا أنه لم يكن إلا رجل القرارات الوقتية التي تمليها دوافع هذه اللحظة، كما كان للأسف خانعاً في سياسته، لذلك كتب إلى «فردناند» يخبره بأن «الأقصى» وعدد من مدنها المجاورة قد عادت إلى الحلف معهما، وهو يعتبرها من الآن بسكانها وبه عبيدا للتاج القشتالي، لذلك لا داعي لأي هجوم مباشر عليها، وهو يعرض على سيده المرور بها آمناً بكل جيشه الاسباني لضرب «ملقا»، أو أي مكان آخر تحت سيطرة عمّه.

لكن «فردناند» لم يعط إذناً صاغية لكل هذا، ولكل توسلات «ببدول» بالعبودية لتاجه، فلم يكن «ببدول» بالنسبة له سوى أداة يحرك فيها الحرب الأهلية بين العرب، لذلك أصرّ «فردناند» على أن هذا التعس قد تحالف مع عمّه، مما يعني أن عليه أن يتابع بكل حزم حملته على «الأقصى»، لأن البلاد تتحصن منه وضده.

وهكذا لاحظ الأب الجليل «آغابيدا» أن هذا الملك الصالح يتصرّف بناء على النص الحادي

(*) أمام أمه الطاهرة التي هي في سجنه الآن.

عشر من «الإڤانجلست لوك» إنجيل لوقا القائل: «إن المملكة المنقسمة على نفسها لا تستطيع البقاء»، فقد ترك هؤلاء الكفرة يدمّرون بعضهم بخلافاتهم الداخلية، لكي يدمّر الناجي منهم، حسب المبدأ القائل بتحقيق النصر على المنتصر منهما، فملوك العرب بصراعهم المدمر مع بعضهم البعض جعلوا من «قشتالة» أيام حكمهم مسرح حرب أهلية دائمة، فهم لا يستأهلون الملك لا جملة ولا تقسيماً!!

الفصل الثامن عشر

كيف عقد الملك «فردناند» مجلس حرب على صخرة العشاق:

توقف الجيش الملكي الصليبي في ليلة جميلة من ليالي أيار/مايو، أثناء سيره نحو الأقصى، على شاطىء نهر «يوغوسا» على هضبة تسمى بصخرة العشاق، لأجل الراحة، فشكّلت كل قطعة من قطعات النبلاء مخيمها الخاص المحاط بحراستها، ليجلس كل نبيل في وسط مخيمه هذا بعلوة على باقي الخيام المحيطة به، التي بها مماليكه وقواته الخاصة، وكل مخيم ينفصل عن الآخر بمساحة قريبة، وكان في مخيمات الاحتياط القوي الوريث الإنكليزي لعرش بلاده في مخيمه الكامل التجهيزات، وحوله جنوده المسلحون بالفؤوس لحمايته مع النبّالة وفوق خيمة هذا «اللورد» يرفرف العلم الإنكليزي الحريري مع نسائم العشاء المنعشة.

لقد كان هذا المخيم مزيجاً من اللغات والأمم الأوروبية الذين تختلط ألسنتهم في أبسط تفاهم فيما بينهم، على سقاية الخيل من النهر مثلاً، أو حين يشعل كل منهم نيرانه هنا وهناك في الغسق، فالفرسان الفرنسيون يغنون أغنيات الحب، التي قيلت على نهر «اللوار» أو بشمس «غاروني»، يقطعها صرخات الألمان الجافة التي جاءت من «الراين»، أما الرومانطيقية الاسبانية فتغني أشعار ما حصل لسيادها في حروبهم الشهيرة مع العرب، بينما يتناقش الإنكليز بقصص بطولاتهم مع الخارجين عن الملك في جزرهم البعيدة.

وعلى أرض مرتفعة تشرف على منظر هذا المخيم كله نصبت خيمة الملك الجميلة الرائعة، وعليها علم قشتالة وأراغون مع صارية الصليب المقدّس التي ترتفع فوقهما، وفي هذه الخيمة جرى اجتماع قادة هذه القطعات، الذين دعاهم «فردناند» لمناقشة دخول «ببدول» إلى «الأقصى» مع تعزيزات معتبرة، وبعد بعض المناقشة لهذا الوضع تقرر غزو «الأقصى» من

اتجاهين، فقسم من الجيش يجب أن يسيطر على مرتفعات «سانتو البهاقين»(*) الخطرة أمام المدينة، بينما يطوق الباقون المدينة من الجهة الأخرى.

فطلب المركيز «أوف كاديز» فوراً وضعه هو وفرسانه في المكان الخطر، الذي اضطر مع رفاقه بالسلاح التراجع عنه في الحملة السابقة، فأخذ عليهم العدو هذا التراجع كهزيمة شائنة، لذلك عليهم استعادة هذه المرتفعات ونصب خيامهم عليها والثأر لدم زملائهم الذين قتلوا هناك، لذلك طلب «المركيز» أن يقود الهجوم على هذه المرتفعات التي سقط عليها «الماستر أوف كالاتراڤا»، والتعامل مع العدو وإشغاله إلى حين وصول وتمركز الجيش بالجهة المقابلة للمدينة.

فأعطى الملك «فردناند» موافقته على هذا، على أن يكون للكونت «دي كابرا» نصيب من هذا التقدم، لأنه اعتاد دوماً أن يكون في طليعة كل هجوم، خاصة وأن «ببدول» أمامه ليأسره ثانية، لذلك لا يمكنه أن يرضى أن يكون في مؤخرة الجيش، و«فرناند» يريد أن يعطي «الكونت» إضافة لإضعاف معنويات «ببدول» بوقوفه أمامه، فرصة لمحو عار مصيبة تراجعه الأخير.

والوريث لعرش بريطانيا الذي سمع بوجود مكامن هذا الخطر، إنتدب نفسه فوراً للمشاركة فيه بكل حماس وحرارة، لكن الملك قال له: «إن عند هؤلاء الفرسان حساباً يجب أن يصفوه مع العدو، وله علاقة بسمعتهم، فاسمح أيها «اللورد» لهم أن يقوموا بهذه المبادرة بأنفسهم، خاصة وأنك لو بقيت معنا تتابع هذه الحروب مع العرب، لن تعدم الفرص المتاحة لتقديم خدماتك الثمينة».

لذلك أطاح المركيز «أوف كاديز» ورفاقه بخيامهم قبل الفجر، وتحركوا بقوة من خمسة آلاف فارس واثني عشر ألف راجل عبر شعاب الجبال بسرعة من يريد أن يوجّه الضربة الأولى، واحتلال مرتفعات البهاقين قبل أن يصل الملك مع بقية الجيش لمساعدتهم.

و«الأقصى» التي تقف على رأس مرتفعها بين جبلين على شاطىء «شنيل»، لا يمكن الوصول إلى مرتفع البهاقين أمامها إلاّ عبر وديان وعرة تحفرها أقنية مائية عميقة، وعبّارات مائية يسقي منها العرب حقولهم، والوادي العميق الذي ترويه هذه الأقنية المائية صعب المسير، لذلك كان الجيش محرجاً جداً في مسيره هذا، خوفاً من أن تشغله تفاصيل هذا المسير عن الوصول إلى هدفه في المرتفعات.

واندفاع الكونت «دي كابرا» كما في عادته، نحو الوادي بوجه كل عقبة فيه، لم يجعله يميز الطرق الأكثر عملية في السير فيها بهذا الوادي، فصار يتعرّج كثيراً في مسيره، بينما

(*) ويسميها العرب «راية أبو الحسن».

الآخرون الذين اجتازوا الوادي من أماكن أسهل وأبطأ تجنبوا هذه العقبات، وساروا ببطء لكن بجهد أقل، فالمركيز «دي كاديز» و«دي غويلار» وكونت «دي يورينا» الذين عرفوا هذه الأرض في الغزوة السابقة، التفوا على عقبات الوادي بدائرة وسعوها، مخفين أعلامهم وراصين صفوف جيشهم، خاصة في الأماكن التي فاجأتهم فيها قوات العدو، واضطرتهم إلى التراجع.

الفصل التاسع عشر

كيف ظهر الجيش الملكي أمام مدينة «الأقصى»، وكيف استقبل، والإنجاز غير الرحيم لوريث العرش الإنكليزي:

ألقى تقدم الجيش الصليبي نحو الأقصى «بيدول» المتردد بالتذبذب كعادته، بين قسمِهِ الذي خضع بموجبه للقصر القشتالي، وبين واجبه تجاه أمّته وشعبه، فالعدو يتقدم ليحتل مرتفعات «البهاقين»، والناس تطالب بخوض المعركة للدفاع عن نفسها لذلك قال وقتها: «الله...؟! لقد كنت صادقاً مع هؤلاء النصارى بقسمي، ولم أفعل أكثر من أن أخذت الأقصى لأكون من رعيتهم ـ بكل ذلّ العبودية لهم ـ ورغم كل هذا يفضل «فردناند» أخذ الأقصى حرباً، فلتنزل هذه الحرب على رأسه».

والواقع أن الشجاعة لم تكن مما يحتاج إليه «بيدول»، بل كان دوماً بحاجة إلى رأي صائب، ولم يكن أمامه إلا هذا الخيار الآن، فما عليه سوى التصدّي، وسوء طالعه كان دوماً بعدم اتخاذه لأي قرار، أو لأنه كان يقرر بعد فوات الأوان، فالذي يقرره بعد فوات أوانه يدفعه إلى التعجّل فيه، فيأتي سلوكه متسرعاً، وعمله بالتالي غير ناضج، وهكذا لبس «بيدول» دروعه على عجل وانطلق لملاقاة العدو بقواته الخاصة، على رأس أربعمئة فارس، وأربعة آلاف راجل مما بقي معه من جيش، فخاض مع الصليبيين مبارزات راحوا يتكاثرون عليه فيها، لكي يمنعهم من تجميع قواتهم، وهو يضغط بجسم جيشه لدفع العدو عن مرتفع البهاقين، قبل أن يتجمعوا هناك بأي عدد، ثم يحصّنون أنفسهم في هذا الموقع الهام.

وفي هذه الأثناء كان الكونت «دي كابرا» يجتاز مع فرسانه الطريق الوعر الذي خاضه في مخاضات الوادي، عندما سمع صرخات الحرب قادمة من العرب، ورأى جيشهم يندفع نحو النهر، فرصد «أبا عبد الله» معهم من دروعه الثمينة المزخرفة، وحصانه الرائع، والقوات المتميزة

التي تحيط به، وهو يتقدم نحو مرتفعات «البهاقين»، التي حجبتها عنه تلة، وسمع الصرخات الحربية والطبول وأبواق النفير، وتبادل طلقات البنادق الطويلة، دلالة على أن المعركة قد بدأت.

هاهي الجائزة الملكية في الساحة، لكن «الكونت» غير قادر على الاشتباك بعد، لأن كل محاولة متعجلة منه للخروج من الوادي كانت تزيد من تأخره بالخروج، وأخيراً وبعد جهد جهيد غير مجدٍ، أمر جنوده بالترجّل، وأن يقودوا خيولهم ببطء وحذر عائدين نحو الممرات الشديدة الانحدار التي تقطعها الشلالات المائية، لدرجة يصعب فيها رؤية موطىء القدم، و«الكونت» يتذمر من عدم قدرته على التقدم بسرعة جزعاً من إمكان أن تكون المعركة بدونه خاسرة، قبل أن يتمكن من الوصول إلى ساحتها، وأخيراً حين حصل على فسحة من الطريق أمر فرسانه بالركوب والسير خبباً نحو المرتفع، ولكن خيبة أمله كانت بأن الملك العربي لم يعد في ساحة المعركة. فأبو عبد الله قد قاد قواته بتسرّع، وهو يعرض نفسه بدون تروٍ إلى الصفوف الأمامية، مما جعله يتلقى جرحين من أول صدام، رغم أن القوات التي حوله كانت تدافع عنه بضراوة بالغة، فحملوه وهو ينزف من ساحة المعركة، وقد وصل «الكونت» في اللحظة التي رأى فيها انسحابه وهو يعبر الجسر وتدخله جماعته ببطء في باب المدينة.

ورغم انسحاب «أبي عبد الله» من المعركة جريحاً لم يتغير نمط القتال العنيف فيها، فقد ركب المحاربون العرب السمر على مهورهم بسروج سوداء مرعبة يتبعهم «العمرية» بكل بأسهم نحو مقدمة العدو يبعثرونها، ومعهم «حامد الذعري» الذي كان سيد «روندا» مع ما بقي معه من حامية من هناك، فركز هجومه على المرتفعات التي يدافع عنها المركيز «أوف كاديز» ببطولة مع «دي غويلار» اللذان نزلا بنفس سرعة صعود العرب، وتشابكت الرماح الطويلة بين الفرسان، وركّز الكونت «دي يورينا» علمه في المكان الذي كان قد سقط فيه أخوه، وحوله أتباعه الذين يتحركون بنفس حماسه، ويتكاثرون على العدو، ليغرقوا بجانب سلاحهم بدمائهم مع الماستر «أوف كالاتراڤا».

وهكذا استمرت المعركة بضراوة لا توصف، فالعرب يعرفون أهمية المرتفعات بالنسبة للمدينة، والفرسان الصليبيون يعرفون مدى ارتباط هذه المرتفعات بمسألة الشرف عندهم، لذلك تدفقت التعزيزات من المدينة، ليهاجم بعضها النصارى الذين على المرتفعات، والبعض الآخر من هم لازالوا في الوادي، فسال الدم على خضرة الزرع وأكمام الورد لمنع القوات المهاجمة من التلاحم، فدفعوهم إلى التراجع، ووصلت قوات العرب إلى مرتفعات «البهاقين»، فكان الموقف بالنسبة للمركيز «دي كاديز» وجماعته محرجاً جداً، وهم يقاتلون العرب يداً بيد بينما يصعدون إلى المرتفع، ويسقطون بما يصيبهم من الخلف البعيد من طلقات البنادق الطويلة

والسهام، وعدد المهاجمين يزيد كل لحظة، وفي هذه اللحظات الحرجة برز جيش الملك «فردناند» من فم الجبل بكل قواته، ويسير بجانبه النبيل الإنكليزي فارس النهر وريث التاج هناك، ليشهد هو وجماعته أول حرب مع العرب!؟ فنظر باهتمام إلى ظروف المعركة أمامه، حيث يكر الفرسان على بعضهم بكل عنف، وإلى هجوم المشاة غير المنظم حيث تختلط العمائم بالخوذ الصليبية بصراع قاتل وعنيف، فتحمّس لصرخات الحرب وأصوات الطبول وأبواق النفير، وأصوات تبادل الغدّارات والبنادق الطويلة الثقيلة التي يتردد صداها في الجبال، ولذلك حين رأى أن الملك يأمر بإرسال التعزيزات إلى ساحة المعركة، طلب الإذن بأن يخوضها حسب طريقة بلاده في القتال، فأعطي إذنه ليطلق جواده، وعليه درع خفيف مجموع بين ظهره وصدره بحمالات جلدية، ومعه سيف قاسٍ على خصره ويحمل في يده فراعة ـ فأس قتال قوي ـ ليتبعه أتباعه المسلحون مثله، ومعهم مجموعة من النبّالة بأقواسهم المصنوعة من الشجر الإنكليزي «يو ـ تري»، فالتفت اللورد إلى جماعته وخاطبهم بشكل مقتضب على طريقة الحرب في بلاده قائلاً: «تذكروا أيها الرجال الأشداء أن عيون الغرباء عليكم، فأنتم تقاتلون في بلاد غريبة من أجل مجد الله، وشرف إنكلترا وازدهارها» فردوا عليه بصرخة عالية واحدة، فلوّح «اللورد» فأسه فوق رأسه وصرخ أن: «القديس جورج لإنكلترا» محمساً جماعته بهذه الصرخة القتالية القديمة، فاندفعوا معه نحو ساحة المعركة بقلوب تملؤها الشجاعة.

ولم يمض وقت حتى صاروا في قلب جيش العدو، لكنهم توقفوا عن الصرخات أو أي صوت حين اشتبكوا في القتال، ليضغطوا بقوة إلى الأمام، وهم يكيلون الضربات يميناً ويساراً والتي تسقط العرب أرضاً، وهم يفتحون طريقهم في وسطهم بفؤوسهم، وكأنهم حطّاب في غابة، بينما كان نبالتهم يرمون من مكان فسيح، ويشيعون الموت بكل مكان وجانب.

والخيالة القشتاليون الذين رأوا شدة بأس هؤلاء الإنكليز، لم يشاؤوا أن يكونوا أقل منهم بأساً، فرغم أنهم لا يتساوون معهم بالضخامة والقوة والوزن لكن شجاعتهم وإقدامهم يجب أن لا يتفوق أحد عليهم فيها، لذلك نزلوا معهم بجرأة مشابهة وساعدوهم.

ومما ضعضع العرب وأفقدهم تلاحمهم فقدانهم «لحامد الذعري» الذي خرج من المعركة جريحاً محمولاً، لذلك بدأوا يتراجعون تدريجياً نحو الجسر، والصليبيون بأعقابهم إلى أن دخلوا معهم إلى ضواحي المدينة، والقتال يداً بيد، حيث اختلط الحابل بالنابل في شوارعها وبيوتها، عندها تقدم الملك «فردناند» إلى مسرح العمليات مع حرسه الملكي في اللحظة التي دفع فيها هؤلاء اللامؤمنين العرب نحو أسوار المدينة، وهكذا سقطت ضواحي البلد بقوة الجيش الإنكليزي، إذ لولاهم لاستحال هذا الأمر، وتمنعت عن المهاجمين.

ورغم الجرح الذي أصاب وريث العرش البريطاني ظلّ يحث جنوده على التقدم، واصلاً

بهم إلى حدود بوابة قلعة المدينة تقريباً، وهناك أصيب أتباعه بنار المدافعين وفقد الكثير منهم، وأصابته حجرة من مواقع الدفاع أيضاً، خرقت خوذته الضعيفة نحو وجهه، وكسرت أسنانه الأمامية، رامية به فاقداً الوعي على الأرض، فأزاحه رجاله إلى مسافة بعيدة، حيث استعاد وعيه لكنه رفض أن يتراجع تاركاً ضواحي المدينة.

هذه الضاحية التي صارت مسرحاً للنهب والجريمة بعد أن توقف القتال مع الجيش، فراحت طرقاتها تزدحم بالجثث، ومن لم يقتل في الطريق ذبح في بيته بدون أي مقاومة، وهذا الرجل الذي يعمل في صناعة نسج الحرير مثلاً لما حصل من مجزرة هناك، فهو حين حثّته زوجته على الهروب إلى حصن المدينة، أجابها هذا العربي الهرم: لماذا لكي أصبح رهناً للجوع أو العبودية؟! دعيني أقول لك أيتها الزوجة الصالحة، سأنتظر العدو هنا، فلأن أموت بسرعة بالسيف خير من الموت البطيء في أقبية «التفتيش وزنزاناته» وتابع عمله بالنسيج ليلقى حتفه على يد هؤلاء الغزاة الذين لا يميزون، فوق نوله وبمكانه.

هكذا صارت المسيحية سيدة الموقف، وبدأت تعد المخيمات الثلاثية لإطباق الحصار، فتمركز الملك مع جسم جيشه الرئيسي بموقع من المدينة جهة «غرناطة»، وركّز المركيز «أوف كاديز» خيمته مرة ثانية على مرتفع «البهاقين»، بينما ظلّ وريث العرش البريطاني في ضواحي المدينة حيث المذبحة، راكزاً علمه بكل فخر واعتزاز.

الفصل العشرون

نتيجة حصار «الأقصى»:

صار بإمكان الصليبيين أن يختاروا المكان المفضّل لركز مدفعيتهم عليه، بعد أن صارت «البهاقين» وضواحي المدينة بأيديهم، فحطموا فوراً الجسر الحجري أمام باب المدينة الذي خرجت عليه حاميتها لقتالهم خارج المدينة ـ كي يحصروا الحامية بالمدينة تحت ضربات مدافعهم ـ وألقى مهندسيهم جسران من الخشب على القناة وأحد الجداول لوصل معسكراتهم ببعضها.

وعندما تمّ كل هذا فتحوا نار المدفعية الثقيلة على المدينة من مختلف الجهات، وإضافة إلى القذائف الحديدية المدوّرة والحجارة التي ترميها هذه المدافع، نصبوا العرادات لتقذف القماش المشبّع بالنفط المحترق مثل الشهب، كي تسقط على البيوت وتحرقها فوراً، وهكذا كانت تتمزّق أبراج المدينة وتسقط جدرانها من هذا القصف العنيف، وطبعاً كان بإمكانهم دخول المدينة من الفتحات التي أحدثها القصف بأسوارها، لكنهم لم يفعلوا أكثر من تركيز مدفعيتهم الخفيفة على هذه الفتحات مع قناصتهم بالسهام أو بالبنادق الطويلة، ليصطادوا النساء والأطفال الذين يخرجون من بيوتهم المحترقة نحو الأزقة والشوارع بذعر خيّم على كل المدينة.

وعندما كان العرب يحاولون ردم هذه الفتحات كانوا يقصفونهم مجدداً عليها، لدفنهم تحت الردم الذي يجلبون، وفي لحظات مثل هذا اليأس كان الكثير من العرب يخرجون من الأسوار نحو ضواحي المدينة، ويهاجمون النصارى بالعصي والفؤوس والسيوف والهراوات، عسى أن يبعدوهم عن مراكز الضرب والتهديم للمدينة بدون أي مخطط أو تفكير، على أمل أنه إذا مات المهاجم هكذا فعوضه الجنة بدل أن ينفق تحت الهدم والردم.

واستمر هذا المشهد الرهيب لمدة يومين بليلتيهما، دفعت أهل الحل والعقد في المدينة إلى الشعور باستحالة وعبثية المقاومة، فملكهم عاجز، ومعظم قادة جيشهم إما جريح أو قتيل،

وحصونهم لا تزيد عن أنها صارت أنقاضاً، فمثلما دفعوا «بأبي عبد الله» إلى أن يدافع ويهاجم، صاروا يدفعونه الآن للتسليم، لذلك أرسل مجموعة منهم للتفاوض مع ملك النصارى، وعادوا بالشروط التي أملاها وهي:

١ ـ تسليم المدينة مع كل الأسرى النصارى فيها فوراً.

٢ ـ إخلاؤها من السكان الذين يمكنهم أخذ ما يقدرون على حمله نحو أفريقيا، بمرافقة المركيز «أوف كاديز» الذي سيضمن عدم تعرّضهم للنهب أثناء مسيرهم، والذي يختار منهم أن يبقى في اسبانيا مثل «ببدول الشيكو» عليه أن يبقى في مدن محددة فيها وهي: «قشتالة وأراغون وڤالنسيا»، على أن يكون خولاً للملك «فردناند»، الذي يستطيع أن يعامله كما يشاء ولا عهد له عليه ولا ذمة، أما «ببدول» بالأخص فلن يحاسب على نكثه بقسمه السابق أمام الملك إذا سلم كل مملكة «غرناطة» للملك، وسينال مقابل هذا لقب «دوق أوف غواديكس»، شرط أن تسلم هذه المملكة خالية من سيطرة «الزَّغْل» عليها في مدة لا تزيد عن ستة أشهر. وبعد تأمين الاستسلام يُسلِّم ـ كرهائن ـ سياد المدينة وكبار القادة فيها، مع أبناء «علي العطار». وهكذا خرج محاربو هذا الحصن الشامخ نحو ذلّ الاستسلام الذي كانوا يرفضونه كل هذه المدة الطويلة بشرف وإباء، وهم يشيعون بصراخ حريمهم وأطفالهم المتجهين نحو المنفى خارج بلادهم.

وكان آخر هؤلاء «ببدول» الذي ينطبق عليه لقب «الزُّغبي» التعس الذي صار وكأنه قد اعتاد أن يتوَّج، ليعود ويسلم تاجه، ويعامل كصفقة في كل الحلول، وكان مثخناً بجراحه حزيناً، مثقلاً بوعوده التي أعطاها لملوك «قشتالة» وخانوه فيها بدل خيانته لهم كما تبدو الصورة، ولأن الفرسان النصارى كانوا يعرفون هذا الأمر بكل وضوح، شعروا بذلّه وهو ينحني على ركبتيه أمام «فردناند» كما يفعل العبد مع سيده، ليصرفه إلى مدينة «بريغو» على بعد تسعة أميال من «الأقصى» كأسير.

وفور الإنتهاء من كل هذا أمر «فردناند» بإعادة بناء كل تحصينات «الأقصى»، ووضع حامية قوية فيها، وهو فرح بالاستيلاء عليها بعد أن كان هزمه «العطار» مؤخراً على أبوابها، فوزّع الألقاب والأوسمة على القادة الذين برزوا في تدميرها، وتحدث المؤرخون كثيراً عن الزيارة التي قام بها إلى خيمة وريث العرش الإنكليزي، كي يعزّيه على خسارة أسنانه بالمعركة بدل خسارتهم بالتسوّس الطبيعي مثلاً، حيث سيكون فمه الآن أجمل لأنه يحمل بهذا وسام المعركة، في خدمة مبدأ عظيم شارك فيه.

فأجاب «اللورد» بأنه يشكر العذراء التي سمحت له بأن يحظى بمقابلة ملك عظيم من ملوك المسيحية، ولذلك يتقبل بكل الشكر والامتنان خسارة أسنانه، فليس كثيراً أن يخسر سنيّن أو ثلاثة في خدمة الله، الذي أنعم عليه بكل هذا، وعلى هذا علّق الأب «أنطونيو آغابيدا» بقوله: «بأنهما تبادلا التعاطف المسيحي والشفقة، في كلماتهما لبعض بذكاء ملكي تناقله كل الناس في أقاصي الجزيرة الإيبيرية»، كي ينسوا وحشية المجزرة في تلك المدينة؟!

الباب الثالث

الفصل الأول

سقوط «إيللورا»:

ثم اتبع «فردناند» حصاره الملكي «للأقصى» حصاراً قوياً آخراً لمدينة «إيللورا»، فانطلقت هذه القوة الهائلة التي لا يردها شيء نحو الوادي لتصل إلى حوالي اثني عشر ميلاً من العاصمة، لتحاصر هذه المدينة التي يمكن مراقبة كل البلاد من خلالها، لدرجة كانت تسمى بعين «غرناطة».

وكان سيد «إيللورا» واحداً من أشجع سيّاد البلاد العربية، وقد جهّز نفسه للدفاع عن حصنه حتى آخر رمق، فأرسل الأولاد وأمهاتهم والعجزة وكبار السن إلى العاصمة، وهيأ خطوط الدفاع في ضواحي بلده، وفتح داخل المدينة حيطان البيوت على بعضها، وجعل في كل حائط فتحات لإطلاق الأسهم والبنادق الطويلة منه وغيرهما من المقذوفات.

ووصل الملك «فردناند» إلى هذا المكان بكل قوته، وتمرّكز على هضبة «إنسلينا» بقلب جيشه، موزعاً كل الجيش حول المدينة لكي يستخدم الهجوم عليها من كل الجهات، ولإدراكه لشخصية هذا السيد وطبيعة الشجاعة عند العرب، حفر الخنادق حول معسكره ووضع الدفاعات، وضاعف من الحراسة على مخيماته، واضعاً كشافة المراقبة في كل المرتفعات.

وعندما تمّ كل هذا طالب الدوق «دل إنفانتادو» بأن يبدأ هو الهجوم، لكي يثبت للملك خطأ تهمته وأتباعه بالليونة بسبب لبس الحرير والذهب، وليرفع هذه السمعة عن فرسانه، فسمح له الملك بذلك، مع عبارات مجاملة لروحه المعنوية، لكنه أمر الكونت «دي كابرا» أن يقوم بنفس الوقت بهجومه من أماكن أخرى في كل القطاعات حول البلد، فقادا قواتهما، وظهرت قوات «الدوق» بدروعها البرّاقة المبهجة، والتي لم تمس خلال المعارك السابقة، خلافاً لمن مع «الكونت» من قوات عركها غبار المعركة السابقة، بشكل أظهر فارقاً مخجلاً بين القوتين، لذلك

قال: «لقد مسّتنا غبار المعارك، فلنبرهن بأن حرابنا على العكس منا لمّاعة لأنها لا ترتاح في قرابها». فتحمّس أصحابه وحيّوه بصوت عالٍ، ثم قادهم إلى الأمام للهجوم، متقدماً تحت شلال من القصف المضاد بالحجارة والرصاص والسهام، دون أن تتضعضع صفوفه، داخلاً ضواحي المدينة وسيفه بيده وجنوده حوله يقاتلون بكل ضراوة، رغم ما منوا به من خسائر، لأن كل بيت في هذه الضواحي قد تحوّل إلى حصن، لكنهم بعد قتال عنيف نجحوا بدفع العرب إلى المدينة، وفي الوقت الذي كان الكونت «دي كابرا» يهاجم مع فرسانه هذا الهجوم خرج الدوق «دل إنفانتادو» من المعركة فاراً مثخناً بالجراح وبعدد قليل من فرسانه، فشكرهم الملك، ولكن لم يعد يطلب منهم أي مهمة قتالية.

ولأن الضواحي قد سقطت تمكنت البطاريات الثلاثة للمدفعية من أن تنصب وتصب حممها على المدينة، فكانت الخسائر فادحة، لأن الحصون لم تشيّد أصلاً لصد قذائف المدافع الثقيلة، فسقط برج المدينة وتمزقت أسوارها شرَّ تمزيق، إلى حد أن داخل القصر قد تهدّم وكل البيوت أصيبت، فذعر العرب من فداحة هذا التدمير، ولكن السيد كان يريد أن يحفظ هذا المكان حتى الرمق الأخير، وظل يدافع عن أكوام من الركام، دون أمل بوصول أي مدد من «غرناطة»، مما أفقد جماعته روحهم القتالية، ومالوا إلى الاستسلام، وهذا ما حصل لهذا السيد المحطّم القلب، الذي قبل بالخروج تاركاً سلاحه تحت إشراف قوات الدوق والكونت إلى جسر «بينوس»، الذي يبعد مسافة ستة أميال من «غرناطة».

فأمر «فردناند» بإعادة بناء «إيللورا» وما فيها من قصر بشكل أمتن، وترك عليها «غوانزاڤو دي كورتوبا» سيداً مع حامية قوية، وهو مقدم الحرس الملكي «لفردناند وإيزابيلا» وأخ «دون ألونزو دي غويلار» الذي أثبت نفسه بعد ذلك في ساحات القتال وصار مشهوراً بهذه الحرب.

الفصل الثاني

حول وصول الملكة «إيزابيلا» إلى المعسكر أمام «موكلين»، وحديث ولي العهد الإنكليزي معها:

مهما زركش الشعراء حروب غرناطة هذه بتصورات الفروسية والبطولة، فستظل هذه الحروب في واقعها من أكثر الصراعات مأساوية، تحت إسم الحرب المقدسة أو قداسة الحروب، والأب «آغابيدا» المبجّل الذي تحدث بكل سرور عن نجاح الحملات الجبلية المتتابعة، ودماء المعارك، وما رافقها من اقتحامات وغزوات تمّت بدون رحمة أو شفقة، ضد من أسماهم باللامؤمنين، مما تميزت به هذه الحروب، نراه يتوقف عن هجومه التكراري ودعمه للانتصار على المسلمين، ليصف بتفصيل واقع الاحتفالات التاريخية في القصر الكاثوليكي بحد ذاته.

فبعد سقوط «الأقصى» كتب «فردناند» فوراً إلى «إيزابيلا» لكي توافيه في معسكره، ليبحث معها كيفية تقاسم هذه البلاد الجديدة في حوزتهما.

وفي مطلع تموز/ يوليو خرجت الملكة من قرطبة مع ابنتها وعدد من سيدات البلاط، يرافقها كوكبة من الفرسان والعبيد وكثير من حرسها المحلي، وقد خصص لأغراضهاالشخصية أربعون بغلاً، وعدد مشابه للمرافقة.

ووصلت هذه القافلة الملكية إلى صخرة العشاق على شاطىء نهر «يوغواس»، لتصل لاستقبالهم كوكبة أخرى من الفرسان، وعلى رأسها المركيز الشهير «أوف كاديز» مع مماليك من الأندلس، خرج بهم بعد احتلال «إيللورا» لملاقاة الملكة واصطحابها عبر الحدود، فتلقت الملكة المركيز بالتكريم، لأنه يمثل صورة الفارس في ذاك الوقت، فمساهمته بهذه الحروب كانت على كل لسان، والناس صارت تقارنه بقوة «السيد» الأزلي الأسطورية.

وبهذه الصحبة المشرفة دخلت الملكة حدود مملكة غرناطة المزالة، تتمخطر آمنة على شاطىء

«شنيل» الذي كان لمدة وجيزة سابقة من أملاك العرب، فتوقفت في الأقصى، لزيارة الجرحى من جيشها، وتوزيع الهبات الملكية عليهم حسب رتبهم العسكرية.

أما الملك فبعد أن احتل «إيللورا»، نقل جيشه إلى «موكلين» على أمل حصارها، وفي هذه الأثناء تقدمت الملكة مع صحبتها ومرافقتها في الطرقات الجبلية بحراسة المركيز «أوف كاديز»، وحين اقتربت من المخيم، تقدم الدوق «دل انفانتادو» مسافة ثلاثة أميال لملاقاتها بكامل أبهته، يتبعه فرسانه المطعمون بالفضة والذهب، ومعه علم «قشتالة» يحمله رجل منها، وخلفه رهبان «السانت جون»، الذين وقفوا وقفة من يصطفوا للمعركة كي تستعرضهم الملكة، وقد وصف «آغابيدا» بكل ولاء وبهاء هذه الملكة الكاثوليكية، وهي تركب جانبياً على بغلها المرزكش على كرسي كالسرج، المطعم بالفضة والذهب، وعلى البغل غلالة من الحرير تخفيه تحتها كالتي تستعمل في الاحتفالات، مطرّزة باليد، ومكتوب عليها بالخيوط الذهبية أحرف التاج، وهي على متن مطيتها تلبس ثوباً قرمزياً، وتحته البروكار، وتتشح بوشاح قرمزي على الطريقة العربية المغربية، وتعتمر قبعة سوداء فوقها تضع التاج.

وبجانبها ابنتها على مطية أخرى بها ما يشابه الأولى، وهي تلبس فستاناً من البروكار الأسود، ووشاحاً أسوداً كوشاح الملكة.

وعندما مرّت القافلة بفرسان الدوق سحب سلاحه تحية لها، فحيّت الملكة علم قشتالة، وأمرت أن يُحمل على جانبها الأيمن، وهي تدخل المعسكر، وقد انطلق الجيش كله لتحيتها بكل قطعاته وأعلامه المختلفة، التي راحوا يخفضونها لها واحداً بعد الآخر كتحية لها، وهي تجتازهم نحو الملك الذي خرج بأبهة ملكية على ظهر جواد مطهّم أبلق، وحوله الكثير من حرسه القشتالي، يلبس جاكيتاً من البروكار مع بنطال قصير منتفخ أصفر، وعليه عباءة من البروكار أيضاً، ويتمنطق بسيف عربي مطعم بثراء، ويعتمر طاقية مريشة، وحاشيته التي كانت ترافقه كانت كذلك ترفل بالثياب الفاخرة، كل حسب رتبته وذوقه.

لقد كان هذان الحاكمان القويان كما أكّد «آغابيدا» يعتبران بعضهما بشكل مختلف كحلفاء لا كزوجين، فقبل أن يتعانقا حين وصلا لبعضهما أدّيا شعائر التعظيم الملكي، فقام كل منهما بخطوته الملكية المتراجعة أمام الآخر، وقد نزعت الملكة قبعتها، دون أن تزيل عن وجهها حجابها الحريري، ليتقدم الملك بكل احترام ويقبلها على خدها، ثم بنفس الطريقة اتجه نحو ابنته واضعاً إشارة الصليب عليها قبل أن يقبلها من شفتيها.

ويبدو أن الطيب ـ الساذج ـ «آغابيداً» كان مبهوراً بمظاهر هذا البلاط الملكي، بقدر انبهاره بولي العهد الإنكليزي، فتابع قائلاً: «بأنه تابع الملك بكل جلال آخذاً مكانه بشكل استثنائي

قريباً منه، ومن الوصي الإنكليزي الذي كان يركب حصاناً فائقاً بكل شيء، وعليه عباءة «آزوردية» تصل إلى الأرض وتنتشر عليها نجوم ذهبية، وفوق دروعه كان يلبس سترة فرنسية قصيرة، ويعتمر طاقية فرنسية بيضاء مريّشة أيضاً، ويحمل بيده اليسرى درعاً صغيراً مستديراً مطعماً بالذهب...» وهكذا رصد خمس صفحات من الوصف الدقيق له ولأتباعه الذين يقفون وراءه، كما في عادة هؤلاء الشجعان ببلدهم.

وتقدم أولاً نحو الملكة وابنتها الأميرة، ثم قدّم نفسه للملك، فاستقبلته الملكة «إيزابيلا» بتقدير، وهنأته على ما أظهر من شجاعة في «الأقصى»، وعزّته على فقدان أسنانه هناك، فأبدى «اللورد» استخفافاً بجرحه هذا بقوله: «إن الرب الذي بنى لي كل هذا الجسد فتح شباكاً هنا، لكي يرى أكثر ما يخرج منه وما يدخل فيه»؟!

وقد فوجىء مؤرخنا «آغابيدا» بذكاء هذا الغريب من تلك الجزر النائية، ومن فروسيته، ومن معرفته بكل هذه الأداب واللياقة، وخاصة حين تراجع قليلاً بجانب الأسرة المالكة، وهو يجاملهم جميعاً بدرر الكلام، تاركاً كل الحضور وهم بحالة إعجاب به وبسلوكه وفروسيته الفائقة.

ولكي تعبّر الملكة عن امتنانها من هذا النبيل الإنكليزي الذي جاء من تلك البلاد النائية ليقدم لها خدماته بحربها، أرسلت له في اليوم التالي هدية من اثني عشر حصاناً، مع خيمة من الحرير الملكي، وفيها سريران بأغطيتهما من البروكار الموشّح بالذهب، مع مفروشات أخرى ذات قيمة كبيرة.

وهكذا بعد أن وضعنا «آغابيدا» بهذه الاستراحة في وصف الملوك الكاثوليك، وما حقّقوه من إنجازات، عاد لكي يجدد نشاطه الورع بالإنتقاص من العرب المسلمين.

الفصل الثالث

كيف هاجم الملك «فردناند» مدينة «موكلين»، والأحداث الغريبة التي شهدت سقوطها:

قال «آغابيدا»: «إن الملوك الكاثوليك تمكنوا إلى الآن من قصّ جناح واحد من جناحي الصقر العربي المفترس للأندلس». بمعنى أن معظم الحصون القوية على الجبهة الغربية من «غرناطة» قد دمّرتها المدفعية المسيحية وأوقعتها، ليحاصر الجيش الآن مدينة «موكلين» على حدود «جين» التي تعد من أعند حصون الحدود، فهي مبنية على صخرة عالية بهضبة في آخرها يتعرّج نهر، ويحميها من الخلف غابة كثيفة تمتد حتى الجبل، فوضعها قوي جداً، تدعمها أبراج ومواقع قتال قوية على سورها وأبراجها، لذلك كانت تسمى بدرع «غرناطة». وبينها وبين النصارى ثأر قديم، فقبل مئتي عام قضى «الماستر أوف سانتيغو» وكل فرسانه بحراب العرب على بابها، كما أنها أوقعت أخيراً بفرسان «الكونت دي كابرا» في محاولته الأخيرة للإيقاع «بالزَّغْل» فجنودها من هزمه، مما اضطر «فردناند» إلى إبتلاع كبريائه والعدول عن محاصرتها بسبب تلك الوقيعة بقوات «الكونت»، أما الآن فقد حان وقت الثأر.

لقد زوّد «الزَّغْل» المحارب هذه القلعة المدينة بكل المؤن مؤخراً، وأمر بخندق حولها، وعوائق أمامه، ثم أخلى المدينة من الشيوخ والأطفال والنساء نحو عاصمته.

فلقوة هذا المعقل وصعوبة وأهمية موقعه، توجه نحوه «فردناند» بكل قوته مع كل الاستعدادات اللازمة لحصاره.

وبمجرد أن بدأ الحصار، فتحت البطاريات الثلاث للمدفعية الثقيلة نيرانها ضد قلعة المدينة وأبراجها الرئيسية، بينما توزعت المدفعية الخفيفة مع حملة البنادقة الطويلة الثقيلة ورماة النشاب، حول المدينة لإطلاق النار من كل جهة ممكنة على الحراس الذين يظهرون في السور بمواقع الدفاع فيه.

وقد أعطى هذا القصف ثماره بسرعة، حين أزال قسماً من سور الحصن مع عدد من أبراجه التي يستحيل تدميرها قبل توفر البارود بهذا الشكل في الحروب، فحاول العرب إصلاح ما يمكن إصلاحه من هذه الفتحة، وهم لازالوا على شعورهم بمناعة موقفهم، واستمروا بالدفاع يطلقون النيران من عُليهم على النصارى ومخيمهم، فاستمر إطلاق وتبادل النيران لمدة يومين بليلتيهما، بدون أن تهدأ زمجرة المدافع أو أصوات الطلقات، مما أسفر عن أضرار لكلا الفريقين، لقد كان صراعاً بين المهندسين والمدفعية معهم أكثر منه صراعاً بين فرسان، فلم يظهر أي اشتباك بين القوات بعد، ولا أي ضرب سيوف، تلك القوى التي ظلت بحال انتظار لفتح الفتحات في الأسوار، وللعصف بالخندق بعدها، وكل ما في الموقع يشير إلى أن المقاومة ستكون قوية وضارية.

والمهندسون الألمان لم يقذفوا قذائف الحديد والحجارة على الحصن فقط، بل كعادتهم ضربوه بالعرادات التي تحمل كرات النار البترولية غير القابلة للانطفاء، والمصممة لإشعال البيوت، والتي تنطلق عالية من هذه العرادات مثل الشهب، مثيرة الشرر والتدمير حيث تنزل، فإذا نزلت بمكان أو برج فيه مخزن «بارود» فسينفجر بدوي رهيب، ويتطاير الرجال منه في الهواء لتوزع جثثهم، أو المتطاير منها على أرجاء المدينة، وينتج عن هذا الإنفجار ما يشبه هزة أرضية قوية.

والذي لم يشهد هذا الأمر أو يتصوره بعد سيعزوه إلى معجزة، وكأن هذه النيران تسقط عليهم من السماء عقاباً على ذنوبهم، وحتى الصالح «آغابيدا» تصور أن هذه النيران التي يطلقها «الألمان» موجهة من رسل الله على اللامؤمنين، وهو رأي أخذ به الكثير من المؤرخين الكاثوليك الآخرين، لا «آغابيدا» وحده.

ولأن السماء والأرض تحالفت ضد العرب اضطروا إلى الاستسلام، فسمح لهم بالمغادرة مع أغراضهم الشخصية دون سلاح أو ذخيرة، ودخل الجيش الصليبي المدينة، وكأنه ضيف دون معارك. وقد أكّد «آغابيدا» الذي رأى المحاربين المسيحيين الذين جاؤوا لتطهير هذه البلاد أنهم لم يدخلوا إلا تحت ظل الصليب رمز هذه الحملة الجهادية الصليبية، الذي رفعوه بالمقدمة، يتبعه باقي أعلام الجيوش الغازية، ثم وصل «الملك والملكة» على رأس عدد كبير من الفرسان المسلحين، وهما محاطان بالرهبان من أبرشية القصر الملكي يغنون أغنية النصر على الإسلام «Te Deum Laudamus» وهم يخترقون الشوارع ليسمعوا رداً عليهم من تحت الأرض في أحد الأزقة، فتوقفوا ليروا أنه صوت الأسرى النصارى من أقبيتهم، وبينهم بعض القسسة الذين كانوا في هذه الزنزانات الأرضية.

فبلغت التراقي «بإيزابيلا» التي أمرت بتحريرهم فوراً، وإخراجهم من زنزاناتهم، ولما قابلتهم تبين من منظرهم المهلهل كم عانوا من عذاب في الأسر، فشعورهم ولحاهم منفوشة، وقد عضّهم الجوع والبرد فهم نصف عراة وبأيديهم الأغلال، فأمرت بإطعامهم وإلباسهم، ثم وزعت عليهم المال كي يعودوا إلى ديارهم.

وكان فيهم عدد من الفرسان الشجعان، الذين أسروا بعد جرحهم في هزيمة «الكونت دي كابرا» على يد «الزَّغْل» في السنة السابقة، بينما ظلّت بقايا من قتل هناك في الوديان والممرات الضيقة الجبلية، أو في منعطفات الجبال، فعرفت بعض الجثث من دروعها، وأعادهم رفاقهم الذين شهدوا الكارثة معهم ليدفنوهم دفناً لائقاً.

وتمّ ذلك بأن أمرت الملكة بجمع بقاياهم لتدخل بهاإلى مسجد «موكلين» بعد أن طهّره القساوسة العباد، وهناك قال «آغابيدا» دفنت بقايا هؤلاء الفرسان الكاثوليك الحقيقيين بالأرض التي تطهّرت بدمائهم، لكي يمر كل الحجاج إلى هذه الأماكن بهم، ويصلّون لراحة أرواحهم.

ثم بقيت الملكة لبعض الوقت في «موكلين» تواسي الجرحى والأسرى، وتعيد تنظيم البلاد المستعادة حديثاً، موزعة أماكن الكنائس و«البازليكات» بدل المساجد فيها، بينما كان الملك يتقدم على الجبهة الجديدة وهو يدمّر بلاد الطغاة كما يؤكد «آغابيدا».

والملكة «إيزابيلا» إذ تجمع هذه الغنائم بمساعدة هذه الغيمة من الرهبان المحيطة بها، من الآباء والإخوة والرجال المقدسين، الذين يقطفون أول الثمار من اللامؤمنين وبلادهم، ليضمّوها إلى ممتلكاتهم الكنسية المتنامية، وهي تنال منهم صفات الصلاح، لينالوا منها ومن زوجها ما يقدرون عليه من ثمار الفتح الذي يدمر «الڤيغا»، وينقل السيف والنار إلى أبواب «غرناطة».

الفصل الرابع

كيف روّع الملك «فردناند» «الڤيغا»، ومعركة جسر «بينوز»، ومصير أخوين - سيدين - من العرب:

ظل «مولاي أبو عبد الله الزَّغْل» أسير شكوك الناس منذ موت أخيه «مولاي أبي الحسن»، ويلاحقه سوء طالع الظروف التي أحاطت بموت أخيه، ومن وقتها فارقه النجاح الذي كان حليف علمه بانفضاض شعبه عنه، ولما كان الفشل من أكبر جرائم الحكام تجاه شعوبهم، بدأ يفقد ثقته بشعبه، وشعبه يزداد انفضاضاً عنه، مما مكّن الجيش الصليبي من السير بشكل سهل وعلني في مناطق نفوذه، ليحط الرحال قصداً أمام حصونه، دون أن يقدر على قيادة قطعاته لمقاومتهم، طالما أن سكان «البائسين» كانوا على أهبة الثورة، وبالتالي إغلاق حصون «غرناطة» من وراء ظهره.

وزاد الوضع سوءاً دخول المهاجرين النازحين كل يوم إلى أبواب المدينة، يحملون ما قدروا عليه من متاع لا يعولهم طويلاً، وهم ينعون زوال مدنهم وأملاكهم، ووصل اليأس إلى ذروته حين وصلت أخبار سقوط «إيللورا» و«موكلين»، فقد كسر درع غرناطة وفقئت عينها، فمن سيحميها من العدو؟! وحين وصل الناجون من حاميات هذه المدن منكسي النظرات، وعليهم رائحة بارود الحرب، وأعلامهم منكسة، لامهم الناس على فرارهم لكنهم قالوا: «لقد قاتلنا طالما ظلّت معنا قوة للمناهضة، أو أمامنا أسوار تحمينا، لكن النصارى دمّروا كل دفاعاتنا، ونحن ننتظر المدد من غرناطة انتظار المحال».

لقد كان سيدا «إيللورا» و«موكلين» أخوين، وهما من أشجع فرسان العرب، متشابهين في سلوكهما بكل الظروف، وكانا مشهورين بالكر والفر الذي ميز أيام «غرناطة» الزاهية، وتميزا في حمأة المعارك في ساحات القتال، فالناس كانت تهلل لأعلامهما دوماً وتتبعهما، وهما محبوبان من الشعب.

لذلك تبعهما الناس بعد سقوط معقليهما بالتوبيخ، مما جعلهما يشعران بالمهانة، فوجدا جحود مواطنيهم أصعب احتمالاً من عداء الصليبيين لهم، ولما وصلت الأخبار بأن جيش العدو يدمر سهوب «الفيغا» حول «غرناطة»، و«الزغل» لازال لا يجرؤ على الخروج لملاقاته، وقف سيدا «إيللورا وموكلين» أمام «الزغل» ليواجهانه بأنهما قد دافعا عن حصونه إلى درجة أنهم صارا على وشك أن يدفنا تحت خرائبها، وقال أحدهما: «ورغم ذلك لم ننل إلا التنديد والسخرية منا؟! أعطنا أيها الملك الفرصة التي تعطى للفرسان كي يؤكدوا أنفسهم في ساحة المجد، لا وراء الأسوار بل في حقول القتال، فالعدو يقترب مدمراً بلادنا، أعطنا الرجال لملاقاته، وليقع العار علينا إذا عدنا دون رده».

فاستجاب لهما الملك، وأرسلهما مع عدد كبير من الخيالة والمشاة، على أمل أنهما إذا أصابا نجاحاً، خرج بكل قواته ليضرب العدو ضربة حاسمة تعيد له كل ما خسره، وشيعهم البعض من سكان المدينة حين برز علميهما وهما خارجان نحو المعركة، لكن هذين السيدين مرا بثبات دون التفات لمعرفتهما أن نفس هذه الأصوات المشيعة ستلعنهما لو هزما، ثم ألقيا نظرة الوداع على «غرناطة»، مسرح طفولتهما، كما لو أنهما لهذا سيضحيان بحياتهما، لا لهذا الشعب المذبذب الجاحد.

أثناء ذلك كان جيش «فردناند» قد وصل إلى مسافة ستة أميال من «غرناطة» على جسر «بينوز»(*)، وهو ممر حفل بالكثير من الصراع بين الإسلام والنصارى في معاركهما الدامية، وهو الممر الذي تُهاجم منه القوات القشتالية غالباً، وهو قابل للدفاع بسبب صعوبة هذا الممر والبلاد المحيطة به، وصعوبة اجتياز هذا الجسر، وكان الملك مع معظم جيشه قد وصل إلى الهضبة المشرفة على هذا الممر، عندما رأى أن طليعة جيشه بقيادة «المركيز أوف كاديز والماستر أوف سانتيغو» تُهاجم بقوة من قطعات العدو، وهي بجوار الجسر، والعرب يسحقون مقدمة هذه الطلائع بتهليلهم المخيف كالعادة، لكنه كان هذه المرة تكبيراً أشد ضراوة، أعقبه صراع عنيف على الجسر، فكلا الفريقين يعرف أهمية هذا الممر، والملك الذي راح يرقب كل هذا لاحظ فارسين شبه متماثلي الزي من العرب، وعرف من علمهما أنهما قادة هذه القوات العدوة، لقد كانا بالطبع الأخوين سيدي «إيللورا» و«موكلين» اللذين ينقلان الآن الاضطراب والموت إلى القطعات المسيحية كيفما اتجها، وهما يقاتلان بيأس لا بشدة فقط، فخرج لهما الكونت «دي كابرا» وأخيه «دون مارتن دي كورتوڤا» بتلهف للقاء، ولكن لبطء تحركهما في زحمة القتال ووعورة الطريق طوّقهما العدو، وصارا بخطر محدق، فاندفع أحد الفرسان النصارى مع

(*) أو «بينوس».

صحبه، بعد أن رآهما بهذه الورطة، لتخليصهما من هذا الخطر المحدق، فعرفه الملك الذي يراقب الواقعة بأنه «دون جوان دي أراغون» كونت «ريبارغوزا» ابن الأخ غير الشرعي - بالسفاح - للملك «فردناند»، لكن سلاحه اللامع وحصانه المزركش جعلا منه هدف هجوم جيد، فهاجمه العرب من كل جهة فسقط حصانه ميتاً من تحته، ومع ذلك ظل يقاتل بكل جرأة، مخففاً الحمل عن قوات الكونت «دي كابرا» كي تلتقط أنفاسها.

آنذاك أمر الملك حرسه أن يتحرك بعلمه، ويسرع بكل قوته لنجدة الكونت «دي كابرا» خوفاً على ابن أخيه، فانسحب العدو نحو الجسر لرؤيته لهذه القوات تهاجمه، لكن السيدين العربيين أرادا الاحتفاظ بقواتهما لتدافع عن هذا الجسر الممر لآخر رمق، فحضوهما بكل السبل للصمود عبثاً، ولم يبق معهما سوى عدد قليل من الفرسان ليشتبكوا مع العدو المهاجم يداً بيد، والكل يستعمل السهام والبنادق الطويلة من جانب النهر وعلى جانبه ضدهما، فامتلأ النهر بالجثث الطافية ممن معهما، وكادت قوة الفرسان العربية أن تتمزق إرباً بعد أن سقط السيدين الأخوين جرحى على الجسر الذي يدافعان عنه بكل إباء، ورغم ذلك قررا عدم العودة إلى غرناطة، وترك هذه المعركة الخاسرة، واستشهدا. ولما علم أهل «غرناطة» بذلك ندبوهما لهذه الوقفة المشرفة، وظلّت ذكراهما على كل لسان، ورفع عمود على الجسر بعد ذلك كتب عليه عبارة «هنا رقد الأخوان».

بعد ذلك تدفق جيش «فردناند» من هذا الممر، لينصب خيامه في فناء حقول «غرناطة»، فانتهزها الأب الفاضل «آغابيدا» فرصة لوصف الانتصارات الكثيرة التي حققتها هذه القوات في «الڤيغا»، بكل تفاصيلها التي أدّت إلى نهب ودمار هذه «الڤيغا» إلى درجة تدمير كل الزرع والضرع واغتصاب الأطفال في هذه الجنة الأرضية التي تحولت إلى جحيم، وذكر الكثير من الهجمات العربية القوية التي خرجت لردهم دون جدوى، والتي يمكننا أن نذكر أهمها، لأنها تسجل منجزات أحد قديسي هذه الحرب؟!![*].

فخلال إحدى تحركات الجيش الصليبي حول أسوار غرناطة، خرجت كتيبة من ألف وخمسمئة فارس وعدد كبير من المشاة معها من سور المدينة، وتمركزت في حقل تحيط به الأقنية، وبه خنادق تستعمل للري.

وكان يمر بذات الوقت «الدوق دل انفانتادو» مع كتيبته اللماعة الجميلة، والتي بها دارعة وقوات خفيفة، تتبعها خيالة كانت تخيم معه كمؤخرة حماية لقواته بقيادة دون «غارسيا أوسوريو» بيشوب «جين» الشهير برفقة «فرانسيسكو بوفاديلو» المسؤول عن مدينته، ومعهما

(*) بيشوب «جين»، غارسيا أو سوريو.

فرقتان من الرجال المسلحين من مدينة «جين» و«الأقصر» و«عبيدة» و«بيضة»، فنجاح حروب السنة الماضية أعطت «البيشوب» رغبة بالمزيد من الحروب، فلبس مرة ثانية دروعه لها.

لقد كان العرب أكثر خبرة في استراتيجيات الحروب، لذلك نظروا بحكمة إلى هذه القوات اللماعة الدروق، وبهدوء لم يكترثوا فيها أو يهاجموها، لأنهم شعروا بأن قوات «البيشوب» فريسة أسهل، لذلك تركوا قوات الدوق تمر دون أن يهاجموها، واقتربوا من قوات «البيشوب» متظاهرين بالهجوم عليها بأن بارزوها قليلاً، وفروا بما يبدو أنه هزيمة فوضوية، فظن البيشوب أن اليوم يومه، وحمّسه وجود المسؤول عن مدينته معه، فلحق بالفارين، ولكن العرب توجهوا إلى «هورتا دل ري ـ حارة الري» وتعرف بزهرة الأوركيد الملكية، وقوات البيشوب تطاردهم بحماس، ولما صاروا في هذه الحدائق كروا عليهم بعنف، فألقوا بقسم منهم في نهر «شنيل»، وفتحوا فوراً القنوات الجافة فوجد «البيشوب» نفسه مع قواته كجند فرعون الغارقين بالطوفان، مما أعقب ذلك مشهد من مشاهد الفوضى العارمة، فبينما كانت جماعة مدينة «جين» تقاتل يداً بيد في الحدائق، كان آخرون يصارعون الماء وهم يحاولون الفرار عبر هذه القنوات فغرق الكثير من خيولهم، ولحسن حظهم أن «الدوق» عاد لمساعدتهم، ففر العرب عبر طريق «الڤيرا» نحو أبواب «غرناطة»، وكانت حصيلة هذه المعركة فقدان عدد من فرسان النصارى لينجو «البيشوب» بصعوبة بنفسه، وذلك حين تعلّق بذيل حصانه الذي كان يهاجم به، بعد أن وقع عن سرجه، فكان هذا الإنجاز كافياً لإرضاء الروح الجهادية عند «البيشوب»، فعاد إلى مركزه ـ كما أكد «آغابيدا» ـ في مدينة «جين»، حيث قام بأعمال هامة منها تشميع بذته الحديدية الحربية وتعليقها على حائط قصره الديري، ولم نعد نسمع عن أفعاله العسكرية أبداً خلال هذه الحرب على غرناطة التي يسميها أمثاله بالمقدسة؟!

أما الملك «فردناند» فبعد أن أتمّ إفراغ حقده على «الڤيغا»، تاركاً «الزّغْل» أسير عاصمته، قاد جيشه عبر ممر «لوبي» ليلحق «بإيزابيلا» في «موكلين»، هذا الحصن الذي أعيد بناؤه وتعزيزه وتزويده بالمؤن والسلاح، فأعطى قيادته إلى ابن عم له اسمه دون «فادريك دي توليدو» الذي اشتهر بعد ذلك في حروب «نيذرلاند» تحت لقب «دوق أوف ألبا»، وهكذا تتوجت هذه الحملة بالنجاح، لذلك عاد الملكان منتصرين إلى مدينة «قرطبة».

الفصل الخامس

محاولة «الزّغل» لقتل «ببدول»، وكيف عاد هذا الأخير إلى ساحة الأحداث:

وبمجرد أن غادرت القوات الصليبية خلف جبال «القيرا»، وخبت أصوات أبواق نفيرها من الجو، انفجر الغضب المكبوت لمولاي «الزغل»، مقرراً أن لا يبقى مجرد نصف ملك يحكم بلداً منقسماً في عاصمة منقسمة، لكي ينهي بأي وسيلة، عاقلة أو مجنونة، ابن أخيه «ببدول» وجماعته، فبدأ بالذين منعوه من الخروج لملاقاة العدو ببلده، وراح بالقتل والصلب والجلد يتعقبهم، فإذا حقق الوحدة في مملكته فسوف يلتفت إلى الصليبيين معتمداً على مهارته في القتال لكي يطردهم خارج حدوده.

وكان ببدول في «فلز إيل بلانكو» القريبة من «موريسيا» حيث يمكنه طلب الحماية والمساعدة من «فردناند»، فهزيمته كرّست لعنة سلوكه وسوء طالعه الذي بهما يريد الملك فقط، بغض النظر عن أي اعتبار آخر، فطالما بقي هذا التعس حياً سيظل «الزغل» على وضعه المتقلب، إذ يمكن أن يرفعه الدهماء بكل لحظة إلى سدة الملك بمساعدة العدو، لذلك سعى «الزغل» بكل الوسائل لتدميره، فأرسل الرسل له يقدمون له الاقتراحات التي تنقذ المملكة، إلى درجة أن يعطيه الملك له وحده ويعود واحداً من رعيته على أن يعطيه أملاكاً تمكّنه من حياة رغيدة في تقاعده، ويقدموا له السم أثناء ذلك بشكل سرّي، ثم يعلنون عزله، بسبب عدم موافقته على هذه الاقتراحات، وحين عرف بهذه الخيانة استخرجوا «فتوى» من الفقهاء بأن «ببدولاً» مرتد يجوز إقامة الحد عليه.

وهكذا انتهى الأمر بفشل كل الاتصالات، وراح «ببدول» يعلن أن عمه هو المسؤول عن قتل أبيه وإخوته، وأنه معتدٍ على التاج يحاول اغتياله فهولن يوقف عداءه له، حتى يضع رأسه مقطوعاً على باب الحمراء، مما أعاد الحرب الأهلية بين الملكين، رغم أن الناس لم يحملوها

بعنف على بعضهم بسبب مساعدات «فردناند» لبيدول إذ أنه أمر كل قادة حصونه المتقدمة بتقديم العون له بكل هجوم يهجمه على عمه، وكل مكان يرفض أن يعترف به خليفة؟! حتى أن «الدون جوان دي بنافيدس» الذي صار قائداً لحصن «لورقا» قام بغزوة لكل من «المرية وبازا وغواديكس» تحت علمه وباسمه.

وهكذا رضي «بيدول» التعس بشرور ثلاث: أولها تدمير شعبه، وثانيها العداء لعمه، وثالثها تحالفه مع «فردناند»، الذي جلب عليه بعض النفع والكثير من الضرر، والكل ينظر إليه كعدو لدينه وبلاده، فأغلقت كل المدن أبوابها بوجهه، وصار الناس يلعنونه، وحتى القلّة من الفرسان العرب الذين قاتلوا تحت علمه قد بدأوا يتركونه، وهو على كل حال لا يكافئهم أو يدعمهم لأنه لا يحتاجهم حاجته لفرسان النصارى، فصار من الصعب عليه أن يجد مكاناً في الأرض يغرس عليه علمه ليحارب منطلقاً منه.

وأمه التي أوصلته إلى هذا كله، أرسلت له في غمرة يأسه هذا رسالة تقول فيها: «من العار عليك أن تتسكع على حدود مملكتك، بينما هذا الدعي يجلس على العرش في عاصمتك، ولماذا تنظر إلى الخارج كي يساعدوك بينما عندك قلوب موالية لك في «غرناطة»، فأسيادها سيفتحون لك الأبواب لاستقبالك، فاضرب بالعمق، فإذا فعلت قد تغير كل الموازين أو على الأقل تضع حداً لكل هذا، فيكون لك الصدر أو القبر ولا وسط للملوك بينهما».

لكن بيدولاً بشخصيته المترددة ما كان ليتخذ قراراً، لولا أن للظروف شروطاً قسرية تحتم القرار وتقرره وتفرضه، كما أن رسالة السلطانة هزّته من شروده، وأعادته إلى الشوق إلى «غرناطة» وقصره في «الحمراء»، بكل حدائقه الشهية، ونوافيره العذبة، وجنته الأرضية، لذلك قال: «ماذا فعلت كي أستأهل النفي من جنة آبائي وأجدادي مشرداً داخل مملكتي، بينما الخائن المجرم يجلس على كرسي ملكي بكل فخر، فالله سيكون مع الحق، وضربة واحدة ستعيد كل شيء لي» وحين أنهى كلامه هذا توجه إلى ما بقي معه من فرسان قائلاً: «من منكم سيلحق بملكه إلى الموت» فوضع الكل يده على سيفه، لذلك أمرهم بأن يتجهز كل واحد منهم بسلاحه ومهره لهجوم مفاجىء إذانجح ستكون ثمرته إمبراطورية؟!

الفصل السادس

كيف عاد «ببدول» سراً إلى «غرناطة» وكيف تلقوه هناك:

قال مؤرخ عربي: «إن الله وحده هو واهب الملك يعطي الملك لمن يشاء، وينزع الملك ممن يريد»(*). فبينما كان خيال عربي يركب على مهر عربي ويقطع الجبال التي تمتد بين غرناطة وحدود «مورسيا»، توقف في سفح وادٍ ليرقب كوكبة من الفرسان عن بعد فيها خمسون حربة طويلة، ويدل ثراء دروعها ودرقها على أنهاكوكبة من النبلاء، وقائدها كان يرفل بالثياب الملكية، مما يدل على أنه كما ذكر المؤرخ العربي الملك «ببدول» مع أتباعه المخلصين.

وقد تابعوا سيرهم مدة يومين بليلتيهما متجنبين كل الأماكن المأهولة في البلاد، ليسيروا في أكثر شعاب الجبال قفراً، مما أدى إلى إجهادهم، فكانوا متعبين دون تذمر، لأنهم اعتادو على الحملات الشاقة، مع مهورهم الكريمة الوثابة، ونزلوا في منتصف الليل على «غرناطة» بعد أن قاربوها، مارين بهدوء على ظلال أسوارها إلى أن وصلوا إلى بوابة «البائسين»، وهنا أمر «ببدول» جماعته بالتوقف، متقدماً بخمسة منهم فقط نحو الباب، ليقرع عليه بكعب سيفه، وحين طلب الحرس معرفة الطارق في هذا الوقت المتأخر أجابهم: «أن أفتحوا الباب أنا الملك»؟!

فأضاء الحرس أنوارهم ليبصروا على ضوئها ملكهم الشاب، ويصابوا بالمفاجأة التي عقدت لسانهم، وجعلتهم يفتحون الباب فوراً، ليدلف منه «ببدول» وجماعته فوراً نحو قطاع سكن «البائسين» وهم يوقظون الناس لتأخذ سلاحها دفاعاً عن مليكها، فأطاع الناس إعلان سيدهم هذا، ودقت أبواق النفير في الشوارع، وتسارع الناس إلى الساحات ومكان الاجتماع وأسلحتهم بأيديهم تلمع، ولم يطلع الفجر إلا وكانت كل البائسين مستنفرة تحت علم سيدها

(*) حسب الآية القرآنية الكريمة القائلة: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾. [آل عمران: ٢٦].

«ببدول»، وتلك كانت ثمرة نجاح هذا السلوك اليائس للملك المخلوع، أكده المؤرخون في ذلك الوقت وأكدوا عدم وجود تنسيق مسبق له، فحين فتح الحرس الباب لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون ببلدهم، لقد فتحوا باب الأقدار لتدخل فيها.

وعلى مد هذا الضجيج صحي «الزَّغْل» من ثباته في «الحمراء»، فجمع أتباعه فوراً ودخل حي البائسين وسيفه بيده، على أمل أن يباغت ابن أخيه ويأخذه على حين غرة، فتصدى له «ببدول» مع أتباعه وردّه إلى أسوار قلعة «الحمراء»، بعد صدام حصل بين الملكين في الساحة الرئيسية أمام المسجد الجامع فتقاتلا قتالاً عنيفاً يداً بيد، كما لو أن هذه المعركة سوف تقرر صراعهما على التاج، ولكن «الزغل» وقواته طردوا من الساحة، ودفع «ببدول» وجماعته بهم إلى أبواب «الحمراء»، التي ظلّوا بين كر وفر يتقاتلون أمامها حتى المساء، فسقط الكثير من كلا الجانبين ولم يفصل بينهما إلا حلول الظلام ثانية، حيث انسحب كل فريق إلى قطاعه الخاص، إلى أن سمح لهم ضوء الصباح تجديد هذا القتال غير الطبيعي، وهكذا ظلّت المدينة المنقسمة بقسميها الرئيسيين تتصارع صراع الأعداء، لكن فريق الحمراء كان أكثر عدداً، وفيه فرسان أكثر، أما فريق البائسين فكان أشد بسبب القوى العاملة فيه التي تتمتع ببنية فزيولوجية شديدة يقويها الجهد والشدة والفقر، إضافة إلى كونهم ككل العرب مهرة في استخدام السلاح مدنيين كانوا أم جنوداً.

وأخيراً تمّ حصار «البائسين» من قبل قوات «الزغل»، فكانوا يخرقون هذا الحصار، ويخرجون للمبارزة مراراً وتكراراً، ولكنهم غالباً ما يعودون مدحورين، والكراهية تتأجج فيهم.

وهكذا أدرك «ببدول» ضعف قواته، وأن خصمه قد يلجأ إلى القصف المدفعي فيدمر سكن هؤلاء التجار والباعة، لذلك أرسل فوراً يطلب المدد وبسرعة من «دون فادريك دي توليدو» قائد القوات المسيحية على الحدود ليدخل إلى مساعدته.

وخاصة أن لدى هذا «الدون» تعليمات من «فردناند» بأن يساعد هذا التعس ضد عمه حين نشوب الصراع بينهما، لذلك تحرك فوراً بقواته نحو «غرناطة»، ولخوفه من أن تكون دعوته فيها أي مؤامرة ضده، توقف بعيداً عن البلدة، يرقب تحركات الفرقاء فيها، ولكن شدة الصراع والبأس بين سكان «غرناطة» المنقسمين أقنعه بأنه لا يوجد أي حلف بين مليكيها، فأرسل إلى «ببدول» تعزيزات من جيشه المسيحي المشاة وحملة البنادق الثقيلة الطويلة بقيادة «فرنان الفيريز دي سوتومري» سيد «كولومارا»، فكانت هذه التعزيزات كالزيت يلقى على نار الفتنة في البلد، أججت نارها لمدة خمسين يوماً.

الفصل السابع

كيف حاصر «فردناند» سهوب «ملقا»:

لقد كانت هذه الحرب على شدّتها إلى الآن حرب مواقع، تحدد الانتصارات فيها بمدى صمود هذه المواقع وتراجعها أو امتدادها، وهي على هذا الشكل منذ أن قرر الاسبان استرداد بلادهم من العرب قبل حوالي ثمانمئة عام، وخلال هذه المدة الطويلة كان الهجوم المفاجيء، والغزو والنهب وإسقاط الحصون والقرى، وحتى المدن صفة هذه الحرب، أما الآن وبدخول المدفعية الثقيلة وأسلحة التدمير وانقسام العرب بهذا الشكل غير المتوقع، فإننا ندخل منعطفاً جديداً في هذه الحرب، حيث ضرورة العمليات الكبرى ضد مدن قديمة وقوية لتدميرها حول غرناطة بجيوش جرارة، بديلاً عن الحصارات العادية التي تنتهي بانتهاء مواسم الربيع والصيف، وهكذا صارت العاصمة وحدها عارية لضربات الخصم.

ويقول الأب «آغابيدا» إن انتصارات ملكي الكاثوليك المجيدة هذه في هذه الحرب قد وصل صداها إلى الشرق، فبهت كل الكفرة فيه، مما دفع «بايزيد الثاني» عظيم الترك إلى التحالف مع سلطان مصر، وإيقاف العداء الدموي بينهما، لحماية دين محمد، ومملكة غرناطة من تعديات الصليبيين عليها، فاتفقا على أن يرسل «بايزيد» جيشاً قوياً إلى «صقلية»، ليهاجم منها التاج الاسباني ويشغله، بينما تصل في ذات الوقت التعزيزات إلى مملكة غرناطة من الشاطيء الأفريقي.

وحين وصلت إلى «فردناند وإيزابيلا» الإخباريات بهذه الخطة، قررا نقل الحرب فوراً إلى موانيء مملكة غرناطة للسيطرة عليها، لكي يغلقوا عن هذه المملكة إمكان المساعدات الخارجية، لذلك يجب إسقاط «ملقة» ميناء المملكة الرئيسي التي بها توجد هذه المملكة أوتزول، فمنها تذهب السفن إلى «سورية» و«مصر» للتجارة بين الغرب والشرق منذ زمن طويل، كما أنها

همزة الوصل مع أفريقيا، حيث تأتي المساعدات المالية والعسكرية والسلاح والخيول، وخاصة من «تونس» و«طرابلس الغرب» و«فاس» و«تلمسان» وغيرها من مدن المغرب العربي القوية، لذلك كانت تسمى بيد وفم «غرناطة».

وقبل حصار هذه المدينة الهامة لابد من إخضاع سهوبها، وأماكن الدفاع فيها التي تعتمد المدينة عليها، وإلا تعرض الجيش المحاصر للمدينة إلى الهجوم عليه من خلفه.

ولأجل هذه الحملة الهامة اجتمع نبلاء البلاد مرة ثانية، لكي ينسقوا ذهابهم إلى المعركة في ربيع ١٤٨٧م، خاصة وأن تحرك اللامؤمنين في الشرق كان قد أيقظ الروح الجهادية الصليبية عند كل الفرسان المسيحيين الحقيقيين، لذلك اندفعوا للاستجابة إلى نداء الملك، فتشكل جيش من عشرين ألف فارس وخمسين ألف راجل من زهرة المحاربين الاسبان، تحت قيادة أشجع فرسانهم، ليعسكروا حول مدينة قرطبة في الموعد المحدد، كمن يتحلق حول تاجه.

وفي الليلة قبل انطلاق هذا الجيش القوي نحو هدفه، هزت المدينة هزة أرضية، فأفاق الناس على اهتزاز الأبراج والأسوار وتراقص الأعمدة، فتراكضوا إلى الساحات والقصر خوفاً من دمار مساكنهم، لكن الهزة كانت عينفة في بلاط القصر وخاصة في مجلس ملك العرب القديم من القصر، حيث يمكن النظر إليه على أنه نوع من اللعنة الشريرة تحل عليهم، لكن الأب «آغابيدا» لحماسه بالأحداث التي ستتلاحق من هذا قرأها هو والآباء معه آنذاك على أنها صفحة الامبراطورية العربية المغربية ستطوى بعد هذا الاهتزاز في صلبها.

وفي عشية السبت ليوم الأحد في عيد جميع القديسين قال المؤرخ الثقة لأحداث هذه الفترة صاحبنا «آغابيدا»: «خرج الملك الكاثوليكي بجيشه ليخدم السماء بالحرب على المسلمين العرب، والأمطار الغزيرة قد زادت الأنهر، وجعلت الطرقات صعبة، لذلك قسّم الملك جيشه إلى جسمين رئيسيين، واضعاً بأحدهما كل مدفعيته التي تحرسها خيالة قوية بقيادة «ماستر أوف القنطرة» و«مارتن ألونزو» سنيور «مونتي مايور» كي تسير هذه القوات في الوديان التي فيها علف الثيران التي تجر المدافع.

أما جسم الجيش الرئيسي فكان بقيادة الملك بنفسه، وهو مقسم إلى قطعات مختلفة، يقود كل واحدة منها فارس متميز، وقد اتجه بها نحو طرقات الجبال الأصعب والأوعر من طرق جبال كل الأندلس، فهي مجرد ممرات للبغال تتعرج بتعرجات الصخور، وعلى حواف الشواهق صعوداً ونزولاً بشكل حاد يصعب معه إيجاد موطىء قدم للحصان أو راكبه، وقد سبق هذا الجيش في طليعته أربعة آلاف كشاف تحت امرة «سيد دونزاليس» ولهم مهمة تمهيد الطريق إلى حد ما أيضاً، وكان مع بعضهم الفؤوس، ومع آخرين «المهدات» الحديدية لكسر الصخور،

بالإضافة إلى سلاح المهندسين الذي عليه أن يبني الجسور فوق معابر الجبال، وإلقاء الصخور فوق الجداول الوعرة، ولأن سكان هذه الجبال من العرب الأشداء، رافقهم «دون دييغو دي كاستريلو» مع فرسانه ومشاته ليتمركزوا في المرتفعات والممرات الضيقة، وهم يراقبون تحرك الجيش الملكي بكل حذر، وفي بعض الأحيان كان لا يوجد أي مكان للتخييم لمسافة خمسة عشر ميلاً بهذه البلاد الجبلية الوعرة التي تضيع فيها حتى وحوش البراري.

وكانت فرحة كبيرة لحظة خروج الجيش الملكي من هذه الأماكن الوعرة الموحشة المخيفة، لينظروا إلى «فلز ملقا» تحتهم، بمنظره المسر للناظر، والمحمي من الداخل ضد أي غزو بهذه الستارة من الجبال، وهو يمتد إلى الجنوب، ويتمتع بالشمس الصافية والأنهار العذبة الفضية البراقة، وينعشه الهواء العذب للبحر المتوسط، فكل تلاله مغطاة بالكروم وأشجار الزيتون، بينما تتموج الحقول البعيدة بالقمح، وحول المدينة حدائق غنّاء تعتبر منتزهاً للعرب، تخترقها طرقات بيضاء معبدة ومسوّرة بأشجار الحمضيات، ويحيط بالكل أشجار النخيل التي ترتفع مشمخرة إلى السماء كمصافٍ للهواء العذب الذي يمر بها مرور المشط بشعر حسناء جميلة.

وفي القسم الأعلى من هذا الوادي الخصب تتمركز مدينة «فلز ملقا» بأبراجها التي تقف في تناظر مع سهوبها من كل جهة، وهي مبنية على هضبة ترتفع فوق المدينة بشكل حاد، وقوية التحصين بأسوارها وأبراجها، يتوجها قصر قوي محصن يشرف على كل البلاد التي تحيطه، أما ما تحت ركبة المدينة فيوجد خندق مائي يلف المدينة كما تلتف ساقي حسناء على بعضهما.

وغالباً ما تحاط رؤوس هذه الجبال المحيطة بالمدينة بالغيوم السوداء التي تأتي من الشمال، وهناك تسكن سلالة من المحاربين الأشداء في معاقلهم الشهيرة مثل: «القمري» و«القمبطة» و«بني مرهورجا» في تلك الشواهق.

وفي الوقت الذي وصلت فيه هذه القوات المسيحية، ظهر في البحر الذي يواجهها بكل هدوئه «فرقاطات» تحمل العلم «القشتالي» بقيادة «الكونت أوف تريفنتو»، عددها أربعة، ومدمرات تصاحب عدداً من السفن التي تحمل التموين للجيش.

وبعد فحص الأرض خيم «فرندناد» على جانب الجبل الذي يمتد حتى المدينة، والذي يشكل نهاية وعورة جبال هذه «السيرا» التي تتصل حتى «غرناطة»، وعلى نهاية هذا المنحدر حيث صار هذا المعسكر يشرف على مدينة عربية محصنة بقوة تسمى «بنت عميز»، والتي يبدو من التجهيزات فيها أنها يمكنها أن تقدم الكثير من العون إلى «فلز ملقا»، فاجتمع عدد من القادة مع الملك كي يحددوا المكان الذي يبدأون منه هجومهم، فقرر «فردناند» أن يبدأوا بقطع الاتصال بين هذه المدينة وبين «ملقة»، وأن يظل الجيش بحراسة مشددة خوفاً من أي مفاجأة، لذلك

ركب «فردناند» مع فرسانه، ودار على مخيمه لتحديد مواقع الحراسة فيه، بينما كان المشاة يتمركزون كطليعة للجيش على المرتفعات الهامة التي تشرف على هذه المدينة، وعاد الملك إلى خيمته للاستراحة، ليصحو مذعوراً على هدير مفاجيء، وحين خرج لينظر وجد جنوده يفرّون من قوة معادية تهاجمهم، ولم يكن فوق الملك أي دروع، فأخذ حربته الطويلة وقفز على حصانه وسارع لمساعدة الفارين، يتبعه عدد قليل من حرسه وفرسانه، ولما رأى الفارون أن الملك هبّ لنجدتهم عادوا على مهاجميهم، وقد صار الملك في زحمة المتقاتلين، وقد قتل أحد أتباعه بجانبه على يد مهاجم عربي، فعاد الملك ليغرس حربته فيه، فكسرت هذه الحربة الطويلة بالمهاجم، لذلك حاول الملك امتشاق سيفه المعلق على سرج حصانه دون أن يقدر على ذلك من حمأة الهجوم، إذ كان العدو يحيط به من كل جهة، وهو مضطرب غير قادر أن تصل يده إلى سلاحه.

وفي حمأة هذا الوضع المحرج الذي وضع الملك نفسه فيه وصل «الكونت دي كابرا والمركيز أوف كاديز» وعدد من الفرسان معهما يطردون خيولهم إلى مسرح هذه العملية، وأحاطوا بالملك جاعلين من أجسادهم درعاً لهجمات العرب على مليكهم، فتعرض المركيز إلى خطر محدق وأصيب حصانه بسهم، لكن قواته دفعت بالعدو إلى التراجع وهي في أعقابه حتى أبواب المدينة.

وحين عاد هؤلاء الأتباع المخلصون من المطاردة عتبوا على مليكهم لأنه عرّض نفسه هكذا للخطر، وحوله المقدمون الذين من واجبهم القتال، وذكّروه بأن حياة الأمير هي حياة لكل أتباعه، فكثير من الجيوش الشجاعة ضاعت بضياع قادتها، فهم يريدون منه أن يحميهم بقوة عقله وحسن قيادته، لا بسلاحه في المعركة.

وحين أدرك «فردناند» الحكمة من نصائحهم، ادعى أنه لا يستطيع أن يجد جماعته في خطر دون أن يهب إلى نجدتها، كجواب أكد مؤرخنا المبجل ـ آغابيدا ـ أنه سرَّ كل الجيش الذي رأى أنه ليس تحت حماية عقله الراجح الجيد، بل حتى تحت حمايته كقائد مقاتل، ولأن «فردناند» قد عرف مدى الخطر الذي تعرّض له، أقسم أن لا يذهب إلى المعركة قبل أن يسحب سيفه(*).

وعندما وصل هذا الخبر إلى «إيزابيلا» ارتعدت لسماعه، وهيأت بعد ذلك تمثالاً للملك على صهوة حصانه، والعرب تفر من أمامه، لتهديه إلى «فلز ملقا» ليوضع في ساحتها بعد فتحها.

(*) يعرض إيرفينغ هنا «بفرناند» لأنه جزع ولم يسحب سيفه.

وبعد أن ثبت المخيم، جاء الانتظار لوصول المدافع الثقيلة، التي تتقدم في شعاب الجبال الوعرة بشق النفس، خاصة وأن الأمطار الشديدة قد حوّلت جداول هذه الجبال إلى أنهار هادرة، لذلك لم ينتظر «فردناند» وأمر بالهجوم على المدينة، فتمّ الهجوم بعد ستة ساعات من القتال العنيف في ضواحيها، سقط فيه الكثير من الفرسان النصارى أو جرحوا، ومن بينهم دون «ألفارو أوف بورتوغال»، لأن هذه الضواحي كانت مليئة بالخنادق والمعيقات للدفاع عن المدينة، وكان هدف الهجوم قطع اتصال المدينة بالمدن بالمجاورة لها، لذلك حفر المهاجمون الخنادق أيضاً لهذا الغرض، بقيادة دون «فادريك دي توليدو»، كما أرسلت قوات لكي تتمركز في ممرات الجبال التي سيصل منها تزويد الجيش بالمؤن، تلك الجبال الوعرة التي يعرفها العرب جيداً، لذلك فهم قادرون على الهجوم والتراجع فيها كما يشاؤون، مما جعلهم يسطون على الكثير من مؤن الجيش المسيحي، ويأخذون كذلك معها الأسرى، وكان العرب يتصلون ببعضهم عبر نيران «السيارات» في الجبال، ويتخاطبون بإشاراتها، التي يعقبها هجوم أو انقضاض أو إخبار، مما جعل النصارى في حالة استنفار دائم.

وقد ظنّ «فردناند» أن قواته قد أشاعت الرعب والإرهاب في المدينة، فهو بتشديد الحصار عليها سيخضعها، إذا إتّبع سياسة مع أهلها، لذلك أرسل رسالة إلى قائد حاميتها يعده أنه في حال تسليمها فوراً، سيضمن لكل سكانها الخروج بما يملكون منها، أما إذا أصروا على الدفاع، فقد هدّدهم بالسيف والنار، وقد أوصل هذه الرسالة فارس اسمه «كارڤا غال» حيث وضعها على رأس رمحه، ورفعها إلى العرب على سور المدينة، فردّ قائد الحامية بأن نبل الملك لا يمكنه من وضع مثل هذا التهديد موضع التنفيذ، ولذلك يجب عدم التسليم، خاصة وأن المدفعية لا يمكنها أن تصل إلى هذا المعسكر، كما أن وعد المساعدة قد وصلهم من ملك «غرناطة»، ومع ردّ الرفض بالتسليم وصلت «لفردناند» الإخباريات أن معقل «القمري» القوي الذي يبعد ستة أميال من المخيم، قد وصلته تعزيزات من «الأقصريقا» التي في الجبال، ومنها تمّ الانقضاض على النصارى في مذبحة الجبل للفرسان السابقة في بداية هذه الحرب، ويومياً ستصل تعزيزات لأن هذه الجبال الوعرة قادرة على استنفار خمسين ألف محارب.

هكذا شعر «فردناند» بأن جيشه معزول ومحاصر بأرض عدوة، فهو في وضع حرج، لذلك يجب تحقيق أقصى الانضباطية في هذا الجيش، فوضع مخيمه تحت تعليمات شديدة محددة، مانعاً القمار والشرب والسفاح، وطرد منه كل الغجريات ومن معهم من القوادين، كما شدّد على عدم الخروج للمبارزات دون أوامر محددة من قادتهم، وعدم إشعال النار في الجبال المجاورة، وملاحظة كل «سيارات» العدو وفك شفرتها، وقد رافق هذه التعليمات تنفيذها بكل

عنف، مما أنتج نتائج جيدة، فلم تعد ترى صراعاً بين العسكر، ولا سحب سلاح على بعضهم، ولا ممارستهم لأي ممنوع، وزاد تلاحمهم مع بعضهم.

أثناء ذلك كانت غيوم الحرب تتجمع في قمم الجبال، فنزل حشد كبير من محاربي «السيرا» الأشداء إلى «بني تميز» حيث ردّ عليهم الجيش بقوات دفعتهم إلى المرتفعات التي لا يمكن ملاحقتهم فيها.

وهكذا مضى على مخيم الجيش الصليبي عشرة أيام دون أن تصله المدفعية، ولا أدوات الحصار الأخرى من عرادات وسواها التي مرت معهم من «الأنتكويرا»، وهي تتحرك ببطء في الوديان مثقلة بحمولتها وبالذخائر، وأخيراً وعلى بعد ميل ونصف من المخيم وصل قسم صغير من هذه القوات، فتأمل النصارى بأن بإمكانهم الآن أن يهاجموا المدينة الحصينة تحتهم بأسرع وقت.

الفصل الثامن

كيف تعرّض الملك «فردناند» وجيشه إلى خطر محدق أمام تلز(*) «ملقا»:

بينما كانت أعلام الصليب ترفرف على مرتفعات سهوب «ملقا»، وتحتها يتحرك هذا الجيش المعادي بكل ضراوة، كانت الحرب الأهلية على أشدها في «غرناطة» بين قطاعي الحمراء والبائسين فيها، أي بين «الزّغْل» و«الشيكو»، مما نبّه كبار السن والفقهاء، الذين لم تعميهم مؤامرات الاثنين، فراحوا في الجوامع يحذّرون الناس من الخطر المحدق بالجميع.

كقول أحد الخطباء: «لماذا القتال بين الإخوة والأشقاء في معركة لا رابح فيها إلا الشيطان؟! ألا يخجل «ببدول» من كون حلفائه النصارى يشيعون الآن الدم والخراب في أرض آبائه، فيسكنون بيوتاً بنوها، ويجلسون تحت أشجار زرعوها، بينما إخوانه في الدين نازحون لا بيت يؤويهم؟! إذا أردتم يا من تدعمونه عدوكم الحقيقي، فها هو ذا يخيم على جبال «بني تميز»، وإذا أردتم ساحة قتال تجربون بها سلاحكم، فهناك على أسوار وسهوب مدن «ملقا»!!».

وهكذا تجمع الناس حول فقهائهم، وذهبوا إلى الملكين يوبخانهما بقول مشابه وأقسى، إلى حد أن «حامد بن زرعه» اقترب من «الزّغْل» موبخاً طموحه الأعمى بقوله: «أتريد أن تكون ملكاً على مملكة ضائعة»؟!

لقد كان أمام «الزّغْل» حربان عليه أن يخوضهما، لأن النصارى إذا حازوا ميناءه البحري ضاعت مملكته، وهو إذا غادر «غرناطة» لمواجهتهم سيسرق ابن أخيه تاجه، فلجأ إلى حل وسط، وقبل التسوية مع ابن أخيه أمام الفقهاء، مظهراً ألمه على الخسائر اليومية التي تقع في البلاد بسبب انقسام عاصمتها، والفرصة متاحة الآن للرد ولاسترجاع كل هذا، لأن النصارى

(*) سهوب، وتلفظ «بلش ملقا».

قد وضعوا أنفسهم بقبر بين جبلين من جباله، فما عليه سوى إهالة التراب عليهم من كل جانب، فقبل بالتنازل عن لقب ملك لابن أخيه، وأن يقاتل تحت علمه، لأنه لا يرغب الآن بشيء إلا بالذهاب لنجدة «فلز ملقا» ليأخذ ثأره الكامل من الصليبيين.

فردّ «ببدول» على عرضه بأنه عرض شكلي خياني قائلاً: «كيف لي أن أثق برجل قتل والدي وإخوتي، وحاول دوماً قتلي سواء بالسيف أو بالغدر»؟!

فغضب «الزَّغْل» من هذا الردّ، ولكن لا وقت يجب أن يضيع كما أكد له الفقهاء ونبلاء قصره المتشوقون لرفع الذلّ عن أنفسهم، إذ كيف تترك أغنى مدن الأندلس للأعداء؟!! وهكذا تحمّس هذا المحارب القديم لأن وضع عدم المبادرة هذا خطر على التاج وعلى المملكة ككل، ولأنه تلقى مؤخراً التعزيزات من «بازا وغواديكس والمرية» صار أقوى من ابن أخيه وبإمكانه التحرك بقوات كبيرة، دون ترك «الحمراء» بدون حماية قوية ضد ابن أخيه، لذلك فاجأ الجميع بالخروج فجأة في الليل بعد أن أمّن الحمراء، على رأس ألف فارس وعشرين ألف راجل، سالكاً أكثر طرقات «السيرا» وحشية وإهمالاً إلى «بني تميز» قبل أن يشعر الملك «فردناند» بقدومه.

وفي أحد الليالي فوجيء الصليبيون بنار «السيارات» تتوقد فجأة حول حصن «بني تميز»، ولاحظوا لمع الحراب والدروع هناك وهم يسمعون طبول وأبواق الحرب العربية من بعيد، وقد أجابت «سيارات فلز ملقا» على سيارات «بني تميز» وجوارها، وراحت صرخات: الزَّغْل الزَّغْل تتردد بين صدى الوديان، ومن داخل المدن، لينتهي المشهد بأن المحارب العربي القديم ها هو يقف فوق مخيمهم؟!

وهكذا بارتفاع معنويات العرب بهذا الشكل المفاجيء دهش الصليبيون لرؤية عواصف الحرب التي أثاروها تعود لتمر على رؤوسهم، بينماالكونت «دي كابرا» الراغب دوماً بالملوك طلب الصعود بقواته لمهاجمة «الزغل» قبل أن يكون لديه الوقت ليشكل معسكره فوق معسكرهم، لكن «فردناند» كان أكثر هدوءاً منه فمنعه، لأن الهجوم على المرتفعات يعني ترك الحصار، لذلك طلب من الكل الدفاع عن مواقعهم حتى النهاية، مانعاً أحداً من الصعود لمهاجمة العدو.

وعلى طول الليل كانت الشارات الضوئية تستنفر كل البلاد، وحين برزت الشمس على «بني تميز» كانت كشعلة إضافية كبرى زادت من بهاء وهيبة المنظر، فمعسكر العرب فوق معسكر الصليبيين وتحتهما المدينة المحاصرة، والجو صافٍ لدرجة يمكن معها رؤية كل فرد على حدة من مسافة بعيدة، فهل يقدر الصليبيون على رد عدوهم الذي يتكاثر فوقهم في شعاب الجبال هكذا؟!

وكان أول إجراء اتخذه ملك العرب هو إطلاق قوات سيد «غرناطة» «عبد الله فنغاس» للهجوم على قوات المتابعة التي تنتشر أمام قواته مسافة طويلة في شعاب الجبال، وقد توقع «فردناند» هذا فأرسل آمر حامية «ليون» مع خيالة ومشاة لدعم قوات المتابعة بقيادة الماستر «أوف كنترا»، فرأى الزغل من علو مكانه خروج هذه التعزيزات، فأرجع «الزغل» «فنغاس»(*) فوراً عن هدفه، ليبقى الجيشان بحالة هدوء وقتية، والعرب تنظر إلى مخيم الصليبيين كالنمر المتحفز للإنقضاض على فريسته، فكان النصارى في وضع مرعب، ففوقهم عدو، وتحتهم مدينة تتحفز للخلاص منهم، ووراء كل صخرة في الجبال متربص بهم.

وبعد أن قيّم «الزَّغْل» مواقع عدوِّه، ودرس كل ممر من ممرات الجبل، قرر وضع خطة يفاجئهم بها، وتضمن دمارهم، وربما أسر ملكهم بحد ذاته، فأرسل رسالة إلى سيد المدينة المحاصرة يأمره بالخروج بكل قواته حين رؤية إشارة محددة من الجبل، ومهاجمة العدو، عندها سيهجم الملك بنفس الوقت نزولاً على العدو من الجبل من الجهة الأخرى، وبذلك يغلبونه في لحظة راحته ونومه، وكانت هذه الرسالة بيد جاسوس مسيحي يعمل عنده، ويعرف كل البلاد، وإذا ألقي القبض عليه يمكنه أن يدّعي أنه أسير فرّ من أسره.

أثناء ذلك كان «الزَّغْل» ينظر إلى أعدائه نظر الباطش بالمبطوش به، فما أن غابت الشمس وكثرت الظلال في الوادي، حتى أشار إلى قوات العدو من تحته قائلاً لجنوده: «الله أكبر لقد ساق الله هؤلاء المشركين إلى قبضة أيدينا، فسيكون مليكهم وخيرة فرسانهم بيدنا قريباً وتحت رحمتنا، اليوم تظهر رجولة الرجال، فنصر واحد كافٍ لرد كل هزائمنا وما خسرناه، والسعيد بأحد الحسنين من يسقط مجاهداً في سبيل الله، لأن الجنة عوضه وهناك سيحيطه الحور الخالدون، أما من ينال الحسنة الأخرى بتأجيل أجله، فسيحصل على «غرناطة» جنة الأرض وقد نجت من أعدائها، لتعود إلى مجدها السابق». وعلى هذه الكلمات هلل أصحابه الذين ينتظرون لحظة الصفر بكل نفاذ صبر، لينقضوا على الصليبيين من مرتفعهم الجبلي.

(*) رضوان فنغاس، من أسرة مسيحية أسلمت ثم عادت إلى مسيحيتها أثناء سقوط غرناطة وتآمرت مع الغزاة وظل لها شأن في البلاد بعد ذلك.

الفصل التاسع

نتائج مناورة «الزّغل» لمفاجأة «فردناند»:

ظلّت الملكة «إيزابيلا» وحاشيتها قلقة في «قرطبة» على نتائج هذه الحملة، فكل يوم تقبل مجموعة من الأخبار عن الصعوبات التي تواجهها ويواجهها نقل المدافع والذخيرة، والوضع الحرج للجيش ككل.

وبينما هي في هذا القلق وصل مراسل من الجبهة بأقصى سرعته، ومعه أخبار عن الهجوم المفاجىء الذي قام به«الزّغل» من «غرناطة»، مما أوقع القلق في كل «قرطبة»، التي تذكرت ما حصل بحملة الفرسان السابقة على «السيرا»، والخوف من تدمير مشابه لهذا الجيش يبدأ من الصخور التي تشرف على «فردناند» وجيشه.

وشاركت «إيزابيلا» الناس مخاوفهم، لكنها راحت تفكر بطريقة يمكن بها تلافي هذا الخطر، لذلك استنفرت كل أهل الأندلس المسيحية ممن لم يبلغ السبعين، وحضّرتهم لتنطلق بهم.

وعرض كاردينال اسبانيا الأكبر مبالغ كبيرة من المال لكل خيال يرافقه لمساعدة الملك والقضية الصليبية، فحضّر بذلك مجموعة من القوات التي يمكنه أن يقودها إلى ساحة المعركة.

وهكذا حرّكت الملكة عواطف أندلسها، فالمحاربين الذين تقاعدوا وأرسلوا اليوم أبناءهم بدلاً عنهم، عادوا إلى سلاحهم الصدىء ليلبسوه تحت رؤوسهم البيضاء، مصطحبين أحفادهم معهم إلى المعركة، فالخوف من أن «الزغل» الذي يتمركز في الجبال قد أطبق الآن على معسكر النصارى صار حقيقياً واضحاً. وفي ليلة تنفيذ الخطة التي وضعها «الزغل» بالاتفاق مع حامية مدينته المحاصرة، وبعد أن هدأ معسكر الاسبان، وبعد أن لم يعد يسمع سوى صوت خيل

الحرس تتبادل مواقع الدوريات العادية في حراسة المعسكر، وبعد أن لجم «الزغل» صبره وصبر جيشه حتى مرّ هزيع من الليل، بدأ فيه معظم المخيم يغط بالنوم، الذي إذا صحي منه الإنسان قسراً فقد قدرته على التحكم.

وبحلول ساعة الصفر أمر الملك إصدار ضوء من مرتفعه المشرف على «بني تميز»، دون أن يرد عليه أي ضوء من المدينة، فلم يصبر لمعرفة السبب فأمر قواته بالنزول من الجبل ومهاجمة المعسكر، ولأن منحنيات الصخور كانت شديدة وكبيرة، لم تلبث هذه القوات المهاجمة أن وجدت نفسها في مواجهة ظلال المحاربين المسيحيين المكدسة أمامها، فتبادلوا صرخات القتال لكن العرب فوجئوا بتلاحم عدوهم، فعادوا يتراجعون بشكل فوضوي نحو الجبل، وحين علم «الزغل» بهذا التمركز المكثف لقوات عدوه بين الصخور، ظنّ أن هناك خطة مضادة لهجومه، فأعطى الإشارات النارية الجبلية، فاشتعلت أكوام الحطب بالجبال وتوهجت بالنيران من كل حدب، وعلى كل مرتفع من أحطاب مكدسة لهذا الغرض، وكأنه قد أضاء بذلك كل ممرات وشعاب الجبال، ثم بدأت هذه النيران تتساقط على مغسكر النصارى، محدقة بكل خيامهم، بكل موقع ومكمن عندهم، إلى درجة أن الناظر يستطيع بأي اتجاه توجّه أن يرى الدروع والخوذ تلمع أو تحترق بالنيران، وعادت كل قوات «الزغل» للهجوم على ضوء اللهب من كل ممر.

والذي حصل بالنسبة لرسالة «الزغل» لسيد «فلز ملقا» أنها وقعت بيد «فردناند» الذي شنق حاملها واتخذ كل الإجراءات الكفيلة باستقبال العدو ليلاً، فعرف «الزّغْل» أن خطته قد كشفت، لذلك أمر قواته بالهجوم بشكل متسرّع ويائس، لكنهم ردوا مرة ثانية من قبل المحاربين النصارى، بمقدمتها تحت قيادة دون «هرناندو دي مندوزا» أخ الكاردينال الأكبر لاسبانيا.

فعاد العرب ينسحبون نحو الجبال، ولم يستطع الدون ملاحقتهم بسبب وعورة الصعود الذي يمكن الدفاع منه بسهولة، والذي حصل هو تبادل الرمايات بالنشاب والبنادق الطويلة الثقيلة طوال الليل، مما يتردد صداه في كل المنعطفات، بينما كانت النيران تلمع على الجبال والوضع لم يحسم بعد.

وعند ظهور الفجر عرف العرب أن المدينة لم تستجب لهجومهم، وبعد أن رأوا أن كل ممر من ممرات الجبل مشحون بالجنود النصارى، بدأوا يتوقعون هجوماً مضاداً، وأرسل «فردناند» قوة برئاسة المركيز «أوف كاديز» لاحتلال مرتفع سقط بيد قطعة من قطعات العدو، فهاجمهم المركيز كعادته بشكل باسل دفعهم إلى الهروب، مما أضعف معنويات أصحابهم، الذين يراقبونهم من علٍ، فألقوا بأسلحتهم وفروا بذعر يحصل أحياناً بين الجماعات المقاتلة، والذي يمكن أن تلتقط عدواه روح العرب غير المتأنية، وانتشر الذعر هذا بكل المخيم، فخاف الجميع

وهم لا يعرفون سبب خوفهم، ولا من ماذا؟! فألقوا بكل ما معهم من سلاح قد يعيق هربهم وتفرقوا بشعاب الوديان بشكل عشوائي، وهم لا يلوون على شيء، دون أن يلاحقهم أحد، مذعورين من لمع حراب بعضهم بعضاً، أو من وقع أقدام بعضهم وراء بعض، ولم يستطع سوى سيد «غرناطة» الشجاع «رضوان فينغاس» من جمع بعضهم ليشكلوا حلقة حول ممرات الجبل، ويخترق بها خطوط العدو من نقطة ضعفها نحو «فلز ملقا»، أما بقية الجيش العربي فقد تشتت كلياً، وعبثاً حاول «الزَّغْل» وفرسانه جمعهم، فلم يقدروا وصاروا تقريباً وحدهم، مما اضطرهم إلى الفرار أيضاً. ورغم أن المركيز «أوف كاديز» لم يرَ أي مقاومة حين صعد من تلة إلى أخرى، ظلّ حذراً من الكمائن بهذا السكون المطبق، فتسلق مع قواته بحذر حتى وصل إلى مواقع العرب التي كانوا يحتلونها ليفاجأ بتركهم لهذه المواقع، وهي مليئة بالأسلحة المتروكة، لكن قواته كانت أصغر من أن تطارد العدو، فعادت إلى المخيم الملكي ترفل بالغنائم.

فلم يصدق «فردناند» هذه الهزيمة السريعة، وظن بأن وراء الأمر استراتيجية ما، لذلك شدّد الحراسة على معسكره، وعلى الكل أن يكون مستعداً للقتال بكل وقت، وحرس خيمته ألف حارس لليال طويلة، ولم يسترح الملك حتى أخبرته مخابراته بتشتت «الزَّغْل» نهائياً وبشكل فوضوي.

وحين وصلت أخبار هذا الأمر ووضع الجيش الصليبي باتجاه «قرطبة»، كانت قوات الاحتياط فيها على وشك المغادرة، فعادت هذه القوات عن زحفها لتغني أغاني النصر على الإسلام «Te Deum» في الكنائس وتشكر الرب لهذا النصر السريع السهل عليهم.

الفصل العاشر

كيف كافأ أهل «غرناطة» «الزّغل» على إقدامه:

نال سلوك مولاي «أبي عبد الله الزّغْل» حين تحرك من «غرناطة» للدفاع عن المملكة، ولم يترك في سرير ملكه إلا حامية بسيطة، نال إعجاب الناس، فاستعادوا الأحاديث عن إنجازاته السابقة، وكان للأخبار التي وردت بوضع جيشه فوق الجيوش الصليبية على مرتفعات «بني تميز»، وإيقافه لزحف النصارى المدمر على المدينة، أثرها في إحداث الثقة في «غرناطة» على العكس من الذعر والخوف في «قرطبة»، وصار الناس يتوقعون مذبحة أخرى للنصارى على يد «الزّغْل»، كتلك التي سبق وقام بها في جبال «ملقا»، لذلك كانت الصرخة تدوي بأن «الزغل» قد حاصر العدو، وقوة المشركين سوف تضرب في صميمها، وتوقع الناس وصول الفرسان المسيحيين أسرى إلى عاصمتهم، وهكذا صار اسم «الزغل» على كل لسان، كمخلص للبلاد يستأهل أن يتوج عليها، وعلى العكس كانت سلبية «ببدول» إزاء غزاة بلاده وهم يسيطرون عليها قطعة قطعة، دليلاً على اهتمامه بحاله لا بأمته.

وبينما كان أهل «غرناطة» ينتظرون بفارغ الصبر أخبار نصرهم المرتقب، رأوا مجموعات متفرقة من الفرسان تعود عبر الوادي، كطلائع للجيش العربي المنهزم، فعلموا أن الهزيمة قد وقعت، وكل واحد من هؤلاء حين يذكر ما قد حدث معه كان كمن يتحدث عن حلم مزعج، لا يعرف لا كيف ولا لماذا حصل، فتحدثوا عن معارك أمام الصخور بالليل، وعن النار التي تساقطت من كل جانب، وعن كثرة عدوهم الذي كان يترصدهم في كل ممر، وكيف أنهم رأوا ظلالاً كثيرة أكثر من رؤيتهم لمقاتلين، ثم كيف سيطر الذعر الفجائي على كل الجيش بعد شروق الشمس، والقتال الطويل اليائس في الليل، وهكذا كان الفارون يتوافدون في كل ساعة ليحكوا قصة العار والدمار هذه الخالية من أي سبب منطقي؟!

ونتيجة كل هذا شعر الناس في «غرناطة» بالذل، لا بالحزن بل بالمهانة، فأدانوا جيشهم وقائده وكل هؤلاء الفارين، ولم يعد «الزغل» يشكل مثالاً عندهم، بل صار موضوع انتقادهم، لأنه ضحّى بالجيش، وأذلّ الأمة فخان الأمانة، لذلك نعتوه بالخائن والفار غير الجدير بأي تاج أو ما يحزنون.

وخلال تجمع هؤلاء الناس في تقلبهم على «الزغل» وسط المدينة صاح تابع من أتباع «ببدول» باسمه، فردد الناس وراءه: «فليحيا الملك الشرعي والموت لكل خائن له»، وذهب الناس إلى «البائسين» على هذا الشكل الذي أذهل من يحرسون مكان إقامته فيها، فكل الذين كانوا يقاومون «ببدول» بالسلاح، ها هم يتراكضون الآن للولاء له، ويرمون تحت أقدامه مفاتيح المدينة وكل القلاع الملحقة بها، ويحملونه حملاً إلى كرسي الملك في «الحمراء»، ليجلس عليه مرة ثانية، بكل ما يرافق هذا الجلوس من احتفالات، متربعاً على عرش والده(*).

ويبدو أن «ببدول» قد اعتاد على أن تتوجّه العامة، بقدر عادته على أن يخلعوا تاجه، فلم يثق كثيراً بمظاهر ولائهم، فهو يعرف أن كل أهل الحل والعقد والعقلاء من بطانة الحمراء يضمرون له العداء سراً، ويوالون نعمه، لذلك أمر بقطع رأس أربعة من النبلاء الذين يشك فيهم، وهو يتصرف تصرف صاحب الحق بالعرش الذي أطاحت به الخيانة فقط، وتنفيذ مثل هذا الحكم كان يجب أن يكون بكل الحكومة التي شكلها عمه لمعارضته، لكنه رضي بهذا القدر من التضحية بالناس، لكي يخيف الآخرين، وينال طاعتهم، كما رضي بأن يلعن اسم عمه ويصبح مجال السخرية في كل المدينة.

وفي التاريخ نادراً ما يقع على قائد من تقلّب الطالع كما وقع على الزغل وابن أخيه على قدر سواء، ففي مساء اليوم السابق كان على رأس جيش قوي، وعدوه في قبضة يده وقد أوشك النصر أن يعمّمه بالمجد ليثبت سلطته، وفي صباح هذا اليوم ها هو فار في الجبال، وكل جيشه ومجده، وكل ما له يذهب هباء، دون أن يعرف حتى كيف ذهب، كما لو كان الأمر حلم ليلة مزعجة، فقد عجز عن إيقاف ذعر قطعاته التي راحت تتفرق وتتكسر كالزجاج المتناثر على منعطفات الصخور الجبلية، ولم يبق له من كل هذا الجيش الجرار إلا حفنة من الفرسان المخلصين له، وبهم توجه متراجعاً إلى «غرناطة» بقلب مليء بخيبة الأمل والغضب، وعندما اقترب من المدينة، توقف على شاطىء «شنيل»، وأرسل كشافته كي تأتيه بالأخبار، فعادوا بكل ما يسوء الخاطر قائلين: «لقد أغلقت أبواب غرناطة في وجهك، وعلم ببدول يرفرف فوق الحمراء؟!»

(*) الذي كرّس حياته لمحاربته؟!

فأدار «الزغل» وجّه حصانه نحو مدينة «المنيصر»، ومنها إلى «المرية» كأماكن ظلّت موالية له، ولأنه كان غير مرتاح لبعده عن العاصمة عاد وغيّر مكان إقامته نحو «غواديكس» القريبة مسافة عدة أميال من «غرناطة»، حيث استقر هنا يجمع قواته ويسترجع نفوذه، كي ينأى بنفسه عن تذبذبات التغيرات السياسية في المنطقة.

الفصل الحادي عشر

استسلام «فلز ملقا» وأماكن أخرى:

كان أهل «فلز ملقا» قد عهدوا معسكر مولاي «أبي عبد الله الزغل» وقد غطى كل هضاب «بني تميز»، ودروع فرسانه تلمع مع آخر شعاع للشمس وهي تغرب، وفي الليل صحوا على أنوار الإشارات الضوئية ثم النيران على الجبال وعلى صوت المعركة البعيد، لكنه حين أشرق الصباح اختفى الجيش العربي بفعل ما يشبه السحر، وبينما كان هؤلاء السكان يضربون أخماسهم بأسداسهم لتخمين ما حصل، برزت على أبوابهم مجموعة من الفرسان الشجعان كقطعة من قطعات هذا الجيش المبدد، بقيادة الفارس الشجاع «رضوان فينغاس» سيد «غرناطة»، وحين عرف السكان ما حصل خارت قواهم، لولا أن «رضوان» شجعهم وحثّهم على استمرار المقاومة لأنه مخلص للزغل، وعارف به وبمهارته وقوته، وكان على ثقة بأنه سوف يعود ويجمع هذا الجيش المفرق مع قوات جديدة يأتي بها من «غرناطة»، وهكذا تشجع الناس بوجود «رضوان» بينهم، وتمسكوا بالأمل خاصة ومن منطلق أن المدفعية الثقيلة لن تصل إلى النصارى، لأنها سوف تُكبس في شعاب الجبال التي يستحيل اختراقها، لكن حتى هذا الأمل تبدد في اليوم التالي حين رأوا صفاً طويلاً من قوات المدفعية تدخل ببطء إلى معسكر النصارى بكل تجهيزاتها وذخيرتها وعتادها، تحت قيادة ومرافقة «ماستر أوف الكانترا»، بقواته المرافقة الضخمة المعززة لكل هذا أيضاً والتي ستدعم القوات المحاصرة بشكل حاسم.

ومما زاد الطين بلة وصول الأخبار إلى المدينة بإغلاق «غرناطة» في وجه «الزغل»، وبالتالي لن تصل الإمدادات منها، مما أشعر السكان بأنهم على وجه ملاقاة مصيبة، وحتى «رضوان» نفسه بدأ يفقد الأمل وصار ينصح بالاستسلام.

وعلى هذا الأساس تمّ توقيع الاتفاق بين هذا السيد وبين الكونت «سيفيونتي» الذي كان من

أسرى «رضوان» في «غرناطة»، وكان يعامله بكل فروسية، لذلك كانا يحترمان بعضهما، وتقابلا كصديقين قديمين.

ولأن «فرديناند» كان متشوقاً للوصول إلى «ملقة» ذاتها، وضع شروطاً مقبولة لاستسلام «فلز ملقا»، فسمح للسكان بمغادرتها مع أغراضهم كلها عدى أسلحتهم، وأن يبقوا إذا رغبوا في اسبانيا بأي مكان بعيد عن البحر، وكذلك تمّ فك أسر مئة وعشرين صليبياً وصليبية من الأسر في هذه المدينة، وأُرسلوا فوراً إلى «قرطبة»، حيث استقبلتهم الملكة بكل حنان برفقة ابنتها في كاتدرائية البلد، وسط ترتيل السكان وفرحهم بهذا النصر.

وتبع استسلام «فلز ملقا» استسلام «بني تميز» و«القُمر» وكل الحصون والمدن في «الأقصريقا» المنيعة، فعُين عليها «سياد» جدد، كذلك أرسل سكان حوالي أربعين مدينة من مدن «البقصارا»(*) بطاعتهم للملك القشتالي الذي أخذ عليهم يمين الولاء له «كمورد قصاري» أو ما يعني عبيداً مسلمين.

وبذات الوقت أرسل «ببدول» للملك يعلن خضوع «غرناطة» له، طالباً الرأفة والحماية لكل السكان الذين نزلوا تحت حكمه، ولكل مكان آخر يعلن تخلّيه عن حكم عمه، مؤكداً أن كل مملكة غرناطة سوف تعترف به بهذه الطريقة، وهو سيقدمها كعبد للتاج القشتالي.

وقبل الملك القشتالي بهذا الطلب، وأعلن حمايته الفورية على سكان «غرناطة»، وسمح لهم زراعة حقولهم بسلام، والتجارة مع النصارى في كل مناطقهم عدا تجارة السلاح، وقدمت نفس هذه التسهيلات لكل الأمكنة التي سوف تعلن خلال ستة أشهر تخليها عن «الزّغْل»، وتُحالف الملك الصغير ـ قِنٌ ـ الصليبية، وإذا لم يفعلوا هذا خلال هذا الوقت، سيعلن الملك المسيحي عليهم الحرب، ليخضعهم كعبيد له مباشرة ـ بدون وساطة عبودية ببدول ـ، وكان لهذا الإجراء أثره الكبير بتقوية نفوذ «ببدول» إذ كثر المنضوون تحت لوائه.

وقبل أن يعود «فردناند» ليوجّه اهتمامه إلى «ملقة» هدف هذه الحملة، رتّب كل الإجراءات الضرورية لتأمين حكومة تضبط البلاد التي خضعت له حديثاً، وأمّن الأمن فيها.

(*) تلفظ أيضاً «البشارات».

الفصل الثاني عشر

حول مدينة «ملقة» وسكانها:

تقع مدينة «ملقة» في حضن وادٍ خصيب، تحيطه الجبال إلا من الجهة التي تنفتح منها على البحر، وهي لأنها من أهم مدن الأندلس الإسلامية صارت من أقواها، فأسوارها قوية جداً تنتصب فيها الأبراج الضخمة الكثيرة، ويحميها من جهة اليابسة حاجز طبيعي من الجبال، وبالجهة المقابلة أمواج البحر المتوسط التي تضرب على أسس بنيانها الثابتة هذه.

وفي نهاية المدينة وعلى مرتفع فيها تقع قلعتها «القصبة» الحصينة التي يقف فوقها مباشرة انحدار جبلي شديد، كان على رأسه في الماضي «سيار» ضوئي سمي الجبل باسمه، أما الآن فتتوجها قلعة قصر، اعتبر من موقعه ومن قوة بنيانه غير قابل لأي اختراق، ويتصل بالقصبة بطريق مغطى بعرض حوالي ستة أذرع، ينزل بين جدارين بين الصخور القاسية، ويسمى بقصر «جبل فارو»(*) الذي يحكم القلعة والمدينة معاً، وهو قابل حتى لو أخذتا أن يستمر في المقاومة طويلاً.

وللمدينة ضاحيتان كبيرتان، والتي تقابل البحر منهما تسكنها طبقة غنية، تحيطها حدائق معلقة، أما التي في الداخل فذات كثافة سكانية، وتحيط بها أسوار وأبراج.

وفي «ملقة» حامية قوية وشجاعة، وشعبها نشط فعّال وقوي، والمدينة غنية بالبضائع التجارية التي يسيطر عليها عدد من التجار الذين يستطيعون بسبب كثرة بضائعهم أن يَتَحدّوا حصاراً طويلاً لبلدهم، رغم أنهم لا يتحمسون للحرب في مدينتهم، ويفضلون السلام الذي يجلب دوماً لهم الرخاء، وخاصة إذا تأمنت المواصلات للتجارة مع المناطق المسيحية بدون مكوس، كما ضمن ذلك «ببدول».

(*) أو الفار.

وكان على رأس هؤلاء المواطنين طلاب الربح والتجارة «علي دردو»(*) التاجر الكبير ذو الثروة الواسعة، الذي تتاجر سفنه بكل الموانىء المسيحية والإسلامية، والذي تعتبر كلمته مسموعة كالقانون في «ملقا».

وكان «علي» هذا حين يستقبل التجار الكبار من خارج البلاد، يرافقهم إلى «القصبة» كي يكرّمهم «السيد» فيها، وكان «علي» سميناً مربوع القامة طلق اللسان، ذا تأثير على سامعيه، وخاصة على «سيد» البلد، حيث تبنّى عبثية الدفاع عنها، وضرورة تجنيب «ملقة» بؤس الحصار، ثم ما يعقبه من دمار إذا إخِذت المدينة بالقوة، مؤكداً الفضل الذي سينالونه من القصر «القشتالي» لو أنهم اعترفوا «ببدول» ملكاً، مما يبقيهم بسلام في ممتلكاتهم، ويزيد ثراءهم بفتح باب التجارة مع النصارى دون مكوس، وكان «السيد» ينظر إلى «علي» هذا ومن معه من التجار نظرته إلى أهل الحل والعقد في المدينة، ويخضع لكل قراراتهم الجماعية، لذلك ذهب إلى معسكر النصارى واضعاً أخاه في قيادة القصبة، كي يرتب تسليم المدينة.

أما في قصر «جبل فارو» فكان فيه عربي معادٍ للمسيحية، وسيد لذاك القصر اسمه «حامد» الملقب «بالذعري» الذي كان في يوم من الأيام سيداً على «روندا» ومناطقها الجبلية، فلم يغفر لهم إسقاط حصنه، وظلّ يطلب منهم ثأره، وهو من المقربين من «الزغل» الذي يعرف كيف يقدر الرجال والمحاربين الشجعان، لذلك وضعه على قيادة هذا المركز الاستراتيجي في «جبل فارو».

واجتمع حول «حامد» ما تبقى معه من محاربي «العمرية» وما لحقهم من قبائلهم المغربية، وكان هؤلاء المقاتلون الأشاوس وكأنهم في عش صقر بهذا الحصن الذي يطلون منه على الوادي، وهم ينظرون أيضاً إلى تجار «ملقا» نظرة الاحتقار رغم أن عليهم حمايتهم، وبعبارة أخرى هم يهتمون بموقع «ملقة» المهم عسكرياً، وبقدراتها على الدفاع فقط، لذلك لم يكونوا يجتمعون بالتجار ولا بالسكان الذين يسعون إلى الربح، وحتى يعتبرون حامية «القصبة» وسيدها على درجة متساوية بالحقارة مع هؤلاء. فالحرب هي مهنتهم ومتعتهم، التي يسرهم عنفها وتقلبها، ولهم ثقة بأهمية هذه المدينة وبمناعتها ومناعة حصنهم، حيث وضعوا الكل فيه على أهبة الاستعداد لصد الغزو الصليبي، ومعهم الكثير من العرب الذين لاقوا النصارى في معارك سابقة، ومن الذين هربوا من «محاكم التفتيش Inquisitions» التي يعرفونها تماماً، ويعرفون ما يعني الاستسلام لأصحابها، فقد يئسوا من التعامل مع النصارى، إذ كانوا بين أيديهم، كمايئسوا من أي حلف أو ولاء معهم.

(*) وفي بعض المراجع العربية «علي دردوق».

تلك كانت العناصر التي شكّلت مخاوف «جبل فارو»، لذلك يمكننا فهم غضب من فيه إذا سمع أن «ملقة» ستسلم دون ضربة سيف، وأنهم سيصبحون خولاً للنصارى عبر هذا الوسيط الجبان «ببدول الشيكو»، وأن سيد «القصبة» قد غادرها ليحدد شروط الاستسلام.

هكذا قرر «حامد الذعري» المقاومة بكل الوسائل التي يملك لهذا التهديد الخطر، وهو يعرف أن قسماً كبيراً من المدينة لازال موالياً «للزغل» من رجالها الأشداء المحاربين، وخاصة من الذين لجأوا إليها من مختلف المدن والقرى التي سقطت، وهم يتلهفون للعودة إلى أملاكهم التي ينهبها النصارى، وهم «كحامد» موتورون ذوو ثأر مع الصليبية، لذلك اجتمع «حامد» مع ممثلي هؤلاء سراً، وتعاهدوا على دعمه إذا اتخذ أي إجراء دفاعي، بغض النظر عن المسالمين من سكان البلد الذين لا يقدمون ولا يؤخرون في الأمر، أما تدخل التجار بشخص «علي دردو» بشؤون الحرب فهو ما سيقاومونه بكل شدة.

لذلك قرر «حامد الذعري» النزول بهدوء وبشكل منظم إلى القلعة مع فرسان العمرية، ليدخلها فجأة ويقتل ـ أخا ـ سيدها، وكل حامية تقاومه، ثم يطلب من سكان المدينة اتخاذ الإجراءات التي بها يحمون مدينتهم.

وحين فعل، خرج تجار المدينة بدون «علي دردو» إلى القلعة، وهم جزعون على مصيرهم، ليقابلوا «حامداً» المحاط بمحاربيه العمرية الأفارقة الأشداء، وهم يطلبون إيقاف هذه المذبحة الأخيرة.

فنظر إليهم «حامد» بحدة عينيه السوداوين قائلاً: «من منكم موال لمولاي أبي عبد الله الزغل؟!» وعندما أكد الجميع ولاءهم قال: «حسناً ومن منكم مستعد لأن يثبت هذا الولاء لمليكه بالدفاع عن بلدته الهامة هذه حتى النهاية» فأظهر الجميع استعدادهم، عندها قال: «كفى إذاً فسيد القصبة قد أثبت خيانته لمليكه ولكم، لأنه تآمر على تسليم هذه البلد للنصارى، فعليكم اختيار قائد سواه، قادر على الدفاع عن مدينتكم ضد عدوها الذي يقترب، فأجمع الحاضرون عليه كقائد، وبذلك صار «حامد الذعري» سيداً على «ملقة»، فذهب فوراً إلى تزويد السور والحصون فيها برجاله، مهيئاً كل الاستعدادات لدفاع مستميت يائس.

وحين وصلت هذه الأخبار إلى «فردناند» توقف عن مفاوضة سيد المدينة القديم، ولم يعد بيديه بديل سوى ضرب الحصار على المدينة، وبينما هو يفعل ذلك وجد المركيز «أوف كاديز» فارساً عربياً من سهوب «فلز ملقا» أبدى استعداده للتوسط لدى «حامد» في شأن تسليم المدينة، أو على الأقل قصر «جبل فارو»، وحين أوصل المركيز هذا إلى الملك أجابه قائلاً: «إني أخوّلك

بهذا الأمر الذي هو مفتاح كنز كبير، فتصرف وعين شروطه وأتمّ الاتفاق بالنيابة عني، بالشكل الذي تراه ملائماً».

فحمّل المركيز هذا الفارس العربي رمحه الخاص الطويل، وألبسه درعه ودرقته، وأركبه على أحد خيله، وألبس فارساً عربياً آخر مرافقاً له لباساً مشابهاً مع أصحابه وجماعته، حاملين رسالة سرية إلى «حامد» من «المركيز» يعرض عليه فيها أن يعطيه مدينة «كوين» له ولسلالته، مع أربعة آلاف «دبلة» ذهبية، إذا سلّم له «جبل فارو»، كما حمَّلهم كماً كبيراً من المال ليوزعوه على ضباطه وجنوده، عارضاً مكافآت سخية وغير محددة إذا سلمهم المدينة أيضاً. لقد كان «حامد» يحترم عسكرية وفروسية «المركيز» لذلك رحّب برسله في قصره بالجبل، واستمع إلى عرضهم بكل صبر، وصرفهم بأمان مع الرفض المطلق لما يفعلون، فظن «المركيز» أن العرض لم يعجب «السيد» فأعادهم له بمزيد من الاقتراحات، ولكنهم حين وصلوا إلى «ملقة» ليلاً وجدوا حرسها قد تضاعف، والدوريات حولها وفيها على أهبة الاستعداد، فطاردوهم هذه المرة إلى شعاب الجبال وبالكاد نجوا بأنفسهم، احتقاراً لهم ولزيهم الجديد هذا ولعروضهم؟!

وهكذا وجد «فردناند» أن صلابة إيمان «حامد» لا تعني سوى إعلان محاصرة المدينة لإجبارها على الاستسلام، عارضاً أفضل الشروط إذا استسلمت فوراً، أما إذا قاومت فالعبودية لكل سكانها.

وأرسل رسالته هذه لكل أهل الحل والعقد في المدينة، الذين لم يجرؤوا أمام سيدهم الجديد من أن يلفظوا بحرف، خاصة لأنه جمعهم قائلاً: «إن مدينة «ملقة» لم تنتدبه كي تستسلم، وسيرى الملك ـ فردناند ـ مع من ورط نفسه بهذا الأمر».

هكذا فشلت كل الرسائل، وعاد الرسل بأخبار قوة الحامية في المدينة، ومناعة دفاعاتها، وعلوّ الروح المعنوية لقائدها وجيشه، لذلك أمر «فردناند» بتحرك المدفعية الثقيلة من «الأنتكويرا»، ومشى بجيشه في السابع من أيار/مايو نحو ملقة المحاصرة.

الفصل الثالث عشر

تقدم الملك «فردناند» ضد «ملقة»:

تحرك جيش «فردناند» بخط طولي على أقدام الجبال التي تحرس البحر المتوسط، بينما كان أسطوله المحمل بالمدفعية الثقيلة يسير بموازاته في البحر على مقربة من الشاطىء، وقد غطى البحر بآلاف الأشرعة، فأحرق «حامد» البيوت التي بموازاة البحر، وأرسل ثلاث كتائب لإيقاف تقدم حرس العدو.

واقترب الجيش الصليبي من المدينة في النهاية في مواجهة قصر «جبل فارو»، والقلعة التي تحمي المدينة، على مسافة رميتي سهم متعاقبتين، قبل أن يضطروا إلى المرور بممر بين سلاسل الجبال العالية التي تحكم ممراً لدخول السهل، الذي به يقتربون من المدينة وأسوارها، وعلى هذا الممر ثلاث كتائب كان «حامد» قد وضعها هناك لحماية هذا المدخل من رابيتيه، موزعة بينه وبين القصر وجانب الجبل صوب البحر.

فتقدمت قوات «غاليسيا» من مشاة الاسبان وخيالتهم لتسلق المرتفع القريب من البحر، في الوقت الذي كانت تهاجم خيالة الحرس الملكي قوات العرب التي تحرس الممر، فدافع العرب عن مواقعهم ببطولة ظاهرة، وهزموا «الغاليين» ودفعوهم للتراجع مراراً، لكنهم كانوا يعودون للهجوم مدعومين بقوات من الفرسان، وهكذا ظل هذا الصراع ست ساعات، في قتال قاتل، ليس بالنشاب والبنادق الطويلة الثقيلة فقط، بل يداً بيد بالسلاح الأبيض من سيوف وخناجر، ولم يستطع أي فريق احتلال أي موقع له، وكان قتالاً لا أسرى فيه أشبه بالمذبحة، ولم تشترك فيه سوى طليعة الجيش المسيحي فقط، فصارت هذه المداخل مكدّسة بالجثث من بشر وخيول وبغال فوق بعضها بعضاً، لتغلق هذا الممر الضيق الوعر، فالجيش كان يسمع أبواق نفير العرب وصرخات حربهم، دون أن يقدر أن يصل إلى مقدمته كي يساعدها على اختراق هذا الممر.

أخيراً تسلق مجموعة من «الآباء الأخوة العذاريين» بصعوبة جانب الجبل المنحدر الذي يشرف على الممر، وتقدموا بسبعة أعلام لهم نحوه فوق العرب، الذين فروا حين رأوهم فوقهم بهذا الشكل.

أما في المرتفعات فظلت المعركة قائمة، فرغم دعم القشتاليين للغال بقيادة «دي مونديزا» و«دي لاڤيغا»، ظلّ هؤلاء تحت ضغط شديد يتلقطهم العرب بكل شدة، إلى أن قذف «لويس مازندو» بنفسه ضمن صفوف العدو، ليغرز علمه في مرتفع بينهم، فتبعه الغاليون والقشتاليون بسبب جرأته هذه، بقتال يائس دفعوا العرب في نهايته إلى قلعتهم و«جبل فارو».

وبأخذ هذا الممر الهام فتح الطريق أمام الجيش، لكن الليل كان قد تقدم، وصار من الصعب اختيار مكان للمخيم والجيش منهك، ولذلك خرج الملك محاطاً بقيادته وفرسانه لكي يأمر بعض القطعات بالتمركز إزاء المدينة مع دوريات لإعطاء الإشارة حين ظهور أي تحرك منها، وهكذا ظلّ الصليبيون طوال الليل وأيديهم على سلاحهم، خوفاً من أي قوات تخرج من المدينة لمهاجمتهم.

ومع شروق الشمس كان الملك يحدق بإعجاب بالمدينة التي ستُضَم لأملاكه، وتحيط بها الجنان من الأزهار والأوركيد والكروم، وعلى الجهة الأخرى تضع ساقها في البحر لتستحم بأمواجه الناعمة، وأبراجها الضخمة وقصورها تشهد على عظمة من بنوها في الأزمان السابقة، لكن الزمن قد مرّ عليها الآن، ولم تعد سلالتهم قادرة على صيانة ما بناه أجدادهم، من حدائق معلّقة بكل أنواع الورود والرياحين، تشرئب بينها أشجار «الأرز» مع أشجار النخيل جنباً إلى جنب بشكل عجيب، وهي تخرج فوق الأسوار التي فيها حاميات المدينة، التي يمكن تصور المنازل الفخمة التي خرجت منها ومدى ثراء سكانها.

وهكذا تدفق الجيش الصليبي من هذه المداخل نحو أسوار المدينة، ينظم صفوفه، ويأخذ مواقعه أمام كل مرتفع يشرف على المدينة، و«فردناند» المذهول بجمال هذه المدينة لم ينسَ أن يدور على قطعاته ليحدد موقع كل قائد فيها.

فأعطي الجبل الذي كلّف غالياً إسقاطه، والذي يطل على قصر «جبل فارو»، إلى قيادة «رودريغو دي ليون المركيز أوف كاديز» الذي يطلب في كل حصار مواقع الخطر مع مَن معه مِن الفرسان ومشاتهم تحت قيادته هذه، التي تُعدُّ رأس الحربة، وتَعِدّ ألفاً وخمسمئة فارس وأربعة عشر ألف راجل، فأغلق بهم كل منفذ للمدينة من تلك الجهة.

ومن هذا الموقع انتشر خط المخيم الصليبي حول المدينة بشكل شبه دائري، تحميه العوائق والخنادق العميقة، بينما توزع الأسطول البحري الصليبي في الميناء، فأغلق الحصار بشكل تام

من البر والبحر، والكل يجهز استعداداته التي ملأت الوادي بأصوات تجهيز أدوات القتال وآلاته وذخائره، مع الحدادين الذين يثبتون المدافع وطنابر الجرّ، بما فيها من هراوات يُسمع صوت طرقها من بعيد، والنجارين يركبون العرادات التي ستقصف الأسوار، وتهاجم الأبواب بدباباتها الخشبية، وأدوات التكسير للحجارة كي تصنع منها كرات للمدافع، تطلق بدل كراتها الحديدية أحياناً لأنها تتشظى بشكل أفتك، بينما يحضر حملة «النار الإغريقية» الزيت والبترول في كراتهم التي ستقذفها العرادات مشتعلة على البيوت، وعندما تمّ تجهيز كل شيء، نقلت من السفن خمسة مدافع كبيرة لوضعها في مركز قيادة «المركيز أوف كاديز» لضرب قصر «جبل فارو».

وقد حاول العرب كل جهدهم منع هذه التجهيزات، فكانوا يطلقون النار بشكل مكثف على حفرة الخنادق من مواقعهم، أو على من يبنون أماكن المدافع من المهندسين، وطوال النهار والليل كان الضرب مستمراً إلى درجة إصابة الخيمة الملكية التي كانت بمرمى البطاريات المدفعية العربية، لذلك تمّ نقلها إلى خلف الجبل.

وحين تمّ كل شيء فتحت القوات الصليبية نيران بطارياتها بدورها، في اللحظة التي يهاجم فيها الأسطول المدينة من الجهة المقابلة.

وعلى هذا المنظر الدموي علّق الأب الجليل «أنطونيو آغابيدا» بقوله: «لقد كان منظراً ماجداً ودقيقاً بالإطباق على هذه المدينة اللامؤمنة من البر والبحر معاً، بهذا الجيش المسيحي القوي الجبار، فكل استحكام داخل دائرة هذا الجيش صار يحمل إشارة محارب كاثوليكي بطل، بقصفه».

كذلك كانت السفن الصغيرة تنزل من الأسطول، وتعود إليه محمّلة بالذخائر، وقد ملأت كل البحر، بمنظر واسع يملأ العين بمناظر ستستعيدها مدى الحياة، لولا ألم هذا المنظر حين احتراق سفينة بمن فيها، أو التهاب منزل من القصف والقصف المضاد، ورعد وبرق الأسلحة من المخيم والمدينة، ومن الأبراج ومواقع القتال، التي تخبر بأن صراعاً حربياً قاتلاً يحصد الأرواح.

وفي الليل كان المنظر مريعاً أكثر من النهار، حين تحتجب أشعة الشمس، ولا ضوء بديل عنها سوى لمع المدافع أو ومضات شهب العرادات التي تلقى على المدينة، وأضواء البيوت المشتعلة، والمدفعية التي لا تهدأ من مدافع النصارى وخاصة السبعة التي سميت «بأخوات أكزيمنس السبعة» قد سببت خراباً هائلاً، كان العرب يردون عليه من مدافعهم التي تزأر من فتحات السور، «فجبل فارو» صار محاطاً بدخانها حتى أخمص قواعده، و«الذعري» والعمرية

أتباعه ينظرون بنشوة للحرب التي أثاروها، لذلك قال الأب «آغابيدا»: «يبدو أن الكثير من الشياطين قد تقمصت أشكال البشر، وقد سمح لها أن تنزل من السماء لتدخل بحيازة سكان هذه المدينة لكي تظهر بناسها اللامؤمنين».

الفصل الرابع عشر

حصار «ملقة»:

كان للهجوم العاصف على ملقة من البر والبحر لعدة أيام، آثاره التي لا تدفع إلى الانبهار، فقوة تحصينات المدينة القديمة كانت عظيمة، ولم يظهر إنجاز أكبر من إنجاز «الكونت سيفيونتي» حين دمّر برجاً من أبراج الضاحية بمدفعيته، بشكل لم يعد يوفر للمدافعين أي حماية بعد ذلك، وحين رأى الكونت ذلك جمع قوة من فرسانه ومن الحرس الملكي لكي يأخذ موقعه ويعصف به، فأحضروا أدوات التسلق وتسلقوه وسيوفهم بأيديهم، وقد نزل العرب إلى الطابق الأرضي من البرج، ليقاوموا المتسلقين بشدة من الفتحات والنوافذ المنخفضة، وهم يصبّون المنصهرات على المتسلقين، ويرمونهم بالحجارة والسهام والنار، فقتل الكثير من النصارى، وأحرقت سلالمهم، وأجبر الكونت على التراجع من أمام هذا البرج، فضاعف قواته ليهاجمه في اليوم التالي، وبعد عدة معارك بين كر وفر استطاع شك علمه منتصراً فوق هذا البرج.

وهنا جاء دور العرب للهجوم على هذا البرج بدورهم، فوضعوا الأخشاب تحت أسسه التي تواجه المدينة وأشعلوها، وابتعدوا قليلاً، وبعد قليل احترقت حوامل البرج وانغرس أرضاً ليصير حطاماً، وحين سقطت جدرانه محدثة صوتاً هائلاً سقط معها الكثير من الصليبيين ورؤوسهم إلى الأسفل، وما بقي منهم فيه صار مكشوفاً لقذائف العرب.

وقد سبب هذا فتحة في السور الذي يقف عليه هذا البرج، اندفع منها صليبيون لمساعدة زملائهم، وعلى هذه الفتحة استعرت المعركة يومين بليلتيهما بتعزيزات متوازية من المدينة ومن المحاصرين، والقتال بين كر وفر عبر هذه الفتحة بدون أي نصر، والفتحة تمتلىء بالجرحى والقتلى من الطرفين، وأخيراً تراجع العرب نحو المدينة مستميتين بالدفاع عن كل إنش من الأرض، وظل الصليبيون أسياداً على قسم كبير من الضاحية.

ورغم أن هذا النجاح الذي دفع النصارى ثمنه غالياً من الدماء، لم يكن سهلاً إلا أنه رفع معنويات جيشهم، ووجدوا أن الأفضل من قصف المدينة قصف تحصيناتها، وكانت الحامية التي فتحت البرج من الذين أسقطوا الكثير من التحصينات العربية، فلم يعودوا يثقون بالدبابات ولا بالمدفعية التي تقصف المدن وغيرها من الآلات التي اخترعها «الألمان» مثلاً.

ومع هذا كان لهذه المخترعات أثرها مؤخراً على الحصون الضعيفة بشكل لا ينكر، فصار الصليبيون أقل صبراً على الحصارات الطويلة، وبقائهم كل هذه المدة في قلب بلاد العدو، أو نقلهم لهذه الأحمال الثقيلة في الجبال الوعرة، وحين بدأت انتفاضات بعض القرى التي أخضعوها تصل إلى مسامعهم فرّ بعضهم وترك الحصار عائداً إلى بيته وبلاده.

كما أن كثرة خسائر هذا الجيش الكبير أدّت إلى شائعات فيه، بأن هذا الحصار سوف يرفع ويترك كل شيء للعدو، فصار الجيش يخسر يومياً جماعات من قواته تفر إلى بلادها، كما أعلنوا أن الذخيرة تنقصهم مما سيسكت المدافع، فأفاد العرب من هذه الشائعات ليؤكدوا لقواتهم أنهم إذا صبروا قليلاً في الدفاع، سيجبر ملك «قشتالة» على سحب قواته وهجر معسكره، وآنذاك لهم الغنائم التي لا تحصى؟!

وحين تناقل المخبرون في الطرفين هذه الأخبار، ارتفعت معنويات المدافعين، وصاروا يقومون بالهجوم تلو الآخر على معسكر الحصار ليتحرشوا فيه ليل نهار، مما أجبر كل قسم فيه على أن يظل بحراسة دائمة، كما قوّى العرب حصونهم الضعيفة أو المقصوفة، وأعلنوا كل ما من شأنه أن يبرز أنهم لم يهنوا ولم يخضعوا.

أما «فردناند» الذي وصلته هذه الإخباريات أيضاً من مخابراته وجواسيسه، وعرف بأن فيها شائعة تقول بأن الملكة قد طلبت منه فكّ الحصار، وهجر هذا المعسكر خوفاً عليه وعلى جيشها، وجد أن خير طريقة لتكذيب كل هذه الشائعات دفعة واحدة أن يكتب إلى الملكة كي تحضر بذاتها إلى مخيمه هذا، وهكذا فعل.

الفصل الخامس عشر

صلابة «حامد الذعري» واستمرار حصار «ملقة»:

ارتفعت معنويات الجيش الصليبي حين رأى ملكته قد جاءت لتشاركه خطر الحصار، وقد وصلت إلى المعسكر برفقة كل بلاطها، لتؤكد أن هذه الزيارة ليست زيارة مؤقتة، وعلى يمينها ابنتها «إيزابيلا الصغيرة»، وعلى يسارها كاردينال اسبانيا الأكبر الذي يحمل لقب: الذي تعترف له الملكة، مع عدد كبير من الحاشية والفرسان وسيدات القصر المتميزات، وهم يتحركون بهدوء داخل المعسكر لتخفيف وطأة الحرب على الرجال فيه، بمظهر الأبهة والجمال النسائي.

وهي بوصولها إلى معسكر كانت تأمل بتخفيف وطأة رعب الحرب فيه، خاصة وأنها تحمل معها عروض سلام جديدة للعدو، لذلك توقف إطلاق النار بصورة عامة في المعسكر حين وصولها، وأرسل رسول إلى المحاصرين يبلغهم بوجودها في المعسكر، وأنها قررت الإقامة فيه، حتى تفتح البلد، وقُدمت نفس الشروط في حال التسليم الفوري، كتلك التي عرضت على «فلز ملقا»، وإلا فالسكان عرضة للأسر والرق أو السيف حال المقاومة.

وتلقى «حامد» هذه الشروط بكل استياء، وصرف الرسول دون أن يحمله جواباً؟! وقال لمستشاريه بعد أن غادر: «لقد قدّم هؤلاء الملوك النصارى عرضهم هذا من يأسهم، فقد أرهقتهم الحرب، وليس لديهم أي وسيلة فعالة لهدم أسوارنا، وإذا ظلّوا هكذا فستطالهم الأمطار الموسمية، وتملأ معسكرهم بالطين والمرض والجوع، وستمزق أول عاصفة أسطولهم الذي لا مرفأ له ليلجأ إليه في الجوار، وبذلك يفتح عليناالباب الإفريقي بالمدد والمعدات».

وتلقى أصحاب «حامد» عباراته هذه بالتهليل والتكبير، رغم أن عدداً كبيراً من سكان البلد المسالمين كانوا يريدونه أن يقبل، وحثّوه على الإفادة من هذا العرض الرحيم، فهددهم «حامد» وطردهم معلناً أن: «كل من يتحدث عن الإستسلام، أو يعقد أي صفقة مع النصارى، سيوضع

تحت السيف»، وسيذهب العمرية إلى تنفيذ هذا الأمر كقانون نهائي للبلد، وهم حين وجدوا أن بعض السكان يتصل سرياً بالعدو، أخرجوهم إلى الساحات العامة فعلاً وذبحوهم ذبح النعاج، مما أوقع الرعب في قلوب الباقين، فالذين طالبوا بالاستسلام علناً، لم يعودوا حتى يهمسون به، واستعاضوا عن ذلك بالمزاودة على المدافعين بالأقوال فقط.

وعندما عاد الرسول إلى مخيم الصليبيين بالرد، شعر الملك «فردناند» بالإهانة، ولكي لا يظن العدو أن وصول الملكة دلالة ضعف مخيمه، أو للمساومة، أمر كل بطاريات مدفعيته بفتح نيرانها، لكي يقنع العرب بخطأ تقييمهم للوضع، ولذلك تفجرت الحرب فجأة في كل القطاعات، مما أوقع الاضطراب بين السكان الذين لم يعودوا يعرفون أياً هو أخطر عليهم؛ مهاجميهم أم المدافعين عنهم؟! النصارى أم العمرية؟!!

وفي المساء زار الملك معسكر المركيز «أوف كاديز» المشرف على المعسكر وعلى المدينة بآن واحد، وكانت خيمة المركيز وثيرة الفرش، وعلّق عليها البروكار الثمين والحرير النادر بشكل شرقي، وهي على رأس المرتفع يحيط بها خيام فرسانه الوثيرة أيضاً، والتي تعطي انطباعاً بهيجاً لا يتلائم وما في البرج المواجه لها في «جبل فارو» من دخان وبارود وقتامة ألوان. وهنا قدمت للملك والملكة مائدة رائعة، وصدحت الموسيقى الملكية بشكل يتعارض مع ما عند الخصم من وجوم وظلام، لإضعاف معنوياته.

وقبل الغروب مباشرة أطلع المركيز زائره الملكي على نقاط تمركزه الحربية المشرفة على ساحة المعركة تحته، وأطلق من مدافعه الثقيلة القذائف، حتى ترى الملكة والملك ومن معهما أثر هذه الآلات المدمر، فأعجبت السيدات الشقراوات باهتزاز الجبل تحت أقدامهن حين تصدح المدفعية، وهنّ يرقبن تطاير الحجارة من حيطان سور المدينة العربية.

وبينما كان المركيز يقوم باستعراضه هذا أمام حسناوات البلاط، لوّح العمرية من قلعتهم في «جبل فارو» له بعلمه الذي فقده في مذبحة الجبل المذكورة في مرتفعات «ملقا»، ولأجل مزيد من الوضوح راحوا يتقاذفون خوذ ودروع فرسانه الذين ذبحوا في تلك المعمعة، فبلع المركيز مهانته هذه بالصمت، لكن بعض فرسانه راحوا يقسمون بصوت عالٍ ليسمعه العرب بالثأر منهم على هذا السلوك الشائن الصادر من تلك الحامية العنيدة.

الفصل السادس عشر

هجوم المركيز «أوف كاديز» على «جبل فارو»:

لقد كان «المركيز أوف كاديز» قادراً على أن لا يغفر أي إساءة توجَّه له، أو أي جرح لشعوره يعتبره إهانة له، ففي الصباح وبأوامر منه أطلقت كل بطاريات الجيش الملكي سيلاً عارماً من نيرانها على حصن «جبل فارو»، لدرجة أن المخيم صار مغطى طوال اليوم بدخان البارود، حيث لم يتوقف القصف طوال اليوم، وحتى في الليل ظلّ القصف متقطعاً، حيث تلمع بين آونة وأخرى نيران القذائف، وتزمجر بأصوات مدوية، ثم زاد القصف مع طلوع الفجر، حيث لم تعد حصون العرب القوية تمنع هذه الآلات الهادمة من دكّها، وبعد عدة أيام تداعى البرج الذي كان العرب يغيظون «الكونت» برفع علمه الذي أسروه واللعب به عليه، وحصلت فتحة كبيرة في الجدار الحامي له.

فأراد بعض الفرسان دخول هذه الفتحة والسيوف بأيديهم للعصف بهذه القلعة، لكن آخرين منعوهم، لأن العرب حفروا خندقاً في الليل وراء هذا الهدم، ودعموا دفاعاتهم بعدها.

لكن «المركيز» لم يكن ليحبط من رغبة هؤلاء الفرسان طالبي الاقتحام، وما هو الذي يرفض مثل هذه الخدمات الناتجة عن روح فروسية عالية، فقط لأن نتائجها خطرة، فأمر طلائعه بالتقدم حاملة الحجارة لرميها في الخندق لردمه، بأكبر قدر ممكن لمرور الفرسان إلى الداخل.

ولما توقف رعد المدافع التي ظلّت تقصف يومين بليلتيهما، عجزت طليعة الجيش عن حمل الأحجار المطلوبة للردم لأنها أنهكت ليلاً بالقتال الليلي، والخطر على كل حال ليس عليها من فتحة السور هذه، بل على المحاصرين فيه، فلا بأس من أخذ قسط من الراحة لهذه القوات نصف النائمة لذلك تفرّق الجيش بشكل متسيب، ووقتها انطلقت صرخة ألفين من العرب وهم يخرجون من هذه الفتحة ومن القصر بقيادة «إبراهيم الزناتي» مساعد «حامد الذعري» ومقدم

جيشه، وانقضّوا على الحرس المتقدم بشكل مخيف ليذبحوا الكثير من النيام منهم، ويقاتلوا الباقين بالسلاح الأبيض، وقد اقتربوا من خيمة «المركيز» على مرمى سهم منها، عندها لاحظ «المركيز» أن رجاله يطيرون من وجوه مهاجميهم بفوضى، فخرج مسرعاً من خيمته وخلفه حامل لوائه وهو يأمره بأن يعيد الفرسان نحو العدو، فتوقف الجيش حين سمع صوته والتفّ حول علمه ليعود لمهاجمة العرب، وصحا كل المعسكر على ضجة هذه المعركة، واتجه عدد من الفرسان إلى مسرح المعركة بسرعة، مع عدد من «اخوان الصليب المقدّس»، ليشتبكوا بصراع دموي فرضت وعورة ساحته تقسيمه إلى مواقع صدام متفرقة، دخل فيها العرب والنصارى بصراع بالسلاح الأبيض يداً بيد، لترى فيه الكثير من المتقاتلين يعتنقون بعضهم، وهم يتدحرجون على الصخور، وقد غمسوا أغماد سيوفهم أو خناجرهم ببعض.

وكاد علم «المركيز» أن يؤخذ أثناء هذا القتال، فأسرع لإنقاذه مع عدد من فرسانه الذين أحاط العدو بهم، وفتك بالكثير منهم، وجرح أخو المركيز «فونس دي ليون» بسهم مع صهره، لكنهما نجحا بإنقاذ العلم وإعادة مركزته، واستمرت العركة لمدة ساعة أخرى، تغطت بنتيجتها المرتفعات بالقتلى والجرحى، والدماء تترقرق كالجداول من على الصخور، وبعد أن جرح «الزناتي» تراجع العرب نحو القصر.

وأثناء تراجعهم أطلقت بطاريات القلعة النار من المدافع والبنادق الطويلة الثقيلة مع النبال على العدو لتغطية الانسحاب، وكانت الرمايات كثيفة على المركيز وجنوده، الذي أصابت طلقة منها درقته واستقرت بدرعه دون أن تجرحه، فعرف الجميع مدى الخطر من اقترابهم من هذه القلعة، فسحب النصارى معسكرهم بعيداً عنها، إلى المكان الذي كان يحتله«المركيز» قبل وصول الملكة، ولم يمنع تمزيق جيشه وإنزال كارثة بكل الجيش المحاصر سوى شجاعته وصموده.

لكن النصارى خسروا الكثير من خيرة فرسانهم المتميزين، وعلى رأسهم «أورتيغا دي برادو» كابتن اسبانيا الأشجع من بين شجعان فرسانها، وهو الذي أنزل الضربة الأولى بالعرب في هذه الحرب حين تسلق حصون «الحمى»، ومن يومها كان مقرباً من «فونس دي ليون» الذي كان يحيط نفسه بفضائل الرجال.

الفصل السابع عشر

استمرار حصار «ملقة» والمناورات المختلفة فيه:

لقد حمل المتصارعون من كلا الطرفين هذا الصراع بجهد عظيم إلى أقصى تحققاته، «فحامد الذعري» كان يدور على الحصون، ويضاعف حراستها ودفاعاتها ويقوي أسوارها، وقد قسم الحاميات إلى فرق، كل واحدة من مئة رجل، وعلى رأس كل واحدة مقدم، بعضها للدورية وبعضها للخروج، والاشتباك مع العدو بالمبارزة، وبعضها للاحتياط، وجهز ستة قوارب بالمدافع لكي تخرج إلى الميناء وتقاتل المدمرات والأسطول فيه.

أثناء ذلك كان ملوك النصارى على اتصال عبر البحر بكل «اسبانيا»، يتلقون منها كل أصناف المساعدات والمدد، وحتى من بلاد النصارى الأخرى كانوا يتلقون المدد أيضاً، فالبارود كان يقدم لهم من «البندقية»، والرجال من «جنوة» و«البرتغال» و«صقلية»، وهكذا كثرت وعظمت الاستعدادات للعصف بالمدينة، فبنيت أبراج خشبية تسير على عجلات لمقابلة أبراج المدينة والوقوف أمامها، وبها سلالم يمكن إلقاءها على هذه الأبراج للقفز عليها نحوها، أو نحو الأسوار، وسلالم أخرى تنزل من هذه الأبراج لدخول المدينة من أسوارها، وكذلك بنيت دروع خشبية كبيرة مغطاة لكي تمشي تحتها الدبابات التي تضرب أبواب الحصن بجذوع الشجر الثقيلة.

كما زرعت الألغام سراً في أماكن كثيرة، وبعضها في أساسات سور المدينة، وغطيت وموّهت لكي تكون جاهزة للإطلاق حين الهجوم، وقد عمل الجيش المحاصِر على هذه الألغام ليل نهار، وأثناء زرعها كانت المدفعية تطلق النار لكي تشتت انتباه المحاصَرين عن رجال الهندسة الذين يزرعونها.

أما «حامد الذعري» فقد أظهر شجاعة نادرة وذكاءً في الدفاع عن المدينة، سواء بإصلاح أو

بدعم خنادقها، والثغرات التي أحدثها العدو في سورها، ولم يترك للجيش المُحاصِر فرصة للراحة، فكان يهاجمهم براً، فإذا التفتواإليه انطلقت سفنه الصغيرة في مهاجمتهم بحراً، فالمبارزات كانت دائمة مستمرة، لذلك امتلأت خيام مستشفيات الميدان التي كانت تسمى بمستشفيات الملكة بالجرحى، وكان كل الجيش يشكو من الإرهاق بسبب الحراسة المستمرة ضد الهجوم المفاجىء الذي يقوم به العرب بكل وقت، لذلك عمق النصارى خنادقهم أمام أسوار المدينة، أما في المنطقة التي تواجه «جبل فارو»، فالصخور لم تكن تسمح لهم بهذا النوع من الدفاع، لذلك ألقي ساتر ترابي عالٍ وصارت مجموعات فرسان «غارسيلاسو وزنغا وأتايدي» مسؤولة عن مراقبة هذا الساتر وحمايته من الجهة المقابلة.

ولم يلبث «حامد» أن اكتشف أماكن زرع الألغام، فأمر بإزالتها، وتشكلت قوات لهذا الغرض اشتبكت مع القوات التي تزرعها داخل الأنفاق المعدة لهذا الغرض، وصاروا يتقاتلون في هذه الأنفاق يداً بيد، وكان كل لغم يكشف يشعل ويدمر، ولذلك تشجع العرب وصاروا يهاجمون المخيمات الصليبية بألغامها، وكذلك صاروا يلغمون أسطول النصارى سراً، وهكذا كانت معارك الألغام بين الجانبين تحصل براً وبحراً وفي الخنادق، وعلى السواتر الترابية وداخل الأنفاق، وتنتهي بعودة المهاجمين إلى المدينة التي تدبر أمرها دون أي مساعدة من العالم الإسلامي من الخارج؟!

لذلك أضيف الخوف من المجاعة إلى مخاوف «ملقة»، و«حامد الذعري» بروح المقاتل الذي نشأ على الحروب، اعتبر كل مصادر البلد من حق الجيش، فأمر بجمع كل الحنطة في المدينة لتكون بتصرف مقاتليها، وقسمت الحصص بشكل محاصة من أربعة أونسات من الخبز لكل جندي صباحاً ونصفها مساءً.

ولكن السكان المسالمين والتجار كانوا دائمي التذمر من تدمير بيوتهم، ووقوع الإصابات بين أبنائهم وأسرهم، لذلك كانوا يطالبون بإنهاء هذا الحصار قبل أن يصبحوا كلهم أسرى وعبيداً للغزاة، رغم أن أحداً منهم لم يجرؤ على نقل هذه المطالب لحاميتهم، أو حتى التعبير عن حزنه في حال إصابة أي فرد من عائلته بشكل علني، حتى لا يثير نقمة وغضب حماته، واكتفوا بأن تجمعوا حول رمزهم «علي دردو» كبير تجّارهم، الذي لبس الحديد مدّعياً أنه على استعداد للدفاع عن بلده، لكنه كان يقول في مجالسه: «لماذا علينا أن نجعل من مدينتنا ساحة حرب لهؤلاء البرابرة الغرباء من الشاطىء الأفريقي من شذاذ الآفاق ؟! فليس لدى هؤلاء عائلات ليرعوها هنا، ولا أموال ليخسروها، ولاهم يحبون وطننا أو حتى يقدرون حياتهم شخصياً، فهم يقاتلون تعطشاً للدماء، أو رغبة بثأر مجهول سيودي «بملقا» إلى الخراب، وبشعبها إلى ذلّ الرق،

دعونا نفكر بخلاص أنفسنا وأولادنا ونسائنا، فنفاوض النصارى قبل فوات الأوان، وبذلك ننقذ أنفسنا من الدمار».

وهكذا لعب «علي دردو» دور رسول السلام وصمام الأمان الذي لا يحب العنف وسفك الدماء، ولا النصر أو الهزيمة إلا في التجارة، ولأنه معتاد على إجراء الصفقات وهي تتلائم مع طبعه، راح يسعى إلى أن يفوّضه الناس لإجراء مفاوضات سرية مع القصر الصليبي، وهو متخفٍ ببذة المقاتل، لذلك كان يتصل مع مواطنيه الذين هم تحت إمرته العسكرية هذه، وشكل من الذين يوافقون رأيه قوة لتفاوض من موقعها العسكري الذي تشغله على سور المدينة، وأرسلوا إلى ملك النصارى يخبرونه بأنهم سيسمحون لجيشه بأن يدخل من قطاعهم إلى المدينة إذا أعطاهم الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم فيها، وأرسلوا مقترحاتهم هذه مع جاسوس معتبر للنصارى، وحددوا له ساعة ومكان عودته لإدخاله دون أن يشعر به أحد.

وهكذا خرج هذا الجاسوس من قطاعهم بأمان ووصل إلى أن يحظى باستقبال القصر المسيحي له، هذا القصر الراغب بأخذ المدينة دون مزيد من سفك دماء جيشه فيها، فأعطوه أماناً خطياً لأصحابه، وعاد به عودة المنتصرين، لكنه أُلقي القبض عليه من قبل «العمرية» الذين كانوا يقومون بدورية مفاجئة في قطاع «الدردو» على ظن أنه جاسوس أتى من معسكر الأعداء، وسحبوه على مرأى من أتباعه الذين كانوا ينتظرونه، ولما ساقوه أمام باب حصن المدينة، فّر منهم وفتح الباب متجهاً نحو النصارى، فأطلق عليه أحد العمرية سهماً وقع بين كتفيه، فسقط، وحين ركضوا وراءه قام ثانية مهزوماً نحو النصارى، ووصل إلى خطوطهم بعد جهد جهيد، حيث توقف العمرية عن مطاردته عند هذا الحد، وشكر التجار ربهم على إنقاذهم من هذه الورطة، خاصة وأن الرجل مات متأثراً بجراحه في معسكر النصارى، وبذلك ذهب معه سرّ هؤلاء المتآمرين.

الفصل الثامن عشر

معاناة أهل «ملقة»:

ظهر الحزن والقلق على كل عرب الأندلس لمعاناة أهل «ملقة»، وإقلاق وإرهاق أهل هذه المدينة الجميلة، التي كانت في يوم من الأيام تشكل العمود الفقري لكل المملكة، وها هي تقع بأيدي المشركين، بينما المحارب العتيد الملك «أبو عبد الله الزّغْل» لاجىء في «غواديكس»، يجمع ببطء قواته المبعثرة، وأهل «غواديكس» يطالبونه بأن يخرج بهم لنصرة «ملقة»، يحثونه على عدم ترك مثل هذه المدينة الموالية لهذا المصير التعس، بعد أن أبدت هذه المقاومة المشرّفة، لذلك جمع تعزيزات قوية على قدر طاقته، ووضعها تحت مقدّميه المختارين، لكي يذهبوا ويدخلوا المدينة ويدافعوا مع مدافعيها.

وحين وصلت أخبار هذه القوة إلى «ببدول» أعماه حقده على عمه، ورغبته بأن يظهر ولاءه للبلاط النصراني، فأرسل قواته كي تقطع طريقهم من الوصول إلى هدفهم، وبعد صراع عنيف ومعركة فاجرة، تراجعت قوات «الزغل» بخسائر كبيرة إلى «غواديكس» تراجعاً عشوائياً.

و«ببدول» الذي لم يعتد على أي نصر قبل هذا، ازدهى بهذا النصر، وأرسل أخباره إلى البلاط «القشتالي» مع قافلة من الهدايا: من الحرير الوثير وصناديق العطر العربي، وكأس ذهبية غالية، مع جارية جميلة أُسرت من «عبيدة»، كهدية للملكة، أما هديته للملك فكانت: أربعة خيول عربية بسروجها الفاخرة المزركشة بكل نفيس، مع سيف وخنجر مطعمين بالجواهر الغالية، وغيرها من الأثواب الفاخرة، لكي يحظى بعطفهما كخول مخلص لهما مقابل هذا فقط.

وهكذا ظلّ «ببدول» حقيراً حتى في انتصاره، فهزيمته لقوات عمه التي خرجت لنجدة «ملقة» أطفأت ولاء أقرب الناس إليه، ورغم أن السلام عمّ مقاطعته وحركات التجارة فيها،

لكن روح الإباء والفروسية صدمت بهذا الصِّنف من الخنوع، وصار الناس في الأندلس رغم حب التغيير لديهم يتساءلون عن مدى إساءتهم بمكافأة هذا المحارب الملكي القديم مولاي «الزغل»، وصاروا يتداولون كم كان قاسياً ودموياً، لكنه مخلص لبلاده، وكان سفاكاً للدماء لكنه حافظ على مجد تاجه الذي أخذه ولو بدون وجه حق، وإذا كان قاسياً مع رعاياه، لكنه سيف من حديد على أعدائهم، أليس «ببدول» بمكانه يضحي بدينه وأصدقائه وبلاده، وكل شيء مقابل رضى العبد الذليل بسعادة أسياده؟!

ووصلت مثل هذه الكلمات إلى أذن «ببدول»، وراح يسمع أكثر منها ممن يخدمونه، فطار جزعاً، وأرسل إلى أسياده ملوك «قشتالة» يطلب المساعدة العسكرية كي لا ينقضَّ عليه شعبه، فنفذ «فردناند» هذا الطلب بكل كرم، لأنه يتلائم مع سياسته، فأرسل له قوة من ألف فارس وألفي راجل بقيادة دون «فرناندز غوانزاڤو أوف كورتوبا» الذي عرف بعد ذلك «بكابتن اسبانيا الأكبر»، وبعون هؤلاء طرد «ببدول» كل مناوئيه من المدينة، وأصحاب عمه. وشعر بالأمان وهو بحضن هذه القوات المختلفة بسلوكها ولغتها ودينها عن رعاياه، وهكذا باع كبرياءه، وساوم على شرفه بإدخاله غير الطبيعي لهذه القوات المعادية التي تذلّه لتحمي تاجه من عداء شعبه له.

ويبدو أن هذه الطبيعة الذليلة لم تكن من طبع «ببدول» وحده بين المتسلطين على تيجان المسلمين من الملوك، فقد وصلت سفن محملة بالنفائس إلى مرفأ «ملقا» المحاصر، وهي تعطي إشارات الاستسلام للحامية النصرانية المحاصرة هذه، لينزل منها سفير لملك «تلمسان» محمّلاً بالهدايا المشابهة لهدايا «ببدول»، وبها كل فاخر من الثياب العربية، مع القطع والمفروشات الذهبية، مع عباءات مغربية ثمينة للملكة، والأوشحة الفاخرة والثياب الحريرية والقلادات الذهبية والعطر العربي الثمين للملك.

إذ بعد أن عرف ملك «تلمسان» بفتح الجيش الاسباني السريع، وبظهور عدد من البوارج الصليبية على شاطىء أفريقيا، سارع إلى إعلان عبوديته لهم، لكي يضمنوا له الأمان على ملكه وتجارته، والحلف معهم لينصروه على من يناوئه على تاجه، وكذلك طلب منهم حامية عسكرية يمكنهم وضعها في بلاده بأي مكان أرادوا، أما أهل «ملقة» التعيسة فقد ساوم على قبولهم نازحين عنده، مقابل مثل هذه الخدمات.

فاستقبل ملكا «قشتالة» هذه السفارة بكل ترحاب، ووقعوا على طلب الحماية هذا، وأمروا ضباطهم احترام علم تلمسان إلا إذا ساعد العدو، وأرسلوا لهذا الملك «البربري» السلاح الملكي كهدية مع قطعة ذهبية بحجم اليد، واعدين بالمساعدة العسكرية.

وهكذا، وبضياع الأمل بالمساعدات الخارجية، وبنقص المواد التموينية، سيطر شبح المجاعة

على المدينة المقاومة، وصار الناس يأكلون خيولهم، ويموت بعض الناس جوعاً، والذي جعل هذه المعاناة غير قابلة للاحتمال، رؤيتهم السفن تأتي من بعض المسلمين بالمواد التموينية لأعدائهم، ففي كل يوم تنزل منها قطعان البقر السمينة، والغنم نحو المعسكر، وقد تكدّست أكياس القمح في وسط مخيم المحاصرين، وهي على مسافة رمية سهم منهم.

الفصل التاسع عشر

عربي يصر على تخليص «ملقة» من قوة أعدائها:

كان يعيش في جوار «غواديكس» من مملكة «تونس» شيخ عربي متقدم بالسن اسمه «ابراهيم الجربي»(*)، وكان يعتبر من أقطاب ذاك الزمن ومتصوفيه، وكان خفيف الشحم، دقيق العظام والملامح مما يضفي عليه منظراً كئيباً، خاصة وأنه يقضي معظم وقته بالتأمل الصوفي والصلاة، وممارسة شعائر الدين، حتى فني جسده وتألق عقله، فأشرق بالقرب من الله، وتعلق به المغاربة الأندلسيون كعادتهم بالتعلق بأمثاله من الرجال، الذين يعتبرونهم رجالاً ملهمين، يسمعون كل كلامهم كما لو أنه وحي من الله، ولذلك كانوا يلقبونه بالقديس أو القطب.

وكان لتداعي مملكة «غرناطة» أثره العميق على هذا الرجل، الذي رأى في ضياع تلك البلاد من حوزة الإسلام إلى الشرك مصيبة كبيرة، لذلك بارك الجيش الذي خرج من «غواديكس» لنصرة «ملقة»، لكنه حين ما لبث أن رآهم عائدين ممزقين يطردهم أبناء بلدهم، ذهب إلى بيته حزيناً ولم يعد يقابل أحداً.

وفجأة ظهر ثانية في شوارع «غواديكس»، وقد زاد تجرداً، لكن عينيه زادتا تألقاً، وهو بحال صوفي يتصور فيه أنه قادر على إنقاذ «ملقة» من خصومها دفعة واحدة، وأنه قادر على إحداث الذعر والفوضى في صفوف أعدائها، وهكذا راح يبشر الناس الذين التفوا حوله وهم يثقون بكلامه، وبايعه أربعمئة منهم على الموت في هذا السبيل وعلى السمع والطاعة له، وكان الكثير من هؤلاء من «العمرية» الذين يتشوقون لإنقاذ إخوانهم المحاصَرين هناك كجزء من حامية «ملقة».

ولذلك قطع الجميع شعاب الجبال الموحشة، يختبئون في النهار ويمشون في الليل فقط، لكي

(*) نسبة إلى «جربا» بتونس.

يتجنبوا الكشافة الصليبيين، إلى أن وصلوا إلى الجبال التي تشرف على «ملقة»، فنظروا إلى المدينة المُحاصَرة بطوق كامل من الخيام حولها من طرف شاطئها إلى طرفه الآخر، كما يغلق مرفأها صف من السفن التي تطلق مدافعها مع مدافع المحاصرين على البر بصورة مستمرة، والدخان يخرج من كل مكان دلالة على ضغط الحصار التام وهكذا مسح هذا الصوفي بعينيه كل المخيم بكل دقة من مكانه، ليرى أن مكان مخيم المركيز «أوف كاديز» هو أفضل أماكن اختراق هذا الحصار من جهة سفح المرتفعات، وعلى هامش شاطىء البحر، لأن المكان الصخري الذي يقع فيه، لا يسمح بحفر الخنادق.

وهكذا ظلّ هذا «الولي» مختفياً طوال اليوم، لينزل مع أتباعه في الليل إلى شاطىء البحر، دون أن يحدث أتباعه أي صوت، حتى يفاجئوا عدوهم في مخيمهم الذي سوف يخترقونه ليدخلوا المدينة.

وعند الغروب حين بدأت الوجوه بعدم التعارف، قام مع جماعته بهذه المحاولة اليائسة، إذ قفز البعض فجأة على الحراس، واندفع الآخرون إلى البحر للالتفاف، وبعضهم تسلق السواتر الترابية نحو المدينة، وكانت مبارزات انتهت بنجاج مئتين من هؤلاء بدخول بوابة «ملقة» فقط.

والولي لم يدخل مع هؤلاء، ولم يشترك في هذا الصراع، لأن لديه خطة من طبيعة أخرى، إذ ركع على ركبتيه ورفع يديه بالابتهال إلى الله في السماء وهو يصلي، وبعد انتهاء المعركة وبينما كان النصارى يبحثون عن الفارين في منعطفات الجبال حول موقع الهجوم، وجدوه فلم يحرك ساكناً وكأنه صنم ثابت، فأخذوه إلى المركيز «أوف كاديز» وهم بدهشة من أمره، وكان متشحاً «ببرنسه» أي عباءته المغربية، وهو ينظر بوحشية واهتمام إلى هذا الأمير.

ثم أخبره بأنه «ولي» مكلّف بما يفعل، لأنه كشف عليه المستقبل، وهنا سأله المركيز متى ستسقط «ملقة»، فأجابه بأنه يعرف حول أمرها كل التفاصيل، لكنه لا يستطيع أن يخبر بهذه الأسرار الهامة إلا الملك والملكة، ولأن المركيز لم يكن بأقل تطيراً من قادة عصره في ذاك الزمان، رغم وجود شيء غامض سري بهذا الرجل، ظن أنه يمكن التوصل منه إلى اتصال ما، اقتنع بإرساله إلى خيمة الملك والملكة، وذهب إلى هناك محاطاً بقوات كثيرة تقول: «ها هو قطب من أقطاب العرب ومتصوفيهم»، خاصة وأن الأخبار شاعت في المخيم بالقبض على «نبي عربي»؟! بسبب سذاجة الناس أيامها.

وكان الملك في قيلولته «سيستا» بعد الغذاء داخل خيمته، ورغم رغبة الملكة بلقاء هذا الرجل الغريب، أجلت مقابلته لياقة حتى يحضر الملك، فأخذ إلى خيمة مجاورة، كان فيها الدون «ألفارو أوف بورتوغال» و«دون بتريكس» مع عدد من الحضور، ولم يعرف هذا «الولي»

بماذا كانوا يتكلمون لجهله باللغة الاسبانية، وظن من فخامة الخيمة أنها هي الخيمة الملكية، خاصة من الاحترام الذي أبداه من أحضره إلى الدون «الفارو» الذي عنده امرأة ظنّها صاحبنا على أنها الملكة.

فطلب ماءً فأحضرت له جرة، وفكت يده كي يشرب، فلاحظت جارية الدون أن شيئاً ما بنظراته فابتعدت عنه إلى أقصى الخيمة، وبينما كان يتظاهر برفع الماء إلى شفتيه رمى «برنسه» وانقضّ ساحباً سيفاً كان يخفيه فيه، ومع سقوط الجرة من يده سقط سيفه بقوة على رأس «الدون الفارو» ليقع على الأرض شبه مفارق للحياة، ثم التفت إلى جاريته ليضربها ضربة مشابهة لم تصبها بسبب ارتباكه شقت الخيمة بجانبها ليقع السيف على الصخر في الأرض، فينكسر بعد أن أصاب طرفاً من ثوبها وقطعه.

فما كان من الحضور إلا أن هجموا عليه ليوثقوه لكنه قاومهم بشدة، فانقض عليه الحرس الذين رافقوه إلى هذا الخيمة، ومزّقوه إرباً.

فخرج الملك والملكة من خيمتهما بسبب الضجة في هذه الخيمة المجاورة، وحين وصلا امتلأا رعباً، لأن المحاولة كانت تقصد حياتهما، فأخذ الجيش جسد هذا «الولي» الممزق ووضعوه بعرادة وألقوه على المدينة، التي جمعت بقاياه كما تجمع بقايا القديسين، وحنطت بالحنوط والغسل بماء الورد، و«العمرية» حولها لتدفن بكل حزن في مرقد الشهداء، ورداً على قتله هكذا ذبح العمرية أسيراً مهماً من أسرى النصارى لديهم، ووضعوه على قفا بغل، وأطلقوه باتجاه المعسكر.

ولذلك ضاعف الملك والملكة الحرس حول خيمتهما، وصارا لا يقابلان أحداً دون التأكد منه، وبموعد مسبق مع حرسهما القشتالي والأراغوني فقط، ولم يعد يسمح لأي شخص أن يقف بين يديهما بسلاحه، ولم يعد يسمح لأي عربي بأن يدخل عليهما دون تدقيق بهويته وهدفه، أما إحضار أي مغربي إلى البلاط من غير السفراء والأمراء فصار ممنوعاً.

وشاع بين الناس إشاعات كثيرة حول ما سيفعله العرب بمُحاصِريهم كتسميم المياه لهم، وحرق مخازن سلاحهم من قبل المخبرين والكشافة العرب، لذلك طُرد كل هؤلاء، أو أخذوا ووضعوا بالحجز، حتى ومن كان قد أعلن نصرانيته وارتد عن الإسلام.

الفصل العشرون

كيف كان «حامد الذعري» يرفع من معنويات من معه بفن التنجيم؟!:

لقد كان هناك أفريقي أسود من أتباع المتصوف الذي حاول قتل ملكي «قشتالة»، وهو من الجماعة العمرية، وكان «درويشاً» يعتبره العرب رجلاً صالحاً، وحين دفنت رفات سابقه كشهيد تبوأ هذا الرجل مكانه، وصاروا ينظرون إليه على أنه وريثه الروحي. فرفع علماً أبيضاً كأعلام العرب المغاربة في الأندلس البيضاء المقدّسة، الذي كان يحتفظ به لهدف واحد منذ عشرين سنة، هو حسب ما كان يتنبأ به أن سكان «ملقة» سوف يخرجون تحته من حصارهم نحو معسكر الأعداء المشركين، مما جعل الجائعين في البلد يلتفون حول هذه الفكرة، ويطالبونه بقيادتهم لتحقيقها، لكن الدرويش أخبرهم أن الوقت لم يحن بعد ذلك لأن لكل حدث طالعه الذي تتقدّر أقداره فيه، فعليهم أن ينتظروا بصبر، حتى تظهر علامات الوقت المحدد لهذا الأمر، ولهذا الأمر أصغى «حامد الذعري»، وتحمّس أتباعه الذين كان لهذا الدرويش تأثير قوي عليهم، فأخذه «حامد» إلى معقله في «جبل فارو»، وراح يستشيره في كثير من الأمور، وعلّق علمه الأبيض على أحد أبراج حصنه، ليعطي سكان المدينة ما يشجعهم على الصمود.

أثناء ذلك كان الفرسان من كل اسبانيا يتجمعون أمام أسوار «ملقة»، لأن الجيش قد أرهقه العمل الدائم بحفر الخنادق، وحراسة نقاط التجمع في البر والبحر وعلى الجبال، وهو في صراع دائم، مما اضطر الملك إلى طلب التعزيزات من خيالة ومشاة نبلاء كل البلاد، الذين أسرعوا بما لديهم من قوة ومماليك خاصة كي يسدوا نقص المعسكر الملكي من الرجال.

ففي كل مدة كانت تقف في الميناء سفن ينزل منها علم مجموعة معروفة من الفرسان الاسبان، ليطلقوا من مدافعهم بعض القذائف على المدينة - إحدى وعشرين طلقة - تحية لمليكهم، كذلك كنت ترى الإمدادات بالعتاد والرجال وهي تأت بنفس الطريقة من البر، وهي

تنزل من الجبال على أصوات طبول وأبواق الحرب، ليتوجهوا نحو المخيم بدروعهم اللمّاعة، التي لم يعفرها بارود المعارك بعد.

وفي أحد الأيام، وبينما كانت السفن تظهر في الميناء بكل أنواعها من ناقلات ومدمرات وفرقاطات، وظهر أن عددها يفوق المئة من مختلف الحجوم، تبين أن ما يقابلها ممن يصل من البر يفوقها عدداً، وهم يطبلون ويزمرون دلالة على وصول قوات هائلة، راحت تتدفق بالتتابع إلى داخل المعسكر.

ووضعت هذه القوات الجديدة تحت قيادة دوق «أوف مدينا صيدونيا»، الذي صار بمثابة ملك صغير على هذه القوات الموالية كالمماليك له، لأنهم جاؤوا للتطوع والخدمة للعلم الملكي، إضافة إلى ما معهم من ذهب قدّموه للملك كقرض بقيمة عشرين ألف دبلة ذهبية، ليعطيه إلى «حامد الذعري» كي تحل المسألة، لكن «حامد» عاد إلى رفض المبلغ بكل إباء، رغم أن حصونه لا يمكنها أن تصمد ضد كل هذه الجيوش أطول من هذا، ولا أمل له إلا بمئة بالألف أن يقع على المحاصرين شر ما، أو حادث يفرّقهم، أو شدة برودة الطقس القادم، لذلك أشيع بأنه وأتباعه ينتظرون معجزة من هذا «الدرويش» لديهم.

لذلك اعتبر الأب «أنطونيو آغابيدا» أن هذا الرجل من الزنوج الممسوسين، أو من السحرة المغاربة العرب: «الذين يوجد مثلهم ما لا عدد له ـ كما قال ـ بين الطائفة المحمدية القذرة؟!» كما أكّد أن هذا الرجل بالذات قد تحالف مع أمير قوة الرياح، وتآمرا على تفريق قوة النصارى العسكرية، كما أكّد هذا الأب المحترم أيضاً أن «حامد الذعري» الذي وضعه بأعلى مكان من برج قلعته يشرف على فسيح من الأرض والبحر، لكي يتمكن من استعمال تمائمه على «اصطرلابه» وما لديه من أدوات شيطانية أخرى لإلحاق الهزيمة بالأسطول والجيش المسيحي، حين أي هجوم منهم على العرب.

ولهذا الأمر عزا سبب عدم قدرة القوات المسيحية، وما تكبّدته من خسائر فادحة، حين حاولت مع كوكبة من فرسان الحرس الملكي إسقاط برجين في ضواحي المدينة قرب بوابتها يسميان «زوجي أبراج غرناطة La Puerta de Granada»، وقد كانت هذه القوات بقيادة حامل أمانة وسر الملكة «روي لوبيز دو توليدو»، الذي استولى على ثم خسر هذين البرجين ثم دمّرها العرب بالنهاية، كذلك عزا سبب غرق باخرة، وما أصاب الأسطول المسيحي من تدمير حين هاجمته الطرادات الصغيرة العربية، كذلك حين انهزم هذا الأسطول يوم أغرقت له سفينة تخص دوق «أوف مدينا صيدونيا».

مما جعل قلب «حامد الذعري» يبتهج وهو ينظر إلى هذه الأحداث من علياء برجه في «جبل فارو»، معتبراً أن هذه الإصابة التي جرحت القوات المسيحية بسبب هذا الشيطان المغربي الذي يقف بجانبه، والذي كان يشير له بلعناته على المحاصرين النصارى في كل حقل تحته، طالباً منه تقوية عزيمته، وواعداً إياه بأنه: خلال عدة أيام سوف تمزق وتشتت الرياح كل هذا الأسطول القوي بأوامر من السماء، لكي يعود ويغزو تحت هذا العلم المقدس أعداءه، ويهزمهم في بلادهم، وتصير كل خيامهم غنائم له، وبذلك تثأر «ملقة» من محاصريها بنصر كامل، ولذلك صار قلب «حامد» قوياً كالصخر مثل «فرعون» آملاً بإنزال الهزيمة بكل الكاثوليك وجيشهم وكل قديسيهم المحاربين.

الباب الرابع

الفصل الأول

استمرار حصار «ملقة» وتدمير برجها من قبل «فرانسيسكو راميز دي مادريد»:

حين بدأ المحاصرون يرون أن سحر الفتنة قد بدأ ينالهم، صاروا يتقدمون نحو سور المدينة وهم يسقطون المراكز التي تمنعهم من هذا التقدم مركزاً بعد آخر، استعداداً للهجوم العام. وقد كان بالقرب من حاجز المدينة جسر تحمله أربعة أقواس، وعلى كل منها برج يحميه، ولا يمكن لقسم من الجيش حين الهجوم العام من بدٍ من المرور بهذه الأقواس، لذلك صدر الأمر إلى قائد قوات المدفعية «فرانسيسكو دي مادريد» أن يحتل هذا الموقع، وكان التقدم نحوه ملحمياً بكل معنى الكلمة، لأن مهاجميه سيكونون بوضع مكشوف، وهم عرضة للعدد الكبير من العرب المدافعين عن هذه الأبراج، لذلك عمد «فرانسيسكو» إلى التسلّل لتلغيم البرج الأول، وتمكن من وضع عبوة كبيرة وفتحتها نحو الأعلى تحت أساسات البرج مباشرة، ومدّ لها البارود الذي يمكنه أن يصلها حين إشعاله بأي وقت.

وعندما تمّ له ذلك تقدم ببطء مع قوته نحو الجهة المواجهة للأبراج، محتمياً بالدبابات حتى وصل إلى الجسر، حيث ثبت بعض قطع المدفعية للتعامل مع الأبراج عن قرب، فردّ العرب بقصف عنيف من مواقعهم، مما أفقد فاعلية إمكان اشعال فتيل العبوة التي تحت البرج الأول بسبب تقطيع البارود والممتد منها بالقذائف في حمأة المعركة، ولكن حين أشعل النصارى بعمل انتحاري العبوة، انفتحت الأرض ليطير قسم من البرج بمن عليه من العرب، والباقون فيه أصابهم الذعر من هذا الانفجار تحت أقدامهم، فتدافعوا مذعورين من البرج الباقي، والأرض تلفظ عليهم النار والدخان، بمعركة لم يشهدوا مثلها قبل الآن، وبمجرد أن أخلوا موقعهم اندفع النصارى للتمركز فيه ليبدأوا هجوماً آخر على الأبراج المحاذية له فوراً، والتي وصل إليها الفارون من هذا البرج، وهكذا راحت الأبراج الأخرى تطلق النار من البنادق الطويلة الثقيلة، ومن

الأسهم بالنبالة والقناصة على هذا البرج، كما أطلقت العرادات حجارتها لدرجة أن أحداً لم يعد يجرؤ على الاقتراب من الجسر.

ولهذا أعاد «فرانسيسكو» النظر بطريقة اقترابه بجعلها أكثف وأبطأ على شكل خطوة بخطوة، بينما كان العرب من الجهة الأخرى يغرقون الجسر بمدفعيتهم، وهكذا طالت المعركة، وصارت أكثر دموية، وأكثر شراسة من جهة العرب، ليتلقاها النصارى بصبر محافظ وبطيء، به ظلّوا يتقدمون عبر الجسر، وهم يدفعون عدوهم من أمامهم ليحظوا بالسيادة على هذا الممر الهام.

ولأجل تقدير هذا الجهد أمر الملك «فردناند» بعد ذلك، وبعد استسلام المدينة بإعطاء لقب فارس «لفرانسيسكو راميريز» بسبب هذه الأبراج التي أسقطها بشكل مشرف، وأفرد الأب المصون «آغابيدا» أكثر من صفحة لتحليل هذه الظاهرة غير العادية التي برز فيها اختراع نسف الأبراج بقطع صغيرة من الديناميت، التي اعتبرها أول حادثة تحدث في تاريخ استعمال البارود خارج إطار التعدين في المناجم.

الفصل الثاني

كيف قاوم أهل «ملقة» قناعات ومُسَلّمات «حامد الذعري»:

بينما كان الدرويش يدور على أسوار «ملقة» بآماله المستحيلة، كانت المجاعة تتفشى بين السكان بشكل رهيب، فالعمرية كانوا يعاملون المدينة وكأنها أرض عدوة غصبوها، يأخذون بالقوة كل ما يمكن أكله من بيوت السكان المسالمين، ويقتحمون الأقبية ويدمّرون أي مكان يظنون أن فيه غذاء. لدرجة أنه لم يبق حتى عند الأغنياء رغيف خبز يأكلونه، وحتى لحوم الخيل لم تعد متوفرة، فصاروا يأكلون ويشوون جلودها، ويطعمون أولادهم أوراق العنب المغلية بالزيت، فمات الكثير من الجوع أو من التسمم بالغذاء الرديء، إلى حد أن الكثير لجأ إلى معسكرات النصارى، وهم يفضلون الأسر على الرعب الذي هم فيه.

وأخيراً زادت معاناة الناس من غزاتهم ومن خوفهم من «حامد» والعمرية على حد سواء، فاجتمعوا أمام منزل «علي دردو» التاجر الثري وجيه البلد الذي يقع منزله على أعتاب هضبة «القصبة»، وطلبوا منه أن يمثلهم، ويتوسط لديهم لدى «حامد الذعري» كي يستسلم، من منطلق أن «علياً» رجل شجاع وسياسي داهية، يدرك أن الجوع قد فتك بالمواطنين بقدر فتك الجنود بهم من كلا الطرفين، فسلّح نفسه بغيره وذهب لكي يلعب هذه اللعبة الخطرة مع «السيد»، آخذاً معه فقيهاً يتستر به اسمه «ابراهيم الحارث»، ومواطناً معروفاً مرموقاً اسمه «عمار بن عامر»، وطلعوا إلى حصن «جبل فارو»، يتبعهم عدد من التجار الرعاديد؟!

وحين وصلوا لم يجدوا «حامداً» على عهده، بالحراسة التي تحيط به، ولا هو مجهز بأدوات الحرب، بل وجدوه في غرفة من غرف البرج، وأمامه طاولة من الحجر تغطيها عناصر وأشياء غريبة من أدوات السيمياء و«إصطرلابات» ومقاييس فلكية، إضافة إلى أدوات غير معروفة ملقاة في كل الغرفة، وبجانب «حامد» يقف الدرويش، الذي يبدو أنه كان يشرح له طبيعة عمل هذه

الأدوات الغامضة، مما جعل الجميع يعجب ويرهب حضوره، لأن الكل كان يعتبره شخصاً ملهماً.

فتكلم الفقيه «الحارث» بصوت جهوري موجهاً خطابه «لحامد» قائلاً: «لقد عيّناك باسم الله لا لتقاتل قتالاً يائساً يؤدي إلى دمارنا، بل للدفاع عن المدينة إلى أن تصلها النجدات، فكم من محاربينا قد سقط بالسيف، من أجل الجهاد، لكن الذين تقتلهم المجاعة من نساء وأطفال يطلبون كسرة خبز فلا يجدونها، ونحن نراهم يهلكون أمام أعيننا، بينما تتكدس الحنطة عند العدو على مرأى منا في وسط معسكره؟! فلماذا نقاوم ولأي هدف؟! وهل أسوارنا أمنع من أسوار روندا ـ رندة ـ التي دمرت أخيراً، مما اضطر محاربي الأقصى إلى الاستسلام؟! وهل نأمل بأي عون، ومن أين سيأتينا؟! لقد ذهب وقت الأمل، فغرناطة قد فقدت قوتها، ولم يعد فيها فرسانها، ولا قادتها أو مليكها، و«بيدول» مجرد «خول» ذليل في قاعات «الحمراء»، أما مولاي «الزغل» فطريد محصور في أسوار «غواديكس»، وهكذا فالمملكة منقسمة على ذاتها، وقوتها ضائعة بضياع كرامتها، مما يعني أن وجودها كله في مراحله الأخيرة، لذلك نستحلفك بالله وبالأمانة التي حمّلناك إياها بأن لا تتحول أنت إلى عدوٍّ لنا، وسلم هذه الخرائب التي كانت في يوم من الأيام اسمها «ملقة»، لتخليصنا من هذا الرعب الذي لا يطاق».

وبهذه الكلمة عبّر الفقيه عن معاناة سكان الأندلس كله، مما جعل «حامد» يستمع له دون غضب، خاصة وأنه ممن يحترم الفقهاء، لكنه كان بالوقت ذاته قوي المعنويات، واهماً حين قال: «صبراً لعدة أيام وستنتهي كل هذه الشرور، فلقد نظرت مع هذا الرجل ـ مشيراً إلى الدرويش ـ الفاضل وعلمنا أن طالع هذا السوء إلى زوال، فقد كتب القدر علينا أن نخرج للقاء العدو لندمّر معسكر شركه هذا، ونحصل على كل هذه التلال من الحبوب أمامنا، والموضوعة في وسطه، وهذه بشرى وضعها الله على لسان هذا «الدرويش»، والله أكبر على كل من طغى وتجبّر، ورفض إرادة السماء».

ولأن على المسلم أن لا يعارض قدره، خضع الوفد وعلى رأسه «علي دردو» الذي جاء كمنقذ للبلد، لأن رأي «الدرويش» كرجل إلهي من رجال الله لا يمكن الوقوف بوجهه، فالمتصوفة كانوا بمنزلة الأنبياء في ذاك الوقت، وأقوالهم وأحوالهم صارت كالوحي المنزّل، وكل من لا يصدقها يعامل كالكافر بالدين، لذلك عاد الوفد إلى سكان المدينة بالبشارة القادمة القريبة بعد عدة أيام، وحين ينزل العلم الأبيض من صارية البرج تظهر الإشارة بالخروج لملاقاة العدو، وهكذا عاد الناس إلى بيوتهم بقلوب حزينة، ليتلقاهم أطفالهم بصرخات الجوع، ومنذ ذلك الوقت وهم يرقبون ساعة بساعة نزول هذا العلم المقدّس الذي ظلّ يخفق فوق صارية «جبل فارو».

الفصل الثالث

كيف خرج «حامد الذعري» بالعلم المقدس للهجوم على معسكر الصليبيين:

قال الأب «آغابيدا»: «أن الساحر العربي ظلّ في حصنه مغلقاً على نفسه برج «جبل فارو» يستعمل كل «النراجيل» والوسائل التي تستدعي الشيطان لإيقاع الأذى وسوء الطالع بالنصارى، و«حامد» يستشيره يومياً لأنه كان يؤمن كغيره من المسلمين بهذا الصنف من السحر الأسود الذي يسمى تصوفاً، والذي أحضره الدرويش معه من سحرة المغرب ـ السحر المغربي ـ في أفريقيا.

ونحن من وصف «آغابيدا» لهذا الدرويش نلمس أثر التنجيم الذي كان قائماً على حساب أماكن تحركات الكواكب ـ طوالعها ـ على التصوف المغربي العربي الذي سيطر على المسلمين(*)، ولذلك كان يدرس الساعة والدقيقة التي تكون فيها مواقع النجوم بمكان يسمح بالنصر، من منطلق أن النجوم طوالع تؤثر في الإنسان وأحداث حياته منذ ولادته؟!

لكن المجاعة وصلت إلى حد أزعج حتى حامية «جبل فارو»، ورغم أن العمرية سيطروا على كل مأكول في المدينة، فقد مسّهم الجوع، مما دفعهم إلى القلق والاضطراب وعدم الصبر أكثر من هذا على تأخير الهجوم.

وبضغط من هذه الأحداث اجتمع «حامد» بمقدميه في أحد الأيام، ليدخل عليهم «الدرويش» فجأة وهو يقول: «لقد حقت ساعة النصر، فعليكم بإذن الله الخروج غداً للقتال، وسأحمل أمامكم العلم المقدس الذي سيجلب عدوكم إلى أيديكم، لكن تذكروا على كل

(*) بعد أن قاوم العقل كل هذه المقاومة ليسود النقل، وينتصر الذوق على الفكر، أي التصوف على الفلسفة، فيصير الدين تابعاً للتصوف، وأسيراً لأهواء المتصوفة، لا العلماء الفيزيقيين في الدنيا والشرع.

حال أنكم مجرد أدوات بيد الله بها يعذب أعداءه، فاذهبوا إلى المعركة بقلوب عامرة بالإيمان، وقد سامحتم بعضكم بعضاً على ما سلف من تنازع، فأهل الإحسان هم الذين سينصرهم الله على أعدائهم».

وتلقى المجتمعون هذه الكلمات بالفرح، مما جعل كل «القصبة وجبل فارو» يضجّان بصلصلة السلاح، وأرسل «حامد» لكل الأبراج والمواقع على السور من يختاره من المقدمين المتميزين لهذه اللحظة الحاسمة.

وفي الصباح طارت الشائعات في كل «ملقة» بأن العلم المقدّس قد أنزل من «جبل فارو»، واستفاقت المدينة لتشهد القوات التي ستخرج منها لتدمير الشرك، ونزل «حامد» من معقله محاطاً بمقدميه ومن أبرزهم «إبراهيم الزناتي»، ويتبعه «العمرية» والكل يتبع الدرويش وهو يلعب بالعلم المقدّس رمز النصر المكتوب أمامهم، فصاح الناس بعبارات الله أكبر... وهم يرمقون العلم يمر بينهم، وحتى «حامد» الذي ضايقهم كل هذه المضايقات كانوا يحيونه ويهلّلون له، على أمل أن يقدم لهم الفرج السريع بقوة جيشه، فغفروا له كل شيء إعجاباً بشجاعته، وهكذا امتلأ الكل بالخوف والأمل معاً، فخرج الشيب والأطفال والنساء نحو أبراج السور وأسطح المنازل ليراقبوا المعركة التي ستقرر مصيرهم.

وقبل أن يخرج الجيش للقاء العدو، ذكرهم الدرويش بالطبيعة المقدسة لمعركتهم، محذراً إياهم من ترك الالتفاف حول علمهم المقدّس سعياً وراء الأسلاب، أو أي عمل آخر لا قيمة له، كأخذ الأسرى، فعليهم الضغط بالتقدم إلى الأمام ليقاتلوا بكل شدة دون التخلي عن أي قطاع يحتلونه، ثم فتحت الأبواب له وخرج والجيش يتبعه بالاتجاه الصاعد نحو قطاع «الماستر أوف سانتيغو» و«الماستر أوف كالاتراڤا» وأطبقوا عليهما بشكل مباغت أدى إلى قتل وجرح عدد من الحرس، وحين وصل «ابراهيم الزناتي» إلى إحدى الخيام، وجد فيها عدداً من الصليبيين اليافعين النيام، فأشفق على شبابهم ولم يقتلهم لأنه فارس عربي مسلم شهم، واكتفى بضربهم بقائمة سيفه قائلاً: «إذهبوا إلى إمهاتكم»، وقال للدرويش: «لم أقتلهم لأنني لم أرَ في وجوههم شعراً».

لكن الإنذار أُطلق، فاندفع النصارى من كل القطاعات لكي يدافعوا عن محاصري بوابة المدينة، فوصلت قوات «دون بيدرو» وأخيه «دون ألونزو» لتنزرع بجانب «الماسبتر أوف سانتيغو»، وتحمل عن قواته عبء الهجوم، حتى تصل بقية التعزيزات، ووصلت قوات «دي مندوزا»، وأطبقت هذه القوات على «حامد» وقواته التي كانت تتوقع نصراً عجائبياً، وقاد «حامد» قواته بهجمات متكررة لكي يبعد النصارى عن باب المدينة قبل وصول مزيد من التعزيزات، وهو يقاتل قتال الأبطال، ولكنهم كانوا غالباً ما يضطرون إلى التراجع بسبب تضاعف قوات عدوه،

التي راحت تطلق النار بكثافة من كل بنادقها الطويلة، ولم يقدر العرب أن يلحقوا بصفوف مثل هذه القوات المتراصة المكدسة إلا القليل من التدمير، بينما كانوا هم بحد ذاتهم عرضة لمثل هذا الأمر، فسقط أفضل فرسانهم، إما قتيلاً أو ذبيحاً أو جريحاً، ورغم ذلك ظلّ العرب على حدة هجومهم يقاتلون على أمل النصر المتنبأ به لهم، حريصين على الثأر من قتلة فرسانهم وقادتهم.

فاندفعوا نحو موت محتم، وهم يقتحمون بجنون الخنادق والمتاريس الترابية والقوات المتراصة لصدّهم، ويسقطون بما يتساقط عليهم من رصاص ونبال ورماح بكثرة كالمطر، مما ملأ الخنادق بجثثهم التي تكدست فوق بعضها بعضاً.

وكان «حامد» يدور على المواقع علّه يرى ثغرة يهاجم منها، وحوله يتساقط خيرة فرسانه، ولأن «له عمراً كما يقال» كان رغم كثافة النيران والأسهم والمدفعية لا يصاب بأي أذى، لكنه ـ لثقته العمياء بكل نبوءات الدرويش، أو ليأسه من الحياة ـ كان يدفع بقواته إلى مزيد من الهجوم، أما «الدرويش» فكان يقفز كالمجنون بين الرصاص والنبال وهو يلوّح بعلمه، ويحمّس المسلمين بالتهليل بدل صرخات القتال، وأثناء ذلك أصابته صخرة من «عراد» دخلت في دماغه ليسقط بدون حراك.

وحين أبصر العرب ما حصل لدرويشهم حامل علمهم، وهو يتعفر بالتراب، أصابهم اليأس فانهزموا بشكل فوضوي نحو المدينة، و«حامد» يحاول منعهم، إلى أن غلبه حزنه على سقوط «الدرويش» فغطى انسحاب قواته المتراجعة، برجعات متعاقبة على متتبعيهم، وبذلك استطاع أن يتراجع بهدوء نحو المدينة.

أما سكان «ملقة» فكانوا يشاهدون كل هذا بقلق مرتجف، فقد رأوا كيف فرّ حرس المعسكر من أمام قواتهم أول الهجوم، فظنوا أن الله أعطاهم النصر الموعود، فأطلقوا تهاليل النصر، ثم بدأوا يرون ما يثير شكوكهم باستكمال هذا الهجوم نتيجة هذا التراجع الذي أعقبه تزاحم العدو على قواتهم ودفعها مراراً إلى التراجع، ومن فترة لأخرى كانوا يرون فارساً مشهوراً من فرسانهم صريعاً، أو يعود محمولاً إلى المدينة، أما حين سقط العلم المقدّس أخيراً وأعقبه تراجع كيفي للجيش نحو بوابة المدينة، والعدو في أعقابهم يمزقهم، فقد سيطر الخوف والجزع على سكان المدينة.

وحين دخل «حامد الذعري» المدينة تلقته نساء وأمهات وأخوات وأقرباء القتلى والجرحى بالصراخ والعويل، وهن يصببن عليه اللعنات حين يمرّ بينهن، إلى حدّ أن إحداهن رمت بأطفالها الجياع أمامه قائلة: «إدهسهم بحصانك فنحن لا نستطيع إطعامهم، ولا تحمّل صريخهم وبكاءهم الذي يقطّع أكبادنا»، وهكذا حمّله الجميع كل ما يحصل «لملقة».

وشارك في هذه الانتفاضة الشعبية عليه النازحين الذين وصلوا إلى «ملقة» من القلاع الجبلية، وهم شبه جنود مزّقهم وحرق قلوبهم معاناة عائلاتهم المستمرة من اللجوء إلى مدينة فأخرى.

لقد شعر «حامد الذعري» باستحالة تحمّل عويل النساء، ولعناتهن حين يقترب منهن، وأن مهنته العسكرية قد شارفت على نهايتها، خاصة وأن معظم ضبّاطه المحاربين من الجماعات الأفريقية بخدمته قد وقعوا ضحايا هذه المذبحة الكارثية، فترك المدينة كي يقرر أمرها مجلس شورى من أعيانها، وذهب مع فرسان العمرية الباقين معه إلى الاعتصام بقلعة برج «جبل فارو» معقله القوي.

الفصل الرابع

كيف سقطت مدينة «ملقة»:

لأن أهل «ملقة» لم يعد لهم أي حاجة «بحامد الذعري»، ولاهم يدينون بأي شيء له أو «لعمريته»، عادوا ليلتفوا حول «علي دردو» ليضعوا مصير مدينتهم بيد هذا التاجر، نظراً لحاجة البلد إلى صفقة تخرجها من ورطتها، خاصة وأن سيد القصبة صار يميل إليه أيضاً، كما أنه حظي خلال الفوضى السابقة على ولاء حصون مهمة في أبراج البلد، مقوياً نفسه بالتحالف مع الفقيه «إبراهيم الحارثي» مع أربعة من رؤوس الحل والعقد في المدينة، وأرسل الجميع طلباتهم إلى القصر المسيحي، عارضين استسلام المدينة ضمن شروط محددة، تحمي بموجبها أموال وحياة السكان، وأن يبقوا كأهل ذمّة أو موالي للنصارى، إما في «ملقا» أو أي مكان آخر في الأندلس.

وحين وصل وفد أهل الحل والعقد هذا إلى معسكر «فردناند» وأعلنوا عن الهدف من قدومهم، ردّ عليهم «فردناند» بكل تكبّر: «أن أرجعوا إلى أهل بلدكم، وأخبروهم بأن أيام المنة والشفقة قد ذهبت، فدفاعكم اللامجدي اضطرنا إلى إسقاط بلدكم بكل الوسائل، فعليكم الاستسلام بدون شرط الآن، والخضوع لقدركم بأن تدمروا، فمن يفضل منكم الموت سيلاقي الموت، والذي سيقبل بذلّ الأسر سيعاني منه».

وقد أوقع هذا الردّ القاسي الفوضى في المدينة، لكن «علي دردو» أكّد للجميع أنه سيذهب بنفسه لكي يسأل عن شروط يمكن قبولها، وحين رآه أهل المدينة يخرج لهذا الغرض مع جماعته من وجوه البلد والتجار، تأكدوا أن الملك المسيحي سوف يصغي إلى رجل مثل «علي دردو».

لكن «فردناند» رفض حتى مقابلته قائلاً: «أرسلوه مع جماعته إلى الجحيم»، وأكد لقائد جيش «ليون» أنه لن يراهم، وبضرورة عودتهم إلى بلدهم كي يحكم فيهم السيف بلا رحمة، ويمحوهم من وجه الأرض.

ولكي يؤكد أقواله هذه أمر بفتح كل بطاريات مدفعيته على المدينة، وهكذا صارت هذه المدافع الثقيلة تزأر من المخيم لتصب رعد قذائفها على المدينة، وتلحق بها الأضرار الفادحة.

وهكذا عاد «علي دردو» إلى المدينة مدحوراً مخذولاً، وحتى أنه لم يسمع بوضوح عبارات طرده من المعسكر من شدة أصوات المدافع، وما يرافقها من سقوط الأبنية وعويل النساء والأطفال، وهكذا خاب رجاء أهل البلد بقلة اعتبار ممثلهم الذي يحترمونه، وتساءل المحاربون فيها بدهشة عن تدخل هذا التاجر في شؤون الحرب بين جيشين متقاتلين، فالعدو عدو بيده سلاح، وليس رجلاً يمكن التفاوض معه بصفقة تجارية.

لذلك أرسلوا إلى الملك يطلبون منه الحفاظ على حياتهم كي يسلموه البلد، وأن يخرجوا منها أحراراً، وإذ رفض طلبهم هذا سيشنقون على أسوار المدينة ومواقع القتال فيها ألف وخمسمئة أسير نصراني من الرجال والنساء، وسيودعون كل أطفالهم وشيوخهم ونساءهم في القلعة، ليشعلوا النار بالبلد، ثم يخرجون للقاء الصليبيين بسيوفهم ليقاتلونهم حتى النهاية، وبهذه الطريقة سيربح الاسبان نصراً دموياً يسجله التاريخ عاراً عليهم على مدى الدهر.

وعلى هذا الردّ القاسي أجاب «فردناند»: «إن جرح أي أسير مسيحي يعني أنه لن يبقى أي عربي مسلم بعده في «ملقا» بدون أن يضع السيف على رقبته».

واجتمع مجلس «ملقة» لدراسة هذه التطورات، وظهر اختلاف حادّ بين أعضائه، وكان المحاربون يميلون إلى الحل الإنتحاري كنوع من الثأر، ولكن الكل كان ينظر إلى أطفاله ونسائه بألم، رغم أن الموت أفضل من رؤيتهم بذلّ الرق، وهكذا وبالتدريج مال الناس بدافع حب الحياة نحو البقاء بدل الانتحار اليائس، فاختار «علي دردو» ـ على أنه الأكثر نفوذاً في هذا المجلس، وكلمته مسموعة أكثر من سواها ـ أربعة عشر مواطناً يمثلون أربعة عشر منطقة من مناطق المدينة وأرسلهم إلى المعسكر ومعهم رسالة طويلة مدبجة بكل عبارات التزلف والتذلّل.

وعلى هذه الرسالة انقسم الرأي في معسكر الصليبيين، فقسم من الفرسان يريد أن يعصف «بملقة» جزاء لها على إطالة الحصار، ومقاومتها التي سببت الموت للكثير من أقربائهم ورفاقهم، وهي المعقل العربي القوي الذي منه خرجت القوات التي دمرت النصارى بين جبال «الأقصريقا»، وأسرت الجيش الصليبي هناك، وباعتهم كعبيد في أسواقها، وهذه المدينة تمثل أيضاً قدوة للكثير من البلاد العربية التي يجب أخذها(*)، لذلك يجب أن تكون عبرة لمن اعتبر،

(*) من الآن فصاعداً.

لمنع أي مقاومة في المستقبل للجيوش الصليبية، لذلك يجب وضع كل سكانها تحت السيف!!

لكن «إيزابيلا» كانت تخشى على نصرها أن تلوّثه القسوة، رغم أن «فردناند» لم يكن يثنيه أي شيء عن رفض أي شرط مسبق للاستسلام، وظلّ مصراً على الاستسلام بلا شرط ولا قيد، مما أوقع أهل «ملقة» بيأس مطبق، فهم بين فكي المجاعة من جهة والموت أو العبودية من جهة أخرى، وتحمّس المحاربون منهم ورجال السيف إلى أن لا يقعوا بهذين الخيارين، بل أن يبرزوا لميتة مشرفة تستأهل مجد الأندلس، بعد أن يزيدوا من غيظ عدوهم كي يفتك بهم بقتل أسراهم من النصارى كي يدمّرهم ولا يسترقهم، فتصايحوا لوضع النساء والأطفال والشيوخ في القلعة أو لقتلهم، ثم إشعال المدينة، والخروج للقاء العدو الصليبي.

لكن «علي دردو» استطاع بصبر وبطء من إيصال رأيه مخاطباً السكان وكل من له عائلة منهم بقوله: «ليمت بالسيف من يريد الحياة به، أما نحن فسنلجأ إلى ومضة الشفقة التي يمكن أنها لازالت عند ملوك النصارى، حين سيستولون على أطفالنا وعائلاتنا، إذ يقال أن عند ملكتهم بعضاً من الشفقة».

وبِذُلِّ مثل هذا اليأس تحركت عواطف الأمومة والأبوة عند أرباب أسر «ملقة»، وأنابوا «علي دردو» عنهم كي يسلّم المدينة لرحمة ملكي «قشتالة».

فراح هذا التاجر جيئة وذهاباً، عبر اتصالات عديدة أجراها مع «فردناند وإيزابيلا»، طالباً عطف من يلمس في قلبه رحمة من الفرسان كي يتعاطفوا معه، مرسلاً الهدايا الثمينة للملك والملكة من أنفس البضائع الشرقية، من ذهب ومجوهرات وأحجار ثمينة وقطع من العطور ـ الند والعود ـ وأشياء أخرى نادرة من أفضل ما ادّخره عبر رحلاته التجارية الكبرى إلى الشرق، إلى أن تمكّن من التقرّب من الملكين، ولكنه كان يعرف أنه لا يستطيع أن يحظى بأي شيء للمدينة، لذلك تصرّف كرجل واقعي تاجر وخسيس، لكي ينجو هو ومن معه ومن يلوذ به بأنفسهم.

وكان سلوكه هذا منذ أول محاولاته لإخضاع المدينة، وكان رجال الشرف والحرب يمنعونه من تحقيق أغراضه على حساب حياتهم وشرفهم.

وحين قبل الملكان هدايا «علي الدردو»، لم يعودا يستطيعان رفض مطالبه الشخصية، فأعطياه عفواً له ولأربعين عائلة يختارها ليبقوا في «ملقة» كمسلمين «خول» يتبعون شعائرهم ويمارسونها، وبمجرد أن حظي «دردو» بذلك ترك عشرين من أهل الحل والعقد كي يبقوا رهائن في معسكر الأعداء، حتى يتم تسليم المدينة كلها للنصارى.

وهكذا دخل المدينة «دون غويتري دي كاردييناس» قائد جيش «ليون» على ظهر حصانه

واستلم المدينة مع قواته باسم ملكي «قشتالة»، وتبعته قوات المشاة، ثم القادة مع الفرسان، وبعد قليل رفع علم الصليب مع علم «سانتيغو» والأعلام الكاثوليكية على صارية برج القصبة، وبمجرد أن ظهرت هذه الأعلام هناك، ركعت الملكة وحاشيتها وكل أفراد البلاط لإعطاء الشكر لمريم العذراء وسانتيغو على هذا النصر العظيم للإيمان، بينما كان البيشوب الأكبر يغني مع جوقته من الآباء والرهبان الحاضرين والشمامسة في كنيسة الملكة أغنية النصر على الإسلام «Te Deum» وبالاسبانية: «Te Deum Laudamus» أي المجد للصليب في السماء «Gloria in Excelsis» ولا للإسلام أو الهلال.

الفصل الخامس

تحقق نبوءة الدرويش ومصير «حامد الذعري»:

وبمجرد أن استسلمت المدينة طلب سكانها الإذن بأن يسمح لهم بشراء الخبز لأنفسهم ولأولادهم، من أكوام الحنطة التي كانوا يحدقون بها طوال مدة الحصار وهي مكدسة في منتصف مخيم النصارى، وحين سمح لهم بذلك بعد توسلات، انطلقوا بكل شوق الجياع وتدافعهم وصراعهم للحصول على الدقيق، فكان منظراً مؤسفاً أن ترى مثل هذا الصراع المرتد نحو رغيف الخبز.

وقد استغل الأب «آغابيدا» هذا الموقف للقول: «بأن نبوءة الدرويش قد تحققت بهذه الطريقة، لأن النبوءات الكاذبة أحياناً تتحقق، لكن لا كما يرجو منها أصحابها، وتحققها يحصل دوماً عبر اختلاطات من يؤمنون بها، ألم يقل هذا الساحر العربي بأنهم سوف يأكلون من هذه الحنطة، لقد أكلوا منها بكل ذلّ الهزيمة وقلوبهم تتحرّق بالأسى».

أما «حامد الذعري» الذي كان ينظر إلى كتائب النصارى وهي تتدفق نحو المدينة، من برج «جبل فارو» فقد كان يشعر بالقهر، وقد اسودّت الدنيا أمام ناظريه، خاصة حين أُنزل الهلال، ليرفع الصليب كعلم للقلعة، لذلك قال: «لقد وضع أهل «ملقة» ثقتهم بتاجر باعهم بنجاته، أما نحن فلن توضع بأيدينا وأرجلنا الأغلال، لنكون جزءاً من صفقته، فحولنا حصون منيعة، وأسلحتنا قوية بأيدينا، فلنقاتل حتى ندفن تحت هذه الأسوار لجبل فارو، أو نخرج منها نحو المشركين الذين يدنّسون شوارع «ملقة» بالموت الزؤام».

وعلى كل حال انخفضت روح العمرية القتالية رغم هذه الأقوال، فهم معرضون للموت تحت الردم إذا عُصِفَ بمعقلهم، كما أن المجاعة تتحرك ببطء نحوهم لتوهن قواهم مهما ارتفعت معنوياتهم، ولتعصف بأرواحهم عصفها بأجسادهم، لذلك كانوا على وشك الاستسلام.

وكان صعباً على روح الإباء عند «حامد» الرضوخ لشروط أي استسلام أو طلبه، وهو يعرف أن دفاعه المستميت هو الذي يرفعه بعين الناس والفرسان، فإذا كان «دردو» قد فاوض كتاجر، فهو لن يستسلم إلا كمحارب، لذلك أرسل إلى «فردناند» عارضاً عليه تسليم قصره لكن بمعاهدة منفصلة، فأجابه الملك القشتالي بكل زهو وعجرفة قائلاً: «أبلغوه بأنه لن يحظى بأي شرط مختلف عما أعطيناه إلى سكان «ملقة»».

وهكذا ظلّ «حامد» معتصماً بمعقله لمدة يومين بعد أن سقطت المدينة بيد النصارى، ولكنه اضطر إلى الاستسلام أخيراً، لينزل مع جنوده الأفارقة الأشاوس وقد عضّهم الجوع، وأنهكهم الترّقب، لكن عيونهم لازالت تلمع بالبأس، لدرجة أنهم كانوا يبدون بالنسبة لأعدائهم كالشياطين لا كالرجال، فسيقوا جميعاً نحو العبودية عدا «ابراهيم الزناتي» الذي أظهر رحمة حين تمكن من قتل شبان صغار من جنود الاسبان، فاعتُبر عمله هذا عملاً فروسياً عند فرسان الاسبان الذين امتدحوه بأنه: «وإن كان عربياً في دمائه، لكن قلبه قلب مسيحي كبير».

أما «حامد الذعري» فقد سئل عن سبب شدة مقاومته هذه، فأجاب: «حين أخذت القيادة نذرت نفسي للقتال من أجل عقيدتي والدفاع عنها، بقدر الدفاع عن رعيتي وأبناء وطني وملكي حتى الأسر أو الموت أو النصر، وعلى هذا كنت أطلب من الرجال أن يقفوا معي، ولقد كان الأجدر بي أن أموت وأنا بيدي السيف من ذلّ هذا الاستسلام، لولا المجاعة».

وقد فسّر المحترم «آغابيدا» هذا على أنه: «نتيجة الحقد الشيطاني وعناد هذا اللامؤمن ضد قضيتنا المقدسة، فكان على العقل الراجح لمليكنا الكاثوليكي أن يوقع عليه الجزاء العادل الذي يستحقه، لذلك أمر «فردناند» بأن يوضع بأغلال ثقيلة، ويلقى به في زنزانات التفتيش».

الفصل السادس

كيف تثبّت ملكا «قشتالة» مركزهما في مدينة «ملقة»، وكيف أظهر الملك «فردناند» مهارته في المساومة مع السكان من أجل فديتهم:

كان أول أولويات الفتح البحث عن الأسرى النصارى، وقد وجد منهم ألف وستمئة أسير بين رجل وامرأة، ومنهم رجال ذوي مناصب رفيعة قد قضوا بين العشر والخمس عشرة سنة بالأسر، وكثير منهم كانوا يعملون خدماً للعرب، أو عمالاً، كما قضى بعضهم وقته تحت ثقل أغلاله في السجون، وهكذا تمّت التجهيزات للاحتفال بخلاصهم من رق العبودية بهذا النصر المسيحي الكاسح، فنصبت خيمة غير بعيد عن المدينة، وفرشت بكل بهيّ من الأثاث على هيئة كنيسة، حيث سيستقبل الملك والملكة هنا هؤلاء الأسرى النصارى، الذين خرجوا من المدينة، وساروا نحو هذا المكان بخضوع المؤمنين، وبعضهم لازال يرسف بالأغلال، وقد أهزلتهم المجاعة، وطالت لحاهم بوجوههم الصفراء من القتر وطول السجن، وهم عندما وجدوا أنفسهم محاطين بأبناء بجدتهم، وقد عادوا إلى الحرية، ظنوا أنهم بحلم، وجزع بعضهم فلم يقدّر الموقف، لكن معظمهم كان يبكي من الفرح، لدرجة دفعت الدموع بعين كل الحضور بسبب هذا المشهد المؤثر، وقد التفوا حولهم وهم يخرجون من البوابة التي تسمى بوابة «غرناطة» يغنون غناء الشكر للرب بهمهمة كالأزيز.

وعندما وصل هؤلاء الأسرى إلى الملك والملكة ركعوا، وحاول الكثير منهم تقبيل قدميهما، لأنهما المخلصان لهم، لكن الملكين تظاهرا بمنع مثل هذا الذلّ، وقبلا بتقديم يديهما لهم كي يقبلوها، ثم ذهبوا إلى الكنيسة تحت الخيمة للصلاة للرب وشكره على خلاصهم، وعندها أمر الملكان بأن تزال القيود عن هؤلاء، وقُدِّم لهم الطعام، فأكلوا وشربوا ثم قُدِّم لهم المال الكافي وكل التسهيلات التي تمكنهم من السفر بكل سرور إلى بلادهم.

وبينما أسرف المؤرخون بوصف تفاصيل هذه المشاهد التي تطيّب الخواطر، عادوا إلى وصف

مشاهد من طبيعة مختلفة على نفس هذا المسرح للأحداث، فقد وُجد أيضاً اثنا عشر مسيحياً ممن تحوّل عن دينه للإسلام، وراح يعمل كمخبر أثناء الحصار، فأوقعت على هؤلاء كل أصناف العقوبات البربرية، فربطوا بأخشاب أمام الناس في الساحات، لتجرها الخيول التي سحلتهم بين أرجل المشاهدين، إلى أن ماتوا من جراحهم بشكل مزرٍ، كما وضعت المحارق العامة من قِبل محاكم التفتيش، وعليها تمّ شواء وحرق من عاد إلى الإسلام بعد أن أعلن نصرانيته، ولجأ إلى «ملقة» خوفاً من «المفتشين»، وعلى هذا الأمر علّق مؤرخ يسوعي بقوله: «إن هؤلاء وما حلَّ بهم هو لإلهام المنتصرين بإقامة الاحتفالات المسرّة، دلالة على مدى ورع ملوكنا».

وهكذا طهّرت المدينة من المشبوهين، ومن كل رائحة علّقت بها قبل الحصار، فتوجه البيشوب والكهنة الذين كانوا برفقة الملكة نحو المسجد الجامع في المدينة ليحوّلوه إلى كنيسة، تحت اسم «القديسة ماريا دي لا إنكارنيشن» ـ أي المشخصة ثانية ـ وعندها دخل الملكان بصحبة كاردينال اسبانيا الأكبر، ورؤوس النبلاء والفرسان، ليحضروا قداساً في هذا الجامع، ثم طوّرت هذه الكنيسة إلى كاتدرائية «ملقة» بعد ذلك، وصار لها بيشوباً وألحقت بها الكنائس في باقي القرى المجاورة.

أما الملكة فقد سكنت «القصبة» مع حافظ سرها «روي لوبيز»، حيث ينعمان معاً بمنظر يشرف على كل المدينة، وعلى ساحة القصبة التي ستكون مكان بؤس «ملقة»، بينما تمركز الملك ووضع مركز قيادته في قصر «جبل فارو».

وبعد أن استوطن الغزاة في المدينة، صار من الضروري بحث أمر أسراهم من العرب، وكان قرار التفتيش الأول بهذا الشأن هو بجعل كل من لجأ إلى المدينة من غير أهلها من العرب عبيداً، وتمّ تقسيمهم إلى جماعات ثلاثة:

الأولى: لكي تخدم الرب بخدمة أبنائه النصارى، إما في مملكة «غرناطة» أو بأي مكان آخر.

والثانية: تعطى لمن ساعد في الفتح من الجيوش المسيحية اللااسبانية حسب رتبهم.

والثالثة: للبيع في الأسواق، ويعطى ريعهم إلى حضرة البابا «إينوسنت الثامن»(*) ويساقون باحتفالات النصر في شوارع روما قبل بيعهم.

وبناءً على هذا تمّ إهداء ملكة «نابولي» بإيطاليا خمسين سيدة مسلمة كرقيق لها، لأنها أخت الملك «فردناند»، كما أرسل فردناند ثلاثين سيدة أخرى إلى ملكة «البرتغال»، و«إيزابيلا» راحت تهدي أجمل الأسيرات إلى العاملات في بلاطها ونبلاء ونبيلات «اسبانيا».

(*) اسمه يعني البريء.

أما اليهود الذين كانوا من مواطني «ملقة» فقد علق بحصارها منهم أربعمئة وخمسون شخصاً، معظمهم من النساء الذين فرَّ عنهن أزواجهن مع بداية الصراع، وكن يلبسن الزي العربي المغربي للنساء ولغتهن العربية، فقد فداهن ثري - مرابي - يهودي من «قشتالة» كان مسؤولاً عن تحصيل الأموال الملكية وريعها من يهود اسبانيا، موافقاً على تدبير مبلغ عشرين ألف «دبلة أو بيزتوليس» ذهبية بوقت قصير. أما الأموال التي نهبت من أهل «ملقة» مع مجوهرات نسائها فقد تمّ إرسالها إلى «قشتالة» بحراسة فرقتين عسكريتين - دلالة على عِظم كمَّها -.

وبعد نهب كل سكان البلد، وضع الباقون منهم أمام خيارين: إما البيع في الأسواق كرقيق، أو أن يفدوا أنفسهم في فترة قصيرة من الزمن من أموال أقربائهم خارج «ملقة»، أو أي مكان آخر، ولهذا الأمر نصح مستشارو «فردناند» مليكهم بأن الكثير من هؤلاء العرب قد أخفوا أموالهم ومجوهراتهم في الآبار أو الجدران أو الأرض، مما يعني أنه قد خسر الكثير من الغنائم، لذلك إذا حدّد قيمة الفدية على أساس ضعف تقدير ما يملك كل فرد، سيربح هذه المدخرات وضعفها بدل ضياع كل شيء، والرقيق لا يساوي جهد بيعه، فسرّ الملك كثيراً لهذه النصيحة، وأعلن قبول الفدية من كل السكان تكرماً منه؟! على أن تكون بقيمة ثلاثين «دبلة أو بيزتوليس» ذهبية على كل شخص، ذكراً كان أم أنثى، طفلاً كان أم شيخاً، على أن يدفع الناس قسماً منها من كل ما يملكون من مجوهرات وحلي فوراً لتحسم لهم من المبلغ، ويدفع الباقي خلال ثمانية شهور، وإلا فلا قيمة لما أعطي اليوم، أما إذا مات أي شخص خلال هذه المدة، فيظل ورثته مسؤولين عن تسديد باقي المبلغ، وإلا فسيعامل من لا يفعل هذا ويعتبر عبداً مملوكاً.

وعلى أمل هذا الوعد بالحرية اللامنظور عاش هؤلاء البؤساء العرب، ضمن أقسى شروط العيش، التي فرضت عليهم، وقد سجلت كل أسماء المواطنين بكل بيت وعائلة، وأخذت نفائس بيوتهم، وختمت ضمن صناديق وعليها أسمائهم، وأمروا بحملها إلى القصبة في فناء الحصن الداخلي الذي تحيط به الأبراج، وهو المكان نفسه الذي كان يجمع فيه أسرى النصارى حتى وقت بيعهم كالقطعان في الأسواق، كما أجبر المسلمون على ترك بيوتهم، وكل مجوهرات نسائهم التي أخذت منهن، وتمّ تفتيشهم للتأكد من أنهم لا يحملون معهم شيئاً إلا وتركوه في تلك الصناديق.

وهكذا كنت ترى الشيوخ والأطفال والنساء والحسناوات ورجال العائلات الثرية وأهلهم، محمّلين بالصناديق نحو القصبة وهم يتركون بيوتهم ليعودوا بأيدٍ خاوية الوفاض، ويقفوا في الشوارع والأزقة داخل القصبة، بعيون دامعة تنظر إلى السماء بتضرّع، وقد حكم عليهم أن يتشردوا في البلاد، دون أن يعرفوا عما حلّ بأهلهم الذين بيعوا في الأسواق، أو تبادلهم الأثرياء

النصارى كهدايا وأقنان، وقد حيل في كثير من الأحيان بين الأم وطفلها، كما تتفرّق الأرواح عن أبدانها، أو اغتصبت طفلة أمام ناظر أبويها في زوايا الشوارع المعتمة للقصبة(*)، وهكذا مزّقت عائلات عن بعضها لكي لا تجتمع ثانية مدى الدهر، الأبناء عن آبائهم، والنساء عن أزواجهم، والأمهات عن أطفالهم، وحزنهم وألمهم هو مجال سخرية أعدائهم النصارى، ودافعٌ لهم كي يعتدوا عليهم أكثر، من منطق أن الخضوع يزيد من شراسة الغالب. يا «ملقة» من يقدر أن يرى ما حصل بك دون أن تغرورق عيناه بالدمع وبالحزن المرير المؤلم؟!

وبعد سقوط «ملقة» بقي حصنان على شاطىء البحر هما «المقصاص وأسوان»، وكانا يضايقان معسكر النصارى ويهاجمانه بين فترة وأخرى، فأرسلت لهما كوكبة من الفرسان هددت سكانهما ما لم يستسلما فوراً، فطالبا بالشروط نفسها التي أعطيت «لملقة» على ظن أنها تضمن حرية الأشخاص وأمن الممتلكات، فأعطوا الضمانة، ونقلوا إلى «ملقة» مع كل ممتلكاتهم ومتاعهم المحمولة، وهناك وجدوا أنفسهم أسرى، وعلى هذا علق الأب المصون «آغابيدا» بقوله: «لقد كان الملك «فردناند» عند قوله، بأن وضعهم مثل سكان «ملقة» بالقصبة ليشاركوهم مصيرهم الذي طالبوا به».

وهكذا ظلّ هؤلاء التعساء كلهم يزدحمون في القصبة وشوارعها الضيقة وساحاتها كقطعان من الغنم، إلى أن يتم ترحيلهم بالبر والبحر إلى «أشبيلية» ويوزعوا هناك بين المدن والقرى، لتأخذ كل أسرة مسيحية واحداً أو أكثر منهم كعبيد لها، حتى تنتهي مدة دفع الجزية، فتعطى الأسر التي استرقتهم الإذن بإبقائهم عبيداً عندها، وعن كل أسرة عربية أسيرة يذهب فرداً واحداً من أفرادها إلى مملكة «غرناطة» ليجمع الفدية لكي يشتري حرية باقي أسرته من الأسر، ولكن هذه المملكة كانت في الواقع قد أفقرت إلى حد استحالة أن تدفع أي دية، أو يستمع الناس فيها إلى أي مطلب من هذا النوع، ولذلك انتهى الوقت المحدد دون أن تكتمل جزية أي فرد، وكل أسرى «ملقا» بلا استثناء، أي حوالي خمسين ألف إنسان صاروا عبيداً، وعلى هذا لم يعلق الأب الفاضل الأب «آغابيدا»، كما لم يبرر فعلة أسياده ملوك قشتالة هذه، ولاذ بالصمت عن سرقة نصف الدية من ملوك الكاثوليك، مع حيازة أرواح ومقادير أسراهم كجزء من صفقة الغبن العلجية هذه، لتسجل على أنها من أهم وأعظم انتصارات ملكي الكاثوليك، والتي رفعت «فردناند» عند البابا إلى منزلة الفاتح العظيم، الذي يستطيع ربح النصر، لكنه يتعمد الخطأ في تدبير شروط نتائجه، وعلى هذا غضّ التاريخ المسيحي نظره.

(*) والملكة تسكن في القصبة مع خليلها، وتسمع صريخ الضحايا.

الفصل السابع

كيف تهيأ «فردناند» لنقل الحرب إلى باقي مناطق الأندلس الإسلامية بعون محاكم التفتيش:

سقط إلى الآن القسم الجنوبي من مملكة «غرناطة»، وصار ميناء هذه المملكة «ملقا» بيد المنتصرين، كذلك سكان الجبال في «السيرا دي روندا» الأشداء والمناطق الجبلية الأخرى كانوا قد فقدوا معاقلهم، وجُرِّدوا من سلاحهم، ليحوَّلوا إلى موالٍ وأقنان للنصارى، فقلاعهم العالية التي كانت مسيطرة على وديان الأندلس لمدة طويلة، يخفق عليها الآن علمي «قشتالة وأراغون»، وأبراج مراقبتهم التي كانت كناية عن عيون هؤلاء النسور الجبلية التي تنقضّ على المشركين، هي الآن مدمّرة أو محروسة بحاميات عسكرية كاثوليكية، ولذلك قال فاضلنا الموقر «آغابيدا»: «إن ما يميز ويرفع من شأن هذا النصر العظيم أنه زُيِّن بالسيطرة السماوية من خلال الأديرة والكنائس وخلوات العبادة التي سيطرت على كل حصن ومعقل، لتحمي هذه المعاقل بجنود الدين الروحيين كحرس لمعاقل الإيمان المأخوذة هذه، لذلك كانت الجبال تضج بعد إسقاط أبراجها بأجراس الكنائس التي تصدح من هذه الأبراج، داعية إلى الصلاة كل صباح، أو مرتلة من أجل صلاة المساء».

وهكذا بينما كان هذا الجزء من المملكة يستعاد بالسيف المسيحي، كان قلب الأندلس الإسلامية في مدينة «غرناطة» وملحقاتها خاضعاً بعبودية لملكي الكاثوليك، برئاسة «بيدول» الملقب «بالشيكو»، التعس الذي لم يترك أي فرصة تمرّ دون أن يهنىء غزاته على انتصاراتهم في بلاده، بأفعال الخضوع وأقواله التي يجب أن تكون غريبة عن قلب أمثاله، فبمجرد أن سمع بسقوط «ملقة» أرسل بتهانيه إلى ملكي الكاثوليك، مع هدية من الخيول المزينة النفيسة للملك، وأثواب من المطرزات بالذهب والعطور للملكة، وكانا يتلقيان تهانيه بكل امتنان لأمير قصير

النظر، لم يستطع بعد أن يرى أو لا يريد أن يرى تقلّب سياسة «فردناند»، مهنئاً نفسه بأنه بهذه الطريقة الذليلة ينال أمنه بصداقة هذا الفاتح.

أما الفوائد التي نتجت عن ذلّه هذا فهي تجنيب ما بقي من مملكة «غرناطة» تحت حكمه فواجع الحرب، فعاد الازدهار إلى سهوب «الڤيغا» حول «غرناطة»، وعاد الناس إلى ممارسة حياتهم العادية في «الاقصريقا» وعاد الربح إلى جيوب التجار، مما جعل بوابات المدينة تغص بالقوافل المحمّلة بالبضائع، ورغم أن سكان «غرناطة» كانوا ينعمون بكل هذا، إلا أنهم كانوا يحتقرون بالسر سياسته هذه، حتى لو أوصلتهم إلى كل هذه الفوائد، معتبرين أنه مرتد أو دمية.

ولذلك صار مولاي «أبو عبد الله الزغل» محطّ آمال المناطق التي لم يقهرها الغزاة بعد من المملكة، وكل مسلم لم تخضع روحه للمنفعة وحدها، كان يُقيِّم عالياً هذا الملك المسن، وإخلاصه للإيمان، ويتمنى النجاح تحت علمه.

ورغم أن «الزغل» لم يكن في هذه الفترة جالساً في قصر الحمراء، إلا أنه كان يحكم منطقة أوسع من منطقة حكم ابن أخيه، إذ تمتد حدوده من حدود «جين» على امتداد «موريسيا» إلى البحر الأبيض المتوسط، لتصل إلى مركز المملكة، وعلى الجبهة الشمالية الشرقية لديه مدينتا «بازا» و«غواديكس» المتموضعتان في قلب المنطقة الخصبة، كما أن لديه الميناء الهام «المرية» الذي كان يزود غرناطة بالمال والبضائع والرجال، وإضافة إلى هذا تمتد مناطق نفوذه إلى جبال «البقصارا» التي تمتد داخل المملكة، لتتفرع نحو شاطىء البحر، وفي هذه المناطق الجبلية الكثير من المال والقوة، فقممها التي تنطح الغيوم تعلن قهر غزاتها مسبقاً، وبين شعابها الوعرة وديان خصبة فيها أعدل مناخ وأغنى تربة، والهواء العذب الذي ينزل من الجبال مع الجداول الرقراقة يمشطان كل هذه المناطق طوال العام، من زاد ما تزودهما به «السيرا نيڤادا»، وفي هذه الوديان التي تشرب من تشعبات هذه الأنهار ينتج أفضل أنواع الحرير الذي يشغّل آلاف المصانع، وعلى الجوانب المشمسة من هضاب هذه الوديان تمتد حقول العنب بدوالٍ تغطي كل هذه الهضاب، وبينها ترعى القطعان، فكل شيء يوحي بالغنى والثروة في هذه المناطق، وبعبارة موجزة كانت جبال «البقصارا» مصدر غنى الطبقة الحاكمة في «غرناطة»، وسكانها أشداء ومحاربون، وأي هجوم مفاجىء على المملكة الإسلامية الأندلسية في أي وقت، يمكن أن تستنفر له هذه الجبال بما لا يقل عن خمسين ألف محارب، يأتون من حصونهم الصخرية هذه.

هذا هو القسم الغني الوعر من امبراطورية الأندلس، الذي ظل موالياً للمحارب الكبير مولاي «الزغل»، خاصة وأن المعاقل الطبيعية لهذا القسم قد حمته من الغزو والتدمير لهذه الحرب الحالية، ولذلك هيّأ «الزغل» كل المواقع القتالية في هذه المنطقة لحرب طويلة وشرسة.

والكاثوليك لم يكونوا يجهلون المصاعب التي تنتظرهم في هذه المنطقة، والحرب التي يجب أن تنقل إليها تحتاج إلى مصاريف ضخمة، ووسائل وأساليب جديدة لفض أقفال هذه الخزنة الحديدية الأخيرة في الأندلس الإسلامي، لهذا انتبه «آغابيدا» فقال: «في هذه الحرب المقدسة تظهر الحاجة قوية لكي تكون الكنيسة مزدهرة، وكهنوتها متحمسين كي يجلبوا المال بكميات كبيرة، ويحرّضوا الجيوش كي تذهب بأعداد غفيرة أيضاً، وتزويد هؤلاء بالمال لا يمكن أن تأتي ثماره بإنقاص مخزون الكنيسة، بل من ثمار مؤسسات «التفتيش «Inquisition» المجيدة»؟!!؟

ولأجل هذا الغرض انطلق كلاب التفتيش ورهبانهم للبحث عن طرائد جديدة لإغناء الكنيسة، وصادف أن الكثير من العائلات الغنية في مملكة «أراغون وڤلنسيا» وبعض مناطق «كاتالونيا» كانوا من أصول يهودية، لكنهم بعد سقوط أندلسهم بيد النصارى تحولوا إلى الدين المسيحي خوفاً من الاضطهاد، فعاد رهبان «التفتيش» ليضعوا الشكوك حول مدى صدق مسيحيتهم ليفتكوا بثرواتهم، لذلك راحوا يتعقبونهم ليجدوا أن بعضاً منهم لازال يمارس الشعائر اليهودية سراً.

وقد وصف هذا «آغابيدا» بقوله: «إنه كان للملوك الكاثوليك أتباعهم المخلصون في كل مكان الذين يرفضون الزندقة، ويتحمسون للإيمان، لذلك أمرهم الملك بتشكيل أشد اللجان لتحري سلوك الناس، وخاصة هؤلاء المتمسحنين الجدد، فأرسلت «محاكم التفتيش» إلى مناطقهم لأجل هذا الغرض، وباشرت عملها بحماسها المعهود، ونتج عن ذلك إدانة الكثير من العائلات بالزندقة في الدين، وبممارسة اليهودية سراً، والذين قبلت منهم التوبة في الوقت المناسب ـ بأن فضحوا سواهم ـ أعيد تعميدهم ثانية، بعد تعذيبهم بشدة حتى لا يعذبوا أكثر بجهنم، وأُنزلت بهم أشد الإهانات، أما الآخرون، الذين فُضِحوا، فقد تمَّ حرقهم في المحارق العامة، «Auto de Fés» أمام كل الناس، وصودرت أموالهم لصالح الدولة»، وهنا بيت القصيد.

ولأن هؤلاء العبريون كانوا أغنياء، وقد ورثوا حب الذهب والفضة حباً جماً عن آبائهم، تمّ العثور على كنوزهم في مخابىء بيوتهم المليئة بالذهب والمجوهرات والفضة وباقي الأحجار الثمينة، فكانت هذه الأموال سبب مقتلهم، وهي سيولة مالية يسهل نقلها وبالتالي استخدامها السهل والرائع في تجهيز الجيوش، ومن هذا استنتج هذا الأب الكاثوليكي الفاضل «آغابيدا» بأن شح اليهود وجمعهم للمال هو لحكمة أرادها الرب كي تصير هذه الأموال في خدمة قضية الإيمان، فكان مال هؤلاء الزنادقة المارقين رجساً تمّ تطهيره في خدمة السماء والتاج الملكي، في حملة صليبية ضد مارقين آخرين هم المسلمين.

ويجب أن نضيف هنا أن هذا العمل الصالح لمحاكم التفتيش قد لاحظته الملكة «إيزابيلا»،

ولاحظت مدى الجرائم التي ارتكبت تحت اسمها، وفي سبيله، بادعاء الحماس الديني، الذي ذهب ضحيته الكثير من الناس الأبرياء، لمجرد اتهام خصومهم لهم لتصفية حسابات شخصية، وحيازة أملاكهم، مادامت الدولة تهدف إلى حيازة الأملاك من وراء هذه المحاكم المجرمة، فشكّلت الملكة محكمة لتحاكم من حاكموا الناس، وسلبوا أموالهم لأنفسهم، ونالت منهم، وأعادت هذه الأموال لسلطة التفتيش كي تعطيها للدولة، حتى لا يجرؤ أحد على سرقة السارق الأكبر الكنيسة والدولة.

الفصل الثامن

كيف غزا الملك «فردناند» الجهة الشرقية من مملكة «غرناطة»، وكيف تلقاه «الزغل»:

قال الأب اليسوعي «بدرو أباركا» أن مولاي «أبا عبد الله الزغل»: «كان الأكثر شمّية من كل المحمديين العرب المغاربة»، وردّد صدى هذه العبارة صاحبنا الأب «أنطونيو آغابيدا» بأن أضاف: «إنه لمن المؤكد أنه لا يوجد ملحد معارض شيطاني شرير للطريق المقدس للسيف والصليب مثله».

لقد شعر «الزغل» أنه بحاجة إلى عمل شيء يعيد له شعبيته، ولا شيء أكثر تأثيراً بهذا المجال من غزوة ناجحة، خاصة وأن العرب يحبون أن يدعوا إلى السلاح، وهذا ما يعشقه محاربو الجبال الأشداء منهم، الذين يسرّهم المغنم السريع من النصارى بعد صراع عنيف، بدل المربح البطيء المضمون الآمن من التجارة.

وبسبب ثقة أسياد النصارى على حدود «جين» بصداقتهم مع «ببدول الشيكو»، «أهملوا حصونهم معتبرين أن عمّه بعيد عنهم، تشغله متاعبه الشخصية عن التفكير بأي غزو، وبناء على هذا خرج «الزغل» فجأة من «غواديكس» مع عصبة منتقاة من رجاله، ليعبر بهم الجبال بسرعة خلف «غرناطة»، وليسقط كالصاعقة على المناطق المجاورة لحصن «القلعة لاريلا».

وقبل أن يصدر الإنذار وتستنفر الحدود، كان قد أشاع الدمار والخراب في القرى والبلاد وتركها مشتعلة، وقد ساق أمامه الغنائم والقطعان والأسرى، وحين وصل محاربي الحدود النصارى كان «الزغل» بطريق عودته عبر الجبال ليدخل أبواب «غواديكس» منتصراً، وقواته محمّلة بالغنائم المسيحية، وهو يقود عدداً منهم كخول له، وقد فعل هذا ليحرك روح القتال عند شعبه تهيئة لغزو كبير لملوك النصارى، وليربح لنفسه شعبية تهيئه لذلك.

وفي عام ١٤٨٨م جمع الملك «فردناند» جيشه في «موريسيا» بالربيع، وترك هذه المدينة في منتصف حزيران/يونيو على رأس قوة تقدر بأربعة آلاف فارس وأربعة عشر ألف راجل، وقد قاد المركيز «أوف كاديز» العربات، يتبعه حاكم «موريسيا» والمسؤول عنها، ودخل هذا الجيش الحدود العربية من جهة البحر ناشراً الذعر على الشواطىء والداخل، لذلك كانت المدن تستسلم لظهوره دون أي مقاومة، خشية من هذه الذي يعقب ترقّب وصول مثل هذه القوات من الحدود، ولهذا سلّمت ستون مدينة لهذا الجيش مثل «ڤيرا وفلز الروبيو، وفلز البلانكو» وعدد آخر كبير منذ أول لقاء.

ولم يقابل الجيش بأي مقاومة حتى وصل إلى «المرية» المدينة التي يحكمها «الأمير سليم» قريب الزغل، حيث قاد قواته بجرأة لمواجهة العدو، وبدأ بالمبارزات العنيفة مع الحرس المتقدم للجيش، في الحدائق قرب المدينة، وحين وصل «فردناند» مع بقية الجيش أمر بسحب المتبارزين وإيقاف المبارزة، لأنه وجد أن مهاجمة هذه المدينة بقواته التي معه لن تكون مثمرة، فترك المدينة ودار حولها متجهاً إلى «بازا».

لكن «الزَّغْل» نفسه كان في «بازا» مع حامية قوية، وكان يثق بقوة تحصينات المكان، فسرّ حين علم بقدوم ملك النصارى.

وفي الوادي أمام «بازا»(*) كانت تمتد مصاطب من الحدائق بشكل متعرج، تقطعها الأقنية والمعابر المائية، وهنا وضع رماته بالنشاب والبنادق الطويلة الثقيلة، وقد جاء حراس العربات والعربات يسيرون بكل زهو في هذا الوادي، وهم يطبلون ويزمرون، بقيادة المركيز «أوف كاديز» والمسؤول عن «موريسيا»، وحين اقتربوا من «الزَّغْل» هاجمهم بالمشاة والخيالة بكل روح معنوية مرتفعة، ثم راح يتراجع ببطء أمامهم، وهو يسوقهم ليلحقوه إلى كمائنه في الحدائق، وحين وصلوا إليها فتحت الكمائن نيرانها وأسهمها عليهم فجأة بشكل رهيب، للنيل من مقدمتهم ومؤخرتهم ووسطهم معاً، فقتل الكثير من الصليبيين ووقع الباقي بالفوضى، ولما وصل الملك «فردناند» ورأى الكارثة تحلّ بجيشه، أمر بإطلاق إشارة التراجع.

لكن «الزغل» لم يسمح لعدوه أن يتراجع دون تلفيات، فقاد قوات من قطعات جديدة، وهاجم مؤخرتهم وهو يهلل ويكبر بأصوات مرتفعة تدل على النصر، وهو يحصدهم أمامه عبر فوضى صفوفهم العارمة، وهكذا عاد العرب للهتاف باسمه الذي يرعب النصارى: الزغل الزغل... حيث ردّد صدى هذا الهتاف على أسوار المدينة، وكان وضع قوات النصارى مشتتاً مزرياً، لولا أن اندفع حاكم «موريسيا» بقواته من مشاة وفرسان بين العرب ومطارديهم، ليغطي

(*) وهي من بعض المراجع العربية تسمى «بسطة».

تراجع هؤلاء، ولكي يعطيهم فرصة للفرار، وهاجم العرب بقوة غير متكافئة دفعتهم إلى العودة ببطء إلى المدينة، وهكذا سقط العديد من الفرسان في هذه المبارزات من المسيحيين، وعلى رأسهم دون «فيليب أوف أراغون» قائد خيالة القديس جورج الابن غير الشرعي لأخي الملك بالسفاح «دون كارلوس»(*)، وكان موته سبب حزن وعويل «فردناند»، فقد كان «أركبيشوب لباميرو وساراكروزا»، ولهذا اعتبره «آغابيدا» شهيداً نال تاج الشهادة لأنه سقط في هذه الحرب المقدسة، رغم أنه ابن سفاح يجب أن لا تعترف فيه الكنيسة.

وإزاء هذا الاستقبال الحار لحرسه المتقدم توقف الملك «فردناند»، ليخيم على ضفة النهر المجاور «جدول قويطن ـ غوادال كويتن» وراح يراجع مدى صحة قراره بالتقدم بهذه القوات، فربما أعطته نجاحاته الأخيرة ثقة زائدة، لكن أعاده «الزغل» إلى مدرسته المحافظة التي تسم شخصيته. حين وجد أن خصمه هذا محصن، وله قوات لا يمكن اقتلاعها بأي شيء سوى بجيش كبير قوي مجهز بمدفعية ثقيلة، فإذا استمر في غزوه هكذا فالخوف من كارثة ستحل بجيشه هذا، أو من هجوم قد يقوم به خصمه، أو من تطويق قواته من المدن المجاورة.

لذلك تراجع «فردناند» عن «بازا» تماماً كما سبق له التراجع في ظروف مشابهة عن «الأقصى»، متعظاً من الدرس السابق في شؤون القتال، دون أن يكون شاكراً لمن يلقنوه هذه الدروس، بل على العكس فهو مصمم على الانتقام من أساتذته.

فتفحص مدى الأمن الذي فيه هذا المخيم، واضعاً حراسة قوية عليه ليلاً نهاراً، طالباً من السياد والمقدمين لديه أن يكونوا حذرين من العدو بدون أن يخلدوا إلى أي راحة.

وسلّم طليعة حماية الجيش إلى قيادة «لويس فرناندز بيترو كاريرو» الشجاع، ومعه المتطوعون الراغبون بالتميز في القتال، وهكذا أنهى هذه الحملة السنوية الفاشلة على غير عادته، عائداً إلى حدوده وهو يدّعي النصر على ستين مدينة، تاركاً جيشه لكي يذهب، ويصلي لهم في «كارافاكا» على صليبه الملكي.

(*) كان أولاد السفاح كثر عند الأثرياء الاسبان لكثرة العلاقات الجنسية المحرّمة، وكثرة التشديد على الاكتفاء بأنثى واحدة في الزواج، كقاعدة يخالفها الجميع، ولا يستطيعون الإعتراض عليها، وإلا اتهموا بالإسلام.

الفصل التاسع

كيف قام العرب بعدد من الهجمات الناجحة ضد النصارى:

قال «آغابيدا» المفتون بشكلية ورع مليكه: «أنه بينما كان الملك «فرناند» يتواضع أمام الصليب، ويكرّس كل وقته للصلاة كي يدمّر الرب عدوه، كان هذا الوثني الشرس «الزغل» يعتمد على قوة وبأس ساعده المادي وسيفه الحديدي، مطلقاً غضبه الشيطاني لتتبع النصارى»، وبمجرد أن حاول الجيش الغازي التراجع، خرج من معقله القوي ليحمل السيف والنار على كل المناطق التي خضعت للمُلْك الاسباني، ولأن قصر «النقصار» لم يكن محروساً حراسة كافية عصف به فجأة، ووضع كل حاميته تحت السيف، وعلى هذا الشكل كان يصب جام غضبه على كل الحدود، مهاجماً القوافل غازياً وآخذاً الأسرى، منقضاً على النصارى أينماوجدهم بدون حماية.

وبمجرد أن غادر سيد حصن «كولار» معقله القوي المبني على شاهق لا يمكن الوصول إليه، ولمدة وجيزة، ظهر «الزغل» أمامه بقوة كبيرة، وبصورة مفاجئة، عاصفاً بالمدينة وهو يقتل النصارى من شارع إلى آخر، وسيفه بيده يتعقبهم بالذبح حتى وصلوا إلى القلعة، وهنا كان مقدَّم مِقدام اسمه «جون دي أڤالوس»، وهو محارب شابَ رأسه بالحروب، وقد خاض غمار الكثير منها، فقام بدفاع مشرف لم يؤثر به شيء، لا كثرة العدو ولا كون «الزغل» على رأس جيوشهم.

فلغم العرب السور الخارجي وأحد أبراج الحصن، واستطاعوا الوصول إلى البلاط الخارجي للقصر، لكن السيد اعتصم في البرج ليصب على المهاجمين المعادن المنصهرة والحجارة والسهام وكل ما لديه من قذائف، مما دفع العرب إلى التراجع إلى خارج البلاط، ليعودوا إلى الهجوم بقوات إضافية، في معركة ظلّت بين أخذ ورد مدة خمسة أيام، وكاد النصارى أن يستسلموا

لولا أن قوّى سيدهم من معنوياتهم، وحذَّرهم من أنهم سيلقون حتفهم صبراً لو استسلموا على يد «الزَّغل»، إلى أن وصلتهم نجدة قوية بقيادة «بيترو كاريرو» لتنقذهم من هذا المصير التعس، حيث توقف «الزّغل» عن هجومه، لكنه أحرق المدينة من خيبة أمله، وعاد إلى معقله القوي في «غواديكس».

وهكذا صار «الزَّغْل» قدوة احتذى حذوها محاربو العرب، فأحفاد «علي العطار»: «يزن العطار وعلي العطار الصغير» كانا أسياداً على قلعتي «الهندية» و«سالوبرينا» فصارا يهاجمان البلاد الموالية «لببدول»، والأماكن التي خضعت أخيراً للنصارى لتخليصها من «سيادها» الأجانب، فكانا ينزلان من معقليهما للتحرش بكل البلاد التي خضعت حديثاً «لفردناند»، ويعودان بالأسرى.

كذلك هاجم عرب «المرية وتافرناس وبرثينا»: «الموريسيا» ونقلوا السيف والنار إلى كل مناطقها الغنية، وفي الجهة المقابلة للحدود في وديان «السيرا» الوعرة وجبالها؛ «برميجا» أو الجبال الحمراء انتفض بالعرب الذين فيها من الذين كانوا قد خضعوا للنصارى، وفتكت بمثليهم فيها، ليعود هؤلاء الناس إلى حمل السلاح ضد النصارى، فقضى المركيز «أوف كاديز» على هذه الانتفاضة بكل عنف في جبال «غواسين» العالية التي تصل إلى الغيوم بارتفاعها، مما دفع بالعرب إلى إعادة تمركزهم بأبراج بنوها للحرب فقط، وقلاع لا يسكنها إلا المحاربون، التي منها ظلّوا ينطلقون لإشعال الحرب التي يبدو وكأنها لن تنطفىء، مكتسحين الوديان فجأة ليسلبوا القطعان والغنائم منها إلى معاقلهم هذه التي تشبه أعشاش النسور، ومن اللامجدي ملاحقتهم إليها.

وبسبب كل هذه الأحداث أتمّ «آغابيدا» ذكر ما حصل بهذه السنة بأسلوب يختلف عن أسلوبه السابق بذكر الانتصارات الصليبية وتمجيدها وتمجيد مليكه من خلالها، بقوله: «لقد كان هذا طوفاناً من الأحداث القوية والعظيمة في هذه المملكة «القشتالية الأراغونية» الممتدة، كما لو أن أبواب السماء قد فتحت ثانية لطوفان ثانٍ يجتاح الأرض، يهدر ويعصف ويمزق من الجبال، ويزحف على الوديان الوديعة، والأنهار الخصبة، ليدمر البيوت حولها، ويحرق طواحين الغذاء بعنف اقتلاعه، فالرعاة يرون قطعانهم تؤخذ منهم ومن مراعيها، ولا خيار لهم سوى الفرار بأرواحهم إلى الأبراج والمعاقل العالية، فقد صار هؤلاء الخاضعون للنصرانية كالبحر المزمجر الذي ملأ حتى سهوب «إشبيلية» الشقراء بالذعر».

وبالإضافة إلى كل هذا أضاف الأب آغابيدا قائلاً: «ظهرت الأعاصير الطبيعية في السماء فوق هذه البلاد، مصحوبة بالزلازل التي كانت تهزّ المدن، والأبراج من أسسها، إلى حدّ أن

بعض السفن التي كان راسية في الموانىء تحطمت أو ابتلعها الموج، أو أُلقيت إلى الشاطىء محطّمة مهشّمة أو متطايرة، مما أشاع رعباً إضافياً عظيماً، ولم تهدأ هذه العواصف قبل أن تترك كل أصناف الخراب في البلاد، براً وبحراً». وأضاف هذا الأب الوقور قائلاً: «إن بعض ذوي القلوب التي لم يرسخ فيها الإيمان قد ظنّوا أن هذا من أحداث الطبيعة، وربطوها بما حدث أو يمكن أن يحدث في أماكن أخرى، على أساس أنها جزء من الطقس، ولكنها في الواقع نتيجة الدماء البريئة التي غمس فيها «الزغل» يديه مع جماعته القساة من المسلمين»(*).

(*) أنظر ما نقله «إيرڤينغ» عن «المقري» في تفسير هذه الأحداث في كتابه «**الحمراء**»، الذي ترجمناه ونشرناه عام ١٩٩٦م، مرجع سابق، ص ١٥١.

الفصل العاشر

كيف تهيأ «فردناند» لحصار «بازا»، وكيف تحضّرت المدينة للدفاع:

وبزوال الشتاء العاصف وتقدم الربيع عام ١٤٨٩م، ورغم تساقط الأمطار الكثيفة التي عطّلت الطرقات، ورغم أن الينابيع ممتلئة والسواقي فيّاضة، والأنهار فائضة وخطيرة، رغم كل هذا اجتمعت القوات الصليبية على حدود «جين» لأجل حروب الصائفة، لكن هذه القوات كانت بطيئة الوصول، بقوافلها التي كان يصعب عليها اجتياز أي جدول مهما ضحل، فلم يكتمل التجمع إلا في أيار/مايو، حتى يبدأ الغزو. وأخيراً تجمع جيش من ثلاثة عشر ألف فارس وأربعين ألف راجل على الحدود، وبقيت الملكة في مدينة «جين» مع أولادها، بصحبة كاردينال اسبانيا الأكبر، ومن يساعدها من مستشارين في هذه الحرب المقدسة.

وكانت خطة «فردناند» هي إيقاع الحصار على مدينة «بازا»، التي تعتبر مفتاحاً لكل ما بقي بحوزة العرب من الأندلس، فإذا أخذ هذا المعقل الهام تبعه «غواديكس» و«المرية» حتماً، وبذلك ينتهي نفوذ «الزغل» إلى الأبد، ولكي يتقدم الملك نحو هدفه هذا كان عليه أن يؤمّن عدداً من المعاقل والقلاع ويخضعها في محيط «بازا»، وإلا انقضت على جيشه من الخلف، فقاوم بعضها مقاومة باسلة وخاصة مدينة «كقصار»، التي هدم النصارى سورها بكل ما يملكون من أدوات ومكائن تهديم الحصون، لكن السيد الشجاع «حبوس عبد العال» كان يقاوم كل قوة بمثلها، وكل ماكينة أو مدفع بمثله، وقد شحن أبراجه بأشجع رجاله الذين كانوا يمطرون عدوّهم بالقذائف من كل نوع، كما ربط مراجله التي تصب الزيوت والمعادن الحارقة على المهاجمين بعضها بسلاسل حديدية، وكان يقلبها دفعة واحدة على الأبراج الخشبية التي تحركها الدبابات الخشبية نحو أبراجه، ليحرقها بمن فيها دفعة واحدة، ولذلك صدّ الهجوم لعدة أيام، ولكن كثرة العدو كانت أغلب من شجاعة هذا السيد، الذي استطاع أن ينتزع شروطاً مشرفة لاستسلامه،

إذ سمح «فردناند» للحامية بسكانها أن تخرج مع أملاك كل منهم إلى «بازا»، فخرج البطل «حبوس» مع ما بقي من قواته نحو هذه المدينة المفداة.

وقد أدّى تأخر الجيش المسيحي إلى إعطاء الفرصة لمزيد من التهيؤ «للزَّغْل»، هذا الملك الهرم الذي شعر بأنه يهيء آخر صمود للإمبراطورية الإسلامية في الأندلس، فهذه الحملة هي التي سوف تقرر عما إذا كان سيظل ملكاً، أو يتحوّل مولى ورقيقاً عند الملوك الجدد.

وطبعاً كان «الزَّغْل» قريباً من «بازا» في «غواديكس» كأهم منطقة في مملكته التي صارت «غرناطة» مفصولة عنها، حيث ابن أخيه الذي قد يهاجمه من الخلف، لذلك لم يجرؤ على الذهاب بنفسه لمساعدة «بازا»، واكتفى بمن استطاع تجنيده لنصرتها، لأنه لو غادر «غواديكس» سيهاجمه «ببدول» حتماً من الخلف، والنصارى من الأمام، فيقع بين فكيّ كماشة.

ولعل تأخر الجيش الصليبي أمام «كقصار» قد مكّن «الزَّغْل» من تزويد «بازا» بكل ما تحتاج إليه في حصارها مهما كان قاسياً، فأرسل كل القوات التي يستطيع الاستغناء عنها إلى المدينة، وأرسل المنادين في كل بلاده يدعون كل مسلم حق ليلحق «ببازا» ليجاهد هناك في سبيل الله، وقد لبّاه سكان مدينة «تافرناس» و«بورشينا» وسكان المرتفعات المحيطة بهما، والوديان مرسلين متطوعيهم إلى ساحة المعركة، مما جعل جبال «البقصارا» تضج بالسلاح، لينزل منها الفرسان والمشاة الذين يظهرون بين فينة وأخرى من شعابها الوعرة الرخامية وهم يسرعون نحو «بازا»، كذلك وبغفلة من الحرس المسيحي الذي يطبق على «الحمرا» كان يخرج من غرناطة الفرسان الأشاوس بسرعة للالتحاق بأبناء بلدهم المقاتلين، كذلك كان «الزغل» يعتمد على ولاء ابن عمه وصهره «يحيى النيار بن سليم» سيد «المرية»، الفارس الخبير بشؤون الحرب والمجلي فيها، فكتب له كي يترك «المرية» ويتحرك على رأس كل قواته بأسرع وقت نحو «بازا»، فخرج «سيدي يحيى» فوراً على رأس عشرة آلاف من أشجع المحاربين العرب في المملكة، ومعظمهم من الجبليين الأشداء الذين اعتادوا قسوة الطبيعة بشمسها وعواصفها؛ وخاضوا الكثير من المعارك، فلا أحد يعادلهم ويكافئهم في المبارزة والهجوم، وتنفيذ الخطط الحربية، والكمائن والالتفافات، ورغم شدتهم في الهجوم يظلون رهن إشارة قادتهم في التوقف والمناورة والكرّ والفرّ، فنفير بوقهم الحربي كافٍ لاستنفارهم مباشرة، وبصوت آخر منه يصطفون للهجوم دفعة واحدة ويهاجمون، فهم يتصدّون للعدو دوماً على حين غرّة منه، ينقضون عليه كالسيل الجارف بشكل متفرّق أو مجتمع، ثم هم بلحظة يختفون، فقبل أن يصحو عدوهم من صدمهم له، لا يجدهم حوله، ولا يرى منهم سوى نقع خيولهم حوله، في هجومهم أو انسحابهم سواء.

فعندما قاد «سيدي يحيى» هؤلاء الآلاف العشرة إلى أبواب «بازا»، خرجت كل المدينة

لاستقبالهم، وكان الناس بسرور المتيقن من النصر، حتى أن «الزّغل» نفسه شعر ببديل من الثقة عن عدم تمكنه من أن يكون في المدينة ليقود المعركة بنفسه، «فسيدي يحيى» كأخيه وهو صهره، كنفسه الثانية، والملك السعيد من عنده مثل هذا الرجل بصفاته ليقود جيوشه.

وبهذه التعزيزات وصلت القوات العسكرية في «بازا» إلى عشرين ألف رجل تحت قيادة ثلاثة قادة رئيسيين هم:

ـ محمد بن حسّان الملقب بالمجاهد، وهو محارب عربي قديم، وسيد وحاكم متميز، وذو خبرة كبيرة.

ـ حامد أبو حِلي المقدّم، وقائد القوات التي كانت في المدينة.

ـ حبوس عبد العال البطل، سيد الكقصار الذي سبق وذكرناه، والذي دخل المدينة مع ما بقي من حامية معه من مدينته.

وكان «سيدي يحيى» قائداً على كل هؤلاء، لأنه من العائلة المالكة وموضع سر مولاي «الزّغل»، وكان رجل شورى بكل معنى الكلمة، ومغرماً بالضربات التي تؤدي إلى كل إنجاز مبهر، يتحمّس للوضع الذي هو فيه، ولخصب تخيلاته، لذلك كانت الاستشارة الحقيقية تأتي من السيد الشيخ الكبير بالسن: محمد بن حسّان ـ المجاهد ـ الذي يعتمد عليه «سيدي يحيى» بسبب جرأته وحذره وخبراته التي قد ترجّح النصر في اللحظات العصيبة.

أما مدينة «بازا» فكانت في وادٍ عظيم خصيب، بطول حوالي أربعة وعشرين ميلاً وتسعة أميال عرضاً، يسمى «حوض بازا» الذي تحيط به الجبال المسماة «سيرا اكسا بالالكول»، التي منها تندفع مجموعة من الجداول وتجتمع بنهرين يسقيان هذه البلاد الخصيبة، ورغم أن المدينة مبنية في السهول إلا أن جزءاً منها يستند ويحتمي بالجبل وعليها قلاع قوية، ويحيط بالمدينة سور عالٍ وشديد، فيه أبراج هائلة، وللمدينة ضاحية من جهة السهل محمية بجدار طيني سيىء ـ دكّ ـ وأمام هذه الضاحية مصاطب مزروعة بالحدائق طولها حوالي ثلاثة أميال، وبها زراعة كثيفة تجعلها تبدو كغابة، يمتلكها سكان المدينة بشبه تساوٍ، بحيث أن لكلٍ منهم تقريباً حديقته الخاصة التي يزرع فيها حاجته من الفواكه والأزهار والخضار، ويسقي هذه المصاطب جداول مائية صناعية تتحكم بها عبارات من الماء الذي يأتي من جانب الأبراج الدفاعية للمدينة ويمكن التحكم بها منها، من خلال مجموعة ـ شُكور ـ تشكل نوعاً من الحماية لهذا الجانب من المدينة الذي يمكن إغراقه إذا فتحت، فيستحيل المرور بهذه المصاطب ـ الجروف ـ أو يصعب إلى أقصى الحدود، مما يؤمن الدفاع عن المدينة من هذا الجانب.

وكلما كان الجيش الصليبي يقترب من حدود مواقع المدينة، كان الناس يسرعون بتهيئة

الاستعدادات لملاقاته، فكل حقول القمح رغم عدم نضجها تماماً قد حصدت وأدخلت إلى المدينة، حتى لا يبقى للعدو منها شيء، وهكذا سحبوا إمكان تموينه من حقولهم، كما أدخلت كل قطعان المواشي إلى المدينة محمّلة بكل الأغذية الممكنة، مع دخول الأسلحة والحراب من كل نوع التي تدفقت عليها من كل صوب، وبذلك صارت التموينات فيها كافية للصمود لمدة خمسة عشر شهراً، ورغم ذلك ظلّت هذه التجهيزات تفد بسرعة إلى آخر لحظة مع قدوم «فردناند» وظهوره، فمن جهة كان يمكن رؤية الخيول وجماعات متفرقة من الناس التي تحمل الزاد على دوابها، وهي تحث الخطى وكأنها تفر من عاصفة مرتقبة، ومن جهة أخرى كانت عاصفة الحرب تحصد بالسهل، ويسمع منها طبول القتال وأبواق النفير، بين فترة وأخرى منذرة بالاجتياح، يلازمها لمع الأسنة ودروع المقاتلين وهي تتقدم وكأنها بروق تتحرك لا صفوف عسكر.

وأخيراً نصب «فردناند» خيمته في الوادي فيما وراء خط حدائق المدينة، وأرسل رسله للطلب من سكان المدينة بالاستسلام، واعداً بأحسن الشروط إذا نفذ طلبه فوراً، ومهدداً بأشد نوازل العقاب إذا رفض طلبه، واعداً بأن يبقى محاصراً هذه المدينة مهما طال الوقت إلى أن تستسلم.

فعقد القادة العرب مجلس حرب، وقد شعر الأمير «سيدي يحيى» بإهانة من شروط «فردناند»، مما جعله يرد معلناً أن الحامية لن تستسلم حتى لو دفنت تحت أنقاض هذه الأسوار قائلاً: «على كل حال إن إعلانك هذا تكذبه أفعالك، فما تهدد به نحن سنقوم به، وما سنقوم به سنريك أنه أكبر من تهديدك».

وبناءً على نصيحة «محمد بن حسّان»، أرسل إلى الملك صيغة ردّ آخر فيها شكر على عرضه وشروطه الجيدة بالاستسلام هذه، لكن مع ملاحظة أنهم هنا للدفاع عن المدينة لا لتسليمها.

الفصل الحادي عشر

معركة الحدائق أمام «بازا»:

قرر «فردناند» حين وصله ردّ قادة مدينة «بازا» فرض حصار قاسٍ عليها، ولأن المعسكر بعيد عن المدينة والمصاطب بحدائقها تحمي الأسوار العربية، قرّر أن يتقدم إلى ماوراء الحدائق في الفاصل بينها وبين ضواحي المدينة، حيث يصير بمقدور بطاريات مدفعيته أن تضرب براحة على الأسوار، فأرسلت قوات طليعية للتمركز في الحدائق، ولكي تدرس كيفية مهاجمة الضواحي ومنع أي هجوم على المعسكر أثناء إعادة تموضعه من المدينة، وهكذا دخل المقدمون والقادة بهذه الطلائع حدائق المدينة من نقاط مختلفة، وكان الفرسان الشباب منهم ينطلقون بحزم إلى الأمام، لكن الأكثر خبرة منهم رأوا مشاكل لا نهائية سوف تواجههم بهذا التقدم، فالماستر أوف «سانتيغو» طلب من جنوده التلاحم ورصّ الصفوف حين الدخول، مؤكداً لهم أنهم لو هاجموا بقوة وعنف سيضمن الرب لهم النصر.

وما كادت هذه القوات تطأ أرض الحدائق حتى ضربت أبواق النفير وطبول الحرب ممزوجة بصرخات التكبير في كل الضاحية، لتخرج كتيبة من المشاة العربية وتنصبّ أمام الغزاة بقيادة الأمير «سيدي يحيى» الذي رأى مدى الخطر على المدينة من احتلال المسيحيين لحدائقها وتمركزهم فيها، لذلك قال لجنوده: «يا جند الله نحن نحارب من أجل أهلنا وأنفسنا وبلادنا وديننا، ولا عون لنا في هذه الحرب سوى أنفسنا، وشجاعة قلوبنا وحماية الحق لنا بإذنه تعالى»، فأجابه العرب بالتكبير الحربي ثلاثاً، واندفعوا للمواجهة، ليلتقي الخصمان في منتصف الحدائق، وبدأ صراعهما بالرماح، والبنادق الطويلة الثقيلة، والأسهم بالنشاب، ثم بالسيوف. ولما كانت الأرض تقطعها الجداول والأقنية وكثافة الأشجار التي أعطت للعرب ميزة على الفرنجة الذين دخلوها على ظهور الخيل، كذلك كان العرب يعرفون الأرض ومكامنها وممراتها، وهكذا تمكنوا من الكرّ والفرّ فيها تقريباً دون أن يجرح أياً منهم.

ولما رأى القادة النصارى هذا الأمر، أمروا خيالتهم بالترجل، والقتال مشاةً، وبهذا صارت المعركة شرسة وقاتلة، فالكلّ ـ بغض النظر عن مدى بقائه حياً ـ راح يهاجم عدوّه، فكانت مذبحة تحت ظلّ كل شجرة ووردة تختلف بإختلاف موقعها، وتتفق بوحشية عنفها بشكل متميز، لذلك لم يكن أحد يرى سوى ما حوله من منظر سفك دم، ولا أحد بالتالي يعرف أي شيء عن تطور المعركة ككل، وكل نداءات المقدمين، وكل أبواق النفير، ذهبت هباء ولم تسمع عبر صوت الأسنة، وأنين الجرحى، وزمجرة الرجال، التي صارت عامة شاملة، فلم يلتف واحد حول علمه، وراح كل واحد يقاتل كما تملي عليه حماسته الشخصية.

فكان للنصارى تقدّم في بعض المواقع، والعكس للعرب ليقع المتقدم الذي يطارد خصمه في خضم جيش الخصم دون أن يلاحظه، فيصير الهارب مهاجماً والمهاجم هارباً، بموجات متداخلة مع بعضها في هذا الصنف من القتال، حتى أن البعض من شدة ارتباكه كان أحياناً يلجأ لعدوّه، دون أن يتمكن أحد من معرفة صديقه من عدوه خلال هذا الصراع المبتذل، لكن العرب كانوا الأمهر في هذا الصنف من المواجهة بالقتال، لمرونتهم وخفتهم ورشاقتهم وسرعتهم بالضغط على الخصوم كراً وفراً، فكرّاً ثانية مما كان يرهق خصومهم.

وقد كان القتال على أشدّه في الحدائق الصغيرة أمام الأبراج والطرقات التي كانت كحصون صغيرة يحتلها كل فريق بدوره، ليدافع عنها بشراسة ثم يطرد منها، مما أدى إلى إحراق الكثير من الأبراج، فزاد من رعب هذه المعارك بأن أضفى عليها غيوماً من الدخان واللهب، لفت المنحدرات بالشرر المتطاير من حرائقها.

ولأن بعض الفرسان النصارى أصيب بالذعر من زئير واضطراب هذه الهجمات، فقد قاد قواته خارج الصراع، دون أن يعرف إلى أي جهة عليه أن يتراجع، وأثناء هذا الاختلاط بين الحابل والنابل طارت يد حامل علم الكردينال الأكبر بقذيفة مدفع مدوية، فسقط العلم بيد العدو، لذلك اندفع ابن الكاردينال ـ بالسفاح ـ «رودريغو دي مندوزا» لإنقاذه عبر عاصفة من الطلقات الرصاصية والرماح والأسهم المتطايرة، وحمله بكل فخر ليدخل فيه إلى قلب المعمعة الحامي، يتبعه جنوده وهم يصرخون، وكان الملك «فردناند» يرقب المعركة من حافة الحدائق بكل قلق، لأنه من المحال مراقبتها بتفاصيلها بسبب كثرة الأشجار والأبراج، إضافة إلى أعمدة الدخان المتصاعدة، وكثرة الخارجين من المعركة من المهزومين أو الجرحى أو المنهكين، وهم يعطون تقييمات مختلفة حسب المكان الذي كان يقاتلون فيه، وقد حاول «فردناند» بكل طاقته أن يشجع جنوده معرّضاً نفسه لخطر محدق في هذا الصراع الأعمى، وهو يرسل التعزيزات إلى الأماكن التي تبدو فيها المعركة متراجعة خاسرة أو مشكوك فيها، ليخرج عليه من ضمن الجرحى

بجراح قاتلة «الدون جوان دي لونا» الشاب ذو المواهب الخارقة، والذي يقيمه ويحبه الملك كثيراً، وهو زوج أجمل نساء البلاط عند الملك السيدة «دونا كاتالينا دي يوريا»، فأضجعوه على جذع شجرة، وهم يحاولون إيقاف نزوف جراحه بالشال الذي لفت به زوجته ذراعه، ولكن النزيف لم يتوقف، فجاء دور القسسة المقدسين وعلى أيديهم راح يعترف وهو يلفظ أنفاسه وقد وصل الملك فمات تحت قدميه.

وفي المواقع المقابلة كان الأمير «محمد بن حسّان» يرقب المعركة بكل ترقب من على أسوار المدينة، وهو محاط بزعماء القبائل العربية التي جاءت لنجدته، وهكذا استمرت المعركة حوالي اثني عشرة ساعة بدون استراحة ولا توقف، وكان لا يظهر من بين هذه الحدائق الكثيفة سوى لمع الأسنة والسيوف، وومضات الخوذ بين الأشجار، وأعمدة من الدخان ترتفع إلى السماء من كل اتجاه، بينما تزأر المدافع وتزعق البنادق الطويلة مع صرخات القتال، ولعل أنين الجرحى وحشرجاتهم خير ما يعبر عن هذا الصراع القاتل، بين أغصان تلك الحدائق الغنّاء.

وعلى الأسوار صراخ النساء والأطفال العرب حين يحضر آباؤهم أو أزواجهم جرحى من ساحة المعركة، وكأن كل السكان كانوا في حداد عام، وخاصة حين أدخل جسد «رضوان ذا الفارغا ـ أي ذو الفقار» المسيحي الذي اعتنق الإسلام، والذي يعتبر من أشجع فرسان هذا الدين وقادة كتائبه.

وأخيراً وبعد أن قاربت المعركة على نهايتها، تراجع العرب نحو الحواف الزهرية حيث تزرع الزهور بهذه المصاطب ـ الجروف ـ بسبب دخول قطعات جديدة للعدو في المعركة بكثافة كبيرة، لكن تراجعهم لم يكن بدون قتال على الرغم من كل هذه القوات الإضافية شبراً بشبر، حتى تحصنوا بمتاريس لهم هناك.

فما لبث النصارى أن وضعوا أمامها ما يماثلها، وقد أمر الملك «فردناند» أن تقوى هذه المتاريس بالأخشاب الصلبة، لكن «محمد بن حسّان» خرج بقوات إضافية لعون «سيدي يحيى» في محاولة يائسة لمنع العدو من أخذ هذا الموقع الهام، لكن الليل أرخى سدوله، وجعل الظلام عائقاً بين الفريقين، ورغم هذا ظلّ العرب يهاجمون العدو بصورة متقطعة طوال الليل، وراحوا يطلقون أبواق الإنذار مما أزعج الصليبيين الذين أرهقهم القتال طول النهار، ولم يحظوا بلحظة راحة في الليل أيضاً.

الفصل الثاني عشر

إحراج الجيش في حصار «بازا»:

مع أول ضوء للشمس ظهر المنظر المؤسف أمام أسوار «بازا»، فالجيش الصليبي الذي أرّقه المسلمون طوال الليل كان أصفراً منهكاً، وحوله جثث من ذبحوا خلف وأمام هذه المتاريس، مما يظهر بوضوح مدى عنف هذا الهجوم الذي قاموا به، وشجاعة المدافعين بآن واحد.

وخلفهم كانت مصاطب وحدائق «بازا» التي كانت منتجعاً للمتع والسرور، وها هي الآن مسرح رعب وآلام، فالأبراج مشتعلة محطمة، والأقنية المائية والجداول مخضبة بالدماء، وقد تزاحمت فيها وحولها جثث القتلى، فهنا وهناك أشلاء حصان وفارسه، ليظهر بوضوح أثر هذا الصراع المخيف والمميت الذي صارت جثث المسلمين والنصارى فيه بديلاً عن زهو ورياحين هذا المكان، مزروعة ومتناثرة فيه.

وفي وسط هذا المشهد المفجع انتصبت خيمة مجلس الحرب المسيحي، التي رفعت على عجل في الليلة السابقة، وبها اقتنع الملك من خلال ما خبِره فرسانه بأن معسكره سيتعرض لصعوبات كثيرة هذا اليوم، لذلك قرر مع قادة قطعاته ضرورة مغادرة المعسكر هذا اليوم، وترك هذه الحدائق.

ولكنه من الصعب والخطورة بمكان سحب جيشه من هذا الموقف الذي هو فيه، في وجه عدو متوثب وشجاع بهذا الشكل، لذلك تقدمت قوات إضافية لتأخذ مواقعها على الجبهة في محاذاة المدينة، وبدأ العمل كما لو أن المعسكر سيبقى في الحدائق، دون أن ترفع أي خيمة فيها، في الوقت الذي كان يبذل فيه جهد حقيقي لسحب كل المتاع إلى مكان المعسكر الأول.

وطوال اليوم كان العرب يرقبون ترتيبات العدو في الحدائق، وهم يرون خلف القوات خيام قادتها بمختلف رتبهم ترفع على جروف المصاطب، وفجأة وقبل حلول الظلام اختفت هذه

الخيام، وفكّ النصارى متاريسهم التي كانوا متمترسين فيها وانسحبوا، ولم يعد في كل معسكر العدو أي ظلّ بارز للعين.

لكن العرب كانوا يعتبرون أن مناورة الملك «فردناند» قد جاءت متأخرة، إذ كبس «سيدي يحيى» العدو بقوات كبيرة من الخيالة والمشاة بكل عزم وثقة وقوة الهجوم العربي، ولأن النصارى كانوا يخبرون هجمات العرب هذه، كانوا يتراجعون بنظام، حيث يلوي بعضهم على عدوهم، ليعطوا للبعض الآخر فرصة الانسحاب، فيردوا العرب إلى مواقعهم ومتاريسهم، ثم ينسحبون، وبهذه الطريقة انكمش الجيش دون مزيد من الخسائر في هذه الحدائق المعشّبة، وهكذا صار مخيم النصارى بعيداً عن خطر العرب، لكنه بعيد عن المدينة أيضاً، ولم يعد يؤثر عليها، بحيث يمكن للعرب مهاجمته والعودة إلى المدينة دون أن يصابوا بأذى، لذلك جمع الملك مجلس حربه ليقرروا ماذا عليهم أن يفعلوا بعد ذلك؟! وكان المركيز «أوف كاديز» مع تحرك الحصار حالياً، لمناعة المكان الشديدة، وقوة الحامية فيه، فمن الصعب والمكلف أخذ هذه المدينة بالقوة، والأصعب هو حصارها لكي ترضخ بالمجاعة!!

أما إذا ظلّ الجيش بهذا البعد عن المدينة فسيتعرّض لكل أمراض ومعاناة الجيوش المحاصرة دون جدوى، وحين يحين موسم الأمطار سوف تفيض الأنهار وتعزل الجيش عن المدينة، لذلك اقترح بدل هذا أن يضع الملك الحاميات العسكرية من الفرسان والمشاة في القرى التي أخضعها في جوار هذه المدينة، ويتركهم ليقيموا حرب استنزاف «لبازا»، بينما يعصف هو بجسم جيشه في البلاد تخريباً، وبذلك لا يبقى في السنة القادمة «للمرية» ولا «للغواديكس» ولا «لبازا» أي قرية خاضعة لهم ولا أي منطقة تابعة، وبذلك تخضع هذه المدن جوعاً.

لكن «دون غويتري» سنيور وقائد «الأقصى» تبنى الرأي القائل بأن ترك الحصار سيفسر من العدو كظاهرة ضعف وعدم استقرار بالرأي، مما يقوّي من روح «الزّغل»، ويجلب إلى صفه الكثير من رعايا «ببدول»، إذا لم يشجع غوغاء «غرناطة» على التمرّد، لذلك لابدّ من إطباق الحصار وبكل شدة.

ومع هذا الرأي الذي وافق كبرياء «فردناند» مال المجلس، إذ من المذلّ العودة ثانية من هذه الحملة بهذه المناطق العربية دون تسديد ضربة موجعة وفعّالة، لكن بالنظر إلى ما عاناه جيش النصارى وما سوف يعانيه فيما لو استمر الحصار، وخاصة صعوبة «لوجستية» التموين المنظم لهذا الجيش عبر هذه البلاد الواسعة، والجبال الصعبة فيها، قرر «فردناند» طلب السلامة له ولجماعته بالموافقة على نصيحة المركيز «أوف كاديز».

لكن الجنود وحين علموا أن الملك يريد أن يرفع الحصار من أجل سلامتهم، تجمعوا بحماس وبصوت واحد أعلنوا أن الحصار يجب أن لا يفك حتى تستسلم المدينة.

وبسبب تضارب الآراء هذه أرسل الملك رسوله إلى الملكة في «جين» يطلب منها النصح، عبر بريد منظم بينهما بحيث يتبادلان الرسائل خلال عشر ساعات(*)، وبه أرسلت «إيزابيلا» ردّها الفوري بأن خوّلت الملك وقادته تقدير الأمر واتخاذ القرار، وهم بحال قرروا بالاستمرار تعاهدهم أمام الرب بأن تستمر بتزويدهم بالمال والعتاد والرجال، وكل ما يحتاجون له، حتى تستسلم المدينة أو تؤخذ بالقوة.

لذلك وبناءً على تصميم الملكة هذا قرّر «فردناند» الاستمرار، وحين عرف جيشه بقراره هذا راحوا يحيونه بصوت واحد، وبفرح عارم، وكأنهم قد حققوا النصر.

(*) كان يمكن أن يتمّ هذا إما على ظهور الخيول السريعة التي تبدّل خلال مراحل، عبر محطات متلاحقة، أو بالحمام الزاجل، أو «بالسيارات» التي تحدثنا عنها في المقدمة وهي الأسرع.

الفصل الثالث عشر

كيف استغل الملك «فرديناند» المدينة بصورة كاملة خلال استمراره بحصارها:

كانت مخابرات الأمير العربي «سيدي يحيى» تنقل له بدقة اختلافات الآراء في المعسكر المسيحي، فتأمل بأن الجيش المحاصر سوف يعود خائباً، بينما لم يصدق «السيد محمد» احتمال ذلك، لكن حركة مفاجئة في مخيم العدو بدت وكأنها تؤكد انسحابه، فقد فكّت الخيام وتمّ تحميل المدافع وربط عجلاتها، وقوات الجيش بدأت المسير عبر الوادي، لتبدأ أبواقها وطبولها تسمع بشكل كافٍ لإزعاج المدينة، وقد أحصي هذا الجيش بأربعة آلاف فارس، وثمانية آلاف راجل، مع كافة معدات المدفعية وآلات هدم الحصون، وتقدم هذا الجيش ليتمركز بجانب المدينة قرب الجبل، بقيادة المركيز «أوف كاديز» ومعه دون «ألونزو دي غويلار» و«لويس فرناندز بيترو كاريرو» وغيرهم من الفرسان المتميزين.

ثم ظهر معسكر آخر بقيادة الملك على رأس ستة آلاف فارس وعدد كبير جداً من المشاة، فيه رجال «بسكايا» الجبليون الأشداء، و«غويبو سكون» و«الغال» و«النمسا»، ومن جملة الفرسان الذين كانوا مع الملك الكونت «دي تنديلا» الشجاع ودون «ألونزو دي كاردينس» ماستر أوف سانتيغو، وكان المعسكران متباعدين ومتقابلين بحيث تقع المدينة بينهما، وتفصلهما المصاطب المشّجرة، وقد حُصّنا بالخنادق العظيمة والمتاريس، وحين رأى المقاتل الخبير «سيدي محمد» هذين المعسكرين الرائعين، يلمعان في مواجهة بعضهما البعض على طرفي المدينة، ولاحظ أعمدة خيام القادة المشهورين فيهما من خلال أعلامهم المرفرفة على خيامهم، التفت إلى أصحابه قائلاً: «هذان مخيمان متباعدان عن بعضهما بشكل لا يمكنهما من تبادل العون، وكأن غابات المصاطب خليج بينهما» كتعقيب سريع على هذا الوضع، لم يلبث أن قطعه بتتبع أصوات فؤوس عديدة تقطع شجر المصاطب، فنظر مع الناظرين بكل قلق من أسواره العالية،

ليرى هذا الواحة من الأشجار تغرق تحت ضربات فؤوس النصارى، فاندفع العرب بكل حماس لحماية حديقتهم التي يحبونها ، لكن حماية الحطابين كانت قوية فلم يؤثر هذا على عملهم، وهكذا على مرّ الأيام، والمبارزت على أشدها من أجل سلامة هذه الحدائق، ومع ذلك ظلّ تدمير هذه الواحة مستمراً، لأن «فردناند» كان يعرف مدى أهمية إزاحة هذا الحاجز الشجري الذي يشكل ما يشبه الستارة الحامية للمدينة، فسخر كل قواته لقلعها، رغم ما في هذا العمل من جهد عظيم مضنٍ، وما يحتاجه إلى صبر وجلد، لأن الأشجار كانت ضخمة جداً ومتراصة وممتدة على مسافة شاسعة يصعب قطعها، لكن الذي سخرهم الملك لهذا الشأن كانوا أربعة آلاف رجل، ورغم ذلك كانوا لا يقطعون أكثر من عشرة أمتار ـ خطوات ـ مربعة في اليوم، بما فيه من مقاطعة لعملهم بسبب هجمات العرب المتكررة، لذلك استغرق العمل مدة أربعين يوماً كاملة، قبل إزالة كل أشجار هذه «المصاطب» الحديقة.

وهكذا صارت مدينة «بازا» الصامدة عارية من غطائها الأخضر، وبدون حدائقها التي هي رمز سعادتها وحمايتها، وبهذه الخساسة تحرك المحاصرون بكل ثقة وبطء لاستغلال حصارهم لصالحهم بجهد ودأب يكاد لا يصدق، وربطوا بين معسكريهم بخندق عميق، طوله ثلاثة أميال، وعنه حوّلوا مياه الجداول وحموه بالمتاريس، وجعلوا فيه خمسة عشر برجاً خشبياً في مسافات متباعدة، كما حفروا خندقاً عميقاً آخر لمسافة ستة أميال طولاً عبر الجبال خلف المدينة ليصلوا بين معسكريهم من خلفها، ودعموه من كل جانب بحائط ترابي ـ دكّ ـ وصخري في بعض المناطق ـ دبش ـ وخشبي في مسافات أخرى، وبذلك أطبقوا على مدينة العرب هذه من كل الجهات بالخنادق والمتاريس والحيطان والأبراج الخشبية، بحيث لا يمكن أن يخرج منها أحد، ولا يمكن أن تدخل إليها قوة أيضاً لعونها، كذلك حاول «فردناند» قطع المياه عن المدينة، لأن الماء كما لاحظ الورع «آغابيدا»: «أهم لهؤلاء اللامؤمنين من الخبز، لأنهم يغتسلون به يومياً من أجل وضوئهم الذي يجعلهم لامعين، فيتمتع بذلك رجال دينهم الشياطين، بألف طريقة وثنية بالحمامات وسواها من مقرات اللذائذ، التي لا نهتم بها نحن الإسبنيار المسيحيين»(*).

فقد كان خلف المدينة نافورة من ماء قوي نقي تندفع من أعتاب هضبة قصبة المدينة، أو البهاقين، يعتمد العرب عليها، لأنهاتزوّدهم بالماء لمدينتهم، وحين وصلتهم من مخابراتهم معلومات أكّدها الفارّون من معسكر «فردناند» أيضاً بأنه يريد الاستيلاء عليها، انطلقوا ليلاً وحفروا النبع بشكل يستحيل على النصارى تحويله.

(*) كان المسيحيون الأوروبيون لا يعرفون الإغتسال، فلا حاجة للمرء به بعد العماد لأنه يصبح طاهراً طوال حياته، كأمر ظلّ مسلّماً به بصورة أو أخرى حتى جاء «باستور»؟!

الفصل الرابع عشر

مأثرة «هرناندو فيرز دل بولغار» وغيره من الفرسان:

بينما كانت تبرز في حصار «بازا» مهارة وعلوم الحرب عند قادة النصارى، كان فرسان اسبانيا الشباب لا يظهرون الكثير من روح الإقدام والمغامرة، إذ كانوا يخضعون إلى الترتيبات الأمنية الثقيلة في تحصين معسكرهم، وهم يتشوقون إلى روح المبادرة الوثّابة لاقتحام الصعوبات والأخطار، فبينما كان الفارسان: «فرانسيسكو دي بازان - و - أنطونيو دي كيوڤا» يبثان لبعضهما تطلعهما لحياة المبادرة، سمعهما دليل من الأدلاء الكشافة الذين يعرفون كل ممرات البلاد وتضاريسها، فقال لهما: «إذا أردتما خدمة مجزية أيها السيدان وكنتما قادرين على الإمساك بلحى العرب النارية، يمكنني أن أدلّكما على المكان الذي بإمكانكما وضع سلاحكما موضع الإختبار فيه، ففي مدينة «غواديكس» الصعبة توجد دسكرة غنية بالغنائم، يمكنني أن أقودكما نحوها من طرق تجعلكما تنقضّان عليها فجأة، فإذا كان جأشكما بقوة اندفاعكما، ستستطيعان حمل الغنائم من تحت عيني «الزّغْل» نفسه».

فراقت لهذان الشابان فكرة أخذ الغنائم هذه من أبواب «غواديكس»(*) لما بها من مغامرة من جهة، ولأن مثل هذه العمليات كانت تحصل أحياناً في ذاك الوقت من جهة أخرى، ويتفوّق بها العرب على النصارى، فهم مؤخراً قد قاموا بعمليات مشابهة على حدود النصارى من «بادول» و«الهندية» ومدن عربية أخرى من «البقصارا»، وبحث الفارسان عن فرسان آخرين من سنّهم لكي يشاركوهم هذا الأمر وهذه المغامرة، فشكلوا بوقت قصير فرقة من ثلاثمئة فارس ومئتي راجل مجهزة ومستعدة للهجوم.

ولكي يبقوا على سرية وجهتهم خرجوا من المعسكر حين بداية الغروب، ودليلهم يتقدمهم

(*) نواحي وادي «آش».

بأكثر طرقات الجبال سرية دون توقف ليل نهار، حتى نزلوا على هذه «الدسكرة» وراحوا يأسرون سكانها، وينهبون بيوتهم، ويعيثون خراباً في حقولهم، ويسوقون قطعانهم أمامهم، وبدون أن يعطوا أنفسهم أي فرصة للراحة، عادوا بأقصى سرعة إلى الجبال، قبل إطلاق الإنذار وقيام البلاد عليهم.

وقد فرّ رعيان القطعان إلى «غواديكس» ليخبروا «الزَّغْل» بما حصل، فغضب غضباً شديداً وأطلق فوراً ستمئة فارس مختار من فرسانه لتعقب الغزاة واستعادة الغنائم وإحضار هؤلاء المجرمين بالقيود إلى «غواديكس».

وبينما كان الفرسان النصارى يسوقون المواشي بأسرع ما يمكنهم في شعاب الجبال، حصلت منهم التفاتة، فإذا بغبار فرسان وراءهم، بينها تلمع الخوذ بالعمائم فوقها.

وتأكدوا بأن العرب أكثر منهم عدداً، ويقودون خيولاً لم ينهكها التعب، بينما هم وخيولهم منهكون بسبب سيرهم المتواصل ليومين بلياليهما، ولذلك طلب البعض من قادتهم ترك الغنائم والفرار بأنفسهم، لكن «دي بازان ـ و ـ دي كويڤا» رفضا مثل هذا الاقتراح الجبان، وقال أحدهما: «كيف نترك غنائمنا دون ضربة سيف، ونتخلى عن مشاتنا لعدو يفوقهم عدداً؟! والخائف منكم عليه أن يخاف من كارثة الفرار لا المواجهة، لأن الفرار سيتحول إلى كارثة، بينما سيقتل عدد أقل من الرجال بالمواجهة بدل الهروب المذلّ الجبان».

وأثّرت هذه الكلمات ببعض الفرسان الذين قرروا الوقوف إلى جانب مشاتهم كرفاق سلاح، خاصة وأنهم في معظمهم متطوعين لا يجمع بينهم أي معرفة سوى رفقة السلاح، وهم غير مأجورين على عملهم هذا. لكن هذا الوضع يدفع من جهة أخرى كل واحد إلى التفكير في سلامته الشخصية بغض النظر عن رفاقه، وهكذا زاد اختلاف المواقف باقتراب العدو واختلطت الأمور، ولكي يوقف القادة هذا الاضطراب أمروا حامل العلم بالتقدم نحو العدو، من منطلق أنه لا يوجد فارس لا يدافع عن علمه، لكن حامل العلم وهن وتردد، وكادت القوات المهاجمة أن تنقضّ عليهم، فخرج فارس من الحرس الملكي اسمه: «هرناندو بيرز دل بولغار» سيد حصن «سالارا» وتقدم إلى الأمام، وقد نزع رباط رأسه الأندلسي ـ كالعمة ـ وربطه على رأس رمحه الطويل ورفعه كالعلم وهو يقول: «أيها الفرسان لماذا تحملون السلاح بأيديكم إذا كنتم تطلبون السلامة من أرجلكم، فاليوم يوم الرجولة به يظهر الجبان من الشجاع، فمن يريد القتال ليس بحاجة إلى علم، وليتبع هذا المنديل»، وحرّك علمه هذا، ونهز حصانه بقوة نحو العرب، فكان قدوة دفعت بسواه إلى احتذائها، مما جعل الجميع ينعطفون للحاق به وهم يصرخون صرخات القتال.

ولأن العرب لم يكونوا يتوقعون هذه العطفة من الذين يطاردونهم، أصابهم ذعر مفاجىء، وتفرقوا بكل جهة، والصليبيون يتعقبونهم قتلاً وتمزيقاً لمسافة طويلة، وراح منهم ثلاثمئة فارس، وأجهز النصارى على جرحاهم، وغنموا سلاحهم، وتركوهم أشلاء على الطريق كما أسروا البعض وعادوا منتصرين إلى المخيم، وأمامهم قطيع كبير من الأغنام والبقر، والبغال المحملة بالغنائم، رافعين العلم الذي قادهم إلى النصر أمامهم.

وحين علم «فردناند» ببطولة «هرناندو» أنعم عليه بلقب فارس، وتخليداً لإنجازه عليه أن يحمل على رمحه الطويل منديله دوماً، وأعطاه قصراً لبطولته، مما شجعه على مزيد من البطولات في هذه الحرب مع العرب، جعلت النصارى يلقبونه بلقب «El de Las Hazanas» أي الحائز على الغنائم.

الفصل الخامس عشر

الاستمرار في حصار «بازا» وفروسية «أبناء سراج»:

طلع الملك المسنّ مولاي «الزَّغل» إلى برج قلعته لينظر بتلهف إلى قدوم الغزاة النصارى في الأصفاد إلى باب مدينته «غواديكس»، لكن خاب أمله حين رأى قدوم فرسانه شراذماً متفرقة في غسق المساء خائبين محطمين.

فإضافة إلى الأخبار السيئة التي تصله كل يوم من «بازا»، ومعاناة سكانها، ها هو ذا يعجز عن تحقيق نصر صغير، وقد زاد عدد فرسانه الذين يُذبحون ويقضون في المبارزات، وهو عاجز عن مساعدة «بازا» طالما أن ابن أخيه يترقبه في «غرناطة»، وكل المساعدات التي حاول إرسالها للمدينة إما وقعت بأيدي الصليبيين، أو عادت مدحورة، ورغم أن وضعه أفضل من وضع ابن أخيه «ببدول» كان هذا الملك الكبير كمن يحارب في الأيام الأخيرة لملكه، «فالشيكو» يقبع بالحمراء كالخول الوديع، ومحاربو «غرناطة» الأشاوس لا يقدرون عمل شيء سوى مقارنة تضحية «بازا» بتخاذل عاصمتهم، وهم يطيعون دمية بيد المشركين، وكل نبأ يتلقونه عن اندحار «بازا» يجرح قلوبهم، وكل استغلال لمدافعيها وتضحياتهم تدفع إلى وجوههم بحمرة الخجل، وكثير منهم لم يطق هذه الحال فتسلل ليلاً ليذهب مسرعاً وينضم إلى المدينة المحاصرة، أو إلى جماعة «الزَّغْل»، عبر حرقة وطنية الباقين وتحرقهم للمشاركة، فتشكلت مؤامرة أخرى من تلك المؤامرات التي كانت تعصف بتاج «غرناطة» دوماً، وقرر المتآمرون اقتحام الحمراء فجأة وقتل «ببدول» فيها، ليخرجوا بكل الجيش بعد ذلك نحو «غواديكس» وينضمون لها، ثم ينطلقون بقيادة المحارب القدير «الزغل»، لينقضوا بقوات كبيرة على النصارى، ويدمّروا جيوشهم المحاصرة «لبازا».

لكن سيىء الذكر «ببدول» اكتشف المؤامرة في الوقت المناسب، فأمر بقطع رؤوس قادتها،

وعلّق هذه الرؤوس على أسوار «الحمراء» بقسوة ووحشية غير معهودة فيه ربما هي من مستشاريه النصارى، وقد أدّت إلى إرهاب الناس، وبالتالي تحقيق السكينة في المدينة.

وحين علم الملك «فردناند» بكل هذه الإجراءات التي اتخذت لأجل إنقاذ «بازا»، إتخذ بالمقابل إجراءاته المضادة، بوضع قطع من الجيش على ممرات الجبال للمراقبة، وقطع كل إمداد يصل إلى المدينة، ولتعترض أي قوات متطوعة من «غرناطة»، ولأجل هذا الغرض بنى «فردناند» أيضاً أبراجاً جديدة على كل مرتفع لإطلاق الإنذارات حين رؤية أي عمامة قادمة.

وهكذا وبالتدريج أطبق بحصاره على «سيدي يحيى» ورفاقه الشجعان داخل أسوارهم، بعزلهم عن بقية العالم، وخط الأبراج المواجه للمدينة كان يعزّز دوماً بقوات صليبية جديدة وإضافية من كل العالم المسيحي في كل أسبوع بعد أسبوع، وعلى هذا المنوال راحت الأيام تمر، و«فردناند» ينتظر من الحامية الخور أو المجاعة كي تستسلم، لكنهم كانوا يخرجون له في كل يوم بقوة تدل على أن غذائهم وفير، ومعنوياتهم مرتفعة، ويبرقون بين صفوفه بكل ثقة، لذلك قال هذا الملك الصليبي: «إن المقاتل «محمد بن حسان» قد وضع آماله على تعبنا وتخاذلنا، لذلك يجب أن نظهر له كل روح معنوية عالية، فالتهور في أي هجوم لا ينفع معنا هنا»، لذلك كان «سيدي يحيى» الذي يعرف هذا جيداً يهاجمه يومياً بقواته، وينصب لجيشه الكمائن والمفاجآت، ويقوم بأشد أصناف الهجمات اليائسة التي تردها التحصينات القوية للنصارى في كل مكان، وتجعلها عديمة الجدوى، لكن العرب كانوا يهاجمون هذه التحصينات أحياناً وعلى حين غرّة، ليخترقوها ويدمروها بسرعة، ويعودوا بالغنائم إلى مدينتهم، وأحياناً يأتون من الشعاب والمنحدرات خلف المدينة، والتي من الصعب حراستها، ويندفعون نحو السهل ليقودوا كل القطعان التي ترعى فيه أمامهم، ومن ضواحي المدينة نحو السور مع كل ما تطاله أيديهم من المعسكر.

وقد سببت هذه الغزوات الكثير من إراقة الدماء في صراعات حادة، تميز فيها كثيراً «دي غويلار» وسيد «لوس دونزاليس»، وخلال إحدى هذه المبارزات الساخنة التي حصلت على حافة الجبل، انتبه «مارتين غاليندو» الفارس المناوب إلى أن العرب ينزلون بقواته ضربات قاسية مفاجئة، وهم يوقعون بين صفوف النصارى الكثير من الخسائر، فتقدم «غاليندو» نحو قائدهم العربي وتحداه بمعركة منفردة، وكان هذا القائد من «بني سراج» الأشداء الذين لا يغضون النظر عن مثل هذا التحدي، فوقف أمام متحديه ليغلق فتحة خوذته على وجهه، ويخفض رمحه الطويل، إشارة إلى بدء الهجوم، وكذلك فعل متحديه، ثم اندفع الحصانان نحو بعضهما البعض بكل عنف، لتصيب حربة «غالندو» وجه العربي وتطيح به من عن سرجه، لكنه عاد للوقوف

على قدميه قبل أن يبرم خصمه حصانه باتجاهه ثانية، وتناول رمحه الطويل واندفع نحوه ليجرحه في رأسه وذراعه أيضاً، وهكذا صار «غاليندو» جريحاً على حصانه، وابن سراج جريحاً على الأرض، لكن النصراني لم يعد قادراً على حمل السلاح، وهو ينزف بشدة، وخروجاً عن قواعد الفروسية اندفع مساعدوه لمساعدته، مما دفع بالمقاتل العربي إلى التراجع ببطء نحو الصخور إلى أن لحق بأصحابه.

وقد تضايق الكثير من الفرسان الاسبان من نصر هذا الفارس المسلم، ولذلك ذهبوا إلى تحدي الفرسان العرب، لكن الملك «فردناند» منع هذه الصراعات، كما منع جنوده من المبارزات الفردية، لأنه كان يعرف أن العرب متفوقون فيها، مما سيضعف الروح المعنوية لجنده وهم يرون هزائم فرسانهم، فالأفضل إبقاء الصراع بين كتل الجيوش، لتلعب المدفعية المتفوقة عند «فردناند» لعبتها الحاسمة.

الفصل السادس عشر

وصول راهبين إلى المعسكر من البلاد المقدسة:

قال «آغابيدا»؛ بينما كان الجيش المسيحي المقدس على هذه الحال من مناوأة مدينة «بازا»، وصل إلى المعسكر راهبان من جماعة «الفرنسيسكان»(*)، على أحدهما سيماء الهيبة والوقار، وتبدو عليه علائم السلطة، وهو يمتطي مهراً جيداً، عليه زراكش جميلة، بينما يركب صاحبه بجانبه على مطية متواضعة، ونادراً مايرفع بصره إلى سيده دلالة على وضاعة منصبه.

ولم يكن وصول راهبين إلى المعسكر أمراً ملاحظاً، لأن الكنيسة هي التي كانت تتدخل بشؤون هذه الحرب لتضفي عليها القداسة، لذلك كانت الخوذ لا تتميز كثيراً عن طاقيات رجال الدين، لكن الأمر الذي لفت الانتباه هو كون هذين الراهبين من بلاد بعيدة، وهما مكلفين بمهمة هامة جداً، فقد وصلا لتوّهما من البلاد المقدسة، التي لقداستها تحوي الصليب الذي صلب عليه الرب المبارك في القدس، وقد كان الطويل ذو الهيئة القيادية منهما الأب «أنطونيو ميلان» مقدم نظام الفرنسيسكان في المدينة المقدسة، وكان رجلاً ذا ثقة، مبحوح الصوت وذا شخصية متكاملة قد اعتاد أن يستمع له الناس بشكل مختلف عن استماعهم للآخرين، ورفيقه الصغير الحجم الشاحب الوجه، الناعم الرقيق يتكلم وكأنه يهمس، بطريقة متواضعة وضيعة، كما وصفه «آغابيدا»، يحني رأسه غالباً لدرجة صارت عنده عادة، رغم أنه من أكثر الناس فعالية وغيرة على الدين في كل ذاك النظام، وهو حين يرفع عينيه الصغيرتين من الأرض، كان بهما نظرات تحاول الظهور بمظهر وداعة الحمامة، لإخفاء عيني الأفعى السّامتين وراءهما.

لقد جاء هذا الرجلان الورعان بمهمة سفارة من السلطان الأكبر في مصر، أو كما سماه

(*) Saint Francis.

«آغابيدا» حسب مصطلحات عصره: سلطان «بابليون» الذي أنجز مؤخراً حلفاً، مع خصمه على ملك المنطقة سلطان الأتراك «بايزيد الثاني»، لتوحيد جيشهما من أجل إنقاذ «غرناطة» كما سبق وأشرنا إلى ذلك، لكن الجديد في الأمر هو أن هذا الحلف لم يصمد، وعاد السلطانان إلى حمل السلاح على بعضهما البعض بعداء معروف عند هؤلاء اللامؤمنين كما يؤكّد «آغابيدا»، ومع ذلك يعتبر السلطان المصري نفسه مسؤولاً عن كل المسلمين، ومن هذه المسؤولية سينطلق إلى الدفاع عن مملكة «غرناطة» كي لا تقع بيد المشركين، لذلك أرسل هذين الراهبين إلى ملكي قشتالة، كما أرسلهما إلى البابا، وإلى ملك نابولي، يحذّر من السلوك الشائن الذي يتبعه النصارى بكل وحشية ضد مسلمي «غرناطة»، الذي يعتبرهم من الآن فصاعداً تحت حمايته، وكما عند النصارى يعد هؤلاء المسلمين كأقلية، كذلك لدى السلطان أيضاً عدد كبير من الأقليات المسيحية التي تنعم بحمايته، وهم يتمتعون بكل أملاكهم وشعائرهم دون أي «محاكم تفتيش» أو جرائم ضدهم، لذلك مالم تقف هذه الحرب، ويستعيد مسلمو مملكة «غرناطة» كل ممتلكاتهم التي هُجّروا منها، سوف يعمد إلى قتل كل نصارى بلاده، وإزالة كنائسهم وأماكن عبادتهم، وأكثر من ذلك سوف يدمّر كنيسة المهد والصليب المقدّس.

هذا التهديد المرعب انتشر في كل الجزيرة(*)، مع تفاصيل الكيفية التي ودع بهاأهل «القدس» الأب «ميلان» وصاحبه بالدموع والتضرّع عسى أن تنجح مهمتهما.

(*) ذكر الزركلي في **الأعلام**، ط٣، عام؟، ج٦، ص ٢٤ ـ ٢٥، أن: سلطان الديار المصرية آنذاك الأشرف قايتباي (١٤١٢ ـ ١٤٩٦م) وهو من مماليك الشراكسة، اشتراه الأشرف «برسباي» صغيراً، ثم صار إلى «الظاهر جقمق»... وتعرضت الدولة في أيامه لأخطار خارجية أشدها ابتداء العثمانيين ـ أصحاب القسطنطينية ـ بمحاولة احتلال حلب وما حولها، فأنفق أموالاً جسيمة على الجيوش لقتالهم، وشغل بهم، حتى أن صاحب «الأندلس» استغاث به لإعانته على دفع الفرنج عن غرناطة ـ إشارة إلى مراسلات بينه وبين مولاي «الزُّغل» ـ فاكتفى بالإلتجاء إلى تهديدهم بواسطة القسسة الذين في القدس.

وذكر محمد كرد علي، في **خطط الشام**، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٩، ج٢، ص ١٩٦، أن: بايزيد بن عثمان أي بايزيد الثاني كما ذكره إيرڤينغ ـ أرسل إلى أهل دمشق ـ نكاية بتهديد الأشرف للنصارى ـ نحو ثلاثين اتفاقية مع النصارى، ووضع عنهم جزية ثلاث سنين لقتالهم أهلها... وبالمقابل ـ ونتيجة التهديد والحماية للنصارى بين السلطانين العثماني والمصري المملوكي ـ فحش أمر «خضر بك» ـ نائب سلطان مصر بالقدس ـ نائب القدس وتزايد ظلمه وسفكه للدماء وأخذ أموال الناس... وطال الأمر بين السلطان وبين ابن عثمان في أمره هذه الفتن... والمماليك كلما أرادوا إرسال تجريدة على عدو لهم يضربون الضرائب الفاحشة على الناس ويسلبون الأموال ـ لذلك لم يتحمس الناس وقتها لنصرة الأندلس ـ وحين مات قايتباي كان الخليفة العباسي بمصر: المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز العباسي، وباسم هذا الرجل المهمل كان سلاطين الشراكسة يدعون مسؤولية شكلية على العالم الإسلامي، لذلك ـ كان قايتباي أعظم ملك في المماليك، وكان في الخارج أعظم ملك في الإسلام ـ لكنه لم يفعل شيء سوى منافسة العثمانيين، وحين لم تؤخذ تهديداته بجد بسبب الأندلس ـ صادر اليهود والنصارى مرتين في أيامه، لكنه لم يذبحهم كما كان الفرنجة يفعلون بمسلمي اسبانيا، وبعده جاء الغوري الذي انتصر عليه العثمانيون في مرج دابق وصار السلطان من يومها عثمانياً وخلافة حتى عام ١٩١٨ بدون حاجة إلى خليفة عباسي شكلي يدّعي الاهتمام بشؤون العالم الإسلامي شكلاً، فضرب الصفح عن موضوع الأندلس، ومن يومها مع العثمانيين الذين كان يهمهم ولاء النصارى في بلادهم التي فتحوها.

لذلك استقبل «فردناند» هذين الرجلين بكل تميز أكثر من سواهم ممن يلبس لباس الرهبنة في قصره ويميز نفسه به، وأمضى معهما أحاديث طويلة عن البلاد المقدسة، ووضع المسيحيين والكنائس فيها تحت حكم هذا السلطان المصري(*)، وسياسة هذا الكافر تجاهها، وكان جواب الفرنسيسكان صريحاً وواضحاً، بينما كان الملك يظهر مدى تميزه اللغوي في عصره، رغم أنه قد أصغى في الواقع إلى همس صاحبيه المليء بالحكمة والتواضع والوضوح والطلاقة، كما وصف «آغابيدا» ذلك.

ولأن هذين السفيرين وصلا إلى روما قبل اسبانيا، وأعطيا للبابا رسالة السلطان، فكتب غبطته إلى ملوك قشتالة رسالة، وحملهما لهما ليسلماها لهما حين يصلان، وبها يريد البابا أن يعرف جواب ملكي «قشتالة» لمطالب هذا السلطان الشرقي الطاغية(**).

كذلك كتب لهما ملك «نابولي» حول الموضوع، لكن بعبارات غامضة، تبيّن أنه يريد أن يستقصي أسباب هذه الحرب مع المسلمين في «غرناطة»، وكأن هذا الأمر لم يكن واضحاً لكل العالم المسيحي، كما علّق «آغابيدا» على ذلك، وقال هذا الأب معبّراً عن فضائله وقيمه: «لقد تساءل تساؤلات ليس فيها أي شيء أكثر مما في أي هرطقة لعينة، حين أشار إلى أن العرب مختلفو الطوائف أيضاً، ولذلك يجب أن لا يعاملوا بأي سوء بدون وجه حق، وألمح إلى أنه إذا لم يصب ملوك النصارى أي أذى مباشر من عرب الأندلس، يصير من المهم لوجه الحق أن لا تلوّث سمعة المسيحية بدمائهم، وكأن سيف الإيمان الذي أطلق من غمده يجب أن يرتد قبل أن يدمّر هؤلاء الهراطقة كلياً، أو يطردهم من البلاد، ولكن هذا الملك كان رحيماً بالهراطقة اللامؤمنين أكثر من كونه موالياً لدينه المسيحي كما يجب أن يكون كل أمير مسيحي، لذلك كان في حلف مع السلطان في ذلك الوقت، ضد عدوّهما المشترك: الأتراك».

تلك هي المشاعر التي تعبر عن الفضائل الكاثوليكية جسّدها الفاضل «آغابيدا»، وقد ترددت

(*) يتجلى دهاء «فردناند» في مثل هذه الحوارات الطويلة لأنه كان يريد أن يعرف منها مدى جدية «قايتباي» بتنفيذ تهديده على المسيحيين، وكيف ينظر «بايزيد الثاني» إلى المسيحيين كأنصار له، وحين شكّل قناعاته لم يغير من مشروعه الحربي ولا محاكم تفتيشه شيئاً!!
وما بطش محاكم التفتيش حتى بعد سقوط «الأندلس» إلا لعدم اهتمام العثمانيين بردعها مجاراة لأهواء مسيحيي امبراطوريتهم، ولم تتوقف هذه المحاكم عن جرائمها حتى ضد المسيحيين أنفسهم، إلا بتطاول الزمن وحده، لتسم العصور الوسطى بالظلام، وظلّ صدى نكهتها الكريهة يتردد حتى القرن التاسع عشر مع أمثال إيرڤينغ من أعداء الظلم والظلام كما يرى القارىء من مواقف إيرڤينغ في هذا الكتاب.

(**) يذكر الزركلي في مرجعه السابق، ص ٢٥، أن «قايتباي» كان متقشفاً، له اشتغال بالعلم، وأنه كثير المطالعة، فيه نزعة صوفية، شجاع عارف بأنواع الفروسية، مهيب عاقل حكيم. ويمكننا أن نضيف أنه سياسي يهتم بالواقع لا بالمثل الإسلامي الأعلى، لذلك لم يصالح «بايزيد الثاني» من أجل الأندلس، وفضل التفريط بها على امتداد سلطان العثمانيين، الذي امتد على كل حال، وصفاته هذه من جهة أخرى هي التي منعته من ارتكاب جرائم مشابهة لما فعل الاسبان في بلادهم.

عند مؤرخين آخرين أمثال: «بادر ماريانا» في تاريخه الذي تشع منه مثل هذه الفضائل، و«بيدرو أباراكا» الذي عزا تدخّل ملك «نابولي» إلى السياسة، لا إلى نقص في صحة دينه، فقد كان يعرف أن «فردناند» حين يقضي على العرب في مملكة «غرناطة»، سيصير له متسع من الوقت والوسائل التي تثبت حكم أسرة «أراغون»، لتمتد حتى «نابولي» نفسها.

لذلك أكّد الفاضل الأب «بدرو أباراكا» أن: «الملك «فردناند» لم يكن السيد الوحيد المدمّر الطاغية خلافاً لابن عمّه في «نابولي»، ولا هو الشرير وحده في الساحة، لذلك ردّ عليه بكل لباقة وصبر وتأني المحارب المتدبر، وبألم كبير أخبره، وعاد ليشرح له كل تلك الأفعال التي يعرفها كل العالم عن المسلمين، والتي يتظاهر البعض بجهلها». وفي الوقت نفسه خفّف على نفسه الخطر الذي يواجه النصارى في إمبراطورية السلطان المصري، حيث أكّد للسفراء أنه مهما عظمت الجزية التي يدفعونها، والأموال التي تنهب منهم، ستظل غطاءً يحميهم ضد أي عنف يوجّه ضدهم.

أما «البابا» فقد أعاد بصيغ متحذلقة كعادته كون تدبيرات هذه الحرب لا تخرج عن كونها استعادة لأراضٍ سبق للعرب احتلالها بدون وجه حق، وعبء هذه الحروب التي وقعت بسبب هذا الاحتلال على النصارى هو عقاب لسيئاتهم، أما النصر الذي يحرزونه الآن بهذه الحملات الصليبية فهو من مجد الكنيسة وحدها.

وأضاف «آغابيدا»: «إن ما سمعه المبعوثان من الملك، وما شاهداه في المخيم، وهما محاطان بالفرسان والمجاهدين، كان درساً حقيقياً لهما جعلهما يرسخان إيمانهما بالأراضي المقدسة أرض الصليب المقدس للرب سيدنا، ومعاناة من يحفظها من إخوانهم، وما يقدمه لها الحجاج من نذورهم رغم كل الصعاب، فهي باب النجاة التي ستظل مشعة على قلوب هؤلاء الرجال وهم يلبسون الزرد والحديد، لكي يرفعوا من شأن الصليب بكل إباء على العدو، وتواضع فيما بينهم، يظهر بمدى عمق تبجيلهم لهؤلاء الزوار، وخفض الصوت أمامهم، وهم يخبرونهم أخباراً وقصصاً عمّا حصل معهم من معارك مع هؤلاء الزنادقة، وهم يقبضون على مقابض سيوفهم، ويصرّون على أسنانهم لما سيحصل مع إخوانهم هناك في الأرض المقدسة، وفي الوقت نفسه يصلّون لهم دائماً، ويدعون الرب أن يمكنهم من حملة صليبية أخرى إلى تلك البلاد».

وهكذا أنهى هؤلاء الآباء المقدسين مهمتهم مع الملك، وودعوا بمثل ما استقبلوا به من حفاوة وتكريم(*)؟! واتجهوا نحو «جين» لزيارة أرفع ملكة كاثوليكية، يعتبرون قلبها مقراً لكل شفقة وإحسان ـ حتى حين كانت تصلي وهي تسمع اغتصاب الأطفال أمامها في قصبة ملقة ـ

(*) عبارات شكلية ممجوجة لازالت تستعمل في الأعلام و«البروتوكول» السياسي.

فاستقبلتهم كرجال مقدسين بهم ما يزيد عن كل كرامة إنسانية وظلّوا بحضرتها طوال إقامتهم في المدينة، وكان المحترم الأب السفير قد أغرق جلالتها بعباراته الأدبية اللاتينية الفخمة، كما لاحظ مرافقوه الذين وجدوا إذناً صاغية من الملكة لها دوماً، وكان هذا «الحلس الملس» ينال دوماً الجوائز على تواضعه، فقد أكد «آغابيدا»: «أنها ضمنت له دخلاً سنوياً بقيمة ألف «دوقة» من الذهب لينفقها كما يشاء على رهبان الصليب المقدس في القدس».

وأكثر من ذلك وفي لحظة وداع هؤلاء السفراء قدّمت لهما هذه الملكة الكاثوليكية الورعة شالاً حاكته يداها الغاليتان، كي يوضع فوق كنيسة القيامة في مكان الصليب المقدس، كأثمن هدية دفعت إلى كل عبارات الشكر من حاملها، مما دفع بالدموع إلى عيني كل هذا الحضور المقدس.

وجدير بالذكر هنا أن «آغابيدا» لم يذكر نتائج الاتصالات التي ترتبت على زيارة هذين السفيرين بين الاسبان والسلطان «قايتباي»(*)، كما أرسل ملكا «قشتالة» بعد رسوخ ملكهما المؤرخ المعروف «بيترو مارتير أن جليريا» كسفير للسلطان، وحصل منه على الكثير من التراجعات عن المصادرات التي أوقعها على النصارى، وعلى الحجاج الذين يزورون كنيسة الصليب بالقدس، وقد كتب «بيترو» عن رحلته هذه بالتفصيل الذي يهمّ كل مؤرخ منصف، ليعرف فرق العقليتين الإسلامية والصليبية في ذاك الوقت، في كتابه المعنون: «الرحلة الأسطورية إلى بابليون De Legatione Babilonica».

(*) وسكت عنها لأنه لا يريد تبريرها، وهذا ما يفسر لنا سبب فشل رسل ملوك الأندلس «لقايتباي» الذين ذكرهم «المقري» أمثال القاضي بغرناطة «أبي عبد الله محمد بن الأزرق» الشارح الكبير لنظريات «ابن خلدون»، والذي أشرنا لكتابه الهام: «**بدائع السلك**»، كمرجع سابق، والذي (استنهض عزائم السلطان «قايتباي»... فكان كل كمن يطلب بيض الأنوق ـ ما يشبه النسور التي تبيض في رؤوس الجبال ـ ... فدافعوه ـ أي المصريون ـ بقضاء بيت المقدس)، كنوع من الرشوة التي لم يشعر بها صاحبها، أنظر: **نفح الطيب**، مرجع سابق، ج٣، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

الفصل السابع عشر

كيف أوجدت الملكة «إيزابيلا» الوسائل لتزويد الجيش بكل ما يحتاج إليه:

يميل «آغابيدا» إلى إعطاء الملكة «إيزابيلا» دوراً رئيسياً في هذه الحرب، التي لم تشارك كثيراً في معاركها، لكنها كانت الروح المحركة لهذه المعارك، والداعم الحيوي لكل تحركات جيوشها، فبينما كان «فردناند» يتألق مع فرسانه في ساحات الحرب، وفي معسكره هذا على وجه التخصيص، كانت الملكة محاطة بقديسيها المستشارين في القصر الفخم في مدينة «جين» تؤمّن الوسائل والطرق التي تبقي على الملك في مكانه، فقد أخذت عهداً بتأمين التموين والدعم كما سبق وأشرنا، وزادت بإعطاء المال والسلاح حتى تساهم بشكل فعّال في إسقاط المدينة، فنقص الرجال الذين يقضون في المعارك كانت تحاول تعويضه بصعوبة، لكن حبّ الفرسان الاسبان لها كان يدفعهم إلى تلبية ندائها دوماً، بأن يحضروا بأنفسهم أو يرسلوا رجالهم للمشاركة بالحرب، رغم كل هذه الخسائر المرعبة بالأرواح فيها، وكان مماليك هؤلاء يصلون يومياً إلى المعسكر، وقد أرسلتهم العائلات المحاربة الاسبانية، فكل يوم يرقب العرب علماً جديداً يصل، وخلفه قوات جديدة يعرفها كل المقاتلين القدامى منهم.

وهكذا صارت الصعوبة الكبرى في تأمين التموين لكل هؤلاء، وهم إضافة إلى حاميات المدن والقرى التي سقطت بحاجة دائمة إلى التموين «اللوجستي» الحربي من كل الأغذية والمعدات، خاصة وأن كل المزارع حولهم مقفرة مدمّرة، لدرجة أصبحت المجاعة تتهدّدهم في البلاد التي أخضعوها، فكان إرسال التموين اليومي لكل هؤلاء بأعدادهم الغفيرة ضخماً في بلاد لا طرقات فيها ولا أنهار تسمح بالملاحة فيها، فكل شيء يجب نقله على ظهور الدواب في بلاد وعرة، وعبر جبال صعبة، وهم معرّضون لهجوم العرب عليهم من كل مكان.

إلى درجة أن متعهدي تموين الجيش صاروا يختفون عن الأنظار، لتعرّض بضائعهم لكل هذه

المهالك، لذلك لجأت الملكة إلى استئجار أربعة عشر ألف دابة على نفقتها الخاصة، وصادرت كل قمح «الأندلس وسانتيغو وكالاتراڤا» وسلّمته لرجال أهل ثقة، بعضهم يجمع هذا القمح، وبعضهم يطحنه، وآخرون يشرفون على خبزه وتوزيعه على القوافل التي ستوصله إلى المعسكر، بحيث تصل كل دفعة من مئتي دابة على حدة محمية بحماية عسكرية فائقة، وتعود بنفس الحماية من قوات عسكرية كبيرة للدفاع عنها من هجمات العرب.

ولم تكن الملكة تسمح بيوم راحة واحدة لهذه القوافل، لأن الجيش يعتمد على وصولها يومياً للغذاء، وقد جعل في المعسكر مخبزاً ضخماً يوزّع منه الخبز بسعر ثابت لا يرتفع ولا ينخفض.

لقد كانت نفقات هذا الأمر باهظة جداً، لكن للملكة مستشارين عندهم العيون في كل البلاد، ومنهم يعرفون فن استقصاء الموارد فيها، حتى لو كانت مختبئة في أنفاق الأديرة والكنائس، أما التجار والأثرياء فكانوا يعطون الملكة ثقة منهم بنزاهتها وتقيدها بكلامها، والعائلات النبيلة كانت تقدم لها قبل أن تسأل، ومن جهتها رهنت الملكة دخل الكثير من القرى والمدن لشراء هذه التموينات، وباعت النصيب السنوي لبعض ميراثها، وحين لم يكفِ كل هذا، باعت ذهب القصر وفضته، وحتى الكثير من مجوهراتها الشخصية إلى تجار في «ڤالنسيا وبرشلونة» حيث دُفِعَ فيها مبالغ هائلة، ذهبت فوراً لتزويد المعسكر بحاجاته.

هذا النشاط وتلك المبادرة من شجاعة هذه المرأة، دفعت الناس إلى التعلّق بها، وخاصة رجال الحرب منهم، فكان هذا الجيش في معسكره مرفهاً بالقوافل التي تحضر له كل ما يحتاجه من كل أنحاء البلاد، مما دفع التجار إلى القدوم للمشاركة بالربح من جنوده الأثرياء، فامتلأ المعسكر تدريجياً بهم، وببضائعهم من كل نوع، والتي راح الفرسان الشباب يبتاعونها بفائض المال وكل شيء لديهم، فظهرت الدروع والدرق المزركشة بكافة أشكالها للبيع، والخوذ النادرة والبنادق الغنية والمطعمة بالذهب والفضة، مما يحب الفرسان الاسبان استعماله والتفاخر به، كذلك ظهر البيطرية والسروجية، وتنافس الحرفيون في تقديم خدماتهم ومهاراتهم، وعرضوها في خيام صارت ترفل بكل نفيس من هذه الأدوات التي يستعملونها، والمصنوعات التي يبيعونها، حتى أن الثياب والبروكار صار يباع هنا، وكل الأصناف الغالية التي تحيّر الأنظار بعظيم صنعتها، وكل مواعظ «فردناند» لم تمنع الفرسان الشباب من استعراض دروعهم ودرقهم ولباسهم الفاخر في المناسبات والاحتفالات.

الفصل الثامن عشر

الكارثة التي حلّت بالمعسكر:

وبينما كان معسكر النصارى على هذا الوضع المزدهر، يتوسع حول أسوار «بازا» وكأنه معسكر عطلة صيفية أو عيد، وبينما كانت الدواب المحمّلة بكل الأطايب والبضائع الفخمة التي تنزل الوادي من الصباح حتى المساء، لتصب في المعسكر كالنهر الدافق بالخيرات، كان المحاصَرون التعساء يعانون من نقصان تموينهم بسرعة، وقد بدأت المجاعة تصيب الجانب المسالم من المجتمع.

و«سيدي يحيى» الذي كان يتصرّف دوماً بكل شجاعة ومغامرة طالما هناك أمل، قد بدأ يفقد روح مبادرته النارية المعهودة، وصار يجوب أسوار «بازا» كاسف البال وهو ينظر إلى مخيم الصليبيين، ويغوص في تأملات صامتة محزنة، لاحظها المحارب القديم «السيد محمد بن حسان»، ولاحظ هذا المزاج السيىء لأميره، فراح يسعى لرفع معنوياته بقوله: «إن موسم الأمطار على وشك الهطول، وسينزل الفيضان من الجبال، وستملأ الأنهار الوادي بالماء، والملك الصليبي يعرف هذا جيداً، وهو لن يجرؤ على مواجهة هذا الموسم بواد معزول عن العالم بأقنيته ومياهه الفيّاضة، فعاصفة شتوية واحدة من جبالنا سوف تزيل مدينته المطرّزة هذه، وكل شوارعها المزخرفة برشة بردٍ يعقبها هطول».

وهكذا صار «سيدي يحيى» ورجاله يعدّون الأيام لبدء فصل الشتاء، وبينما كانوا يراقبون معسكر الأعداء في أحد الأيام، ألفوه بحالة اختلاط كلّي، فهناك أصوات «مهدات» الحديد تضرب من كل جهة، كما لو أنهم يصنعون آلة حربية جديدة، ولاستغراب «سيذي يحيى» رأى أنهم يبنون بيوتاً، وأنها قد بدأت تظهر بشكل مكثّف، وبفترة وجيزة ظهرت آلاف الأخشاب منتصبة لتغطيها أسقف أُخذت من الأبراج المهدومة أو من الغابات، وتحمل شارات القادة

المختلفين وفرسانهم، بينما يبني الجنود العاديون أكواخاً من الطين وجذوع الشجر التي يغطيها القصب، وعلى الرغم من أنف العرب ذهبت الخيام التي كانت كمراكز حصار لهم مع غيوم الصيف، ليظهر مكانها مخيم ثابت على شكل مدينة، فيها الشوارع والأزقة والساحات، وفي منتصفها على هضبة تشرف على كل المكان ظهر فيها منزل ضخم عليه علم «آراغون وقشتالة» يرفرف بكل ثقة فوقه، دلالة على أنه سكن الملك.

لقد قرّر «فردناند» إذاً أن يحوّل مخيمه إلى مدينة، من أجل أن يصمد للشتاء القادم، ولكي يقنع العرب أيضاً وبذات الوقت بإصراره على الاستمرار بالحصار، لكن سرعة إنجاز هذا العمل لم تترك وقتاً كافياً للمهندسين الاسبان أن يأخذوا باعتبارهم طبيعة الطقس، لأنه ولمعظم السنة نادراً ما تنزل المطر في «الأندلس»، ولذلك تظلّ الأنهار ضحلة تتعرج على جوانب الجبال، وكأنها مجرد خيطان من الماء تدغدغ السهل وتتشعب فيه، بشكل يكفي فقط لإحياء الوادي، الذي لا تلبث أن تضيع فيه وبمسطحاته العارية، التي تبدو في الصيف وكأنها صحراء بها سراب أنهر وماء، لكن مطرة خريفية واحدة تكفي لأن تغير كل هذه الصورة، فالغيوم تنحدر كالطوفان فوق الجبال الواسعة ومعها يزمجر الرعد القاصف الذي يعقبه انهمار المطر الهاطل، فتنتفخ الأنهار فجأة بالسيول التي ترعد وهي تنحدر نحو الوادي، قاذفة أمامها الصخور والأطيان، مما يجعل الأنهر تفيض على ما كان يبدو شاطئاً عارياً بجانبها بشكل مفاجىء، يغمر كل الوادي بعنف الطبيعة الوحشي المفاجىء.

وما كاد النصارى ينتهون من أبنيتهم المؤقتة الضعيفة هذه، حتى ظهر هذا المطر الموسمي فجأة، وراح الماء يتدفق من كل صوب، فغرق المعسكر فوراً، وكثير من البيوت أزالها السيل، أو أذابتها الأمطار، أو تداعت إلى الأرض، وتحتها رجال مع دوابهم، ففقد الكثير حياتهم بذلك، وخسر الكثير دوابهم ومتاعهم، ولنضيف إلى مصيبة وفوضى المعسكر هذه توقف التموين اليومي لكل المعسكر، لأن المطر قطع الطرقات، وجعل اجتياز الأنهار مستحيلاً، لذلك طغى على الجيش ذعر عام، لأن قطع الإمداد عن هذا الجيش ليوم واحد يؤدي إلى فقدان المواد الغذائية والخبز، لولا أن حسن طالعهم ترافق بأن هذه الأمطار لم تهطل إلا ليوم واحد وكانت عابرة، قصفت بكل قوة ثم توقفت، مما جعل الأنهار تعود إلى مجراها الطبيعي بعد فترة قصيرة، فاستطاعت الإمدادات العالقة على شواطئها الوصول سالمة إلى المعسكر.

وبمجرد أن سمعت «إيزابيلا» بتعطل الإمدادات، تحرّكت لكي تجند ستة آلاف من المشاة، ووضعتهم تحت إمرة قادة خبراء في إصلاح الطرق وتمهيدها، ولكي ينشؤوا أيضاً الجسور مسافة واحد وعشرين ميلاً في منطقة فيضان الأنهر، بحراسة القوات التي وضعها الملك لكي تحمي

الطرقات الجبلية، وقامت هذه القوات متعاونة بشق طريقين للإمدادات ذهاباً وإياباً كي لا تعرقل الإمدادات بعضها بعضاً، وكل ما هدمه الطوفان أعيد بناؤه بشكل أقوى وأصلب، واتخذت كل الإجراءات لحماية المعسكر من أي عامل طبيعي آخر.

الفصل التاسع عشر

الاحتكاك بين الصليبيين والعرب أمام «بازا»، وتضحيات السكان في الدفاع عن مدينتهم:

بعد أن واجه «فردناند» العاصفة الموسمية وما سببته من خلل في معسكره، فكّر في الأمراض التي يمكن أن يتعرض لها معسكره من طقس الشتاء، فصار يريد أن ينهي هذا الأمر لذلك قدّم شروطاً أكثر تنازلاً لسكان «بازا»، وأرسل إلى السيد «محمد بن حسان» رسولاً يعرض عليه أمن الناس وحريتهم وممتلكاتهم، والكثير من الجوائز له إذا سلّم المدينة، ولكن هذا المحارب القدير ما كان ليبهر بهذه العروض الملكية، خاصة وأن لديه معلومات مبالغ فيها عن أضرار مخيم النصارى نتيجة العاصفة الأخيرة، ومدى معاناة الجيش من انقطاع التموين عليه وقتياً، فاعتبر مناورة «فردناند» دليلاً على يأس موقفه، لذلك قال لأصحابه: «لن يمضي وقت طويل قبل أن نرى هذه الغمامة من جراد النصارى تندفع بعيداً بعواصف الشتاء، وبمجرد أن يديروا ظهورهم يأتي دورنا لضربهم، وهذه المرة ستكون ضربتنا حاسمة بعون الله»، لذلك كان ردّه عنيفاً وحازماً على عرض ملك النصارى، مع أوامر لجيشه بالخروج لمهاجمة مواقع المحاصرين وخنادقهم بكل عنف، وكان من نتيجة ذلك مبارزات يومية مميتة وجريئة، أودت بحياة الكثير من شجعان الجيشين.

ففي إحدى هذه المعارك خرج ثلاثمئة فارس مع ألفي راجل، وتسلقوا الجبل خلف المدينة لإلقاء القبض على النصارى الذين يعملون هناك، وفاجأوا قطعة حراسة عسكرية برفقة الكونت «دي يورينا» فقتلوا بعضهم، ولاحقوا الآخرين حتى رأوا قطعة من قوات الكونت «دي تنديلا وغوانزافو أوف كوردوفا»، فنزلوا عليهم بكل عنف، مما دفع هذه القوات إلى الفرار، لكن الكونت وجد بالصدام وسيلة أقل خطراً من الهروب، فأغلق دريئة وجهه، ورفع سلاحه كعادة الفرسان في الصدام، واستعدّ «غوانزافو» بجانبه، وهما يقودان القوات التي بقيت معهما بهجوم ارتدادي عنيف ضد العرب.

وكان هؤلاء اللامؤمنين يضغطون بقوة، ولهم أفضلية في هذا الهجوم، وعندها سمع «ألونزو دي غويلار» بالخطر الذي يتعرض له أخوه «غوانزاڤو» اندفع لمساعدته بصحبة الكونت «أوف يورينا» ومجموعة من قواتهما، فظهر قتال حامٍ من هضبة إلى أخرى، ومن صخرة إلى أخرى، ورغم قلّة عدد العرب بالنسبة لهذه القوات التي اجتمعت عليهم، لكنهم كانوا أخف في الحركة منها وأمهر بالمبارزة، وأخيراً تمّ دفعهم من هذه المرتفعات ولاحقهم «دي غويلار» مع أخيه إلى حدود ضواحي المدينة ذاتها، وقد خسروا الكثير من شجعانهم في ساحة المعركة.

تلك كانت واحدة من الاحتكاكات التي تحصل كل يوم على أسوار المدينة، والتي ذبح فيها الكثير من الفرسان الشجعان دون أي فائدة تذكر لأي من الفريقين، والغريب هو كيف أن العرب رغم خسائرهم المتكررة هذه، ظلّوا يخرجون يومياً لهذه المبارزات بروح معنوية عالية تدهش(*)، كما لو أن دفاعهم عن المدينة قد زاد بزيادة معاناتهم فيها.

وكان الأمير «سيدي يحيى» الأكثر خروجاً في هذه الهجمات اليومية رغم أن أمل النجاح فيها كان ضعيفاً، كذلك نفذت منه كل أعطيات الجنود، ورغم ذلك ظلّ المحارب القدير «ابن حسان» يزوّده بما يقدر عليه لهذه الغزوات، محرضاً السكان على التضحية لكي تظل المدينة على جاهزيتها القتالية، وقد قال في إحدى هذه المناسبات: «إن العدو لا يجرؤ أن يواجه الشتاء وهجماتنا معاً، لذلك سوف يرحل عنكم قريباً، لتعودوا إلى أسركم، لكن عليكم تأمين رواتب الجند حتى تحميكم، فقد فرغت خزينتنا، وقطع عنا المدد، فمن المحال أن نظل ندافع دون عونكم».

وعلى هذا الأساس كان الناس يتطوعون بإعطاء كل ما لديهم من فضة وذهب إلى «ابن حسان»، طالبين منه صهرها أو تقطيعها أو أن يفعل بها ما يشاء لدفع رواتب الجند، وهكذا صارت نساء «بازا» لا تبخل بحليها من أجل ذلك، فليس من الحكمة أن تُصفَّ المجوهرات على أيديهن وبلادهن والمدافعون عنها بحاجة إلى الخبز، وهكذا رحن يقدمن أساورهن وأطواقهن وكل مجوهراتهن إلى هذا السيد المدافع، لكي يستمر بحمايتهن وحماية أسرهن، لأنه إذا سقطت «بازا» فلا حاجة لهن بأي حلي، يفرح بها ناهبوها، وهن سبايا لهم.

هكذا تمكن «محمد» من دفع رواتب الجند من هذه الأعطيات، لكي يستمروا بالدفاع عن المدينة بروح عالية، وحين وصل خبر هذا الكرم الشعبي إلى «فردناند» عن سكان «بازا»، وما أعطاه قادتها لسكانها من أمل انسحاب جيشه قريباً، وترك حصارها يائساً، قال: «سأعطيهم

(*) على القارىء أن يلاحظ أن الغزو عند العرب يعني الشجاعة بالكرّ والفرّ على حدّ سواء، وكلاهما لا يعني الهزيمة ولا النصر، بل يعني انهيار روح الخصم المعنوية من تكرارهما.

برهاناً مقنعاً عن خطأ آمالهم هذه»، فكتب إلى «إيزابيلا» طالباً منها أن تحضر إلى المعسكر مع كل حاشيتها بشكل علني، وتأخذ مكانها للإقامة معه في الشتاء(*)، وبذلك يقتنع العرب بتصميم الملكين النهائي على استمرار الحصار حتى تستسلم المدينة، وقد تأكد بأن هذا سيسرع في إسقاطها.

(*) اتبع هذه السياسة نفسها في حصار «ملقة» كما سبق وذكرنا.

الفصل العشرون

كيف وصلت الملكة «إيزابيلا» إلى المعسكر، وملابسات وصولها:

ظلّ «محمد بن حسّان» يشجّع أصحابه بأن هناك أمل بأن يفكّ الجيش الملكي الحصار، إلى أن سمعوا هتافات الفرح تخرج من معسكرهم، مع طلقات المدفعية الواحدة والعشرين التي تحيي زائراً مهماً، كما نزل قواد الأبراج العالية في المدينة يحملون معهم أنباء رصدهم لجيش مسيحي كبير يتقدم نحو الوادي، فطلع «محمد بن حسّان» وقادته إلى برج من هذه الأبراج العالية على السور، وتأكدوا من صحة هذا النبأ، حيث رأوا هذه القوات تنزل الوادي بسلاحها البرّاق، وسمعوا عن بعد أبواقها وأنغام موسيقى النصر التي تطلقها، وبينها سيدة محاطة بكل أبهة تبين أنها الملكة، وهي تركب بغلاً عليه غلالة مطرّزة بالذهب وتحفّ بالأرض، وعلى يمينها تركب ابنتها الأميرة «إيزابيلا الصغيرة» على مطية مزخرفة بشكل مشابه رائع، وعلى يسارها كاردينال اسبانيا الأكبر، ويتبعهم نساء البلاط وكوكبة من الفرسان، مع حرس من ذوي الرتب العالية بسلاحهم الفائق، وعندما تأكد هذا المحارب ـ ابن حسان ـ أن هذه هي الملكة وقد جاءت لكي تأخذ مكانها في المعسكر، شعر بخيبة أمل كبيرة، والتفت حزيناً إلى مقدميه قائلاً: «أيها الفرسان لقد حسم مصير «بازا»».

فظلّ هؤلاء الفرسان يحدّقون بالجيش القادم بالملكة من بعيد، بمزيج من الحزن والإعجاب بهذه الأبهة، التي ستقرر سقوط مدينتهم، لذلك اقترح البعض النزول ومهاجمة هذا الموكب الملكي، لكن الأمير «سيدي يحيى» منعهم، كما منع قصف الموكب بأي مدفعية، أو أي إهانة تصدر من مدينته، لأن شخصية الملكة كأنثى تظل محترمة من كل الفرسان، عرباً كانوا أم اسباناً، وكل فرسانه يجسدون هذا الفهم الفروسي للأمور الذي تقره كل روح بطلة وثّابة، خاصة وأنهم من خيرة وأنبل فرسان هذه الأمة.

أما سكان «بازا» فقد تدافعوا حين علموا بوصول الملكة إلى كل فتحة في السور أو مرتفع فيه للإطلال على هذا المنظر، وهكذا غطى السور والأبراج ومنارات المساجد تجمّع هائل من العمائم مع بعضها، يحدّقون بهذا المنظر الاستعراضي، ولإكمال المشهد خرج الملك «فردناند» بكل أبهته الملكية محاطاً بالمركيز «أوف كاديز» والماستر «أوف سانتيغو»، ودوق «ڤالا»، وأدميرال قشتالة، وغيرهم من النبلاء المعروفين، بينما خرج كل فرسان المعسكر يتبعونه بنسق عسكري منظم، وهم يملأون الجو بهتافاتهم لهذه الملكة الوطنية.

وبعد أن تلاقى الملكان وتبادلا القبل والتحيات الرسمية، اختلط الجيشان ليدخلا المعسكر على أنغام عسكرية، ليجعلوا أعين اللامؤمنين تزيغ بين لمع حرابهم ودروعهم المزركشة بالذهب، وسروج خيولهم الحريرية المطرّزة بالخيوط الذهبية والفضية بألوانها البرّاقة، وبين الأنغام العسكرية التي تضرب الطبول والأبواق بكل عنف مع أصوات الهتافات التي يطلقها الجند لتشق عنان السماء.

وقد لاحظ المؤرخ «هرناندو دل بولغار» الذي كان شاهداً في ذلك الوقت لهذه الأحداث، أنه من الرائع بذات الوقت أن تشهد مع قدوم الملكة كيف أن الحرب قد انطفأت فجأة ودفعة واحدة، وهدأت خواطر الناس كلهم من كلا الفريقين، فأغمدت السيوف ولم تعد النبال تطلق بشكل قاتل، وقد توقفت المدفعية التي كانت لا تهدأ بين الجانبين ولم يعد يسمع هديرها، وظلّت الحراسة مشدّدة من كلا الجانبين، دون أن يكون هناك أي هجوم متبادل، ولا مبارزات أو أي عمل عدائي.

هكذا تأكد «سيدي يحيى» بوصول الملكة أن النصارى قد قرروا استمرار الحصار، فالمدينة ستسقط، وهو الذي كان على استعداد أن يضحي بحياة جنوده لو كان في ذلك أي ثمرة عسكرية يمكن تحقيقها من هذه التضحية، ولكن الآن ستسفك دماؤهم دون أي هدف، في هذا الدفاع اليائس.

ولذلك وبناءً على طلب الأمير «سيدي يحيى» تشكلت هيئة مفاوضات برئاسة الماستر كوماندار أوف ليون «دون غويتري دي كارديناس» والمجاهد العربي السيد «محمد بن حسّان»، واجتمعا في مكان محدد يمكن رؤيته بين المعسكر والمدينة، وكان أعضاء هذه الهيئة فرساناً محترمين من كلا الجيشين، وكان لقاؤهم بغاية اللياقة، لأنهم عرفوا بعضهم بشكل جيد في ساحات الحرب، وكل واحد كان معجباً ببطولة خصمه، وبدأ قائد «ليون» يوضح بصراحة عقم الاستمرار بالدفاع، محذراً «محمد» من عواقب ما حصل «بملقة» بسبب عنادها وقال: «إني أعدك باسم الملك الذي أمثله بأنك إذا سلمت فوراً، سيعامل سكان بلدك كرعايا، وتحمى

أملاكهم وحريتهم ودينهم، أما إذا رفضت فستكون أنت أيها القائد المنضبط سبب كل خراب وموت وعبودية سيعاني منها سكان «بازا»».

وعند هذا توقف الإجتماع وعاد «ابن حسان» إلى المدينة للتشاور مع رفاقه، فمن الواضح أن كل أنواع المقاومة قد غدت عقيمة، لكن القادة العرب كانوا يعرفون أيضاً كيف ستلطخ أسماؤهم، إذا سلموابكل طواعية مكاناً هاماً كهذا دون أي هجوم، لذلك طلب الأمير «سيدي يحيى» الإذن لإرسال مبعوث له إلى «غواديكس»، مع رسالة إلى الملك الكبير «الزَّغْل» يخبره بشروط الاستسلام، وقُبل إذنه، وأرسل النصارى مرافقة آمنة مع السيد «محمد بن حسان» في هذه المهمة المصيرية.

الباب الخامس

الفصل الأول

استسلام «بازا»:

كان الملك الكبير يجلس في غرفة منعزلة داخلية في قصر قلعة «غواديكس» وقد انهارت معنوياته، وهو يتأمل مستقبله الغامض، عندما أعلن وصول رسل من «بازا»، رأى في خبرهم هذا قبل أن يصله مد المصيبة، ولما دخلوا عليه سألهم فوراً: «كيف بلغت الأمور في «بازا»؟!» فأجاب السيد «محمد»: «دعني أخبركم!!» واضعاً في يده الرسالة التي يحملها من «سيدي يحيى». وفي هذه الرسالة تفصيل الوضع البائس الذي وصلت إليه المدينة، واستحالة الإبقاء عليها دون معونة من «الزغل»، كما أن فيها شرحاً للشروط الجيدة التي عرضها النصارى للاستسلام، والواقع أن «الزغل» ما كان ليثق بما في هذه الرسالة لو أنها جاءته من شخص آخر، لكنه كان يثق «بسيدي يحيى» كما يثق بنفسه، لذلك أصابه ما في هذه الرسالة بالقلب، فبعد أن قرأها شرد ذهنه طويلاً، وظلّ في صمت مطبق، ورأسه منحنٍ على صدره، وأخيراً حين عاد إلى نفسه طلب أهل الحل والعقد والفقهاء في «غواديكس»، وأخبرهم بما يحصل في «بازا» طالباً نصحهم، و«الزغل» حين يطلب نصح الآخرين يكون منهك القلب، قد هدأت روحه القتالية، لأنه رأى نهاية حكمه تقترب، ولم يفعل هؤلاء أكثر من إضفاء المزيد من البلبلة على فكره، باختلاف آرائهم التي كانت كلها عقيمة، فما لم تدعم «بازا» بجيش قوي لن تصمد، وقد ثبت استحالة دعمها بشكل فعّال.

ولهذا صرف «الزّغل» هذا المجلس بيأس، وأبقى على المجاهد «محمد» وحده أمامه، وقال له: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، عد إلى ابن عمي «سيدي يحيى» وأخبره أنني لا أملك القوة التي أستطيع أن أساعده بها، وليفعل ما يراه ملائماً، لقد أثبت أهل «بازا» بصمودهم ما يستأهل أن يبقى على مدى الدهر، ولا أستطيع أن أطلب منهم المزيد من التضحيات في دفاع يائس».

وهكذا قرّر ردّ «الزّغل» مصير المدينة، فوضع «سيدي يحيى» شروط التسليم التي قُبلت بأحسن ما يكون، فقد سمح لكل الجنود والفرسان الذين جاؤوا للدفاع عن المدينة من أماكن مختلفة أن يغادروا بسلاحهم وخيولهم وكل عتادهم، أو أن يبقوا في الضاحية ويتمتعوا بدينهم وقوانينهم، بعد حلف اليمين للملك، ودفع الضرائب التي كانوا يدفعونها لملوك العرب له، على أن تسلم المدينة وقلعتها خلال ستة أيام، خلالها يستطيع السكان الخروج بكل ما يملكون، وأثناء ذلك يستلم قائد «ليون» خمسة عشر طفلاً من أبناء وجوه البلد، وحين سيسلم «سيدي يحيى» و«سيدي محمد» هؤلاء الرهائن الذين من بينهم أولادهما، يؤديا فروض الطاعة للملك والملكة، وهكذا كان: فاستقبلهما الملك والملكة بحفاوة بالغة ولطف زائد، وأهدياهما من أفخر الهدايا، كذلك قدما الهدايا إلى كل الفرسان معهما، وتضمنت المال والثياب والخيول وباقي الأشياء الثمينة.

فامتن «سيدي يحيى» لهذه المقابلة، ولهذا الكرم من «فردناند وإيزابيلا» إلى درجة أنه أقسم بأن لا يرفع سيفه ثانية ضد مثل هذين الملكين الكرام.

أما الملكة ولإعجابها بصموده وقدراته العسكرية وإخلاصه، أكّدت له أن وجوده إلى جانبها قد أنهى الحرب التي تدمر مملكة «غرناطة»، وهكذا كانت الكلمات والمجاملات تخرج قوية من شفاه الملكين، مما جعل «سيدي يحيى النيار» يعجب ويغمر بالكلام الذي تقوله «إيزابيلا»، فشعر بولاء مفاجىء لها، فطلب منها أن تضمه إلى حاشيتها ليخدمها، وفي غمرة هذا الحماس المفاجىء طلب أن لا يكون سيفه في خدمتها فقط، بل أن يستعمل كل نفوذه الذي كان عظيماً بإقناع مولاي «الزّغل» بأن يسلم لها مدينتي «غواديكس» و«المرية»، وأن يكف عن عدائه للملكين، وقد كان تأثير هذا اللقاء الملكي قوياً جداً على هذا الفارس، ليصل الأمر إلى دينه؟ فقد تنوّر فجأة بأن «المحمدية» بدعة هرطوقية، وأعجب بالنصرانية كحقيقة دينية مستنيرة تخرّج ملوكاً بهذا الشأن، ولذلك طلب أن يعمد، وأن يحمل فوراً إلى الكنيسة، وهذا طبعاً ما عظم من شأنه «آغابيدا» في تاريخه، مبدياً كيف أن الورع المفاجىء لهذا اللامؤمن واحد من أعظم إنجازات ملوك الكاثوليك، وطبعاً من أعظم ما تمخضت عليه هذه الحرب المقدسة، لذلك قال: «لقد أعطي لهذين الملكين القديسين القدرة على صنع العجائب من أجل نشر الإيمان، وأوضح مثال على ذلك ما فعله «فردناند» الأكثر كاثوليكية من الجميع في تحويل هذا السيد الأمير إلى النصرانية».

أما المؤرخون العرب فقد قللوا من هذا الشأن الإعجازي للقصة، حين أوضحوا ما ضَمِنه الملكين لهذا الأمير ونسله من بعده من إقطاعات في «مارشينا» ومدن تلحق له مع أراضٍ بمن فيها من ناس كممماليك له(*).

(*) كشفاً للبنود السرية التي ترافق كل المفاوضات، دائما وأبداً.

ولم يسكت «آغابيدا» عن هذا، بل اعتبره إجراء حكيماً من إجراءات «فردناند» لتأليف قلوب من تحولوا عن دينهم حديثاً، معتبراً أن سياسة ملوك الكاثوليك هي بالتوازن الدائم بين الورع والثواب، ولذلك قام الملك بحفل استعراض رائع وشعبي لهذا المتحوّل عن دينه وهو يتجه نحو الكنيسة، لكن التعميد يجب أن يكون حسب أوامر «فردناند» سرياً، خوفاً من أن يعتبر هذا الفارس مرتداً بعين شعبه، فينفضوا عنه، مما يضعف نفوذه في إنهاء هذه الحرب.

كذلك تحول «ابن حسان» مثل سيده وأميره، وحذا حذوهما الكثير من الفرسان العرب، واعتبرت أعمالهم هذه اعتباراً كبيراً، ونالوا عليها الكثير من الأعطيات.

هكذا وبعد حصار استمر ستة أشهر وعشرين يوماً استسلمت مدينة «بازا» في الرابع عشر من كانون الأول/ديسمبر ١٤٨٩م في عيد «القديسة باربرا»، التي تعتبر عند الكاثوليك قاهرة الرعد والبرق والنار والبارود، ومختلف الإنفجارات، ودخل الملك والملكة المدينة في اليوم التالي دخول الفاتحين، وقد أخرجوا منها خمسمئة أسير مسيحي، استقبلهم المعسكر بالتهليل والفرح العام، بعد خلاصهم من أقبية العرب التي صارت فارغة ليملأها «التفتيش» بمن يريد.

وقد كانت خسائر الصليبيين في هذا الحصار عشرين ألف رجل، مات منهم سبعة عشر ألفاً بالأمراض، التي من جملتها نزلات البرد العادية، التي اعتبرها المؤرخ «ماريانا» ميتة غير مريحة، وأضاف هذا اليسوعي الفاضل، إن هؤلاء كانوا من عامة الناس، كالحمالة والمنظفين والعمال، فلم تكن خسارتهم مهمة.

وتبع استسلام «بازا» مدينة «المنيصرة» و«تاڤرناس» ومعظم حصون جبال «البقصارا»، وبهذا الاستسلام السريع كان الناس يأملون بالحصول على شروط جيدة شبيهة بالتي أعطيت لهذه المدينة، كما أمل «سياد» هذه المناطق بجوائز مشابهة للتي حاز عليها قادتهم(*)، ولم يخب أمل أي منهم، فقد سمح ببقاء السكان كخول للنصارى ليبقوا في أملاكهم وعلى دينهم، أما سيادهم الذين راحوا يتوافدون على المعسكر لإعلان ولائهم، فكان «فردناند» يستقبلهم بشكل متميز، ويحمّلهم الهدايا والأموال حسب أهمية المكان الذي كان تحت قيادتهم وسلموه، وكان الملك حريصاً على عدم التعرّض لكرامتهم أو جرح كبريائهم، لذلك كانت الأموال تدفع لهم جزاء خدماتهم للحكومة السابقة، وهكذا بعد أن كان «فردناند» يفتح البلاد بالسيف، وجد بعد «بازا» أن الذهب يكلفه أقل.

ومع هذا لم ينجح هذا الأمر كقاعدة عامة مع كل المسلمين، إذ كان هناك أمثال السيد

(*) فظهرت ظاهرة: «المهرولين»؟!

«علي بن فهر» القائد الذي كان تحت إمرته الكثير من القطاعات العسكرية، وقد حزن حزناً شديداً على تفريط قادته الكبار بالأندلس لربحهم ونجاتهم الشخصية، بدءاً من «ببدول» حتى أولاد عمه وعائلته، فوقف صامتاً حين التسليم، وزملاؤه يأخذون أجرهم على هذا من الملك، ولما جاء دوره، كلّم الملك الكاثوليكي بكل إباء عسكري وصراحة، مع كل عبارات الأسف والحزن قائلاً: «أنا مسلم ومن أصول عربية مغربية، وسيد مدينة وقلعة «برشينا» و«باترنا» اللتين عُهِدتا لي كي أدافع عنهما، ولكن من عهدهما قد فقد كل قوته وشجاعته، وطلب الأمن والدعة فقط، وهذه الحصون قد صارت إليك أيها الملك لأنه لم يعد معي من أدافع عنها به، ولك أن ترسل من تشاء لأخذها، فقد تركتها الحاميات التي فيها»، فأمر «فردناند» بمال كثير له لأهمية هاتين القلعتين، لكن السيد رفضها بكل إباء قائلاً: «لم آت لبيع ما لا أملك لمن لا يستحق، ولكن لأخضع بعد أن خضع سادتي، فتأكد يا صاحب الجلالة أنه لو تركت لي الفرصة لأخترت الموت على هذا الموقف المهين ببيع قلاعي، فلا حاجة لي بذهبك».

لقد أعجب الملكان بهذه الجرأة والشهامة، وتمنيا لو أنه في خدمتهما، لكن هذا العربي الأبيّ ما كان ليقبل أن يخدم أعداء أمته ودينه، ومع هذا قالت له الملكة «إيزابيلا»: «بماذا يمكننا أن نكافئك؟ فأجاب: لقد تركت في الوادي والبلاد التي كنت أحميها الكثير من العائلات التعيسة مع أبنائها وشيوخها الذين لا يمكن قلعهم من وطنهم، وكل ما أريده هو وعد من جلالتكم بأن يبقوا، وتحمونهم وتبقوا على دينهم وبيوتهم»، فأجابت الملكة: «لك هذا؟! أما لنفسك فماذا؟! ماذا تطلب لنفسك؟! فردّ: لا شيء سوى الإذن بأن أغادر دون أن أنهب أنا وحصاني هذا إلى أفريقيا».

فزوّده الملكان براحلة فخمة وملأوا خرجها ذهباً، لكن «علي بن فهر» رفض ركوبها، مؤكداً لهما أنه يعتبر نفسه مجرماً، لو فعل وأبناء بلاده في هذه الحال، ورفض كل مالٍ يناله من خراب بلاده، واكتفى بجواز سفر منهما تحرك به مع حشمه وخدمه ودروعه وكل أدواته الحربية، مودعاً أصحابه وبلاده دون أن يذرف قطرة دمع واحدة، ثم وجّه حصانه العربي بعيداً عن هذا الوادي الرائع موطنه المغلوب، مغادراً بقافلته الصغيرة الوحيدة بكرامته نحو الرمال المحرقة الأفريقية.

الفصل الثاني

خضوع «الزَّغل» لملكي «قشتالة»:

كان انقطاع التراسل دليلاً على شرور ما يحدث، وحتى الحمام الزاجل لم تعد قوائمه تحمل أي أنباء للملك المسن «الزَّغْل»، الذي دفن نفسه بين جدران قصره ليحتجب حتى عن أشعة الشمس التي لم تعد تنير أيامه، وراحت الشائعات من حوله تعصف بقصص المصائب الجديدة التي تطيح بحصن بعد آخر، من تلك التي تقدم مفاتيحها لملكي النصارى، في المعاقل الحربية الجبلية لسهل «غرناطة» الخصيب حيث كان الجشع قد أصاب حماتها ـ وهم على نهج ملوكهم ـ فعروها واحدة إثر أخرى، وبذلك توسع نفوذ الغزاة بشكل لا يصدق، وبذلك لم يبق «للزغل»سوى النذر اليسير من «البقصارا» ومدينتي «غواديكس والمرية» النبيلتين، ولم يعد أحد يراعي قسم الولاء لهذا الملك المخيف، وتراجع الخوف منه بتراجع ملكه وقوته، فوصل حاله إلى حدود الإنهيار، وهو يسمع من أحد أهم رجاله الحقيقة القاسية، مع النصائح التي لا تخلو من لوم فيها، فراح يصغي بهدوء وخضوع حين دخل عليه صهره «النيار»، وهو في ديوانه غارق بتأمل تغير الأحوال في هذه الدنيا بين المجد والخضوع، فقد أسرع هذا المرتد عن دينه بسبب هذا التغير والخاضع لغزاة بلده إلى «غواديكس»، وهو يرفل بكل أعطيات أسياده الجدد، لكي يؤكد لهما مدى تحمسه في خدمتهما، وخدمة الجنة التي وعداه بها، بأن يقنع مليكه بترك دينه والتنحي عن منصبه، مدعياً الإسلام والغيرة على الدين، لأن تحوله كان لازال سراً، فكان قدومه سبباً من جملة الأسباب التي ألانت عريكة هذا المقاتل الصلب، فحضن ابن عمه إلى صدره وشكر الله الذي أبقاه له في عتمة كل هذه المصائب أخاً وصديقاً وقريباً وناصحاً يمكن الاعتماد عليه في الشدائد، لكن هذا السيد دخل في الموضوع الذي جاء من أجله مباشرة، وراح يشرح «للزغل» الوضع الميؤوس منه لكل البلاد، وتراجع العرب فيها، واضعاً كل تخاذل القادة أمثاله وصراعاتهم البغيضة وخياناتهم على القدر، لذلك قال: «القدر يقف ضد جيوشنا بالمرصاد، بدءاً

من لعنة «بيدول» بحظه العاثر، وطالعه الذي أصاب كل المملكة بالدمار، فكل جهودنا كان القدر يقف ضدها بمصائب متتابعة تحوق بنا، وكأن مُلك غرناطة قد كتب عليه من الأزل أن يكون بيد النصارى بعد اليوم، وتلك هي مشيئة الله». وبهذا أنهى استنتاجاته متنصلاً من تبعات أمثاله.

و«الزغل» يستمع إليه بكل انتباه زائد، دون أن يحرك ساكناً في وجهه أو يطرف له طرف، وحين وصل الأمير إلى نتيجته ظل صامتاً لبرهة طويلة من الوقت بشكل سلبي، ثم بعد أن استبطن أحواله كلها بشكل دقيق قال: «الحمد لله ولتكن إرادة الله، نعم يا ابن العم: يبدو أن هذه هي إرادة الله، وهو فعّال لما يريد، وهو تعالى لو لم يشأ سقوط مملكة غرناطة لاستطاعت هذه الذراع بالسيف الذي فيها أن تبقي عليها».

فردّ «النيار» قائلاً: «بقي أن ننقذ ما يمكن إنقاذه مما تُرك لنا من هذه الإمبراطورية المحطمة، لأننا إذا استمرينا بالحرب، فسنجلب الدمار الكامل على البلاد، والموت على المسلمين من العباد، فعليك أن تسلم ما بيدك من القلاع والمدن إلى ابن أخيك «الشيكو» هذا، الذي يمكنه أن يحميها بسبب كونه تحت حماية النصارى».

وهنا لمعت عينا «الزّغْل» من هذا الاقتراح الصعب، فوضع يده على مقبض سيفه بشكل لا شعوري وقال وهو يصرّ أسنانه: «لن أفاوض هذا العبد الذليل، فلأن أرى أعلام النصارى فوق هذه القلاع أهون عليّ من أن أعطيها لذاك الخول»!!

فسحب السيد اقتراحه هذا، وحثّ «الزغل» على أن يسلم بشكل صريح وواضح للنصارى بقوله: «يمكنك أن تثق بأقوال ووعود هذين الملكين، فمما لا شك فيه أنهما سيضمنان لك شروطاً مشرفة، فالأفضل الخضوع لهما كصديق، بدل أن يخضعوك بالقوة في نهاية المطاف كعدو، لأن هذه يا ابن عمي إرادة الله».

أجاب «الزّغْل»: «سبحان الله ولتكن إرادته تعالى»، وهكذا خضع «الزغل»، ووافق على تسليم بلاده إلى أعداء دينه، بدل أن يضيفها إلى أملاك ابن أخيه المسلم؟!

وعاد «النيّار» إلى «بازا» وقد خوّله «الزغل» أن يفاوض بالنيابة عنه ملوك النصارى فيها، وهو يشعر بشيء من السلام خاصة حين كان يقطع هذه البلاد الغنية من الإمبراطورية التي كان فيها «سيداً»، فهذه السلاسل الجبلية التي تمتد من المدن إلى البحر الأبيض المتوسط، مع ما بينها من سهوب خصيبة وجميلة خضراء، بدت مثل الياقوتة الخضراء المقيدة بسلاسل من الذهب، بها جوهرتان فريدتان في ذاك التاج الغرناطي «غواديكس والمرية»، وقد ذهب هذا السيد لوضعهما بالقيد الصليبي.

وهو حين أعطى كل هذا الملكي «قشتالة» تلقياه حتماً بكل ترحاب، وأعطيا «للزغل» كدلالة على الحلف بينهما مناطق «أندراكس» ووادي «الحوراني» في «البقصارا» له ولسلالته، مع نصف «سالىناس» أو مجمع الملح في «مالشا»، على أن يظل يحمل لقب: «ملك أندراكس»، وبإمرته ألفين من العرب الذين تحولوا كخول للنصارى وكرعية له، بدخل سنوي من هذه المناطق يقدر بأربعة ملايين قطعة فضية تعطى للتاج القشتالي.

وبهذه الشروط عاد السيد إلى «الزّغل» على أن يحصل احتفال الاستسلام في مدينة «المرية».

وهكذا وفي السابع عشر من كانون الأول/ديسمبر خرج الملك «فردناند» من «بازا» بقسم من جيشه، لتتبعه الملكة بمن تبقى، مارّين مرور المنتصرين بالمدن التي أخذوها بالسياسة لا بالعنف، وحين اقترب «فردناند» من «المرية» خرج الملك العربي للقائه مع «النيار» ورؤوس البلد على ظهور الخيل، وقد غمّ وجه «الزّغل» القاسي بشيء من المهانة، وشفتاه تتحركان بين الفينة والأخرى، دون أن يقول شيئاً، بحركة تنمّ على قلة الصبر، فمن الواضح أنه كان يعتبر نفسه مهزوماً، لكن بإرادة الله لا بقوة خصمه، فكان كمن تند شفتاه عن عبارة «لا غالب إلا الله»، فقد قبل بقدره المحتوم هذا، ولكن نفسه العزيزة كادت تنتقل إلى السماء من وضعها أمام هذا الفاني مثله، حين نزل عن حصانه لما اقترب ملك النصارى وقبّل يده والملك راكب دلالة على الخضوع، لكن واحتراماً للقب الملك الذي كان يحمله، انحنى «فردناند» من عن سرج حصانه وقبّله وطلب منه أن يعود ليركب مهره، وتبادل معه الكلمات البروتوكولية قبل أن يأمر «فردناند» ببدء الاحتفال.

وهكذا تمّ تسليم مدينة «المرية» وكل المناطق التي كانت بيد «الزّغل»، وعندما تمّ هذا كله انسحب هذا المقاتل الهرم إلى الجبال مع عدد قليل من أتباعه، نحو منطقته الصغيرة التي سميت «مملكة أندراكس»، ليدفن فيها كبرياءه، بعيداً عن العالم، راضياً بظلّ لقب ملكي فارغ.

الفصل الثالث

الأحداث التي حصلت في «غرناطة» بعد خضوع «الزّغل»:

من يستطيع أن يخبرنا عن السعادة في هذا العالم المتبدّل؟! فكل ازدهار يمتد تمتد معه أحزانه. وغالباً ما يؤتى الإنسان شراً من الخير الذي ظنّ كل آماله معلّقة فيه، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم، فحين دخل «يوسف بن كماشة» وزير «بيدول» قاعة الحمراء إلى مجلس سيده، وأعلن إخضاع «الزّغل»، قفز قلب هذا الملك الغر فرحاً، فقد شفى حقده، فهو سيحكم بعد سقوط عمه وحده دون منافس على عرش «غرناطة»، وسيجني ثمار عبوديته للصليبيين أخيراً، على ظن أن ملكه قد قوي بصداقتهم، واعتماده على ملوك قشتالة، وهكذا حقق الاستقرار والثبات، لذلك قال لوزيره: «يا يوسف لقد تبسّم لي الحظ ورفع عني سوء الطالع، ومنذ الآن ويل لمن يسميني بالزغبي»، وكاد أن يأمر بإقامة الأفراح، لولا أن وزيره راح يهز رأسه قائلاً: «لقد رفع سوء الطالع من فلك في السماء ليوضع بآخر، فحولنا بحر متلاطم، ونحن محاطون بالصخور والرمال المتحركة، فلنؤخر يا مولاي الفرح حتى يهدأ كل شيء».

لكن «الشيكو» لم يكن ليهدأ طوال اليوم، فأمر بتزيين حصانه وخرج به من أبواب الحمراء، ونزل بكل أبهته بين الأشجار التي تحف بالطرقات والنوافير إلى المدينة لكي يتلقى تصفيق العوام، لكنه حين وصل إلى ساحة «ڤيڤارامبلا» واجهه حشد غاضب من الناس، وحين واصل سيره في هذا الحشد كان يسمع همسات ضجرة وعبارات نابية، لأن الأخبار التي انتشرت في غرناطة هي أن مولاي أبا عبد الله «الزّغل» قد أسر وسقطت مناطقه بيد النصارى، دون أي بحث بالتفاصيل، لذلك شاع الحزن والشعور بالمهانة في كل «غرناطة»، ورفع اسم «الزّغل» إلى السماء، كأمير حارب حتى آخر رمق له، من أجل خلاص أمته، تجسيداً للأمير الذي يحفظ كرامة تاجه من خضوع العبودية، واعتبر «بيدول» ممثلاً لنقيض هذه الفضائل التي جسّدها عمّه، وها هو يستمتع بهزيمة الإيمان ونصر الشرك، مساهماً بسقوط هذه الإمبراطورية، وحين رأوه

يركب متباهياً هكذا في يوم يجب اعتباره يوم أحزان لكل مسلم حقيقي، لم يقدروا على ضبط غضبهم، ورغم الهمسات التي وصلت لأذنه، ها هو يواصل السير بينهم ليسمع تهمة الخائن والوضيع والمرتد تطرق أذنيه.

آنذاك عاد مسرعاً بكل غضب إلى «الحمراء» وهو مذهول ومضطرب ليغلق على نفسه القاعة الداخلية فيها، ويصير ملكاً سجن نفسه طوعاً عن الناس إلى أن تتغير أحوال قلوبهم بالقريب العاجل كما كان يعتقد، على ظن أن الناس كانوا متحسسين من السلام الذي حازوا عليه بمنتهى البساطة، كذلك كان على ثقة بأن النصارى سوف يحمونه حتى من رعاياه.

وقد أظهر «فردناند» السياسي قيمة هذه الصداقة بأن أرسل إلى «ببدول» يذكره بالمعاهدة التي كتبها على نفسه يوم سقوط «الأقصى»، والتي فيها: أن النصارى إذا أسقطوا «غواديكس» و«المرية» و«بازا» سيسلم لهم «غرناطة» بوقت محدود، ويقبل أن يتولى عنهم في بعض المدن العربية التي يحددونها له كخول وجاب لضرائبهم، وها هو «فردناند» يخبره بأن «غواديكس والمرية وبازا» قد سقطت، ويطالبه بتحقيق ما وعد به، وحتى لو كان عند «ببدول» أي إرادة وكرامة، فإن «فردناند» يعرف جيداً بأن ليس لديه أي قوة لرفض هذا الطلب، فهو أسير نفسه «بالحمراء»، والناس الهائجة عليه تحيط بكل «غرناطة»، التي امتلأت أيضاً بالجنود المخذولين من تلك البلاد التي سقطت، على شكل عصابات دخلت العاصمة غاضبة يائسة، تضع كل أسباب مصائبها على «ببدول»، فكيف يستطيع أن يواجهها، وكيف يخاطب مثل هؤلاء الرجال بالاستسلام، لذلك أظهر في ردّه على «فردناند» صعوبات موقفه، وأنه لم يعد يستطيع ضبط شعبه، إلى درجة أن حياته الشخصية في خطر بسبب هيجانهم، وطلب من الملك أن يرضى حالياً بما حقّقه من نصر، واعداً إياه بأنه حين يستعيد كل سلطته على العاصمة وسكانها، سوف يحكمها كعبد من عبيد التاج «القشتالي» المسيحي.

لكن «فردناند» لم يكن ليرضى بمثل هذا الرد، فقد آن الأوان لإنهاء الدور السياسي لهذا الخول، ومتابعة الفتح حتى يقعد على كرسي ملك الحمراء بنفسه، مظهراً بأن «ببدول» هو السبب لأنه لا يحفظ مواثيقه، لذلك نفض يده من صداقته،وأرسل رسالة ثانية إلى قادة المدينة ومجلس الشورى فيها، بدل أن يرسلها «لببدول» طالباً منهم الاستسلام بلا قيد ولا شرط، مع وضع سلاحهم كافة، وسلاح كل من لجأ لهم مؤخراً، فإذا خضعوا لهذا يعدهم بشروط جيدة كالتي أعطاها إلى «بازا وغواديكس والمرية» وإلا فعليهم أن يواجهوا مصيراً كمصير «ملقة».

وهكذا سببت رسائل الملك الكاثوليكي المزيد من الاضطراب بين سكان المدينة، وخاصة

لسكان «القيصرية» من التجار الذين ذاقوا حلاوة الربح التجاري أثناء الهدنة السابقة حين توقف العداء بخضوعهم الذي أمّن على ذهبهم، أما من له عائلة فقد نظر إليها نظرة المشفق، وخاف من أن يجلب عليهم العار من المقاومة الفاشلة بأن يصيروا إلى أسواق العبيد، لكن «غرناطة» لم تكن لهؤلاء فقط، إذ صار فيها أناس من كل المملكة من الذين دمّرتهم الحرب، ويعانون آلامها والرغبة بالثأر من النصارى، مع من خلّفهم الجيش، كأعداء للنصارى منه وكل مهنتهم القتال، والسلام يعني توقف كل أعمالهم وآمالهم، بالإضافة إلى كل هؤلاء هناك الفرسان الذين ليسوا أقل جرأة وبطشاً من كل هؤلاء، لكنهم من سلالة نبيلة ورثت الكره المقيت للنصارى من أجدادها على مدى تاريخ «الأندلس»، والذين يعتبرون الموت أهون من تسليم «غرناطة» التي ظلّت لأحقاب طويلة مركز الخلافة والحق، لتصير بأيدي المشركين بعد كل هذه السنين، وكان من أهم هؤلاء الفرسان وأشدهم وأنبلهم: «معاذ بن أبي غسان»(*)، وهو من سلالة ملكية: أبي كريم معطاء وشهم، ووسيم قوي شجاع، ولا أحد يفوقه بالخيل والفروسية واستعمال كل أصناف السلاح، وكان بجولاته الهامة في حلبات الصراع وحلقاته التي كانت تعرض بين متحديه النصارى، ومن يتحداه هو منهم أمام أبواب المدينة، كان لها استحسان خاص عند نساء «غرناطة»، مما جعله في ساحة المعركة رعباً حقيقياً للعدو، وقد كان من مناوئي سياسة «بيدول»، ويتوقع نتائجها المخزية على الروح المعنوية «لغرناطة»، لذلك كان دوماً يقيم المبارزات والتحديات للنصارى في سرادق أمام العاصمة، حيث يقف فارس من هذه الجهة وآخر من جهة أخرى، ويحملان رماحاً طويلة وبينهما حاجز يفصلهما، فإذا اندفعا سيصيب أحدهما خصمه بحربته الطويلة الثقيلة، فتتطاير الدروع والدرق، أو يستمر القتال حتى الموت بالسيف، وكانت هذه الألعاب الشعبية القاتلة تمثل نموذجاً من الحرب بكل تصرفات الفرسان والفروسية الرائعة فيها، وكان معه صحبة من الفرسان الذين يتقنون هذا، ولا يقبلون بديلاً عن استقلال أمتهم، وكانت جهود «معاذ» ناجحة معهم إلى حد بعيد، لأنه كان يمثل «مثال» الفارس الشاب الحر، ويعكس صورة الفروسية العربية و«الفتوة»، التي يجب الاحتذاء بكل فضائلها.

وحين سمع «معاذ» بمطلب «فردناند» بضرورة تسليم السلاح في «غرناطة»، لمعت عيناه الناريتان بالإباء قائلاً: «هل يظن ملك النصارى أننا شيب أو أرامل يمكن أن نخضع للتهديد، دعوه يعرف أن العربي يلد بين سيف ورمح يؤنسانه في المهد، فإذا حرم منهما حرم من الحياة، وإذا كان ملك هؤلاء النصارى يرغب بسلاحنا فليأت ويأخذه بحدّ سيفه، لكي نهيء له قبراً أمام أسوار «غرناطة»، فساحة الموت أشرف من أغنى القصور بالخضوع والذلّ والعبودية لهؤلاء المشركين».

(*) هو عند بعض المؤرخين «موسى بن أبي الغسان».

وكان لصدى كلمات «معاذ» هذه أعظم الأثر في نفوس محاربي «غرناطة»، الذين هللوا وكبّروا لأقواله، فاستفاقت غرناطة بهم لركوب الحرب ثانية ليهزوا جبن وتخاذل من قبل بالمعاهدات المهينة من قادتهم.

وشارك مجلس الشورى بالبلد هذا الحماس، فدبجوا رداً إلى الملك المسيحي معلنين فيه أن الموت أشرف من تسليم مدينتهم له.

الفصل الرابع

كيف حوّل «فردناند» كل حقده نحو مدينة «غرناطة»:

حين تلقى «فردناند» ردّ مجلس الشورى العربي جهز فوراً كل قواته للدخول بصراع عدائي مرير، لكن فصل الشتاء لم يكن يسمح بتشكيل المعسكرات، لذلك أرسل الحاميات القوية إلى كل البلاد والحصون التي صارت تحت سلطته حول «غرناطة»، ووضع كل قيادة الجبهة في «جين» تحت إمرة: «إنغو لوبيز دي مندوزا كونت أوف تنديلا» القائد المحنك الذي أبرز مهارة فائقة في الاحتفاظ بموقعه الخطير في مدينة وحصن «الحمى» مع بداية الحرب، فوضع هذا المحارب قيادته في المدينة الجبلية مدينة «القلعة لاريلا» التي تبعد أربعة وعشرين ميلاً عن «غرناطة»، وتشرف على أهم الطرق التي توصل إلى جبهتها.

أثناء ذلك كانت مدينة «غرناطة» تضجّ بأسلحة الحرب، فقد سيطر الفرسان من كل الأمة على مجلس الشورى فيها، ووزع السلاح على كل السكان الذين صاروا متشوقين إلى محو مواقفهم السلبية السابقة بخضوعهم وعدم مشاركتهم في الحرب.

وكان «معاذ بن أبي غسان» لولب المجلس، وصار قائداً للفرسان وقد أخضعهم لكل نظام، محاطاً بكل نبلاء وشباب «غرناطة» الذين التقطوا منه كرامته وحماسه، متهيئين إلى ساحة الحرب، وهكذا صار الفرسان يبرزون ثانية من أبواب «غرناطة»، من الذين كانوا يحرّضون كل أبناء البلاد للهجوم على أبواب المعاقل المسيحية عندهم، ويغزون ثانية ديار النصارى ويعودون بالغنائم وقطعان الماشية، وهكذا صار اسم «معاذ» معروفاً في الجبهة، فقد صار له الكثير من اللقاءات مع العدو في ممرات الجبال الوعرة، التي كان له فيها سبق النصر بسبب خفة فرسانه، وكان العرب يحيونه كلما عاد بالغنائم إلى «الڤيغا» وهو يسوق أمامه الأسرى الصليبيين، وقد أعاد إلى الأذهان الانتصارات السابقة، ولكنهم حين يعودون إلى مدنهم وعليها العلم الصليبي

والحاميات الصليبية فيها كانوا يتألمون أشد الألم، وعلى هذا ذهب الشتاء، وبدأ الربيع ومع ذلك كان «فردناند» يؤخر هجومه، لأنه كان يعرف أنه من الصعب أخذ مدينة «غرناطة» عنوة وبالعصف بها، لأنها كانت محمية قوية الحصون، ومليئة بالمعدات والمواد التموينية التي لا يؤثر عليها الحصار، لذلك قال لمجلسه: «علينا أن نتحلى بالصبر، فإذا هاجمنا القرى والحقول المحيطة بالمدينة هذه السنة فسوف نسبب نقص الغذاء فيها بالسنة القادمة، عندها يمكن أن تضرب المدينة المجاعة».

فالسلام الذي مرّ على البلاد كل هذه المدة جعل «الڤيغا» الخصيبة نضرة مرة أخرى، ترفل بكل بهاء وجمال، فالحقول الخضراء على شاطىء «شنيل» كانت مغطاة بقطعان المواشي، التي تجوب بين الأشجار التي تحمل من كل الثمار، والتي ما كاد أوان قطافها يحين حتى نزلت أعاصير الحرب تكتسح «الڤيغا» من الجبال، ليظهر «فردناند» على أسوار «غرناطة» بخمسة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، تاركاً وراءه الملكة والأمراء في حصن «موكلين»، وقد جاء بصحبة دوق «أوف مدينا صيدونيا» والماركيز «أوف كاديز» والماركيز «أوف ڤيلينا» والكونت «أوف يورينا وكابرا»، ودون «ألونزو دي غويلار» وغيرهم من مشاهير الفرسان، إضافة إلى ابنه «الأمير جوان» الذي أخذه معه لأول مرة إلى ساحات الحرب، ليضفي عليه اللقب المشرف لقب فارس، وليحرّضه على الإنجازات الكبرى، حيث طوّبه فارساً تحت الأسوار الحربية لهذه المدينة المقاتلة «غرناطة»، كهدف لهذه الغزوة الجريئة وفي وسط «الڤيغا» ساحة الحرب لمعظم الفرسان، وقد تألقت فوقهم أبراج الحمراء الرائعة، وعليها العلم الإسلامي الذي يرفرف بكل تحد للجيش الصليبي.

وكان أشابين حفل تطويب الأمير فارساً، كل من دوق «مدينا أوف صيدونيا» والفارس «رودريغو بونس دي ليون» ماركيز «أوف كاديز»، وحضر كل فرسان المعسكر هذا الاحتفال بهذه المناسبة، وبعد أن طُوِّب الأمير فارساً، طوَّب بدوره عدداً من الفرسان ذوي الرتب الرفيعة، من الذين دخلوا لتوّهم مثله مهنة الحرب.

ولكي لا يغير «فردناند» بمخططه أرسل مجموعاته العسكرية بكل اتجاهات «الڤيغا» لإنزال الخراب بهذه البلاد، فعصفوا بالقرى وراحوا يحرقون ويدمّرون، وهكذا عادت هذه السهوب البهية لتوضع تحت النار والسيف مرة أخرى، وكان الخراب قريباً من المدينة التي غطاها رماد الحرائق من كل جهة من حدائقها الغنّاء، لترتفع غمامات الحرائق والدخان فوق هضابها وتلفّ أبراج الحمراء من كل الاتجاهات، حيث كان «ببدول» التعس يحبس نفسه بكل مهانة عن شعبه، وهو حين كان ينظر من معقله الجبلي بحسرة وتنهد إلى حليفه السابق، كان لا يجرؤ

حتى على لبس الحديد خوفاً من أن يراه، أو يراه شعبه الذي يلعنه على ما سبب لهم من بؤس، لكن العرب لم يتركوا النصارى يعيثون الفساد في سهلهم دون مقاومة كما في السابق، فقد حرّضهم «معاذ» للخروج لهؤلاء، مقسماً فرسانه إلى كتائب حربية صغيرة، على رأس كل منها قائد جريء، ومعهم أوامر بالإلتفاف على معسكر النصارى، ومناوشته من أماكن وقطاعات مختلفة، مع قطع طريق الإمدادات والاتصالات على المعسكر، إلى درجة أزعجت الجيش بقطع طرقات الجبال عليه من خلف الصخور أو من أشجار السهل بألف مفاجأة ومباغته.

ففي إحدى المرات التي انتشر فيها الجيش المسيحي بدون حراسة في «الڤيغا»، وبينما كانت القوات التي يقودها المركيز «دي ڤيلينا» تقترب من حافة الجبال، رأوا عدداً من العرب يقودون قطعانهم مسرعين نحو ممر ضيق، ولرغبة الجيش بالغنائم اندفع لمفاجأتهم، وما إن دخل هذا الجيش في الممر حتى انقض عليه العرب، وهاجموهم بالبنادق الطويلة والخيل، وهم يطلقون صرخات التكبير، ففرّ بعض النصارى، وثبت بعضهم ليقاتل، لكن كان للعرب امتياز الأرض والموقع، ليطلقوا الأسهم والرصاص والحجارة من علٍ على النصارى، بينما يلتف بعضهم لكي يواجهونهم يداً بيد في السهل، مما دفع بالاضطراب إلى قلب الجيش المسيحي كله، فاندفع المركيز «دڤييلينا» وأخوه دون «ألونزو دي باشيكو» إلى الصفوف الهاربة المضطربة بفرسيهما، وما كادا يدخلان إلى قلب المعركة، حتى سقط «دون ألونزو» ميتاً عن حصانه بضربة من فارس عربي على مرأى من أخيه، كما سقط المدافع عنه من حرسه «أستيڤا دي ألونزو» ميتاً أيضاً بجانب المركيز، الذي بقي وحده مع حفنة من الجنود والفرسان، والعدو محدق بهم من كل جانب، عندها أسرع عدد من فرسان بقية الجيش لعونهم في الوقت الذي وصل فيه الملك إلى ساحة المعركة وقدَّر تفوق العدو بالموقع عليهم، كما رأى خسائر جيشه الجسيمة، فأعطى أمر التراجع، الذي أطاعه المركيز لكن ببطء وحذر، لأن قلبه كان مليئاً بالغضب والحزن على أخيه، مما دفعه إلى العودة والانقضاض على الأعداء، الذين يحاصرون جنده، وفي أثناء ذلك هاجم ستة من العرب وقتل اثنين منهم، لكن أحد فرسانهم اندفع بحربته نحوه ليصيبه بكتفه الأيمن، ويطرحه أرضاً كسيحاً مدى الحياة.

تلك هي واحدة من المواجهات الكثيرة التي كانت تحصل بين «معاذ» والنصارى، وكان «معاذ» لا يتردد في أي فرصة سانحة عن إراقة دماء القوات الصليبية، وتحديهم في الساحات المكشوفة أيضاً، ولكن «فردناند» لاحظ أن المسلمين يفضلون على الغالب المعارك التي لهم فيها التفوق بموقع الأرض، ورغم ما يبدو من أن النصر بالنهاية من نصيب النصارى، كانت خسائرهم فادحة، لأن الفرّ كالكرّ جزء أساسي من تكتيك الحرب العربية، لكي تضطرب صفوف عدوّهم حين يهم بملاحقتهم، فيعودوا ليكرّوا عليه وليمزّقوه وهو في فوضاه، لذلك أمر

«فردناند» مقدميه عدم الاستجابة إلى أي نوع من المبارزات مع العرب، وأن ينصرفوا إلى هدفهم الأسلم لهم في تدمير «الڤيغا» فقط، وإصابة السكان العزل دون أن يعرّضوا أنفسهم للمحاربين، كي يضعفوا مقاومة العدو على المدى البعيد.

الفصل الخامس

مصير قلعة «روما»:

على بعد ميلين من «غرناطة» وفي أثمن منطقة تدار منها وتشرف عليها سهول «الڤيغا» يقف قصر ـ حصن ـ «روما» العربي الحصين، كمكان وملجأ أمين رائع، يخفي فيه السكان قطعانهم وممتلكاتهم الثمينة في حال تعرّضهم لهجوم صليبي، وفي حال أي معركة مع «غرناطة» أو حصول مبارزات يهرع السكان إلى هذا المعقل، ويتحصنون في أبراجه الحربية التي تردّ عنهم كيد العدو، وحامية «روما» قد اعتادت على مثل هذا اللجوء المفاجىء لها وطلب الحماية منها، حين يندفع العرب لأبواب حاميتهم هذه فجأة، وفي أعقابهم من يتعقبهم حين يصير من الصعب استيعابهم وإغلاق الأبواب خلفهم، لمنع متعقبيهم من الدخول معهم، عندما كان الفرسان النصارى يفعلون هذا مراراً وهم على صهوات خيولهم، فتردّهم أسوار «روما» ليعودوا ويلعنوا استراتيجية مكان هذا الحصن التي حرمتهم من طرائدهم البشرية هذه.

وقد زاد من أهمية هذا الحصن دخول «فردناند» الأخير إلى «الڤيغا» وكثرة المبارزات فيها، وفي صباح باكر لأحد الأيام وبينما كان الحرس يراقب السهل من الحصن في مواقعهم القتالية، رأوا غباراً يتصاعد من مسافة بعيدة خلف عمائم ولمع أسلحة قوة عربية، ومعهم قطيع من البقر يقوده مئة وخمسون عربياً بسرعة نحو الحصن، وبينهم أسيران من النصارى يرسفان بالقيود.

وحين اقترب الجمع من القصر ترجّل نبيل عربي عن صهوة جواده المطهم إلى تحت برج الحصن وطلب الإذن بالدخول، مدّعياً أن قوته قد عادت بالكثير من الغنائم من أراضي النصارى، والعدو يتعقبهم، وهم يخافون أن يصلوا إليهم قبل إدراكهم «غرناطة»، فنزل الحرس بسرعة وفتحوا الأبواب، فتدفق الفرسان إلى ساحة القصر مع قطعان الماشية التي ملأت المكان، حيث اختلط صهيل الخيول بخوار البقر، والمهور تقفز بفرسانها العرب ذوي الملامح الصارمة

الجبلية، وقد كان الفارس الذي طلب إذن الدخول هو رئيس هذه المجموعة، رجلاً كهلاً ذا لحية كثة مهابة، ومعه ابنه الشاب الناري النشط، وبينهما الأسيران النصرانيان بنظراتهما الكسيرة نحو الأرض.

وعلى هذا استيقظ حرس حامية الحصن، وراحوا يجمعون القطيع المبعثر في حوش الحامية، بينما بعضهم الآخر ذهب ليأخذ مواقعه، إما على سور الحصن أو لأكل فطور الصباح، وفجأة خرجت الصرخة لتعلن من كل مكان وكل ركن أن الحصن تحت سلطة العدو، فدهش الحرس قبل أن يستطيعوا إبداء أي مقاومة ليؤخذوا تماماً على حين غرة.

ولدهشة الجميع تبيّن أن هذه القوة العربية التي دخلت إلى الحصن كانت من «المورد قصاري Murdexares» أو المرتدين العرب عن الإسلام، وأن قائدهم هو الأمير «سيدي النيار» مع ابنه «النير»، وقد نزلا من الجبال بهذه القوة الصغيرة لمساعدة الكاثوليك في صائفتهم ضد العرب، فأوكل لهما أمر إسقاط هذا الحصن الهام، ليقدماه هدية للملك «فردناند»، كدليل على إيمانهما الجديد، وأول ثمرة من ثمار ارتدادهما عن الأسلام.

وقد غمر الملك السياسي حلفاؤه الجدد هؤلاء بالعطايا وألقاب التبجيل، مقابل هذه الخدمة الهامة، وكذلك عمد إلى إردافهما بقوة صليبية حقيقية لكي تدخل الحصن فور دخولهما له.

أما بالنسبة لهذا المرتد فقد أبقى جنود الحصن من أبناء بلده، ولم يسلم رقابهم للفرقة النصرانية اللاحقة، وأطلقهم سامحاً لهم اللحاق بغرناطة، كدليل كما قال الموقر «آغابيدا»: «على أن تحوله نحو النصرانية لم يكن خالصاً، فلازال بعض من اللاإيمان في قلبه، ورغم هذه المعاملة الرقيقة لم يحظ بشكر أبناء بلده هؤلاء، فحين علم سكان «غرناطة» من الحامية التي وصلت لهم الاستراتيجية التي أسقط بها هذا السيد القصر الحصن - روما - لعنوه على منابر المساجد، وشارك بلعنه من أطلقهم، كخائن ملعون في الدنيا والآخرة».

هكذا شارك أبناء «غرناطة» بذلّها، وقد وصل هذ الأمر إلى قمته مع مولاي «أبي عبد الله الزّغل» الذي لم يطق صبراً على البقاء كملك صوري على مدينة «أندراكس»، في هذه المملكة الهادئة الفارغة، فحقده على ابن أخيه «ببدول» الذي اعتبره سبباً لكل نكباته، أعماه عن أي شيء أو قيمة أخرى، وبمجرد أن علم أن «فردناند» يدمّر «الڤيغا»، جمع كل قواته في هذه المملكة الوضيعة التي بقيت لديه، والتي لم تزد عن مئتي راكب فرس، ولحق بمعسكر النصارى كخول لهم يخدمهم ضد دينه وإيمانه، وكل هذا كي يروي غلّه برؤية ابن أخيه وهو يسقط عن عرش «غرناطة».

وقد أدّت أقحاده العمياء هذه إلى إلحاق أكبر الضرر باسمه، وقوّت من قضية ابن أخيه بنظر

الناس، فقد كان سكان «غرناطة» يحلفون باسمه القسم؛ على أساس أنه ضحية من ضحايا الوطنية والدين، لأنه رفض أن يعاهد النصارى كما فعل «ببدول»، لكنهم حين رأوا علمه في معسكر الأعداء مع المشركين، ناهضاً ضد أبناء شعبه والعاصمة التي كانت تحت قيادته، اندفع كل الناس إلى المساجد للعنه وتلطيخ اسمه، كما لطّخ وطنه ودينه.

وهكذا تحولت مشاعرهم فوراً نحو «ببدول»، فاجتمعوا تحت أسوار «الحمراء» يحيونه كأمل أخير باقٍ لهم، يمكن أن تعتمد عليه البلاد؟! ولم يصدق «ببدول» أذنيه وهو يسمعهم يهتفون له ويحيونه، فتحمس لهذه الشعبية المفاجئة، وخرج من جحره ليتلقاه الناس بالترحاب هذه المرة، عازين كل خياناته السابقة إلى الخطأ في التقدير، وإلى سوء طالعه الذي تنبأ له به الفلكيون منذ ولادته، وبسبب طغيان أبيه وعمه صار كل ما صار، وهكذا ضجت العاصمة بلعنات «الزّغل» وتحيات «الشيكو».

الفصل السادس

كيف نزل «ببدول الشيكو» إلى ساحة الحرب، وحملته ضد «الهنديين»(*):

خلال الشهر الذي عاث فيه النصارى نهباً «بالڤيغا» تحولت كل فخامتها وجمالها إلى مسرح واسع للدمار، وبهذا أنهى هذا الجيش المدمّر مهمته ليعبر جسر «بينوس»، ويخترق الجبال متجهاً نحو «قرطبة» وهو محمل بالغنائم، ويسوق أمامه قطعان المواشي في كميات كبيرة ترفع النقع من ورائها، وحين غابت أصوات طبول وأبواق آخر القطعات العسكرية النصرانية في جبال «الڤيرا»، ولم يعد يُرصد أي قوة معادية في حقول «الڤيغا» المُدمَّرة الحزينة، انفتحت عينا «ببدول الشيكو» أخيراً على سياسة «فردناند»، وعرف أنه ليس لديه ما يعتمد عليه غير قوة جيشه وولائه، لذلك يجب عدم إضاعة أي وقت بعدم الردّ على الغزو الصليبي، لفتح الطريق نحو تموين «غرناطة» من الخارج.

فما كادت قوات «فردناند» أن تنسحب عبر الجبال، حتى لبس «ببدول» دروعه وخرج من الحمراء نحو ساحات الحرب(**)، وحين رآه الناس مسلحاً ضد حلفائه السابقين، تجمعوا تحت لوائه بما فيهم كل المحاربين الأشداء للسيرا نيفادا التي تكلل غرناطة بتاجها الثلجي الفضي، إذ نزلوا من معاقلهم هذه، وأسرعوا نحو أبواب المدينة، ليؤكدوا ولاءهم لمليكهم الشاب، فامتلأت ساحة «ڤيڤا رامبلا» الكبيرة بالفرسان الذين تلمع درقهم بكل اعتزاز، وهم يحملون أعلام وأدوات أجدادهم وعائلاتهم العربية القديمة، وينضوون تحت لواء البطل العربي «معاذ» الذي سيلحق بالملك نحو المعركة.

(*) وتسميها العرب حصن همدان.

(**) يمكن الإشارة إليه، بأبي عبد الله ثانية الآن.

إلى مدخل البقصارا، حيث توجد قلعة قوية اسمها: «الهندين» على تلة فوق المدينة تحتها ـ بالاسم نفسه ـ وتسيطر على قسم كبير من «الڤيغا»، والطريق الرئيسي لوادي «البقصارا» الغني، هذه القلعة كانت تحت قيادة القائد العسكري المسيحي الشهير «مندو دي كويكسادا» وحاميتها تعد بمئتي وخمسين رجلاً، من محاربي الصائفة الأشداء الخبراء بالحرب، وقد طردوا كل سكان «الڤيغا» حولهم، وقطعوا الطريق نحو الجبال، ولم يعد يجرؤ أي تاجر على دخول غرناطة، لأنهم يرقبون التحرّك نحو أبوابها، فينقضون على قوافلهم فوراً كالعقبان.

وضد هذا المعقل بدأ «أبو عبد الله» حربه، فحاصره ستة أيام بلياليها حصاراً تاماً، ودافعت الحامية عن نفسها بشجاعة، لكنها أرهقت من عدم النوم ليلاً، لأن العرب كانوا يحاربونهم دوماً بقوات مستريحة، بهجوم إثر آخر بشكل مستمر، وقد خرقوا دفاعاتهم مرتين، وردّوهم فيهما بخسائر كبيرة، لكن الحامية صارت مليئة بالقتلى والجرحى، ولم يعد يوجد جندي واحد سليم فيها، مما اضطر سيدها إلى التراجع نحو برجها مع من بقي معه من جنود، حيث استمر بالمقاومة اليائسة.

فلحقه العرب إلى أعتاب البرج بدباباتهم الخشبية التي كانوا يحتمون تحتها من قذائفه وأحجاره التي يضربهم بها، وراحوا بتلغيم البرج مع وضع أخشاب تحت أسس البرج لإشعالها بعد ذلك، ثم يبتعدون عنها كي لا يصيبهم حطام البرج المتداعي، في الوقت الذي كان بعضهم يطلق النار من بنادقه الطويلة الثقيلة ومن أسهمه نحو المدافعين، حتى يتمكن الباقون من إنهاء أعمال التلغيم، بينما كان النصارى يمطرون المهاجمين بالأحجار والزيت المغلي، ويحاولون إشعال دبابات التلغيم.

وكان السيد «مندو» ينظر بتلهف إلى «الڤيغا» عسى أن تصله نجدة مسيحية، دون أي أمل بأحد لأن أحداً لم يكن يظن أن بإمكان العرب أن يخرجوا للقتال بجيش منظم بعد كل ما حلّ بهم، فجمع السيد رجاله حوله وهم جرحى مرهقين، وقبل أن تشعل فتائل التلغيم والنار بهم، أعطى إشارة الاستسلام، فوضع الجميع بالأسر، وأمر «أبو عبد الله» بالاستمرار في تدمير هذا الحصن حتى لا يعود النصارى لاستخدامه كمعقل ضد «غرناطة» مرة ثانية، وساق أسراه أمامه في «الڤيغا»، بينما كان الحصن يتداعى خلف الجميع، وقد اختفت إلى الأبد كل أبراج ما كان يسمى بمعقل «همدان» ـ الهندين ـ.

الفصل السابع

مأثرة الكونت «دي تنديلا»:

تابع أبو عبد الله انتصاراته بإسقاط حصني «مارشينا» و«بلد وي»، وأرسل فقهائه يستحث الناس في طول البلاد وعرضها معلناً الجهاد لهم، وهو يدعوهم إلى تلبية دعوة دينهم فيه، إذ على كل مسلم في أي مدينة أو قلعة أو جبل أو سهل، أن يلبس الزرد ويمتطي حصانه لأداء هذا الفرض الإسلامي تحت علم ولي الأمر الذي يدعو إليه، وهكذا وصلت الأخبار لكل الناس أن «أبا عبد الله» قد نزل إلى ساحات القتال والشرف، مما أعاد لكل العرب بالأندلس الأمل بومضات نجاحه هذه، فنقض الكثير منهم ولائه للتاج المسيحي، وعادوا إلى رفع علمه، وهكذا دخل الأمل إلى قلب هذا الملك اليافع بأن كل الناس في كل المملكة معه.

وعلى هذا الأساس رغب فرسان «غرناطة» الأشداء باستعادة أيام الغزو في قلب بلاد النصارى كما كانوا يفعلون في السابق، فذهب بعضهم إلى الشمال للغزو في منطقة «جين» ليتحرشوا بالبلاد القريبة من «كويكسادا»، وقد وصلتهم الأخبار عن قافلة تجارية غنية بطريقها نحو «بايزا» فشعروا بأن اللحاق بها سيعوضهم عما سبّبه لهم النصارى من خسائر في «الڤيغا».

لذلك اجتمع عدد من الخيالة العرب من غرناطة وسهوبها، بسلاحهم الخفيف وخيولهم السريعة مع مئة راجل، واتجهوا شمالاً وبالليل سراً عبر شعاب الجبال، وعبروا الحدود دون أي مقاومة، ليظهروا فجأة وكأنهم قد نزلوا من السماء في قلب المملكة المسيحية.

وكانت الجبال التي تفصل بين «غرناطة» و«جين» في ذلك الوقت تحت قيادة الكونت «دي تنديلا»، وهو نفس المحارب الذي ميّز نفسه عندما كان قائداً لحامية «الحمى»، وكان مركز قيادته هذه المرة في مدينة «القلعة لاريلا» في حصنها المنيع الذي يقع على أعلى نقطة بالجبل على مسافة حوالي ثمانية عشر ميلاً من «غرناطة»، وتشرف على كل الحدود، ومن هذا «العش

الصقري» المكلل بالغيوم كان الكونت يراقب غرناطة، وقد بثّ كشافته وجواسيسه بكل اتجاه نحوها، لدرجة أنه ولا غراب واحد يستطيع أن يطير فوق الحدود دون علمه.

كذلك كانت قلعته ملاذاً للنصارى الذين كانوا يهربون من العرب في «غرناطة»، ولكي لا يضيعوا في شعاب الجبال كما حصل فعلاً للكثير منهم، فيدخلوا خطأً في مدينة عربية، أو يعود عدوّهم ويلحق بهم، بنى هذا الكونت على نفقته في أعلى مرتفع قرب «القلعة» التي تشرف على كل السهل والبلاد المحيطة به، «منارة» لتدل الهاربين على هذا الملجأ الأمين لهم.

وفي أحد الأيام استيقظ الكونت على صرخات تقول: بأن العرب يخترقون الحدود، أعقبها إحضار مسيحي عليه آثار القيود بوجهه الشاحب أمام «الكونت»، ليخبره بأن الفرسان العرب الذين خرجوا من «غرناطة» قد أخذوه دليلاً لهم، ففرّ منهم حين سنحت له الفرصة ليصل على ضوء المنارة إلى هذا الملاذ، بعد أن ضاع مدة في البراري والجبال.

ولهذا الرجل أنصت «الكونت» بهدوء، وصار يستفسره بدقة عن كل صغيرة وكبيرة منذ أن غادر مع الفرسان «غرناطة» حتى وصل إليه. وهو يعمل في الوقت ذاته على تهدئة خاطره من هذا الموقف المتوتر، وبعد أن حدّد سرعتهم وجهتهم، رأى أنه قد فات الوقت لاعتراضهم، لذلك لابد من انتظار عودتهم للترحيب بهم بشكل حار، خاصة وأن قواته مستنفرة دوماً، وقادرة على النزول إلى ساحة المعركة بكل وقت فور أي إنذار، وهي قوات مدرّبة منضبطة، فاختار منها مئة وخمسين حامل حربة طويلة من أشد الرجال، وخرج بهم بكل هدوء قبل طلوع الفجر، لينزلوا عبر شعاب الجبال، ويتمركزوا في كمين في مكان معشوشب بالسهل فيه أقنية ماء جافة تخفيهم، قرب «بارزينو ـ بارزونه» حوالي تسعة أميال من «غرناطة» على الطريق الذي يمكن أن تعود منه هذه القوات الغازية، واضعاً كشافته على مرتفعات مختلفة من مكان الكمين، لتنبّهه حين وصول العدو.

وطوال اليوم ظلّت هذه القوات مختبئة في النهر، ولقسم كبير من اليوم التالي كذلك، ولم تظهر أية عمامة، عدى عن فلاح يعود إلى بيته من حقله، أو راكب بغل يتحرك نحو «غرناطة» وحيداً، ولهذا بدأ الفرسان يتضايقون من الانتظار، خوفاً من أنه ربما أخذ العدو طريقاً آخراً، أو علم بكمينهم، فحضوا «الكونت» على ترك هذه المفاجأة والعودة إلى «القلعة»، لأنهم على مقربة من العاصمة العربية، وربما رصدت تحركاتهم، وقبل أن يعرفوا ستحيط بهم الكتائب العربية من كل صوب بخيولها السريعة وتسحقهم.

لكن «الكونت» أصرّ أن يبقى إلى أن تصل كشافته التي أطلقها قبل ساعتين من طلوع الشمس، وعندها خرجت إشارة نارية من سيار عربي على الجبل وبينما كانوا يرصدونها وصل

الكشافة مسرعين وهم يقولون: «العرب يقتربون لقد رصدناهم وهم في متناولنا وهم بين مئة ومئتي حربة، لكنهم مثقلون بعدد كبير من الأسرى والغنائم». فوضع فارس مسيحي أذنه على الأرض وسمع وقع الجياد من بعيد، فركبوا وشدوا دروعهم عليهم وهيأوا رماحهم الطويلة، وراحوا يقتربون من فتحة النهر الجاف التي تطل على الطريق.

وكان هؤلاء القادمون قد نجحوا في مفاجأة القافلة التجارية المسيحية التي كانت ذاهبة إلى «بايزا»، فأطبقوا عليها وأسروا عدداً كبيراً من الأسرى من كلا الجنسين، ومعهم الكثير من الذهب والفضة، والبغال المحمّلة بالبضائع النفيسة، وبهؤلاء ساروا عائدين بكل سرعة عبر المناطق الجبلية الخطرة، لكنهم الآن وقد وصلوا إلى السهل، وهم على مقربة من «غرناطة»، فظنوا أنهم صاروا آمنين تماماً، مما دفعهم إلى التباطؤ والسير بغير نظام، وبعضهم يغني والآخر يضحك على ما فعلوه في الحط من كرامة الكونت «دي تنديلا» بسوق هذه الغنائم تحت أنفه، وقد تخلل أصواتهم أنين النساء الأسيرات اللواتي فقدن شرفهن أثناء هذا الأسر، عبر النظرات الحسرى للتجار الذين فقدوا أملاكهم في هذه الغنائم وهي الأهم لديهم.

وانتظر «الكونت» مرور قسم من هذه القافلة وقطعها لهذا التقاطع الذي كان يكمن فيه، ثم أعطى الأمر بالهجوم، فانطلق فرسانه وهم يصيحون ويصرخون صرخات الحرب، مهاجمين وسط حراسة القافلة، ضمن هذا التراخي وفي فوضى هذا المكان وتلك اللحظة، مما أوقع الذعر بعدوّهم بسبب هذه المفاجأة، فاختلطت صفوفهم باضطراب، فبعضهم اندفع ليقاتل بيأس لتثخنه الجراح فيسقط مكللاً بدمائه، وآخرون لاذوا بالفرار، فقُتل منهم ستة وثلاثون محارباً، وأُسر خمسة وخمسون، ونجا الباقون على جنح الظلام بلجوئهم إلى الصخور وشعاب الجبال.

ففك «الكونت» قيود الأسرى، وقلوب التجار تلهج بالثناء عليه حين أعاد إليهم تجارتهم، أما النساء الأسيرات فقد أعاد لهن حليهن التي وجدت مع العرب القتلى والأسرى، وغنم خمسة وأربعين حصاناً بربرياً من خيول الفرسان الذين أسقطهم، مع ما عليها من سلاح ثمين، وبها من غنائم من مختلف الأماكن، وأسرع بفرسانه بعد أن جمع كل هذا ليسابق الريح نحو «القلعة لاريلا»، كي لا يطارده فرسان «غرناطة» الذين شعروا بحصول المعركة، وحين اقترب من حدود مدينته الجبلية خرج الناس للقائه وتحيته بكل فرح وسرور، وقد كمل سروره حين رأى زوجته مع المستقبلين على باب المدينة، وهي ابنة المركيز «أوف ڤلينا» السيدة ذات الأيادي المعروفة للناس، والتي لم يرها منذ سنتين بسبب واجباته تحت دروع ودرق الحديد في هذه الحرب الطاحنة.

الفصل الثامن

حملة أبي عبد الله ضد «سالوبرينا»(*) ومأثرة «هرناندو بيرز دل بولغار»:

لقد أدرك «أبو عبد الله» أن بلاده المهدمة تقع تحت مزيد من نفوذ المعاقل المسيحية في قلبها، مثل معقل «القلعة لاريلا» هذا حيث يراقبه الأسياد النصارى مراقبة محكمة، ويشددون الطوق عليه، كما يفعل الكونت «دي تنديلا»، ويؤمنون أنفسهم من موارده الداخلية، بينما تفشل معظم محاولاته لعكس هذا الموقف خاصة بعد أن أدى تدمير «الڤيغا» إلى القضاء على كل ما تعتمد عليه المدينة لكي تتمكن من المقاومة مستقبلاً، كذلك شعر «أبو عبد الله» بالحاجة إلى مرفأ بحري يمكنه من الاتصال بأفريقيا،لكي يحصل منها على التعزيزات والإمداد، فكل المرافىء والحدود البحرية قد أغلقت في وجهه تماماً.

لذلك توجه اهتمام «أبي عبد الله» نحو مرفأ «سالوبرينا» لكسر هذا الطوق، وهو مرفأ بمدينة سبق لنا ذكرها في هذه الأخبار على أنها من أمنع المدن العربية، إلى درجة أن ملوك العرب كانوا يحتفظون بأموالهم في قلعتها كما جرت العادة، وهذه القلعة تقع على هضبة صخرية عالية تقسم تلك السهوب الغنية على ساحل البحر المتوسط، لأنها تخترقها كخليج أخضر عميق نحو غلاصم الجبال التي تقف وراءها كالوردة العبقة بشذى كل الرياحين فيها، والسهول ـ «الڤيغا» ـ على جانبيها المزروعة بأطايب الخضراوات يزرع فيها الرز بقدر ما يزرع القطن، مع الليمون والبرتقال والتين وسواها من الأشجار المثمرة واللوزيات، وتخترقها الجداول التي تخرج من العيون في السهل أو تتدفق من «السيرا نيڤادا»، مما يجعل هذا الوادي الخصيب بخضرة دائمة على مدار الفصول، وهو محمي بجباله التي تحيط فيه من كل جهة، وبالبحر من أمامه.

(*) «لاشلوبانية».

وفي وسط هذه السهول ـ الڤيغا ـ تشرئب صخرة «سالوبرينا» بخلفيتها الوعرة التي تكاد أن تقسم السهل وتتقدم على هامش من البحر بشاطىء رملي تغطيه أمواج البحر المتوسط الزرقاء وتلعب فيه.

والجوانب الصخرية التي تحيط بالمدينة وعرة ومدعمة بأبراج وأسوار المدينة التي تظهر فوقها، وفي أعلى منطقة منها تقف القلعة الضخمة التي تشكلت على صخرة تحتها وبحجمها، بشكل لازال إلى اليوم يلفت نظر الرحالة الذين يمرون بها عبر السهل.

وقد وضع النصارى على هذه القلعة الهامة القائد «دون فرانسيسكو راميرز دي مادريد» مقدم الهندسة المدفعية وأكثر الناس معرفة بالعلم الحديث من كل القادة الاسبان، وهذا المحارب المجرب كان قد طوبه الملك على أسوار «غرناطة» كفارس، وأعطاه السيادة على هذا الحصن.

وحين علم «أبو عبد الله» بحال هذه الحامية في غياب قائدها هذا، وضع نفسه على رأس قوة قوية من رجاله الأشداء، وخرج من «غرناطة» متحركاً بسرعة نحو الجبال، على أمل أن يسقط «سالوبرينا» قبل أن يتمكن «فردناند» من نجدة حاميته فيها.

وكان سكان «سالوبرينا» من العرب الذين أجبروا على الارتداد عن دينهم «موورداكسرز Murdexares»، فحين سمعوا أبواق وطبول أبناء بجدتهم تقترب من «الڤيغا»، تحرك قلبهم نحو أمتهم ودينهم، ولذلك ثاروا داخل المكان ليهتفوا باسم «أبي عبد الله» وليفتحوا أبواب المدينة له فوراً ويدخلوه لها.

ولأن الحامية المسيحية كانت أقل من أن تضبط المدينة، تراجعت إلى القلعة وأغلقت على نفسها داخل هذا الحصن المنيع، وراحت في دفاع مستميت إلى أن تصلها التعزيزات من الحصون المجاورة.

وحين عمّ خبر غزو الملك العربي «لسالوبرينا» شاطىء البحر كله، استنفرت القوات الصليبية كلها، وكان قائد مدينة «فلز ملقا» عم الملك «فردناند» الدون «فرانسيسكو إنريكويز» وهو على بعد حوالي ستة وثلاثين ميلاً من هذه المدينة، لكنه مفصول عنها بحقل واسع من تلك الجبال الصخرية التي تتكدس على شاطىء البحر المتوسط بكل منحدراتها العويصة التسلق.

ومع هذا جمع «الدون» سياد المناطق حوله للإسراع بنجدة هذا الحصن الهام، وقد وصله عدد من الفرسان مع مشاتهم، ومن جملتهم «هرناندو بيرز دل بولغار» الملقب بصاحب المآثر، الذي رفع الشال من يده وجعله علماً على رمحه الطويل، وقاد قواته المتراجعة نحو النصر، كما ذكرنا سابقاً، وبمجرد أن جمع «الدون» هذه العصبة من الفرسان الأشداء خرج بهم بأقصى سرعة نحو «سالوبرينا»، بطريق وعر وشاق، وهم يتسلقون الجبال وينحدرون منها، وأحياناً

يسيرون على حروفها الخطرة فوق البحر مباشرة، وحين وصلوا منطقة الهضاب التي تمتد على جانب سهل «ڤيغا سالوبرينا»، نظر «الدوق» بحسرة لهذا الجيش العربي الكبير تحته، والمعسكر على أقدام القلعة، بينما أعلام العرب في قطعاتها المختلفة ترفرف على سور المدينة، فتأكد أن المدينة قد وقعت في حوزة هؤلاء اللامؤمنين، وفقط وجد علماً صليبياً وحيداً يرفرف على القلعة، مما يعني أن الحامية الشجاعة فيها لازالت صامدة في هذا المعقل الصخري القوي ـ القلعة ـ.

وعلم «الدون» باستحالة مهاجمة هذا الجيش الكبير بالقوة التي لديه لكي ينجد القلعة، فعسكر بقطعته الصغيرة هذه فوق مرتفع صخري قرب البحر ليعصمهم من هجوم العدو، وكان لعلمه الذي يخفق على هذا المكان أثره الهام برفع معنويات المحاصرين في القلعة، كتأكيد بأن النجدات السريعة ستصلهم من البلاط الملكي، وأثناء ذلك كان «هرناندو» الحريص على تمييز نفسه يغزو جوانب المعسكر العربي يومياً، وفي إحدى هذه الغزوات لاحظ أن باب القعلة من جهة الجبل الصخري مفتوح على جهة هذا الجبل، فلمعت في رأسه فكرة مفاجئة، فقال لأتباعه: «من منكم مستعد ليتبع علمي في اقتحام جريء»، ومثل هذا الاقتراح لا يحتاج في أوقات الحروب إلا النفوس الجريئة، فاندفع سبعون فارساً لتلبيته فوراً، فقادهم «بولغار» مقتحمين أضعف مكان من معسكر العرب ليقاتلوهم، وهم يندفعون نحو بوابة القلعة الخلفية هذه، التي فتحت بسرعة لاستقبالهم وبذلك نجحوا بدخول الحصن قبل أن يطلق الإنذار في معسكر الأعداء.

وهكذا رفعت روح الحامية القتالية بهذه القوة التي عززتها، وصار بإمكانها الدفاع بصورة أتمّ، ولكن العرب كانوا يعرفون بقلة الماء في القلعة مما جعلهم يستنتجون بأن هذا العدد الإضافي للحامية سوف يساعد باستهلاك الماء، وبالتالي الإسراع بالاستسلام، وحين علم «بولغار» بهذا الأمر دلى من القلعة دلواً به كوب ماء فضيّ للعرب.

ولكن الواقع هو أن وضع هؤلاء كان يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، فقد عانوا كثيراً من العطش، وتحتهم الجداول تترقرق في المزارع الخضراء، فصاروا يخافون وصول النجدات متأخرة، إلى أن لاحظوا في أحد الأيام قافلة صغيرة من السفن في البحر تحاول الرسو على الشاطىء، وكان خوفهم من أن تكون تعزيزات للعدو من أفريقيا، لولا أن رأوا على أحدها العلم «القشتالي».

وهذه كانت تحمل المدد الذي أرسله فوراً قائد الحصن «دون راميرز»، فرست هذه التعزيزات على جزيرة صخرية قريبة من الجهة الجنوبية لآخر الشاطىء الرملي خلف صخرة مدينة «سالوبرينا» مباشرة، ومنها نزل الجنود إلى البحر نحو هذه الصخرة التي جعلها «راميرز» كمعقل لإنزاله، وكأنها حصن صغير في البحر، وكانت قواته غير قادرة على خوض المعركة مباشرة،

لكنها ساعدت في غزو أطراف الجيش المحاصر، فكلما كان أبو عبد الله يهاجم القلعة كانت هذه القوات تهاجمه من تلك الصخرة مع قوات «انريكويز» التي كانت تنزل من جهة البر من الهضبة المعسكرة عليها، بينما كان «هرناندو» يدافع بقوة في القلعة، وكذلك كان يشتت انتباه ملك العرب عن ضرورة حمايته لمرفأ «عدرا» الذي أسقطه منذ برهة وجيزة، ولكنه سقط ثانية بيد «النيّار» وابنه «النير» المتعاونين مع النصارى، وبذلك صار «أبو عبد الله» مشتت القوى في كل الاتجاهات، فخسر كل شروط المبادرة التي كسبها من غزوته المفاجئة هذه، خاصة وأن الأخبار بدأت تصله عن تحرك «فردناند» بقوة كبيرة نحوه، فلا مجال لإضاعة أي وقت أكثر من هذا، لذلك قام بهجوم قوي بكل ما يملك من قوة على القلعة لكنه رُدَّ عنها، فانسحب من المعركة خوفاً من أن يحول «فردناند» بينه وبين إمكان عودته إلى غرناطة، وفي طريق عودته راح ينتقم من المعاقل التي أعطاها النصارى لعمه وابن عمه «الزّغل والنيار»، فهزم أسيادها ودمّر عدداً من محمياتها، وأحرق قراها، تاركاً هذه البلاد العربية أيضاً ترزح تحت الدمار والنار، بعد أن نهبها لكي يعود بنصر ما إلى جدران الحمراء ليعتصم بها(*).

(*) كيبدول مرة ثانية.

الفصل التاسع

كيف عامل «فردناند» أهل «غواديكس»، وكيف انتهت أيام «الزّغل» ومتعه:

وما كاد «ببدول» يحمي نفسه في عاصمته، حتى ظهر «فردناند» على رأس سبعة آلاف فارس وعشرين ألف راجل في «الڤيغا»، منطلقاً بهم بكل سرعة من «قرطبة» لكي ينجد «سالوبرينا»، وحين علم برفع الحصار عنها، وجّه جيشه نحو تدمير ثانٍ للڤيغا وحول أسوار «غرناطة»، وظلّ على هذا الحال خمسة عشر يوماً، عاد خلالها لتدمير كل ما لم تطله يده سابقاً، إلى درجة أنه لم ينجُ عرق أخضر من أفعاله ولم يبق على حيوان في السهل أو على وجه الأرض، وكان العرب يخرجون له أحياناً، ويقاتلونه بشكل يائس، لكنه أكمل كل أهدافه التدميرية، حتى غدت «غرناطة» مدينة الحدائق والبساتين، محاطة بصحراء قاحلة بكل معنى الكلمة.

ومن هنا انطلق لسحق ما اعتبره مؤامرة مدن «غواديكس وبازا والمرية»، فهذه المدن التي خضعت مؤخراً، خاف أن تكون قد تراسلت سراً مع «ببدول» ودعته ـ كما حصل في «سالوبرينا» التي فتحت أبوابها له ـ وتواعدوا معه بأن يثوروا على النصارى وحامياتهم فيها، ويسقطوا القلاع في تلك الحاميات ليسلموا أنفسهم للعرب.

فأرسل «فردناند» المركيز «أوف ڤيلينا» الذي ادعى أنه قد أخطر بهذه المؤامرة، فدخل إلى «غواديكس» فجأة وبقوات كبيرة، وبدعوى أنه أراد أن يستعرض سكانها: دفعهم إلى الخروج إلى الحقول المجاورة للمدينة، وجعل كل من يقدر على حمل السلاح منهم خارج الأسوار التي أغلقها بوجههم، ثم سمح لهم بالدخول فرادى لأخذ زوجاتهم وأولادهم، وأغراضهم الشخصية، وهكذا صار كل سكان المدينة مشردين في براريها، ولم يسمع أحد لدعواهم. وكل ما كان «المركيز» يعدهم به هو: ضرورة أن ينتظروا حتى تتم محاكم التفتيش النظر بالدعوى

ضدهم، وتعرف الرغبة الملكية بشأن مصيرهم بعدها؟!

ولما وصل «فردناند» إلى «غواديكس» تجمع هؤلاء التعساء حول موكبه، وهم يطالبونه بكل مرارة برفع هذا الحيف عنهم، وبتقيده بشروط المعاهدة التي سلموه بلدهم بناء عليها، وإعادتهم إلى مدينتهم.

فسمع الملك دعواهم بكل مكر، وقال: «يا أصدقائي لقد بلغني وجود متآمرين بينكم، يريدون قتل «سيادي» وحامية المدينة بناءً على حلف سري مع ملك «غرناطة»، لذلك أمرت التفتيش بالتحقيق في الأمر، ومن تثبت منكم براءته سيعود إلى بيته، أما المذنب فعليه أن يصبر على تحمل نتائج إساءته، وكما تعلمون إني أرغب بتحقيق العدالة والرحمة أيضاً، لذلك أعطيكم الآن خياراً ـ قبل أن تبدأ التفتيش ـ بالمغادرة بدون محاكمة إلى حيث ترغبون، ومعكم أهلكم ومتاعكم بكل أمان، أو أن تسلموني المشتبهين كلهم بدون استثناء، وأعدكم بشرفي الملكي أنهم سيعاقبون».

وعندما سمع سكان «غواديكس» هذا التغرير بهم كي يتهموا أبناءهم قال معظمهم بعد أن اجتمعوا فيما بينهم، كما ادعى الفاضل «آغابيدا» بعبارته المعاصرة لهذا الحدث: «كلنا مدانون» فقبلوا بديل الترحيل، ورحلوا آسفين مع عائلاتهم وأطفالهم، وهكذا قال مؤرخ فاضل آخر عاصر وشاهد هذا الحدث: «إن الملك «فردناند» أنقذ «غواديكس» بهذه الطريقة من أعداء الإيمان، بعد أن بقوا فيها سبعمئة وسبعين سنة منذ أيام «رودريك الغوطي»، وهذه واحدة من إرادات الربّ الذي أراد أن لا تبقى هذه المدينة في قبضة العرب أكثر من ذلك»، وقد نقل «آغابيدا» هذه الملاحظة بكل دقة ورعه المعهود.

وعلى نفس المنوال ساق «فردناند» أهل «بازا والمرية» خارج ديارهم، إضافة لمدن أخرى اتهمتها محاكم التفتيش بالتآمر، ففضل هؤلاء الناس ترك ديارهم عن الوقوع بأيدي المفتشين، ولأن اسبانيا لم تعد آمنة لهؤلاء، سافر معظمهم طلباً لحماية أنفسهم وعائلاتهم إلى المغرب العربي، أما الذين بقوا فعاشوا في أماكن بنوها كضياع وقرى غير محمية بأي حصن من النصارى.

وبينما كان «فردناند» منشغلاً هكذا بنشر العدل والرحمة بين الناس، لينال المدن فارغة من سكانها بالمقابل، وصله الملك العربي المسن «الزّغل» وهو بحالة عاطفية سيئة، لأنه أفاق ليجد مملكته القزمة في «أندراكس» مع الألفين من رعاياها صعبة المراس، ولا يمكن حكمها بمعزل عن «غرناطة»، فقد سقط سحره وغابت جاذبيته عن الناس منذ أن برز بجانب «فردناند» بعلمه وهو يحاصر «غرناطة».

وحين عاد من حملته اللامشرفة مع المئتي فارس كجيش ممسوخ له من حصار «غرناطة»، قام عليه شعبه لينضموا إلى «ببدول الشيكو» الذي وجدوه أفضل منه على كل علاته، وشهروا عليه السلاح وهو يستعرض نفسه بفخر بينهم، وأعلنوا ولاءهم لغرناطة وطردوه، ولم يستطع هذا الخرف التعس أن يفلت من غضبهم إلا بصعوبة، وبذلك أخذ درساً من مرض أن يصير ملكاً بأي ثمن وعلى أي وضع كان، بأن راح الآن يطلب من «فردناند» أن يعود ويشتري منه هذه المقاطعة التي أقطعه إياها، فبيع هؤلاء ضمن صفقة بيع الأندلس ككل لم يعد يقدم ولا يؤخر كثيراً، لذلك عرض هذه القلاع والمدن على ملك النصارى بسعر زهيد، مع السماح له ولحريمه وأتباعه بالمرور بأمان إلى أفريقيا، ولاقت هذه الصفقة استحسان «فردناند»، فدفع له ثمن ثلاثة من المدن العشرين التي أعطاها له في وادي «أندراكس والحوراني» بقيمة خمسة ملايين فضية، بعد أن تنازل «الزغل» عن حقه بممالح «سالت بيت أوف مالشا» لابن عمه «النيار»، وهكذا تمّ تجريده نهائياً من امبراطوريته المسوخة هذه، ومن كل أملاكه، فحمل كل ثروته ومجوهراته الكثيرة وجاز العدوة إلى أفريقيا، تتبعه عائلات كثيرة من أهل الأندلس التي خرجت بلا شيء.

وهنا لا بدّ لنا من أن نستمر في متابعته في «أخبارنا» هذه، لكي يعرف القارىء ماذا حلّ بهذا المقاتل الذي هرم وخرف بهذه الطريقة: «الزّغل». فحكمه القصير المتقلب الأحوال، وما وصل إليه من كوارث، قد تعطي عظة للطموح الأعمى للحكّام، فإذا كان الطموح أعمى بهذا الشكل يصير مثلاً وعظة لمن يتعظ، فعندما وصل إلى «أفريقيا» ألقاه ملك «فز»(*) بالسجن بدل التعاطف معه، كما لو كان عبداً من عبيده، واتهمه بأنه سبب خراب وانهيار مملكة «غرناطة»، كتهمة ترضي طموح هذا الملك، فبإدانته صادر أمواله، و«كحّله» بمكحلة من نحاس محمّى، فأعماه، فكانت ثروته المنقولة سبب دماره بهذا الشكل، ولهذا الحكم الجائر الذي نزل بحقه، فرغبة التملّك كانت عند أنداده أيضاً ولم يحسب حسابهم، وظنّها من أمراضه وحده، وبهذا الوضع المحطم أطلقه مضطهده أعمى لا حيلة له، ومشرّداً في البلاد، إلى أن وصل إلى «طنجة» حيث له في «فلز العمرية» أصدقاء، خاصة وأن حاكم هذه الناحية كان حليفه، فشعر ببعض التعاطف مع وضعه الحالي، فأعطاه ما يسد رمقه وحماه عنده في منطقته، والموت الذي غالباً ما يعقب مثل هذا الوضع المزري، تجنّبه أيضاً لكي يجرع مرارة أفعاله لآخر قطرة من كأس المذلة، فجر «الزّغل» حطام وجوده وبقايا ذاته في مدينة «فاس» لسنين عديدة، يتجول أعمى محطماً فيها، وهو مجال الغمز واللمز والسخرية إلى درجة أن البعض من أطفال المدينة كانوا يعلّقون على ظهره ورقة كتب عليها: ملك الأندلس؟!

(*) هناك إرباك عند «إيرڤينغ» حين تهجيه كلمة «فاس» وكلمة «فز»، والمقصود هنا ملك «فاس» حسب المقري.

الفصل العاشر

استعداد غرناطة للدفاع الميئوس منه:

«أين ذهبت هذه القوة وأين ذوى ذاك الجمال، يا «غرناطة» يا مدينة الحدائق والفستقيات والنوافير!! ها هي متاجرك التي كانت تغص بالبضائع تتوقف عن العمل، ولم يعد الناس يسرعون إلى أبوابك للحصول على بضائع الشرق الرائعة الفخمة، التي تأتي من أقاصي المعمورة. المدينة التي دفعت جزية كل هذا وجزاءه، المدينة التي كان فرسانها يخطرون في ساحة «الڤيغا رامبلا» قد سقطوا في معظم هذه الحروب والمعارك، و«الحمراء» التي لازالت أبراجها مشمخرة على هضبة المدينة يخيّم الأسى على قاعاتها الرخامية، حيث ينظر خاتم سلالة ملوكها من شرفاتها الفخمة على «الڤيغا» التي صارت عارية، وهي تحيط بالمدينة بقفرها من كل جانب، بعد أن كانت تملأ العين بخضرة نضرة ممتدة لا تنتهي».

بهذه العبارات وما شابهها عبر الكتاب العرب عن الوضع المأساوي لغرناطة التي نؤرخ لها، والتي صارت في ذلك الوقت مجرد شبح لتلك العظمة السابقة، إلى درجة أن الفلاحين أقلعوا عن زراعة «الڤيغا»، وإعمارها، لأنهم حين كانوا يفعلون يكونون كمن يجر غزواً جديداً إلى بلدهم.

وخلال هذا الشتاء راح «فردناند» يهيىء كل استعداد ممكن لآخر الغزوات التي يجب أن تقرر مصير «غرناطة»، فما دام هدف هذه الحرب دينياً، فعلى العدو من أي دين آخر أن يدفع كل ثمنها، لذلك أثقل اليهود في كل مملكته بالجزية، وطلب من كل «كنيس» لهم وكل مكان تجمع هم فيه، الاستجابة السريعة لكل ما تطلبه منهم مدينة «إشبيلية».

وفي الحادي عشر من نيسان/أبريل خرج «فردناند» و«إيزابيلا» نحو الحدود العربية وقد قررا إنزال الحصار الشديد بغرناطة، وعدم رفعه إلا إذا تمكنا من غرز علمهما في قلب أبراج

«الحمراء»، وكان معظم النبلاء الذين لبّوهما من أقاصي البلاد قد وطنوا أنفسهم بتحقيق هذا الإنجاز ببطء لا بقوة السلاح، ولذلك أرسلوا مماليكهم مع الملكين ليلتحقوا بهم لاحقاً، لأن الحصار سيكون طويلاً وبطيئاً، وظلّوا في بلادهم يهتمون بشؤونها.

وهذا يعني اشتراك كل المدن بهذا الجيش الملكي الذي صار عرماً، فقد نزل الملك إلى ساحة الحرب هذه بعشرة آلاف فارس وأربعين ألف راجل، وكان على رأس مقدميه: «رودريغو فونس دي ليون والمركيز أوف كاديز والماستر أوف سانتيغو والمركيز أوف ڤيلينا، والكونت أوف تنديلا مع: سيفيونتي وكابرا ويورينا ودون ألونزو دي غويلار».

بينما نزلت الملكة إلى هذه الحرب بصحبة ابنها «الأمير جوان» والأميرات: «جوانا وماريا وكاتالينا» بناتها، ليتجهوا إلى «القلعة لاريلا» الحصن الجبلي القوي الذي يعتصم به الكونت «دي تنديلا»، وبقيت الملكة فيه لكي تؤمن تموين الجيش ولكي تكون جاهزة للنزول إلى معسكر الجيش حين تستدعي الضرورة نزولها، بأبهتها التي قد تخلب الألباب، كما فعلت «ببازا»، فظنها العدو حمامة السلام والمحبة كملاك نزل من السماء، وبين الإعجاب والخوف استسلم قادته وتنصروا.

وهكذا تدفّق جيش «فرناند» إلى «الڤيغا» من شعاب الجبال المختلفة، وفي الثالث والعشرين من نيسان/أبريل نصبت الخيمة الملكية في قرية اسمها «لوس أوغوس دي هيوسكار» على بعد أربعة أميال ونصف من «غرناطة»، ونظراً لكثرة هذا الجيش وقع الذعر في المدينة لأنهم شعروا أن هذه هي آخر معاركهم اليائسة مع العدو.

وجمع «ببدول» مجلسه الاستشاري في غرفة بالحمراء، وكان يمكن من نوافذها رؤية لمع درق هذه القطعات العسكرية المسيحية وغبار خيولها المنتشرة في كل «الڤيغا»، فحام على جو هذا الاجتماع الحيرة والاضطراب، وبسبب الذعر الذي أصاب البعض منهم خوفاً على عائلاتهم، راحوا ينصحون «ببدول» أن يسلّم نفسه لكرم ملوك النصارى، وحتى الشجعان منهم طرحوا فكرة الاستسلام لكن بشروط مشرفة.

وحين طلب من «ابن كماشة» وزير «ببدول» واسمه: «أبو القاسم عبد الملك»، أن يحدث المجلس عن حال الناس في البلد، وما لديهم من وسائل للدفاع عنها، قال: «إن لدينا تموينا يكفي لعدة أشهر بغض النظر عما لدى التجار والسكان الأغنياء من مؤن، ولكن كل هذا لا يزيد عن عدة أشهر أخرى، ضد حصار النصارى الذي يبدو غير محدد الزمن، كما قدّم لائحة أيضاً بالرجال القادرين على حمل السلاح، مؤكداً أن عددهم كبير لكنهم ليسوا محاربين، فقد يختفون في بيوتهم إذا حمي الوطيس، ولايجرؤون على مواجهة العدو من قرب».

وعندما سمع «معاذ» هذا التخاذل وقف بحدّة ليقول: «ما سبب هذا اليأس؟! فدماء هؤلاء الذين تتهمهم بالجبن لأنهم مدنيون هي دماء الفاتحين العرب الأوائل، فلنعرف هذا قبل أن نطلب من القدر أن يقف بجانبنا، فلدينا قوات مقاتلة خيالة وراجلة هي من خلاصة زهرة فرسان الأندلس، عركتهم الصوائف الحربية بألف معركة، أما بقية شعبنا فلماذا نشك بيأسه وولائه؟! ونستخف بهم، ففيهم عشرين ألف شاب بعزِّ الصبا، سندافع معهم عن بيوتنا وعرضنا، ولذلك سيفوقون كل محارب متمرّس بأدائهم، هل تريدون قطعات محاربة؟! ها هم خيالتنا كالبحر العرم وهم أجرأ من النصارى في القتال، فدعوهم يعطونهم ويعطوا هؤلاء المسلمين المرتدين الذين استسلموا للنصارى درساً لن ينسوه، دعوهم يخرجوا للقاء العدو في أرضه، وسترون كيف يعودون لكم بهم أسرى على أبواب المدينة، فالجندي لا يستعذب شيئاً سوى استعذابه لقتال عدو خطر وصلب.

و«ببدول الشيكو» الذي كان دائماً بحاجة إلى الحزم والشجاعة شجعته هذه الكلمات، فالتقط شعلة حماس من النبيل «معاذ» وقال: «إفعل ماتراه ملائماً يا معاذ، فأنا أضع بين يديك أمن هذه البلد وأعلنك حامياً للمملكة، فأنت الذي سيثأر لنا من كل إهانة تلقاها ديننا بعون الله، ولكل شهيد وقريب فقدناه، فبيديك ستزيل كل معاناتنا».

وهكذا وزّع على كل شخص واجباته، فأعطى لوزيره مسؤولية التموين والسلاح وتجنيد الشعب، ولمعاذ قيادة الفرسان للدفاع عن الأبواب، والخروج لملاقاة العدو ومبارزته، وعيّن له أركان حرب من كل من «نعيم رضوان» و«محمد بن زيد»، كما جعل «عبد الكريم الذعري» على حراسة الأسوار مع عدد من المقدمين، أما قيادة الحصن فعليها أسياد القصبة، لحماية البرج الأحمر.

فلم يعد في المدينة صوت يعلو على صوت السلاح وتجهيزات القتال، والروح العربية السريعة الحماس صارت متوقدة الآن، فصار الناس غير عابئين بكل قوة النصارى، وصرت ترى كأن «معاذاً» بكل مكان من المدينة، فقد وصل حماسه إلى قلب كل جندي ومقاتل، والتفّ حوله فرسان شباب معتبرينه القدوة التي يجب حذوها، كما اعتبره المقاتلون القدامى صورة تجسّد شبابهم، وانساق العوام وراءه على خطى هؤلاء، وهم يهتفون له، أما الشياب والنساء فقد صاروا يلهجون بالدعاء له في صلواتهم.

وبمجرد أن اقترب العدو أغلقت أبواب المدينة بالمزالج الخشبية الآمنة، ورفعت سلاسل الأبواب الثقيلة لتغلق أبوابها الضخمة، لكن بعد أن تهيأ «معاذ» وفرسانه، عاد وأمر بفتحها قائلاً: «لقد ائتمنتمونا على الدفاع عن أبواب المدينة، فأجسادنا أنا وفرساني هي مزالجها»،

واضعاً كوكبة من الفرسان الأشداء على كل باب بخيولهم المتحفزة للوثوب، وهي مغطاة بأرهف الحرير وأحلى الألوان والزخارف، والفرسان بدروعهم ودرقهم الملوّنة والمطعّمة فوقها، وبأيديهم رماحهم الطويلة، وبلحظة واحدة فتحت كل الأبواب، لينطلق منها كل هؤلاء الفرسان دفعة واحدة، وكأن هذه الأبواب مدافع أطلقت قذائفها دفعة واحدة بوجه العدو، فاندفعوا كالرعد القاصف، ولم يكن قول «معاذ» بأقل من أفعاله، فقد كان بهجومه يشكل تهديداً خطيراً للغزاة، وهو يخترق صفوفهم وهي تنهار تحت سنابك خيله، فكان بطلاً عربياً بكل معنى الكلمة، لو كان مثله في السلطة في بدايات هذه الحرب، لتغير مصير «غرناطة»، ولبقي التاج العربي على «الحمراء» إلى الأبد.

الفصل الحادي عشر

كيف وجّه الملك «فرديناند» هذا الحصار بحذر وكيف وصلت الملكة «إيزابيلا» إلى المعسكر:

رغم ما أصاب «غرناطة» من تقطيع أواصرها المجيدة، وعزلها تقريباً عن بقية العالم، فلا زالت أسوارها الضخمة قادرة على ردّ أي هجوم مهما عظم، وعزلها عن باقي جيوش العرب في الأندلس والخارج لا يعني أن الجيش في داخلها عاجز عن الدفاع عنها، رغم تقدم العدو نحوها بسياسة الخطوة خطوة(*)، فكل من بقي من سلالة النبلاء العرب وفرسانهم كانوا هنا، وكل وطني مخلص صار نشطاً في الدفاع عن «غرناطة» في الأوقات العصيبة الخطرة الآن، فكل آمال الناس بالأمن المصطنع المحال إذا لم يتورطوا حين سقوط مدن المملكة الأخرى تبخرت الآن، وإزاء هذا الواقع ظهرت كل عناصر المقاومة من تحطم هذه الآمال.

فعرف «فرديناند» أن إخضاع المدينة بالقوة سيكون دموياً ومكلفاً، ونتيجة سياسته الحذرة في الفتح الذي ربحه بفن المراوغة أكثر من القوة، عاد إلى الخطة التي أظهرت نجاحها الباهر في «بازا»، مصمماً على أخذ هذه المدينة بالمجاعة أيضاً، ولأجل هذه الغاية كان جيشه يتوغل في «البقصارا» ويدمر سهولها، ويحرق قراها، التي تعتمد عليها هذه المدينة في التموين، كما أن قطاعات من الكشافة كانت تعصف بالجبال خلف «غرناطة»، لتأسر كل قافلة تحمل بضائعاً إلى المدينة، لكن العرب صاروا أكثر جرأة كلما صار وضعهم أسوأ، «ففرديناند» لم يكن يتوقع هذه الهجمات على جيشه من المدينة بشكل متتابع وعنيف، «فمعاذ» على رأس فرسانه كان يعصف بمعسكره، وحتى يدخل في صلب هذا المعسكر، ناهباً سالباً، بشكل مفاجىء، ولا يترك آثاره إلا مخضبة بدماء النصارى من قتلى وجرحى، ولذلك حصّن «فرديناند» مخيمه من هذه الهجمات

(*) نذكّر «بكيسينجر» في ما فعله تجاه العرب في السبعينات من هذا القرن.

بالخنادق العميقة والجدران الطينية، وجعله ينقسم بين طرقات وكأنه مدينة، جاعلاً خيام الجند رباعية بين هذه التقاطعات، تنفصل عن بعضها بالعوائق الخشبية وجذوع الأشجار والأعشاب، وحين تمّ بناء المعسكر هكذا وصلت «إيزابيلا» بكل بلاطها وأمرائها لكي تحضر الحصار، بشكل مقصود كما حصل سابقاً، لكي ييأس المحاصرون من أن غزاتهم لن يتركوا المعسكر حتى تسقط المدينة، وبعد وصولها ركبت فوراً لتتفقد المعسكر وتتعرف على طبيعته، وفي كل مكان كانت تستقبل بحفاوة شديدة، وقد إصطف كل القادة بشكل استقبالي حافل لاستقبالها بمراسم الاستقبال اللائقة، فلا شيء صار يُسمع في المعسكر سوى أصوات موسيقى الجيش للاستقبال، والهتافات التي تندفع لتحيتها من الجنود، بشكل بدا للعرب وكأنهم يشهدون احتفالاً دائماً من احتفالات النصر المسيحية.

لكن كل هذا لم يؤثر ـ كما فعل في السابق ـ بخفض الروح القتالية النارية للفرسان العرب، فقد سبقها «معاذ» في بث روح التضحية والبطولة في محاربيه الشباب، ومن أقواله: «لم يبق لدينا ما ندافع عنه سوى هذه الأرض التي نقف عليها، فإذا ضاعت ضعنا، ولم يبق لنا أثر ولا بلاد ولا اسم».

ولأنه وجد أن الملك النصراني لا يتحرك للهجوم عليه، حث «معاذ» فرسانه على تحدي فرسان الجيش المسيحي في معارك مفردة، أو مبارزات جماعية متعددة، فلم يعد يذهب أي يوم دون مثل هذه المعارك على مرأى من المدينة والمخيم.

وكان المتحدون يخرجون بكامل سلاحهم البراق، ويعددون فعالهم بخصومهم، ثم يشتبكون بالمبارزات وكأنهم في عرض احتفالي أكثر من كونهم في ساحة معركة، وهكذا وجد «فردناند» أن هذه المبارزات تزيد من توقد الروح النارية للمقاتلين العرب وتؤكد شجاعتهم، لذلك أمر بمنع قبول مثل هذه التحديات، مؤكداً على ضرورة تجنب أي صراع جانبي، وكان لهذه السياسة الهادئة في معالجة هذه الحرب ثقلها على قلوب الجيش المسيحي الذي بدأ يشعر بالمهانة إزاء العرب، لأنهم وجدوا أنهم وكأنهم يخضعون لهم، فما فائدة الفروسية والبطولة الفردية في ساحات القتال؟! وصاروا يظنون أن ملوكهم لجهلهم بأهمية هذه البطولات الرائعة يمنعوهم من رفع معنوياتهم القتالية.

الفصل الثاني عشر

عن الإهانة التي ألحقها الفارس العربي «طريف» بالنصارى والمأثرة الشجاعة «لهرناندو بيريز دل بولغار» في الردّ عليه:

عندما رأى الفرسان العرب انعدام ردّ الفعل على تحدياتهم، بعد أن استخدموا كل الوسائل لإثارة المحاربين النصارى ودفعهم للنزول إلى الميدان، إلى درجة أن مجموعات من العرب كانت تتجه بخيلها خبباً نحو معسكر النصارى، لتتراهن عمن يدخل حربته بحاجز المعسكر بصورة أعمق وعليها اسمه، أو يضع عليها عبارات مهينة لمحاصريه، مما سبب الكثير من الالتهاب في صفوف العدو لهذه الجرأة في التحدي، ولكن ظلّ الاسبان يحافظون على تعليمات مليكهم، ولم يردوا.

وكان من ضمن هؤلاء الفرسان العرب المتحدِّين، فارس اسمه «طريف» مشهور بقوته وجرأته الكبيرة، إضافة إلى شدة بطشه، التي تغلب على روح الفروسية لديه، وفي إحدى هذه التحديات عندما كان العرب يتبارزون مع بعض جنود المعسكر وهؤلاء يتجنبونهم، خرج «طريف» عن جماعته واندفع بحصانه ليجتاز سور المعسكر ويصل إلى حد قريب من الجناح الملكي فيه، مطلقاً رمحه الطويل بعيداً في صدور الأعداء، إلى درجة أنه صار قريباً من الملكين، فاندفع الحرس الملكي نحوه، عندها رجع إلى خارج المعسكر، وطرد حصانه مع أصحابه تاركاً الغبار وراءه يعج في وجوه مطارديه متجهاً نحو المدينة، وعندما ترجّل هناك وجد علامة عالقة برمحه من بيارق الأعداء، فظنها صورة العذراء أو ما شابه، لكنها كانت صورة الملكة وعلمها الخاص.

ولك أن تتصور الذلّ الذي أصاب فرسان النصارى من هذه الجرأة، وتلك الإهانة للملكة ولهم، لذلك تحرك الملقب بصاحب المآثر «هرناندو بيرز دل بولغار» الذي كان حاضراً، وأقسم أن يقتص من هذا اللامؤمن الذي يجب أن يقف إزاؤه في صراع مميت، ولأن الفرسان النصارى

يعرفون مبادراته تركوا له هذا الشرف ليقود خمسة عشر من رفاقه الأشداء ذوي القلوب القوية، وفي عتمة الليل خرج بهم من المعسكر واقترب من المدينة بكل حذر إلى أن وصل إلى أقرب باب فيها له، وكان باب «دارو ـ داره ـ» الذي يحرسه جنود مشاة لم يخطر ببالهم أي هجوم من هذا النوع، فكان معظمهم نياماً، فهاجموهم وبدأت مبارزة لم يشترك فيها «هرناندو»، بل اندفع بحصانه عبر البوابة نحو شوارع المدينة بكل عنف ومن حدوات حصانه يطير الشرر بكل اتجاه، إلى أن وصل إلى المسجد الجامع في وسط المدينة، ليعلنه كنيسة نصرانية للعذراء مريم، ويضع الصلبان على بابه، رافعاً لوحة كان قد أحضرها معه، مكتوب عليها بأحرف كبيرة عبارة: «Ave Maria» حيث سمّرها على الباب بقبضة خنجره، ثم قفز على حصانه وعاد مسرعاً نحو البوابة، مع أصوات الإنذار التي أفاقت المدينة عليها، والجنود يتدافعون نحوه من كل صوب، وهم بدهشة من رؤية فارس مسيحي يطرد حصانه هكذا داخل مدينتهم، فردّ «هرناندو» بعضهم، وضرب آخرين قبل أن يلحق برفاقه، الذين كانوا لايزالون يحافظون على موقعهم أمام الباب بقتال شديد، وعاد الجميع يتراجعون نحو المعسكر، والعرب في ذهول من الهدف من هذه المعركة والهجوم العديم الثمرات، لكن تساؤلاتهم اتضحت في اليوم التالي حين رأوا اللوحة الخشبية المثبتة على باب المسجد الجامع بعباراتها النافرة: «Ave Maria»(*) أي كنيسة السيدة العذراء، وقد وضعت في مركز مدينتهم بهذا الشكل العلني من قبل «هرناندو» الذي حدد اسم هذا المسجد ككتدرائية وقد صارت كذلك بعد ذلك، حين سقطت «غرناطة» وفرضت المسيحية عليها.

(*) هذه كلمات أغنية أيضاً لازال الاسبان يردّدونها إلى اليوم، في احتفالات نصرهم على العرب السنوية منذ سقوط غرناطة إلى اليوم.

الفصل الثالث عشر

كيف ألقت الملكة «إيزابيلا» نظرة على مدينة «غرناطة» وكيف أن فضولها قد كلّف حياة الكثير من الفرسان:

لهذا أُبعد المخيم الملكي عن «غرناطة» لدرجة أنه لم يعد يظهر من المدينة له سوى معالمها الرئيسية، ببروزها المشرئب من «الڤيغا» وما تغطيه أبنيتها من تلك الهضبة الشامخة من قصور وأبراج، لكن الملكة «إيزابيلا» كانت ترغب بمنظر أقرب للمدينة ذات الجمال الذي يحكي به كل الناس في العالم، ولذلك هيأ المركيز «أوف كاديز» ـ نتيجة طبعه المجامل للملكة ـ مرافقة كبيرة وحرسه لحماية سيدة القصر حين اقترابها من المدينة.

وقد كان ذلك في الأيام التالية للحدث الذي سجلناه في الفصل السابق، إذ انطلقت هذه المجموعة البراقة من الفرسان من معسكر النصارى، بمقدمة من الفرسان الثقيلة التي تبدو وكأنها كتلة من الحديد اللامع المتحركة، وخلفهما الملك والملكة والأمراء وسيدات البلاط، يحيط بهم الحرس الملكي من كل جهة، الذي يتألف عادة من أبناء أكابر العائلات الاسبانية، وبعدهم حرس المؤخرة بخيالته القوية ومشاته التي تتبعها، وهكذا يمكننا القول أن زهرة الجيش الاسباني تحركت في ذاك اليوم، تحت أنظار العرب المعجبين بهذه القوات المشتركة المجيدة، التي تمثل إرهاب هذا المخيم لهم ممزوجاً بالأبهة الملكية، وهم يسيرون بخط مستقيم عبر «الڤيغا» على أنغام الموسيقى العسكرية التي تصدح بكل السهل، واهتزاز الأعلام وشارات القطعات، وملابس الحرير لحامليها فوق دروعهم ودرقهم، مما يضفي ألواناً مشرقة لوهج الحديد القاسي تحتها.

وكانت وجهتهم نحو مزرعة «زبيا»(*) المبنية أسفل الجبل على اليسار من «غرناطة»، والمشرفة على قصور «الحمراء» في المدينة ومعظم القسم الجميل منها، وبمجرد أن وصلت هذه القوة إلى

(*) «الزبية».

المزرعة، انتشر المركيز «أوف ڤيلينا» والكونت «أوف يورينا» و«دي غويلار» بقطعاتهم على جانبي الضيعة جهة الجبل، في الوقت الذي نزل إلى السهل قرب المزرعة قوات كل من المركيز «أوف كاديز» والكونت «دي تنديلا» والكونت «دي كابرا» مع دون «ألونزو دي فرنانديز»، ليأخذوا مواقعهم القتالية هناك على شكل حاجز بشري من الفرسان الموالين للملكة بين الملكين والمدينة، وبسبب كل هذه التأمينات العسكرية والحراسة المكثفة دخل أصحاب الجلالة وبلاطهم معهم أحد بيوت المزرعة التي أعدت لاستقبالهم، وبذلك تمكنوا من التمتع برؤية كاملة لكل المدينة من شرفة هذا البيت، وراحت سيدات البلاط يحدقن بكل سرور بأبراج الحمراء الأرجوانية، وهي تشرئب من هضبتها، وهنّ يعددن الأيام التي ستصير بعدها إليهن، حين ستدخل في الملك الكاثوليكي ويشرف قاعاتها الفرسان الاسبان، ولهذا قال آغابيدا: «ظهر السرور على وجوه آباء الكنيسة والرهبان الذين يحيطون بالملكة، مع كل ما يتمتعون به من قداسة، لأن بابليون الجديدة هذه ستصير كنيسة نصرانية، وستحوّل مناراتها ومساجدها إلى كنائس، وسوف يرث الرهبان المقدسون الفقهاء اللامؤمنين فيها».

والعرب من جهتهم عندما رأوا كل هذه القوات تتجه صوبهم من السهل، وقد أخذت مواقعها القتالية في هذه المزرعة، ظنوا أنها تعرض عليهم أن يخوضوا معها معركة، فلم يترددوا بقبولها، فلم تلبث الملكة أن رأت قطعات الخيالة العرب تتدفق نحوها، وهم يسوقون مهورهم بلباسهم المثير للإعجاب، فسلاحهم ثمين وألوان ثيابهم كثيرة، وعلى سروجهم المطعمة بالذهب تتراقص أشعة الشمس، فتلك كانت قوات «معاذ» الخاصة على مهورها النارية، وهي من زهرة شباب «غرناطة»، يتبعهم خيالة دارعة ثقيلة مع رماحهم الطويلة الثقيلة ودروعهم الفخمة، ووراء الكل تدفق المشاة من حملة البنادق الطويلة الثقيلة والنشاب والسيوف العريضة الطويلة والمعقوفة.

وعندما رأت الملكة كل هذا الجيش يتدفق من المدينة، أرسلت بأوامرها إلى المركيز «أوف كاديز» تمنعه من الهجوم على العدو، أو قبول أي تحدي ومبارزة، لأنها لم تكن تريد أن يؤدي فضولها بالنظر إلى غرناطة عن قرب إلى إراقة الدماء أمامها، وجزعاًمن رؤية ذلك، وفزعاً على بلاطها من التهديد.

فقبل المركيز أوامرها على مضض لأنه جعل الفرسان الاسبان بذلك مضطرين إلى مواجهة العدو سلبياً، فشهروا سيوفهم دون حراك؟! ولأن العرب لم يفهموا معنى هذا السلوك بعد أن صاروا في المعركة عملياً، هاجموهم عدة مرات واقتربوا منهم بشكل كافٍ لإصابتهم بسهامهم دون أن يتحركوا، مما دفع بالفرسان العرب إلى الوصول إلى خطوطهم القتالية وتحديهم للمبارزة

الفردية، لكن «فردناند» منع ذلك بكل شدة، وهم لا يستطيعون مخالفة أوامره تحت ناظريه.

بينما كان هذا الهدوء المثير للإشمئزاز يسيطر على كل خطوط قتال الصليبيين، ظهر صوت قرب بوابة المدينة لفارس عربي وكأنه ضحك سخرية، وتقدم هذا الفارس المدجج بالسلاح من كل جهة، يتبعه مرافقته التي توقفت حين اقترب من الخطر، وكان هذا الفارس أسمر اللون بني التقاطيع أكثر من كل رفاقه، وقد أغلق واقية خوذته على وجهه، وبيده درع ضخم يحمله بيسراه، بينما يحمل بيمينه رمحاً طويلاً، وعلى خصره علّق سيفاً عربياً من السيوف «الدمشقية» الشهيرة النصال، أما خنجره فمطعم بكل ثراء أحجار «فاس» الثمينة التي تطعّم الخناجر بها، إنه «طريف» الفارس الشهير الذي أوقع بالنصارى أشد الإهانات التي يمكن أن يهينهم بها فارس مسلم، فهو الذي جرّ برمحه صورة الملكة وعلمها الخاص من قلب معسكرهم، وعلى الرغم من أنفهم.

وبينما كان يتقدم ببطء نحو جبهة النصارى، كان حصانه يتوثب، وعيناه تطلقان الشرر، وكأنه حاقد هوالآخر بشكل رهيب على الصليبية، وقد هان الأمر لولا شعور الخيالة الاسبان بالإستفزاز عندما رأوا هذا الحصان يجرّ بذنبه على الأرض اللوحة التي ثبتها «هرناندو» على باب المسجد، والتي تحمل عبارة «Ave Maria» ـ أو ـ «السيدة العذراء»، فتحمحم الجيش من هول هذه الإهانة، وراح فرسانه يتهامسون، ولم يكن «هرناندو» بينهم ليقوم بأي مأثرة جديدة، لكن أحد رفاقه بالسلاح: «غارسيلاسو دولاڤيغا» نهزّ حصانه مسرعاً نحو مزرعة «زبيا»، وألقى بنفسه راكعاً على قدمي ملكه يطلب منه الإذن بالسماح له بردّ تحدي هذا اللامؤمن بهذا الشكل المهين، كي يثأر للإهانة التي يلحقها الفارس العربي باسم سيدتنا المباركة، وكان طلبه مقبولاً فعاد إلى مهره وهو يغلق غطاء وجه خوذته، ويضع شارة الصليب على صدره في الاتجاهات الأربعة، ويحمل درعه المصنوع في «بلجيكا» صناعة متقنة بيد، وبالأخرى رمحه الطويل، ثم ينهز حصانه مهاجماً هذا اللامؤمن في قلب قطعاته، وهكذا تصادم الفارسان على مرأى من الجيشين والبلاط الملكي كله، وكان العربي قوياً في استخدام أسلحته، وماهراً في قيادة مهره في القتال، وهو أضخم بنية من «غارسيلاسو» وأقوى وأكثر تسليحاً.

لذلك ارتجف النصارى خوفاً على بطلهم من هذا الهجوم الصاعق الجريء، حين اهتزت الرماح الطويلة بيد الفارسين، وتوجهت صوب بعضهما، ومع أول صدام أطيح «بغارسيلاسو» عن ظهر جواده، بعد أن سقط جواده متعفراً على الأرض، فعاد ليركبه، ويعودا إلى الحلبة ساحباً سيفه بعد أن ضاع رمحه من يده، فألقى العربي برمحه فروسية منه، ودار حول خصمه كما يدور الصقر حين ينقض على الفريسة وحصانه العربي طوع إشارته، وفي كل هجمة على

خصمه كان الفارس الصليبي وكأنه يغوص في سرجه تحت ضربات سيف «طريف» البارقة، ورغم أن «غارسيلاسو» كان أقل قوة من خصمه لكنه كان يتفادى ضرباته بكل خفة، أو يتلقاها بدرعه «البلجيكي» الذي كان منيعاً ضد السيف الدمشقي الصارم.

وهكذا تخضب بالدماء من كثرة الجروح، فأدرك العربي أن خصمه قد أنهك، فأعاد سيفه إلى غمده، وراح والتقطه بيده ليرميه عن حصانه، فسقطا معاً على الأرض والعربي فوقه واضعاً ركبته على صدره، ليسحب خنجره لذبحه ذبح النعاج، وفجأة سقط العربي من فوقه بدون حراك فضج معسكر النصارى بالتهليل، ذلك أن «غارسيلاسو» كان معه سيف قصير تمكن من سحبه وهو تحت خصمه، وعندما رفع «طريف» يده ليذبحه دفعه من تحت إبطه نحو قلبه، وهكذا حقق نصره بشكل إعجازي محال، علّق عليه «آغابيدا» طبعاً بقوله: «لكن الفارس المسيحي كان مسلحاً طبعاً بقضيته المقدسة العادلة، والعذراء المقدسة هي التي أعطته القوة، ليصبح بقوة «داوود» آخر ليذبح هذا البطل الضخم «للجنتايل»(*) أعداء الدين».

وطوال المعركة لم يتدخل أي من الطرفين فيها، مراعاة لقواعد الفروسية، لذلك حين فكّ «غارسيلاسو» اليافطة المقدسة من ذيل حصان خصمه والمكتوب عليها «Ave Maria» لم يمنعه العرب من ذلك، فرفعها على رأس سيفه ليحملها علامة للنصر بين تهليل الجيش المسيحي.

ومع الظهيرة وارتفاع حرارة الجو بعد هذا القتال العنيف، ارتفعت حرارة المقاتلين العرب، فأمر «معاذ» قطعاته بفتح النار على النصارى، مما أحدث اضطراباً بين صفوفهم، فدعا «معاذ» قائد جيشه قائلاً: «دعنا لا نضيع مزيداً من الوقت في التحديات الفارغة، ولنبدأ الهجوم على العدو لأن الهجوم خير وسائل القتال».

وهكذا اندفع «معاذ» مع قائد جيشه يتبعه فرسانه ومشاته، مهاجمين طلائع الحرس المسيحي المتقدمة، فدفعوها إلى التراجع نحو مواقع قطعات المركيز «أوف كاديز».

عندها اعتبر المركيز أنه بحل من طاعة أوامر الملكة بعدم الردّ، وأعطى إشارة بدء الهجوم بصرخة «سانتيغو» المدوية، والتي دفعت كل قطعاته للضغط نحو الأمام بألف ومئتي رمح طويل بأيدي الفرسان، وتبعه باقي قطعات الجيش فعمت المعركة كل القطعات.

ولم يبق للملك والملكة في هذا الموقف سوى الركوع على قدميهما، والصلاة للعذراء كي تحمي محاربيهم المخلصين، وحذا حذوهم كل البلاط الملكي ورهبانه، وبذلك بدأت آثار هذه الصلوات تفعل فعلها، فحماس العرب بالهجوم هدأ دفعة واحدة، وعمّ الذعر مشاتهم حين

(*) Gentiles: تعني الأميين والاممين، أي العجم الأجلاف اللامؤمنين.

هاجمتهم خيالة النصارى مما دفعهم إلى التراجع فالهروب، وقد حاول «معاذ» وفرسانه ردّهم إلى المعركة، لكن هذا كان محالاً، ففرّ بعضهم نحو الجبال، وتراجع معظمهم مسرعاً نحو المدينة يدوس بعضهم بعضاً، والنصارى يطاردونهم حتى أبوابها، وكانت حصيلة هذه المعركة سقوط حوالي ألفي جندي بين جريح وقتيل وأسير، وعودة النصارى بعلمين من أعلام العرب دلالة على النصر، ولم تُستثنى حربة واحدة من حراب النصارى من عرس الدم العربي هذا.

هذا هو مختصر المعركة الدموية التي عرفت عند المحاربين النصارى باسم مبارزة الملكة، لأن المركيز «أوف كاديز» حين مَثُل بين يديها للاعتذار عن مخالفة أوامرها، أرجع النصر في المعركة إلى حضورها فيها، لكن الملكة أصرّت بأن كل هذا يرجع إلى جيشها الذي يقوده مثل هذا القائد الكفؤ، وقبل أن ترجع إلى الملكة رباطة جأشها، بعدما حصل بين يديها من قتال عنيف وإراقة دماء، أكد لها أحد القادة أن هذه المعركة كانت أقل المعارك والمبارزات دموية ووحشية بهذه الحرب.

وتخليداً لذكرى هذه المعركة بنت الملكة بعد ذلك «ديراً» في ضيعة «زبيا» وأهدته إلى القديس «فرانسيسكو»، ولازال هذا الدير قائماً، وفي حديقته التي ارتوت بالدماء زرعت الملكة بيديها الساميتين شجرة «غار».

الفصل الرابع عشر

احتراق معسكر النصارى:

ورغم أن هذه الحرب المدمّرة قد حوّلت سهوب «الڤيغا» إلى صحراء قاحلة، فقد ظلّ حزام من الخضرة حول مدينة «غرناطة» على امتداد نهري «شنيل ودارو»، اللذين كانا منتجعاً لسكان المدينة في أيامها السعيدة، فصارت هذه الخضرة مهمة في وقت هذه العسرة، لكن «فردناند» قرر أن لا يسمح بالوصول لها، وهاجم أسوار المدينة بكل عنف لكي يدمر كل عرق أخضر حولها، ففي يوم من أيام تموز/يوليو وبينما كان الجفاف يحيط بمعسكر النصارى، الذين يهيئون أنفسهم للهجوم على الخضرة في اليوم التالي ضد مقاومة العرب اليائسة، كان المعسكر يلتمع تحت أشعة الشمس، فخيام البلاط مليئة بنفائس المعلقات عليها والمفروشات الثمينة، وكأنه مدينة صغيرة لكن من حرير وبروكار، تزينها الأعلام بمختلف ألوانها وهي تخفق على صواريها، ويمكن رؤيتها من منارات وقباب المدينة التي تحاصرها.

وفي وسط كل هذه المدينة الفخمة الصغيرة انتصبت خيمة الملكة، بمكان يشرف على باقي الخيام بشكل مرتفع قليلاً بكل أبهتها الملكية، وهي خيمة المركيز «أوف كاديز» أساساً بكل رياشها الشرقية، الأكثر كمالاً ورفاهية من كل خيام الممالك النصرانية، والتي كان يحملها معه دائماً خلال كل هذه الحرب، ففي وسطها ديوان شرقي، وهي محمولة على أعمدة من الرماح الطويلة من جهاتها الأربعة، المزينة بكل نفائس الشرق، وبرجها الحريري في الوسط كسقف للديوان محاط بشقق مختلفة ضمن هذه الخيمة، تفصلهاعن بعضها فواصل من الحرير بمثابة برادٍ وغلالات، إنها بعبارة أخرى كالقصر المخيم الذي يمكن بناؤه وفكه بسرعة، مثله مثل هذه المدينة من «الكنڤا ـ المطرزات» التي تحيط فيه.

ومع تقدم المساء هدأت ضجة هذا المخيم، فالكل صار ينشد النوم استعداداً ليوم آخر من

الجهد والتعب، والملك ينام باكراً في العادة ليصحو على صياح الديك فيرأس جيش التدمير شخصياً، فكل تحركات القطعات كانت تقرر في مقر قيادته الملكية، لذلك كان الغناء ممنوعاً، ولا يسمح لصوت أي غيتار من سيدات المرافقة الملكية الحسناوات الشقراوات.

أما الملكة فتنام في الجناح الداخلي للخيمة حيث بإمكانها أن تركع أمام محرابها الكنسي الصغير قبل النوم، لأن تعرض الملك في اليوم التالي كان يكرس فيها هذه الطاعة الدينية أكثر من عادتها، وبينما كانت كذلك في أحد الأمسيات نهضت على أضواء نيران ورائحة دخان، ثم لم تلبث خيمتها أن دبّت فيها النيران، فالرياح القوية كانت تنقل النار من خيمة لأخرى مما أحاق بكل المخيم.

وبالكاد أنقذت «إيزابيلا» نفسها من الحريق بأن فرّت مسرعة فوراً، ثم فكرت بمدى سلامة الملك بعد ذلك، لكن «فردناند» الحذر كان قد نهض من فراشه مع صوت الإنذار، على ظن أنه هجوم من العدو، لذلك حمل سيفه ودرعه وخرج بثياب النوم شبه عارٍ، حاملاً على يده ثيابه.

أما الأمير «جوان» فقد حمله من سريره مملوكه الموكل به، وأخذه إلى حيث يوجد الكونت «دي كابرا» على مدخل المخيم، حيث وضعه هذا الكونت المخلص بخيمة خاصة وأحاطه بقواته وقوات ابن عمه «دون ألونزو دي مونتي مايور» وعهد له بحمايته معه.

وعرف الكل أن هذا ليس من عمل العرب، لكنهم خافوا من أن يستغلوا هذا الموقف ويهاجموا المعسكر، لذلك خرج المركيز «أوف كاديز» بثلاثة آلاف فارس نحو المدينة، كي يتأكد من عدم خروج أحد منها، وبينما كانوا يفعلون ذلك كان المخيم كله في حركة، فالبعض يتجه نحو مواقعه على صوت النفير أو قرع الطبول، والبعض يحاول إنقاذ الأشياء الثمينة والأسلحة من الخيام المحترقة، وآخرون يسحبون الخيول الجافلة.

وحين خرج الجميع من المعسكر كان كله في حال توهج، واللهب يمتد فيه بخطوط متلاحقة وقد امتلأ الجو برائحة الحريق، مما أنار أسوار المدينة التي ظهرت العمائم من ورائها ومن أبراجها وهم يحدقون من هذه المشارف ومن الأسطح والمنازل، دون أن يخرج أي مقاتل من بوابة المدينة، لأن العرب ظنوا أن هذه خدعة يقوم بها الصليبيون، لذلك ظلوا هادئين وراء جدرانهم، وحين أكلت النيران ما أكلت عادت لتنطفيء بحدّ ذاتها، ولم يعد وهجها يضيء المدينة، وخيم الظلام على الجميع وعاد المركيز «أوف كاديز» بهدوء إلى المعسكر.

الفصل الخامس عشر

التدمير الأخير أمام «غرناطة»:

ومع شروق الشمس على معسكر الصليبيين تبين أنه لم يبق شيء من منظره الملكي الجميل، وتحول المعسكر إلى ركام محترق تختلط فيه الخوذ وأدوات الحرب، وبينها كتل من الذهب والفضة التي ذابت من الدروع والدرق، لتلمع بين السخام، حتى ثوب الملكة الملكي دمّر وضاعت فضياتهاومجوهراتها وأشياؤها الثمينة، كما ضاعت دروع الفرسان النبلاء المطعمة كلها بهذه النار التي تبين أنها مصادفة وليست نتيجة أي مؤامرة لذلك عادت الملكة إلى صلواتها، وأمرت وصيفاتها بإبعاد شموع الصلاة عن أي شيء قابل للاحتراق، وما كادت تفعل حتى جاءت الريح ثانية لتحرق ركن صلاتها هذا ثانية، بسبب هذا الجفاف الشديد في الجو.

أما «فردناند» الذي يعرف جيداً الطبيعة النارية للعرب، فكان يسرع كي لا يستغلوا مصيبته التي حصلت في الليلة الماضية، فأمر مع خيوط الفجر الأولى بقرع طبول الاستنفار، ليري العرب أن جيشه قد خرج من حطام المعسكر سليماً، فتحركت قطعاته تحت أعلامها الخفاقة على أنغام الموسيقى العسكرية، كما لو أن الليلة الماضية كانت ليلة عيد لا ليلة رعب.

أما العرب فكانوا يتعجبون ويتساءلون، لأنهم لا يرون وراء هذه الاحتفالات سوى كتل سوداء محترقة، وحين عاد كشافتهم بالخبر السعيد بأن المعسكر قد دمّر كله، وقبل أن يشيع هذا الخبر، رأوا الجيش المسيحي يتقدم نحو المدينة، فاعتبروا هذا تغطية لوضعهم اليائس وأنهم يتهيأون للانسحاب، وضربت «بيدول الشيكو» الحمية، وقرر النزول إلى المعركة بنفسه ليسدد ضربة أخرى لما ضرب الله المشركين في الليل.

أما الجيش المسيحي الذي كان يقترب من أسوار المدينة، فقد قام لخساسته بإحراق وتدمير الخضار حولها، فخرج له «بيدول» محاطاً بزهرة شباب المدينة، فالوطن أصبح مهدداً، مما يعني أن الشجاعة صارت حتمية عند الجميع، فما بال الأمر عند ورثة الروح العربية النارية من هؤلاء

المغاربة وهم يقاتلون على مشهد من أهلهم وأحبائهم وأطفالهم دفاعاً عن بيوتهم التي يعيشون فيها!! وكل ما هو غالٍ عليهم وثمين، لذلك تجمعت كل «غرناطة» على أسوار المدينة لمشاهدة ثمار هذا اليوم الحافل.

فالمسألة ليست مسألة معركة واحدة، لأن كل حديقة حول السور صارت مسرح عمليات مميت، وكل شبر من الأرض صار النزاع عليه قاتلاً بشكل خرافي من قبل العرب، مما جعل تقدم النصارى بهذا القتال الشديد على حساب دمائهم.

أما فرسان «معاذ» فقد كانوا في كل مكان بالمعركة، وحيث يوجدون كانوا يدفعون بالمعركة نحو تأجج أقوى، فكل جندي عطش أو متعب أو جريح كان ينهض ثانية لرؤية «معاذ» وقواته، حتى الذين يحتضرون كانوا يديرون وجوههم نحوه، وهم يتمتمون بالشهادة مع الدعاء له بآن واحد حين يمر.

وعلى هذا المنوال من الدفاع اليائس ضد هذا الجيش العرم، وطّد الصليبيون أقدامهم على عدد من الأبراج التي احتلوها حول المدينة، تلك التي كانت تزعجهم بسهامها وبنادقها الطويلة الثقيلة، أما باقي العرب الذين كانوا يتجمعون بكل الجهات فقد زاد ضغط العدو عليهم، و«أبو عبد الله» يبذل كل جهده مع فرسانه للتخفيف عنهم، إلى درجة أنه اختلط بالقتال في مواقع مختلفة من ساحة المعركة، لكي يحمس مشاته على الصمود، ولكن العيب كان بهذه المشاة التي لا يمكن الاعتماد عليها عند العرب حين يصيبها الذعر في عز المعركة، لذلك كانوا يهربون، ويتركون مليكهم معرضاً مع عدد من فرسانه لكل ضغط العدو بقواته المتفوقة، وكاد «أبو عبد الله» أن يقع بأيدي النصارى ـ كعادته ـ لولا أن لوى رأس حصانه مع كوكبته التي معه نحو باب المدينة ليدخلها بأقصى سرعة ويحتمي بجدرانها.

أما «معاذ» فقد أراد أن يحافظ على رأس الهجوم الأمامي، فألقى بنفسه أمام المشاة المذعورة المتراجعة ليحثهم على الصمود من أجل أهلهم وراءهم، ومن أجل كل غالٍ لديهم، وباءت كل محاولاته بالفشل، لأنهم كانوا منكسرين كلية، وهم يهربون للنجاة بأرواحهم نحو أبواب المدينة، ولولا قلة ممن بقي مع «معاذ» من الفرسان لما تراجع، ولهاجم العدو وحده، ولكن كثرة العدو أفنته، وأنقصت عدد فرسانه بشكل كبير، أما من بقي معه فكان يعاني من جراحه وإعاقاته شبه القاتلة، لذلك تراجع البطل «معاذ» ببطء نحو المدينة، هو ومن معه يغصون بالمهانة والألم واليأس، وبعد أن دخل الأبواب أمر بإغلاقها بالأعمدة الثقيلة وجنازير الحديد، لأنه لم يعد يثق بحملة النشاب والبنادق الثقيلة من مشاته، الذين كانوا يتمركزون للدفاع عن الأبواب، مقرراً أن لا يخرج ثانية بالمشاة إلى ساحة المعركة.

وفتحت المدفعية نيرانها من على الأسوار نحو تقدم النصارى فمنعت تقدمهم، وعندها أمر «فردناند» قواته بالعودة إلى المعسكر عودة المنتصرين، تاركاً الدخان يلف «غرناطة» الجميلة من بساتينها المحترقة، التي تحيط بها جثث أبنائها من القتلى.

هذه كانت نتيجة الخروج الأخير للقوات العربية المدافعة عن «غرناطة» مدينتهم المفضلة، والسفير الفرنسي الذي شهد هذا الخروج وتلك المعركة امتلأ دهشة وإعجاباً بجرأة المسلمين وشدة دفاعهم، مما دفعه إلى القول: «إن هذه الحرب هي في الحقيقة من ذكريات التاريخ التي لا تنسى، فقد مضى عليها إلى الآن حوالي عشر سنوات لم تتوقف فيها، ولم تتوقف سلسلة الكوارث التي نتجت عنها للجيش العربي، فحصونه قد أخذت مع أبراجه واحدة بعد أخرى، وقتل فرسانه أو سيقوا إلى الأسر، ومع ذلك لازال هذا الجيش يدافع عن كل مدينة وحصن... كلا... بل كل صخرة بحدّ ذاتها، وكأنها مسكونة بروح شهدائه، فمن أي موطىء قدم، أو مكان لإطلاق سهم أو قذيفة، كانوا يضحون من أجل بلادهم الحبيبة، والآن وقد عزلت عاصمتهم عن كل المساعدات الإسلامية، وتجمعت كل أمم أوروبا أمام بابها، لم ييأس هؤلاء المسلمون من القتال، وكأنهم لا زالوا ينتظرون معجزة من الله تأتي لإنقاذهم»[*]، فمقاومتهم الضارية كما وصفها مؤرخ قديم: «تظهر مدى حزن العرب على «الڤيغا» التي كانت بالنسبة لهم جناناً وفردوساً، لذلك استعملوا كل سلاح تصله أيديهم للحفاظ على تربتها المطهرة، والتي لم تثنهم الجراح ولا الهزائم، ولا الموت بحد ذاته عن الكف عن عشقها، وهم بعد أن مزقتهم الإنقسامات، وحدهم الحب والألم، فوقفوا بكل صلابة دون أن يرجعوا ولا خطوة إلى الوراء، يقاتلون طالما بقيت لهم يد تقاتل، أو طالما بقي لهم أمل مهما صار بعيداً».

(*) لا يمكن أن تسأل المسلم عن حدود ثقته بالله، كما لا يمكن أن تسأل المسلم عن أي حدّ أو محدودية لله.

الفصل السادس عشر

بناء مدينة «سانتا في» ويأس العرب:

أغلق العرب على أنفسهم الآن حصون قلعتهم بكل حزن وأسى، ولم يعد بمقدورهم أن يقوموا بأي خروج جريء من أبوابها، وحتى الموسيقى العسكرية التي كانت تقرع بطبولها وأبواقها بصورة مستمرة من مدينة هؤلاء المقاتلين، صارت تُسمع بالنادر من مواقع القتال فيها، وعاش الناس على أمل أن احتراق معسكر العدو سوف يضعف من معنوياتهم، وبذلك ينتهي هذا الحصار بانتهاء الصائفة كما جرت العادة في الحروب السابقة، فينسحب العدو قبل حلول موسم الأمطار السنوية في الخريف، لكن الإجراءات التي اتخذها «فرديناند وإيزابيلا» ما برحت أن حطمت مثل هذه الآمال، فقد صدر أمريهما ببناء مدينة بدل المخيم وفي موقعه، لإقناع العرب بأن الحصار لن يرفع قبل استسلام «غرناطة»، وتمّ تكليف تسع بلديات اسبانية للقيام بهذا الأمر، فاندفعوا يتنافسون بحماس لتحقيق هذه القضية التي تخدم قضيتهم، وعلّق «آغابيدا» كعادته على ذلك بقوله: «إنه يبدو وكأن معجزة تحققت لمساعدة أعمال هذه البلديات بظهور هذه المدينة الرائعة بتلك السرعة، بكل أبنيتها القوية المتينة والجدران حولها، وما يطوقها من أبراج، في الأماكن التي لم يكن يظهر فيها سوى طرقات بين خيام، وقد قطع هذه المدينة طريقان رئيسيان على شكل صليب، بنهاية كل منهما بوابة على مواجهة الجهات الأربعة، ووسط تقاطع هذين الطريقين قامت ساحة كبيرة يمكن لكل الجيش أن يجتمع فيها، واقتُرِح أن تسمى هذه المدينة باسم الملكة العزيزة جداً على الجيش والأمة»، ولكن هذه المرأة الأميرة الصالحة ـ أضاف آغابيدا ـ: «أعطتها اسم القديسة «في»، أي مدينة الإيمان المقدس، لأنها تذكر بالهدف المقدس من هذه الحرب، وظلّت هذه المدينة قائمة بعد الحرب كنصب لهذا العمل الصالح، ولإظهار مجد مُلك الكاثوليك».

وهكذا عمل البناؤون بكل اتجاه معاً، وكل يوم كانت قوافل البغال الطويلة تدخل وتخرج من مداخل هذه المدينة، وامتلأت الطرقات بالمتاجر المليئة بكل البضائع الثمينة والرخيصة، وبدأ

الازدهار التجاري يبدو في هذه المدينة، بينما «غرناطة» التعيسة مقفلة أبوابها في عزلتها الخانقة.

ونتيجة لكل هذا بدأت المدينة المحاصرة تشعر بالمجاعة، لأن كل مواد التموين قد قطعت نهائياً عنها، فالمركيز «أوف كاديز» كان يصادر كل مواد تموينية يحملها عرب «البقصارا» إلى المدينة، ويأتي بقوافلهم بكل عنجهية أسرى إلى المعسكر على مرأى من عرب المدينة المحاصرين، وحين جاء الخريف كان لايوجد شيء يمكن حصاده، وباقتراب الشتاء، كادت المدينة تخلو من أي مواد تموينية، فصار الناس يتشاءمون كثيراً ومن كل شيء، وشاعت بينهم الادعاءات السابقة حول الحظ العاثر لبدول، ومدى ارتباط سقوط «الزهراء» بسقوط «غرناطة» منذ بداية الحرب، مما زاد من هياج الشعب على «ببدول» الذي يعاني من ضائقة الحصار الخارجي أيضاً، فشكل مجلساً من قادة القطعات وسياد الحصون ووجوه البلد وفقهائها ـ دكاترة الإيمان فيها ـ وجمعهم في قاعة الاستقبال الكبرى في الحمراء، وقد خيم على الجميع اليأس، وسألهم «ببدول» عما يمكن عمله في هذا الوضع الاستثنائي؟! فكان جوابهم الاستسلام، وقد عبّر حاكم المدينة السيد «عبد القاسم عبد الملك» عن ذلك بقوله: «لقد كادت تنفذ موادنا التموينية، ونحن لا نتوقع أي رافد تمويني من أي جهة، ولأن الخيول التي هي عماد قواتنا المهاجمة قد ذبحت للأكل، فكيف للجيش أن يحارب دون فرسانه، ولم يبق من الآلاف السبعة من المهور التي كان بإمكاننا إرسالها إلى ساحات القتال، إلا ثلاثمئة فقط، وعدد سكان مدينتنا مئتي ألف شخص بين رجال ونساء وأطفال يحتاجون إلى الغذاء الذي صار نادراً».

وهكذا أجمع وجوه البلد على أن السكان لم يعد بمقدورهم الصمود، بينما العدو مصر على إبقاء الحصار إلى مالا نهاية، فلا هدف للصمود إلا الموت أو الاستسلام.

وهكذا مسّ الحزن قلب «ببدول» فلاذ بالصمت، لأنه كان يأمل بالمساعدة من سلطان مصر الذي خذله، أو من بربر أفريقيا الذين أداروا ظهرهم له أيضاً، والآن حتى لو أرسلت هذه المساعدات من هؤلاء، فليس لدى «ببدول» أي ميناء لاستقبالها فيه، وبينما كان يتردد في قراره أجمع الحضور على حثّه على الاستسلام.

لم يكن يعارضهم في هذا سوى البطل «معاذ»، الذي وقف وحيداً ليقول: «من السابق لأوانه الآن الحديث عن الاستسلام، فمواردنا لازالت كافية، إذ لازال لدينا مصدر واحد للقوة، والذي به تتحول الهزائم إلى نصر، إنه الأمل؟! دعونا نقف وقفة رجل واحد، وبيد كل منا سلاحه لنقاتل العدو حتى النهاية، حتى لو تدافعنا نحو رماحهم، وأنا على استعداد أن أقود كل جموعنا إلى أكثف دفاعاتهم وقطعاتهم، ولنُحسَب كغيرنا ممن سقط مدافعاً عن «غرناطة» في السابق، بدل أن نُحسب بحساب المستسلمين الضعفاء».

لكن كلمات «معاذ» هذه لم تؤثر بالحضور، لأنهم فقدوا قلوبهم وجرأتهم وروحهم المعنوية، فالخبرات السيئة الحزينة التي مروا فيها أضعفتهم إلى أبعد حد، فوصلوا إلى تلك الحدود التي يصل إليها المهزومون بأن لا يقيموا أي وزن لا للبطولة ولا للأبطال، ولهؤلاء خضع «بيدول الشيكو»(*) فقرر أن يسلم البلد إلى ملوك النصارى، وأرسل «أبو القاسم عبد الملك» إلى معسكر النصارى مخولاً بأن يفاوض على التسليم.

(*) كما هو متوقع من أمثاله!!

الفصل السابع عشر

بداية احتلال «غرناطة»:

استقبل «فردناند وإيزابيلا» الشيخ «أبو القاسم عبد الملك» بكثير من الترحاب، وعيّنا كل من «غوانزاڤو أوف قرطبة» و«فرناندو دي ظفار»[*] سكرتيرا الملك للتباحث معه، وكانت كل «غرناطة» تنتظر بكل ترقب وقلق نتائج محادثاته هذه، وبعد عدد من الجلسات توصل أخيراً إلى أن يعود بالشروط النهائية للملكي الكاثوليك، فقد وافقا على تأخير أي هجوم على المدينة مدة سبعين يوماً، وفي نهايتها إذا لم تصل ملك المسلمين أي نجدة من العالم الإسلامي، يجب أن تستسلم مدينة «غرناطة».

أما حالياً فيجب إطلاق كل الرهائن المسيحيين فوراً، ثم بعد انتهاء المدة يأخذ «ببدول» مع كل حاشيته وأهل الحل والعقد في المدينة على أنفسهم يمين الولاء والطاعة للتاج المسيحي، وتُقدّم للملك العربي بالمقابل بعض المناطق الغنية في جبال «البقصارا» لكي يحكمها وتكون تحت رعايته.

وعلى العرب في «غرناطة» أن يصيروا رعايا للملكي الكاثوليك، ويظلوا على أملاكهم، ويحتفظوا بسلاحهم الفردي وخيولهم، لا يسلموا سوى مدفعيتهم الثقيلة، كما تتم حماية معتقداتهم الدينية وممارستها حسب قوانينهم، بإشراف قضاتهم حسب الإسلام، لكن تحت إشراف حاكم عام يعينه الملكان، على أن يخضعوا لدفع الجزية لمدة ثلاث سنوات، وبعدها يعودون إلى دفع الضرائب التي كانوا يدفعونها لمليكهم عادة.

أما من يرغب بالسفر إلى أفريقيا خلال هذه الأعوام الثلاثة، فيمكن أن يزودوا بجوازات مرور لأنفسهم ولأغراضهم، دون أي مقابل من أي مرفأ يفضلون المغادرة منه.

(*) يعرفون العربية من أصولهم العربية: قرطبة وظفار.

ولضمان تنفيذ هذه الشروط يجب أن تقدم المدينة أربعمئة رهينة من خيرة عائلاتها قبل الاستسلام المحدد ـ أي الآن ـ لكي يعادوا بعد تسليم المدينة إلى أهلهم، أما ابن «ببدول» وباقي الأطفال الرهائن الذين لازالوا بحوزة ملكي «قشتالة» فيعادون معهم بذلك الوقت.

تلك هي الشروط التي عاد بها الوزير «أبو القاسم» إلى مدينة «غرناطة» كأفضل ما أمكن تحصيله من هذه القوات الغازية العدوة.

وحين استحق مجلس الشورى تنفيذ هذه الشروط، بأن حان وقت وضع إمضائهم على نص هذه المعاهدة وختمها بالشمع الملكي الأحمر، أدركوا أنهم يوقعون على خاتمة الامبراطورية العربية في الأندلس، وإلغاء أنفسهم كأمة من أمم الجزيرة «الإيبيرية» بتواقيعهم تلك، فانهار الكثير منهم، وفقدوا رباطة جأشهم، وذرفوا الدموع.

لكن «معاذ» كان وحده المتمتع بكامل جأشه، فهبّ واقفاً وهو يقول: «دعوا أيها السادة الدموع للنساء والآرامل العاجزات أو للأطفال، فنحن رجال ولم نخلق لكي نذرف الدموع بل الدماء، وإني أرى أن هذا الانهيار بمعنوياتكم هو الذي سيمنعنا من إنقاذ هذه المملكة، وأؤكد لكم بأنكم ستدفعون النبلاء من رجالكم إلى بدائل الاستشهاد اليائس، إما فُرادى ولا تحصلون شيئاً من ورائه، أو معي كجماعة تدافع كلها عن حرية «غرناطة»، فبطن التراب خير من ظهره بالقيود الذليلة التي سيضعها الفاتحون بأيديكم، وإذا تقطعتنا وحوش الأرض أو جوارح السماء فسنبعث من بطونها في اليوم الآخر، وهذا هو الأشرف من أن يقال تخاذلوا بواجبهم في الجهاد».

وحين أنهى «معاذ» كلامه خيم الصمت المطبق على الحضور، فتطلع «ببدول» القلق في وجوه الحضور، يستجديها، لكنه لم يجد فيهم سوى ما فيه من خضوع، وقد ماتت قلوبهم واستنكفوا عن كل ما يمت إلى أي عمل فروسي بصلة، لذلك قال: «الله أكبر ولا إله إلا الله، محمد رسول الله ومحال مقاومة إرادة الله، فلقد كتب في لوح القدر عليّ أن أكون آخر ملوك هذه المملكة، فلا راد لقضائه في تعاستي هذه».

فردّ عليه الفقهاء والوزراء بالتكبير مرجعين الأمر إلى إرادة الله، مدّعين أن كل هذه الشرور ليست بسببهم وبسبب تذبذبهم، بل هي مكتوبة عليهم منذ الأزل، فالأجدى عدم المقاومة، والشروط التي عرضها ملكي النصارى لابأس بها بحسب طبيعة الحال.

وحين رأى «معاذ» أنهم على وشك توقيع هذه المعاهدة المذلّة، وقف بكل إباء قائلاً: «لا

تخدعوا أنفسكم بما تقولون، ولا تظنوا بأن النصارى عند عهودهم معكم، أو أن مليكهم سيكون رحيماً في الفتح بقدر تفوقه في الحرب، فأقل ما عليكم خشيته منه هو الموت، لأنه سوف يعصف بمدينتكم، ويدمر مساجدنا فيها، ويخرب بيوت سكانها ويحول أطفالنا ونساءنا إلى ذلّ العبودية، ومحاكم التفتيش التي لا تطاق بقيودها وسياطها هناك في أقبيته مع كل أدوات التعذيب، وهذا هو الذلّ والمعاناة والآلام التي سترونها جميعكم، والتي أمامها يتضاءل الموت إلى أقصى الحدود، أما أنا فلن أشهد هذا بإذن الله، وإن لم تفهموا قولي فستروه».

بهذه الكمات غادر «معاذ» غرفة الاجتماع، وسار بكل ثقة من يحتم على إنهاء أمر ويحسمه، عبر فناء حديقة السباع متجهاً خارج أسوار «الحمراء» دون أن يكلم أي فضولي يستطلع الأمر في طريقه، عائداً إلى بيته حيث لبس سلاحه من كل جهة، وركب حصانه الذي يفضله في المعارك، وخرج به من باب «الڤيرا»، ولم يُرَ بعد ذلك له أي أثر.

هذا ما ذكره المؤرخون العرب عن خروج «معاذ بن أبي غسان»، لكن الأب «أنطونيو آغابيدا» تنطّح لإيضاح مصير هذا الفارس الغامض، حيث أكد أنه وفي مساء ذات اليوم الذي خرج فيه «ابن أبي غسان» من باب «الڤيرا» من «غرناطة»، كانت دورية من كتائب الفرسان النصارى التي تحمل الرماح الطويلة تتفقد شواطىء «شنيل» الذي يتعرج في «الڤيغا»، فرأوا في الغسق محارباً عربياً مدججاً بالسلاح من رأسه إلى أخمص قدميه، وقد أغلق فتحة وجه خوذته، ومدّ رمحه الطويل إلى الأرض، وهو على حصان عربي أفريقي قوي مثله،ومدرع من كل جهة أيضاً بالحديد، فبدا سلاح فرسان النصارى خفيفاً بالنسبة له على كثرة حديد خوذاتهم ودرقهم ودروعهم، ولأنهم كانوا يحسبون أن الهدنة قد وضعت أوزار الحرب لم يهاجموه، لكنهم حين رأوا هذا المحارب المجهول يتحرك نحوهم بعدائية، تحدوه بالوقوف وإعلان هويته.

ولما لم يجبهم هذا المسلم إلا بالهجوم على وسطهم وقد أطار بحربته أحد الفرسان عن سرجه طريحاً على الأرض صريعاً، ثم دار وهاجم الآخر بسيفه، فتكاثروا عليه يقاتلونه، لكن ضرباته كانت مميتة بغض النظر عن الجراح التي أثخنوه فيها، فكان يقتل كل من يتقدم نحوه وهو لا يقاتل من أجل أي مجد، بل يقاتل وكأنه طالب ثأر يسعى لإيقاع الموت بخصومه، دون أن يهتم بأن يتمتع بنصره عليهم، وهكذا سقط نصف فرسان كتيبة الدورية تحت سيفه قبل أن يجرح جرحاً خطيراً بين دروعه التي يصعب إصابته من خلالها، كما أصيب حصانه أيضاً بحربة طويلة فسقط على الأرض، وقد أعجب النصارى بجرأة هذا المسلم فعرضوا عليه الاستسلام، لكنه ظلّ يقاتل وهو على ركبتيه، وقد كسر سيفه، ولم يبق معه سوى خنجر مصنوع «بفاس»، وحين وجد أنه لم يعد باستطاعته أن يقاتل أكثر من هذا، وخوفاً من الأسر

قفز إلى نهر «شنيل» مما جعل دروعه الثقيلة تدفعه إلى قاع النهر ليغرق فيه.

و«آغابيدا» الذي أكد لنا أن هذا المحارب المجهول هو: «معاذ بن أبي غسان» دعم أقواله هذه بأن أحد المتحولين إلى النصرانية من العرب في المعسكر الصليبي تعرف على حصانه، لكن الحقيقة على كل حال حول مصير «معاذ» ظلّت مجال شك وتخمين.

الفصل الثامن عشر

الهرج والمرج في غرناطة:

في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٤٩١م تمّ توقيع وثيقة استسلام «غرناطة»(*)، والتي بها توقفت عمليات العداء العسكري التي بدأت منذ سنين طويلة، فصار المسلمون والمسيحيون يختلطون ببعضهم على شاطىء «دارو» و«شنيل»، في أماكن لو التقوا فيها قبل أيام لسالت الدماء، مع أن العرب كما تنص المعاهدة بإمكانهم النهوض للدفاع ثانية عن أنفسهم بعد مضي السبعين يوماً، إذا وصلتهم أي نجدة من العالم الإسلامي، ولأنهم شعب ناري عجول ظل «فردناند» على حذره بمراقبة مدينتهم، وعدم السماح بدخول أي تموين لها من أي نوع كان.

كذلك عزّز كل حامياته البحرية ودفاعاته في جبل «طارق» ضد أي احتمال إنزال نجدة لغرناطة، من قوات «سلطان مصر» أو أمراء المغرب العربي، رغم عدم الحاجة لمثل هذه الاحتياطات الزائدة، فتلك القوى كانت تعدُ الأندلسيين ولا تفي، لأنها إما مشغولة بحروبها الخاصة، أو مذعورة من تفوّق السلاح الاسباني(**)، لكي تتدخل في قضية خاسرة كهذه، لذلك ترك العالم الإسلامي الأندلسيين لمواجهة مصيرهم التعس وحدهم.

وبمرور آخر شهر في سنة ١٤٩١ م أي كانون الأول/ديسمبر، تفاقمت المجاعة في المدينة، وتراجعت الآمال بالنجدة بناء على الشروط التي حددتها الهدنة، فرأى «ببدول» أن التمسك بهذه الهدنة حتى انهائها لا يؤدي إلا إلى المزيد من آلام الناس وجوعهم، لذلك قرر بعد التشاور مع مجلسه، تسليم المدينة في السادس من كانون الثاني/يناير، فأرسل في نهاية شهر كانون

(*) فإذا أضفنا لهذا التاريخ مهلة السبعين يوماً يكون يوم سقوط «غرناطة» وبالتالي كل مملكتها رسمياً بيد الصليبيين هو: ٥ شباط/فبراير ١٤٩٢م، لكنه حصل قبل ذلك بأيام.

(**) وخاصة المدفعية الثقيلة الألمانية فيه.

الأول/ديسمبر، وزيره الأكبر «يوسف بن كماشة» مع أربعمئة رهينة وأسير لديه إلى الملك «فردناند»، دلالة على حسن نيته مع هدية نفيسة من ضمنها سيف عربي فخم، وحصانين أصيلين مزخرفين زخرفة ثمينة ورائعة.

وقد كان كما يبدو أن على «ببدول» التعس هذا أن يواجه المتاعب حتى نهاية حكمه، إذ ظهر في اليوم التالي القطب الدرويش «حامد بن زرعة» الذي كان يتنبأ بالويل والثبور وعظائم الأمور لغرناطة وأهلها بين يدي مولاي «أبي الحسن» بعد إسقاط «الزهراء»، وفي مناسبات سابقة أخرى، وكانت الشائعات تقول إنه كان في جبال «البقصارا»، أو على الشواطىء بين الجزيرة والمغرب العربي يحاول أن يجمع مسلمي الأندلس ومسلمي المغرب لنجدة «غرناطة»، وقد تجرّد جسده من اللحم وصار أشبه بالهيكل العظمي، وعيناه غائرتان كجمرتين في «منقل» متوقد، وصوته يثير الذعر في مستمعيه حتى لو لم يقل شيئاً مهماً، وها هو الآن في المدينة يحرّض سكانها على حمل السلاح والقتال ضد الغزاة، وهو يسير في الشوارع والساحات لاعناً «ببدول» ونبلائه، ويعتبرهم مرتدين لا مسلمين إلا بالاسم، ومؤكداً لأهل «غرناطة» أنهم لو يفعلون ما يقوله لهم فهو ضامن النصر لهم من عند الله؟!

وبذلك استطاع أن يقنع جمهوراً غفيراً تبعه من الناس بحدود عشرين ألف رجل حملوا السلاح معه، وراحوا يجوبون الطرقات ويهتفون، فلم يعد «ببدول» يجرؤ على مواجهتهم، فأغلق قصره على نفسه، وعاد ليصير أسير جدران «الحمراء» ثانية لولا أن ظلّت هذه المظاهرات تجوب المدينة طوال يوم وليلة فقط ولم يهدئها إلا الجوع وبرد الشتاء الجليدي، ومع الصباح خفّ الحماس، وهدأ الناس، وربما هدّأهم رجال الحل والعقد، والفقهاء الموالون للملك أو أي سبب مجهول آخر.

لذلك خرج «ببدول» من «الحمراء» الآن محاطاً ببطانته ليرتب أمور تموين المدينة مع الذين سيحتلوها، بعد أن أوصل لهم رهائنهم وأسراهم، ومع هؤلاء أعلن مسؤوليته عن كل ما يحدث بكل حسرة وألم سجّلها عليه التاريخ، حين قال على مرأى من الجميع: «إني أدفع ثمن جريمة تمردي على أبي، ومحاولة اغتصاب الملك منه، فجلبت على مملكتي وعلى نفسي كل هذا البلاء، وهكذا حاق عملي السيىء بي، ولذلك عليّ أن أقوم بهذه المعاهدة حتى أحمي شعبي من السيف، وأنقذ أطفاله من المجاعة، وأمهاته ونسائه من السبي، وأضمن للناس أملاكهم وحريتهم ودينهم تحت حكم ملكين أفضل من هذا «الشيكو» الذي يقف أمامكم». فكان لصدى هذه الكلمات التي أهان نفسه فيها، أثره في عواطف من سمعها من شعبه ومن غزاتهم وهكذا اقتنع الناس بضرورة الاستسلام، وتمّ إخماد غضب كل من الفريقين.

فأبلغ «بيدول» الملك «فردناند» بما حدث خوفاً من أن يؤدي المزيد من التأخير إلى معاناة واضطرابات أخرى، وعرض لأجل هذا على الملك تسليمه المدينة في اليوم التالي، فقبل ملكا «قشتالة» بسرور الإسراع بنزوله هذا عن ملكه، وبدأت الاستعدادات للتسليم والتسلّم في هذا اليوم المشهود، الذي سيختم وينهي مملكة الإسلام في الأندلس.

ولذلك كانت ليلة ليلاء في «غرناطة» وليلة نحيب في «الحمراء»، كما أن أهل وحريم «بيدول» سيغادرون القصر والمدينة ليلاً، وهكذا ابتدأت البغال تحمل كل ثمين من «الحمراء» على عجل من أثمن ما فيها، وكل من يرتب هذه الأغراض ويأخذها من أماكنها يترك دموعه بدلاً عنها، وعلى أصوات عويل نساء البلد من بعيد، وقبل شروق الشمس كانت هذه القافلة الحزينة تغادر من أبواب حصن «الحمراء» عبر أكثر أقسام المدينة سكوناً وقلة ناس، وفيها عائلة التعس «بيدول» الذين حرصوا على أن يخرجوا مع القافلة، حتى لا يتعرضوا لأعين وشماتة القوات الداخلة العدوة، وأم «بيدول» السلطانة «أيقصا لاهورا» كانت على رأس هذه العائلة، تسير بصمت مطبق مُذل دون أن تذرف دمعة على خيبة ابنها التي كانت هي السبب الرئيسي فيها، بينما زوجته وبناته وباقي بيته يندبن تلك الجنة الأرضية المفضلة التي كن فيها، والتي صارت بأبراجها الضخمة تبتعد عنهن رويداً رويداً، وكان على خدمتهن من رضي أن يبقى معهن من خدم وعبيد، والقافلة لا يحرسها سوى عدد قليل من الفرسان الذين ظلوا على ولاء شخصي لهذه الأسرة الملكية المتداعية، لأن على باقي الرجال الآن الاهتمام كل بأسرته على حدة، ولم تتوقف القافلة ولا للحظة بل حثت السير على شاطىء «شنيل» على الطريق الذي يقود إلى «البقصارا»، إلى أن وصلوا إلى مزرعة بعيدة عن المدينة، حيث توقفوا ليلحق بهم «بيدول» بعد تسليم المدينة.

الفصل التاسع عشر

تسليم «غرناطة»:

ومع أول شعاع للفجر مس قمم الجبال الثلجية التي تكلل «غرناطة»، بدأ المعسكر المسيحي بالحركة، حيث تجمعت فيه قطعات من الفرسان والمشاة بقيادة قادتها المشهورين، وتحركت القوات التي كانت تحت إمرة «هرناندو دي تالافيرا بيشوب أوف أفيلا» لأخذ مواقعها في أبراج الحمراء وقصورها، وكما في المعاهدة: على هذه القوات تجنب دخول المدينة من شوارعها الرئيسية، لذلك فُتح لها طريق جانبي بسور المدينة يقود إلى بوابة الطواحين، عبر تل «الشهداء»، ومنه إلى بوابة الحمراء.

وحين وصلت هذه القطعة العسكرية إلى أعلى هذا التل، خرج «بيدول» من بوابة «الحمراء» بمرافقة حفنة من فرسانه تاركاً وزيره «ابن كماشة» كي يسلم لهم القصر، فخرج هذا الوزير إلى مهمته بجانب سيده الذي قال مخاطباً قائد القطعة العسكرية: «إذهب أيها السنيور لأخذ موقعك في الحامية ـ الحمراء ـ وكل حصونها التي جعلها الله لمليكهما القويين، عقاباً على خطايا العرب»، ولم يزد على هذا القول شيئاً، سوى أنه مرّ حزيناً بنفس الطريق الذي جاء منه الفرسان الاسبان، هابطاً نحو «الفيغا» لكي يقابل ملكي النصارى هناك، بينما فتحت أبواب الحمراء على مصراعيها ودخلتها تلك القطعة العسكرية، وقد خيم الصمت المطبق على كل قاعاتها الجميلة المهجورة، وبهذه اللحظة تدفق كل الجيش الصليبي من بوابات «سانتا في»، وتحرك باتجاه «الفيغا» وعلى رأسه كل البلاط الملكي، والملك والملكة يقودان كل هذا الجيش، وهما محاطان بالرهبان حسب أنظمتهم المختلفة، وحولهما حلقة من الحرس الملكي المسلّح بشكل رائع مهيب، وكانت حركة الكل بطيئة إلى الأمام إلى أن توقف الجميع في قرية أرملة ـ أرميلا ـ التي تبعد حوالي ميلاً ونصف عن مدينة «غرناطة».

وهنا انتظر الملكان بكل نفاذ صبر وصول الإشارة لهما من أبراج «الحمراء» بأنها صارت في الحوزة، فالوقت الذي مضى على خروج القطعة العسكرية نحو الحمراء كان يبدو كافياً بالنسبة لها، لذلك ذهب «فردناند» بظنونه إلى احتمال أن تكون هناك انتفاضة في البلد، قبل أن يرى الصليب الفضي رمز هذه الحملة الصليبية الأكبر، يرفع على برج «لاڤيلا» العالي، ويعكس ضياء الشمس متألقاً من هناك بيد «هرناندو دي تالاڤيرا» وبجانبه غرس رمز «القديس جيمس»، فانطلقت صرخة «سانتيغو سانتيغو» مدوية من كل الجيش، حينها رفع الملك العلم الملكي بيديه كي يشاهده كل الجيش، فهتف الجيش بصوت واحد «قشتالة قشتالة للملك فردناند والملكة إيزابيلا»، وهكذا ردّد صدى هذا الهتاف الذي أطلقه كل الجيش دفعة واحدة كل السهل والجبل، ولهذا المشهد ركع الملكين على أقدامهما يشكران الرب على هذا النصر المؤزر، وتبعهما كل الحضور حولهما، في الوقت الذي عزفت فيه الموسيقى الملكية نشيد النصر على الإسلام Te Deum Laudamus بنغم يشق عنان السماء.

ثم عاد الكل إلى متابعة المسير بكل سرور على أنغام موسيقى النصر هذه، إلى أن وصلوا إلى مسجد صغير على شاطىء نهر «شنيل»، غير بعيد عن أقدام تلّة الشهداء التي لازالت مقبرتهم فيها إلى هذا اليوم، وأعلن هذا المسجد كنيسة للقديس «سيبستيان»، وأثناء ذلك وصل «ببدول» التعس بصحبة خمسين فارساً ومواطناً، ونزل وقبّل يد الملك، لكن «فردناند» منعه من شعائر التعظيم الأخرى، رغم أنه سمح له بأن يعلن أنه خول له دون مبالغة بهذا الإعلان، ثم عاد إلى الأمام وانحنى، وقبّل يد «فردناند» اليمنى، وكذلك رفضت «إيزابيلا» مراسم العبودية هذه، وسارت بجانبه إلى أن سلّمه أتباعها «ابنه» الذي ظلّ رهينة عندهم، منذ أن سمحوا له بالحرية في أسره أول الحرب، فعانق ابنه بكل حنان، وقد بدا كما لو كان سيصير مثله إلى تعاسة وسوء طالع وربما أسوأ.

وبعد ذلك سلّم مفاتيح المدينة للملك «فردناند» بنفحة من الحزن والولاء والأسى وقال: «هذه المفاتيح هي آخر ما لدى العرب في إمبراطوريتهم الاسبانية، هي لكم أيها الملك، بها مجدنا وبها ملكنا وبها شخصنا، وتلك إرادة الله، فخذها برأفتك المعهودة والتي نرجوها من يديك العظيمتين».

فأعاد الملك «فردناند» له هذا التعظيم بنفحة من الاستعلاء قائلاً: «إياك أن تشك بوعودنا، ولا ما ستناله من صداقتنا من ازدهار حرمتك إياه الحرب»، وأخذ منه المفاتيح وأعطاها للملكة التي قدمتها بدورها إلى الأمير جوان، الذي أعطاها إلى الكونت «دي تنديلا»، حيث عيّن هذا الفارس المخلص سيداً على هذه المدينة، و«مشيراً» على كل مملكة «غرناطة».

وبعد تسليم الرمز الأخير للسلطة الإسلامية تابع «ببدول» التعس مسيره نحو «البقصارا»، حتى لا يشهد دخول النصارى إلى عاصمته، وتبعه جماعته من هؤلاء الفرسان المخلصين بكل صمت، وهم يتأوهون كلما سمعوا هتافات النصر وموسيقاه تصدح من ورائهم، والتي يحملها الهواء من هذا الجيش المنتصر.

وهكذا صحب «ببدول» عائلته إلى وادي «بورشينا» بعد أن اجتمع معهم عند أقدام جبال «البقصارا»، وعلى بعد ستة أميال من المدينة ألقى بنظراته الأخيرة على «غرناطة»، لأنه بعد ذلك سيدخل الجبال ولن يراها إلى الأبد، ولم تُبد المدينة بهذا البهاء سابقاً لعينيه، فالشمس كانت لامعة في هذا المناخ الشفاف لدرجة أنها أضاءت كل برج ومنارة مسجد، وهي تستريح بكل مجدها فوق مواقع القتال في أبراج المدينة، بينما «الڤيغا» تحاول أن تزدهر ثانية بخضرة خجولة تلون التعرجات الفضية لنهر «شنيل»، وشاركه النظرة الأخيرة هذه فرسانه المرافقون بكل ألم على فراق هذا الوطن، مسرح مسراتهم وحبهم وآمالهم، وبينما كانوا يتأملون كل هذا ظهرت نفخة دخان من القلعة على أثر قذيفة مدفع، أعقبها صوت ضعيف لامس آذانهم، بأن الغزاة يعلنون أنهم قد أخذوا المدينة، وأن ملك المسلمين قد زال عنها للأبد، فلم تعد أعصاب «ببدول» التي بددتها الأحزان تحمل قلبه على التحمل، فنبس بتكبيرة مخنوقة ماتت على شفتيه قبل أن تبلغ حلقه فشهق بدموعه وراح في البكاء.

لكن أمه السلطانة المتجبرة «أيقصا لاهورا» التي شعرت دائماً بالمهانة من ضعف ابنها قالت له: «فعلت خيراً إذ بكيت كالنساء، لأنك لم تحفظ ملكك حفظ الرجال»!!

وعندها لحق وزيره «ابن كماشة» به، وراح يعزيه بقوله: «إن سوء الطالع الشديد كحسنه يا مولاي، إذا استطاع الإنسان أن يخرج منهما بشهامته دون أن يمس»، لكن دموعه ظلّت تسيل على خديه فلا شيء يمكنه أن يعزيه، وبين شهقاته راح يردد: الله أكبر هل من تعس مثلي.

وعلى هذه الهضبة التي جرى عليها هذا الحوار قريباً من قرية «بادول» حيث آخر ما نظر إليه ملك عربي أندلسي للأندلس، مرتفع سمي «فلز الله أكبر» وهي تعرف بين الاسبان باسم: «آخر ما رآه المغاربة» «El Ultimo Suspiro del Moro».

الفصل العشرون

كيف توضح ملكا «قشتالة» في «غرناطة»:

تابع الجيش الملكي سيره الظافر في الوقت الذي كان ملكا «قشتالة» يستلمان مفاتيح «غرناطة» من «ببدول الشيكو»، وحين وصلت قطعات هذا الجيش إلى أبواب المدينة بأبهتها الملكية العسكرية وفرسانها المدججة، خرج أصحاب المهن المختلفة لاستقبال هذه القطعات ومعهم حوالي خمسمئة أسير مسيحي، الكثير منهم قضى سنيناً طويلة في زنزانات العرب، وهم يجرّون ثقل حديدهم، بوجوههم الصفراء المتعبة وتعابيرهم الفرحة والدموع تنهمر من أعينهم، وبعد ذلك استقبلهم الملكان بكل حنان، وحياهم الملك كاسبانيين حقيقيين وموالين وشجعان، يمكن اعتبارهم من خيرة المضحين لقضية الإيمان، ووزعت الملكة عليهم المساعدات بيديها، ثم استعرضهم الجيش بمختلف قطعاته، وهو يهمهم بأغاني النصر.

ولم يدخل الملكان المدينة يوم استسلامها، وانتظرا حتى يتمّ احتلالها كلية من قبل قواتهما لتأمين سلامتهما، لكن المركيز «أوف ڤيلينا» والكونت «دي تنديلا» دخلا بثلاثة آلاف فارس وعدد كبير من المشاة، وأخذا مواقعهما بصحبة الأمير «النيّار» الذي سمّاه النصارى من الآن فصاعداً: «دون بيدرو دي غرناطة» وعيّنوه رئيساً للمرتدّين في المدينة، وصار مسؤولاً عن السكان، أما ابنه «النير» فسمّوه: «دون ألونزو دي غرناطة» وعيّنوه أدميرالاً على البحرية التي كانت للعرب.

وهكذا تسرّب الجيش المسيحي إلى كل موقع من مواقع العرب، وكل برج من أبراج المدينة، وإلى كل مكان مدفعية فيها، وتمّ احتلال كل مواقع «غرناطة».

وبعد ذلك جاء قادة القطعات ليقبّلوا يد الملكين، ويركعوا أمامهما، وأمام الأمير «جوان» لتهنئتهم على إخضاع هذه المملكة العظيمة، وبعد ذلك عاد البلاط الملكي إلى مدينة «سانتا في».

وفي السادس من كانون الثاني/يناير، ويوم الاحتفال «بأبيفاني» دخل الملكان دخول المنتصرين إلى المدينة، حيث بدا الملك والملكة بهذه المناسبة ـ كما أكد «آغابيدا» ـ فوق كل البشر المائتين، وقد أحاط بهما أصحاب الغبطة من الرهبان المقدسين الذين كانت لنصائحهم المجيدة أعظم الدواعي لهذا النصر المؤزر، ولحماسهم الفضل في تحقيق هذا المجد العظيم، لكنهم ظلّوا على سكينتهم ونظراتهم الكسيرة إلى الأرض دليلاً على تواضعهم، الذي يفسره العرب بالخبث، بينما كان هذا يحمّس المحاربين الأشداء لإظهار استعلائهم بدروعهم اللمّاعة ونظراتهم المشرقة بالفرحة، بعد أن وجدوا بقبضتهم هذا المكان الذي طالما تطلّعوا إلى استحواذه، وبينما كانت هذه القوات تخترق بضجيجها وموسيقاها شوارع العاصمة، دفن العرب أنفسهم بأقصى غرف بيوتهم، وهم يندبون بالسر سقوط مجد جنسهم، ويكتمون أصوات نحيبهم حتى لا يسمعها العدو فيشمت بهم، ويزيد استعراضاته.

وأول ما فعله الملكان حين دخولهما المدينة هو تقدمهما إلى المسجد الجامع فيها حيث حولاه إلى كاتدرائية فوراً، ودخلاه للصلاة فيه على هذا الأساس إظهاراً لشكرهم للرب برفقة أبريشيتهم الكنسية التي كانت تغني أغاني النصر على الإسلام، حيث رافقهم بهذا الغناء الملكان وكل الفرسان المرافقين، وقال «آغابيدا» بهذه المناسبة: «إن الشكر للرب الذي أعطاهم مثل هذا الملك المؤمن الذي أعاد إلى اسبانيا امبراطوريتها ومجدها وخلّصها من هذا الجنس الكافر المنحط، ورفع على مدينتهم الصليب العظيم رغم أنفهم، وأنف الهرطقة المحمدية التي كانت مزدهرة فيها سنين طويلة، وبروح هذا المليك وصلت نعم السماء بنعم الأرض، التي تمّ تكرارها مراراً بهزيمة هؤلاء»، وللأب اليسوعي «ماريانا» كلام مشابه بهذه المناسبة.

وردّد صدى صلوات هذا الملك الفاضل المؤمن كل شعبه حتى أعداؤه بدأوا يقتنعون بصدق إيمانه، ثم بإتمام هذه الشعائر الدينية ـ التحويلية ـ صعد البلاط الملكي إلى قصور «الحمراء»، ودخلوا من باب العدل، ثم امتلأت قاعات القصر بعد ذلك بالنبلاء من البلاط الملكي مع العمائم التي اختلطت مع سيدات هذا البلاط، والنصارى بدهشة مما تراه أعينهم من أبنية ونوافير ومخادع فخمة مزينة ومطرّزة بالأرابسك، وما في السقوف من زخارف غنية وثرية بالمطعمات.

ولأن رغبة المتطير «ببدول» كانت بعدم السماح لأحد أن يدخل أو يخرج من حيث خرج، لما لهذا من ظن الصلة بمصيره، حقق الملكان رغبته بإغلاق هذا الباب الذي خرج منه وتعميره بالحجارة، وظلّ مغلقاً إلى اليوم كتخليد لذكرى ذاك الحدث، ولعل القليل من يعرف بوجود هذا الباب اليوم وبالقصة المتعلقة به، فهذا الباب هو في أسفل برج كبير عظيم بعيد عن مركز قصر «الحمراء»، والبرج الذي يقع تحته دمرته المدفعية، ونسفته القوات الفرنسية عندما كانت

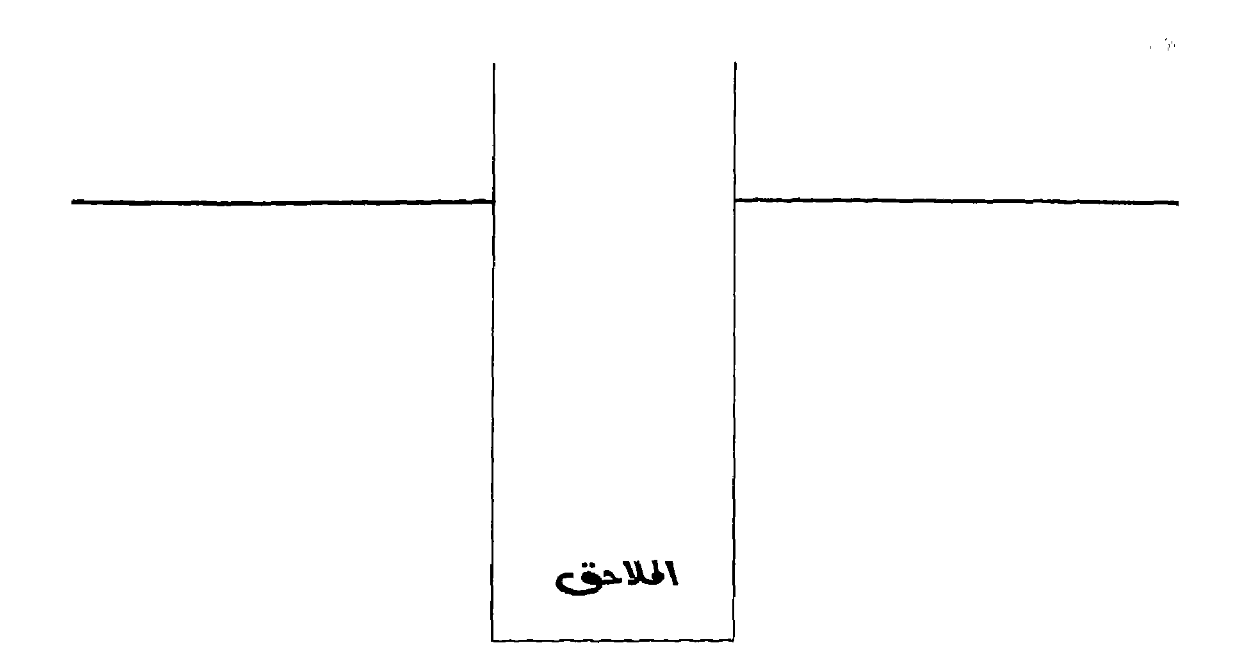
تحتل غرناطة ـ في القرن الثامن عشر ـ فصار حطاماً ضخماً متناثراً هنا وهناك، تغطي معظمه الدوالي وأشجار التين التي نبتت بين حطامه، وقد رأيت البوابة المغلقة ضمن هذا الحطام عندما كنت أعيش في «الحمراء»، مع دليلي الفقير هناك الذي كان اسمه «ماثيو أكزيمنس» وهو الذي أرشدني إلى مكان هذ الباب الذي لازال أثر الإغلاق عليها بالحجارة بين الحطام إلى الآن، ولعل تتبع الطريق الذي خرج منه هذا «الببدول» التعس حين سَلّم غرناطة يمكن البدء منه من مكان حطام هذا الباب عبر حديقة كنيسة جبانة الشهداء على طول النهر المتدفق هناك، مروراً بطريق «الغجر» عبر الكهوف التي يسكنونها مقابل بوابة «لوس مولينوس»، وهكذا إلى خلوة «سان سيبستيان»، و«الأنتيكويري» الذي يعرف هذه التعرجات هو خير دليل للسائح بينها.

وهكذا وضع التاج الاسباني في القاعة الرئيسية للقصر، التي كانت تحوي بلاط الحكم العربي فيها، وهنا دخل أهل الحل والعقد في «غرناطة» عليهما لتقديم طاعاتهم، وتقبيل يديهما إعلاناً بأنهم صاروا خولاً ومماليك لهما، يتبعهم كل المسؤولين عن القرى والدساكر والقلاع في «البقصارا»، التي لم تكن قد أعلنت ولاءها بعد.

وبهذا الشكل من التجبر انتهت حروب مملكة «غرناطة» بعد عشر سنوات من القتال المتواصل، وقد شبهها «آغابيدا» بحروب «طروادة» الشهيرة وحصارها المعروف الذي سقطت فيه المدينة بخدعة من داخلها؟!

وبانتهاء هذه الحرب انتهى مجد العرب وسلطانهم في «اسبانيا»، الذي امتد إلى سبعمئة وثمان وسبعين عاماً، من هزيمة «رودريك» آخر ملوك «القوط» على شواطىء «غواديليت»، كحدث لم يثبته «آغابيدا»، لكنه ثبت هذا النصر المبارك للكاثوليكية المقدسة حسب حسابه في: أوائل كانون الثاني/يناير من عام ولادة الرب ١٤٩٢م في بداية السنة ٣٧٩٧ بعد الطوفان ـ طوفان نوح ـ الموافق ٥٤٥٣ سنة من خلق الكون حسب الحسابات العبرية، وحسب التقويم الشرقي ٨٩٧هـ من هجرة محمد التي سأل «آغابيدا» أن يزيلها له الرب بكل تضرع المؤمن(*)؟!

(*) المؤمن الغر بحقائق التوراة التي أثبت العلم الحديث بطلانها، فالعالم لم يخلق قبل خمسة أو ستة آلاف سنة، بل قبل ٤٥ مليون سنة، ولم يظهر فيه الإنسان إلا قبل ٣٥ ألف سنة، أنظر: Jim Brooks, **Origins of Life,** A Lion Book, Hong Kong 1985, p 17. كذلك ما كان الله تعالى ليزيل تاريخ الهجرة النبوية الشريفة، ولا أي حدث تاريخي قدّره، بناء على رغبة السذج أمثال «آغابيدا».


الملاحق

ملحق ـ أ ـ

مصير «ببدول الشيكو»:

إلى هنا انتهت أخبار سقوط «غرناطة» وبقي أن يعرف القارىء مصير بعض الشخصيات الرئيسية التي لعبت الدور الأساسي على مسرح أحداثها، ونبدأ بالتعس «ببدول» الذي ذهب لكي يتقاعد في وادي «بور شينا» الصغير الخصب، حيث أعطي له هذا الوادي مع بضعة مدن فيه بكل ما فيها كإقطاع له، كذلك نال وزيره «ابن كماشة» إقطاعاً مشابهاً ولو أقل بجانبه، كما أخذ «جوزيف ـ يوسف فينغاس» إقطاعاً هو الآخر بجانبهما، على أمل أن ينزعوا ما كان بينهم من تنافس، وينسوا مجدهم السابق، لذلك كان المتوقع أن «ببدول» قد حصل على شيء من الاستقرار والسعادة في سكناه بهذه الأملاك الجديدة بذاك الوادي الخصيب الجميل، وهو محاط بمماليكه وأصدقائه الخلص، وأسرته التي تحبه، وبذلك ينظر إلى ماضيه على أنه نوع من الحلم المزعج أو الكابوس، فيشكر طالعه الذي أوصله أخيراً إلى هذا الاستقرار، لكن هذا الأمير المخلوع لم يستطع أن ينسى أنه كان ملكاً في يوم من الأيام، كما لم يستطع أن ينسى روعة قصوره في «غرناطة»، مما جعل كل وسائل الراحة في مكان إقامته الجديد هذا، لا قيمة لها في نظره، حيث ظلّ يقارن وضعه الحالي بوضعه السابق، خاصة وأن المحاولات الحثيثة التي قام بها كل من «فردناند» و«إيزابيلا» وظلت متلاحقة عليه كي يعتنق النصرانية الكاثوليكية، راح يقاومها إخلاصاً لدين أجداده، ومما زاد من ذلّه أنهما كانا دوماً يذكرانه بأنه صار مملوكاً تابعاً لهما وبالتالي عليه أن يرضخ لإرادتهما.

ومن جهة أخرى كانا يعتبران بقاءه في مملكتهما على هذا الحال محرجاً لسياستهما القائمة على أساس: مملكة واحدة ودين واحد في كل اسبانيا، لذلك لم يعد يشعر بالأمن ولا الاطمئنان في هذه المملكة التي قهرته، خاصة عبر ضغطهما عليه خوفاً من أن يقوم بثورة أو ما شابه ذلك.

لذلك بدأت المساومات معه عام ١٤٩٦م من خلال «ابن كماشة» حيث عرض «فردناند» على هذا الوزير أن يزهّد سيده بإقطاعه هذا، ويساومه بذات الوقت على بيعه له ـ كما سبق للزغل أن فعل ـ مقابل ثمانين ألف دوقة ذهبية، ولم يكن «ببدول» على علم بخيانة وزيره الجديدة هذه، لكن هذا الوزير كان يظن بأنه يحسن إلى نفسه وإلى سيده بذلك، ولأن «فردناند» كان داهية في مفاوضاته لم يضع بيد هذا الوزير أي مستمسك يخوّله الشراء رغم أنه أعطاه المال بدون أي إيصال كي يعطيه لسيده متى قبل، فحمل «ابن كماشة» هذه الثروة على بغال وخرج بها سعيداً من «البقصارا» إلى أن وصل إلى حضرة سيده، فنثر المال أمامه وكأنه قد حقق نصراً قائلاً: «يا مولاي ألا ترى أنك طالما تعيش هنا فستظل عرضة للضغوط، فالعرب سيظلون بالمقيم المقعد طالما مليكهم بينهم، فقد يحملون علمك كواجهة وينهضون للثورة، مما يجعلنا جميعاً عرضة لكل المخاطر، ويدمّروننا بذلك جميعاً، كذلك ألاحظ دوماً حزنك وألمك الذي يتجدد طالما أنت في هذه الديار تذكر ملكك، دون أي أمل بالعودة إليه، لذلك قررت أنا أن أضع حداً لكل هذه الشرور، فبعت هذا الإقطاع، فخذ ثمنه، وبهذا الذهب يمكنك أن تشتري أملاكاً أوسع في أفريقيا، حيث تعيش في عزّ وأمن هناك»[١].

فثار «ببدول» حين سمع هذه الكلمات فجأة، وسحب سيفه يريد أن يضرب به وزيره النذل هذا «يوسف بن كماشة» ويقتله مكانه[٢]، لولا أن أنقذه الحاضرون بسحبه سريعاً من بين يديه للخارج.

---

(١) وقد جاء في **حاضر العالم الإسلامي**، لوثروب، بقلم شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت ١٩٧٣، ط٤، ج٢، ص ١١، ما يلي:

«وبعد أن دخلت غرناطة في حوزة الأسبانيول انقطع السلطان أبو عبد الله بن الأحمر في أرضه بوادي برشانة، حيث وفّر له الطاغية الإقطاعات، وكذلك لوزيره يوسف بن كماشة الذي لزم بابه، فأقام مدة هناك ذاق أثناءها طعم الراحة، وانتفض من عوارض ما كان فيه من هياط ومياط. ولكن الأمر لم يطل به حتى عاد يذكر ماضي ملكه وعليائه، ويحنّ إلى غابر حمرائه، فتثور فيه الأشجان، ويستشعر فؤاده الأحزان. وفي هاتيك المدة لم يدع الملكان وسيلة إلا استعملاها لأجل صبائه عن دين آبائه، وإدخاله في النصرانية، فأخفقت مساعيهما، وبقي بالهما مشغولاً من جهته، إذ لم يزل وجوده هناك محلاً للخوف من انتقاض مسلمي الأندلس تحت رايته والتفافهم حواليه، ففي سنة ١٤٩٦ داخل الملك فرديناند الوزير يوسف بن كماشة سراً في ابتياع أراضي مولاه بثمانية آلاف دوكا من الذهب فتمّت الصفقة وانعقد البيع بدون علم أبي عبد الله، وبدون أن يعتني فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكال، بل نقّده المال، فحمّله البغال، وسار إلى البشرات، فلما وصل بين يدي مولاه، نثر الدنانير أمامه قائلاً له:

«رأيت مولاي أن بقاءك هنا معرّض للخطر، فإن المغاربة أهل إقدام وثار، وحملة أوتار، ولا يبعد أن يثوروا مرة رافعين رايتك، وتعزى ثورتهم إليك، فتقع في المقيم المقعد. ومادمت في هذه البلاد يخطر في بالك أنك كنت أميرها على حين لا أمل في رجوع هذه الإمارة لك. لذلك رأيت الأنجح في حقك بيع أراضيك، وقبضت ثمنها، وها هو لديك يمكنك أن تتملك به أراضي واسعة جداً وراء البحر».

(٢) المرجع السابق، ص ١٢، وفيه:

«فلما سمع أبو عبد الله هذه الكلمات استشاط غضباً، واخترط سيفه وكاد يضرب به رأس وزيره، فأسرع هذا إلى الفرار من حضرته، وبقي أبو عبد الله وحده يتأمل في هذه المسألة، ويقلّب من وجوهها، فلم يلبث أن ذهب ما به وعاد إليه سكونه، واستدل على أن هذه الصفقة لم تكن لتجري لولا رغبة فرديناند في زياله من هناك، وأن الحق قد يكون مع =

ولأن «ببدول» لم يكن غضبي المزاج ذو روح قتالية، زالت عنه هذه الغضبة المضرية العابرة بسرعة، ورأى أن الشرّ قد وقع، وأدرك أن روح «فردناند» السياسية المساومة هي وراء كل هذا، لذلك جمع هذه الأموال مع أمواله ومجوهراته وكل ثمين حمله معه من «الحمراء»، وغادر مع أسرته وبلاطه على متن سفينة أعدّها ملكا «قشتالة» له لنقله إلى أفريقيا.

وشهد وداعه حشد من العرب بوداع فاتر، وكذلك ظلّوا إلى أن فردت السفينة أشرعتها وراح الهواء يدفعها بعيداً عن اليابسة، فأعطاه الحضور هتاف وداع ضعيف مؤثر، لكن شعورهم بمهانة من كان مليكاً عليهم، بمثل هذا الموقف فرض على الجو تأثيراً مأساوياً، فخرج من أفواههم لقبه القديم «الزغبي»، وصرت تسمع هتافاً يقول: «وداعاً يا أبا عبد الله، ليحفظك الله أيها الزغبي» وسوء طالع هذا الملك التعس المنفي تجلى بدموع عينيه، حين وصلت تلك الهتافات إلى أذنيه، في اللحظة التي راحت تختفي فيها عن ناظره قمم الجبال الثلجية التي تكلل «غرناطة» بشكل تدريجي والسفينة تبتعد.

وحين وصل إلى «فاس»(*) استقبله مولاي «أحمد المريني النصري» ملكها الذي تجمعه فيه صلة نسب، وسكن عنده عدة سنين دون أن يذكر التاريخ عن هذه المدة أي شيء، ثم عاد المؤرخون عام ١٥٣٦م ليذكروه بعد أربعة وأربعين سنة من سقوط «غرناطة»، وذلك حين تبع ملك «فاس» إلى ساحة معركة ضد أخوي «بني الظريف» في «غوادي سويد» بجانب نهر «باكوبا»، حيث كان النهر فائضاً ومرتفعاً ومتعرجاً بكل مكان، فتبادل الجيشان النار على ضفتيه لمدة ثلاثة أيام دون أن يجرؤ أي منهما على عبور مخاضاته.

فقسم ملك فاس جيشه إلى ثلاثة كتائب: الأولى بقيادته، والثانية بقيادة أحد أولاده، والثالثة بقيادة «ببدول»، وعبر الملك بكتيبة الوسط التي كانت تحت قيادته مخاضات النهر، لتلحق به الكتيبتين الأخريين، لكن العدو هاجمهما حين عبورهما بشدة أدّت إلى قتل ابن ملك فاس وعدد من السياد معه، وسيق الجيش إلى النهر بمعظم جموعه، التي كانت تدوس على بعضها هرباً من السيوف في رقابها، فكان كل من نجا من السيف يتلقفه النهر، وبذلك غصّ النهر بجثث الرجال القتلى مع دوابهم التي راحت تطفو مع متاعهم المبعثر فيه، وفي هذا المشهد

= وزيره يوسف بن كماشة فأجمع الرحلة وشدّ حقائبه. وجمع أمواله وكنوزه وتحمّل إلى أحد الثغور، حيث شيّعه كثيرون من قومه داعين له بالتسهيل. فلما ركب السفين وغابت عن عينيه جبال غرناطة انهملت منهما العبرات، وتصاعدت من صدره الزفرات، ونزل بمليلا ومنها سار إلى فاس نزيلاً على سلطانها متلهفاً على ما سلف. وفي بعض تواريخ الإفرنج أنه توفي قتيلاً في إحدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦ أي بعد ٤٤ حولاً من فراقه أسبانية، ولذلك قال فيه أحد المؤرخين أنه قتل في سبيل الدفاع عن مملكة سواه بعد أن جبن عن أن يقتل في الدفاع عن حوض مملكته».

(*) حيث نزل بمدينة «مليلة».

الرهيب كان سقوط «ببدول» ـ التعس أو «الزغبي» ـ الأخير.

ولذلك قال فيه المؤرخون القدامى أنه: «قتل في سبيل الدفاع عن مملكة سواه، بعد أن جبن عن أن يقتل في الدفاع عن حوض مملكته»[١].

---

(١) أما زامباور، في **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، مرجع سابق، ص ٩٤. فقد قال: «ظلّ شاهد قبر هذا الملك التعس عدة قرون يستعمل عتبة باب لمنزل صغير بمدينة «تلمسان». فهل مات بفاس أم بتلمسان، أم «بفز» كما ذكر «إيرڤينغ»، أم أخطأ إيرڤينغ بين لفظة «فز» و«فاس» وهذا مرجح، أم أن شاهدة القبر كانت رمزية كذكرى له؟! هنا نجد تضارباً عند المؤرخين.

الملحق ـ ب ـ

موت المركيز «أوف كاديز»:

إن رودريغو فونس «دي ليون» الشهير بالمركيز ثم «دوق أوف كاديز ـ القاضي ـ»، كان بإجماع الكل من أبرز فرسان الاسبان في هذه الحرب، بسبب حماسه، ومبادراته الشجاعة في حملاتها الصليبية، فهو الذي بدأ الحرب ـ المسيحية ـ بإسقاطه «للحمى»، وكان بكل حصار وغزو خلال معارك هذه الحرب بعد ذلك، كما كان حاضراً حين سقوط عاصمة مملكة «غرناطة»، حيث أسدل الستار على المشهد الأخير لهذه الحرب، ومعه انتهت حياته عن عمر ثمانية وأربعين سنة، بعد أن حقق مباشرة نصره الأخير هذا، وقبل أن تلف أوراق أكاليل الغار حول رأسه، إذ مات في قصره في مدينة «إشبيلية» في ٢٧ آب/أغسطس ١٤٩٢ م بعد عدة أشهر من استسلام «غرناطة» نتيجة مرض الإعياء الذي سببته له هذه الحرب.

وقد ذكر المؤرخ المعاصر له: أنديبه برنالد «أوف لوس بالاسكو» نتيجة معرفته الشخصية به: أنه كان يجسد كل فضائل الفروسية في عهده، وهي: الولاء المتطرف للملك، والقيادة الحكيمة، والدفاع الشديد عن مماليكه، مع حب شديد للعدل حتى مع عدوه، وعداء لكل تملق وكذب وسرقة وخيانة من أي مصدر كان(*)، وكل طموحه كان أن يتميز بعمل بطولي يخلده، كي يضيف إلى مجد أسلافه الذين فتشوا «قشتالة» تفتيشاً جديداً(**)؟؟ وينال المزيد من الاقطاعات والمماليك وسواها من الألقاب الخاصة.

أما إبداعاته الحربية فقد تجلّت في مجال الهندسة التي تتعلّق بالحصون، فقد أمضى الكثير

(*) لولا عكس هذه الصفات لما استطاع «فردناند» تحقيق نصره، فتعداد صفات الفروسية وحصرها بذاك العصر، كان يعني معرفتها للتنكر لها من قبل السياسيين، مع تغرير الفرسان بقدسيتها التي يجب أن لا تخرق لتسخيرهم.

(**) ما هذا الفخر بالتفتيش مع ادعاء الفروسية؟!

من الوقت والجهد في بنائها وإصلاحها، كما حسّن الموسيقى العسكرية، وأضاف لها بعض الآلات الصوتية بالقرب والأبواق الخاصة «ترومبيت Trumpets» لتتناغم مع الطبول، وكفارس شهم كان يلعب دور حامي النساء في كل الظروف، فكل واحدة تطلب عونه كان يلبيها، لذلك أحبته شقراوات البلاط من اللواتي كن يرافقن الملكة في الحرب، وكن يندفعن لطلب حمايته كي يبقين تحت جناحه بعدها، فحيث ماكان يرفع علمه لم يكن العرب يجرؤون على الاقتحام(*).

كذلك كان مخلصاً في صداقته، لكنه عدوٌ لدود لخصومه، لأنه كان حقوداً لا يغفر بسرعة، كما كان ثأره كريهاً وشديداً.

وكان موته سبباً لحزن عام في كل صفوف الجيش الذي كان يحبه ويحترمه بكل قطعاته الأوروبية، لذلك أعلن كل الصليبيين الحزن عليه، ولكثرتهم لبست نصف «إشبيلية» السواد عليه.

وكان من أشد الناس حزناً صديقه بالسلاح «دون ألونزو دي غويلار» وكانت جنازته من أكبر الجنائز، فقد سجي جثمانه بأثمن الثياب من البروكار العربي المغربي، ووضع سيفه اللامع على خصره كما كان في الحرب، وزيّن تابوته بالحرير الدمشقي، ووضع في وسط قصره، حيث راحت زوجته الدوقة بالنحيب عليه كسيد وزوج لها، ثم راح كل الحضور يشاركها ذلك بما في ذلك مماليكه الكثر.

وفي المساء خرجت الجنازة إلى كنيسة «أڤاماريا» من القصر، محاطة بعشرة أعلام عربية أسرها بهجمات خاصة قام هو بها، قبل أن يبدأ الملك «فردناند» الحرب ضد مملكة «غرناطة»، وفي الكنيسة كان حشد من المطارنة والخوارنة والشمامسة والآباء من مختلف التنظيمات بانتظار نعشه، مع قادة القطعات ووجوه البلاد، وكل فرسان «أشبيليا»، وعلى رأسهم الكونت «سيفونتي» الذي كان مسؤولاً عن المدينة في ذلك الوقت، وتحركت هذه الجنازة ببطء في شوارع المدينة، حيث أشعلت الشموع بكل مكان فأضاءت الشوارع وكأنها في نهار، والناس يكون من الشبابيك والمشارف، وخلف الجنازة كانت الندابات من نساء الطبقات الدنية، وعندما وصلت الجنازة إلى دير «سانت أوغسطين» خرج الرهبان وحملوا النعش إلى كنيسة «أڤاماريا» حيث وضعوه هناك حيث أتموا شعائرهم، ثم سجي في قبر العائلة في داخل الكنيسة، وزيّن القبر بالأعلام العشرة.

(*) إشاعة جيدة كي تلتف الحسان حوله.

وقد ظلّ قبره لأجيال مكان زيارة من الناس الذين يؤمنون بفضائله وإنجازاته، حتى عام ١٨١٠م حيث دمّر الفرنسيون الدير بمدافعهم، فطارت مدافن عائلة «فونس» بقذائفهم، وسليلته الدوقة «بيناڤينتي» جمعت حالياً بقايا جدها، وعادت إلى إصلاح الدير والكنيسة، على نفقتها ومن أعطياتها، تخليداً لذكراه.

ملحق ـ ج ـ

الأسطورة التي وضعت حول موت دون «ألونزو دي غويلار»:

إن الدون «ألونزو دي غويلار» الصديق المقرّب من المركيز «أوف كاديز»، كان من أشهر أبطال فتح مملكة «غرناطة»، لذلك سنضع بعض الملاحظات حول مصيره بعد سقوط «غرناطة»، بما وجدناه في مخطوط «أنطونيو آغابيدا» من أوراق تتصل بتاريخ هذا الفتح.

فقد ظلّت البلاد بعد فتح «غرناطة» لعدة سنوات مضطربة وغير خاضعة خضوعاً تاماً للنصارى(*)، وكل الجهود الحماسية لرهبان الكاثوليك للتأثير على المسلمين كي يتحولوا عن دينهم، وأساليب التفتيش التي تدعمها الدولة، كانت لا تجدي، وتتبخر في الأماكن النائية والجبال، ومع هذا كانت ترسل البعثات التبشيرية إليها بانتظام، وكانت هذه البعثات لا تلقى إلا المعاملة السيئة، أو يلقى القبض عليها، وتنصح باعتناق الإسلام، فإذا رفضت كان يقام عليها الحد بالرجم، وقد رجم نساء العرب وأطفالهم بعثتين من هذه البعثات، ثم أحرقت جثث أصحابها في مدينة «ديرين».

وبسبب هذه الحادثة تجمعت قوة فرسان مسيحية أندلسية بحوالي ثمانمئة فارس، وتحركت قبل أن تصلها أوامر من الملك للثأر لضحاياها، متجهة نحو القرى العربية للعصف بها وتأديبها، ففرّ العرب من قراهم إلى الجبال، وتضامن معهم الكثير من بني قومهم من الذين يقطنونها، وهكذا بدأت تشكل ما يشبه الثورة التي راحت ترعد في جبال «البقصارا» الوعرة، وقد تردّد صداها في «السيرا أوف روندا» حيث ظلت «رندة»(**) مستعدة للثورة.

(*) لأن سقوط مدينة «غرناطة» «كان يعني سقوط الدولة، لا سقوط كل العصبيات في تلك المملكة، وسلاحا التبشير والتفتيش اللذان أشهرهما النصارى في المدن حيث يدعمهم الجيش، غير فعالين في الريف دون أن يساهم الجيش بضرب البنى العصبية فيه بنية بنية، وهو أمر على مستوى عال من الصعوبة، استمر من عام ١٤٩٢ م إلى عام ١٦١٨، ولم ينجح إلا بسياسة التهجير ـ التي أشرنا إليها في المقدمة ـ والتي توّجها «فخاردو» بطرد باقي العرب من الأندلس.

(**) إرجع إلى قصيدة «أبو البقاء الرندي» التي تصف وحشية ما تعرضت له «رندة»، في مطلع هذا الكتاب.

وكان معقل هذه الثورة في «السيرا فرميجا» التي تعني بالاسبانية سلسلة الجبال الحمر الممتدة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، والتي يمكن رؤية قممها الصخرية المنيعة من جبل «طارق».

وبمجرد أن سمع «فردناند» بالأمر، أصدر فرماناً يأمر به كل المسلمين الذين يسكنون هذه المناطق بترك بلادهم خلال عشرة أيام، والقدوم إلى «قشتالة»، مع تعليمات سرية لجيشه الذي سينفذ هذا الأمر بترك من يعتنق المسيحية منهم وشأنه، على أن يتحرك دون «ألونزو دي غويلار» مع الكونت «سيفيونتي» لضرب الثوار فوراً، والقضاء على كل من يتجه نحو «قشتالة» لأنه ظلّ مسلماً(*).

وكان «الدون» في قرطبة حين تلقى هذا الأمر الملكي، فتساءل فوراً عن القوة التي وضعت تحت إمرته لتنفيذ هذا الأمر الخطير، وحين أخبروه، رأى أنها قوة صغيرة لا تكفي وقال: «حين يموت شخص نرسل أربعة لإحضاره، وبهذه القوة البسيطة نريد إحضار هؤلاء المسلمين أحياء وهم متمردون بثورة عارمة، كي نزيل قلاعهم ونحن الأعجز عن مواجهتهم رجلاً برجل» وقد تردّدت هذه الكلمات التي قالها هذا المحارب الشجاع بعد ذلك مراراً، ومع ذلك وبسبب شجاعته لم يتردد بالمضي قدماً وتنفيذ مهمته.

لقد كان «الدون» في الواحدة والخمسين من عمره، ولم تنطفىء فيه شعلة الشباب، لكنها انعركت بالتجارب، بعد أن قضى معظم عمره في ساحات القتال، ومخيمات الجيوش حتى صار الخطر طبعاً له، وقوة عضلاته صارت ـ من صلابة لبس الدروع الثقيلة، وحمل الأسلحة الحديدية ـ أشد من أن توهنها السنين، لذلك كان يركب حصانه كرجل حديدي بكل معنى الكلمة.

وفي هذه البعثة ـ رغم اعتراضه على عدم كفايتها ـ أخذ ابنه معه دون بدرو «دي قرطبة»، الشاب الصغير المتحمّس في أول عمره، وألبسه كل دروع الفارس الاسباني الكاملة، وحين شهد سكان قرطبة هذا الشاب بجانب أبيه الخائض ألف معركة وهو يقوده إلى ساحة الشرف، حيوهما من الشرفات بالهتاف، وشبهوهما بالصقر الذي يعلم صغيره الصيد، وكانت الهتافات تقول: فلتحيا عائلة غويلار الشجاعة...!؟

وفوراً تناقلت القرى العربية أخبار خروج «دون ألونزو» وأصحابه، قبل وصولهم فخاف الضعفاء وراحوا يهرولون إلى «روندا» لإعلان تنصرّهم، لكن ذوي البأس والشهامة والإباء منهم أمثال «الجنادلة»، كانوا أرفع من أن يحنوا رقابهم للرهبان كي يطوبوهم، وعلى رأسهم كان

(*) هذه صفة «فردناند» الغادر ومستشاريه التفتيشية.

المحارب الشجاع الصلب: «الفهري بن الإصطبار» المشهور بقوته وبأسه، فجمع أتباعه مع نسائهم وأغراضهم على ظهور البغال، وساقوا قطعانهم تاركين قراهم في الوديان، ومنتقلين نحو شعاب وشواهق «السيرا فرميجا»، حيث توجد أراضٍ خصبة على رؤوسها المسطحات الجبلية، وهي محاطة بالصخور كقلاع كبيرة، وهنا وضع الفهري النساء والأطفال والشيوخ مع حلالهم، وسد الشعاب التي توصل إلى هذه المرتفعات بالصخور التي أمر بدحرجتها فيها، ووضع القوات للدفاع عن كل ممر يقود إلى تلك المسطحات.

وحين وصل النصارى نصبوا مخيمهم أمام مدينة «موناردا» الحصينة التي تقع في أسفل مرتفعات «السيرا فرميجا»، وبقوا لعدة أيام دون أن يحصلوا على استسلام المدينة، فتفرقوا في حواف الجبال وشعابها العميقة، التي يسيل في أسفل كل واحدة منها جدول سريع، بينما نزل العرب من جبالهم بقيادة «الفهري» ووقفوا على الطرف المقابل للوديان، لكي يدافعوا عن الممرات التي توصل إلى معاقلهم.

وفي عصر أحد الأيام التالية لهذا الانتشار، خرجت كوكبة من الجيش المسيحي لتبرز شجاعتها فقط، وعبرت نحو العرب في الجهة المقابلة وبدأت تهاجمهم فتبعها باقي الجيش لعونها أو للنخوة أو للمغنم، كل حسب نيته، لكن معظمهم كان طامعاً بالمغانم، وهكذا بدأ قتال حاد بين هذه القوات والمسلمين على جانب الجبل، وكان العرب أكثر عدداً، ولهم امتياز الأرض المرتفعة، عندها سأل الكونت «يورينا» والكونت «سيفيونتي»، «دي غويلار» رأيه فيما يحصل فقال: «لقد سبق وأن أعطيت رأيي في «قرطبة»، ولن أغيره هنا، فهذه معركة غير ناجحة، ومع ذلك مادام هؤلاء المغاربة بقبضتنا يجب أن لا نظهر لهم أي ضعف، مما يزيد من شجاعتهم ويأسنا، فمرا بالهجوم العام وأنا واثق بأن الرب سوف يحقق لنا النصر» وركب مهره وقاد قواته نحو المعركة.

وعلى نهاية الجبل كان هناك مصاطب متعددة، أو جروف عليها كان هجوم النصارى على العرب، واستطاعوا حين ضغطوا في هذه المنطقة أن يحوزوا على التفوق، فتراجع العرب إلى المرتفعات الصعبة، ومنها صاروا يرمون عدوهم بالحجارة ويدحرجون الصخور عليهم، وبذلك تمكنوا من الدفاع عن ممراتهم الجبلية بكل عنف وقوة، لكنهم كانوا يتراجعون من مرتفع إلى آخر، إلى أن وصلوا إلى سفح الجبل، حيث توجد عائلاتهم في ملاذها الأخير، وما كادوا يتحصنون معهم في هذا السفح حتى هاجمهم ألونزو «دي غويلار» مع ابنه بثلاثمئة فارس راحوا يفرّقون شملهم، ويمزقون صفوفهم بشكل مريع، وبينما كان هؤلاء يطاردونهم انقضت بقية قوات الجيش على عائلات العرب تنهبها، وتطارد نساءها لاغتصابهن وتعريتهن من لباسهن

وحليهن، وقد وجد الجيش أن مع هؤلاء الكثير من الحلى الذهبية، فتخففوا من دروعهم كي يحملوهابعد اغتصاب صاحباتها(*).

وحلّ المساء والنصارى ينهبون، بينما فرسانهم راحوا يتوقفون عن مطاردة الرجال العرب، فعاد العرب على صرخات نسائهم وأطفالهم و«الفهري» يحاول جمعهم وهو يقول: «أيها الأصدقاء المحاربون إلى أين تفرّون، وإذا انهزمتم فإلى أين ستلجأون؟! لقد كشفكم العدو وسيطالكم في كل موضع، فلا أمان لكم إلا بالسلاح الذي في أيديكم».

فانعطف العرب على كلماته عطفة رجل واحد، وعادوا إلى المعركة، ليجدوا النصارى وقد خلعوا دروعهم، ومعظمهم يغتصب نساءهم، والباقون يسرقون متاعهم، فأمرهم «الفهري» بالهجوم عليهم فوراً وهو يقول: «سأفتح لكم الطريق بينهم، فاضربوهم قبل أن يتجهزوا، وطار في مقدمتهم يضرب يمنة ويسرة، وخلفه أتباعه يكبّرون بصوت واحد، تردد صداه في كل الجبال، مما أوقع الذعر في قلوب النصارى، فرموا ما بأيديهم وفرّوا لا يلوون على شيء، لكن «دي غويلار» رفع علمه وتقدم كي يوقف هزيمتهم، ويجمعهم حوله، ولأن حصانه لم يعد يعينه على الحركة السريعة في هذه الصخور الوعرة، ترجّل وطلب من خيّالته أن يفعلوا مثله، ووقف بهم صفاً واحداً بوجه العرب، بينما أتباعه يحاولون جمع فلول مشاته المهزومة من المؤخرة.

عندها أطبق الليل مما أعاق العرب عن أن يقدّروا قوة هذه الصف الذي يصدّهم عن مطاردة فلول الجيش المهزوم، خاصة وأن قوات «ألونزو» كانت تدافع بقوة جعلتها تبدو أكبر من حجمها الحقيقي، ولسوء حظّهم انفجر برميل بارود قريب من مسرح العملية، فأضاء المكان والتلال الجبلية التي تحيط به، فعرف العرب حجم عدوّهم وعدده، وأدركوا أن العدد الأكبر للجيش مهزوم في شعاب الجبال، فهاجموا هذه القوة أمامهم بتكبيرة قوية، واندفع آخرون خلف المنهزمين يمزقون تراجعهم، ويلقون بالصخور خلف الفارين منهم مع النبال كشلال من القذائف، ولذعر النصارى وجهلهم بشعاب الجبال، كانوا يقفزون ويندفعون بخطوط مستقيمة تودي بكسر رقابهم وأجسادهم فوق الصخور، فتمزق معظمهم إلى أشلاء.

لكن «دي غويلار» ظلّ محافظاً على مكانه وسلاحه، وهو يواجه فريقاً من العرب أمامه، وفريقاً يرميه بالنبال من خلفه، لذلك اقترح عليه بعض فرسانه إخلاء الموقع الذي هو فيه، والتراجع إلى أسفل الجبل لليأس من الموقف الذي صاروا فيه، فأجابهم بعنجهية أن «لا؟! إذ لم

(*) سبق أن مارس المركيز «أوف كاديز» فروسية مشابهة لفروسية صاحبه هذا «دي غويلار» في «ملقا»، فعن أي فضائل رومانطيقية تحدث «إيرفينغ» حين نسب لهؤلاء صفة الفرسان، وهم يطلقون رعاعهم ويشجعوهم ويحمونهم لاغتصاب العربيات وسرقتهن؟!

يعهد بعلم «دي غويلار» أن تراجع أي خطوة في حمأة المعركة»، وما كاد ينهي كلماته حتى سقط ابنه «دون بيدرو» بين يديه، ثم أصابته حجرة في وجهه كسرت أسنانه وأعقبها رمح أطار درعه، وحين حاول هذا الشاب الوقوف خانته قدماه، فحاول أن يقاتل وهو على ركبتيه، فحثّه والده على الهروب قائلاً: «لا تضع كل ثقلنا بكفة واحدة، وعد إلى أمك وراعها كمسيحي صالح يا ولدي»؟!

ومع ذلك رفض «دون بيدرو» ترك جانب والده، فأمر «دي غويلار» عدداً من أتباعه على حمله بالقوة بإمرة صديقه دون فرانسيسكو «الفاريز دي قرطبة» حيث رافقه إلى قطاع قوات الكونت «أوف يورينا» التي كانت متوقفة على أحد المرتفعات البعيدة عن ساحة المعركة، بهدف إرجاع الفارين، وبذات الوقت وصل دون «بيدرو جيرون» ينزف من جراح قاتلة ليتعفر أمام قائده.

وهكذا ظل «دي غويلار» مع مئتي فارس، يقاتلون عدواً يحاربهم من كل الجهات، فيتساقطون الواحد تلو الآخر، وكأنهم الطرائد التي أحاط الصيادون بها، إلى أن جاء دور قائدهم دون «ألونزو دي غويلار» الذي تطايرت دروعه عنه وتمزقت درقته وأثخن بالجراح، وقد تراجع بين صخرتين يضرب خصومه منهما.

عندها هاجمه عربي ذو قوة فائقة وشدة، فتلقى منه «دي غويلار» جرحاً في الرأس بعد معركة حامية معه، وآخر في الصدر جعله يترنح، فقفز وأمسك بخصمه وراحا يتدحرجان أرضاً، لكنه بسبب إنهاكه من جراحه صار تحت خصمه، وهو يقول: «لا تظن أني شخص عادي سهل فأنا دون «ألونزو أوف دي غويلار»» فأجابه العربي: «إذا كنت أنت «الدون» فأنا الفهري بن الإصطبار»» وأخرج خنجره وطعنه سبع طعنات جعلته يفارق الحياة وهو في قبضته.

هكذا أسقط الدون «ألونزو دي غويلار» الذي كان يعتبر ـ عند الغرب ـ مرآة الفروسية الأندلسية(*)، ومن أقوى خصوم العرب فيها، فقد شنّ عليهم حروبه مدة ثلاثين سنة ـ قبل «فردناند» ومعه ـ منذ صباه حتى كهولته، بذكاء وقوة متميزة فيه، يقتحم الأخطار دوماً منذ أن كان جندياً، إلى أن صار جنرالاً في الجيش، فممثلاً فوق العادة للأندلس بعد سقوطها، وبذلك كان من أهم وأشرس «سياد» الملك، فهو الذي قتل بسيفه «علي العطار» صاحب «الأقصى» وجهاً لوجه بجانب «شنيل»، وكثيراً غيره من أسياد المسلمين، وكان خامس «لوردات» بيته المحاربين الذين سقطوا في الحروب مع العرب، فأجمع مؤرخو النصارى على أن روحه التي

(*) وهو يدافع عن جنوده مغتصبي النساء وسارقي حليهن؟!

صعدت إلى السماء يوم موته، كانت مزوّدة بالاعتراف والخضوع الذين مارسهما لرهبانه قبل المعركة؟!

أما العرب فقد تابعوا مطاردة النصارى بعد قتله في شعاب الجبال، والكونت «دي يورينا» لا يقدر لا على صدِّهم، ولا على جمع شتات جيشه المهزوم في تلك المرتفعات الكارثية، لكن لحسن حظهم كان في أسفل الجبل مؤخرة الجيش بقيادة الكونت «دي سيفيونتي»، الذي عبر الجداول والفاصل الجبلي لكي يغطي انسحابهم، لكن جيشه عندما شاهد ذعر القوات المهزومة التي راحت تتقاطر سيوف العرب في أعقابها دماً، لم يستطع إيقافهم عن مشاركة قواتهم الطليعية بالفرار من ذعر أصابهم أيضاً، مما جعلهم يتراجعون بكل فوضى عبر الجداول والشعاب، لكن «الكونت» صمد مع بعض قواته التي اجتمعت حوله، وخفف بها غلواء الهجوم العربي، ثم تمركز على مرتفع صخري إلى أن يطلع النهار، وهو يكرّ ويفرّ أمام العدو، ومع الفجر توقف العرب عن الهجوم، وانسحبوا نحو مرتفعاتهم الجبلية.

فكانت فرصة للنصارى كي يلتقطوا أنفاسهم، ويجمعوا خسائرهم الفادحة في تلك الليلة، إذ سقط من أهم فرسانهم إضافة إلى «دي غويلار» الفارس دون «فرانسيسكو راميرز أوف مدريد»، الذي كان المقدم العام لأركان حرب المدفعية عبر حرب مملكة غرناطة كلها، وساهم كثيراً جداً في إسقاط هذه المملكة، لكن الحزن على «دي غويلار» حوّل الأنظار عنه، أما «بيدرو» ابن «دي غويلار» الذي عاد مثخناً بالجراح فقد عاش إلى أن صار مركيزاً على «بريغو»، ولم تُسلَّم جثة والده مع الفرسان الذين سقطوا معه له فوراً، بل ظلّ الجيش يومها ينتظر على جمر الغضا قدوم أي من مقاتليه بخبر من شعاب هذه الجبال دون جدوى، وأبواق النفير التي يطلقها لا ترجع أي صوت يجيب نحيبها، إذ خيم الصمت المطبق على تلك الجبال وقممها، مما يظهر توقف الصراع المميت، وبين فينة وأخرى كانت تسمع صرخة جريح خانته قدماه وهو يحاول النزول من تلك الجبال الوعرة، ليسقط فيتحطم جسده ويتناثر على شعابها، وهكذا هزّ الجنود رؤوسهم حزناً لعدم قدرتهم أن يعرفوا أي شيء عن مصير رفاقهم بالسلاح، وهم ينسحبون عائدين.

وحين وصلت أخبار هذه الهزيمة الكارثة والوضع المأساوي لمن نجا منها إلى أسماع «فردناند» وهو في «غرناطة»، مشى فوراً بكل فرسان بلاطه وقواتهم إلى جبال «روندا»، فوضع بذلك حداً فورياً لهذه الثورة.

وبعد إخمادها، وضع الجزية على عرب هذه المنطقة، ومن وقع منهم بيده طرده فوراً إلى

(*) وطبعاً أضفى الرواة على خبر موته أسطورية الميتة البطولية، كي يرضوا هذا الطاغية ولا ينكّل بهم أكثر؟!

«أفريقيا»، وأجبر الباقين على التنصُّر، وباع كل سكان القرى التي ذبحت الرهبان كرقيق في الأسواق، وعرف من العرب الذين أخضعهم كيف مات «دون ألونزو دي غويلار»(*):

«ففي صباح اليوم التالي للمعركة عندما عاد العرب إلى ساحة القتال، كي يسلبوا الغنائم ويدفنوا القتلى، وجدوا جثته بين أتباعه من المئتي فارس الذين قتلوا معه من أتباعه، ومعظمهم من السياد والفرسان المتميزين، وعرف العرب شخص «دي غويلار» بينهم، إذ كان معروفاً للجميع في السلم والحرب، لكنه كان مغطى بجراحه النازفة مما جعل التعرّف عليه صعباً بعض الشيء، ومع ذلك حفظوا جثته بعناية فائقة، وحين أعلنوا خضوعهم أحضروا الجثة معهم «لفردناند»، الذي أرسلها بمرافقة مهيبة إلى «قرطبة» لتنعيه الأندلس كلها»، وحين دخلت الجنازة إلى «قرطبة» ورأى سكانها التابوت الذي يتضمن بقايا بطلهم المفضل يقاد إلى الكنيسة لدفنه، وهو الذي خرج من بوابة مدينتهم قبل مدة وجيزة بكل أبهته، تدافع الناس بحزن، وصريخ لوداعه من كل قطاعات المدينة، نحو كنيسة «سانت هيبوليتو» حيث سيقام عليه الجناز بكل عناية، وبعد سنين عديدة حين نقلت حفيدته الدونا «كاتالينا أوف غويلار» رفاته، تبين من الجراح فيها ومن رأس حربة رمح بقيت في هيكله أن هذه الحربة هي التي قتلته حتماً في معركته التي قضى فيها، لذلك صار اسم هذا الفارس موضوع الشعر البطولي والشعراء، كل يتصور ميتته بطريقته الخاصة، وصارت هذه القصائد تجسد تاريخ كل هذه البلاد وبطولة صاحبها، إزاء الخزي والعار الذي ظهر من الكونت «دي يورينا» الذي تخلى عن «دي غويلار» حين حمي الوطيس، وراح يتلهى بجمع فلول الجيش الفار، رغم أن ملكي «قشتالة» برآه من كل مثل هذه التهم، وأبقيا على مركزه وألقابه، فلا هو ولا أصحابه كانوا قادرين على تمييز «الدون» في عتمة الليل.

لكن أغنية رومانسية اسبانية رثته بما يعبر عن حزن عامة الناس في تلك المناسبة، وحطّت من شأن الكونت «دي يورينا» الذي لم يخجل أن يعود إلى قرطبة بدون رفيق سلاحه، وتبدأ أبيات هذه الأغنية بالتالي:

كونت يورينا!! كونت يورينا
أخبرنا أين الدون ألونزو؟!

Decid Conde de Urena
Don Alonzo donde queda??



السيرة الذاتية الأكاديمية

الإسم: الدكتور هاني يحيى خليل نصري.

تاريخ الميلاد: ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٦ م.

المؤهلات العلمية:

- ليسانس ـ بكالوريوس في الفلسفة وعلم الاجتماع ـ جامعة دمشق، ١٩٧٠.
- دبلوم الدراسات العليا في التربية، كلية التربية، جامعة دمشق، ١٩٧١.
- دبلوم العلوم الإنسانية في الدراسات الشرقية والإجتماعية، جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٧٣.
- شهادة الماجستير بدرجة امتياز الشرف الأولى ببحثه حول مفهوم «العصبية» عند ابن خلدون، ١٩٧٤.
- شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإجتماعية بدرجة امتياز، جامعة فوردهام في نيويورك، ١٩٧٨.
- أستاذ علم الإجتماع المساعد في جامعة الملك عبد العزيز بكلية الآداب، ١٩٧٨.

عضو نادي الرئاسة في جامعة فوردهام في نيويورك كمستشار.

President's Club at Fordham University, New York.

- شهادة شكر وتقدير من جامعة الملك عبد العزيز لإنجازاته عن عام ١٤٠١/١٤٠٢ هـ.
- عضو هيئة تحرير مؤسس لمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية من قبل مجلس الكلية عام ١٤٠١ هـ، ثم جدّد له المجلس العضوية عام ١٤٠٣ هـ لمدة سنتين.
- انتخب رئيساً لقسم الإجتماع في جامعة الملك عبد العزيز لمدة سنتين، ١٤٠٣ هـ.
- أستاذ مشارك في جامعة فوردهام في نيويورك، وتفرّغ بعد عام ١٩٩٠ للإشراف على رسائل الدكتوراه.
- عضو إتحاد الكتّاب العرب ١٩٩٧ م. «لجنة الدراسات والبحوث».
- استاذ مشارك في جامعة: **American Academy of Technology**، لعام ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠م

الأبحاث العلمية

١ ـ «المسيحان والعصبية في الإسلام والصهيونية»، مطابع الكريم الحديثة، لبنان، ١٩٧٣.

2 - Ibn Abd Al- Wahhab's Philosophy of Society: An Alternative to the Tribal Mentality, Fordham University Library, N. Y. 1978.

٣ ـ في سبيل علم اجتماع إسلامي، دار المجمع العلمي، جده، ١٩٧٩ م.

٤ ـ شارك في ترجمة كتاب: Urbanization in the Middle East: «التمدين في الشرق الأوسط»، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠.

5 - Text in Sociology (level 3), Dar Al-Bayan Alarabi, Jeddah, 1982.

6 - Text in Sociology (level 4), Dar Al-Bayan Alarabi, Jeddah, 1982.

٧ ـ عصبية لا طائفية، دار القلم، بيروت، ١٩٨٢ م.

٨ ـ «فلسفة التصوف: طاقات وقدرات»، دار مجلة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠.

٩ ـ «بين الإرادة والإنجاب»، دار مجلة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢.

10 - The Rahmanic Verses, A Commentary on Atheism in Islam, Dar Al-Asalah, Beirut, 1995.

١١ ـ ترجمة بحث واشنطن ايرفينغ حول الحضارة الإسلامية في الأندلس «الحمراء»، دار الإنماء الحضاري، حلب، ١٩٩٦ م.

١٢ ـ الوجود والموت والخلود، دار القلم بيروت، عام ١٩٩٦ م.

١٣ ـ الحب والفاجعة، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٩ م.

١٤ ـ ذهنية الإلغاء، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٨ م.

15 - The History of the Prophet Muhammad, Dar Al-Arkam Beirut, 1998.

١٦ ـ الفكر والوعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، عام ١٩٩٨.

١٧ ـ الميتافيزياء والواقع، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، عام ١٩٩٨.

١٨ ـ ترجمة بحث واشنطن ايرفنغ،محمد وخلفاؤه، المركز الثقافي العربي، بيروت والدر البيضاء، عام ١٩٩٩م.